لجنة التأليف والترجمة والنشر

رسائل البلغاء

اختيار وتصنيف الأستاذ

محمد كرد على
رئيس المجمع العلمى بدمشق

الطبعة الثالثة

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

Kurd
Rasa'il

لجنة التأليف والترجمة والنشر

رسائل البلغاء

اختيار وتصنيف الأستاذ

محمد كرد علي
رئيس المجمع العلمي بدمشق

الطبعة الثالثة

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

مضى على الطبعة الأولى من هذه الرسائل سبع وثلاثون سنة ، طبعت خلالها طبعة ثانية فى سنة ١٣٣١ — ١٩١٣ ، وها هى ذى الطبعة الثالثة .

وكنت أود الاقتصار فى هذه على نشر ما نشرته من آثار ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وغيرهما ، وأن أحذف منها بعض مالم يكتب على طريقتهما فى البيان ، فشفع لها كونها فى موضوعات لا تخلو من طرافة .

وقد أضفت إلى هذه الطبعة يتيمة السلطان ، ثم رسالة « قانون البلاغة » لأبى طاهر محمد بن حيدر البغدادى المتوفى سنة ٥١٧ هـ وهى مما نشره المجمع العلمى العربى فى المجلد السابع من مجلته ، وشفعتها بما نشره فى هذه المجلة الأستاذ عبد العزيز الميمنى الراجكوتى الهندى من كتاب جاويذان خِرد . وأتبعت ذلك بما نشرته فى المجلد الرابع من مجلة المجمع أيضاً من رسالة «تهذيب الأخلاق» ليحيى بن عدى ، وكان بعض القدماء نحلها للجاحظ . وأتبعت حكم ابن المقفع المنقولة من كتاب الأدب بحكم أخرى له جاءت فى مخطوط كتب سنة ٥٥٧ هـ ذكر فيه أنه كتاب « الأدب الصغير » لأبى عمرو عبد الله محمد بن المقفع ، ثم بيتيمة له . وشرحت ما فاتنى وفات غيرى التعليق عليه فى الطبعتين الأوليين ، وكان الأستاذ سليم البخارى شرح بعض المغلق من الرسائل .

وحذفت من هذه الطبعة ترجمة عبد الله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيى الكاتب ، إذ لم يبق محل للترجمتين بعد أن توسعت فى الكلام عليهما فى كتابى « أمراء البيان » . ووصفت أشياء كثيرة أعان عليها ما طبع بأخرة من الكتب المخطوطة ، أو ما عثرت عليه فى مخطوطات ، مثل ترجمة الحكيم صالح بن جناح ، أخذتها من مخطوطة ابن عساكر ، ومثل أشياء عارضت عليها نصوصنا ، مثل رواية نصيحة ولى العهد ، عارضتها على الأعشى للقلقشندى . والله المسئول أن ينفع بهذه الرسائل قراء العربية بمنه ويمنه .

جسرين (غوطة دمشق) { ١٥ ذو الحجة ١٣٦٣
٣٠ تشرين الثانى ١٩٤٤

محمد كرد على

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله وبه ثقتى

نشرت القسم الأول من رسائل البلغاء، وفيه ما عرف لعبدِ الله بن المقفع وعبد الحميد ابن يحيى الكاتب من الرسائل والحكم، لأول مرة سنة ١٣٢٦ هجرية، فوقعت موقع الاستحسان من رجال العلم والأدب، وجهابذة الذوق السليم فى كلام العرب، وأقبل المتأدبون عليها حتى نفد المطبوع منها فى مدة وجيزة. وها قد صحت العزيمة الآن على إعادة طبعها فى هذا المظهر مضافا إليها ثمان رسائل نادرة جعلت القسم الثانى من الرسائل، وكانت نشرت أيضا فى سنى مجلة المقتبس السبع الأولى، منها ما نشره كاتب هذه السطور والآخر لبعض مؤازرى هذه المجلة من الأعلام.

وقد نظر الأستاذ سليم أفندى البخارى الدمشقى فى رسالة الأدب الصغير واليتيمة لابن المقفع وعلق عليها حواشى، وفوائد معظم الحواشى التى عليها هى له. وعارضت الأدب الصغير على الطبعة التى نشرها منها فى العام الماضى الأستاذ أحمد زكى باشا المصرى، معتمداً فيها على مخطوطين منها عثر عليهما فى إحدى مكاتب الاستانة، وأثبت فى الهامش الاختلاف بين النسخة البعلبكية والنسخة الاستانبولية. أما الرسائل الأخرى فإن الرسالة العذراء لابن المدبر ورسالة ابن القارح هما مما أسعدنى الحظ بنشره. ورسالة ملقى السبيل لأبى العلاء المعرى ورسائل الانتقاد لابن شرف القيروانى، نشرهما الأستاذ السيد حسن حسنى عبد الوهاب التونسى. وكتاب العرب فى الرد على الشّعوبية لابن قتيبة، نشره الأستاذ الشيخ جمال الدين القاسمى الدمشقى. ورسالة رشيد الدين الوطواط والمنتخب من عهد اردشير فى السياسة، نشرهما الأستاذ أحمد باشا تيمور المصرى. وكتاب الأدب والمروءة لابن جناح الربعى، نشره الأستاذ الشيخ طاهر الجزائرى الدمشقى.

ورجائى أن تحل هذه المجموعة من نفوس عشاق البلاغة محلها من القبول اللائق بها ، فهى خير مثال ينسج عليه من تسمو به الهمة إلى الأخذ بمذاهب أئمة الإنشاء . لا جرم إن من يلقى نظرة تدبر على رسائل البلغاء يحكم بأنها أوراق قليلة ، تغنى عن أسفار طويلة ، وكم من سطور أغنت عن كتب . وإن من يُكتب له تدبّر ما جاء فيها جدّ التدبر تكفيه فى احكام الأسلوب العربى ، وتلقنه شطراً صالحاً من الحكمة العالية التى لا يبلى جديدها ، ففيها مادة للدرس ، وأخرىً لإصلاح النفس .

نفع الله بها من يحرصون على تحسين ملكاتهم العربية ، والاحتفاظ بأخلاقهم القومية ، وييسر للباحثين المحققين إحياء غيرها من آثار الماضين بحوله وطوله .

القاهرة فى ٩ شوال سنة ١٣٣٠ — ٢٠ سبتمبر سنة ١٩١٢

محمد كرد على

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

(كلمات للناشر)

خير ما يخرج لطلاب الآداب العربية فى هذا العهد كلام أئمة البلاغة من أهل القرون الأولى . وقد وقع الإجماع على أن عبد الله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيى الكاتب كانا من زعماء هذا الشأن ، وأن أسلوبهما أحسن أسلوب فى احكام ملكة البيان .

كانت حكم ابن المقفع أول ما كتب لى الوقوف عليه من رسائل هذين الإمامين ، عثرت عليها فى قسم المجاميع (عدد ١١٩) بدار الكتب المصرية فى مجموع كتب سنة ٨٤٤ فنشرتها فى مجلة المقتبس ، ثم نشر فيه أستاذى العلامة العامل الشيخ طاهر الجزائرى كتاب الأدب الصغير لابن المقفع أيضا ، ظفر به فى مجموع عند أحد أعيان بعلبك من بلاد الشام .

ووفقت على الأثر فى كتاب المنثور والمنظوم لأحمد بن أبى طاهر طيفور المحفوظ فى قسم علم الأدب بدار الكتب المصرية (عدد ٥٨١) المنقول عن نسخة محفوظة فى إحدى مكاتب المدينة ، إلى العثور على رسالة لابن المقفع فى الصحابة ، ولعلها رسالته المشهورة فى السياسة ، وعلى رسالة له سماها اليتيمة ، وعلى رسالة لعبد الحميد الكاتب فى ولى العهد وتعبية الجيش ، إلى غير ذلك من الرسائل البديعة التى أوردها صاحب المنثور والمنظوم لهذين الكاتبين . فنشرتها كلها وأضفت إليها الدرة اليتيمة لابن المقفع ، ورسالة عبد الحميد إلى الكتاب ، وما أثر لهذا من رسائل صغيرة قليلة .

ولغلبة التحريف على كتاب المنثور والمنظوم اضطررت مرة إلى حذف جمل برمتها والإشارة إليها ، أو أبقيتها على علاتها وأشرت إليهـا بعلامة استفهام ، إذا كان يفهم مع التحريف حاصل المعنى ، إلا أن الغلط وقع فى الأكثر فى رسـالة الصحابة وولى العهد واليتيمة الثانية .

وكنت أود لو قيض لى الرجوع إلى الأصل الذى نقلت عنه نسخة المنثور والمنظوم لأعارض عليها ما أنشره اليوم فى هذا المجموع ، عسانى أسقط فيها على ما فات الناسخ الثانى ، ولعل ما تعذر علىّ إثبات صحته من عبارات ذينك الصدرين المقدمين يتيسر لغيرى من الباحثين العارفين ، فيرشدونى إلى أصل آخر أو يهتدون إلى وجه الصواب فى هذا الـكلم الطيب .

وإنى لأرجو أن تكون هـذه الأوراق خير مثال يحتذيه المتأدبون فى كتابتهم ، وأن يقع فيه المشتغلون بتاريخ الشرق واجتماعه على ما يتمم بعض الأحكام على الحضارة العربية ، وأن يستخدمها الدعاة لإصلاح الأخلاق خير ذريعة يعالجون بها أدواء النفوس ، فيكون منها عموم النفع كلما كررتها ألسن الأيام ، وكرت عليها الأعوام والأيام .

القاهرة فى ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٢٦ وفى ٢٩ مايو سنة ١٩٠٨

محمد كرد على
منشىء المقتبس

الأدب الصغير

لابن المقفع

نشره الأستاذ الشيخ طاهر الجزائرى

ملاحظة : عرضت هذه الطبعة على طبعة المرحوم أحمد زكى باشا (١٣٢٩ — ١٩١١) .
وقد رمزنا إليها بالحرف (خ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة للناشر

من أعظم ما تدعو الحاجة إليه علم تهذيب الأخلاق لتوقف نجاح الأمم عليه . وهو فن ذو أفنان تحتاج إليه الأفراد على اختلاف طبقاتها ، ومع قلة ما انتشر من كتبه ، في جلها من عدم التنقيح ، وانسجام العبارات ، ما يصد كثيراً من الطالبين عن الإقبال عليها . ومن ثمّ كثر بحثنا عن كتب تفي بهذا المطلب ، مع رشاقة مبانيها ، لتكون الفائدة مزدوجة ، وهو أقصى آمال الذين يسعون في إحياء اللغة العربية ، وإعادتها إلى ما كانت عليه في عهدها الأول .

ولما ذهبت إلى مدينة بعلبك سنة ١٢٢٣ رأيت عند بعض الأفاضل الواردين عليها مجموعا استعاره من بعض أعيانها ، فرأيت فيه الضالة المنشودة ، وهي رسالة الأدب الصغير لعبد الله بن المقفع ، الكاتب الذي يضرب ببلاغته المثل ، فكتبتها بخطي في نحو يوم ، وأرجو أن ييسر لنشرها من عرف بحسن الطبع ، ليعم بها النفع ، والله الموفق .

وهذا بيان الرسائل التي في المجموع المذكور :

١ — كتاب عجائب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه . وهو في نحو ثلاث كراسات . يشتمل على ما نقل عنه من بدائع الأحكام .

٢ — ذكر الخلائف وعنوان المعارف . تأليف الصاحب أبي القاسم إسماعيل بن عباد . أوله : « الحمد لله الواحد العدل ، وصلى الله على النبي وخيرة الأهل ، قد أسعفتك بالمجموع الذي التمسته في نسب النبي عليه السلام ، وبنيه وبناته ، وأعمامه وعماته ، وجمل من غزواته ، وسائر ما يتصل بذلك » . وهو اثنتا عشرة ورقة . وفي آخره : « وكتب في رجب سنة عشرين وأربعمائة » .

٣ — رسالة إلى أحمد بن أبى دُواد ، فى فضل العلم . وهى ٣ أوراق ، وفى آخرها : « وكتب فى شهر ربيع الأول سنة عشرين وأربعمائة » .

٤ — ويتلوها كتاب الأدب الصغير الذى نقلناه . وهو فى الصفحة اليسرى من آخر ورقة من الرسالة السابقة بخط كاتب واحد . فتكون كتابتها فى التاريخ المذكور ، ولم يذكر فى آخرها تاريخ .

٥ — ويتلوه كتاب « ذخائر الحكمة » . تأليف أبى بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى . وهو فى نحو ثلاث وعشرين ورقة .

٦ — مختصر من « كتاب جاويدان خرد ، فى حكم الفرس والهند والروم والعرب » . تأليف أحمد بن مسكويه . وهو فى أكثر من كراس .

بسم الله الرحمن الرحيم

[قال ابن المقفع] (١) :

أَمَّا بَعْدُ ، فإنَّ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ حاجَةً (٢) ، ولِكُلِّ حاجَةٍ غايَةً ، ولِكُلِّ غايَةٍ سَبِيلًا ، واللهُ وَقَّتَ للأُمُورِ أَقْدَارَهَا ، وهَيَّأَ إلى الغاياتِ سُبُلَها ، وسَبَّبَ الحاجاتِ بِبَلاغِها . فغايَةُ النَّاسِ وحاجاتُهُم صَلاحُ المَعاشِ والمَعادِ ، والسَّبِيلُ إلى دَرْكِها (٣) العَقْلُ الصَّحِيحُ . وأَمارَةُ (٤) صِحَّةِ العَقْلِ اخْتِيارُ الأُمُورِ بالبَصَرِ ، وتَنْفِيذُ البَصَرِ بالعَزْمِ (٥) . ولِلْعُقُولِ سَجِيَّاتٌ وغَرَائِزُ (٦) بِهَا تَقْبَلُ الأَدَبَ (٧) ، وبالأَدَبِ تَنْمَى (٨) العقولُ وتَزْكُو .

---

(١) التكملة من خ .

(٢) الحاجة : المأربة . والحاجة : الاحتياج . والغاية : مدى الشيء ونهايته ، وجمعها غايات وغاى . والسبيل : الطريق ، يذكر ويؤنث ، ويجمع على سبل (بضمتين) . والتوقيت : تحديد الأوقات ، وكل شيء قدرت له حينا فقد وقته توقيتا ، وكذلك ما قدرت له غاية . والوقت : مقدار من الزمان مفروض لأمر ما . والأمور : جمع أمر ، بمعنى الحال والشأن . وهيأ : بمعنى أصلح وأعد . والأقدار : جمع قدر (بفتح الدال وسكونها) ، وقدر الشيء : مبلغه . والقدر (أيضاً) : ما يقدره الله تعالى من القضاء ويحكم به من الأمور ، ذكره ابن سيده . وفى الأساس : والأمور تجرى بقدر الله ومقداره وتقديره وأقداره ومقاديره . فقوله : « وقت للأمور أقدارها » معناه أنه تعالى جعل لهذه الحاجات أوقاتا محدودة لا تتعداها ، بمعنى أنه خصص لكل حاجة وقتاً معيناً محدوداً ، وحالا مخصوصاً لا يكاد يجاوزه ، كما قال تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) .

(٣) الدرك : (بفتح الراء وسكونها) : الإدراك .

(٤) الأمارة (بالفتح) : العلامة .

(٥) تنفيذ البصر ، أى إمراره وإمضاؤه . والعزم : عقد الضمير على فعل الشيء .

(٦) سجيات : جمع سجية . والغرائز : جمع غريزة . والسجية والغريزة والسليقة ، بمعنى الطبيعة .

(٧) فى اللسان : « الأدب الذى يتأدب به الأديب من الناس ، سمى أدبا لأنه يأدب الناس إلى المحامد ، وينهاهم عن القبائح ، وأصل الأدب الدعاء ، والأدب الظرف وحسن التناول » . وفى المصباح : « أدبته أدباً ، من باب ضرب : علمته رياضة النفس ومحاسن الأخلاق . قال أبو زيد : الأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان فى فضيلة من الفضائل ، فالأدب اسم لذلك ، والجمع آداب . وذكر القرطبى فى تفسيره : أن الخلق فى اللغة هو ما يأخذ الإنسان به نفسه من الأدب ، لأنه يصير كالخلقة فيه ، فأما ما طبع عليه من الأدب فهو الخيم ، وهو بالكسر ، السجية والطبيعة . لا واحد له من لفظه ، فيكون الخلق الطبع المتكلف ، والخيم الطبع الغريزى » .

(٨) أى تكثر ، من باب رمى يرمى . وتزكو ، بمعناه أيضا .

فكما أنّ الحبّة المدفونة فى الأرض لا تقدر[١] على أن تخلع يبسها ، وتظهر قوّتها ، وتطلع فوق الأرض بزهرتها ونضرتها وريعها ونمائها ، إلّا بمعونة الماء الذى يغور إليها فى مستودعها[٢] ، فيذهب عنها أذى اليبس والموت ، ويحدث لها بإذن الله القوّة والحياة ؛ فكذلك سليقة العقل مكنونة فى مغرزها[٣] من القلب ، لا قوّة لها ، ولا حياة بها ، ولا منفعة عندها ، حتّى يعتملها[٤] الأدب الذى هو نماؤها[٥] ، وحياتها ولقاحها . وجلّ الأدب بالمنطق[٦] ، وكل[٧] المنطق بالتعلّم ، ليس حرف من حروف معجمه ، ولا اسم من أنواع أسمائه ، إلا وهو مروىّ متعلّم ، مأخوذ عن إمام سابق من كلام أو كتاب ؛ وذلك دليل على أنّ الناس لم يبتدعوا[٨] أصولها ، ولم يأتهم علمها إلّا من قبل العليم الحكيم .

فإذ[٩] خرج النّاس من أن يكون لهم عمل ، وأن يقولوا قولًا بديعًا ، فليعلم الواصفون المخبرون أنّ أحدهم ، وإن أحسن وأبلغ ، ليس زائدًا على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتًا وزبرجدًا ومرجانًا فنظمه قلائد وسموطًا وأكاليل[١٠] ، ووضع كلّ فصّ موضعه ، وجمع إلى كلّ لون شبهه ، ممّا يزيده بذلك حسنًا ؛ فسمّى بذلك صائغًا[١١] رفيقًا[١٢] . وكصاغة[١٣] الذّهب والفضّة صنعوا منها ما يعجب النّاس من

---

(١) فى خ : « لا تقدر أن تخلع » .
(٢) النضرة : الحسن والرونق . والريع : النماء والزيادة . والمستودع : المكان الذى وضعت الحبة فيه .
(٣) المغرز (بالكسر) : المكان الذى غرزت وأثبتت فيه .
(٤) الاعتمال : افتعال من العمل ، يفيد معنى الاضطراب والحركة فيه .
(٥) فى خ : « ثمارها » . (٦) مصدر ميمى ، ويراد به هنا الحاصل بالمصدر ، وهو الكلام .
(٧) فى خ : « وجل » . (٨) البديع : المخترع الذى لم يسبق له مثال .
(٩) فى خ : « فإذا » .
(١٠) الفصوص : جمع فص ، وهو حجر الخاتم . والقلائد : جمع قلادة (بالكسر) ، وهو الطوق الذى يعلق فى العنق . والسموط : جمع سمط (بالكسر) ، وهو القلادة . والأكاليل : جمع إكليل (بالكسر) ، وهو شبه عصابة تزين بالجواهر . والإكليل ، أيضاً ، التاج .
(١١) فى خ : « صانعا » . (١٢) الرفيق : ضد الأخرق . والأخرق : هو الذى لا يحسن العمل .
(١٣) صاغة : جمع صائغ ، وزان كملة وكامل ، وهو الذى يهيئ الذهب والفضة على مثال مستقيم ، وحرفته الصياغة .

الحُلِيِّ[١] والآنيةِ . وكالنَّحْلِ وَجَدَتْ ثَمَرَاتٍ أخرجها اللهُ طَيِّبةً ، وسَلَكَتْ سُبُلاً جعلها اللهُ ذُلُلاً[٢] ، فَصَارَ ذلكَ شِفَاءً وطَعَامًا وشَرَابًا مَنْسُوبًا إليها ، مَذْكُورًا بِهِ أَمْرُها وصَنْعَتُها .

فَمَنْ جَرَى على لِسانِهِ كَلامٌ يَسْتَحْسِنُهُ أو يُسْتَحْسَنُ منهُ ، فلا يُعْجَبَنَّ[٣] به إعجابَ المُخْتَرِعِ المبتَدِعِ ، فإنَّهُ إنَّما اجْتَباهُ[٤] كما وصَفْنا . ومَنْ أَخَذَ كلامًا حَسَنًا عن غَيْرِهِ فَتَكَلَّمَ بِهِ فى مَوْضِعِهِ على وَجْهِهِ ، فلا يُرَيَنَّ[٥] عليهِ فى ذلكَ ضُؤُولَةً[٦] ؛ فإنَّهُ مَنْ أُعِينَ على حِفْظِ قَوْلِ[٧] المُصِيبِينَ ، وهُدِيَ للاقْتِداءِ بالصَّالِحِينَ ، ووُفِّقَ للأَخْذِ عَنِ الحُكَماءِ ، ولا[٨] عليهِ أن لا يَزْدادَ فقَدْ بَلَغَ الغايةَ . ولَيْسَ بِناقِصِهِ فى رَأْيِهِ ، ولا بِغائِضِهِ[٩] مِنْ حَقِّهِ ، أنْ لا يَكُونَ هُوَ اسْتَحْدَثَ ذلكَ وسَبَقَ إليهِ .

وإنَّما إحياءُ[١٠] العَقْلِ الذى يَتِمُّ بِهِ ويَسْتَحْكِمُ خِصالٌ سِتٌّ : الإيثارُ[١١] بالمَحَبَّةِ ، والمبالَغَةُ فى الطَّلَبِ ، والتَّثَبُّتُ فى الاخْتِيارِ ، والاعْتِقادُ[١٢] للخَيْرِ ، وحُسْنُ الوَعْيِ[١٣] ، والتَّعَهُّدُ لِما اخْتِيرَ واعْتُقِدَ ، ووَضْعُ ذلكَ مَوْضِعَهُ قَوْلاً وعَمَلاً .

أمَّا المَحَبَّةُ ، فإنما يَبْلُغُ[١٤] المَرْءُ مَبْلَغَ الفَضْلِ فى كلِّ شَىْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنيا والآخِرَةِ ،

---

(١) الحلى : ما تتزين به المرأة من مصوغ المعدنيات أو الحجارة ، واحده حلى . والآنية : جمع إناء ، كوعاء ، وزناً ومعنى .

(٢) جمع ذلول ، وهو السهل اللين الذى ليس بصعب .

(٣) بالبناء للمجهول . يقال : أعجب زيد بنفسه ، بالبناء للمجهول أيضاً ، إذا ترفع وتكبر .

(٤) اجتباه : اصطفاه واختاره . وفى خ : « اجتناه » .

(٥) فى خ : « وعلى وجه فلا ترين » .

(٦) الضؤولة : مصدر ضؤل رأيه يضؤل ، من باب كرم يكرم ، إذا فال ، والضؤولة : الهزال والنحافة .

(٧) فى ح : « كلام » . (٨) كذا فى خ . وفى الأصل : « فلا » .

(٩) عطف تفسير لناقصه ، اسم فاعل من غاض الشىء يغيض ، أى نقص ، يستعمل لازما ومتعديا . وفى خ : « ولا غامطه » .

(١٠) كذا فى خ . وفى الأصل : « حياة » .

(١١) مصدر آثر ، بمعنى أكرم وفضل واختار .

(١٢) فى خ : « الاعتياد » .

(١٣) الوعى : الحفظ . والتعهد : التحفظ . وفى خ : « الوعى والتعهد » .

(١٤) فى خ : « فإنها تبلغ » .

حِينَ يُؤْثِرُ بمَحَبَّتِهِ ، فلا يَكُونُ شَيْءٌ أمْرَأَ[١] ولا أحْلَى عندَهُ منهُ .

وأمَّا الطَّلَبُ ، فإنَّ الناسَ لا يُغْنِيهِمْ حُبُّهُمْ مايُحِبُّونَ ، وهَوَاهُمْ ما يَهْوَوْنَ ، عَنْ طَلَبِهِ وابْتِغائِهِ ، ولا يُدْرِكُ لَهُمْ بُغْيَتَهُمْ نَفاسَتَها[٢] فى أنْفُسِهِمْ دُونَ الجِدِّ والعَمَلِ[٣] .

وأمَّا التَّثَبُّتُ والتَّخَيُّرُ ، فإنَّ الطَّلَبَ لا يَنْفَعُ إلاّ مَعَهُ وبهِ . فَكَمْ مِنْ طالِبِ رُشْدٍ وَجَدَهُ والغَيَّ مَعاً ، فاصْطَفَى منهُما الذى منهُ هَرَبَ ، وألْغَى الذى إليهِ سَعَى[٤] . فإذا كانَ الطالِبُ يَحْوِى غيرَ مايُرِيدُ ، وهوَ لا يَشُكُّ بالظَّفَرِ ، فَما أحَقَّهُ بِشِدَّةِ التَّبَيُّنِ ، وحُسْنِ الابْتِغاءِ .

وأمَّا اعْتِقادُ الشَّىْءِ بعدَ اسْتِبانَتِهِ ، فَهُوَ ما يُطْلَبُ مِنْ إحْرازِ الفَضْلِ بعدَ مَعْرِفَتِهِ .

وأمَّا الحِفْظُ والتَّعَهُّدُ، فَهُوَ تَمامُ الدَّرْكِ ؛ لِأنَّ الإنسانَ مُوَكَّلٌ بهِ النِّسْيانُ والغَفْلَةُ . فلا بُدَّ لَهُ إذا اجْتَبَى[٥] صَوابَ قَوْلٍ أوْ فِعْلٍ مِنْ أنْ يَحْفَظَهُ عليهِ ذِهْنُهُ لِأوانِ حاجَتِهِ .

---

(١) اسم تفضيل من مرؤ الطعام يمرؤ مراءة ، صار مريئاً ، أى هنيئاً حميد المغبة لايثقل على المعدة ، بل ينحدر عنها طيباً .

(٢) فى خ : « ولا تدرك ... تنافسها » .

(٣) حبهم ، مصدرمضاف إلى فاعله . وما ، اسم موصول ، بمعنى الذى ، محله النصب ، مفعول المصدر . ومثله : وهواهم ما يهوون . والضمير فى «طلبه» راجع إلى «ما» فى الموضعين . وقوله «وابتغائه» هو بمعنى الطلب أيضاً . والادراك : اللحاق . والبغية (بضم الباء وكسرها) : الحاجة . والضمير فى « نفاستها» راجع للبغية . ونفاستها ، فاعل « لا يدرك » قدم المفعول عليه لاتصال ضميره به . وقوله « دون الجد والعمل » حال من فاعل « يدرك » أو استثناء منقطع . والمعنى لا يدرك لهم بغيتهم نفاستها حال كونها مجاوزة الجد والعمل لهم . أولا يدرك ذلك غيرالجد والعمل . لكن الجد والعمل هوالذى يدرك لهم بغيتهم . قال أبوالبقاء : دون ، ظرف مكان ، مثل : عند ، لكنه ينبئ عن دنو ، أى قرب كثير وانحطاط قليل ، يوجد كلاهما فى قولهم : أدنى مكان من الشىء . ثم اتسع فيه ، واستعمل فى انحطاط محسوس لا يكون فى المكان ، كقصر القامة مثلا ، ثم استعير منه للتفاوت فى المراتب المعنوية تشبيهاً لها بالمراتب المحسوسة . وشاع استعماله فيها أكثر من استعماله فى الأصل ، فقيل : زيد دون عمرو فى الشرف . ثم اتسع فى هذا المستعار ، فاستعمل فى كل تجاوز حد وتخطى حكم إلى حكم ، وإن لم يكن هناك تفاوت وانحطاط ، وهو فى هذا المعنى مجاز فى المرتبة الثالثة ، وبهذا المعنى قريب من أن يكون بمعنى غير ، كأنه أداة الاستثناء نحو : لا تتخذوا من دونه أولياء .

(٤) الرشد : الصلاح ، وهو إصابة الصواب ، ضد الغى ، وهو الضلال والخيبة . والغى ، منصوب معطوف على ضمير «وجده» البارز . واصطفى ، بمعنى اختار ، أى اختار من الرشد والغى الذى منه هرب لا من غيره ، وهو الغى ، وألغى أى ألقى وأبطل الذى إليه لا إلى غيره سعى ، وهوالرشد ، وسبب ذلك عدم التثبت .

(٥) أى اصطفى .

وأمَّا البَصَرُ بالموْضِعِ ، فإنما تَصِيرُ المَنافِعُ كلُّها إلى وَضْعِ الأشْياءِ مَوَاضِعَها .

وبِنا إلى هذا كُلِّهِ حاجَةٌ شَدِيدَةٌ . فإننا لَمْ نُوضَعْ فى الدُّنْيا مَوْضِعَ غَناءٍ وخَفْضٍ ، ولَكِنْ مَوْضِعَ فاقَةٍ وكَدٍّ[1] .

ولَسْنا إلى ما يُمْسِكُ بأرْماقِنا[2] مِنَ المَطْعَمِ والمَشْرَبِ بأحْوَجَ مِنَّا إلى ما يُثَبِّتُ عُقُولَنا مِنَ الأَدَبِ الذى بهِ تَفاوُتُ العُقُولِ . ولَيْسَ غِذاءُ الطَّعامِ بأسْرَعَ فى نَباتِ الجَسَدِ مِنْ غِذاءِ الأَدَبِ فى نَباتِ العَقْلِ . ولَسْنا بالكَدِّ فى طَلَبِ المَتاعِ[3] الذى يُلْتَمَسُ بهِ دَفْعُ الضُّرِّ والعَيْلَةِ[4] بأحَقَّ مِنَّا بالكَدِّ فى طَلَبِ العِلْمِ الذى يُلْتَمَسُ بهِ صَلاحُ الدِّينِ والدُّنْيا .

وقدْ وَضعْتُ فى هذا الكِتابِ مِنْ كَلامِ النَّاسِ المَحْفُوظِ حُرُوفًا[5] ، فيها عَوْنٌ على عِمارَةِ القُلُوبِ وصِقالِها وتَجْلِيَةِ أبْصارِها ، وإحْياءٌ لِلتَّفْكِيرِ ، وإقامَةٌ لِلتَّدْبِيرِ ، ودَليلٌ على مَحامِدِ الأُمُورِ ، ومَكارِمِ الأخْلاقِ ، إنْ شاءَ اللهُ .

***

الوَاصِفُونَ أكْثَرُ مِنَ العارِفِينَ ، والعارِفُونَ أكْثَرُ مِنَ الفاعِلِينَ .

فَلْيَنْظُرِ امْرُؤٌ أيْنَ يَضَعُ نَفْسَهُ ؛ فإنَّ لِكُلِّ امْرِئٍ لَمْ تَدْخُلْ عليهِ آفَةٌ نَصِيبًا مِنَ اللُّبِّ[6] يَعِيشُ بهِ لا يُحِبُّ أنَّ لَهُ بهِ مِنَ الدُّنْيا ثَمَنًا . ولَيْسَ كُلُّ ذِى نَصِيبٍ مِنَ اللُّبِّ بمُسْتَوْجِبٍ أنْ يُسَمَّى فى ذَوِى الألْبابِ ، ولا أنْ يُوصَفَ بصِفاتِهِمْ .

فمَنْ رَامَ أنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ لِذَلِكَ الاسْمِ والوَصْفِ أهْلاً ، فَلْيَأْخُذْ لَهُ عَتادَهُ[7] ،

(١) كذا فى الأصل ، والغناء : (بالمد والفتح) الغنى . وفى خ : « غنى » . والخفض : السعة فى العيش . والفاقة : الفقر . والكد : الشدة فى العمل وطلب الكسب .

(٢) الأرماق : جمع رمق (بفتحتين) : بقية الحياة .

(٣) ما يتمتع به من الحوائج . (٤) العيلة : الفقر . وفى خ : « دفع الضرر والغلبة » .

(٥) للحرف عدة معان ، منها : الطرف وحروف الهجاء والناقة الضامرة ، ويستعمل فى معنى الكلمة ، وهو المراد هنا .

(٦) اللب (بالضم) : العقل ، وجمعه ألباب ، ولم يذكر فى القرآن إلا جمعه .

(٧) العتاد (كسحاب) : العدة (بالضم) . يقال : أخذ للأمر عتاده ، وهو ما أعده من السلاح والدواب وآلة الحرب .

وليمدَّ لهُ طولَ أيامِهِ ، وليؤثرهُ على أهوائِهِ ؛ فإنَّهُ قد رامَ أمرًا جسيمًا لا يصلحُ على الغفلةِ ، ولا يُدركُ بالمعجزةِ (١) ، ولا يصيرُ على الأثرةِ . وليسَ كسائرِ أمورِ الدُّنيا وسلطانِها ومالِها وزينتِها التي قد يُدركُ منها المتواني (٢) ما يفوتُ المثابرَ ، ويصيبُ منها العاجزُ ما يُخطئُ الحازمَ .

وليعلمْ أنَّ على العاقلِ (٣) أمورًا إذا ضيَّعها حكمَ عليهِ عقلُهُ بمقارنةِ الجهَّالِ . فعلى العاقلِ أنْ (٣) يعلمَ أنَّ النَّاسَ مشتركونَ ، مستوونَ في الحبِّ لما يوافقُ ، والبغضِ لما يؤذي ، وأنَّ هذهِ منزلةٌ اتفقَ عليها الحمقى (٤) والأكياسُ ، ثمَّ اختلفوا بعدَها في ثلاثِ خصالٍ ، هنَّ جماعُ الصَّوابِ وجماعُ الخطأِ ، وعندهنَّ تفرَّقتِ العلماءُ والجُهَّالُ ، والحزمةُ والعجزةُ (٥) .

* * *

الباب الأول — من ذلك : أنَّ العاقلَ ينظرُ فيما يؤذيهِ وفيما يسرُّهُ ، فيعلمُ أنَّ أحقَّ ذلكَ بالطَّلبِ ، إنْ كانَ مما يحبُّ ، وأحقَّهُ بالاتقاءِ ، إنْ كانَ مما يكرهُ ، أطولُهُ (٦) وأدومُهُ وأبقاهُ . فإذا (٧) هوَ قدْ أبصرَ فضلَ الآخرةِ على الدُّنيا ، وفضلَ سرورِ المروءةِ على لذَّةِ الهوى ، وفضلَ الرَّأيِ الجامعِ العامِّ الذي تصلحُ بهِ الأنفسُ والأعقابُ على حاضرِ الرَّأيِ الذي يُستمتعُ بهِ قليلاً ثمَّ يضمحلُّ ، وفضلَ الأكلاتِ على الأكلةِ ، والسَّاعاتِ على السَّاعةِ .

(١) المعجزة ، أى العجز . والأثرة (بفتحات) : الاستبداد بالأمر وترك المشورة والاستخارة ، ولها معان أخر .

(٢) المتوانى : المقصر ، والمثابر : المواظب . والحازم الضابط لأمره الآخذ بالثقة . والمعنى أن العاجز الضعيف قد يدرك من الدنيا ما لا يدركه الحازم .

(٣) كذا فى خ . وفى الأصل : « العامل » .

(٤) الحمقى : جمع أحمق ، وهو فاسد العقل . والأكياس : جمع كيس ، اسم فاعل ، وزان جيد وأجياد ، وهو ضد الأحمق .

(٥) جماع الشىء : (بالكسر) ، جمعه . والحزمة ، جمع حازم . والعجزة : جمع عاجز .

(٦) خبر : «أن» فى قوله : أن أحق ذلك بالطلب .

(٧) إذا ، هنا للمفاجأة ، فتختص بالجملة الاسمية ولا تحتاج لجواب ولا تقع فى ابتداء الكلام ، ومعناها الحال . كذا فى القاموس .

الباب الثانى — أنْ يَنظُرَ فيما يُؤثِرُ منْ ذلكَ ، فيَضعَ الرّجاءَ والخوْفَ فيهِ مَوْضِعَهُ . فلا يجْعَلُ اتّقاءهُ لِغيْرِ المَخُوفِ ، ولا رَجاءهُ فى غيْرِ المُدْرَكِ ؛ فيَتْرُكُ[١] عاجلَ اللّذّاتِ طَلبًا لِآجِلِها ، ويحْتمِلَ قَرِيبَ الأذَى توَقّيًا لِبَعِيدِه ، فإذا صارَ إلى العاقِبَةِ بَدَا لَهُ أنَّ فِرارَهُ كانَ تورُّطا[٢] ، وأنَّ طَلَبَهُ كانَ تنَكُّبًا[٣] .

الباب الثالث[٤] — هوَ تنفِيذُ البَصَرِ بالعَزْمِ بعدَ المعرِفَةِ بِفَضْلِ الذِى هُوَ أدْوَمُ ، وبعْدَ التّثَبُّتِ فى مَوَاضِعِ الرّجاءِ والخوْفِ ؛ فإنَّ طالِبَ الفضْلِ بِغيْرِ بصَرٍ تائِهٌ حَيْرانُ ، ومُبْصِرَ الفضْلِ بِغيْرِ عزْمٍ ذُو زَمانَةٍ[٥] مَحْرُومٌ .

وعلى العاقِلِ مُخاصمَةُ نفْسِهِ ، ومُحاسَبَتُها ، والقَضاءُ عليها ، والإثابَةُ[٦] لَها ، والتّنْكِيلُ بِها .

أمّا المُحاسَبَةُ ، فيُحاسِبُها بمَالِهَا ؛ فإنّهُ لا مالَ لها إلّا أيّامُها المَعْدُودَةُ الّتى ما ذهَبَ منْها لَمْ يُسْتَخْلَفْ كما تُسْتَخْلَفُ النّفَقَةُ ، وما جُعِلَ منها فى الباطِلِ لَمْ يَرْجِعْ إلَى الحَقّ . فيَتَنَبَّهُ لِهذِهِ المُحاسَبَةِ عندَ الحوْلِ إذا حَالَ ، والشّهْرِ إذا انقضَى ، واليَوْمِ إذا وَلَّى ، فيَنْظُرُ فِيما أفْنَى مِنْ ذلِكَ وما كَسَبَ لِنفْسِهِ فيهِ ، وما اكْتَسَبَ[٧] عليها فى أمْرِ الدِّينِ وأمْرِ الدُّنيا ، فيَجْمَعُ ذلكَ فى كِتابٍ فيهِ إحْصاءٌ وجِدٌّ[٨] ، وتَذْكِيرٌ[٩] وتَبْكِيتٌ[١٠] لِلنّفْسِ ، وتَذْلِيلٌ لَها ، حَتّى تَعْترِفَ وتُذْعِنَ .

---

(١) فى خ : «فيتوقى» . (٢) أى وقوعا فى أمر شاق يعسر التخلص منه .
(٣) أى تجنبا وعدولا عن منهج الصواب .
(٤) كذا فى خ . وفى الأصل : « والباب الثالث من ذلك » .
(٥) الزمانة : الكساحة ، ورجل زمن ، أى كسيح مقعد .
(٦) كذا فى خ . وفى الأصل : « والإبانة » .
(٧) الكسب والاكتساب : الجمع والربح ، كلاهما مستعمل فى الخير والشر ، وقد يخص الكسب فى عمل الخير والاكتساب فى عمل الشر . وذلك عند تقارنهما ، فتستعمل « اللام » فى الأول « وعلى » فى الثانى ، لأن « اللام » للخير « وعلى » للمضرة فى الأكثر ، وإنما خص الاكتساب بالشر لأن فيه اعتمالا والنفس تشتهى الشر وتنجذب إليه فكانت أجد فى تحصيله .
(٨) أى تحقيق .
(٩) فى خ : و « تذكير للأمور » . (١٠) تبكيت : أى تقريع وتعنيف .

وأمَّا الخصومة ، فإنَّ من طباع النَّفس الأمَّارة(١) بالسُّوء أن تدَّعى المعاذير(٢) فيما مضى ، والأمانىَّ(٣) فيما بقى ، فيردَّ عليها معاذيرها وعللها وشبهاتها .

وأمَّا القضاء ، فإنَّه يحكم فيما أرادت من ذلك على السَّيِّئة بأنها فاضحة مردية موبقة(٤) ، وللحسنة بأنها زائنة منجية مربحة .

وأمَّا الإنابة والتَّنكيل ، فإنَّه يسرُّ نفسه بتذكُّر تلك الحسنات ، رجاء(٥) عواقبها وتأميل فضلها ، ويعاقب نفسه بالتَّذكُّر للسَّيِّئات ، والبشع(٦) بها ، والاقشعرار منها ، والحزن لها .

فأفضل ذوى الألباب أشدُّهم لنفسه بهذا أخذًا ، وأقلُّهم عنها فترة .

* * *

وعلى العاقل أن يذكر الموت فى كلِّ يوم وليلة مرارًا ، ذكرًا يباشر القلوب ، ويقدع(٨) الطِّماح ؛ فإنَّ فى كثرة ذكر الموت عصمة من الأشر(٩) ، وأمانًا بإذن الله من الهلع .

وعلى العاقل أن يحصى على نفسه مساويها فى الدِّين وفى الرَّأى وفى الأخلاق وفى الآداب ، فيجمع ذلك كلَّه فى صدر أو فى كتاب ، ثمَّ يكثر عرضه على نفسه ، ويكلِّفها إصلاحه ، ويوظِّف ذلك عليها توظيفًا ، من إصلاح الخلَّة(١٠) أو الخلَّتين(١١)

---

(١) فى خ : «الآمرة» .

(٢) أى ما تعتذر به ، جمع معذرة ، على غير قياس . وقيل ليست جمع معذرة بل اسم جمع لها ، ونحوه : المناكير ، فى المنكر . وفى القاموس : «المعاذير : جمع معذار ، بكسر الميم ، وهى الستور والحجج» .

(٣) جمع أمنية ، بضم الهمزة ، ما يتمناه الانسان ويشتهيه . وتأتى لمعنى الكذب ولمعنى القراءة ، وليسا بمرادين هنا . والياء فيها مشددة ومخففة ، والجمع تابع لها فى التشديد والتخفيف .

(٤) مردية ، أى مهلكة ، من أرداه . وموبقة ، أى مهلكة أيضا .

(٥) كذا فى خ . وفى الأصل : « وأما الإنابة» . (٦) كذا فى خ . وفى الأصل : «ويرجو» .

(٧) كذا فى الأصل . ويقال : بشع بالأمر ، كفرح ، إذا ضاق به ذرعا . وفى خ : « والتبشع بها » .

(٨) يقال : قدعه ، إذا منعه وكفه ، وقدع فرسه ، كبحه .

(٩) الأشر : البطر . والهلع : أفحش الجزع ، الذى هو ضد الصبر .

(١٠) الخلة : الخصلة . (١١) فى خ : «والخلتين» .

والخِلالِ، في اليَوْمِ أوِ الجُمْعَةِ أو الشَّهْرِ، فَكلَّما أصْلحَ شَيْئًا محاهُ، وَكلَّما نظَرَ إلى [محْوٍ أسْتَبْشَر، وكُلَّما نظَرَ إلى] [1] ثابتٍ اكْتأَبَ [2].

وعلى العاقِلِ أنْ يَتَفَقَّدَ مَحاسِنَ [3] النَّاسِ ويَحْفَظَها ويُحْصِيَها، ويَصْنَعَ في تَوْظِيفِها على نَفْسِهِ وتَعَهُّدِها [4] بِذَلِكَ مِثْلَ الذى وَصَفْنا في إصْلاحِ المَساوِى [5].

وعلى العاقِلِ أنْ لا يُخادِنَ [6] ولا يُصاحِبَ ولا يُجاوِرَ مِنَ النَّاسِ [7]، ما اسْتَطاعَ، إلّا ذا فَضْلٍ في الدِّينِ والعِلْمِ والأخْلاقِ فَيأْخُذَ عنهُ، أوْ مُوافِقًا لهُ على صَلاحِ ذلِكَ فيُؤَيِّدَ ما عِنْدَهُ، وإنْ لم يَكُنْ لَهُ عليهِ فَضْلٌ؛ فإنَّ الخِصالَ الصَّالِحَةَ مِنَ البِرِّ [8] لا تَحْيا ولا تَنْمِى إلّا بالمُوافِقِينَ والمُهَذِّبِينَ والمُؤَيِّدِينَ [9]. ولَيْسَ لِذِى الفَضْلِ قَرِيبٌ ولا حَمِيمٌ [10] هُوَ أقْرَبُ إلَيْهِ وأحَبُّ مِمَّنْ وافَقَهُ على صالِحِ الخِصالِ فزادَهُ وثَبَّتَهُ. ولِذلِكَ زَعَمَ بَعْضُ الأوَّلِينَ أنَّ صُحْبَةَ بَلِيدٍ نَشَأَ مَعَ العُلَماءِ أحَبُّ إلَيْهِمْ مِنْ صُحْبَةِ لَبِيبٍ نَشَأَ مَعَ الجُهَّالِ.

وعلى العاقِلِ أنْ لا يَحْزَنَ على شَىْءٍ فاتَهُ مِنَ الدُّنْيا أو تَوَلَّى، وأنْ يُنْزِلَ ما أصابَ [11] مِنْ ذلِكَ ثُمَّ انْقَطَعَ عَنْهُ مَنْزِلَةَ ما لَمْ يُصِبْ، ويُنْزِلَ ما طَلَبَ مِنْ ذلِكَ ثُمَّ لَمْ يُدْرِكْهُ مَنْزِلَةَ ما لَمْ يَطْلُبْ، ولا يَدَعَ حَظَّهُ مِنَ السُّرُورِ بِما أقْبَلَ مِنها، ولا يَبْلُغَنَّ [ذلك] [12] سُكْرًا ولا طُغْيانًا؛ فإنَّ مَعَ السُّكْرِ النِّسْيانَ، ومَعَ الطُّغْيانِ التَّهاوُنَ، ومَنْ نَسِىَ وتَهاوَنَ خَسِرَ.

وعلى العاقِلِ أنْ يُؤْنِسَ ذَوِى الألْبابِ بِنَفْسِهِ ويُجَرِّئَهُمْ عَلَيْها، حَتَّى يَصِيرُوا حَرَسًا

---

(١) التكملة من خ. (٢) اكتأب: حزن واغتم.
(٣) جمع حسن، بالضم، على غير قياس.
(٤) في خ: « ويحفظها على نفسه ويتعهدها ».
(٥) المساوى: النقائص والعيوب، جمع مساءة.
(٦) يخادن، أى يصادق. والخدن: الصديق. (٧) في خ: « إصلاح ».
(٨) البر (بالكسر): الخير والطاعة والصدق والاتساع في الاحسان.
(٩) في خ: « وبالموافقين والمؤيدين ».
(١٠) حميمك: قريبك الذى تهتم لأمره. والحميم، أيضا: الماء الحار والماء البارد.
(١١) في خ: « ما أصابه ». (١٢) التكملة من خ.

على سَمْعِه وبَصَرِه وَرَأْيِهِ ، فيَسْتَنِيمَ إلى ذلكَ ويُرِيحَ له قَلْبَهُ ، ويَعْلَمَ أنَّهُمْ لا يَغْفُلُونَ عنهُ إذا هُوَ غَفَلَ عَنْ نَفْسِه .

وعلى العاقلِ ، مالمْ يَكُنْ مَغْلُوباً على نَفْسِهِ ، أنْ لا يَشْغَلَهُ شُغْلٌ عَنْ أرْبَعِ ساعاتٍ : ساعَةٍ يَرْفَعُ فِيها حاجَتَهُ إلى رَبِّهِ ، وساعةٍ يُحاسِبُ فيها نَفْسَهُ ، وساعَةٍ يُفْضِي فِيها إلى إخْوانِهِ وثِقاتِهِ الذينَ يَصْدُقُونَهُ عَنْ عُيُوبِهِ ويَنْصَحُونَهُ في أمْرِهِ ، وساعَةٍ يُخَلِّي فِيها بَيْنَ نَفْسِهِ وبَيْنَ لَذَّتِها مِمّا يَحِلُّ ويَجْمُلُ ؛ فإنَّ هذهِ [1] السّاعاتِ عَوْنٌ على السّاعاتِ الأُخَرِ ، وإنَّ اسْتِجْمامَ القُلُوبِ وتَوْدِيعَها [2] زِيادَةُ قُوَّةٍ لَها وفَضْلُ بُلْغَةٍ [3] .

وعلى العاقِلِ أنْ لا يَكُونَ راغِبًا إلّا في إحْدَى ثَلاثِ خِصالٍ : تَزَوُّدٍ لِمَعادٍ ، أو مَرَمَّةٍ [4] لِمَعاشٍ ، أوْ لَذَّةٍ في غَيْرِ مُحَرَّمٍ .

وعلى العاقِلِ أنْ يَجْعَلَ النّاسَ طَبَقَتَيْنِ مُتَبايِنَتَيْنِ ، وَيَلْبَسَ لَهُمْ لِباسَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ : فَطَبَقَةٌ مِنَ العامَّةِ يَلْبَسُ لَهُمْ لِباسَ انْقِباضٍ وانْحِجازٍ وتَحَرُّزٍ وتَحَفُّظٍ في كُلِّ كَلِمَةٍ وَخَطْوَةٍ ؛ وطَبَقَةٌ مِنَ الخاصَّةِ يَخْلَعُ عِنْدَهُمْ لِباسَ التَّشَدُّدِ ، ويَلْبَسُ لِباسَ الأَنَسَةِ واللُّطْفِ والبِذْلَةِ والمُفاوَضَةِ . ولا يَدْخُلُ في هذهِ الطَّبَقَةِ إلّا واحِدٌ مِنْ أَلْفٍ [5] ، كُلُّهُمْ ذُو فَضْلٍ في الرَّأْيِ ، وَثِقَةٍ في المَوَدَّةِ ، وأَمانَةٍ في السِّرِّ ، وَوَفاءٍ بالإخاءِ .

وعلى العاقِلِ أنْ لا يَسْتَصْغِرَ شَيْئًا مِنَ الخَطَإِ في الرَّأْيِ ، والزَّلَلِ في العِلْمِ ، والإغْفالِ في الأُمُورِ ؛ إنَّ مَنِ اسْتَصْغَرَ الصَّغِيرَ أوْشَكَ أنْ يَجْمَعَ إليهِ صَغِيرًا وَصَغِيراً ، فإذا الصَّغِيرُ كَبِيرٌ . وإنَّما هِيَ ثُلَمٌ [6] يَثْلِمُها العَجْزُ والتَّضْيِيعُ ، فإذا لَمْ تُسَدَّ أوْشَكَتْ أنْ تَنْفَجِرَ بِما لا يُطاقُ . ولَمْ نَرَ شَيْئًا قَطُّ قَدْ أُتِيَ إلّا مِنْ قِبَلِ الصَّغِيرِ المُتَهاوَنِ بِهِ : قَدْ رَأَيْنا

---

(١) في خ « الساعة » .

(٢) استجمام القلوب ، أي إراحتها ، يقال : أجم نفسك يوما أو يومين ، أرحها ، وأجم نفسك . ويقال : إني لأستجم قلبي بشيء من اللهو لأقوى به على الحق . والجمام (بالفتح) الراحة : ويقال : أجم الماء وجمه ، تركه يجتمع . والتوديع : الترك .

(٣) البلغة : ما يتبلغ به من العيش .

(٤) ما يكفي في المعاش . (٥) في خ : « ولا يدخل ... إلا واحدا » .

(٦) جمع ثلمة ، كغرف وغرفة ، وهي الخلل في الحائط وغيره .

الْمُلْكَ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ العَدُوِّ الْمُحْتَقَرِ ، وَرَأَينا الصِّحَّةَ تُؤْتَى مِنَ الدَّاءِ الَّذِى لا يُحْفَلُ بِهِ (١) ، وَرَأَيْنا الأَنْهارَ تَنْبَثِقُ (٢) مِنَ الجَدْوَلِ الَّذِى يُسْتَخَفُّ بِهِ .

وأَقَلُّ الأُمُورِ احْتِمالًا لِلضَّياعِ الْمُلْكُ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُ شَىْءٌ يَضِيعُ ، وَإِنْ كانَ صَغِيرًا ، إِلّا اتَّصَلَ بِآخَرَ يَكُونُ عَظِيمًا .

وعلى العاقِلِ أَن يَجْبُنَ (٣) عَنِ الرَّأْيِ الَّذِى لا يَجِدُ عَلَيْهِ مُوافِقًا ، وَإِنْ ظَنَّ أَنَّهُ على اليَقِينِ .

وعلى العاقِلِ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ الرَّأْيَ والْهَوَى مُتَعادِيانِ ، وَأَنَّ مِنْ شَأْنِ النَّاسِ تَسْوِيفَ (٤) الرَّأْيِ وإِسْعافَ (٥) الهَوَى ، فَيُخالِفَ ذَلِكَ وَيَلْتَمِسَ أَن لا يَزالَ هَواهُ مُسَوَّفًا ، وَرَأْيُهُ مُسْعَفًا .

وعلى الْعاقِلِ إِذا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ أَمْرانِ فَلَمْ يَدْرِ فى أَيِّهِما الصَّوابُ أَنْ يَنْظُرَ أَهْواهُما عِنْدَهُ فَيَحْذَرَهُ .

* * *

[و] (٦) مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنّاسِ إِماماً فى الدِّينِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِتَعليمِ نَفْسِهِ وَتَقْوِيمِها فى السِيرَةِ والطُّعْمَةِ (٧) والرَّأْيِ واللَّفظِ والأَخْدانِ ، فَيَكُونَ تَعْليمُهُ بِسِيرَتِهِ أَبْلَغَ مِنْ تَعْليمِهِ بِلِسانِهِ . فإِنَّهُ كما أَنَّ كَلامَ الْحِكْمَةِ يُونِقُ (٨) الأَسْماعَ ، فَكَذلِكَ عَمَلُ الْحِكْمَةِ يَرُوقُ العُيُونَ والقُلُوبَ . ومُعَلِّمُ نَفْسِهِ ومُؤَدِّبُها أَحَقُّ بالإِجْلالِ والتَّفْضِيلِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ ومُؤَدِّبِهِمْ .

وِلايَةُ النَّاسِ بَلاءٌ عَظِيمٌ . وعلى الوالِي أَرْبَعُ خِصالٍ هِيَ أَعْمِدَةُ السلْطانِ (٩) وأَرْكانُهُ

---

(١) أى لا يبالى به . (٢) أى تنفجر . (٣) فى خ : «يجبن عن المضى على الرأى» .
(٤) أى المطل . (٥) أى مساعدته ، يقال أسعفه بحاجته ، إذا قضاها له .
(٦) هذه التكملة من خ . (٧) أى فى الطريقة التى يسلكها ووجه الكسب .
(٨) أى يعجب . ويروق : أى يعجب ، من الروق ، وهو الإعجاب بالشيء .
(٩) الولاية : السلطان . والسلطان أيضا : الوالى ، مشتق من السلاطة التى هى القهر والغلبة . وهو بهذا المعنى مذكر لأنه أريد به الشخص ؛ وقيل إنه جمع سليط ، مثل رغيف ورغفان . والسليط : الدهن ، واشتقاقه منه لإضاءته ، فكأنه نور يضيء به الملك لأنه يرفع عن الخلق ظلام الظلم وينيرهم بنور العدل .

الَّتِي بِهَا يَقُومَ وعَلَيْها يَثْبُتُ : الاجْتِهادُ فى التَّخَيُّرِ ، وَالْمُبالَغَةُ فِي التَّقَدُّمِ ، وَالتَّعَهُّدُ(١) الشَّدِيدُ ، وَالجزاء العَتِيدُ(٢) .

أما التَّخَيُّرُ لِلْعُمَّالِ والوزراء ، فإنَّهُ نِظامُ الْأَمْرِ وَوَضْعُ مَؤُونَةِ البَعِيدِ المُنْتَشِرِ ؛ فإنَّهُ عَسَى أَنْ يكُونَ بِتَخَيُّرِهِ رَجُلاً واحِدًا قَدِ اخْتارَ أَلْفًا ، لِأَنَّهُ مَنْ كانَ مِنَ العُمَّالِ خِيارًا فَسَيَخْتارُ كما اخْتِيرَ ، وَلَعَلَّ عُمَّال العامِلِ وعُمَّال(٣) عُمَّالِهِ يَبْلُغُونَ عَدَدًا كَثِيرًا . فَمَنْ تَبَيَّنَ التَّخَيُّرَ فقَدْ أَخَذَ بِسَبَبٍ وَثِيقٍ(٤) ، ومَنْ أَسَّسَ أَمْرَهُ على غَيْرِ ذلِكَ لَمْ تَجِدْ لِبُنْيانِهِ(٥) قِواماً(٦) .

وأَمَّا التَّقْدِيمُ والتَّوْكِيلُ(٧) ، فإِنَّهُ لَيسَ كلُّ ذِي لُبٍّ أَوْ ذِي أَمانَةٍ يَعْرِفُ وُجُوهَ الأُمُورِ والأَعْمالِ ، ولوْ كانَ بذَلِكَ عارِفاً لَمْ يَكُنْ صاحِبُهُ حَقِيقاً أَنْ يَكِلَ ذلِكَ إلى عِلْمِهِ دُونَ تَوْقِيفِهِ عَلَيْهِ ، وَتَبْيِينِهِ لَهُ ، والاحْتِجاجِ بِهِ عَلَيْهِ .

وأمَّا التَّعَهُّدُ ، فإِنَّ الوالِيَ إذا فعَلَ ذَلِكَ كانَ سَمِيعاً بَصِيرًا ، وَإِن العامِلَ إذا فُعِلَ ذَلِكَ بِهِ كانَ مُتَحَصِّنًا حَرِيزًا .

وَأمَّا الجَزاء ، فإِنَّهُ تَثْبِيتُ المُحْسِنِ والرَّاحَةُ مِنَ المُسِيء .

***

لا يُسْتَطاعُ السُّلْطانُ إِلّا بالوُزَراءِ والأَعْوانِ ، ولا تَنْفَعُ الوُزَراءُ إلا بالمَوَدَّةِ والنَّصِيحَةِ ، ولا المَوَدَّةُ إلا مَعَ الرَّأْيِ والعَفافِ .

وأَعْمالُ السُّلْطانِ كَثِيرَةٌ ، وقَلَّما تُسْتَجْمَعُ الخِصالُ المَحْمُودَةُ عِنْدَ أَحَدٍ ، وإِنَّما الوَجْهُ فى ذَلِكَ وَالسَّبِيلُ إِلَيْهِ الَّذِى يَسْتَقِيمُ بِهِ العَمَلُ(٨) أَنْ يَكُونَ صاحِبُ السُّلطانِ

---

(١) أى التفقد والتحفظ . (٢) أى الحاضر المهيأ .

(٣) فى الأصل : « ولعل عمل العامل وعمل » . وما أثبتناه من خ .

(٤) أى محكم . (٥) قوام الأمر : عماده وانتظامه .

(٦) فى خ : «لم يجد لبنائه» (٧) فى خ : « والتوكيد » .

(٨) فى خ : « الذى به يستقيم العمل » .

عالمًا بأمورِ مَنْ يُرِيدُ الاستعانةَ به ، وما(١) عِنْدَ كلِّ رَجُلٍ مِنَ الرَّأْيِ والغَنَاءِ(٢) ، وما(٣) فيهِ مِنَ العُيُوبِ . فإذا اسْتَقَرَّ ذلِكَ عِنْدَهُ عَنْ عِلْمِهِ وعِلْمِ مَنْ يأْتَمِنُ ، وَجَّهَ لِكُلِّ عَمَلٍ مَنْ قَدْ عَرَفَ أنَّ عِنْدَهُ مِنَ الرَّأْيِ والنَّجْدَةِ(٤) والأَمانَةِ ما يَحْتاجُ إليْهِ فيهِ ، وأنَّ ما فيهِ مِنَ العُيُوبِ لا يُضِرُّ بذلِكَ . ويَتَحَفَّظُ مِنْ أنْ يُوَجِّهَ أحدًا وَجْهًا لا يَحْتاجُ فيهِ إلى مُرُوءةٍ ، إنْ كانَتْ عِنْدَهُ ، ولا يأْمَنُ عيُوبَهُ وما يُكْرَهُ مِنْهُ .

ثُمَّ على المُلوكِ بَعْدَ ذلِكَ تَعَهُّدُ(٥) عُمَّالِهِمْ وتَفَقُّدُ أُمُورِهِمْ ، حتّى لا يَخْفَى علَيْهِمْ إحْسانُ مُحْسِنٍ ولا إساءَةُ مُسِيءٍ .

ثُمَّ علَيْهِمْ بَعْدَ ذلِكَ أنْ لا يَتْرُكُوا مُحْسِنًا بغَيْرِ جَزاءٍ ، ولا يُقِرُّوا مُسِيئًا ولا عاجِزًا على الإساءَةِ والعَجْزِ ؛ فإنَّهُمْ إنْ تَرَكُوا ذلِكَ تَهاوَنَ المُحْسِنُ ، واجْتَرأَ المُسِيءُ ، وفَسَدَ الأَمْرُ ، وضاعَ العَمَلُ .

***

اقْتِصادُ السَّعْيِ أبْقَى لِلْجَمامِ(٦) . وفى بُعْدِ الهِمَّةِ يَكُونُ النَّصَبُ(٧) . ومَنْ سَأَلَ فوقَ قَدْرِهِ(٨) اسْتَحَقَّ الحِرْمانَ .

سُوءُ حَمْلِ الغِنَى أنْ يَكُونَ عِنْدَ الفَرَحِ مَرِحًا . وسُوءُ حَمْلِ الفاقَةِ أنْ يَكُونَ عِنْدَ الطَّلَبِ شَرِهًا . وعارُ الفَقْرِ أهْوَنُ مِنْ عارِ الغِنَى . والحاجَةُ مَعَ المَحَبَّةِ خَيْرٌ مِنَ الغِنَى مَعَ البِغْضَةِ(٩) .

---

(١) ما ، اسم موصول محله الجر عطفا على « أمور » ، أى : وعالما بالذى عند كل رجل .
(٢) قوله : « من الرأى والغناء » ، بيان لما . والغناء (بالفتح) : النفع .
(٣) ما ، عطف على « ما » الأولى .
(٤) الشجاعة .　　(٥) فى خ : « تعاهد » .
(٦) الاقتصاد والقصد : التوسط وطلب الأسد وعدم مجاوزة الحد ، وهو ضد الإفراط والتفريط . والجمام (كسحاب) : الراحة . وفى خ : « اقتصار السعى لإبقاء للجمام » .
(٧) الهمة (بالكسر والفتح) : القصد والعزم على فعل الشىء ، وجمعها همم ، وهم بالشىء : أراد أن يفعله وقصد له . ويقال : فلان بعيد الهمة . وبعد الهمة : مجاوزة الحد فى القصد . والنصب : التعب .
(٧) فى خ : « قدرته » .
(٩) البغضة (بالكسر) : شدة البغض ، كالبغضاء .

والدُّنيا دُوَلٌ ، فما كانَ مِنْها لكَ أتاكَ على ضَعْفِكَ ، وما كانَ عليكَ لم تَدْفَعْهُ بقوّتِكَ .

إذا جُعِلَ الكلامُ مَثَلًا كانَ [ذلك] أوْضَحَ لِلْمَنْطِقِ ، وأبْيَنَ فى المَعْنَى ، وآنَقَ(١) لِلسَّمْعِ ، وأوْسَعَ لِشُعُوبِ الحَدِيثِ(٢) .

أشَدُّ الفاقَةِ(٣) عَدَمُ العَقْلِ . وأشَدُّ الوُحْدَةِ وُحْدَةُ اللَّجُوجِ(٤) . ولا مالَ أفضلُ مِنَ العقْلِ . ولا أُنْسَ(٥) آنَسُ مِنَ الاسْتِشارَةِ .

مِمَّا يُعْتَبَرُ بِهِ صَلاحُ الصَّالِحِ وحُسْنُ نَظَرِهِ لِلنَّاسِ أنْ يَكُونَ إذا اسْتُعْتِبَ(٦) المُذْنِبُ سَتُورًا لا يُشِيعُ(٧) ، وإذا اسْتُشِيرَ سَمْحًا بالنَّصِيحَةِ مُجْتَهِدًا لِلرَّأْيِ ، وإذا اسْتَشارَ مُطَّرِحًا لِلحَياءِ ومُعْتَرِفًا(٨) لِلْحَقِّ .

القَسْمُ الَّذِى يُقْسَمُ لِلنَّاسِ ويُمَتَّعُونَ بِهِ نَحْوانِ(٩) : فَمِنْهُ حارِسٌ ومِنْهُ مَحْرُوسٌ . فالحارِسُ العَقْلُ ، والمَحْرُوسُ المالُ . والعَقْلُ ، بإذْنِ اللهِ ، هُوَ الَّذِى يُحْرِزُ الحَظَّ ، ويُؤْنِسُ الغُرْبَةَ ، ويَنْفِى الفاقَةَ ، ويُعَرِّفُ النَّكِرَةَ ، ويُثَمِّرُ المَكْسَبَةَ ، ويُطَيِّبُ الثَّمَرَةَ ، ويُوَجِّهُ السُّوقَةَ(١٠) عِنْدَ السُّلْطانِ ، ويَسْتَنْزِلُ السُّلْطانَ لنصيحَةِ(١١) السُّوقَةِ ، ويُكْسِبُ الصَّدِيقَ ، ويَكْفِى(١٢) العَدُوَّ .

كلامُ اللَّبِيبِ ، وَإنْ كانَ نَزْرًا(١٣) ، أَدَبٌ عَظِيمٌ . وَمُقارَفَةُ(١٤) المَأْثَمِ ، وَإنْ كانَ مُحْتَقَرًا ، مُصِيبَةٌ جَلِيلَةٌ . وَلِقاءُ الإخْوانِ ، وَإنْ كانَ يَسِيرًا ، غُنْمٌ حَسَنٌ .

(١) آنق ، أى أحسن وأعجب . (٢) أى شجونه وفنونه .
(٣) الفاقة : الفقر والحاجة . وافتاق افتياقا : احتاج .
(٤) اللجوج ، أى المخاصم المتمادى فى الخصومة . (٥) فى خ : «ولا أنيس» .
(٦) استعتب ، أى طلب الإعتاب واستقال من الذنب .
(٧) فى خ : «لا يشيع ولا يذيع» . (٨) فى خ : «مطرحا للحياء منفذاً للحزم معترفا» .
(٩) النحو : الطريق والجهة والقصد .
(١٠) السوقة ، عند العرب : خلاف الملك ، يطلق على الواحد والمثنى والمجموع ، وربما جمع على سوق ، كغرفة وغرف . كذا فى المصباح .
(١١) فى الأصلين : « ويستنزل للسلطان نصيحة ... الخ » ولعل الصواب ما أثبتنا .
(١٢) وكذا فى خ . وفى الأصل : « وينفى » . (١٣) نزرا : قليلا .
(١٤) مقارفة المأثم ، أى مخالطة الذنب . وإن كان ، أى الذنب ، محتقرا مصيبة عظيمة .

قَدْ يَسْعَى إلى أبْوابِ السُّلطانِ أجْناسٌ مِنَ النّاسِ كَثِيرٌ[(١)] : أمّا الصّالِحُ فمَدْعوٌّ ، وأمّا الطّالِحُ فمُقتَحِمٌ[(٢)] ، وأمّا ذُو الأدَبِ فطالِبٌ ، وأمّا مَنْ لا أدَبَ لَهُ فمُحْتَبَسٌ[(٣)] ، وأمّا القَوِيُّ فمُدافِعٌ ، وأمّا الضّعيفُ فمَدْفوعٌ ، وأمّا المُحْسِنُ فمُسْتَثِيبٌ[(٤)] ، وأمّا المُسِيءُ فمُسْتَجِيرٌ . فهُوَ مَجْمَعُ البَرِّ والفاجِرِ ، والعالِمِ والجاهِلِ ، والشَّرِيفِ والوَضِيعِ .

النّاسُ إلاّ قَليلاً مِمَّنْ عَصَمَ اللهُ مَدْخولونَ في أُمُورِهِم[(٥)] : فقائِلُهُمْ باغٍ[(٦)] ، وسامِعُهُمْ عَيّابٌ[(٧)] ، وسائِلُهُمْ مُتَعَنِّتٌ ، ومُجِيبُهُمْ مُتَكَلِّفٌ ، وواعِظُهُمْ غَيْرُ مُحَقِّقٍ لِقَوْلِهِ بالفِعْلِ ، ومَوْعُوظُهُمْ غَيْرُ سَلِيمٍ مِنَ الاسْتِخْفافِ ، والأمِينُ مِنْهُمْ غَيْرُ مُتَحَفِّظٍ مِنْ إتْيانِ الخِيانَةِ ، وذو الصِّدْقِ[(٨)] غَيْرُ مُحْتَرِسٍ مِنْ حَدِيثِ الكَذَبَةِ ، وذُو الدِّينِ غَيْرُ مُتَوَرِّعٍ عَنْ تَفْرِيطِ الفَجَرَةِ ، والحازِمُ[(٩)] مِنْهُمْ غَيْرُ تارِكٍ[(١٠)] لِتَوَقُّعِ الدَّوائِرِ . يَتَناقَضُونَ[(١١)] البِناءَ[(١٢)] ، ويَتَرَقَّبُونَ[(١٣)] الدُّوَلَ ، ويَتَعاطَوْنَ القَبِيحَ ،

---

(١) فى الأصل : كثيرا . وما أثبتنا من خ .

(٢) مقتحم ، أى داخل أبواب السلطان ورام بنفسه إليها من غير روية .

(٣) محتبس : أى ممنوع من الدخول . وفى خ : « فمختلس » .

(٤) مستثيب ، أى طالب الإثابة منهم .

(٥) مدخولون ، أى فى أمورهم غش وفساد وعيب ، إذ المدخول من دخله عيب وفساد ، اسم مفعول دخل ، كعنى . أى فى عقله دخل ، وهو الفساد والمكر والخديعة .

(٦) باغ ، اسم فاعل بغى ، بمعنى اعتدى وتجاوز وظلم .

(٧) عياب ، مبالغة عائب ، أى كثير العيب للناس .

(٨) فى خ : « والصدوق » مكان : « وذو الصدق » .

(٩) الحازم : الضابط لأمره والآخذ بالثقة . والتوقع : الانتظار . والدوائر : جمع دائرة . ودوائر الزمان : صروفه التى تأتى مرة بخير ومرة بشر .

(١٠) كذا فى الأصلين . والكلام لا يستقيم إلا بحذف « غيره » أو بتغيير « تارك » إلى « ذاكر » أو كلمة فى معناها .

(١١) التناقض : تفاعل من النقض فى البناء والحبل والعهد وغيره ، ضد الإبرام . يقال : نقض البناء : هدمه . ونقض العهد ، بمعنى أبطله وحله ، وهذا من المجاز .

(١٢) كذا فى خ . وفى الأصل : « البنى » . والبنى (بكسر الباء وضمها) جمع بنية (بالكسر والضم أيضا) : الهيئة التى بنى عليها البنيان .

(١٣) الترقب : الانتظار . وفى خ : « يتراقبون » . والدول : جمع دولة ، وهى انقلاب الزمان .

وَيَتَعَايَنُونَ بِالغَمْزِ (١) . مولعون (٢) فى الرَّخاء بالتَّحاسُدِ ، وفى الشِّدَّةِ بالتَّخاذُلِ (٣) .

ثم قَدِ انْتُزِعَتِ الدُّنيا مِمَّنْ قَدِ اسْتَمْكَنَ مِنْها وَاعْتَكَفَتْ لَهُ ، فأَصْبَحَتِ الأَعْمالُ أَعمالَهُمْ ، وَالدُّنْيا دُنْيا غَيرِهِمْ ، وَأَخَذَ مَتاعَهُمْ مَنْ لَمْ يَحْمَدْهُمْ ، وَخَرَجُوا إلى مَنْ لا يَعْذُرُهُمْ ، فأَصْبَحْنا خَلَفاً مِنْ بَعْدِهِمْ ، نَتَوقَّعُ مِثْلَ الّذِى نَزَلَ بِهِمْ . فنحنُ إذا تَدَبَّرْنا أُمُورَهُم أَحِقَّاءُ أَنْ نَنْتَظِرَ ما نَغْبِطُهُمْ بِهِ فَنَتَّبِعَهُ ، وما نَخافُ عَلَيْهِمْ مِنْهُ فَنَجْتَنِبَهُ .

* * *

كانَ يقالُ : إنَّ اللهَ تعالى قَدْ يَأْمُرُ بالشَّىْءِ وَيَبْتَلِى بِثِقَلِهِ ، وَيَنْهى عَنِ الشَّىْءِ وَيَبْتَلِى بِشَهْوَتِهِ . فإذا كُنْتَ لا تَعْمَلُ مِنَ الخَيْرِ إلّا ما اشْتَهَيْتَ ، ولا تَتْرُكُ مِنَ الشرِّ إلّا ما كَرِهْتَ ، فَقَدْ أَطْلَعْتَ الشَّيْطانَ عَلَى عَوْرَتِكَ ، وأَمْكَنْتَهُ مِنْ أَزِمَّتِكَ ، فأَوْشَكَ أَنْ يَقْتَحِمَ عَلَيْكَ فِيما تُحِبُّ مِنَ الخَيْرِ فيُكَرِّهَهُ إليكَ ، وفيما تَكْرَهُهُ مِنَ الشَّرِّ فيُحَبِّبَهُ إليكَ . ولَكِنْ يَنْبَغِى لكَ فى حُبِّ ما تُحِبُّ مِنَ الخَيْرِ التَّحامُلُ على ما يُسْتَثْقَلُ مِنْهُ ، وَيَنْبَغِى لَكَ فى كَراهَةِ ما تَكْرَهُ مِنَ الشَّرِّ التَّجَنُّبُ لِمَا يُحَبُّ مِنْهُ .

للدُّنْيا (٤) زُخْرُفٌ يَغْلِبُ الجَوارِحَ ما لَمْ تَغْلِبْهُ الأَلْبابُ ، والحَكِيمُ مَنْ لَمْ يَغُضَّ عَلَيْهِ (٥) طَرْفَهُ ، وَلَمْ يَشْغَلْ بِهِ قَلْبَهُ . اطَّلَعَ مِنَ أَدْناهُ فيما وَرَاءَهُ ، وذَكَرَ فى بَدْئِهِ لَوَاحِقَ شَرِّهِ ، فأَكَلَ مُرَّهُ ، وشَرِبَ كَدَرَهُ ؛ لِيَحْلُوَ لَهُ وَيَصْفُوَ فى طُولٍ مِنْ إقامَةِ العَيْشِ الّذِى يَبْقَى وَيَدُوم ، غَيرَ عائِفٍ للرُّشْدِ إنْ لَمْ يَلْقَهُ بِرِضاه ، ولَمْ يَأْتِهِ مِنْ طَرِيقِ هَواه .

لا تَأْلَفِ المُسْتَوْخَمَ ، وَلا تُقِمْ على غَيرِ الثِّقَةِ .

* * *

---

(١) التعاين : تفاعل من المعاينة ، وهى النظر بالباصرة . والغمز : الإشارة إلى آخر بعين أو بحاجب . وفى خ : « يتعايبون بالهمز » .

(٢) كذا فى خ : وفى الأصل : « ويرعون » . ورعاه يرعاه : لاحظه وحفظه . والرخاء : سعة العيش والخصب .

(٣) كذا فى خ . وفى الأصل : « بالتجاذب » . والتجاذب : تفاعل من الجذب ، وهو المد والجر . يعنى أن رعاية بعضهم لبعض إنما تكون فى زمن الخصب بالتحاسد وفى زمن الشدة والقحط بالتجاذب ، أى إيقاع بعضهم بعضا فيها .

(٤) فى خ : « الدنيا » . (٥) فى خ : « والحكيم من يغضى عنه » .

قَدْ بَلَغَ فضلُ اللهِ على النَّاسِ مِنَ السَّعَة ، وبَلَغَتْ نِعْمَتُهُ عَلَيْهِمْ مِنَ السُّبُوغ ، ما لَوْ أنَّ أخَسَّهُمْ حَظًّا ، وأقَلَّهُمْ مِنْهُ نَصِيبًا ، وأضْعَفَهُمْ عِلْمًا ، وأعْجَزَهُمْ عَمَلًا ، وَأعْيَاهُمْ لِسَانًا ، بَلَغَ مِنَ الشُّكْرِ لَهُ والثَّناءِ عَلَيْهِ بِما خَلَصَ إلَيْهِ مِنْ فَضْلِهِ وَوَصَلَ إلَيْهِ مِنْ نِعْمَتِهِ ما بَلَغَ لَهُ مِنْهُ أعْظَمُهُمْ حَظًّا ، وَأوْفَرُهم نَصِيبًا ، وأفْضَلُهُمْ عِلْمًا ، وأقْوَاهُمْ عَمَلًا ، وأبْسَطُهُمْ لِسَانًا ، لَكانَ عَمَّا اسْتَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ مُقَصِّرًا ، وَعَنْ بُلُوغ غايَةِ الشُّكْرِ بَعِيدًا . وَمَنْ أخَذَ بِحَظِّهِ مِنْ شُكْرِ اللهِ وحَمْدِه ، ومَعْرِفَةِ نِعَمِهِ والثَّناءِ عَلَيْهِ ، والتَّحْمِيدِ لَهُ ، فَقَدِ اسْتَوْجَبَ بِذَلِكَ مِنْ أدائِهِ إلى اللهِ ، والقُرْبَةِ عِنْدَهُ ، والوَسِيلَةِ إلَيْهِ ، والمَزِيدِ فِيما شَكَرَهُ عَلَيْهِ ، من خَيْرِ الدُّنْيا وحُسْنِ ثَوَابِ الآخِرَةِ .

* * *

أفْضَلُ ما يُعْلَمُ بِهِ عِلْمُ ذِي العِلْمِ وصَلاحُ ذِي الصَّلاحِ ، أنْ يَسْتَصْلِحَ بما أُوتِيَ مِنْ ذَلِكَ مَنِ اسْتَطاعَ مِنَ النَّاسِ ، ويُرَغِّبَهُمْ فِيما رَغِبَ فِيهِ لِنَفْسِهِ مِنْ حُبِّ اللهِ ، وحُبِّ حِكْمَتِهِ ، والعَمَل بِطَاعَتِهِ ، والرَّجاءِ لِحُسْنِ ثَوَابِهِ في المَعادِ إلَيْهِ ، وَأنْ يُبَيِّنَ الَّذِي لَهُمْ مِنَ الأخْذِ بِذَلِكَ ، والذي عَلَيْهِمْ في تَرْكِهِ ، وَأنْ يُوَرِّثَ ذَلِكَ أهْلَهُ وَمَعارِفَهُ ، لِيَلْحَقَهُ أجْرُهُ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ .

الدِّينُ أفْضَلُ المَوَاهِبِ الَّتِي وَصَلَتْ مِنَ اللهِ تعالى إلى خَلْقِهِ ، وَأعْظَمُها مَنْفَعَةً ، وأحْمَدُها في كلِّ حِكْمَةٍ ؛ فَقَدْ بَلَغَ فَضْلُ الدِّينِ والحِكْمَةِ أنْ مُدِحا على ألْسِنَةِ الجُهَّال على جَهالَتِهِمْ بِهِما ، وعَماهُمْ عَنْهُما .

أحَقُّ النَّاسِ بالسُّلْطانِ أهْلُ الرَّأْفَةِ(١) . وَأحَقُّهُمْ بالتَّدْبِيرِ العُلَماءُ . [وَأحَقُّهُمْ بالفَضْلِ أعْوَدُهُمْ على النَّاسِ بِفَضْلِهِ(٢)] . وَأحَقُّهُمْ بالعِلْمِ أحْسَنُهُمْ تَأْدِيبًا . وَأحَقُّهُمْ بالغِنَى أهْلُ الجُودِ . وَأقْرَبُهُمْ مِنَ اللهِ أنْفَذُهُمْ في الحقِّ عِلْمًا ، وَأكْمَلُهُمْ بِهِ عَمَلًا .

---

(١) في خ : « المعرفة » .
(٢) التكملة من خ .

وأحكمهم أبعدهم من الشكِّ في الله . وأصوبهم رجاء أوثقهم بالله . وأشدّهم انتفاعًا بعلمه أبعدهم من الأذى . وأرضاهم في النّاس أفشاهم معروفًا . وأقواهم أحسنهم معونة . وأشجعهم أشدّهم على الشيطان . وأفلجهم بالحجة[1] أغلبهم للشّهوة والحرص . وآخذهم بالرّأي أتركهم للهوى . وأحقّهم بالمودّة أشدّهم لنفسه حياء[2] . وأجودهم أصوبهم بالعطيّة موضعًا . وأطولهم راحة أحسنهم للأمور احتمالا . وأقلّهم دهشًا أرحبهم ذرعًا[3] . وأوسعهم غنًى أقنعهم بما أوتي . وأخفضهم عيشًا أبعدهم من الإفراط . وأظهرهم جمالا أظهرهم حصافة . وآمنهم في النّاس أكلّهم نابًا ومخلبًا . وأثبتهم شهادة عليهم أنطقهم عنهم . وأعدلهم فيهم أدومهم مسالمة لهم . وأحقّهم بالنّعم أشكرهم لما أوتي منها .

***

أفضل ما يورّث الآباء الأبناء الثّناء الحسن ، والأدب النّافع ، والإخوان الصّالحون .

فصل ما بين الدّين والرّأي أنّ الدّين يسلم بالإيمان ، وأنّ الرّأي يثبت بالخصومة . ومن جعل الدّين خصومة فقد جعل الدّين رأيًا ، ومن جعل الرّأي دينًا[4] فقد صار شارعًا ، ومن كان هو يشرع لنفسه الدّين فلا دين له .

قد يشتبه الدّين والرّأي في أماكن لولا تشابههما لم يحتاجا إلى الفصل .

العجب آفة العقل ، واللّجاجة قعود الهوى ، والبخل لقاح الحرص ، والمراء[5]

(١) في خ : « بحجة » .
(٢) في خ : « حبا » .
(٣) في خ : « ذراعا » .
(٤) كذا في خ . وفي الأصل : « ومن جعل رأيا » .
(٥) المراء ، لغة : المخاصمة والمجادلة ، وعرفا : منازعه الغير فيما يدعى صوابه . ومحل كونه مذموما إذا كان لتحقير غيرك وإظهار فريتك عليه .

فَسادُ اللِّسانِ ، والحَمِيَّةُ(١) سَبَبُ الجَهْلِ ، والأَنَفُ تَوْأَمُ السَّفَهِ ، والمُنافَسَةُ أُخْتُ العَداوَة .

إِذا هَمَمْتَ بِخَيْرٍ فَبادِرْ هَواكَ لا يَغْلِبْكَ ، وإذا هَمَمْتَ بِشَرٍّ فَسَوِّفْ هَواكَ لَعَلَّكَ تَظْفَرُ ، فإِنَّ ما مَضَى مِنَ الأَيّامِ وَالسّاعاتِ على ذلِكَ هُوَ الغُنْمُ .

لا يَمْنَعَنَّكَ صِغَرُ شأْنِ امْرِئٍ مِنَ اجْتِباءِ(٢) ما رَأَيْتَ مِنْ رَأْيِهِ صَواباً ، واصْطِفاءِ ما رَأَيْتَ مِنْ أَخْلاقِهِ كَرِيماً ؛ فإِنَّ اللُّؤْلُؤَةَ الفائِقَةَ لا تُهانُ لِهَوانِ غائِصِها الّذى اسْتَخْرَجَها .

مِنْ أَبْوابِ التَّرَفُّقِ(٣) والتَّوْفِيقِ فى التَّعْلِيمِ أَنْ يَكُونَ وَجْهُ الرَّجُلِ الّذى يَتَوَجَّهُ فيهِ مِنَ العِلْمِ والأَدَبِ فِيما يُوافِقُ طاعَةً وَيَكُونُ لهُ عِنْدَهُ مَحْمَلٌ وقَبُولٌ ؛ فلا يَذْهَبُ عَناؤُهُ فى غَيْرِ غَناءٍ ، ولا تَفْنَى أَيّامُهُ فى غَيْرِ دَرَكٍ ، ولا يَسْتَفْرِغُ نَصِيبَهُ فِيما لا يَنْجَعُ فِيهِ ، ولا يَكُون كَرَجُلٍ أَرادَ أَنْ يَعْمُرَ أَرْضاً تَهَمَةً(٤) فَغَرَسَها جَوْزاً وَلَوْزاً ، وأَرْضاً جَلْساً(٥) فَغَرَسَها نَخْلاً ومَوْزاً .

العِلْمُ زَيْنٌ لِصاحِبِهِ فى الرَّخاءِ ، ومَنْجاةٌ لَهُ فى الشِّدَّةِ . بالأَدَبِ تَعْمُرُ القُلُوبُ ، وبالعِلْمِ تَسْتَحْكِمُ الأَحْلامُ . العَقْلُ الزّاكِى غَيْرُ الصَنِيعِ كالأَرْضِ الطَّيِّبَةِ الخَرابِ .

* * *

مِمّا يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ اللهِ ، وَ[هُوَ] سَبَبُ الإِيمانِ ، أَنْ وَكَلَ(٦) بالغَيْبِ لِكُلِّ ظاهِرٍ مِنَ الدُّنْيا ، صَغِيرٍ أو كَبِيرٍ ، عَيْناً فَهُوَ يُصَرِّفُهُ ويُحَرِّكُهُ . فَمَنْ كانَ مُعْتَبِراً بالجَلِيلِ مِنْ ذلكَ فَلْيَنْظُرْ إلى السَّماءِ فيَعْلَمَ أَنَّ لها رَبّاً يُجْرِى فَلَكَها ، وَيُدَبِّرُ أَمْرَها ؛ ومَنْ اعْتَبَرَ بالصَغِيرِ فَلْيَنْظُرْ إلى حَبَّةِ الخَرْدَلِ فَيَعْرِفَ أَنَّ لَها مُدَبِّراً يُنْبِتُها ويُزْكِيها ،

(١) الأنف والغضب .

(٢) فى خ : « اجتناء » .

(٣) فى خ : « التوفق والتوفيق فى التعلم » .

(٤) التهمة (بالتحريك) الأرض : المتصوبة إلى البحر .

(٥) الجلس (بالفتح) : الغليظ من الأرض .

(٦) فى خ : « يوكل » .

وَيقدِّرُ لها أقواتها مِنَ الأرضِ والماءِ ، يُوقِّتُ لها زمانَ نباتها وزمانَ تهشّمها[٢] . وأمرُ النُّبوَّةِ والأحلامِ[٣] وما يحدُثُ في أنفسِ النّاسِ مِن حيثُ لا يعلمُونَ ثمَّ يظهرُ منهُمْ بالقولِ والفعلِ ، ثمَّ اجتماعُ العُلماءِ والجُهّالِ والمهتدينَ والضُّلّالِ على ذِكرِ اللهِ تعالى وتعظيمِهِ ، واجتماعُ مَنْ شكَّ في اللهِ تعالى وكذَّبَ بِهِ على الإقرارِ بأنَّهُمْ أنشئوا حديثًا ومعرفتهم أنَّهُمْ لمْ يُحدِثوا أنفسَهُمْ . فكلُّ ذلكَ يَهدي إلى اللهِ ويدلُّ على الذي كانتْ منهُ هذهِ الأمورُ ، مَعَ ما يزيدُ ذلكَ يقينًا عندَ المؤمنينَ ، بأنَّ اللهَ حقٌّ يسيرٌ ، ولا يقدرُ[٤] أحدٌ أنَّهُ باطلٌ .

***

إنَّ للسُّلطانِ المُقسِطِ[٥] حقًّا لا يَصلُحُ لخاصّةٍ[٦] ولا عامّةٍ أمرٌ إلا بإرادتِهِ . فذو اللُّبِّ حقيقٌ أنْ يُخلِصَ لهمُ النّصيحةَ ، ويبذُلَ لهمُ الطّاعةَ ، ويكتُمَ سِرَّهُمْ ، ويُزيِّنَ سيرتَهُمْ ، ويذُبَّ بلسانِهِ ويدِهِ عنهُمْ ، ويتوخّى[٧] مرضاتَهُمْ ، ويكونَ مِنْ أمرِهِ المُواتاةُ لهُمْ ، والإيثارُ لأهوائِهِمْ ورأيِهِمْ على هواهُ[١] ، ويُقدِّرَ الأمورَ على موافقتِهِمْ ، وإنْ كانَ ذلكَ مُخالفًا ، وأنْ يكونَ منهُ الجِدُّ في المُخالفةِ لِمَنْ جانَبَهُمْ ، وجهِلَ حقَّهُمْ . ولا يُواصِلَ مِنَ النّاسِ إلّا مَنْ لا تُباعِدُ مُواصلتُهُ إيّاهُ منهُمْ ، ولا تحمِلُهُ عداوةُ أحدٍ لهُ ولا إضرارٌ بهِ على الاضطغانِ عليهِمْ ، ولا مُواتاةُ أحدٍ على الاستخفافِ بشيءٍ مِنْ أمورِهِمْ والانتقاصِ لشيءٍ مِنْ حقِّهِمْ ، ولا يكتُمُهُمْ شيئًا مِنْ نصيحتِهِمْ ، ولا يتثاقَلَ عنْ شيءٍ مِنْ طاعتِهِمْ ، ولا يَبْطَرَ إذا أكرمُوهُ ، ولا يجترِئَ عليهِمْ إذا

---

(١) تهشمها ، أى يبسها وتكسرها .

(٢) الأحلام : جمع حلم (بضم فسكون) : ما يراه النائم .

(٣) فى خ : « ولا يقدر أحد على أن يوقن أنه بالباطل » .

(٤) المقسط ، أى المعادل ، من أقسط ، إذا عدل . والقسط : العدل . والقاسط : الجائر الظالم .

(٥) فى خ : « بخاصة » .

(٦) يتوخى ، أى يقصد ويتحرى مرضاتهم .

(٧) فى خ : « على هواه ورأيه » .

قَرَّبُوهُ ، ولا يَطغَى إِذَا سَلَّطُوهُ ، ولا يُلْحِفَ[1] إِذَا سَأَلَهُمْ ، ولا يُدْخِلَ عَلَيْهِمُ المَؤُونَةَ ، ولا يَسْتَثْقِلَ ما حَمَّلُوهُ ، ولا يَغْتَرَّ[2] إِذَا رَضُوا عَنْهُ ، ولا يَتَغَيَّرَ لَهُمْ إذا سَخِطُوا عَلَيْهِ ، وَأَنْ يَحْمَدَهُمْ على ما أصابَ مِنْ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، فإِنَّهُ لا يَقْدِرُ أَحَدٌ على أَنْ يُصِيبَهُ بِخَيْرٍ إِلَّا بِدِفَاعِ اللهِ عَنْهُ بِهِمْ .

***

مِمَّا يَدُلُّ على عِلْمِ الْعَالِمِ مَعْرِفَتُهُ بما يُدْرَكُ مِنَ الأُمُورِ ، وإِمْسَاكُهُ عَمَّا لا يُدْرَكُ ، وتَزْيِينُهُ نَفْسَهُ بالمَكَارِمِ ، وظُهُورُ عِلْمِهِ لِلنَّاسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَظْهَرَ مِنْهُ فَخْرٌ ولا عُجْبٌ ، ومَعْرِفَتُهُ بِزَمَانِهِ الّذِى هُوَ فِيهِ ، وَبَصَرُهُ بالنَّاس ، وَأَخْذُهُ بالقِسْطِ ، وَإِرْشَادُهُ المُسْتَرْشِدَ ، وحُسْنُ مُخَالَقَتِهِ خُلَطَاءَهُ ، وتَسْوِيَتُهُ بَيْنَ قَلْبِهِ وَلِسانِهِ ، وتَحَرِّيهِ العَدْلَ فى كُلِّ أَمْرٍ ، ورَحْبُ ذَرْعِهِ فِيما نَابَهُ ، واحْتِجَاجُهُ بالحُجَجِ فيما عَمِلَ ، وَحُسْنُ تَبْصِيرِهِ .

مَنْ أَرَادَ أَنْ يُبْصِرَ شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الآخِرَةِ فَبِالْعِلْمِ الّذِى بِهِ يُعْرَفُ ذلكَ ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُبْصِرَ شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الدُّنْيَا فَبِالأَشْياءِ الّتِى هِىَ تَدُلُّ عليه .

لِيَكُنِ المَرْءُ سَؤُولًا . ولْيَكُنْ فَصُولًا بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ . ولْيَكُنْ صَدُوقًا لِيُؤْمَنَ على ما قال . ولْيَكُنْ ذا عَهْدٍ لِيُوفَى لَهُ بِعَهْدِهِ . ولْيَكُنْ شَكُورًا لِيَسْتَوْجِبَ الزِّيادةَ . ولْيَكُنْ جَوَادًا لِيَكُونَ لِلْخَيْرِ أَهْلًا . ولْيَكُنْ رَحِيمًا بالمَضْرُورِينَ لِئَلَّا يُبْتَلَى بالضُّرِّ . ولْيَكُنْ وَدُودًا لِئَلَّا يَكونَ مَعْدِنًا لِأَخْلَاقِ الشَّيْطانِ . ولْيَكُنْ حَافِظًا لِلِسانِهِ مُقْبِلًا على شَأْنِهِ لِئَلَّا يُؤْخَذَ بِمَا لَمْ يَجْتَرِمْ . ولْيَكُنْ مُتَوَاضِعًا لِيُفْرَحَ لَهُ بالخَيْرِ ولا يُحْسَدَ عليه . ولْيَكُنْ قَنِعًا لِتَقَرَّ عَيْنُهُ بِمَا أُوتِيَ . ولْيُسَرَّ لِلنَّاسِ بالْخَيْرِ لِئَلَّا يُؤْذِيه الحَسَدُ . وَلْيَكُنْ حَذِرًا لِئَلَّا تَطُولَ مَخَافَتُهُ . ولا يَكُنْ[3] حَقُودًا لِئَلَّا يُضِرَّ بِنَفْسِهِ

---

(١) الإلحاف : الإلحاح فى السؤال .

(٢) فى خ : « ولا يعتز عليهم » .

(٣) فى خ : « ولا يكونن » .

إِضْرَارًا باقِيًا . وَلْيَكُنْ ذَا حَيَاء لِئَلَّا يُستَذَمَّ لِلعُلَماءِ(١) ؛ فإِنَّ مَخَافَةَ العالم مَذَمَّةَ العُلَماءِ أَشَدُّ مِنْ مَخَافَتِهِ عُقُوبَةَ السُّلطَانِ .

* * *

حَيَاةُ الشَّيْطانِ تَرْكُ العِلْمِ ، ورُوحُهُ وجَسَدُهُ الْجَهْلُ ، ومَعْدِنُهُ فى أَهْلِ الحِقْدِ والقَساوَةِ ، وَمَثْوَاهُ فى أَهْلِ الْغَضَبِ ، وَعَيْشُهُ فى المُصَارَمَةِ(٢) ، ورَجَاؤُهُ فى الإِصْرَارِ على الذُّنُوبِ .

وقال : لا يَنْبَغِى لِلْمرْءِ أَنْ يَعْتَدَّ بِعِلْمِهِ وَرَأْيِهِ مَا لَمْ يُذَاكِرْهُ ذَوِى الأَلْبابِ وما لم يُجَامِعُوهُ عَلَيْهِ ، فإِنَّهُ لا يُسْتَكْمَلُ عِلْمُ الأَشْياءِ بالْعَقْلِ الفَرْدِ .

أَعْدَلُ السِّيَرِ أَنْ تَقِيسَ النَّاسَ بِنَفْسِكَ ، فَلَا تَأْتِى إِلَيهِمْ إِلّا ما تَرْضَى أَنْ يُؤْتَى إِلَيْكَ .

وأَنْفَعُ العَقْلِ أَنْ تُحْسِنَ المَعِيشَةَ فِيما أُوتِيتَ مِنْ خَيْرٍ ، وأَلّا تَكْتَرِثَ مِنَ الشَّرِّ بِمَا لم يُصِبْكَ .

وَمِنَ العِلْمِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ لا تَعْلَمُ مالا تَعلَمُّ(٣) .

وَمِنْ أَحْسَنِ ذَوِى العُقُولِ عَقْلًا مَنْ أَحْسَنَ تَقْدِيرَ أَمْرِ مَعَاشِهِ ومَعَادِهِ تَقْدِيرًا لا يُفسِدُ عليْهِ واحِدٌ مِنْهُمَا الآخرَ(٤) . فإِنْ أَعْيَاهُ ذَلِكَ رَفَضَ الأَدْنَى ، وآثَرَ عَليهِ الأَعْظَمَ .

وقالَ : المُؤْمِنُ بِشَىْءٍ مِنَ الأَشياءِ ، وإِنْ كانَ سِحْرًا ، خَيْرٌ مِمَّنْ لا يُؤْمِن بشىْءٍ ولا يَرْجُو مَعادًا .

لا تُؤَدِّى التَّوْبَةُ أَحدًا إلى النارِ ، ولا الإِصْرَارُ على الذُّنوبِ أحدًا إلى الجَنَّةِ .

---

(١) فى خ : « إلى العلماء » .

(٢) المصارمة ، أى المقاطعة .

(٣) فى خ : « بما لا تعلم » .

(٤) فى خ : « نفاذ الآخر » .

مِنْ أفْضَلِ أعْمالِ البِرِّ(١) ثلاثُ خِصالٍ : الصِّدْقُ فى الغضَبِ ، والجُودُ فى العُسْرَةِ ، والعَفْوُ عندَ القُدْرَةِ .

***

رَأْسُ الذُّنوبِ الكَذِبُ ، هُوَ يُؤَسِّسُها ، وهوَ يَتفقَّدُها و يُثَبِّتُها ، ويَتلوَّنُ ، ثلاثةَ ألوانٍ ، بالأمْنِيَّةِ ، والجُحُودِ ، والجَدَلِ . يَبْدأُ صاحِبَهُ(٢) بالأمْنِيَّةِ الكاذِبَةِ فيما يُزَيِّنُ لهُ مِنَ السَّوْآتِ(٣) فَيُشَجِّعُهُ عليها بأنَّ ذلكَ سَيَخْفَى ؛ فإذا ظَهَرَ عليهِ قابَلَهُ بالجُحُودِ والمُكابَرَةِ(٤) ؛ فإنْ أعْياهُ ذلكَ خَتَمَ بالجَدَلِ ، فَخاصَمَ عَنِ الباطِلِ ، وَوَضَعَ لهُ الحُجَجَ ، والْتَمَسَ بهِ التَّثَبُّتَ ، وكابَرَ [به](٥) الحَقَّ حَتَّى يَكُونَ مُسارِعاً لِلضَّلالَةِ ، ومُكابِرًا بالفَواحِشِ .

لا يَثْبُتُ دِينُ المرْءِ على حالَةٍ واحِدَةٍ أبدًا ، ولكِنَّهُ لا يَزالُ إمَّا زائِدًا وإمَّا ناقِصاً .

مِنْ عَلاماتِ اللَّئيمِ المُخادِعِ أنْ يَكُونَ حَسَنَ القَوْلِ ، سَيِّئَ الفِعْلِ ، بَعيدَ الغَضَبِ ، قَريبَ الحَسَدِ ، حَمُولاً لِلْفُحْشِ ، مُجازِياً بالحِقْدِ ، مُتَكَلِّفاً لِلجُودِ ، صَغيرَ الخَطَرِ(٦) ، مُتَوَسِّعاً فيما ليسَ لهُ ، ضَيِّقًا فيما يَمْلِكُ .

وكانَ يُقالُ : إذا تَخالَجَتْكَ(٧) الأُمُورُ فاسْتَقِلَّ أعْظَمَها خَطَرًا(٨) ؛ فإنْ لم يَسْتَبِنْ ذلكَ ، فأرْجاها دَرَكاً ؛ فإنِ اشْتَبَهَ ذلكَ ، فأجْدَرُها أنْ لا يَكُونَ لهُ مَرْجُوعٌ حينَ(٩) تُوَلِّى فُرْصَتُهُ .

وكانَ يُقالُ : الرِّجالُ أرْبَعةٌ : اثْنانِ تَخْتَبِرُ ما عِنْدَهُما بالتَّجْرِبَةِ ، واثْنانِ قدْ كُفِيتَ تَجْرِبَتَهُما .

---

(١) فى خ : « من أفضل البر » .
(٢) فى خ : « يبدو لصاحبه » .
(٣) فى خ : « الشهوات » .
(٤) المكابرة ، هى مدافعة الحق بعد العلم به .
(٥) هذه التكملة من خ .
(٦) الخطر ، هنا ، بمعنى القدر والمنزلة .
(٧) تخالجتك ، أى تجاذبتك .
(٨) فى خ : فاشتغل بأعظمها خطرا » .
(٩) فى خ : « حتى » .

فأمّا اللّذانِ تَحتاجُ إلى تجربتِهما ، فإنّ أحدَهُما برٌّ كانَ مَعَ أبْرارٍ ، والآخرَ فاجرٌ كانَ مَعَ فُجّارٍ . فإنّكَ لا تَدْرِى لعلَّ البرَّ منهُما إذا خالطَ الفُجّارَ أنْ يتبدّلَ فيصيرَ فاجرًا ، ولعلَّ الفاجرَ منهما إذا خالطَ الأبرارَ أنْ يتبدّلَ فيصيرَ برًّا ، فيتبدّلُ البرُّ فاجرًا والفاجرُ برًّا .

وأمّا اللّذانِ قدْ كُفيتَ تجربتَهما وتبيّنَ لكَ ضوءُ أمرِهما ، فإنّ أحدَهُما فاجرٌ كانَ فى أبرارٍ ، والآخرَ برٌّ كانَ فى فُجّارٍ .

* * *

حقٌّ على العاقلِ أنْ يتّخذَ مرآتينِ ، فينظرَ مِنْ إحداهما فى مساوِئ نفسِهِ فيتصاغرَ بها ، ويُصلحَ ما استطاعَ منها ؛ وينظرَ مِنَ الأخرى فى محاسنِ النّاسِ فيُحلّيهمْ بها ، ويأخذَ ما استطاعَ منها .

احذرْ خُصومةَ الأهلِ والولدِ والصّديقِ والضعيفِ ، واحتجِجْ عليهمْ بالحُجَجِ .

لا يُوقِعَنّكَ بلاءٌ تخلّصْتَ منهُ فى آخرَ لعلّكَ لا تخلُص منهُ .

الورِعُ لا يَخدَعُ ، والأريبُ لا يُخدَعُ .

ومِنْ ورَعِ الرّجُلِ أنْ لا يقولَ مالا يعلَمُ ، ومِنَ الإربِ(١) أنْ يتثبّتَ فيما يعلمُ .

وكانَ يُقالُ : عملُ الرّجُلِ فيما يعلَمُ أنّهُ خطأٌ هوًى ، والهوَى آفةُ العفافِ . وتركُهُ العملَ بما يعلَمُ أنّهُ صوابٌ تهاوُنٌ ، والتّهاونُ آفةُ الدّينِ . وإقدامُهُ على مالا يدرِى أصوابٌ هوَ أمْ خطأٌ جِماحٌ ، والجِماحُ آفةُ العقلِ .

وكانَ يُقالُ : وقّرْ مَنْ فوقَكَ ، ولِنْ لِمَنْ دُونَكَ ، وأحسِنْ مُواتاةَ أكفائِكَ ، وليكُنْ آثرَ ذلكَ عندكَ مُواتاةُ الإخوانِ(٢) ؛ فإنّ ذلكَ هوَ الذى يَشهَدُ لكَ أن

(١) الإرب (بالكسر) : الدهاء والبصر بالأمور .

(٢) كذا فى خ . وفى الأصل : « الأكفاء » .

إجْلاَلُكَ مَنْ فَوقَكَ ليسَ بِخُضُوعٍ منكَ لَهُمْ ، وأنَّ لِينَكَ لِمَنْ دُونَكَ ليسَ لِالْتِماس خِدْمَتِهِمْ .

***

خَمْسَةٌ مُفَرِّطُونَ فى خَمْسَةِ أشْياءَ مُنْدَمُّونَ عليها(١) : الوَاهِنُ(٢) المفرِّطُ إذا فاتَهُ العَمَلُ ، والمُنْقَطِعُ مِنْ إخْوَانِهِ وصَديقِهِ إذَا نَابَتْ النَّوائِبُ ، والمُسْتَمْكِنُ مِنْهُ عَدُوُّهُ لِسُوءِ رَأْيِهِ إذا تَذَكَّرَ عَجْزَهُ ، والمُفَارِقُ لِلزَّوْجَةِ الصَّالِحَةِ إذا ابْتُلِيَ بالطَّالِحَةِ ، والجَرِئُ على الذُّنُوبِ إذا حَضَرَهُ المَوْتُ .

أُمُورٌ لا تَصْلُحُ إلّا بِقَرَائِنِها : لا يَنْفَعُ العَقْلُ بِغَيْرِ وَرَعٍ ، ولا الحِفْظُ بِغَيْرِ عَقْلٍ ، ولا شِدَّةُ البَطْشِ بِغَيْرِ شِدَّةِ القَلْبِ ، ولا الجَمَالُ بِغَيْرِ حَلَاوَةٍ ، ولا الحَسَبُ بِغَيْرِ أَدَبٍ ، ولا السُّرُورُ بِغَيْرِ أَمْنٍ ، ولا الغِنَى بغَيْرِ جُودٍ ، ولا المُرُوءَةُ بِغَيْرِ تَوَاضُعٍ ، ولا الخَفْضُ بِغَيْرِ كِفَايَةٍ ، ولا الاجْتِهادُ بِغَيْرِ تَوْفِيقٍ .

أُمُورٌ هُنَّ تَبَعٌ لِأُمُورٍ : فالمُرُوءاتُ كُلُّها تَبَعٌ لِلعَقْلِ ، والرَّأْيُ تَبَعٌ لِلتَّجْرِبَةِ ، والغِبْطَةُ تَبَعٌ لِحُسْنِ الثناء ، والسُّرُورُ تَبَعٌ للأَمْنِ ، والقَرَابَةُ تَبَعٌ لِلْمَوَدَّةِ ، والعَمَلُ تَبَعٌ لِلقَدْرِ ، والجِدَةُ(٣) تَبَعٌ لِلإِنْفَاقِ .

أَصْلُ العَقْلِ التَّثَبُّتُ ، وثَمَرَتُهُ السَّلَامَةُ ؛ وأَصْلُ الوَرَعِ القَناعَة ، وثَمَرَتُهُ النُّجْحُ .

لا يُذْكَرُ الفاجِرُ فى العُقَلاءِ ، ولا الكَذُوبُ فى الأَعِفَّاءِ ، ولا الخَذُولُ فى الكُرَماءِ ، ولا الكَفُورُ بِشَيْءٍ مِنَ الخَيْرِ .

***

لا تُؤَاخِيَنَّ خِبًّا(٤) ، ولا تَسْتَنْصِرَنَّ عَاجِزًا ، ولا تَسْتَعِينَنَّ كَسِلًا .

---

(١) ندم ، كفرح ، عليه ندما وندامة وتندم : أسف ، فهو نادم وندمان ، وفى خ : « خمسة غير مغتبطين بخمسة أشياء يتندمون عليها » .

(٢) الواهن ، أى الضعيف فى العمل التارك له .

(٣) الجدة ، أى وجدان المال وإدراكه .

(٤) خبا ، أى خداعا .

إنَّ مِنْ أعْظَمِ ما يُرَوِّحُ بِهِ المَرْءُ نفسَهُ أنْ لا يَجْرِىَ لِمَا يَهْوَى ، وليْسَ كائِنًا إلّا لِمَا لا يَهْوَى ، وَهُوَ لَا مَحالَةَ كائِنٌ .

اغْتَنِمْ مِنَ الخَيْرِ ما تَعَجَّلْتَ ، ومِنَ الأهْوَاءِ مَا سَوَّفْتَ[١] ، ومِن النَّصَبِ[٢] ما عادَ عَلَيْكَ ، ولا تَفْرَحْ بالبَطالة ، ولا تَجْبُنْ عن العَمَل .

مَنِ اسْتَعْظَمَ مِنَ الدُّنيا شَيْئًا فَبَطِرَ ، واسْتَصْغَرَ مِنَ الْبِرِّ[٣] شَيْئًا فتَهاوَنَ ، واحْتَقَرَ مِنَ الإثْمِ شَيْئًا فاجْتَرَأَ عليه ، واُغْتَرَّ بعَدُوٍّ وإنْ قَلَّ فلَمْ يَحْذَرْهُ ، فذَلِكَ مِنْ ضَيَاعِ العقل .

لا يَسْتَخِفُّ ذُو العَقْلِ بأَحَدٍ ، وأَحَقُّ مَنْ لم يُسْتَخَفَّ بِهِ ثلاثَةٌ : الأَتْقِياء ، والوُلاةُ ، والإخْوَانُ . فإنّهُ مَنِ اسْتَخَفَّ بالأتْقِياءِ أَهْلَكَ دِينَهُ ، وَمَنِ اسْتَخَفَّ بالوُلاةِ أهْلَكَ دُنْياه ، ومَنِ اسْتَخَفَّ بالإخْوَانِ أفْسَدَ مُروءَتَهُ .

مَنْ حاوَلَ الأُمُورَ احْتاجَ فيها إلى سِتّ : الرَّأْيِ[٤] ، والتَّوْفيقِ ، والفُرْصَة ، والأعْوَانِ ، وَالأَدَبِ ، والاجْتِهادِ .

وهُنَّ أزْوَاجٌ : فالرأْيُ والأدَبُ زَوْجٌ ، لا يَكْمُلُ الأدَبُ إلّا بالرَّأْي ؛ ولا يَكْمُلُ الرأْيُ بغَيْرِ الأدَب ؛ والأعْوَانُ والفُرْصَةُ زَوْجٌ ، لا تَنْفَعُ الأعْوَانُ إلّا عِنْدَ الفُرْصَةِ ، ولا تَنْفعُ الفُرْصَةُ إلّا بِحُضُورِ الأعْوَان ؛ والتَّوْفيقُ والاجْتِهادُ زَوْجٌ ، فالاجْتِهادُ سَبَبُ التَّوْفيق ، وبالتَّوْفيقِ يَنْجَحُ الاجْتِهادُ .

يَسْلَمُ العاقِلُ مِنْ عِظَامِ الذُّنُوبِ والعُيُوبِ بالقَناعَةِ ومُحاسَبَةِ النَّفْس .

لا تَجِدُ العاقِلَ يُحَدِّثُ مَنْ يَخَافُ تَكْذِيبَهُ ، ولا يَسْأَلُ مَنْ يَخافُ مَنْعَهُ ، ولا يَعِدُ ما لا يَجِدُ إنْجازَهُ ، ولا يَرْجُو ما يُعَنَّفُ بِرَجَائِهِ ، ولا يُقدِمُ على ما يَخافُ العَجْزَ عَنْهُ .

وَهُوَ يُسَخِّى نَفْسَهُ[٥] عمّا يُغْبَطُ بِهِ القَوّالونَ خُرُوجًا مِنْ عَيْبِ التَّكْذيبِ ، ويُسَخِّى

(١) أى مطلت . (٢) التعب . (٣) فى خ : « من الدنيا » .

(٤) فى خ : « العلم » .

(٥) فى خ : « بنفسه » . وسخى نفسه وبنفسه ، أى ترك الأمر ولم تنازعه نفسه فيه .

نَفْسَهُ عمَّا يُنالُ بِهِ السَّائِلُونَ سَلَامَةً (٢) مِنْ مَذَلَّةِ المَسْأَلَةِ ، ويُسَخِّى نَفْسَهُ عن مَحْمَدَةِ المَوَاعِيدِ بَرَاءَةً مِنْ مَذَمةِ الخُلْفِ ، وَيُسَخِّى نَفْسَهُ عَنْ مَرَاتِبِ المُقْدِمِينَ ما يَرَى مِنْ فَضائِحِ المُقَصِّرِينَ .

لا عَقْلَ لِمَنْ أَغْفَلَهُ عَنْ آخرَتِهِ ما يَجِدُهُ مِنْ لَذَّةِ دُنْياهُ . ولَيْسَ مِنَ العقلِ أَنْ يَحْرِمَهُ حَظَّهُ مِنَ الدُّنْيا بَصَرُهُ بِزَوَالِها .

* * *

حازَ الخيْرَ رَجُلانِ : سَعِيدٌ ومَرْجُوٌّ . فالسعيدُ الفالِجُ (٣) ، والمَرْجُوُّ مَنْ لمْ يَخْصِمْ . والفالِجُ الصَّالِحُ ما دَامَ فى قَيْدِ الْحَياةِ وتَعَرُّضِ الفِتَنِ فى مُخاصَمَةِ الخُصَماءِ مِنَ الاهْوَاءِ والأَعْدَاءِ .

السَّعيدُ يُرَغِّبُهُ اللهُ فى الآخِرَةِ حَتَّى يَقُولَ لا شَىْءَ غَيْرُها . فإذا هَضَمَ دُنياهُ وَزَهِدَ فِيها لِآخِرَتِهِ لمْ يَحْرِمْهُ اللهُ بذَلِكَ نَصِيبَهُ مِنَ الدُّنْيا ، ولمْ يَنْقُصْهُ مِنْ سُرُورِهِ فِيها . والشَّقِىُّ يُرَغِّبُهُ الشَّيْطانُ فى الدُّنْيا حَتّى يَقُولَ لا شَىْءَ غَيْرُها ، فَيُعَجِّلُ اللهُ لهُ التَّنْغِيصَ فى الدُّنْيا الّتِى آثَرَ ، مَعَ الخِزْىِ الّذِى يَلْقَى بَعْدَها .

الرِّجالُ أَرْبَعَةٌ : جَوَادٌ ، وبَخِيلٌ ، ومُسْرِفٌ ، ومُقْتَصِدٌ .

فالجَوَاد الذى يُوَجِّهُ نَصِيبَ دُنْياهُ جَمِيعاً فى أَمْرِ آخِرَتِهِ . والبَخِيلُ الّذى لا يُعْطِى واحِدَةً مِنْهُما نَصِيبَهَا . والمُسْرِفُ الّذى يَجْمَعُهُما لِدُنْياهُ . والمُقْتَصِدُ الّذى يُلْحِقُ بِكُلِّ واحِدَةٍ مِنهُما نَصِيبَهَا .

أَغْنَى النَّاسِ أَكْثَرُهُمْ إِحْساناً .

قالَ رَجلٌ لِحَكِيمٍ : ما خَيْرُ ما يُؤْتَى المَرْءُ ؟ قالَ : غَرِيزَةُ عَقْلٍ . قالَ : فإِنْ لمْ تَكُنْ ؟ قالَ : فَتَعَلُّمُ عِلْمٍ . قالَ : فإِنْ حُرِمَهُ ؟ قالَ : صِدْقُ اللِّسانِ . قالَ : فإِن حُرِمَهُ ؟ قالَ :

---

(١) فى الأصل « سلامته » . وما أثبتنا من خ .

(٢) الفالج : الظافر والفائز .

سَكْت(١) طَوِيلٌ. قالَ: فإنْ حُرِمَهُ؟ قالَ: مِيتَةٌ عاجِلَةٌ.

مِنْ أشدِّ عُيُوبِ الإنْسانِ خَفاءُ عُيُوبِهِ عليهِ. فإنَّهُ مَنْ خَفِيَ عليهِ عَيْبُهُ خَفِيَت عليهِ مَحاسِنُ غَيْرِهِ. ومَنْ خَفِيَ عليهِ عَيْبُ نَفْسِهِ ومَحاسِنُ غَيْرِهِ فلن(٢) يُقْلِعُ عَنْ عَيْبِهِ الذى لا يَعْرِفُ، ولَنْ ينالَ محاسِنَ غَيْرِهِ الَّتِى لا يُبْصِرُها أبدًا.

[خُمُولُ الذِّكْرِ أجمَلُ مِنَ الذِّكْرِ الذَّمِيمِ.

لا يُوجَدُ الفَخُورُ مَحْمُوداً، ولا الغَضُوبُ مَسْروراً، ولا الحُرُّ حَرِيصاً، ولا الكَرِيمُ حَسُوداً، ولا الشَّرِهُ غَنِيًّا، ولا المَلُولُ ذَا إخْوانٍ](٣).

خِصالٌ يُسَرُّ بها الجاهِلُ، كُلُّها كائِنٌ عليهِ وَبالاً: مِنْها أنْ يَفْخَرَ مِنَ العِلْمِ والمُرُوءَةِ بِمَا لَيْسَ عِنْدَهُ.

ومِنها أنْ يَرَى بالأَخْيارِ مِنَ الاِستِهانَةِ والجَفْوَةِ ما يُشْمِتُهُ بِهِمْ.

ومِنْها أنْ يُناقِلَ(٤) عالِماً وَدِيعاً مُنْصِفاً لَهُ فى القَوْلِ، فَيَشْتَدُّ صَوْتُ ذلِكَ الجاهِلِ عليهِ، ثُمَّ يُفْلِجُهُ(٥) نُظَرَاؤُهُ مِنَ الجُهَّالِ حَوْلَهُ، بِشِدَّةِ الصَّوْتِ وَكَثْرَةِ الضَّحِكِ.

ومِنها أنْ تَفْرُطَ منهُ الكَلِمَةُ أوِ الفَعْلَةُ المُعْجِبَةُ لِلقَوْمِ فَيَذْكُرَ بِها. ومِنها أنْ يَكُونَ مَجْلِسُهُ فى المَحْفِلِ(٦) أوْ عندَ السُّلْطانِ فَوْقَ مَجالِسِ أهْلِ الفَضْلِ عليهِ.

***

مِنَ الدَّلِيلِ على سَخافَةِ المُتَكَلِّمِ أنْ يَكُونَ ما يُرَى مِنْ ضَحِكِهِ لَيْسَ على حسَبِ ما عندَهُ مِنَ القَوْلِ، أوْ يُجاذِبَ الرَّجُلَ الكَلامَ وهُوَ يُكَلِّمُ صاحِبَهُ لِيَكُونَ هوَ المُتَكَلِّمَ(٧)، أوْ يَتَمَنَّى أنْ يَكُونَ صاحِبُهُ قَدْ فَرَغَ وأَنْصَتَ لَهُ، فإذا أَنصت له(٨) لَمْ يُحْسِنِ الكَلامَ.

(١) فى ح: «سكوت. والسكت السكوت بمعنى».
(٢) فى الأصل «لم». وما أثبتناه عن خ. (٣) التكملة من خ.
(٤) الناقلة: المحادثة. (٥) أى يظفره؛ يقال. أفلجه، إذا أظفره وأظهره.
(٦) فى خ: «وعند».
(٧) فى خ: «أو الرجل يكلم صاحبه فيجاذبه الكلام ليكون هو المتكلم».
(٨) فى خ: «نصت». ونصت وأنصت، بمعنى.

فَضْلُ العِلمِ فى غيْرِ الدِّينِ مَهْلَكَةٌ . وَكَثْرَةُ الأدبِ فى غيْرِ رِضْوَانِ اللهِ ومَنْفعةِ الأخْبارِ قائِدٌ إلى النّارِ . والحِفْظُ الذَّكِىُّ(١) الوَاعِى بغَيْرِ العِلمِ النّافعِ مُضِرٌّ بالعَمَلِ الصَّالِحِ . والعَقْلُ غيْرُ الوَازِعِ عَنِ الذُّنُوبِ خازِنٌ للشَّيْطان .

لا يُؤْمِنَنَّكَ شَرَّ الجاهِلِ قَرَابَةٌ ولا جِوارٌ ولا إلْفٌ ؛ فإنَّ أخْوفَ ما يَكُونُ الإنْسَانُ لِحَرِيقِ النّارِ أقْرَبُ ما يكُونُ مِنهَا ، وكذلِكَ الجاهِلُ ، إنْ جاوَرَكَ أنْصَبَكَ(٢) ، وَإنْ ناسَبَكَ جَنَى عَليْكَ . وَإنْ ألِفَكَ حَمَلَ عَليْكَ مالا تُطِيقُ ، وَإنْ عاشَرَكَ آذاكَ وأخافَكَ ؛ مَعَ أنّهُ عِنْدَ الجُوعِ سَبُعٌ ضَارٍ ، وعِنْدَ الشِّبَعِ مَلِكٌ فَظٌّ ، وعِنْدَ المُوافَقَةِ فى الدِّينِ قائِدٌ إلى جَهَنَّمَ . فأنْتَ بالهَرَبِ منهُ أحَقُّ مِنْكَ بالهَرَبِ مِنْ سَمِّ الأسَاوِدِ(٣) ، والحَرِيقِ المَخُوفِ ، والدَّيْنِ الفادِحِ(٤) ، والدَّاءِ العَيَاءِ(٥) .

[و] كانَ يُقالُ : قارِبْ عَدُوَّكَ بعضَ المُقَارَبَةِ تَنَلْ حاجَتَكَ ، ولا تقارِبْهُ كلَّ المُقَارَبَةِ فَيَجْتَرِئَ عليكَ عدُوُّكَ ، وتُذِلَّ نَفْسَكَ ، ويَرْغَبَ عَنْكَ ناصِرُكَ . ومَثَلُ ذاكَ مَثَلُ العُودِ المَنْصُوبِ فى الشَّمْسِ إنْ أمَلْتَه قليلًا زادَ ظِلُّهُ ؛ وإنْ جاوَزْتَ الحَدَّ فى إمالَتِه نَقَصَ الظِّلُّ .

***

الحازِمُ لا يَأْمَنُ عَدُوَّهُ عَلَى كلِّ حال(٦) : إنْ كانَ بَعِيدًا لَمْ يَأْمَنْ مِنْ مُعَاوَدَتِهِ(٧) ، وإنْ كانَ قَرِيبًا لَمْ يأْمَنْ مُوَاثَبَتَهُ ، وإنْ رَآهُ(٨) مُتَكَشِّفًا لَم يَأْمَنِ اسْتِطْرَادَهُ(٩) كَمِينَهُ ، وإنْ رَآهُ وَحِيدًا لَمْ يأمَنْ مَكْرَهُ .

---

(١) فى خ : « الذاكى » . (٢) أنصبك : أتعبك .

(٣) جمع أسود ، وهو الحيد العظيمة . (٤) الفادح : أى المثقل ، من فدحه الدين : أثقله

(٥) العياء : أى الصعب الذى لا دواء له ولا يبرأ منه ، كأنه أعيا الأطباء .

(٦) فى خ : « على حال » . (٧) فى خ : « مغاورته » .

(٨) فى خ : « كان » .

(٩) استطراده : أى كيده ، أو الاستطراد نوع من المكيدة .

المَلِكُ الحازِمُ يَزْدادُ بِرأيِ الوُزَراءِ الحَزَمَةِ ، كما يَزْدادُ البَحْرُ بِمَوادِّهِ مِنَ الأَنْهارِ.

الظَّفَرُ بالحَزْمِ ، والحَزْمُ بِإجالَةِ الرَّأيِ ، والرَّأيُ بِتِكْرارِ النَّظَرِ وبِتَحْصِينِ الأَسْرارِ[١] .

إنَّ المُسْتَشِيرَ وإنْ كانَ أَفْضَلَ مِنَ المُسْتَشارِ رَأْيًا ، فَهُوَ يَزْدادُ بِرَأْيِهِ رَأْيًا ، كما تَزْدادُ النَّارُ بالوَدَكِ[٢] ضَوْءًا . وعلى المُسْتَشارِ مُوافَقَةُ المُسْتَشِيرِ على صَوابِ ما يَرَى ، والرِّفْقُ بِهِ فى تَبْصِيرِ خَطَإٍ إنْ أَتَى بِهِ ، وتَقْلِيبُ الرَّأْيِ فِيما شَكَّا فيهِ ، حَتَّى تَسْتَقِيمَ لَهُما مُشاوَرَتُهُما .

لا يَطْمَعَنَّ ذُو الكِبْرِ فى حُسْنِ الثناءِ ، ولَا الخَبُّ[٣] فى كَثْرَةِ الصَّدِيقِ ، ولا السَّيِّئُ الأَدَبِ فى الشَّرَفِ ، ولا الشَّحِيحُ فى المَحْمَدَةِ ، ولا الحَرِيصُ فى الإِخْوانِ ، ولا المُعْجَب بِثَبَاتِ المُلْكِ .

صَرْعَةُ اللَّيِّنِ أَشَدُّ اسْتِئْصالاً مِنْ صَرْعَةِ المُكابَرَةِ .

أَرْبَعَةُ أَشْياءَ لا يُسْتَقَلُّ مِنها قليلٌ ، النَّارُ ، والمَرَضُ ، والعَدُوُّ ، والدَّيْنُ .

أَحَقُّ النَّاسِ بالتَّوْقِيرِ المَلِكُ الحَلِيمُ ، العالِمُ بالأُمُورِ وفُرَصِ الأَعْمالِ لم ومَواضِعِ الشِّدَّةِ واللِّينِ والغَضَبِ والرِّضا والمُعاجَلَةِ والأَناةِ ، النَّاظِرُ فى الأَمْرِ يَوْمَهُ وغَدَهُ ، وعَواقِبِ أَعْمالِهِ .

السَّبَبُ الَّذِى يُدْرِكُ بِهِ العاجِزُ حاجَتَهُ هُوَ الَّذِى يَحُولُ بَيْنَ الحازِمِ وبَيْنَ طَلِبَتِهِ .

إنَّ أَهْلَ العَقْلِ والكَرَمِ يَبْتَغُونَ إلَى كلِّ مَعْرُوفٍ وُصْلَةً وسَبِيلاً . والمَوَدَّةُ بَيْنَ الأَخْيارِ سَرِيعٌ اتِّصالُها ، بَطِيءٌ انْقِطاعُها . ومَثَلُ ذلكَ مَثَلُ كُوبِ الذَّهَبِ الَّذِى هُوَ بَطِيءُ الانْكِسارِ هَيِّنُ الإِصْلاحِ . والمَوَدَّةُ بَيْنَ الأَشْرارِ سَرِيعٌ انْقِطاعُها ، بَطِيءٌ اتصالُها ؛ كالكُوزِ مِنَ الفَخَّارِ يَكْسِرُهُ أَدْنَى عَبَثٍ ثُمَّ لا وَصلَ[٤] لَهُ أَبَدًا .

---

(١) فى خ : « والرأى بتحصين الأسرار » . (٢) الودك : الدسم والدهن والشحم .
(٣) الخب : الرجل الخداع . (١) كذا فى . وفى الأصل : « لا يوصل » .

والكَرِيمُ يَمْنَحُ الرَّجُلُ مَوَدَّتَهُ عَنْ لِقَاءَةٍ واحِدَةٍ ، أو مَعْرِفَةِ يَوْمٍ ؛ واللَّئِيمُ لا يَصِلُ أحدًا إلّا عَنْ رَغْبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ .

وإنَّ أَهْلَ الدُّنْيا يَتَعاطَوْنَ فِيما بَيْنَهُمْ أَمْرَيْنِ وَيَتَوَاصَلُونَ[١] عَلَيهما : ذَاتَ النَّفْسِ ، وَذاتَ اليَدِ .

فأَمَّا المُتَبادِلُونَ ذاتَ اليَدِ فَهُمُ المُتَعاوِنونَ المُسْتَمْتِعُونَ الذين يَلْتَمِسُ بعضُهُمُ الانتِفاعَ بِبَعْضٍ مُتَاجَرَةً[٢] ومُكَايَلَةً .

ما التَّبَعُ والأعْوَانُ والصَّدِيقُ والحَشَمُ إلّا لِلْمالِ . ولا يُظْهِرُ المُرُوءَةَ إلّا المَالُ . ولا الرَّأْيُ ولا القُوَّةُ إلّا بالمَالِ .

ومَنْ لا إخْوانَ لَهُ فلا أَهْلَ لهُ ، ومَنْ لا أولادَ لهُ فلا ذِكْرَ لهُ ، ومَنْ لا عَقْلَ لهُ فلا دُنْيا لهُ ولا آخِرَةَ ، ومَنْ لا مَالَ لهُ فلا شَيْءَ لهُ .

والفَقْرُ دَاعِيَةٌ إلى صاحِبِهِ مَقْتَ النَّاسِ ، وهُوَ مَسْلَبَةٌ لِلعَقْلِ والمُرُوءَةِ ، ومَذْهَبَةٌ لِلعِلْمِ والأَدَبِ ، ومَعْدِنٌ لِلتُّهَمَةِ ، ومَجْمَعَةٌ لِلبَلَايَا . ومَنْ نَزَلَ بِهِ الفَقْرُ والفَاقَةُ لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ تَرْكِ الحَيَاءِ . ومَنْ ذَهَبَ حَيَاؤُهُ ذَهَبَ سُرُورُه ، ومَن ذَهَبَ سُرُورُهُ مَقَتَ ، ومَن مَقَتَ أُوذِيَ ، وَمَنْ أُوذِيَ حَزِنَ ، ومَنْ حَزِنَ ذَهَبَ عَقْلُهُ ، وَاسْتُنْكِرَ حِفْظُهُ وفَهْمُهُ ، ومَنْ أُصِيبَ فى عَقْلِهِ وفَهْمِهِ وحِفْظِهِ كانَ أَكْثَرُ قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ فِيما يكُونُ عَلَيهِ لا لهُ .

فإذا افْتَقَرَ الرَّجُلُ اتَّهَمَهُ مَنْ كانَ لهُ مُؤْتَمِنًا ، وأَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ مَنْ كانَ يَظُنُّ بِهِ حَسَنًا . فإنْ أَذْنَبَ غَيْرُهُ أَظَنُّوهُ ، وكانَ[٣] لِلتُّهَمَةِ وَسُوءِ الظَّنِّ مَوْضِعًا .

ولَيسَ خَلَّةٌ هِيَ لِلغَنِيِّ مَدْحٌ إلاّ هِيَ لِلفَقِيرِ عَيْبٌ :

فإن كانَ شُجَاعًا سُمِّيَ أَهْوَجَ[٤] ؛ وَإنْ كانَ جَوَادًا سُمِّيَ مُفْسِدًا ؛ وَإنْ كانَ

(١) فى خ : « ويتواطؤون » .

(٢) فى خ : « مناجزة » . (٣) كذ فى خ . وفى الأصل : « وإن كان » .

(٤) الهوج (بفتحتين) : طول فى حمق وطيش وتسرع .

حَلِيماً سُمِّيَ ضَعِيفًا ؛ وَإِنْ كانَ وَقُورًا سُمِّيَ بَلِيدًا ؛ وَإِنْ كانَ لَسِنًا سُمِّيَ مِهْذَارًا(١) ؛ وَإِنْ كانَ صَمُوتًا سُمِّيَ عَيِيًّا(٢) .

وكانَ يُقَال : مَنِ ابْتُلِيَ بِمَرَضٍ فى جَسَدِهِ لا يُفَارِقُهُ ، أَوْ بِفِرَاقِ الأَحِبَّةِ والإِخْوَانِ ، أَوْ بالغُرْبَةِ حَيْثُ لا يَعْرِفُ مَبِيتًا ولا مَقِيلًا ولا يَرْجُو إِيَابًا ، أَوْ بِفَاقَةٍ تَضْطَرُّهُ إلى المَسْأَلَةِ ، فالحَيَاةُ لهُ مَوْتٌ ، والمَوْتُ لهُ رَاحَةٌ .

* * *

وَجَدْنا البَلَايا فى الدُّنيا إنَّمَا يَسُوقُها إلى أَهْلِها الحِرْصُ والشَّرَهُ(٣). فلا يَزَالُ صاحِبُ الدُّنْيا يَتَقَلَّبُ فِى بَلِيَّةٍ وتَعَبٍ ؛ لأَنَّهُ لا يَزَالُ بِخَلَّةِ الحِرْصِ والشَّرَهِ .

وسَمِعْتُ العُلَمَاءَ قالوا : لَا عَقْلَ كالتَّدْبيرِ ، ولا وَرَعَ كالْكَفِّ ، ولا حَسَبَ كَحُسْنِ الخُلُقِ ، ولا غِنَى كالرِّضا . وأَحَقُّ ما صُبِرَ عَليهِ مالا سَبِيلَ إلى تَغْيِيرِهِ . وأَفْضَلُ البِرِّ الرَّحْمَةُ . ورَأْسُ المَوَدَّةِ الاسْتِرْسَالُ(٤) . ورَأْسُ العَقْلِ المَعْرِفَةُ بِمَا يَكُونُ وما لَا يكونُ . وطِيبُ النَّفْسِ حُسْنُ الانْصِرَافِ عَمَّا لا سَبِيلَ إِلَيهِ . ولَيْسَ فى الدنيا سُرُورٌ يَعْدِلُ صُحْبَةَ الإِخْوَانِ ، ولا فيها غَمٌّ يَعْدِلُ غَمَّ فَقْدِهِمْ .

لا يَتِمُّ حُسْنُ الكَلامِ إلَّا بِحُسْنِ العَمَلِ ، كالمَرِيضِ الَّذِى قَدْ عَلِمَ دَوَاءَ نَفْسِهِ ، فإِذَا هوَ لم يَتَدَاوَ بِهِ لم يُغْنِهِ عِلْمُهُ .

وَالرَّجُلُ ذُو المُرُوءَةِ قَدْ يُكْرَمُ عَلَى غَيْرِ مالٍ ، كالأَسَدِ الذى يُهاب وَإِنْ كانَ عَقِيراً(٥) . والرَّجُلُ الَّذى لامُرُوءَةَ لهُ يُهانُ وَإِنْ كَثُرَ مالُهُ ، كالْكَلْبِ الذى يَهُونُ

---

(١) مهذار ، أى كثير الهذر (بفتحتين) ، وهو الهذيان .

(٢) العى : ضد البيان ؛ يقال : عيى فلان فى منطقه ، كرضى ، أى حصر .

(٣) الشره : غلبة الحرص .

(٤) الاسترسال : الاستئناس والانبساط .

(٥) العقير : المعقور . والعقر : الجرح .

عَلَى النَّاسِ وَإِنْ طُوِّقَ وخُلْخِلَ[١] .

لِيَحْسُنْ تعاهُدُكَ نفسَكَ بِمَا تَكُونُ بِهِ لِلخَيْرِ أَهْلاً ؛ فإنَّكَ إذا فعلتَ ذلكَ أتاكَ الخَيْرُ يطْلُبكَ ، كما يَطْلُبُ المَاءُ السَّيْلَ إلى الحُدُورِ[٢] .

[وَقِيلَ فى أشياء : ليسَ لهَا ثَباتٌ ولا بقاء : ظِلُّ الغَمَامِ ، وخُلَّةُ[٣] الأشرارِ ، وعِشْقُ النِّسَاءِ ، والنَّبأُ الكاذِبُ ، والمَالُ الكَثِيرُ .

ولَيسَ يَفرَحُ العاقِلُ بالمالِ الكَثيرِ ، ولا يُحْزِنُهُ قِلَّتُهُ ؛ ولَكِنْ مالُهُ عَقلُهُ وما قَدَّمَ مِنْ صالحِ عَمَلِهِ][٤] .

***

إنّ أَوْلَى النَّاسِ بِفَضْلِ السرُورِ وكَرَمِ العَيْشِ وحُسْنِ الثَّناءِ مَنْ لا يَبْرَحُ رَحْلُهُ[٥] مِنْ إخْوَانِهِ وأَصْدِقائِهِ مِنَ الصَّالِحِينَ مَوْطُوءًا ، ولا يَزَالُ عندَهُ منهُمْ زِحامٌ ، يَسُرُّهُمْ ويَسُرُّونَهُ ، ويَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حاجاتِهِمْ وأُمُورِهِمْ ؛ فإنَّ الكَرِيمَ إذا عَثَرَ لم يُسْتَقَلَّ[٦] إلّا بالكِرَامِ ، كالفِيلِ إذا وحِلَ لم تَسْتَخْرِجْهُ إلّا الفِيَلَةُ .

لا يَرَى العاقِلُ مَعْرُوفاً صَنَعَهُ وإنْ كانَ كَثِيراً[٧] ، ولَوْ خاطَرَ بنَفْسِهِ وعَرَّضَها فى وُجُوهِ المَعْرُوفِ لم يَرَ ذلكَ عَيْباً ، بَلْ يَعْلَمُ أَنَّهُ إنَّما أَخْطَرَ الفانىَ بالباقِى ، واشْتَرَى العَظِيمَ بالصَّغِيرِ .

وأَغْبَطُ النَّاسِ عِندَ ذَوِى العُقُولِ أَكْثَرُهُمْ سائِلاً مُنْجِحًا ، ومُسْتَجِيراً آمِنًا .

لا تَعُدَّ غنِيًّا مَنْ لم يُشَارِكْ فى مالِهِ . ولا تَعُدَّ نَعِيمًا ما كانَ فيهِ تَنْغِيصٌ وسُوءُ ثناء .

---

(١) خلخل ، أى ألبس الخلخال ، وهو حلى النساء .

(٢) فى خ : « الحدورة » .

(٣) خلة الأشرار ، أى مصادقتهم .

(٤) التكملة من خ .

(٥) رحله ، أى مسكنه ومنزله .

(٦) لم يستقل ، أى لم يرفع من عثرته إلا بالكرام . من استقله ، إذا حمله ورفعه .

(٧) فى الأصل : « كثرة » . وما أثبتنا من خ .

ولا تَعُدُّ الغُنْمَ غُنْمًا إذا ساقَ غُرْمًا ، ولا الغُرْمَ غُرْمًا إذا ساقَ غُنْمًا . ولا تَعْتَدُّ مِنَ الحَيَاةِ ما كانَ فى فِرَاقِ الأَحِبَّةِ .

ومِنَ المَعُونَةِ عَلَى تَسْلِيَـةِ الهُمُومِ وسُـكُونِ النَّفْسِ لِقاءُ الأخِ أخاهُ ، وإفْضَاءُ كلٍّ واحِدٍ منهُما إلى صاحِبِه بِبَثِّهِ . وإذا فُرِّقَ بيْنَ الأَلِيفِ وأَلِيفِـه[1] ، فقَدْ سُلِبَ قَرَارَهُ ، وحُرِمَ سُرُورَهُ .

وقَلَّما[2] نَرَانا نُخَلِّفُ عَقَبَةً مِنَ البَلاءِ إلّا صِرْنا فى أُخْرَى .

لَقَدْ صَدَقَ القائِلُ الَّذِى يقُولُ : لا يَزَالُ الرَّجلُ مُسْتَمِرًّا حتَّى يَعْثُرَ[3] ، فإذا عَـثَرَ مَرَّةً وَاحِدَةً فى أرْضِ الخَبَارِ[4] ، لَجَّ[5] به العِثَارُ وإنْ مَشَى فى جَدَدٍ[6] ؛ لأَنَّ هـذا الإِنْسَانَ مُوَكَّلٌ به البَلاءُ ، فلا يَزَالُ فى تَصَرُّفٍ وتَقَلُّبٍ ، لا يدُومُ لهُ شَىْءٌ ولا يَثْبُتُ مَعَـهُ ؛ كما لا يَدُومُ لِطالِعِ النُّجُومِ طُلُوعُهُ ، ولا لآفِلِها أُفُولُهُ ، ولـكِنَّهَا فى تقَلُّبٍ وتَعَاقُبٍ . فلا يزَالُ الطَّالِعُ يَـكُونُ آفِلاً ، والآفِلُ طالِعًا .

---

(١) فى الأصل : « وإلفه » . وما أثبتنا من خ . (٢) كذا فى خ . وفى الأصل : « وقال » .
(٣) العثرة والعثار : الزلة ! يقال : عثر فى ثوبه وعثر به فرسه ، فسقط .
(٤) الخبار (كسحاب) : مالان من الأرض واسترخى ، وفى المثل : من تجنب الخبار أمن العثار .
(٥) لج ، من اللجاج ، وهو الخصومة . ضمنه معنى اشتد ، فعداه بالباء .
(٦) الجدد : الأرض المستوية الغليظة وما استرق من الرمل . وفى المثل : من سلك الجدد أمن العثار .

الدرة اليتيمة

أو

الأدب الكبير

لابن المقفع

عرضت هذه النسخة على النسخ الآتية :

١ — ط — نسخة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٩٦٦ (أدب) .

٢ — ش — » » » » » » » » ٥٧ »

٣ — ف — » المرحوم أحمد مفتاح فى كتابه مفتاح الأفكار (١٣١٤ هـ)

٤ — خ — » » أحمد زكى باشا (١٣٣٠ — ١٩١٢) .

٥ — م — » » محمد حسن نائل المرصفى (١٣٣١ — ١٩١٣) .

٦ — ك — » » الأمير شكيب أرسلان .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالَمِينَ وصَلَواته على نبيِّنا محمَّدٍ وآلِهِ الطاهرين

قالَ عبدُ اللهِ بنُ المقفَّعِ :

[إنا] (١) وَجَدْنا النّاسَ قَبْلَنا كانوا أعْظَمَ أجْسادًا (٢) ، وأوْفَرَ مَعَ أجْسادِهِمْ أحْلاماً (٣) وأشَدَّ قُوَّةً ، وأحْسَنَ بِقُوَّتِهِمْ لِلْأُمُورِ إتْقاناً ، وأطْوَلَ أعْمارًا ، وأفْضَلَ بأعْمارِهِمْ لِلْأشْياءِ اخْتِبارًا .

فَكانَ صاحِبُ الدِّينِ منهُمْ أبْلَغَ فى أمْرِ الدِّينِ عِلْماً وعَمَلاً مِنْ صاحِبِ الدِّينِ مِنّا ، وكانَ صاحِبُ الدُّنيا على مِثْلِ ذلكَ مِنَ البَلاغَةِ والفَضْلِ .

ووَجَدْناهُمْ لم يَرْضَوْا بِمَا فازُوا بهِ مِنَ الفَضْلِ لِأنْفسِهِمْ حَتّى أشْرَكونا مَعَهُمْ فِيما أدْرَكُوا مِنْ عِلْمِ الأُولى والآخِرَةِ ، فَكَتَبُوا بهِ الكُتُبَ الباقِيَةَ ، [وضَرَبوا الأمْثالَ الشّافِيَةَ] (٤) وكَفَوْنا بهِ مَؤُونَةَ التَّجارِبِ والفِطَنِ (٥) .

وبَلَغَ مِنَ اهْتِمامِهِمْ بذَلِكَ أنَّ الرَّجلَ منهُمْ كانَ يُفْتَحُ لهُ البابُ مِنَ العِلْمِ ، والكَلِمَةُ (٦) مِنَ الصَّوابِ ، وهوَ بالبَلَدِ غَيْرِ المَأْهُولِ ، فيَكْتُبُهُ على الصُّخُورِ مُبادَرَةً منهُ لِلْأجَلِ ، وكَراهِيَةً لِأن يَسْقطَ (٧) ذلكَ على مَنْ بَعْدَهُ . فَكانَ صَنِيعُهُمْ فى ذلكَ صَنِيعَ

(١) التكملة من خ ، م .
(٢) فى خ ، م ، ك : « أجساما » .
(٣) أوفى ، أى أكثر ، اسم تفضيل من وفر المال (ككرم ووعد) ، أى كثر وتم . ومصدره الوفر والوفور . والأحلام : جمع حلم (بكسر فسكون) : العقل .
(٤) التكملة من خ ، م .
(٥) المؤونة : المشقة ، والفطن : جمع ، فطنة (بالكسر) ، وهى الحذق .
(٦) فى خ ، م : « أو الكلمة » .
(٧) يسقط على من بعده ، أى يضيع عليه . وفى خ ، م : « يسقط عمن بعده » .

الوَالِدِ الشَّفِيقِ على وَلَدِهِ ، الرَّحِيمِ [البَرِّ] بِهِمْ ، الذى يَجْمَعُ لَهُمُ الأَمْوَالَ والعُقَدَ(١) إِرَادَةَ أَنْ لا تَـكُونَ عليهِمْ مؤونَةٌ فى الطَّلَبِ ، وخَشْيَةَ عَجْزِهِمْ إِنْ هُمْ طَلَبُوا .

فَمُنْتَهَى عِلْمِ عالِمِنا فى هذا الزَّمانِ أنْ يَأْخُذَ مِنْ عِلْمِهِمْ ، وغايَةُ إِحْسانِ مُحْسِنِنا أنْ يَقْتَدِىَ بِسِيرَتِهِمْ ، وأحْسَنُ ما يُصِيبُ مِنَ الحَديثِ مُحَدِّثُنا أنْ يَنْظُرَ فى كُتُبِهِمْ فيَكُونَ كأَنَّهُ إِيَّاهُمْ يُحاوِرُ(٢) ، ومِنهُم يَسْتَمِعُ .

غَيْرَ أَنَّ الذى نَجِدُ فى كُتُبِهِمْ هوَ المُنْتَخَلُ من آرائِهِمْ(٣) ، والمُنْتَقَى مِنْ أحادِيثِهِمْ . ولم نَجِدْهُمْ غادَرُوا(٤) شَيْئًا يَجِدُ واصِفٌ بَلِيغٌ فى صِفَةٍ لهُ مَقالاً لم يَسْبِقُوهُ إليه ، لا فى تَعْظِيمٍ لِلّهِ عَزَّ وجَلَّ وتَرْغِيبٍ فِيما عِندَهُ ، ولا فى تَصْغِيرٍ للدُّنيا وتَزْهِيدٍ فيها ، ولا فى تَحْرِيرِ(٥) صُنُوفِ العِلْمِ ، وتَقْسِيمِ أقْسامِها ، وتَجْزِئَةِ أجزائِها ، وتَوْضِيحِ سُبُلِها ، وتَبْيِينِ مَآخِذِها ، ولا فى وُجُوهِ الأَدَبِ وضُرُوبِ(٦) الأَخْلاقِ .

فَلَمْ يَبْقَ فى جَلِيلٍ(٧) مِنَ الأَمْرِ لِقائِلٍ بَعْدَهُمْ مَقالٌ . وقَدْ بَقِيَتْ أشْياءُ مِنْ لَطائِفِ(٨) الأُمُورِ فيها مَواضِعُ لِصِغارِ الفِطَنِ مُشْتَقَّةٌ مِنْ جِسامِ حِكَمِ الأَوَّلِينَ وقَوْلِهِمْ ، ومِنْ ذلكَ بَعْضُ ما أنا كاتِبٌ فى كِتابِى هذا مِنْ أبْوابِ الأَدَبِ الَّتِى يَحْتاجُ إِليها النَّاسُ .

* * *

(١) العقد : جمع عقدة ، وهى العقار ونحوه ، يقال : اعتقد فلان عقدة ، إذا اشترى ضيعة أو اتخذ مالا من عقار وغيره .
(٢) المحاورة : المراجعة والمجادلة . وإياهم ، مفعول يحاور ، قدم عليه للحصر .
(٣) المنتخل : المختار ، وكذلك المنتقى ، بمعناه أيضا .
(٤) غادر وأغدره : وتركه .
(٥) جمع ضرب (بفتح فسكون) : الصنف . والجليل العظيم .
(٦) وفى الأصل فقط : « هو المنتخل فى أرائهم » .
(٧) واللطائف : جمع لطيفة ، وهى من الكلام : ما غمض معناه وخفى .

باب

[فى وصف أصول الأدب فى الدين وغير ذلك] (١)

يا طَالِبَ الأَدَبِ(٢) اعْرِفِ الأُصُولَ [ثم اطْلُب](٣) الفُصُولَ(٤) ؛ فإن كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَطْلُبُونَ الفُصُولَ مَعَ إضاعَةِ الأُصُولِ ، فلا(٥ يَكُونُ دَرَكُهُمْ ٥) . ومَنْ أَحْرَزَ الأُصُولَ اكْتَفَى بِها عَنْ الفُصُولِ . و إنْ أَصَابَ الفَصْلَ بَعْدَ إحْرازِ الأَصْلِ ، فَهُوَ أَفْضَلُ .

فأَصْلُ الأَمْرِ فى الدِّينِ أَنْ تَعْتَقِدَ الإِيمانَ على الصَّوَابِ ، وتَجْتَنِبَ الكَبائِرَ ، وتُؤَدِّىَ الفَرِيضَةَ . فالزَمْ ذَلِكَ لُزُومَ مَنْ لا غناءَ بِهِ عَنهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، ومَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ(٦) إنْ حُرِمَهُ هَلَكَ . ثُمَّ إنْ قَدَرْتَ [على] أَنْ تُجاوِزَ ذلكَ إلى التَّفَقُّهِ فى الدِّينِ والعِبادَةِ ، فَهُوَ أَفْضَلُ(٧) .

وأَصْلُ الأَمْرِ فى إصْلاحِ الجَسَدِ أَلاَّ تَحْمِلَ عليهِ مِنَ المَآكِلِ والمَشارِبِ والباهِ إلا خِفافًا(٨) ، وإنْ قَدَرْتَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ جَمِيعَ مَنافِعِ الجَسَدِ ومَضَارِّهِ ، والانتِفاعَ بذَلِكَ ، فَهُوَ أَفْضَلُ .

وأَصْلُ الأَمْرِ فى البَأْسِ(٩) أَلاَّ تُحَدِّثَ نَفْسَكَ بالإِدْبارِ وأَصْحَابُكَ مُقْبِلُونَ عَلَى

---

(١) هذه التكملة وكلمة « باب » من ط و خ .

(٢) فى خ : « يا طالب العلم والأدب إن كنت نوع العلم تريد فاعرف ... الخ » . وفى م : يا طالب العلم . إن كنت نوع العلم تريد ... الخ » .

(٣) كذا فى ط . وفى سائر الأصول : « والفصول » .

(٤) الأصول : جمع أصل ، وهو فى اللغة : عبارة عما يفتقر إليه ولا يفتقر هو إلى غيره ، وفى الشرع : عبارة عما يبنى عليه غيره . والأصل : ما يثبت حكمه بنفسه ويبنى عليه غيره . والفصول : جمع فصل ، وهو خلاف الأصل ، فالفصول فروع للأصول .

(٥) فى خ ، م : « فلا تكون حقيقة دركهم » . والدرك (بفتحتين ، وسكون الراء لغة) : اسم من أدركت الشىء ؛ يقال : أدركت الشىء . إذا طلبته فلحقته ؛ وأدرك الغلام ، إذا بلغ الحلم ، فهو لحاق معنوى . كما فى المصباح ، ولم يستعمل منه فعل ثلاثى .

(٦) قوله : « ومن يعلم أنه ... الخ » معطوف على « من » الأولى فى قوله « لزوم من . الخ » .

(٧) كذا فى ط . وفى سائر الأصول : « أفضل وأكمل » . وما فى ط يتفق مع ما مضى وما سيجىء .

(٨) خفافا : جمع خفيف ، ضد الثقيل .

(٩) البأس : الشدة فى الحرب . تقول بؤس الرجل (بالضم) فهو بئيس ، أى شجاع .

عَدُوِّهِمْ ، ثُمَّ إنْ قَدَرْتَ [على] أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ حامِلٍ وآخِرَ مُنْصَرِفٍ ، مِنْ غَيْرِ تَضْيِيعٍ لِلحَذَرِ ، فهُوَ أَفْضَلُ .

وَأَصْلُ الأَمْرِ فى الجُودِ أَلّا تَضَنَّ بالحُقُوقِ عَنْ أَهْلِها ، ثم إنْ قَدَرت [على] أَنْ تزِيدَ ذَا الحقِّ عَلَى حَقِّهِ ، وتَطُولَ(١) عَلَى مَنْ لا حَقَّ لهُ(٢) ، فهُوَ أَفْضَلُ .

وأَصْلُ الأَمْرِ فى الكَلامِ أَنْ تَسْلَمَ مِنَ السَّقَطِ بالتَّحفُّظِ(٣) ، ثُمَّ إنْ قَدَرْتَ عَلَى بُلُوغِ الصَّوابِ(٤) فهُوَ أَفْضَلُ .

وأَصْلُ الأَمْرِ فى المَعيشَةِ أَن لا تَنِيَ(٥) عَنْ طَلَبِ الحلالِ ، وأَنْ تُحْسِنَ التَّقْدِيرَ لِمَا تُفِيدُ وما تُنْفِقُ . ولا يَغُرَّنَّكَ مِنْ ذلكَ سَعَةٌ تَكُونُ فِيها ؛ فإنَّ أَعْظَم الناسِ فى الدُّنْيا خَطَرًا أَحْوَجُهُمْ إلى التَّقْدِير ، والمُلُوكُ أَحْوَجُ إلى التَّقْدِيرِ مِنَ السُّوقَةِ ؛ لأَنَّ السُّوقةَ قدْ تَعيشُ بغَيْرِ مالٍ ، والمُلُوك لا قِوَامَ لهمْ إلاَّ بالمَالِ . ثم إنْ قَدَرْتَ على الرِّفْقِ ، واللُّطْفِ فى الطَّلَبِ والعِلْمِ بالمَطالِبِ ، فَهُوَ أَفْضَلُ .

* * *

وأنا وَاعِظُكَ فى أشياءَ مِنَ الأَخْلاقِ اللَّطِيفَةِ ، والأُمُورِ الغامِضَةِ ، الَّتِى لَو حَنَّكَتْكَ(٦) سِنٌّ كُنْتَ خَلِيقًا أَنْ تَعْلَمَها ، و إنْ لمْ تُخْبَرْ عنها . ولَكِنِّى أَحْبَبْتُ أَنْ أُقَدِّمَ إليكَ فِيها

(١) تطول ، أى تمتن ، من الطول (بفتح فسكون) وهو المن والإفضال .

(٢) كذا فى ط . وفى سائر الأصول : « له فافعل فهو أفضل » . وما فى ط هو الأسلوب الذى جرى عليه ابن المقفع .

(٣) السقط (بفتحتين) : الخطأ من القول والفعل وردىء المتاع .

(٤) كذا فى ط . وفى سائر الأصول : « بارع » . والبارع : الفائق ، من برع يبرع ، من باب خضع ، وبرع يبرع براعة ، من باب كرم كرامة ، إذا فضل فى علم أو غير ذلك . وإضافته إلى الصواب من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أى الصواب البارع ، على طريقة الإسناد المجازى .

(٥) لا تنى ، أى لا تقصر ، ونى ينى ، من باب تعب ووعد ، إذا ضعف وفتر .

(٦) حنكتك ، أى أحكمتك التجارب . لأن الرجل كلما تقدم فى السن تكثر تجاربه واختباره للأمور فيصير كأنه محنك ، من حنك الرجل الفرس يحنكه ، إذا جعل فيه الرسن كى يذلل ، ويقال : حنكه تحنيكا ، إذا دلك حنكه . فقولهم حنكته السن وحنكته الأمور : معناه فعلت به ما يفعل بالفرس ، إذا حنك حتى عاد مجربا مذللا ؛ وهذا استعمال مجازى .

قَوْلاً لِتَرُوضَ(١) نَفْسَكَ على مَحَاسِنِها قَبْلَ أَنْ تَجْرِىَ على عادَةِ مَساوِيها ، فإِنَّ الإِنْسانَ تَبْدر(٢) اليهِ فى شَبِيبَتِهِ المَساوِى ، وقد يَغْلِبُ عليهِ ما يَبْدُرُ إليهِ منها .

[فى وصف الحذر

إذا تقلدت شيئا من أمر السلطان وغيره]

إِنِ ابْتَليتَ بالسُّلطان(٣) فَتَعَوَّذْ بالعُلَماءِ . واعْلَمْ أَنَّ مِنَ العُجْبِ أَنْ يُبْتَلَى الرَّجُلُ بالسُّلطان(٤) ، فَيُرِيدَ أَنْ يَنْقُصَ(٥) مِنْ ساعاتِ نَصَبِهِ وعَمَلِهِ فَيَزِيدَها فى ساعاتِ دَعَتِهِ وشَهْوَتِهِ(٦) . وإِنَّما الرَّأْىُ لهُ والحقُّ عليْهِ ، أَنْ يأْخذَ لِعَمَلِهِ مِنْ جَمِيعِ شُغْلِهِ ، فيأْخذَ [له] مِنْ طَعامِهِ وشَرابِهِ ونَوْمِهِ وحَدِيثِهِ ولَهْوِهِ ونِسائِهِ [قَدْرَ ما يكون به إصلاحُ جِسْمِه وتَقْوِيةٌ له على إتمام عَمَلِه . وإنما تكون الدَّعة بعد التَّرفُّع](٧) .

فإذا تَقَلَّدْتَ شَيْئًا مِنَ أمرِ السلطان(٨) فَكُنْ فيهِ أَحَدَ رَجُلَيْنِ : إِمَّا رَجُلاً مُغْتَبِطًا(٩) بهِ ، فَحافَظَ عليهِ(١٠) مَخافَةَ أَنْ يَزُولَ عنه ؛ وإِمَّا رَجُلاً كارِهًا [له](١١) . فالكارِهُ عامِلٌ فى سُخْرَةٍ(١٢) : إِمَّا لِلْمُلوكِ ، إِنْ كانُوا هُمْ سَلَّطُوهُ ، وإِمَّا لِلّهِ [تعالى] إِنْ كانَ لَيْسَ فَوْقَهُ غيرُهُ .

[وقد علمتَ أَنَّه مَن فرَّط فى سُخْرة الملوك أَهْلكوه ، فلا تَجعل الهَلاكَ على نفسك سُلطانا ولا سبيلا](١٣) .

---

(١) راض نفسه على الشىء أكثر من استعمالها فيه ليسلس قيادها ، وهو من قولهم : راض المهر رياضة .
(٢) كذا فى ط . وبدر غيره إليه : عاجله . وفى سائر الأصول : « يبتدر » .
(٣) فى الأصل : « بالامارة » . وما أثبتنا من سائر النسخ .
(٤) فى الأصل : « بها » . وما أثبتنا من سائر النسخ .
(٥) كذا فى ط . وفى سائر الأصول : « ينتقص » .
(٦) فى خ ، م : « دعته وفراغه وشهوته وعينه ونومه » .
(٧) التكملة من ح وك ، م . (٨) كذا فى خ ، م ، ك وفى سائر الأصول : « الأعمال » .
(٩) المغتبط : المغبوط ، يقال : فلان مغتبط ، أى فى غبطة . والغبطة ، بالكسر : حسن الحال والمسرة ، والغبطة (بالكسر أيضا) : أن تتمنى مثل حال المغبوط من غير أن تريد زوالها عنه وليس بحسد ؛ يقال : غبطه بما نال ، من باب ضرب ، وغبطه أيضا فاغتبط هو . والاغتباط : التبجح بالحال الحسنة .
(١٠) فى خ ، م : « محافظا عليه » وفى ك : « فحافظ عليه (بصيغة الأمر) مخافة أن تزول عنه » .
(١١) هذه الكلمة من خ ، م ، ك . (١٢) السخرة . ماسخرته من خادم أو دابة بلا أجرة .
(١٣) التكملة من ش ، ك ، م .

إيَّاكَ ، إذا كُنْتَ والياً ، أنْ يكُونَ مِنْ شأْنِكَ حُبُّ المَدْحِ والتزْكِيَةِ ، وأن يَعْرِفَ النّاسُ ذلكَ مِنْكَ ، فتَكُونَ ثُلْمَةً مِنَ الثُّلَمِ[(١)] يَتَقَحَّمُونَ عليكَ[(٢)] مِنها ، وَباباً يَفْتَتِحُونَكَ[(٣)] منهُ ، وغِيبَةً[(٤)] يَغْتابُونَكَ بِها ، ويَضْحَكُونَ منكَ لها[(٥)] .

واعْلَمْ أنَّ قابِلَ المَدْحِ كمادِحِ نَفْسِهِ . والمَرْءُ جَديرٌ[(٦)] أنْ يَكُونَ حُبُّهُ المَدْحَ هُوَ الذِي يَحْمِلُه على رَدِّهِ ، فإنَّ الرّادَّ لهُ مَحْمُودٌ ، والقابِلَ لهُ[(٧)] مَعِيبٌ .

* * *

لِتَكن حاجَتُكَ فى الوِلايَةِ إلى ثَلاثِ خِصالٍ : رِضَى رَبِّكَ ، ورِضَى سُلْطانٍ إنْ كانَ فَوْقَكَ ، ورِضَى صالِحِ[(٨)] مَنْ تَلِي عليهِ . ولا عليكَ أنْ تَلْهَى[(٩)] عَنِ المَالِ والذِّكْرِ ، فَسَيَأْتِيكَ منهما ما يَكْفِي ويَطِيبُ . واجْعَلِ الخِصالَ الثَّلاثَ بِمَكانِ ما لا بُدَّ لكَ منهُ[(١٠)] ، والمَالَ والذِّكْرَ بِمَكانِ ما أنْتَ واجِدٌ منهُ بُدًّا[(١١)] .

اعْرِفْ أهْلَ الدِّينِ والمُرُوءةِ فى كلِّ كُورَةٍ[(١٢)] وقَرْيَةٍ وقَبِيلَةٍ ، فَيَكُونُوا هُمْ إخْوَانَكَ وأعْوَانَكَ وبِطانَتَكَ وثِقاتَكَ[(١٣)] .

---

(١) الثلمة فى الحائط وغيره : الخلل ، وجمعها ثلم ، مثل غرفة وغرف .

(٢) يتقحمون ، أى يدخلون ويتهجمون عليك من هذه الثلمة ، من قحم فى الأمر : رمى بنفسه فيه من غير روية ، وبابه خضع . واقتحم الفرس النهر ، إذا دخل فيه ، وتقحم مثله .

(٣) فى ط : « يستفتحونك » .

(٤) الغيبة (بالكسر) : اسم من الاغتياب ، وهو أن يتكلم خلف إنسان مستور بكلام هو فيه . فإن لم يكن ذلك الكلام فيه ، فهو بهتان . واغتابه اغتيابا ، إذا ذكره بما يكره من العيوب .

(٥) كذا فى خ ، م . والذى فى سائر الأصول : « منها » مكان « منك لها » .

(٦) جدير ، أى حقيق .

(٧) فى ط : « والقائل به » .

(٨) فى ط : « صالحى » .

(٩) لهى عن الشىء : سلا عنه وترك ذكره . وفى خ ، ط ، ك ، م : « أن تلهو » .

(١٠) فى ط : « بمكان لا بد منه » .

(١١) قد استعمل « بدا » هنا فى الإثبات . وقد قال بعضهم : إنه لم يعرف استعماله إلا مقروناً بالنفى ؛ يقال : لا بد من كذا ، أى لا محيد عنه أولا عوض منه . وفى ط : « بمكان أنت ... الخ » .

(١٢) الكورة : الصقع والمدينة .

(١٣) الأعوان : جمع عون ، وهو الظهير والناصر ، وبطانة الرجل : أهل سره وأصحابه ممن يسكن إليه ويثق بمودته . والثقات : جمع ثقة ، وهو الذى يأمنه الرجل ويعتمد على صدقه .

[في المشورة](١)

لا تقذفَنَّ في رُوعك(٢) أنّك أن استشرْتَ الرّجالَ ظَهَرَ(٣) منْكَ الحاجةُ الى رأي غيْركَ ؛ فإنّكَ لستَ تُريدُ الرّأيَ للافتخارِ بهِ(٤)، ولكنْ تُريدُهُ للانتفاعِ بهِ. ولوْ أنّكَ معَ ذلكَ أرَدْتَ الذّكرَ كانَ أحسنَ الذّكرَيْنِ وأفضَلهما(٥) عندَ أهْلِ الفضْلِ أنْ يُقالَ : لا يتفرّد(٦) برأيهِ دُونَ استشارةِ ذوي الرّأي.

[في التماس رضا الناس](٧)

إنّكَ إنْ تلتمِسْ رضَى جميعِ النّاسِ تلتمِسْ ما لا يُدْرَكُ. وكيفَ يتّفقُ لكَ رأيُ المُختلفينَ ؟ وما(٨) حاجتُكَ إلى رضَى مَنْ رضاهُ الجوْرُ، وإلى موافقةِ مَنْ موافقتهُ الضّلالةُ والجهالةُ ؟ فعليْكَ بالتماسِ رضَى الأخيارِ منْهُمْ وذوي العقْلِ، فإنّكَ متى تُصِبْ ذلكَ تضَعْ عنْكَ مؤونة ما سِواهُ.

لا تُمكّنْ أهْلَ البلاءِ [الحسن عندكَ](٩) منَ التّذلّل(١٠)، ولا تُمكّنْ مَنْ سِواهُم منَ الإجْتِراءِ علَيْهِمْ والعيْبِ لهُمْ.

لِتعرِّفْ رعيّتكَ أبوابكَ الّتي لا يُنالُ ما عِنْدكَ منَ الخَيْرِ إلّا بها، والأبوابَ الّتي لا يخافُكَ خائفٌ إلّا منْ قِبَلها. احْرِصِ الحِرْصَ كلّهُ على أنْ تكُونَ خبيرًا بأمُور

(١) التكملة من ط.
(٢) الروع (الضم) : القلب والعقل. والقذف : الرمى والإلقاء.
(٣) كذا في ط : وفي سائر الأصول : « ظهر للناس ».
(٤) في ط : « للفخر به ».
(٥) في الأصل : « أفضلها » وما أثبتنا من سائر الأصول. والذكرين، أي الذكر الحسن والذكر القبيح.
(٦) في ط : « لا ينفرد ».
(٧) التكملة من ط.
(٨) ما، استفهامية تتضمن معنى النفي.
(٩) التكملة من خ، ك، م.
(١٠) كذا في خ، ك، م. وفي سائر الأصول : « التذلل ».

عُمَّالِكَ(١) ؛ فإنّ المُسِيءَ يَفْرَقُ(٢) مِنْ خِبْرَتِكَ قَبْلَ أنْ تُصِيبَهُ عُقُوبَتُكَ ، وإنّ المُحْسِنَ يَسْتَبْشِرُ بِعِلْمِكَ قَبْلَ أنْ يأتِيَهُ مَعْرُوفُكَ .

لِيَعْرِفِ النَّاسُ فِيما يَعْرِفُونَ مِنْ أخْلاقِكَ أنّكَ لا تُعاجِلُ بالثَّوابِ ولا بالعِقاب ؛ فإنَّ ذلِكَ أدْوَمُ لِخَوْفِ الخائِفِ ، ورَجاءِ الرّاجِى .

***

[موعظة جامعة](٣)

عَوِّدْ نَفسَكَ الصَّبْرَ عَلَى مَنْ خَالَفَكَ مِنْ ذَوِى النَّصِيحَةِ ، والتَّجَرُّعَ(٤) لمرارَةِ قَوْلِهِمْ وعَذْلِهِمْ . ولا تُسَهِّلَنَّ سَبِيلَ ذَلِكَ إلّا لِأهْلِ العَقْلِ والسِّنِّ(٥) والمُرُوءَةِ ، لِئَلّا يَنْتَشِرَ مِنْ ذَلِكَ ما يَجْتَرِئُ بِهِ سَفِيهٌ ، أوْ يَسْتَخِفُّ به شَانِئٌ(٦) .

لا تَتْرُكَنَّ مُباشَرَةَ جَسِيمِ(٧) أمْرِكَ ، فَيَعُودَ شَأْنُكَ صَغِيرًا ، ولا تُلْزِمْ نَفْسَكَ مُباشَرَةَ الصَّغِيرِ ، فَيَصِيرَ الكَبِيرُ ضَائِعًا .

إعْلَمْ أنَّ رَأْيَكَ لا يَتَّسِعُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَفَرِّغْهُ لِلْمُهِمِّ ؛ وأنَّ مَالَكَ لا يُغْنِى النّاسَ كُلَّهُمْ ، فاخْتَصَّ بِهِ ذَوِى الحُقُوقِ(٨) ؛ وأنَّ كَرَامَتَكَ(٩) لا تُطِيقَ العامَّةَ ، فَتَوَخَّ

---

(١) العمال : جمع عامل ، وهو من يتقلد عملا من أعمال الدولة .

(٢) يفرق ، أى يخاف . والخبرة : العلم بالشىء . والخبير : العالم به .

(٣) التكملة من ط .

(٤) التجرع ، تفعل يفيد معنى التكلف ، أى تكلف الجرع لمرارة قولهم . وعذلهم ، أى لومهم . والجرع : البلع ؛ يقال : جرع الماء يجرعه ، من باب منع ، جرعا ، إذا بلعه . والجرعة من الماء ، كاللقمة من الطعام . وفى الكلام استعارة بالكناية وتخييل ، حيث شبه مرارة قولهم وعذلهم بشراب مر . والتجرع ، تخييل ، وهو معطوف على الصبر ، أى « عود نفسك التجرع ... الخ » . ويصح عطفه على « من خالفك » ، أى « عود نفسك الصبر على التجرع ... الخ » .

(٥) السن ، أى العمر . والمراد الذين تقدموا فى السن .

(٦) كذا فى خ ، ك ، م . والشانئ : المبغض . والذى فى ط : « ويستخف له بشأن » . والذى فى سائر الأصول : « أو يستخف له شأن » .

(٧) كذا فى خ ، ط ، م . والذى فى سائر الأصول : « جميع » .

(٨) فى خ ، ط ، م : « فاخصص به أهل الحق » .

(٩) الكرامة : اسم يوضع موضع الإكرام والتكريم . أى التعظيم . والطاقة : الوسع والقدرة .

بها[1] أهلَ الفضائلِ[2] ؛ وأنَّ ليلَكَ ونهارَكَ لا يستوعبانِ حاجتَكَ وإنْ دأبْتَ[3] فيهما . وأنَّهُ ليسَ لكَ إلى أدائها[4] سبيلٌ معَ حاجةِ جسدِكَ إلى نصيبهِ منَ الدَّعةِ[5] ، فأحسنْ قسمتَهما[6] بينَ دعتِكَ وعملِكَ .

واعلمْ أنَّكَ ما شغلتَ منْ رأيِكَ فى غيرِ[7] المهمِّ أزرى بالمهمِّ[8] ، وما صرفتَ منْ مالِكَ بالباطلِ ، فقدتَهُ حينَ تريدُهُ للحقِّ ، وما عدلتَ[9] بهِ منْ كرامتِكَ إلى أهلِ النَّقصِ أضرَّ بكَ فى العجزِ عنْ أهلِ الفضلِ ، وما شغلتَ منْ ليلِكَ ونهارِكَ فى غيرِ الحاجةِ أزرى بكَ فى الحاجةِ[10] .

اعلمْ أنَّ منَ النَّاسِ ناسًا كثيرًا يبلغُ من أحدِهمُ الغضبُ إذا غضبَ أنْ يحملَهُ ذلكَ على الكُلُوحِ[11] والتَّقطيبِ[12] فى غيرِ مَنْ أغضبَهُ ، وسوءِ اللَّفظِ لمنْ لا ذنبَ لهُ ، والعقوبةِ لمنْ لمْ يكنْ يهمُّ بعقوبتِهِ ، وشدَّةِ[13] المعاقبةِ باليدِ واللِّسانِ لمنْ لمْ يكنْ يريدُ بهِ إلا دُونَ ذلكَ . ثم يبلغُ به الرِّضى إذا رَضِىَ أنْ يتبرَّعَ بالأمرِ ذى الخطرِ[14] لمنْ ليسَ بمنزلةِ ذلكَ عندَهُ ، ويُعطى مَنْ لمْ يكنْ يُريد إعطاءَه[15] ، ويُكرمُ مَنْ[16] لا حقَّ لهُ ولا مودَّةَ .

---

(١) توخيت الشيء : تحريته وقصدته . (٢) فى ط : « الفضل » .
(٣) دأب فى عمله (كمنع) : جد وتعب .
(٤) الدعة (بالفتح) : الراحة والسكون . والوديع : الساكن .
(٥) فى خ ، ك ، م : « إدامة الدأب فيهما » .
(٦) ضمير التثنية راجع إلى الليل والنهار .
(٧) كذا فى ط . وفى سائر الأصول : « بغير » .
(٨) أزريت به : قصرت به وحقرته .
(٩) قوله : عدلت به ، عدل هنا ، بمعنى مال . ومن كرامتك ، بيان « لما » فى قوله : وما عدلت . وفى ط : « وما عدلت عن كرامتك » .
(١٠) فى خ ، ك ، م : « عند الحاجة منك إليه » .
(١١) الكلوح : تكشر فى عبوس . (١٢) فى خ ، ك ، م : « القطوب » .
(١٣) كذا فى خ ، ك ، م . والذى فى سائر الأصول : « وسوء » .
(١٤) الخطر ، هنا : الشرف ورفعة المنزلة .
(١٥) كذا فى خ ، م . والذى فى سائر الأصول : « لم يكن أعطاه » .
(١٦) فى خ ، م : « ويكرم من لم يرد إكرامه ولا حق ... الخ » .

فاحْذَرْ هذا البابَ [الحَذَرَ] كُلَّه ؟ فإنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَسْوَأَ حالاً مِنْ أهْلِ القُدْرَةِ(١) الذينَ يُفْرِطُونَ باقْتِدارِهِمْ فى غَضَبِهِمْ ورِضاهُمْ(٢) ؛ فإنَّهُ لَوْ وُصِفَ بهذه الصفة مَنْ يُلْتَبَس بِعَقْلِهِ ، أوْ يَتَخَبَّطُهُ المَسُّ ، أن يُعاقِبَ فى غَضَبِهِ غَيْرَ مَنْ أَغْضَبَهُ ، ويَحْبُو(٣) عندَ رِضاه غَيْرَ مَنْ أَرْضاهُ ، لَكانَ جائِزاً فى صِفَتِهِ(٤) .

[فى أصناف الملوك](٥)

اعْلَمْ أنَّ الملوكَ(٦) ثلاثةٌ : مَلِكُ دِينٍ ، ومَلِكُ حَزْمٍ ، ومَلِكُ هَوًى .

فأمَّا مَلِكُ الدِّينِ فإنه إذا أقام(٧) لِأَهْلِهِ دِينَهم ، وكانَ دِينُهُمْ هوَ الذى يُعْطِيهِمْ الذى لَهُمْ ويُلْحِق بِهِمُ الذى عليهِمْ ، أرْضاهُمْ ذلكَ ، وأنزلَ السَّاخِطَ منهُمْ بمَنْزِلَةِ(٨) الرَّاضِى فى الإقْرارِ والتَّسْليمِ .

وأمَّا مَلِكُ الحَزْمِ فإنَّهُ يَقُومُ بِهِ الأَمْرُ ولا يَسْلَم مِنَ الطَّعنِ والتَّسَخُّطِ(٩) . ولَنْ يَضُرَّ طَعْنُ الذَّليلِ(١٠) مَعَ حَزْمِ القَوِىِّ .

وأمَّا مَلِكُ الهَوَى ، فلَعِبُ ساعَةٍ ودَمارُ دَهْرٍ .

* * *

---

(١) فى خ ، ك ، م : « السلطان » .

(٢) كذا فى ط . وفى الأصل : « وسرعة رضاهم » . والذى فى سائر الأصول : « وبتسرعهم فى رضاهم » .

(٣) حباه يحبوه حبوة : أعطاه . والحباء : العطاء .

(٤) فى الأصل : « فإنه لو وصف بصفة من يتلبس بعقله أو يتخبطه المس من يعاقب فى غضبه غير من أغضبه ويحبو عند رضاه من أرضاه لـكان جائزا فى صفته » . وما أثبتنا من سائر الأصول .

(٥) التكملة من ط .

(٦) كذا فى ط . والذى فى سائر الأصول : « الملك » .

(٧) كذا فى ط . والذى فى سائر الأصول : « أقيم » .

(٨) كذا فى ط . والذى فى سائر الأصول : « ما لهم ويلحق ... ونزل الساخط منهم منزلة » .

(٩) فى ط : « السخط » .

(١٠) فى خ ، ك ، م : « الضعيف » .

[فى التحذير عند جدة دولة بغير حزم] (١)

إذا كانَ سُلْطانُكَ(٢) عندَ جِدَّةِ دَوْلَةٍ ، فرَأيْتَ أمْرًا اسْتقامَ بِغَيْرِ رَأْيٍ ، وأعْوَانًا جَزَوْا بِغَيْرِ نَيْلٍ ، وعَمَلاً أنْجَحَ بغَيْرِ حَزْمٍ(٣) ، فلا يَغُرَّنَّكَ ذلكَ ، ولا تَسْتَنِمْ(٤) إليه ؛ فإنَّ الأَمْرَ الجَدِيدَ مِمَّا تَكُونُ لهُ مَهابَةٌ فى أنْفُسِ أقْوَامٍ ، وحَلاوَةٌ فى أنْفُسِ آخَرِينَ ، فَيُعِينُ قَوْمٌ بأنْفُسِهِمْ ، ويُعِينُ قَوْمٌ بِما قِبَلَهُمْ(٥) ، ويَسْتَتِبُّ(٦) بِذَلِكَ الأَمْرُ غيرَ طَوِيلٍ ، ثمَّ تَصِيرُ الشُّؤُونُ(٧) إلى حَقائِقِها وأُصُولِها . فَما كانَ مِنَ الأَمْرِ بُنِيَ على غيرِ أرْكانٍ وَثِيقَةٍ ، ولا عِمادٍ مُحْكَمٍ ، أوْشَكَ أنْ يَتَداعَى ويَتَصَدَّعَ(٨) .

لا تَكُونَنَّ نَزْرَ الكَلامِ والسَّلامِ ، ولا تُفْرِطَنَّ بالهَشاشَةِ والبَشاشَةِ(٩) ؛ فإنَّ إحْداهُما(١٠) مِنَ الكِبْرِ، والأُخْرَى(١١) مِنَ السُّخْفِ(١٢) .

[فى النهى عن الأصحاب غير الثقات] (١٣)

إذَا كُنْتَ لا تَضْبِطُ أَمْرَكَ ، وَلا تَصُولُ(١٤) عَلَى عَدُوِّكَ ، إلّا بِقَوْمٍ لَسْتَ مِنْهُم

(١) التكملة من ط . (٢) سلطانك ، أى تسلطك وولايتك .

(٣) أنجح ، أى صار ذا نجح . والنجح : الظفر بالشئ . والحزم : ضبط الأمر والأخذ بالثقة .

(٤) لا تستنم ، من استنام إلى الشىء ، إذا سكن واطمأن إليه .

(٥) بما قبلهم ، أى بما عندهم . (٦) يستتب ، أى يتهيأ ويستقيم .

(٧) الشؤون : جمع شأن ، وهو الأمر والحال .

(٨) أركان : جمع ركن . وركن الشىء : جانبه الأقوى . والوثيق : المحكم . والعماد : ما يعمد ، أى يسند به ، وجمعه عمد ، بفتحتين . والمحكم : المتقن . يقال : أحكمت الشىء ، إذا أتقنته . وأوشك ، أى دنا وقرب . ويتداعى ، أى يتهادم . ويتصدع ، أى يتشقق .

(٩) النزر: القليل . والإفراط فى الشىء : مجاوزة الحد فيه . والهشاشة : الارتياح والخفة . والبشاشة : طلاقة الوجه .

(١٠) إحداهما ، وهى قلة الكلام والسلام .

(١١) الأخرى ، هى مجاوزة الحد فى الهشاشة والبشاشة .

(١٢) السخف ، أى نقص العقل . وفى ط : « فإن أحدهما ... والآخر » .

(١٣) التكملة من ط .

(١٤) لا تضبط أمرك ، أى لا تحفظه حفظا بليغا . ولا تصول ، أى لا تسطو . وفى خ ، ك ، م : « إنما تضبط أمورك وتصول على عدوك بقوم » . وفى ط : « ولا نصيرك » مكان : « ولا تصول » .

على ثقةٍ مِنْ رَأْيٍ ، ولا حِفاظٍ[١] مِنْ نِيَّةٍ ، فلا تَنْفعُكَ نافِعةٌ حَتّى تحَوّلهم[٢] ، إنِ اسْتَطَعْتَ ، إلى الرأيِ والأدبِ الذى بمِثْلِهِ تَكُونُ الثِّقَةُ ، أَوْ تَستبْدِلَ بِهِمْ ، إنْ لم تَسْتَطِعْ نَقلَهم إلى ما تُرِيدُ . ولا تغُرَّنَّكَ قُوّتُكَ بِهِمْ [على غيرهم][٣] ، وإنَّما أَنْتَ فى ذَلكَ كَراكِبِ الأَسَدِ الذى يهابُهُ مَنْ نظَرَ إليهِ ، وهُوَ لِمَرْكَبِهِ أَهْيَبُ .

لَيْسَ لِلمَلِكِ أَنْ يَغْضَبَ ، لأنَّ القُدْرَةَ مِنْ وَرَاءِ حاجَتِهِ .

ولَيْسَ لهُ أَنْ يَكْذِبَ ، لأنَّهُ لا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى اسْتِكْرَاهِهِ على غَيرِ ما يُرِيدُ .

ولَيْسَ لهُ أَنْ يَبْخَلَ ، لأنَّهُ أَقَلُّ النَّاسِ عُذْرًا فى تَخَوُّفِ الفَقْرِ .

ولَيْسَ لهُ أَنْ يَكُونَ حَقُودًا ، لأنَّ خَطَرَهُ قَدْ عَظُمَ عَنْ مُجَازاةِ كُلِّ النّاس .

ولِيَتَّقِ أَنْ يَكونَ حَلّافًا ، وأَحَقُّ النَّاسِ باتِّقاءِ الأَيْمانِ المُلُوكُ .

فإنَّما يَحْمِلُ الرَّجُلَ على الحَلِفِ إحْدَى هَذِهِ الخِلالِ[٤] : إمَّا مَهانَةٌ[٥] يَجِدُها فى نَفْسِهِ وضَرَعٌ[٦] وحاجَةٌ إلى تَصْدِيقِ النّاسِ إيّاه ؛ وإمَّا عِيٌّ[٧] بالكلامِ حَتَّى يَجْعَلَ الأَيْمانَ لهُ حَشْوًا ووصْلًا ؛ وإمَّا تُهَمَةٌ قَدْ عَرَفَهَا مِنَ النَّاسِ لِحَدِيثِهِ ، فهُوَ ينزّلُ نَفْسَهُ مَنْزِلَةَ مَنْ لا يُقْبَلُ مِنْهُ قَوْلُهُ إلّا بَعْدَ جَهْدِ[٨] اليَمِينِ ؛ وإمَّا عَبَثٌ فى القَوْلِ أَوْ إرْسَالُ اللِّسَانِ على غَيرِ رَوِيَّةٍ[٩] ولا تَقْدِيرٍ .

***

(١) الحفاظ : المحافظة والتمسك . ولا حفاظ ، أى لا اطمئنان . وقوله : « لست ... الخ » أى لا ثقة منك برأيهم ولا اطمئنان إلى نيتهم ، أى ظاهر أمرهم وباطنه . وفى ط : «ولا حفاظ فلا تنفعك» .

(٢) فى خ ، م : « نافلة حتى تحملهم » .

(٣) التكملة : من خ ، ط ، م .

(٤) فى خ ، ك ، م : « الخصال » .

(٥) المهانة : الحقارة ، مصدر مهن يمهن ، بالضم .

(٦) ضرع : خضوع واستكانة .

(٧) عى ، أى عجز وحصر ، وهو مصدر عي يعيا ، بوزن رضى يرضى .

(٨) الجهد ، بفتح الجيم وضمها : الوسع والطاقة ، أى بعد بذل وسعه وطاقته فى الحلف .

(٩) الروية : الفكر والتدبر فى الأمر . جرت على ألسنتهم بغير همز تخفيفا ، من روأت فى الأمر ، بالهمز ، إذا نظرت فيه ، كما فى المصباح .

كلُّ الناسِ حَقِيقٌ(١) حِينَ يَنْظُرُ فى أمْرِ الناسِ أنْ يَتَّهِمَ نَظَرَهُ بِعَيْنِ الرِّيبَةِ(٢) ، وقَلْبَهُ بِعَيْنِ المَقْتِ(٣) ؛ فإنَّهُما يُزَيِّنَانِ(٤) الجَوْرَ ، ويَحْمِلانِ على الباطِلِ ، ويُقَبِّحانِ الحَسَنَ ، ويُحَسِّنانِ القَبِيحَ . وأحَقُّ النَّاسِ باتِّهامِ عَيْنِ الرِّيبَةِ ، وعَيْنِ المَقْتِ ، المَلِكُ الَّذِى ماوَقَعَ فى قَلْبِهِ رَبَا(٥) ، مَعَ ما يُقَيِّضُ(٦) لهُ مِنْ تَزْيِينِ القُرَناءِ والوُزَراءِ .

وأحَقُّ الناسِ بإجْبارِ نَفْسِهِ على العَدْلِ ، فى النَّظَرِ والقَوْلِ والفِعْلِ ، الوالِى الذى [بعَدْلِه يَعْدِلُ مَن دُونه ، والذى] ما قالَ أوْ فَعَلَ كانَ أمْرًا نافِذًا غَيْرَ مَرْدُودٍ .

ولا عَيْبَ على المَلِكِ فى تَعَيُّشِهِ وتَنَعُّمِهِ ، إذا تَعَهَّدَ الجَسِيمَ مِنْ أمْرِهِ ، وفَوَّضَ مادُونَ ذلكَ إلى الكُفاةِ(٧) .

لِيَعْلَمِ الوالِى أنَّ الناسَ يَصِفُونَ الوُلاةَ بِسُوءِ العَهْدِ(٨) ونِسْيانِ الوُدِّ(٩) ، فَلْيُكابِدْ(١٠) نَقْضَ قَوْلِهِمْ ، ولْيُبْطِلْ عَنْ نَفْسِهِ وعَنِ الوُلاةِ صِفاتِ السُّوءِ الَّتِى يُوصَفُونَ بها .

[حَقُّ الوالى أن يَتَفَقَّدَ لَطِيفَ أُمورِ رَعِيَّتِهِ فَضْلًا عَنْ جَسِيمِها ؛ فإنَّ لِلَّطِيفِ مَوْضِعًا يَنتفعُ بهِ ، وللجسيمِ موضعا لا يَستغنى عَنه](١١) .

لِيَتَفَقَّدِ الوالِى فيما يَتَفَقَّدُ مِنْ أُمُورِ الرَّعِيَّةِ فاقَةَ(١٢) الأحْرارِ مِنْهُمْ ، فَلْيَعْمَلْ فى سَدِّها ؛ وطُغْيانَ(١٣) السَّفِلَةِ مِنْهُمْ ، فَلْيَقْمَعْهُ(١٤) . ولْيَسْتَوْحِشْ مِنَ الكَرِيمِ الجائِعِ ، واللَّئِيمِ

---

(١) حقيق : خليق وجدير . (٢) الريبة : الشك .
(٣) المقت : أشد البغض .
(٤) كذا فى خ ، ك ، م . والذى فى سائر الأصول : « يريان » .
(٥) ربا ، أى نما . (٦) يقيض ، أى يسبب ويقدر .
(٧) الكفاة : الخدم الذين يقومون بالخدمة ، جمع كاف ، من كفى الرجل يكفى كفاية ، إذا قام بالأمر ، فهو كاف .
(٨) العهد : الأمان والموثق . (٩) الود : المحبة والمودة .
(١٠) المكابدة للشىء : تحمل المشاق فى فعله . والكبد (بفتحتين) : المشقة وفى خ ، ٢ : « فليكابر » . (١١) التكملة من خ ، ط ، ك ، م .
(١٢) الفاقة : الفقر والحاجة . وفى خ ، م : « فاقة الأخيار والأحرار » .
(١٣) الطغيان : مجاوزة الحد فى العصيان . والسفلة : الأراذل والسقاط من الناس .
(١٤) فليقمعه ، أمر ، من قمعه يقمعه ، من باب منع : قهره وأذله وردعه وكفه .

الشَّبْعان ؛ فإنَّمَا يَصُولُ[١] الكَرِيمُ إذا جاعَ ، واللَّئِيمُ إذا شَبِعَ .

لا يَحْسُدَنَّ الوَلِي مَنْ دُونَهُ ؛ فإنَّهُ فى ذلكَ أَقَلُّ عُذْرًا منَ السُّوقَةِ[٢] الَّتى إنَّما تَحْسُدُ مَنْ فَوْقَها ، وكلٌّ لا عُذْرَ لهُ .

لا يلُومَنَّ الوَالِي على الزَّلَّةِ ، مَنْ لَيْسَ بِمُتَّهَمٍ على[٣] الحِرْصِ على رِضَاهُ ، إلَّا لَوْمَ أَدَبٍ وتَقْوِيمٍ . ولا يَعْدِلَنَّ[٤] بالمُجْتَهِدِ فى رِضَاهُ ، البَصِيرِ بما يَأْتِي ، أَحَدًا ؛ فإنَّهُما[٥] إذَا اجْتَمَعَا فى الوَزِيرِ أو الصاحِبِ نامَ الوَالِي واسْتَرَاحَ ، وجُلِبَتْ إليهِ حاجاتُهُ وإنْ هَدأَ[٦] عَنْها ، وعُمِلَ فيما يُهِمُّهُ وإنْ غَفَلَ .

لا يُولَعَنَّ[٧] الوَالِي بِسُوءِ الظَّنِّ لِقَوْلِ الناسِ ، ولْيَجْعَلْ لِحُسْنِ الظَّنِّ مِنْ نَفْسِهِ نَصِيبًا مَوْفُورًا[٨] ، يُرَوِّحُ بهِ عَنْ قَلْبِهِ ، ويُصْدِرُ بهِ أَعْمالَهُ .

لا يُضِيعَنَّ الوالِي التَثَبُّتَ عندَ ما يَقُولُ وعندَ ما يُعْطِى وعندَ ما يَفْعَلُ ؛ فإنَّ الرجُوعَ عَنِ الصَّمْتِ أَحْسَنُ مِنَ الرُّجُوعِ عَنِ الكَلامِ ، وإنَّ العَطِيَّةَ بعدَ المَنْعِ أَجْمَلُ مِنَ المَنْعِ بعدَ الإعْطاءِ ، وإنَّ الإقْدَامَ على العَمَلِ بعدَ التَّأَنِّى فيهِ أَحْسَنُ مِنَ الإمْساكِ عنهُ بعدَ الإقْدَامِ عليهِ . وكلُّ الناسِ مُحْتاجٌ إلى التَّثَبُّتِ ، وأَحْوَجُهُمْ إليهِ مُلُوكُهُمْ الذِينَ ليسَ لِقَوْلِهِمْ وفِعْلِهِمْ دَافِعٌ ، وليسَ عليهِمْ مُسْتَحِثٌّ[٩] .

---

(١) يصول : أى يثب .

(٢) السوقة ، عند العرب : خلاف الملك ، وليس المراد منها أنه من كان من أهل الأسواق كما تظنه العامة . كذا فى المصباح .

(٣) فى ط : « فى » .

(٤) لا يعدلن ، أى لا يسوين الوالى بمن يجتهد فى تحصيل رضاه أحدا . من عدل الرجل فلانا بفلان ، إذاسوى بينهما .

(٥) قوله « فانهما » ، أى المجتهد فى رضاه والبصير بما يأتى .

(٦) فى ط : « بعد » .

(٧) لا يولعن ، مبنى للمجهول ، من ولع يولع ، كوجل يوجل ، وأولع به ، بالبناء للمجهول ، إذا كان مغرى به .

(٨) موفورا ، أى تاما كثيرا .

(٩) مستحث ، من حثه على الشيء : حضه عليه .

لِيَعْلَمَ الوالى أن الناسَ على رَأْيِه(١) ، إلّا مَنْ لا بالَ(٢) لهُ منهُمْ . فَلْيَكُنْ لِلْبِرِّ والمرُوءةِ عندَهُ نَفاقٌ(٣) ، فيَكْسُدُ(٤) بذلكَ الجوْرُ والدَّناءَةُ فى آفاقِ الأرْضِ .

جِماعُ(٥) ما يَحْتاجُ إليه الوالِى [من أمر الدنيا](٦) رَأْيانِ : رَأْىٌ يُقَوِّى سُلْطانَهُ ، ورَأْىٌ يُزَيِّنُهُ فى الناسِ . ورَأْىُ القُوَّةِ أحقُّهُما بالبُداءَةِ(٧) وأَوْلاهُما بالأَثَرَةِ(٨) ، ورَأْىُ التَّزْيينِ أحْضَرُهُما حَلاوةً ، وأكْثَرُهُما أعْوانًا ؛ معَ أَنَّ القُوَّةَ منَ الزِّينَةِ ، والزِّينَةَ من القُوَّةِ ، لَكِنِ الأمْرُ يُنْسَبُ إلى أعْظَمِهِ .

***

[صحبة السلطان](٦)

إنْ شُغِلْتَ(٩) بِصُحْبَةِ المُلوكِ فعليكَ بِطولِ المُرابطة(١٠) فى غَيْرِ مُعاتَبَةٍ(١١) ، ولا يُحْدِثَنَّ لكَ الاسْتِئْناسُ غَفْلَةً ولا تَهاوُنًا .

إذا رَأَيْتَ السلطانَ(١٢) يَجْعَلُكَ أخًا فاجْعَلْهُ أبًا(١٣) ، ثمَّ إنْ زادكَ فَزِدْهُ .

إذا(١٤) نَزَلْتَ مِنْ ذِى مَنْزِلَةٍ أَوْ سُلْطانٍ ، فلا تَرَيَنَّ أَنَّ سُلْطانَهُ زادكَ لهُ تَوْقيرًا

---

(١) فى ط : « قربه » . (٢) لا بال له ، أى لا شأن له يهتم به .

(٣) نفاق : رواج ، من نفق ينفق ، بالضم ، نفاقا : راج . وضده الكساد .

(٤) كسد الشيء : لم ينفق لقلة الرغبات فيه ، ويعدى بالهمزة فيقال : أكسده الله . وآفاق الأرض : نواحيها ، واحدته أفق .

(٥) جماع الشيء (بالكسر) : ما يجمعه . ومنه : الخمر جماع الإثم .

(٦) التكملة من ط . (٧) البداءة ، اسم من بدأ . وأما البداية ، بالياء ، فهو عامى . وفى ط : « التقدمة » . (٨) الأثرة : الاختيار والتفضيل .

(٩) فى أكثر الأصول : « وإن ابتليت بصحبة السلطان » .

(١٠) كذا فى ط . وفى خ ، م : « المواظبة » : وفى سائر الأصول : « الرابطة » .

(١١) فى ط : « فى غير طول معاتبة » .

(١٢) فى الأصل : « أحدهم » . وما أثبتنا من سائر الأصول .

(١٣) فى ط : « سيدا » .

(١٤) فى ط مكان الكلام من هنا « إذا نزلت » إلى أول قوله : « إن استطعت » (ص ٥٥ س ٥) جاءت هذه العبارة : « إذا نزلت من الوالى بمنزلة الثقة فاعزل عنه كلام الملق ولا تكثرن من الدعاء له فى كل كلمة فان ذلك شبيه بالوحشة والغربة إلا أن تكلمه على رءوس الناس فلا تأل فى عظمته وتوقيره » . وكذا وردت هذه العبارة فى خ ، ك ، م إلا أنها جاءت متأخرة بعد قوله « التصنع » (ص ٥٥ س ١٣) .

وإجْلالاً ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيدَكَ وُدًّا ولا نُصْحًا ، وأنَّكَ تَرَى حَقًّا لهُ التَّوْقيرَ والإجْلالَ .
وكُنْ فى مُداراتِهِ والرِّفْقِ بهِ كالمؤْتَنِفِ(١) ما قبْلَهُ . ولا تُقدِّرِ الأمْرَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ على ما كُنْتَ تَعْرِفُ مِنْ أخلاقِهِ ؛ فإنَّ الأخْلاقَ مُسْتَحِيلَةٌ(٢) مع المُلْكِ ، ورُبَّما رَأَيْنا الرَّجلَ المُدِلَّ(٣) على ذِى السلْطانِ بِقِدَمِهِ قد أضَرَّ بهِ قِدَمُهُ .

إنِ اسْتَطَعْتَ ألَّا تَصْحَبَ مَنْ صَحِبْتَ مِنَ الوُلاةِ الَّا على شُعْبَةٍ(٤) مِنْ قَرابةٍ أَوْ مَوَدَّةٍ فافْعلْ ، فإنْ أخْطأكَ ذلكَ فاعْلَمْ أنَّكَ تَعْمَلُ على عَملِ السُّخْرَةِ(٥) . وإنِ استطَعْتَ أنْ تجْعَلَ صُحْبَتَكَ لِمَنْ قدْ عرَفَكَ مِنهُمْ بِصالِحِ مُرُوءَتِكَ(٦) قَبْلَ ولايتِهِ فافعلْ ؛ فإنَّ الوَالِيَ لا عِلْمَ لهُ بالنَّاسِ إلاّ ما قدْ عَلِمَ قبلَ ولايتِهِ ، فأمَّا إذا وَلِيَ فكلُّ النَّاسِ يَلقاهُ بالتَّزَيُّنِ والتَّصَنُّعِ(٧) ، وكلُّهُمْ يحْتالُ لأنْ يُثْنِيَ عليهِ عندَهُ بما ليسَ فيهِ ، غيرَ أنَّ الأَرْذالَ والأَنْذالَ هُمْ أشَدُّ لِذلِكَ تَصَنُّعًا ، وعليهِ مُكابَرَةً ، وفيه تَمَحُّلاً . فلا يَمْتَنِعُ الوَالِي ، وإنْ كانَ بَلِيغَ الرَّأْيِ والنَّظَرِ ، مِنْ أنْ يَنْزِلَ عندَهُ كثيرٌ مِنَ الأَشْرارِ بِمَنْزِلةِ الأخيارِ ، وكَثِيرٌ مِنَ الخانةِ(٨) بِمَنْزِلةِ الأُمناءِ ، وكثيرٌ مِنَ الغَدَرَةِ(٩) بِمَنْزِلهِ الأَوْفياء(١٠) ، ويُغَطَّى عليهِ أمْرُ كَثِيرٍ مِنْ أهْلِ الفَضْلِ الذِينَ يَصُونُونَ أنْفُسَهُمْ عَنِ التَّمَحُّلِ(١١) والتَّصنُّعِ .

لا يَعْرِفَنَّكَ الوُلاةُ بالهَوَى فى بَلْدَةٍ مِنَ البُلْدانِ ، ولا قَبيلَةٍ مِنَ القَبائلِ ، فيُوشِكُ أنْ تَحْتاجَ فيهما إلى حِكايَةٍ أَوْ مُشاهدَةٍ(١٢) ، فَتُتَّهَمَ فى ذلِكَ .

---

(١) ائتنف الشىء واستأنفه : أخذ فيه وابتدأه . (٢) مستحيلة ، أى متحولة .
(٣) المدل ، اسم فاعل من أدل عليه : انبسط ، كتدلل ، ووثق بمحبته .
(٤) الشعبة ، هى الطائفة من الشىء .
(٥) كذا فى أكثر الأصول . والسخرة (وزان غرفة) : ما سخرت من خادم أو دابة بلا أجر ولا ثمن . وفى ط « مسخر » مكان « تعمل على عمل السخرة » .
(٦) المروءة (بضم الميم) : آداب نفسانية تحمل الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات ، وقد تشدد فيقال : مروة .
(٧) التصنع : تكلف حسن السمت .
(٨) الخانة : جمع خائن ، ويجمع أيضا على خونة ، وهى رواية ط ، وخوان .
(٩) الغدرة : جمع غادر ، كفجرة ، جمع فاجر .
(١٠) الأوفياء : جمع وفى ، كتقى وأتقياء .
(١١) التمحل : الاحتيال . وفى ط : « التجمل » . (١٢) فى خ ، ك ، م : «شهادة» .

وإذا أَرَدْتَ أَنْ يُقْبَلَ قَوْلُكَ ، فَصَحِّحْ رَأْيَكَ ولا تَشُوبَنَّهُ[١] بِشَيْءٍ مِنَ الهَوَى ؛ فإنَّ الرَّأْيَ يَقْبَلُهُ مِنْكَ العَدُوُّ ، والهَوَى يَرُدُّهُ عَلَيْكَ الوَلِيُّ[٢] .

وأحقُّ[٣] مَنِ احْتَرَسْتَ [منه][٤] ، مِنْ أَنْ يَظُنَّ بِكَ خَلْطَ الرَّأْيِ بالهَوَى ، الوُلاةُ ؛ فإنَّها[٥] خَدِيعَةٌ وخِيَانَةٌ وكُفْرٌ [عندهم][٤] .

إنِ ابْتُلِيتَ بِصُحْبَةِ والٍ لا يُرِيدُ صَلاحَ رَعِيَّتِهِ[٦] ، فاعْلَمْ أنَّكَ قَدْ خُيِّرْتَ بَيْنَ خَلَّتَيْنِ[٧] لَيْسَ مِنْهُما[٨] خِيارٌ : إمَّا مَيْلُكَ مَعَ الوَالِي على الرَّعِيَّةِ ، وهٰذا هَلاكُ الدِّينِ ؛ وإمَّا المَيْلُ مَعَ الرَّعِيَّةِ على الوَالِي ، وهَذَا هَلاكُ الدُّنْيا ، ولا حِيلَةَ لكَ إلّا المَوْتُ أو الهَرَب .

واعْلَمْ أنَّهُ لا يَنْبَغِي لكَ ، وإنْ كانَ الوَالِي غَيْرَ مَرْضِيِّ السِّيرَةِ ، إذا عَلِقَتْ حِبالُكَ بِحَبْلِهِ ، إلّا المُحافَظَةُ عَلَيْهِ ، إلّا أَنْ تَجِدَ إلى الفِراقِ الجَمِيلِ سَبِيلاً .

تَبَصَّرْ ما في الوَالِي مِنَ الأَخْلاقِ الَّتِي تُحِبُّ والَّتِي تَكْرَهُ ، ومَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّأْيِ الذي يُرْضَى لهُ والذي لا يُرْضَى ، ثُمَّ لا تُكابِرْهُ بالتَّحْوِيلِ لهُ عَمَّا يُحِبُّ ويَكْرَهُ إلى مَا تُحِبُّ وتَكْرَهُ ، فإنَّ هَذِهِ رِياضَةٌ صَعْبَةٌ تَحْمِلُ على التَّنائِي والقِلَى[٩] .

* * *

وإنَّكَ[١٠] قَلَّما تَقْدِرُ على رَدِّ رَجُلٍ عَنْ طَرِيقَتِهِ التي هُوَ عَلَيْها بالمُكابَرَةِ[١١] ،

---

(١) لا تشوبنه ، أى لا تخلطنه ، من الشوب ، وهو الخلط .

(٢) فى ط : « الوالد » . وفى سائر الأصول : « الولد والصديق » .

(٣) أحق : أصح ، مبتدأ وخبره « الولاة » الآتى .

(٤) التكملة من خ .

(٥) ينظر إلى أين يعود ضمير « فانها » .

(٦) فى الأصل « رعية » . وما أثبتنا من سائر الأصول .

(٧) خلتين ، مثنى خلة ، أى خصلة ، بالفتح فيهما .

(٨) فى الأصل : « بينهما » وما أثبتنا من خ ، ط ، ك ، م .

(٩) التنائى : التباعد . والقلى : البغض .

(١٠) فى الأصل : « واعلم أنك » مكان « وإنك » . وما أثبتنا من خ ، ط ، ك ، م .

(١١) المكابرة : المنازعة والمجادلة .

والمناقضة (١) ، وإنْ لم [يكن ممن] (٢) يَجْمَحُ (٣) به عزُّ السُّلْطان (٤) ، ولكنَّك تقدرُ أنْ تعينَهُ على أحْسَنِ رَأْيِهِ وتُسدِّدَهُ فيه وتُزَيِّنه وتُقَوِّيه عليه (٥) . فإذا قَوِيتْ مِنْهُ المَحَاسِنُ (٦) كانَتْ هى الّتى تَكُفُّهُ عَنِ المَسَاوى (٧) . وإذا اسْتَحْكَمتْ (٨) منه ناحِيَةٌ مِنَ الصَّوابِ كانَ ذَلكَ هُوَ الذى يُبَصِّرُهُ الخطأَ ، بأَلْطَفَ مِنْ تَبْصِيرِكَ ، وأعْدَلَ مِنْ حُكْمِكَ فى نفسهِ ؛ فإنَّ الصَّوابَ يُؤيِّدُ (٩) بَعْضُهُ بَعْضًا ، ويَدْعُو بَعْضُهُ إلَى بَعْضٍ ، [حَتَّى تَسْتَحْكِمَ لصاحبه الأشياء ، ويظهرَ عليها بتحْكِيم الرَّأى] (١٠) . فإذا كانَتْ لَهُ مَكانَةٌ [من الأصالة] اقْتَلَعَ [ذلك] (١٠) الخطأَ [كلَّه] (١٠) .

فاحْفَظْ هذا البابَ وأَحْكِمْهُ .

[باب] (١٠)

ولا يَكُونَنَّ طَلَبُكَ ما عِنْدَ الوَالِى بالمَسْأَلَةِ ، ولا تَسْتَبْطِئْهُ وإنْ أبْطأَ . ولكِنِ اطْلُبْ ما قِبَلَهُ (١١) بالاستِحْقَاق لهُ ، واسْتَأْنِ (١٢) ، وإنْ طَالَتِ الأَنَاةُ ؛ فإنَّكَ إذَا اسْتَحْقَقْتَهُ أتاكَ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ ، وإنْ لم تَسْتَبْطِئْهُ كانَ أعْجَلَ لهُ .

---

(١) المناقضة : إبطال أحد القولين بالآخر .

(٢) التكملة من خ ، م .

(٣) جمح ، من باب خضع ، يأتى بمعنى اعتز وغلب ؛ يقال : جمح الفرس براكبه ، إذا استعصى حتى غلبه . ويأتى بمعنى أسرع ، ومنه قوله تعالى : (وهم يجمحون) . والجموح من الرجل : هو الذى يركب هواه .

(٤) فى الأصل : «عن السلطان» مكان «به عز السلطان» . وما أثبتنا من خ ، ط ، ك ، م .

(٥) كذا فى خ . وفى ط : «وتسبب له منه وتقويه به» . وفى الأصل : «وتسبب له منه وتقويه فيه» .

(٦) المحاسن : جمع حسن ، على غير قياس .

(٧) المساوى ، أى النقائص والمعايب ، جمع المساءة ، نقيض المسرة ، وأصلها مسوأة ، على مفعلة ، بفتح الميم والعين ، ولهذا يرد الواو فى الجمع ، فيقال : المساوى .

(٨) إذا استحكمت ، أى إذا تمكنت منه جهة من الصواب وكانت هى الحاكمة عليه كانت هذه الجهة من الصواب هى التى تبصره الخطأ .

(٩) كذا فى خ ، ط ، ك ، م . والذى فى سائر الأصول : «يريد» .

(١٠) التكملة من خ .

(١١) ما قبله ، أى ما عنده ، على كونك مستحقا له .

(١٢) استأنى فى الأمر : تأنى فيه ولم يعجل ، والاسم منه أناة ، بوزن حصاة .

لا تُخْبِرَنَّ الوَالِيَ أنّ لكَ عليه حقًّا، وأنّكَ تعتدّ عليه ببَلاء[١] . وإن استطعت أنْ يَنْسَى حقّكَ وبلاءكَ فافعلْ . وليَكُنْ ما تذكّرُهُ مِنْ ذلكَ تجديدكَ له النّصيحة والاجْتِهَادَ، وألّا يزالَ يَنْظُرُ مِنْكَ إلى آخرٍ يُذكّرُهُ أوّلَ بلائكَ .

واعْلَمْ أنَّ وليّ[٢] الأمرِ إذا انقطعَ عَنْهُ الآخِرُ نَسِيَ الأوّلَ، وأنَّ أرْحَامَهُمْ[٣] مَقْطُوعَةٌ، وحِبَالَهُمْ مَصْرُومَةٌ[٤] إلا عمّنْ رَضُوا عنه، وأغْنَى[٥] عَنْهم في يَوْمِهِمْ وسَاعَتِهِمْ .

إيّاكَ أنْ يَقَعَ في قَلْبِكَ تَعَتُّبٌ[٦] على الوَالِي أو استزراءٌ[٧] لهُ؛ فإنّهُ إنْ آنَسْتَ[٨] أنْ يَقَعَ في قَلْبِكَ بدا[٩] في وَجْهِكَ إنْ كُنْتَ حَلِيماً، وبَدَا على لِسَانِكَ إنْ كُنْتَ سَفِيهًا . وإنْ لمْ يَزِدْ ذلكَ على أنْ يَظْهَرَ في وَجْهِكَ لِآمَنِ النَّاسِ عِنْدَكَ، فلا تأْمَنَنَّ أنْ يَظْهَرَ ذلكَ لِلوَالِي؛ فإنَّ النَّاسَ إليهِ[١٠] بِعَوْرَاتِ[١١] الإِخْوَانِ سِرَاعٌ . فإذا ظَهَرَ ذلكَ لِلوَالِي كانَ قلبُهُ هُوَ أسْرَعَ إلى التَّعَتُّبِ والتّعَزُّزِ[١٢] مِنْ قَلْبِكَ، فمَحَقَ ذلكَ حَسَنَاتِكَ المَاضِيَةَ، وأشْرَفَ بكَ على الهلاكِ، وصِرْتَ تَعْرِفُ أمْرَكَ مُسْتَدْبِرًا، وتلتَمِسُ مَرْضَاتَهُ مُسْتَصْعِبًا . [ولو شِئتَ تركتَه بإذنِ اللهِ رَاضياً، وازددْتَ من رضاهُ دُنُوًّا][١٣] .

---

(١) البلاء : الصنع مطلقا، حسناً أو سيئا، والمراد به هنا الحسن .

(٢) في خ، ط، ك، م : « السلطان » .

(٣) في الأصل و ف، ش : « وأن الكثير من أولئك أرحامهم » مكان « وأن أرحامهم » . وما أثبتنا من خ، ط، ك، م .

(٤) مصرومة : مقطوعة .

(٥) أغنى عنه : جزأ عنه وقام مقامه .

(٦) التعتب والمعاتبة : تواصف الموجدة ومخاطبة الإدلال .

(٧) كذا في خ، ك، م . والذي في سائر الأصول : « استزادة » .

(٨) كذا في بعض الأصول . وآنست، أي إن علمت وقوع ذلك في قلبك ظهر في وجهك . وفي خ، م : « فانه أي أثر وقع » . وفي ط : « فانه إن وقع » .

(٩) بدا، أي ظهر .

(١٠) في خ، ك، م : « إلى السلطان » مكان « إليه » .

(١١) عورات : جمع عورة، وهي كل ما يستحيا منه .

(١٢) التعزز : ضد التذلل . وفي خ، ك، م : « النفور والتغير » مكان : « التعزز » .

(١٣) التكملة من خ، ك، م .

اعلمْ أنَّ أكثرَ(١) النَّاسِ عَدُوًّا مُجاهِرًا(٢) حاضِرًا جَرِيئًا واشِيًا(٣)، وَزيرُ السُّلْطَانِ ذو المكانَةِ عِنْدَهُ؛ لِأَنَّهُ مَنْفُوسٌ(٤) عليهِ بِمَا يُنْفَسُ على صاحِبِ السُّلْطَانِ، ومَحْسُودٌ كما يُحْسَدُ(٥). غيرَ أنَّهُ يُجْتَرَأُ عليهِ ولا يُجْتَرَأُ على السلطان(٦)؛ لِأَنَّ مِنْ مُحاسِدِيهِ أَحِبَّاءَ السُّلْطَانِ(٧) الذينَ يُشارِكُونَهُ في المَداخِلِ والمَنَازِلِ، وهُمْ وغَيْرُهُمْ(٨) مِنْ عَدُوِّهِ الذينَ هُمْ حُضَّارُهُ(٩)، ولَيْسُوا كَعَدُوِّ مَنْ فَوْقَهُ(١٠) النَّائِي عنهُ المُتَكَتِّمِ منهُ، وهُمْ لا يَنْقَطِعُ طَمَعُهُمْ مِنَ الظَّفَرِ بِهِ، فَلَا يَغْفُلُونَ عَنْ نَصْبِ الحَبائِلِ لَهُ(١١).

فاعْرِفْ هٰذه الحالَ والْبَسْ لِهٰؤلاءِ القَوْمِ الذينَ هُمْ أَعْداؤُكَ سِلَاحَ الصِّحَّةِ والاسْتِقامَةِ، ولُزُومِ الحُجَّةِ فِيما تُسِرُّ وتُعْلِنُ؛ ثُمَّ رَوِّحْ(١٢) مِنْ قَلْبِكَ كأَنَّهُ لا عَدُوَّ لكَ ولا حَاسِدَ.

وإنْ ذَكَرَكَ ذاكِرٌ عندَ وَلِيِّ(١٣) الأمرِ بِسُوءٍ في وَجْهِكَ أَوْ في غَيْبِكَ(١٤)، فلا يَرَيَنَّ منكَ الوَلِيُّ(١٣) ولا غيرُهُ اخْتِلاطًا لذلكَ ولا اغْتِيَاظًا [ولا ضَجَرًا](١٥)، ولا يَقَعَنَّ ذلك

---

(١) أكثر، اسم إن، وخبرها: وزير السلطان. وعدوا، تمييز.

(٢) في خ، ك، م: «جاهدا». (٣) في خ، ك، م: «مواثبا».

(٤) كذا في أكثر الأصول. ونفس عليه بخير: حسده عليه ولم يره له أهلا. ونفس بالشيء: ضن به، وهو من باب سلم. ورواية هذه العبارة في ط: «واعلم أن أحقر الناس عدو مجاهر وزير السلطان ذا المكانة عنده لأنه منفوس».

(٥) في بعض الأصول: «يحسد غيره».

(٦) كذا في خ، ط، ك، م. والذى في سائر الأصول: «ولا يجترىء على ذلك».

(٧) في خ، ط، ك، م: «أحياء السلطان وأقاربه». وذهب المرحوم أحمد زكى باشا إلى أن المراد بالأحياء: بنوحيه الذى هم وإياه من بطن واحد.

(٨) قوله: وهم وغيرهم... الخ» هم، ضمير منفصل مبتدأ، وهو راجع إلى أحباء السلطان. وغيرهم معطوف عليه. وقوله: «من عدوه ... الخ» بيان للمعطوف. وجملة «ليسوا كعدو من فوقه» خبر المبتدأ.

(٩) في خ، م: «حضور» مكان «الذى هم حضاره».

(١٠) في خ، م: «السلطان» مكان «من فوقه».

(١١) الحبائل: جمع حبالة، بالكسر، وهى التى يصاد بها، كالشبكة ونحوها.

(١٢) في خ، م: «روح عن»: وفي ط: «روح قلبك».

(١٣) في خ، ط، م: «السلطان».

(١٣) في خ، م: «السلطان». وفي ط: «الوالى».

(١٤) في خ، م: «غيبتك» (١٥) التكملة من خ، م.

[في نفسِكَ] مَوْقِعَ مَا يَكْرِثُكَ[١]، فإنَّهُ إنْ وَقَعَ مِنْكَ ذلكَ المَوْقِعَ أَدْخَلَ عليكَ أُمُورًا مُشْتَبِهَةً بالرِّيَبِ[٢]، مُذَكِّرَةً لما قالَ فيكَ العائبُ. وإنِ اضْطَرَّكَ الأَمْرُ في ذلكَ إلى الجَوَابِ، فإيَّاكَ وجَوابَ الغَضَبِ والانْتِقَامِ، وعَلَيْكَ بجَوَابِ الحُجَّةِ، في حِلْمٍ[٣] ووَقَارٍ، وَلا تَشُكَّنَّ في أنَّ القُوَّةَ والغَلَبَةَ لِلْحِلْمِ[٤] أَبدًا.

لا تُحْضِرَنَّ[٥] عندَ الوَالِي[٦] كلامًا لا يَعْنِي ولا يُؤْمَر بحُضُورِهِ إلّا لِعِنَايَةٍ[٧] به، أو يَكُونَ جَوَابًا لِشَيْءٍ[٨] سُئِلْتَ عنهُ.

وَلَا تَعُدَّنَّ شَتْمَ الوَالِي شَتْمًا، ولا إغْلاظَهُ إغْلاظًا: فإنَّ رِيحَ العِزِّ[٩] قَدْ تَبْسُطُ اللِّسَانَ بالْفَاظٍ في غَيْرِ سَخَطٍ ولا بَأْسٍ.

***

جانِبِ المَسْخُوطَ عليهِ والظَّنِينَ[١٠] بهِ عندَ الوُلاةِ[١١]، ولا يَجْمَعَنَّكَ وإيَّاهُ مَجْلِسٌ، ولا تُظْهِرَنَّ لهُ عُذْرًا، ولا تُثْنِيَنَّ[١٢] عليهِ خَيْرًا عندَ أحَدٍ مِنَ النَّاسِ. فإذا رَأَيْتَهُ قَدْ بَلَغَ مِنَ الإِعْتَابِ[١٣] مِمَّا سُخِطَ عليهِ فيهِ ما تَرجو أنْ تُلِينَ[١٤] لهُ [بهِ قَلْبَ][١٥] الوَالِي، واسْتَيْقَنْتَ أنَّ الوَالِيَ قدِ اسْتَيْقَنَ بِمُبَاعَدَتِكَ إيَّاهُ وشِدَّتِكَ عليهِ

---

(١) كرثه الغم يكرثه: اشتد عليه. وما أكترث له، أى ما أبالى به.

(٢) فى خ، ط، ك، م: «بالريبة».

(٣) الحلم (لغة): الأناة. وعرفه العلماء بأنه هو الطمأنينة عند سورة الغضب. والحليم: هو المتصف بذلك.

(٤) فى خ، ك، م: «للحليم».

(٥) فى خ، م: لا تتكلمن». (٦) فى ط: «الولاة».

(٧) فى خ، م: «كلاما أبدا إلا لعناية». وفى ط: «كلاما لم تؤمر بإحضاره».

(٨) كذا فى خ، م. والذى فى سائر الأصول: «بالشىء».

(٩) فى خ، ط، ك، م: «العزة».

(١٠) الظنة، بالكسر: التهمة. والظنين: المتهم.

(١١) فى خ، ط، ك، م: «السلطان».

(١٢) يقال: أثنى عليه خيراً وبخير، من الثناء، وهو الوصف بالخيرية، ويستعمل فى الشر أيضا، يقال: أثنى عليه شراً وبشر.

(١٣) الإعتاب، مصدر قولك: أعتبنى فلان، إذا عاد إلى مسرتك راجعاً عن الإساءة.

(١٤) فى بعض الأصول: «يلين». (١٥) التكملة من خ، ط، ك، م.

[عِنْدَ النَّاس] ، فَضَعْ عُذْرَهُ عندَ الوَالِي ، واعْمَلْ في إرْضَائهِ عنهُ في لُطْفٍ ورِفْقٍ .

ليَعْلَمِ الوَالِي أنَّكَ لا تَسْتَنْكِفُ عَنْ [شَيْءٍ مِنْ] (١) خِدْمَتِهِ ، ولا تَدَعْ مَعَ ذلكَ أنْ تُقَدِّمَ إليهِ القَوْلَ ، عندَ (٢) بَعْضِ حالاتِ رِضَاهُ وطِيبِ نَفْسِهِ ، في الاسْتِعْفَاءِ مِنَ الأعْمَالِ الَّتي يَكْرَهُهَا (٣) ذُو الدِّينِ وذو [العَقْلِ وذو] (٤) العِرْضِ وذُو المُرُوءَةِ ، مِنْ وِلايَةِ القَتْلِ والعَذَابِ وأشْبَاهِ ذلكَ .

إذا أصَبْتَ (٥) الجاهَ والخاصَّةَ عندَ المَلِكِ ، فلا يُحْدِثَنَّ لكَ ذلكَ تَغَيُّرًا على أحَدٍ مِنْ أهْلِهِ وأعْوانِهِ ، ولا اسْتِغْنَاءً عنهُمْ ؛ فإنَّكَ لا تَدْرِي مَتَى تَرَى أدْنَى جَفْوَةٍ [أو تَغَيُّرٍ] (٦) فَتَذِلَّ (٧) لهُمْ فِيها . وفي تَلَوُّنِ الحالِ عندَ ذلكَ مِنَ العارِ ما فيهِ .

***

لِيَكُنْ مِمَّا تُحْكِمُ (٨) مِنْ أمْرِكَ أنْ لاتُسَارَّ (٩) أحَدًا مِنَ النَّاسِ ، ولا تَهْمِسَ (١٠) إليهِ بِشَيْءٍ عندَ (١١) السُّلْطَانِ ، فإنَّ السِّرَارَ يُخَيِّلُ إلى كلِّ مَنْ رَآه ، [مِنْ ذِي سُلْطَانٍ أو غَيْرِهِ] (١٢) ، أنَّهُ المُرَادُ بهِ ، فيَكُون ذلكَ في نفسِهِ حَسِيكَةً وَوَغْرًا (١٣) .

لا تَتَهَاوَنَنَّ بإرْسَالِ الكَذْبَةِ (١٤) عندَ الوَالِي أوْ غَيْرِهِ في الهَزْلِ ؛ فإنَّهَا تُسْرِعُ في رَدِّ الحقِّ ، وإبْطَالِ الصِّدْقِ (١٥) ، مِمَّا تَأْتِي بهِ .

---

(١) التكملة من خ ، ط ، ك ، م. (٢) في خ ، ك ، م : « على » .
(٣) في خ ، ك ، م : « التي هي أهل أن يكرهها » .
(٤) التكملة من خ ، ك ، م . (٥) في ط : « إذا أنست » .
(٦) التكملة من خ ، ط ، م . (٧) تذل ، أي تخضع وتتذلل .
(٨) تحكم : تتقن . والمعنى : ليكن عدم مسارة أحد وعدم الهمس إليه بشيء تخفيه عن السلطان من أمورك التي أحكمتها وأتقنتها . (٩) تساره ، أي تناجيه سرارا وخفية .
(١٠) الهمس : الصوت الخفي .
(١١) كذا في ط . والذي في سائر الأصول : « تخفيه عن » مكان : « عند » .
(١٢) التكملة من خ ، ك ، م .
(١٣) كذا في أكثر الأصول . والحسيكة : الضغن والعداوة . وفي خ ، م : حسيفة » . وهي بمعناها . والوغر : شدة الغيظ ، وهو مأخوذ من الوغرة ، وهي شدة توقد الحر .
(١٤) الكذبة ، بفتح الكاف وسكون الذال ، وجمعها كذبات ، بفتح الذال .
(١٥) في خ ، ط ، ك ، م : « في إبطال الحق ورد الصدق » .

تَنَكَّبْ[١] فيما بيْنكَ وبيْنَ الوَالِي [وفيما بَيْنك و بين الإخوان][٢] خُلُقًا قدْ عَرَفْناهُ فى بَعْضِ [الوزراء و][٣] الأعْوانِ والأَصْحاب ، من[٤] ادِّعاءِ الرَّجُلِ ، عندَ مايَظْهرُ مِنْ صاحِبِهِ مِنْ حُسْنِ أثَرٍ أوْ صَوابِ رَأْى ، أنَّهُ هُوَ عَمِلَ فى ذلكَ أوْ أشار بهِ ، و إقرارِهِ بذلكَ إذا مَدَحَهُ مادِحٌ . بَلْ و إن اسْتَطَعْتَ أنْ يَعْرِفَ صاحِبُكَ أنَّكَ تَنْحَلُهُ[٥] صَوابَ رَأْيِكَ ، فضلاً عَنْ أنَّكَ تَدَّعى صَوابَهُ ، وتُسْنِدُ ذلِكَ إليهِ وتُزَيِّنُهُ ، فافعلْ ؛ فإنَّ الذِى أنْتَ آخِذٌ بذلِكَ أكْثرُ مِمَّا أنتَ مُعْطٍ بأَضْعافٍ[٦] .

***

إذا سأَلَ الوالِي غيْرَكَ فلا تَكونَنَ أنْتَ المُجِيبَ عنهُ ؛ فإنَّ اسْتِلابَكَ[٧] الكلامَ خِفَّةٌ بكَ ، واسْتِخْفافٌ منكَ بالمسْئولِ والسَّائِلِ .

وما أنْتَ قائِلٌ إن قالَ لكَ السَّائِلُ : ما إيَّاكَ سأَلْتُ ؟ أوْ قالَ لكَ المسْئولُ عندَ المَسأَلةِ يُعادُ لهُ بِها[٨] : دونَكَ فأَجِبْ (؟)

فإن لمْ يَخُصَّ السائلُ فى المسألةِ رجلاً واحِدًا[٩] ، وعَمَّ بِها جَماعَةَ مَنْ عندَهُ ، فلا تُبادِرْ بالجوابِ ، ولا تُسَابِق الجُلَساءَ تُواثِبُ[١٠] الكَلامَ مُواثَبةً ؛ فإنَّ فى ذلكَ ، مَعَ شَيْنِ التَّكَلُّفِ والخِفَّةِ ، أنكَ[١١] إذا سَبَقْتَ القَوْمَ إلى الكلامِ ، صارُوا لِكلامِكَ خُصَماءَ ،

---

(١) كذا فى أكثر الأصول . ونكب عن الطريق ، من باب قعد : عدل . وتنكب الشيء : تجنبه . والذى فى ط : « واحذر مما تأتى به » مكان « تنكب » .

(٢) التكملة من خ ، ك ، م . (٣) التكملة من خ ، ك ، م .

(٤) كذا فى ط . والذى فى سائر الأصول : « فى » .

(٥) يقال : نحلته القول ، إذا أضفت إليه قولا قاله غيره .

(٦) فى ط : « مما تعطى أضعافا » :

(٧) استلاب ، مصدر استلب ، أى أخذ واختلس .

(٨) فى ط : « عند المسألة يعارضك فيها » .

(٩) كذا فى ط . وفى الأصل « وإذا لم ينتصب السائل فى المسألة لرجل واحد » . والذى فى سائر الأصول : « وإذا لم يقصد السائل فى المسألة لرجل واحد » .

(١٠) كذا فى أكثر الأصول . والمواثبة والوثوب : القفز . والمراد منها هنا : المبادرة والمسارعة إلى جواب سؤال موجه إلى غيره . والذى فى خ : « ولا تواثب بالكلام » .

(١١) فى خ : « فان ذلك يجمع مع الشين ... فإنك إذا سبقت .. الخ » .

فيتعقّبونه(١) بالعَيْبِ والطَّعْنِ . و إذا أنتَ لمْ تَعْجَلْ بالجواب وخَلَّيْتَهُ لِلقَوْمِ اعْتَرَضْتَ أقاويلَهُمْ على عَيْنِكَ ، ثمَّ تَدَبَّرْتَها وفَكَّرْتَ فِيما عندكَ ، ثمَّ هَيَّأْتَ مِنْ تَفكيرِكَ ومَحاسِنِ ما سَمِعْتَ جَواباً رَضِيًّا ، واسْتَدْبَرْتَ بهِ أقاويلَهُمْ حين(٢) تُصِيخُ(٣) إليكَ الأسْماعُ ، و يَهْدأُ عنكَ الخُصُومُ .

و إن لمْ يَبْلُغْكَ الكلامُ حين(٢) يُكْتَفَى بغَيْرِكَ، أوْ انقطع(٤) الحَديثُ قَبْلَ ذلكَ ، فلا يَكُونُ مِنَ العَيْبِ عندكَ، ولا مِنَ الغَبْنِ(٥) في نَفْسِكَ، فَوْتُ ما فاتَكَ مِنَ الجَوابِ ؛ فإنَّ صِيانَةَ القَوْلِ(٦) خَيْرٌ مِنْ سُوءِ وضْعِهِ ، وإنَّ كَلِمَةً واحِدَةً مِنَ الصَّوابِ تُصِيبُ مَوْضِعَهَا خَيْرٌ مِنْ مائة كَلِمَةٍ تقولها(٧) في غيْرِ فُرَصِهَا ومَواضِعِها . مَعَ أنَّ كلامَ العَجَلَةِ والبِدارِ(٨) مُوَكَّلٌ بِهِ الزَّلَلُ(٩) وسُوءُ التَّقْديرِ ، و إنْ ظَنَّ صَاحِبُهُ أنْ قَدْ أتْقَنَ وأحْكَمَ .

واعلمْ أنَّ هذهِ الأُمُورَ لا تُنالُ(١٠) إلّا بِرُحْبِ الذَّرْعِ(١١) عندَ ما قيلَ وما لمْ يُقَلْ ، وقِلّةِ الإعْظَامِ(١٢) لما ظَهَرَ مِنَ المُرُوءَةِ أوْ لمْ يَظْهَرْ ، وسَخَاوَةِ النَّفْسِ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الصَّوابِ مَخَافَةَ الخِلافِ والعَجَلَةِ والحَسَدِ والمِراءِ(١٣) .

إذا كَلَّمَكَ الوَالِي فأَصْغِ(١٤) إلى كلامِهِ ، ولا تَشْغَلْ طَرْفَكَ(١٥) عنهُ بِنَظَرٍ [إلى

---

(١) فى خ ، ط ، ك ، م : « فتعقبوه » .
(٢) كذا فى خ ، ط ، ك ، م . والذى فى سائر الأصول : « حتى » .
(٣) أصاخ له يصيخ : استمع ، يعدى باللام وإلى .
(٤) كذا فى ط . والذى فى سائر الأصول : « ينقطع » .
(٥) الغبن ، بالتحريك : الضعف والزلل فى الرأى والنقص ، وبابه طرب ، وبالسكون : الخديعة ، وبابه ضرب .
(٦) فى ط : « فإن ترك إصابة القول » .
(٧) كذا فى خ ، ك ، م . والذى فى ط : « كلمة فى غير ... الخ » . والذى فى الأصل : « كلمة أمثالها فى غير ... الخ » .
(٨) البدار ، أى الإسراع . (٩) الزلل : السقوط والزلق ، وبابه تعب .
(١٠) فى ط : « لا تملك » . وفى خ ، ك ، م : « لا تدرك ولا تملك » .
(١١) الرحب (بالضم) : السعة . والذرع ، فى الأصل : بسط اليد . وأراد به هنا الخلق .
(١٢) أعظم الشيء : فخمه . (١٣) المراء : الجدال .
(١٤) أصغ ، أمر من الإصغاء ، وهو الاستماع ، من صغى بمعنى مال ، وأصغى إلى كلامه : مال بسمعه إليه . (١٥) الطرف : العين .

غَيره][1] ، ولا أطْرَافَكَ[2] بِعَمَلٍ ، ولا قَلْبَكَ بِحَدِيثِ نَفْسِكَ . واحْذَرْ هٰذَا مِنْ نَفْسِكَ وتَعَهَّدْ[3] ما فيهِ[4] .

* * *

اُرْفُقْ بِنُظَرَائِكَ مِنْ وُزَرَاءِ السُّلْطَانِ ودُخَلائِهِ ، واتَّخِذْهُمْ إخْوَانًا ، ولا تَتَّخِذْهُمْ أَعْدَاءً ، ولا تُنَافِسْهُمْ[5] فى الكَلِمَةِ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا ، والعَمَلِ يُؤْمَرُونَ بِهِ [دونك][6] ؛ فإنَّمَا أنتَ فى ذلِكَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : إمَّا أنْ يَكُونَ عندكَ فَضْلٌ على ما عندَ غَيْرِكَ ، فَسَوْفَ يَبْدُو ذلِكَ ويُحْتَاجُ إليهِ ويُلْتَمَسُ منكَ وأنْتَ مُجْمِلٌ ؛ وإمَّا أنْ لا يَكُونَ ذلِكَ عندكَ ، فما[7] أنْتَ مُصِيبٌ مِنْ حَاجَتِكَ عِنْدَهُم[8] بِمُقَارَبَتِكَ ومُلَايَنَتِكَ [إيّاهم][9] . وما أنْتَ وَاجِدٌ فى مُوَافَقَتِكَ إيَّاهُمْ ولِينِكَ لَهُمْ مِنْ مُوَافَقَتِهِمْ إيَّاكَ ولِينِهِمْ لَكَ ، أفْضَلُ مِمَّا أنْتَ مُدْرِكُهُ بالمُنَافَسَةِ والمُنَاظَرَةِ .

لا تَجْتَرِئَنَّ[10] على خِلَافِ أصْحَابِكَ عندَ الوَالِى ثِقَةً باعْتِرَافِهِمْ لَكَ ، ومَعْرِفَتِهِمْ بِفَضْلِ رَأْيِكَ ؛ فإنَّا قَدْ رَأَيْنَا النَّاسَ يَعْرِفُونَ فَضْلَ[11] الرَّجُلِ ، ويَنْقَادُونَ لهُ ، ويَتَعَلَّمُونَ

---

(١) التكملة من خ ، ك ، م .

(٢) الأطراف : جمع طرف (بفتحتين) : جانب الشىء وناحيته وطائفة من الشىء ، ومن البدن اليدان والرجلان والرأس ، وهو المراد هنا .

(٣) تعهد ، أى تفقد .

(٤) فى ط : « وتعدها » . وفى خ ، ك ، م : « وتعاهدها بجهدك » .

(٥) نفس الشىء ، من باب طرف : صار مرغوبا فيه ، ونافس فى الشىء ، إذا رغب فيه على وجه المباراة فى الكرم . وتنافسوا فيه ، أى رغبوا فيه . والمنافسة : أن يطلب كل واحد أن يكون ذلك الشىء المتنافس فيه لنفسه خاصة دون غيره ، لأنه نفيس جدا . والمعنى : لا تعارضهم وتزاحمهم فيما يتقربون به إلى السلطان من قول وعمل .

(٦) التكملة من خ ، ك ، م

(٧) ما ، اسم موصول بمعنى الذى ، ومابعده صلته وهو مبتدأ ، وما الثانية فى قوله . « وما أنت واجد » ، عطف عليه ، والخبر قوله « أفضل مما أنت » .

(٨) فى ط : « عند وزراء السلطان وجلسائه » . وفى خ ، ك ، م : « عند وزراء السلطان » .

(٩) التكملة من خ ، ط ، ك ، م .

(١٠) الجراءة والجرأة : الشجاعة والإقدام على الشىء . والجرىء (بالمد) : المقدام ، وبابه ظرف . واجترأ : أقدم ، وهو مطاوع جرأ ، بالتشديد .

(١١) فى ط : « يعترفون بفضل » .

مِنهُ وهُمْ أَخْلِياء[١] ، فإذا حضَرُوا ذا السُّلْطَانِ لمْ يَرْضَ أحدٌ منهُمْ أنْ يُقِرَّ لهُ ، وأنْ يَكُونَ لهُ عليهِ فى الرَّأيِ والعِلْمِ فَضْلٌ ، فاجْترءوا عليهِ بالخِلافِ والنَّقْضِ . فإنْ نَاقَضَهُمْ كانَ كأَحَدِهِمْ ، وليْسَ بِواجِدٍ فى كلِّ حِينٍ سامِعًا فَهِمًا[٢] ، [أ]وْ قاضِيًا عدْلًا ، وإن تَرَكَ مُناقَضَتَهُمْ صارَ مَغْلُوبَ الرَّأيِ مَرْدُودَ القَوْلِ .

* * *

إذا[٣] عَرَفْتَ نفْسَكَ مِنَ الوالِي بمنزلةِ الثِّقَةِ ، فاعزِلْ عنهُ كلامَ المَلَقِ[٤] ، ولا تُكْثِرَنَّ مِنَ الدُّعاءِ لهُ فى كلِّ كلِمَةٍ ، فإنَّ ذلكَ شَبِيهٌ بالوَحْشَةِ والغُرْبةِ ، إلَّا أنْ تكلِّمَهُ على رُءوسِ النَّاسِ ، فلا تَأْلُ[٥] عمَّا عظَّمَهُ ووَقَّرَهُ .

* * *

إذا أصَبْتَ عندَ الوالي[٦] لُطْفَ مَنْزِلَةٍ لِغَنَاءٍ[٧] يَجِدُهُ عندَكَ ، أوْ هَوًى يكون لهُ فيكَ ، فلا تَطْمَحَنَّ[٨] كُلَّ الطِّماحِ ، ولا تُزَيِّنَنَّ لكَ نفْسُكَ المُزايَلَةَ[٩] لهُ عنْ أليفِهِ[١٠] ، ومَوْضعِ ثِقَتِهِ وسِرِّهِ قَبْلَكَ ، تُريدُ[١١] أنْ تَقْلَعَهُ وتَدْخُلَ دُونَهُ ؛ فإنَّ هذِهِ خَلَّةٌ مِنْ خِلالِ السَّفَهِ قدْ يُبْتَلَى بها الحُلَماءُ عندَ الدُّنُوِّ مِنْ ذِي السُّلْطانِ ، حَتَّى يُحَدِّثَ الرَّجُلُ منهُمْ نَفْسَهُ أنْ يَكُونَ دُونَ الأَهْلِ والوَلَدِ ، لِفَضْلٍ يَظُنُّهُ فى نَفْسِهِ ، أوْ نَقْصٍ يَظُنُّهُ بِغَيْرِهِ .

---

(١) أخلياء : جمع خلى ، وهو الفارغ . يعنى أنهم يعترفون بفضله ويقرون له بذلك وينقادون له فيما بينهم وبينه ، وأما فى حضور السلطان فلا يقرون له بفضيلة عليهم .

(٢) فهما : سريع الفهم .

(٣) الكلام من قوله « إذا » إلى قوله « ووقره » جاء فى بعض الأصول متقدما عن مكانه هذا وبعد قوله « قدمه » (ص ٥٥ : ٤) .

(٤) الملق : الود واللطف . (٥) لا تأل : أى لا تقصر .

(٦) فى خ ، ط ، م : « السلطان » . (٧) الغناء (بالفتح) : الكفاية .

(٨) طمح ، من باب خضع ، يقال : طمح ببصره نحو الشيء ، إذا استشرف له ، وجبل طامح ، أى مشرف عال .

(٩) المزايلة : المفارقة . وزلت الشيء من مكانه وأزلته : فرقته ونحيته عنه .

(١٠) أليف ، اسم فاعل من ألف يألف ، من باب علم ، أى استأنس به وأحبه .

(١١) كذا فى خ ، م . وفى ط : « فتتلمس أن تدخل » مكان « تريد أن تقلعه وتدخل » . والذى فى سائر الأصول : « بأن تقتلعه وتدخل » .

ولكلِّ رَجُلٍ مِنَ المُلُوكِ أوْ ذِى هَيْئَةٍ مِنَ السُّوقَةِ[١] أَلِيفٌ وأنيسٌ ، قدْ عَرَفَ رُوحَهُ واطَّلَعَ على قَلْبِهِ ، فَلَيْسَتْ عليهِ مَئُونَةٌ[٢] فى تَبَذُّلٍ[٣] يَتَبَذَّلُه عندَهُ ، أَوْ رَأْىٍ يَسْتَنْزِلُهُ[٤] منه ، أوْ سِرٍّ يُفْشِيهِ إليهِ ، غَيْرَ أَنَّ تِلْكَ الأَنَسَةَ[٥] وذلكَ الإلْفَ[٦] ، يَسْتَخْرِجُ مِنْ كلٍّ واحِدٍ منهما مالمْ يَكُنْ لِيَظْهَرَ مِنهُ عندَ الانْقِباضِ والتَّشَدُّدِ . وَلَوِ التَمَسَ مُلْتَمِسٌ مثلَ ذلكَ عندَ مَنْ يَسْتَأْنِفُ[٧] مُلاطَفَتَهُ ومُؤانَسَتَهُ ، إنْ كانَ ذا فَضْلٍ مِنَ الرَّأْىِ والعِلمِ ، لمْ يجِدْ عندَهُ مِثْلَ ما هُوَ مُنْتَفِعٌ بهِ مِمَّنْ هُوَ دُونَ ذلك فى الرأْىِ ، مِمّا قدْ كُفِىَ مُؤانَسَتَهُ وَوقَعَ على طِباعِهِ ؛ لِأَنَّ الأَنَسَةَ رَوْحُ القَلْبِ ، والوَحْشَةَ رَوْعٌ[٨] عليه[٩] . ولا يَلْتاطُ[١٠] بالقُلُوبِ إلّا ما لَانَ[١١] عليها ، ومَنِ اسْتَقْبَلَ تَأْسيسَ الوَحْشَةِ اسْتَقْبَلَ أمْرًا ذا مَئُونة .

فإذا كَلَّفَتْكَ نَفْسُكَ السُّمُوَّ[١٢] إلى منزلةِ مَنْ وَصَفْتُ [لكَ][١٣] ، فاقْدَعْها[١٤] عنْ ذلكَ بمعْرِفَةِ فَضْلِ الأَلِيفِ والأَنِيسِ . و إذا حَدَّثَتْكَ نفسُكَ ، أوْ غيْرُكَ مِمَّنْ لعلَّهُ يَكونُ لهُ فضلٌ فى المُرُوءةِ ، أنّكَ أَوْلى بالمَنْزِلَةِ عندَ الكَبيرِ[١٥] مِنْ بَعْضِ دُخَلائِهِ وثِقاتِهِ ، فاذْكُرِ الذى عليهِ مِنْ حَقٍّ أَلِيفِهِ وثِقَتِهِ وأنيسِهِ فى التَّكْرِمَةِ ، والذى يُعِينُهُ على ذلكَ

(١) السوقة : خلاف الملك ، يستوى فيه الواحد والجمع المذكر والمؤنث ، وربما جمع على سوق ، مثل غرفة وغرف .
(٢) مئونة : ثقل وكلفة . والتبذل : خلاف التصاون .
(٣) كذا فى خ ، ط ، م . والذى فى سائر الأصول : « يتبذل له » .
(٤) كذا فى الأصل ، ط . وفى خ ، م : « يستبين منه » . والذى فى سائر الأصول : « يسترله منه » .
(٥) الأنسة (بالتحريك) : ضد الوحشة .
(٦) كذا فى خ ، م . والعبارة ساقطة من ط . وفى سائر الأصول : « التبذل » .
(٧) استأنف الشىء : أخذ فيه وابتدأه .
(٨) الروع (بالفتح) : الفزع .
(٩) فى بعض الأصول : « القلوب ...... عليها » .
(١٠) التاط الشىء بقلبه : لصق به من فرط الحب .
(١١) لان ، من اللين ، ضد الخشونة .
(١٢) السمو : الارتفاع والتعالى .
(١٣) التكملة من خ ، م .
(١٤) اقدعها ، أى كفها وامنعها ، من قدع ، كمنع ، كف وكبح .
(١٥) كذا فى خ ، ط ، م . والذى فى سائر الأصول : « السلطان » .

مِنَ الرَّأْيِ الذى يَجِدُه عندَ الأَليفِ والأَنيس ، مما[1] ليسَ وَاجِدًا عند غَيْرِه .

فَلْيَكُنْ هذا مِمَّا تَتحَفَّظُ فيهِ على نَفسِكَ ، وتَعْرِفُ فيهِ عُذْرَ السُّلْطان[2] ورَأْيَهُ . والرَّأْيُ لك فى نَفْسك[3] مِثْلُ ذلكَ إِنْ أَرَادَكَ مُرِيدٌ على الدُّخُولِ دُونَ أَنِيسِكَ وأَلِيفِكَ ، ومَوْضِعِ ثِقَتِكَ وجِدِّكَ وهَزْلِكَ .

***

اعْلَمْ أَنهُ يَكادُ يَكُونُ لِكلِّ رَجُلٍ غَالِبَةُ حَدِيثٍ [لا يزالُ يُحَدِّثُ به][4] ، إِمَّا عَنْ بَلَدٍ مِنَ البُلْدَانِ ، أَوْ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ العِلْمِ ، أَوْ صِنْفٍ مِنْ صُنُوفِ النَّاسِ ، أَو وَجْهٍ من وُجُوه الرَّأْيِ . وعندَ ما يُغْرَمُ[5] به الرَّجُلُ مِنْ ذلِكَ[6] يَبْدُو منهُ السُّخْفُ[7] ويُعْرَفُ منهُ الهوَى . فاجْتَنِبْ ذلكَ فى كلِّ مَوْطِنٍ ، ثُمَّ عِنْدَ أُولى الأَمْرِ خاصَّةً[8] .

لا تَشْكُوَنَّ إِلى وُزَرَاءِ السُّلْطَانِ ودُخَلائهِ ما اطَّلَعْتَ عليهِ مِنْ رَأْيٍ تَكْرَهُهُ لهُ ؛ فإِنَّكَ لا تَزِيدُ على أَنْ تُفَطِّنَهُمْ[9] لِمَيْلِهِ[10] ، وتُغْرِيَهُمْ[11] بِتَزْيِينِ ذلِكَ والمَيْلِ عَلَيْكَ مَعَهُ .

اعلمْ أَنَّ الرَّجُلَ ذا الجاهِ عندَ الوَالِي[12] والخاصَّةِ لا مَحَالَةَ أَنهُ يَرَى مِنَ الوَالى ما يُخَالِفهُ مِنَ الرَّأْيِ فى النَّاسِ والأُمُورِ ، فإِذا آثَرَ[13] أَنْ يَكْرَهَ كلَّ ما يُخَالِفهُ ،

---

(١) فى الأصل ، ش ، ف ، ك : « أنه يجد عنده من الإلف والإنس » مكان « الذى يجده عند الأليف والأنيس مما » . وما أثبتنا من سائر الأصول .

(٢) فى الأصل ، ش ، ف ، ك : « الرجل » . وما أثبتنا من سائر الأصول .

(٣) كذا فى ط . وفى خ ، م : « والرأى لنفسك مثل ذلك » . وفى سائر الأصول : « والرأى فيه لنفسك فى مثل ذلك » .

(٤) التكملة من خ ، م .

(٥) يغرم به ، أى يولع به . وفى ط : « يغرم عليه » .

(٦) من ذلك ، أى من الشىء الذى تغلب معرفته به على غيره مما عنده .

(٧) السخف : نقص العقل .

(٨) فى خ ، ط ، م : السلطان » مكان « أولى الأمر » .

(٩) التفطين : التفهيم . (١٠) فى خ ، ط ، م : « لهواه » .

(١١) الإغراء : التحريض . (١٢) فى خ ، ط ، م : « السلطان » .

(١٣) آثر : اختار وفضل .

أَوْ [شَكَ أَنْ] (١) يَمْتَعِضَ (٢) مِنَ الجَفْوَةِ (٣) يرَاهَا فى المَجْلِسِ ، أَو النَّبْوَةِ (٤) فى الحَاجَةِ ، أَوِ الرَّدِّ لِلرَّأْيِ ، أو الإِدْنَاءِ لِمَنْ لا يَهْوَى إِدْنَاءَهُ ، أو الإِقْصَاءِ لِمَنْ يَكْرَهُ إِقْصَاءَهُ .

فإذا وقعَتْ فى قَلْبِهِ الـكَرَاهِيَةُ تغَيَّرَ لذلكَ وَجْهُهُ ورَأْيُهُ وكلامُهُ ، حَتَّى يَبْدُوَ ذلكَ لِلوَالِي (٥) وغَيْرِهِ ، فيَكُونَ (٦) ذلكَ لِفَسَادِ مَنْزِلَتِهِ سَبَبًا [وداعِيًا] (٧) .

فَذَلِّلْ نَفْسَكَ باحْتِمالِ ماخَالَفَكَ مِنْ رَأْيِ الوُلَاةِ (٨) ، وقَرِّرْها (٩) بأَنَّهُمْ إِنَّمَا كانوا أَوْلِياءَكَ لِتَتْبَعَهُمْ فى آرَائِهِمْ وأَهْوَائِهِمْ ، ولا تُـكَلِّفْهُمْ اتِّبَاعَكَ وتَغْضَبَ مِنْ خِلَافِهِمْ إِيَّاكَ (١٠) .

* * *

اعْلَمْ أَنَّ المُلُوكَ (١١) يَقْبَلُونَ مِنْ وُزَرَائِهِمْ التَّبْخِيلَ (١٢) ، ويَعُدُّونَهُ مِنْهُمْ شَفَقَةً ونَظَرًا (١٣) ، ويَحْمَدُونَهمْ عليهِ ، وإِنْ كانُوا أَجْوَادًا . فإنْ كُنْتَ مُبَخِّلًا غَشَشْتَ صَاحِبَكَ بِفَسَادِ مُرُوءَتِهِ ، وإِنْ كُنْتَ مُسَخِّيًا (١٤) لمْ تأْمَنْ إِضْرَارَ (١٥) ذلِكَ بِمَنْزِلَتِكَ عِنْدَهُ .

فالرأيُ لكَ تَصْحِيحُ النَّصِيحَةِ على وَجْهِهَا ، والْتِماسُ المَخْرَجِ (١٦) فِيما تَتْرُكُ مِنْ

---

(١) التكملة من خ ، ط ، م .

(٢) يمتعض : يغضب ، من معض ، كفرح ، غضب وشق عليه . وأمعضه ومعضه ، فامتعض .

(٣) الجفوة : الجفاء .

(٤) النبوة : ما ارتفع من الأرض ، وأراد بها الترفع والتجافى عن قضاء الحاجة .

(٥) فى خ ، ط ، م : « للسلطان » .

(٦) فى الأصل : « وكان » .

(٧) التكملة من خ ، م .

(٨) فى خ ، ط ، م : « السلطان » .

(٩) قررها : اجعلها مقرة .

(١٠) رواية هذه العبارة فى خ ، ط ، م : « وقررها على أن السلطان إنما كان سلطانك لتتبعه فى رأيه وهواه وأمره ، ولا تكلفه اتباعك وتغضب من خلافه إياك » .

(١١) فى خ ، ط ، م : « السلطان » والضمائر بعده مفردة .

(١٢) التبخيل ، أى الحمل على البخل .

(١٣) فى خ ، م : « نظرا له » .

(١٤) اسم فاعل من سخى المضاعف ، أى حمله على السخاء ورغبه فيه .

(١٥) الإضرار ، مصدر أضر ، لا جمع ضرر .

(١٦) فى خ ، م : « المخلص » .

تبخيل صاحبك ، بأن لا يعرف منك فيما تدعوه إليه ميلًا إلى شيء من هواك ، ولا طلبًا لغير ما ترجو أن يزينه وينفعه .

***

لا تكونن صحبتك للملوك إلا بعد رياضة[١] منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك ، وموافقتهم فيما خالفك ، وتقدير الأمور على ميلهم دون ميلك[٢] ، وعلى أن لا تكتمهم سرك ، ولا تستطلع ما كتموه[٣] ، وتخفي ما أطلعوك عليه عن الناس كلهم ، حتى تحمي[٤] نفسك الحديث به ، وعلى الاجتهاد في رضاهم ، والتلطف لحاجاتهم ، والتثبيت لحجتهم[٥] ، والتصديق لمقالتهم ، والتزيين لرأيهم ، وعلى قلة الاستقباح[٦] لما فعلوا إذا أساءوا ، وترك الانتحال[٧] لما فعلوا إذا أحسنوا ، وكثرة النشر لمحاسنهم ، وحسن الستر لمساويهم ، والمقاربة لمن قاربوا وإن كانوا بعداء[٨] ، والمباعدة لمن باعدوا وإن كانوا أقرباء ، والاهتمام بأمرهم وإن لم يهتموا به ، والحفظ له وإن ضيعوه ، والذكر له وإن نسوه ، والتخفيف عنهم من مئونتك[٩] ، والاحتمال لهم كل مئونة ، والرضى منهم بالعفو ، وقلة الرضى من نفسك لهم بالمجهود[١٠] .

فإن وجدت عنهم وعن صحبتهم غنى ، فأغن عن ذلك نفسك ، واعتزله جهدك[١١] ؛

---

(١) رياضة ، أي تعويد نفسك وتذليلها على هذه المذكورات .

(٢) في خ ، ط ، م : « على أهوائهم دون هواك » .

(٣) أي تطلب الاطلاع على الأمر الذي كتموه عنك .

(٤) تحمي ، أي تمنع نفسك الحديث به ، أي تمنعها من أن تحدث به أحداً ، من حمى المريض ما يضره ، حمية ، منعه إياه . وحماه من الشيء ، يتعدى إلى المفعول الثاني بمن وبنفسه .

(٥) الحجة : الدليل والبرهان .

(٦) في خ ، م : « الامتعاض » وفي ط : « الانتفاء مما » .

(٧) كذا في خ ، ط ، م . والذي في سائر الأصول : « الاستحسان » .

(٨) كذا في خ ، ط ، م . والذي في سائر الأصول : « بعيدا » .

(٩) كذا في خ ، م . وفي ط : والتخفيف عليهم لمئونتك » . والذي في سائر الأصول : « عنهم لمئونتك » .

(١٠) في خ ، م : « إلا بالاجتهاد » مكان « بالمجهود » .

(١١) في خ ، م : « فإن وجدت عن السلطان وعن صحبته غنى فأغن عنهما نفسك واعتزلهما جهدك » . وفي ط : « فإن ... فأغن نفسك عنها واعتزلها جهدك » .

فإنَّ مَنْ يأخذْ عملَهمْ [بحقِّهِ] (١) يُحلْ بينَه وبينَ لذةِ الدُّنيا وعملِ الآخرةِ ، ومَنْ لا يأخُذه بحقِّه يحتمِل الفضيحةَ في الدُّنيا والوِزْرَ في الآخرة .

إنَّكَ لا تأمَنُ أنفَهُم (٢) إنْ أعلَمْتَهُمْ ، ولا عُقوبَتَهُمْ إنْ كتَمْتَهُمْ ، ولا تأمَنُ غضَبَهُمْ إنْ صدَقْتَهُمْ ، ولا تأمَنْ سَلْوَتَهُمْ (٣) إنْ حدَّثْتَهُمْ . [إنَّكَ] (١) إنْ لزِمْتَهُمْ لم تأمَنْ تبرُّمَهُم (٤) بكَ ، وإن زايَلْتَهُمْ (٥) لمْ تأمَنْ عِقابَهُمْ ، وإن استأمَرْتَهُمْ (٦) حمَلْتَ المَئُونَةَ عليهم ، وإن قطَعْتَ الأمرَ دُونَهُمْ لم تأمَنْ فيهِ مُخالَفَتَهُمْ . إنَّهُمْ إن سَخطُوا عليكَ أهلَكُوكَ (٧) ، وإن رَضُوا عنكَ تكَلَّفْتَ لِرضاهم (٨) ما لا تُطيقُ .

فإنْ كُنْتَ حافِظًا إنْ بَلَوْكَ (٩) ، جَلْدًا (١٠) إن قرَّبُوكَ ، أمينًا إنِ ائتمَنُوكَ ، [تُعلِّمُهم وأنت تُريهم أنَّكَ تتعلمُ منهم ، وتؤدِّبهم وكأنَّهم يؤدِّبونك] (١١) ، تَشكُرُهُمْ ولا تُكلِّفُهُمُ الشُّكْرَ ، بَصيرًا بأهوائِهِمْ ، مُؤْثِرًا لِمنافِعِهم ، ذَليلاً إنْ ظلَمُوكَ (١٢) ، راضِيًا إنْ أسخَطُوكَ ؛ وإلّا فالبُعْدَ منهُمْ كلَّ البُعْدِ ، والحَذَرَ منهم كلَّ الحذَرِ .

---

(١) التكملة من خ ، ط ، م .
(٢) الأنف : مصدر أنف كفرح : استنكف واستكبر وكره .
(٣) السلوة : النسيان ، اسم لسلا يسلو ، من باب سما يسمو .
(٤) التبرم : التضجر والملل .
(٥) زايلتهم : فارقتهم . وفي خ ، م : « لم تأمن تفقدهم إياك » .
(٦) الاستئمار : المشاورة ، وفي الأصل : « وإنك إن تستأمرهم » .
(٧) في خ ، م : « إنك لا تأمن إن صدقتهم غضبهم ، وإن كذبتهم سخطهم ، وإن سخطوا عليك فسيت سخط الله » مكان قوله : « إنهم إن سخطوا ... أهلكوك » .
(٨) في الأصل ، ش ، ف ، ك : « من رضاهم » . وما أثبتنا من خ ، م .
(٩) بلاه : اختبره وامتحنه .
(١٠) جلدا ، أي ذا جلد ، بفتحتين ، أي شدة وقوة . وفي خ ، م : « حذرا » .
(١١) التكملة من خ ، م . (١٢) في خ ، م : « ضاموك » .

باب

[في معاملة] الصديق

أُبْذُلْ(١) لِصديقِكَ دمَكَ ومالَكَ ، ولِمعْرِفتكَ رِفْدَكَ(٢) ومَحْضَرَكَ ، ولِلعامَّةِ بِشْرَكَ وتحَنُّنَكَ ، ولِعَدُوِّكَ عَدْلَكَ [وإنصافك] . واضْنَنْ بدِينِكَ وعِرْضِك عن كلِّ أحدٍ ، [إلا أنْ تُضْطَرَّ إلى بَذْلِ العِرْضِ لوالٍ أو والدٍ ، فأمّا للولَدِ فمَن سواه فلا](٣) .

إنْ سَمِعْتَ مِنْ صاحِبكَ كلامًا أوْ رأيًا يُعْجِبُكَ فلا تَنْتَحِلْهُ(٤) تَزَيُّنًا بهِ عندَ النّاسِ ، واكْتَفِ منَ التَّزَيُّنِ بأَنْ تَجْتَنِيَ الصَّوابَ إذا سَمِعْتَهُ وتَنْسُبَهُ إلى صاحِبِهِ .

واعلمْ أنّ انتِحالَكَ ذاكَ مَسْخَطَةٌ(٥) لصاحبِكَ ، وأنّ فيـهِ معَ ذلكَ عارًا [أوسُخْفًا](٦) .

فإنْ بَلَغَ ذلكَ بكَ أنْ تُشيرَ برأيِ الرَّجلِ وتتَكلَّمَ بِكلامِهِ وهُوَ يَسْمَعُ ، جَمَعْتَ معَ الظُّلمِ قِلَّةَ الحياءِ ، وهذا من سُوءِ الأدبِ الفاشي في النّاسِ .

ومِنْ تَمامِ حُسْنِ الخُلُقِ والأدبِ [في هذا الباب](٣) أنْ تَسْخُوَ نفسُكَ لِأخيكَ بما انتَحلَ مِنْ كلامِكَ ورأيِك ، وتَنْسُبَ إليهِ رأيَهُ وكلامَهُ ، وتُزَيِّنَهُ معَ ذلكَ ما استَطَعْتَ .

لا يَكونَنَّ منْ خُلُقِكَ أنْ تَبْتَدِئَ حديثًا ثمّ تَقْطَعَهُ وتَقولَ : سَوْفَ ، كأنَّكَ رَوَّأْتَ(٧) فيهِ بَعْدَ ابتِدائِهِ(٨) . وليَكُنْ تَرَوِّيكَ فيهِ قبلَ التَّفَوُّهِ ؛ فإنّ احتِجانَ الحديثِ(٩)

---

(١) البذل : العطاء . بذل يبذل ، كنصر ينصر ، أعطى .

(٢) الرفد : (بالكسر) : العطاء . والمحضر : الحضور . والبشر (بالكسر) : طلاقة الوجه . والتحنن : الترحم . والعرض : النفس والحسب ، أو ما يلزم صونه وحمايته .

(٣) التكملة من خ ، ط ، م . (٤) لا تنتحله ، أي لا تدعه ولا تنسبه لنفسك .

(٥) كذا في خ ، ط ، م . والذي في سائر الأصول : «سخطة» .

(٦) التكملة من خ ، م .

(٧) الروية : الفكر والتدبر ، وهي كلمة جرت على ألسنتهم بغير همز تخفيفا ، وهي من روأت في الأمر ، بالهمز ، إذا نظرت فيه . (٨) في خ ، م : « ابتدائك إياه » .

(٩) احتجن المال : ضمه إلى نفسه وأمسكه .

بعدَ افتتاحِهِ سُخفُه[١] [وغمٌ][٢] .

أخزُنْ عقلَكَ وكلامَكَ[٣] إلاّ عندَ إصابةِ الموضعِ ؛ فإنّهُ ليسَ فى كلِّ حينٍ يحسُنُ كلُّ الصّوابِ[٤] ، وإنّما تمامُ إصابةِ الرّأيِ والقولِ بإصابةِ الموضعِ . فإنْ أخطأكَ ذلكَ أدخلتَ المحنةَ[٥] على علمِكَ ، حتى تأتيَ بهِ ، إن أتيتَ ، فى موضعِهِ ، وهوَ لا بهاءَ له ولا طلاوةَ[٦] .

***

ليعرفِ العلماءُ حينَ تجالسُهُمْ أنكَ على أن تسمعَ أحرصُ منكَ على أنْ تقولَ . إنْ آثرتَ[٧] أن تفاخرَ أحدًا ممّن تستأنسُ إليه[٨] فى لهوِ[٩] الحديثِ ، فاجعلْ غايةَ ذلكَ الجدَّ ، ولا تعتدْ[١٠] أنْ تتكلّمَ فيهِ بما كانَ هزْلا ، فإذا بلغَ الجدَّ أوْ قاربَهُ فدعْهُ . ولا تخلطنَّ بالجدِّ هزْلاً ولا بالهزلِ جدًّا ، فإنكَ إن خلطتَ بالجدِّ هزْلاً هجّنتَهُ[١١] ، وإن خلطتَ بالهزلِ جدًّا كدّرتَهُ[١٢] .

غيرَ أنّي قد علمتُ موطِنًا[١٣] واحدا ، إن قدرتَ أنْ تستقبلَ فيهِ الجدَّ بالهزلِ

---

(١) السخف : نقصان فى العقل. (٢) التكملة من خ ، ط ، م .

(٣) أى اكتمهما ولا تظهرهما إلا عند إصابة موضع لزوم الإظهار . وفى ط : « احرز » .

(٤) فى ط : « الصواب » مكان « كل الصواب » . وفى خ ، م : « كل صواب » .

(٥) المحنة ، أى الامتحان والاختبار . وفى ط : « المجنة » . وفى خ ، م : « المحنة على عقلك وقولك » .

(٦) الطلاوة (بضم الطاء وفتحها) : الحسن . والبهاء ، كذلك . ورواية هذه العبارة فى الأصل وش ، ف ، ك : « على علمك حتى تأتى به إن أتيت به فى غير موضعه ولا بهاء له ولا طلاوة له » . وروايتها فى خ ، م : « على عقلك وقولك حتى تأتى به فى موضعه ، وإن أتيت به فى غير موضعه ، أتيت به وهو لا بهاء ولا طلاوة له » . وما أثبتنا من ط .

(٧) آثرت ، أى اخترت .

(٨) فى ط . « ممن تستأنس به » . وفى خ ، م : « أن تفاخر أحدا أو تمازح من تستأنس إليه » .

(٩) لهو الحديث : باطله ، وما يشغل عن الخير . وأصل اللهو : الترويح عن النفس بمالا تقتضيه الحكمة .

(١٠) كذا فى خ ، ط ، م . والذى فى سائر الأصول : « ولا تعدون » .

(١١) هجنته ، أى قبحته . وفى خ ، م : « سخفته » .

(١٢) كدرته ، أى أزلت صفاءه ، من كدر الماء كدراً ، من باب تعب : زال صفاؤه .

(١٣) الموطن ، كمسجد : المكان .

أَصَبْتَ الرَّأْيَ وظَهَرْتَ على الأقْرانِ ، وذلكَ أنْ يَتَوَرَّدَكَ[١] مُتَوَرِّدٌ بالسَّفَهِ والغضب [وسُوءِ اللَّفْظِ] فتُجِيبَهُ إجابَةَ الهَازِلِ المُداعِبِ ، بِرُحْبٍ مِنَ الذَّرْعِ ، وطَلاقَةٍ مِنَ الوَجْهِ ، وثَباتٍ مِنَ المَنْطِق .

إنْ رَأَيْتَ صاحِبَكَ مع عَدُوِّكَ فلا يُغْضِبَنَّكَ ذلكَ ، فإنَّما هُوَ أحَدُ رَجُلَيْنِ : إن كانَ رَجُلاً مِنْ إخْوانِ الثِّقَةِ ، فأنْفَعُ مَواطِنِهِ لكَ أقْرَبُها مِنْ عَدُوِّكَ ، لِشَرٍّ يَكُفُّهُ عنكَ ، [أَو[٢]] وعَوْرَةٍ يَسْتُرُها منكَ ، [أَو[٢]] و غائِبَةٍ يَطَّلِعُ عليها لكَ . وأمَّا صَدِيقُكَ فما أغْناكَ أنْ يَحْضُرَهُ ذُو ثِقَتِكَ .

و إن كانَ رَجُلاً مِنْ غيرِ خاصةِ إخْوانِكَ ، فبِأَيِّ حَقٍّ تَقْطَعُهُ عَنِ النَّاسِ وتُكَلِّفُهُ أن لا يُصاحِبَ ولا يُجالِسَ إلاَّ مَنْ تَهْوَى .

تَحَفَّظْ فى مَجْلِسِكَ وكلامِكَ مِنَ التَّطاوُلِ[٣] على الأصْحابِ ، وطِبْ نَفْسًا عن كَثِيرٍ مِمَّا يَعْرِضُ لكَ فيهِ صَوابُ القَوْلِ والرَّأْيِ مُداراةً[٤] ، لِئَلاَّ يَظُنَّ أصْحابُكَ أنَّ ما بِكَ[٥] التَّطاوُلُ عليهِمْ .

***

إذا أقْبَلَ إليْكَ مُقْبِلٌ بِوُدِّهِ فَسَرَّكَ ألاَّ يُدْبِرَ عنكَ ، فلا تُنْعِمِ[٦] الإقْبالَ عليهِ والتفَتُّحَ له ؛ فإنَّ الإنْسانَ طُبِعَ على ضَرائِبِ[٧] لُؤْمٍ ، فمِنْ شأْنِهِ أنْ يَرْحَلَ عَمَّنْ

(١) تورده ، طلب وروده وحضوره . والمتورد : الطالب لذلك .

(٢) التكملة من خ ، م .

(٣) التطاول : التفضل ورفع النفس ، من تطول على فلان ، إذا علاه وترفع عليه . وقال أبو منصور : التطول عند العرب محمود ، يوضع موضع المحاسن . والتطاول مذموم ، وكذا الاستطالة ، يوضعان موضع التكبر .

(٤) فى ط : « فى مداراة » .

(٥) ما ، اسم موصول اسم إن . والتطاول ، خبرها . ورواية هذه الجملة فى خ ، م : « لأن يظن أصحابك أنك إنما تريد التطاول عليهم » .

(٦) لا تنعم ، أى تزد ، من أنعم ، إذا زاد وبالغ .

(٧) ضرائب : جمع ضريبة ، وهى الطبيعة .

لَصِقَ بهِ ، ويَلْصَق بِمَنْ رَحَلَ عنهُ ، [إلاّ مَن حفظ بالأدب نفسَه ، وكابَرَ طَبْعَه . فتحفّظْ مِنْ هٰذا فِيكَ وفى غيْرِك] (١) .

لا تُكثِرَنّ ادِّعاء العِلْمِ فى كلِّ مايَعْرِضُ [بينَكَ و بينَ أصحابك] (١) ؛ فإنَّكَ مِنْ ذٰلِكَ بَيْنَ فَضِيحتَيْنِ : إمَّا أنْ يُنازِعُوكَ فِيما ادَّعَيْتَ فيُهْجَمَ منْكَ على الجهالةِ [والسُّخْفِ] (١) والصَّلَفِ (٢) ، وإمَّا ألاّ يُنازِعُوكَ ويُخَلُّوا (٣) الأُمُورَ فى يدَيْكَ (٤) فيَنْكَشِفَ منْكَ التَّصَنُّعُ (٥) والمَعْجِزَةُ (٦) .

اسْتَحْيِ (٧) الحياءَ كلَّهُ مِنْ أنْ تُخْبِرَ صاحبَكَ أنَّكَ عالِمٌ وأنَّهُ جاهِلٌ ، مُصَرِّحًا أوْ مُعَرِّضًا .

وإنِ اسْتَطَلْتَ على الأَكْفاء (٨) فلا تَثِقَنَّ منهُمْ بالصَّفاء .

إنْ آنَسْتَ (٩) مِنْ نَفْسِكَ فَضْلاً فتَطلَّعَ (١٠) [منكَ على] (١١) أنْ تَذْكُرَهُ أوْ تُبْدِيَهُ (١٢) ، فاعْلَمْ أنَّ ظُهُورَهُ منكَ بذلكَ الوَجْهِ يُقَرِّرُ لكَ فى قُلُوبِ النَّاسِ مِنَ العَيْبِ أكْثَرَ مِمَّا يقرِّرُ لكَ مِنَ الفَضْلِ .

---

(١) التكملة من خ ، م .

(٢) الصلف : مجاوزة قدر الظرف ، والادعاء فوق ذلك تكثرا .

(٣) يخلوا ، أى يتركوا .

(٤) فى خ ، م : « ويخلوا فى يديك ما ادعيت من الأمور » .

(٥) التصنع ، أى تكلف العلم والمعرفة وليس بك . ونصنع فلان : تكلف إظهار شىء لم يكن متصفا به .

(٦) المعجزة (بفتح الميم وكسرها) : الضعف ، كالعجز .

(٧) استحى ، أمر من استحيا يستحيي ، من الحياء ، وهو الانقباض والانزواء . ويقال استحى بياء واحدة . والأولى لغة الحجاز والثانية لغة تميم ويتعدى بنفسه وبمن ، يقال . استحياه واستحيا منه .

(٨) استطلت : أى ترفعت . والأكفاء : جمع كفء ، هو النظير والمثيل .

(٩) أنست ، أى علمت .

(١٠) كذا فى خ ، ط ، م . وتطلع ، أى حملك هذا الفضل على أن تبرزه وتطلعه وتظهره . والذى فى سائر الأصول : فتحرج » أمر من التحرج ، من باب التفعل . قال فى المصباح : وتحرج الإنسان تحرجا ، هذا مما ورد لفظه مخالفا لمعناه ، والمراد فعل فعلا جانب به الحرج ، أى الضيق .

(١١) التكملة من خ ، ط ، م .

(١٢) تبديه ، أى تظهره .

واعلمْ أنّكَ إنْ صَبَرْتَ ولمْ تعْجَلْ ظَهرَ ذلكَ منكَ بالوَجْهِ الجَميلِ [الحَسَن][١] المَعْرُوفِ [عند الناس][١] .

ولا يَخْفَيَنَّ عليك أنّ حِرْصَ الرَّجُلِ على إظْهارِ ما عندَهُ وقِلَّةَ وَقارِهِ فى ذلكَ بابٌ من [أبواب][١] البُخْلِ واللُّؤْمِ . وأنّ مِنْ خيْرِ الأعْوَانِ[٢] على ذلكَ السَّخاءَ والتَّكرُّمَ .

* * *

إنْ أحْبَبْتَ[٣] أنْ تَلْبَس ثَوْبَ الوَقارِ والجَمالِ ، وتَتَحلَّى بحِلْيَةِ المَوَدَّةِ[٤] عند العامَّةِ ، وتَسْلُكَ الجَدَدَ الذى لا خَبارَ[٥] فيهِ ولا عِثارَ ، فَكُنْ عالِمًا كَجاهِلٍ ، وناطِقًا كَعَيٍّ .

فأمّا العِلْمُ فيُرْشِدُكَ[٦] . وأمّا قِلّةُ ادِّعائِهِ فيَنْفِى[٧] عنكَ الحَسَدَ . وأمّا المَنْطِقُ ، إذا احْتَجْتَ إليهِ ، فَسَيُبْلِغُ[٨] حاجَتَكَ . وأمّا الصَّمْتُ فيُكْسِبُكَ المَحَبَّةَ والوقارَ .

إذا رأيْتَ رَجلاً يُحدِّثُ حَديثًا قدْ علِمْتَهُ ، أوْ يُخْبِرُ خَبَرًا قدْ سَمِعْتَهُ ، فلا تشارِكْهُ فيهِ ، ولا تَتَعَقَّبْهُ عليهِ[٩] ، حِرْصًا على أنْ يَعْلَمَ الناسُ أنّكَ قدْ علِمْتَهُ ؛ فإنّ فى ذلكَ خِفَّةً وشُحًّا[١٠] وسُوءَ أدَبٍ وسُخْفًا[١١] .

---

(١) التكملة من خ ، م .
(٢) الأعوان : جمع عون ، وهو الظهير والمعين على الأمر .
(٣) فى خ ، ط ، م : « أردت » .
(٤) فى خ ، م : « المروءة » .
(٥) الجدد : المستوى من الأرض ؛ وقيل : الأرض الصلبة . وفى المثل : من سلك الجدد أمن العثار . والخبار : أرض رخوة فيها حجارة . وفى المثل : من تجنب الخبار أمن العثار .
(٦) فى خ ، م : « فسيزينك ويرشدك » .
(٧) فى خ ، م : « فسينفى » .
(٨) فى خ ، م : « فستبلغ منه » .
(٩) فى ط : « ولا تفتح عليه » . وفى خ ، م : « ولا تفتحه عليه » . وفى ك : « ولا تعتبه عليه » . وفى ش : « لا تعبه » .
(١٠) الشح : البخل . والسخف : نقصان العقل .
(١١) فى ط : « فإن ذلك خفة وسوء أدب وشح » . وفى خ ، م : « فإن فى ذلك مع سوء الأدب خفة وسخفا وحسدا وتضييع حزم وعجبا » .

لِيَعْرِفْ إِخْوَانُك ، والعامّةُ إن استطعتَ ، أنّك[1] إلى أن تَفعَلَ ما لا تَقولُ أقربُ منكَ إلى أن تقولَ ما لا تفعلُ ؛ فإنّ فَضْلَ القَوْلِ على الفِعْلِ عارٌ وهُجْنَةٌ[2] ، وفَضْلَ الفِعْلِ على القَوْلِ زِينَةٌ .

وأنتَ حَقِيقٌ فيما وَعَدْتَ مِنْ نَفْسِكَ ، أوْ أخْبَرْتَ صاحِبَكَ[3] عنهُ أنْ تَحْتَجِنَ[4] بعضَ ما فى نَفْسِكَ إعْدادًا[5] لِفَضْلِ الفِعْلِ على القَوْلِ ، وتَحَرُّزًا بذلكَ عن تَقْصِيرِ فِعْلٍ إنْ قَصَّرَ ، وقلّما يكونُ إلاّ مُقَصِّرًا .

احْفَظْ قَوْلَ الحَكِيمِ الذى قالَ : لِتَكُنْ غايَتُكَ فيما بَيْنَكَ وبَيْنَ عَدُوِّكَ العَدْلَ ، وفيما بَيْنَكَ وبَيْنَ صَدِيقِكَ الرِّضَى . وذلكَ أنّ العَدُوَّ خَصْمٌ تَضْرِبُهُ[6] بالحُجَّةِ ، وتَغْلِبُهُ بالحُكّامِ ؛ وأنّ الصَّدِيقَ ليسَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ قاضٍ ، فإنّما حُكْمُهُ رِضاهُ[7] .

* * *

اجْعَلْ غاية نيّتِكَ فى مُؤاخاةِ مَنْ تُؤاخِى ، ومُواصَلَةِ مَنْ تُواصِلُ ، توطينَ[8] نَفْسِكَ على أنّهُ لا سَبِيلَ لكَ إلى قَطِيعَةِ أخِيكَ ، وإنْ ظَهَرَ لكَ منهُ ما تَكْرَهُ ؛ فإنّهُ ليسَ [كالمملوك الذى تَعْتِقه إذا شِئْتَ][9] . وليس كالمرأةِ الّتى تُطَلِّقُها إذا شِئْتَ ، ولكنّهُ عِرْضُكَ ومُرُوءَتُكَ ، فإنّما مُرُوءَةُ الرَّجُلِ إخْوانُهُ وأخْدانُهُ[10] . فإنْ عَثَرَ[11] النّاسُ على أنّكَ قَطَعْتَ رَجُلاً مِنْ إخْوانِكَ ، وإنْ كُنْتَ مُعْذِرًا[12] ، نَزَلَ ذلكَ عندَ أكْثَرِهِمْ

(١) كذا فى خ ، ط ، م : « والذى فى سائر الأصول : « ليعرفك إخوانك والعامة أنك إن استطعت أن يكون إلى ... ما لا تفعل فعلت » .

(٢) الهجنة (بالضم) : فى الكلام : العيب والقبح ، وفى العلم : إضاعته .

(٣) فى خ ، م : « أخبرت به صاحبك » . (٤) تحتجن ، أى تضم وتمسك .

(٥) إعدادا ، أى تهيئة . (٦) فى خ ، م : « تصرعه » .

(٧) فى ط : « فإنما رضاه حكمه » . وفى خ ، ط ، م : « فإنما هو رضاه وحكمه » .

(٨) كذا فى خ ، م . وفى ط بدأ العبارة بقوله « وطن » . وفى سائر الأصول : « اجعل عامة تشبثك . . . تواصل ووطن » .

(٩) التكملة من خ ، م .

(١٠) الأخدان : جمع خدن ، بكسر فسكون : الصديق والصاحب .

(١١) عثر ، أى اطلع ، وبابه نصر ودخل .

(١٢) معذرا ، أى مبدياً غاية عذرك ، من أعذر الرجل ، إذا بالغ فى إبداء عذره .

بمنزلة الخيانة للإخاء والملال (١) [فيه] . وإن أنت صبرت مع ذلك على مقارّته (٢) على غير الرضى ، دعا (٣) ذلك إلى العيب والنقيصة ، فالإتئاد الإتئاد ، والتثبت التثبت (٤) .

***

إذا نظرت في حال من ترتئيه (٥) لإخائك ، فإن كان من إخوان الدين فليكن فقيهاً ليس بمُراء (٦) ولا حريص ، وإن كان من إخوان الدنيا فليكن حرًّا ليس بجاهل ولا كذّاب ولا شرير ولا مشنوع (٧) .

فإن الجاهل أهل لأن يهرب منه أبواه . وإن الكذاب لا يكون أخاً صادقاً ؛ لأن الكذب الذي يجري على لسانه إنما هو من فضول كذب قلبه ، وإنما سمّي الصديق من الصدق ، وقد يتهم صدق القلب وإن صدق اللسان ، فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان . وإن الشرير يكسبك العدوّ ، ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة . وإن المشنوع شانع (٨) صاحبه .

***

تحرّز من سكر السلطة (٩) [وسكر المال] (١٠) ، وسكر العلم ، وسكر المنزلة (١١) ، وسكر الشباب (١٢) ؛ فإنه ليس من شيء إلا وهو ريح جِنّة (١٣) تسلب العقل ،

(٢) الملال : الضجر والسآمة ، وهو معطوف على الخيانة .
(٢) المقارة ، أي الاستقرار والسكون معه على غير رضا ، يقال : قاره مقارة ، أي قر معه وسكن . وفي خ ، م . « مقاربته » .
(٣) كذا في خ ، م . والذي في سائر الأصول : « عاد » .
(٤) أي الزم الاتئاد ، وهو التأني والتمهل والتثبت وعدم التسرع . فكل من الاتئاد والتثبت منصوب بفعل محذوف لزوما ، وهو الزم وما بمعناه . وفي خ ، م : « فالارتياد الارتياد » .
(٥) ارتأى في الأمر يرتئي ، إذا نظر فيه . وهو افتعل ، من رؤية القلب ، أو من الرأي والتدبير . وفي خ ، م : « ترتاد » .
(٦) مراء ، اسم فاعل من راآه يرائيه مراآة ، والاسم الرياء ، وهو إظهار العمل للناس ليروه ، ويظنوا به خيرا ، فيكون العمل لغير الله ، تعوذا بالله منه .
(٧) المشنوع ، المشهور بالشناعة ، وهي القبح الذي يستشنع . يقال : شنعه شنعاً ، إذا استقبحه وشتمه ، ويقال : شنعنا فلان ، إذا فضحنا .
(٨) شانع صاحبه ، أي شاهره بما هو مشهور به .
(٩) السلطة : التسلط والقهر . وفي خ ، ط ، م : « السلطان » .
(١٠) التكملة من خ ، ط ، م . (١١) المنزلة : القدر والجاه والمرتبة .
(١٢) الشباب : الفتاء والحداثة . (١٣) الجنة (بكسر الجيم) : الجنون .

وتُذْهِبُ الوَقارَ، وتَصْرِفُ القَلْبَ والسَّمْعَ والبَصَرَ واللِّسانَ عنِ المَنافِعِ (١).

اعْلَمْ أنَّ انْقِباضَكَ (٢) عن الناسِ يَكْسِبُكَ العَداوَةَ، وأنَّ تَفَرُّشَكَ لَهُمْ يَكْسِبُكَ صَدِيقَ السُّوءِ. وفُسُولَةُ الأَصْدِقاءِ أَضَرُّ مِنْ بُغْضِ الأَعْداءِ؛ فإنَّكَ إنْ واصَلْتَ صَدِيقَ السُّوءِ أعْيَتْكَ جَرائِرُهُ (٣)، وإنْ قَطَعْتَهُ شانَكَ (٤) اسْمُ القَطِيعَةِ وأَلْزَمَكَ ذلكَ مَنْ يَرْفَعُ (٥) عَيْبَكَ ولا يَنْشُرُ عُذْرَكَ، فإنَّ المَعايِبَ (٦) تَنْمِى، والمَعاذِيرَ (٧) لا تَنْمِى.

الْبَسْ لِلناسِ لِباسَيْنِ ليسَ لِلعاقِلِ بُدٌّ منهُما، ولا عَيْشَ ولا مُرُوءَةَ إلاّ بِهِما:

لِباسَ انْقِباضٍ واحْتِجازٍ (٨)، تَلْبَسُهُ لِلعامَّةِ، فلا تُلْفَيَنَّ إلاّ مُتَحَفِّظًا (٩) مُتَشَدِّدًا مُتَحَرِّزًا مُسْتَعِدًّا.

ولِباسَ انْبِساطٍ واسْتِئْناسٍ تَلْبَسُهُ لِلخاصَّةِ مِنَ الثِّقاتِ (١٠)، فَتَتَلَقّاهُمْ بِبَناتِ (١١) صَدْرِكَ، وتُفْضِى إليهِمْ بِمَوْضُوعِ (١٢) حَدِيثِكَ، وتَضَعُ عنكَ مَئُونَةَ الحَذَرِ والتَّحَفُّظِ فِيما بَيْنَكَ وبينَهُمْ.

---

(١) فى خ، م: «إلى غير المنافع».

(٢) الانقباض: ضد الانبساط. والتفرش: الانبساط. وفى خ، م: «تقربك». والفسولة: الرداءة والنذالة، مصدر فسل، من باب سهل وكرم. والفسل (بفتح فكسر): الرجل الردىء، والرذل الذى لا مروءة له، وجمعه أفسل وفسول وفسال وفسل. وفى خ، ط، ك، م: «وسوء» مكان «وفسولة».

(٣) أعيتك. أتعبتك. والجرائر: جمع جريرة، وهى الذنب والجناية.

(٤) شانه: ضد زانه.

(٥) يرفع عيبك، أى يذيعه وينسبه إليك.

(٦) المعايب: العيوب. وتنمى، أى ترفع. يقال: نمى الحديث: إذا ارتفع. ونميته: رفعته وعزوته. وأنميته: أذعته على وجه النميمة.

(٧) المعاذير: جمع المعذرة، أى العذر.

(٨) الاحتجاز: الامتناع، مصدر احتجز، مطاوع حجز، يقال: حجزه فاحتجز، أى منعه فامتنع. وفى خ، م: «والحجاز».

(٩) تلفين، مبنى للمجهول، من ألفاه يلفيه، أى وجده. ومتحفظا، اسم فاعل تحفظ يتحفظ تحفظا، أى تيقظ.

(١٠) فى خ، م: «للخاصة الثقات من أصدقائك».

(١١) فى خ، م: «بذات». وفى ط: «بثبات».

(١٢) فى خ، م: «بمصون».

وأهلُ هٰذهِ الطَّبَقةِ ، الذينَ هُمْ أهلُها ، قليلٌ [من قليل حقًّا] (١) ؛ لأنَّ ذا الرَّأي لا يُدْخِلُ أحدًا مِنْ نفسِهِ هذا المُدْخَلَ إلاَّ بعدَ الاختبارِ والسَّبْرِ (٢) ، والثِّقَةِ بصِدْقِ النَّصيحَةِ ووَفاءِ العَهْدِ (٣) .

* * *

اعْلَمْ أنَّ لِسانَكَ أداةٌ مُغَلَّبةٌ (٤) يَتَغالَبُ عليهِ عَقْلُكَ وغَضَبُكَ وهَواكَ وجَهْلُكَ ، فَكُلُّ غالِبٍ عليهِ مُسْتَمْتِعٌ بِهِ وصارِفُهُ فى مَحَبَّتِهِ . فإذا غَلَبَ عليهِ عَقْلُكَ فهوَ لكَ ، وإذا غَلَبَ عليهِ شىءٌ مِنْ أشْباهِ ما سَمَّيْتُ لكَ فهُوَ لِعَدُوِّكَ .

فإنِ اسْتَطَعْتَ أن تَحْتَفِظَ بِهِ (٥) [وتَصُونَه] فلا يَكُونَ (٦) إلا لكَ ، ولا يَسْتَوْلِيَ عليهِ أوْ يشارِكَكَ عَدُوكَ فيهِ ، فافعَلْ .

* * *

إذا نابَتْ أخاكَ إحْدَى النَّوائِبِ (٧) ، مِنْ زَوالِ نِعْمَةٍ أوْ نُزُولِ بَلِيَّةٍ ، فاعْلَمْ أنَّكَ قدِ ابْتُلِيتَ معهُ : إمَّا بالمُؤاساةِ فَتُشارِكُهُ فى البَلِيَّةِ ، وإمَّا بالخِذْلانِ (٨) فتَحْتَمِلُ العارَ . فالتَمِسِ (٩) المَخْرَجَ عندَ أشْباهِ (١٠) ذلكَ ، وآثِرْ (١١) مُرُوَّتَكَ على ماسِوَاها .

فإنْ نزَلَتِ الجائِحَةُ (١٢) الَّتِى تَأْبَى نَفْسُكَ مُشارَكَةَ أخيكَ فيها ، فأَجْمِلْ ، فلَعَلَّ الإجمالَ يَسَعُكَ لِقِلَّتِهِ فى النَّاسِ (١٣) .

---

(١) التكملة من خ ، م . (٢) فى خ ، م : « والتكشف » .

(٣) كذا فى خ ، م . والذى فى سائر الأصول : « العقل » .

(٤) مغلبة ، أى مغلوبة . والمغلب : الذى يغلب كثيرا . وفى خ ، م : « مصلتة » .

(٥) تحتفظ به ، أى تصونه وتحفظه .

(٦) معطوف على تحتفظ ، وكذا يستولى . وقوله فافعل ، جواب الشرط .

(٧) نابت أخاك ، أى أصابته . والنوائب : جمع نائبة ، وهى المصيبة . والمؤاساة ، مصدر آساه ، أى جعله أسوته وسواه بنفسه .

(٨) الخذلان ، مصدر خذله يخذله . . بالضم ، خذلا وخذلانا ، بالكسر ، أى ترك نصرته وإعانة .

(٩) التمس : اطلب المخرج ، أى الخروج .

(١٠) فى الأصل ، ف : « اشتباه » . (١١) وآثر ، أى فضل مروءتك .

(١٢) الجائحة : الآفة والشدة التى تجتاح المال ، أى تهلكه .

(١٣) فى خ ، م : « العلة الإجمال فى الناس » . وفى ط : « لقلة التجمل » .

(١) إِذَا أَصَابَ أَخَاكَ فَضْلٌ ، فإنه لَيْسَ فى دُنُوِّكَ(٢) مِنْهُ ، وابْتِغائِكَ(٣) مَوَدَّتَهُ ، وتَوَاضُعِكَ لَهُ ، مَذَلَّةٌ . فاغْتَنِمْ ذلكَ واعْمَلْ فيهِ .

لا تَعْتَذِرَنَّ إِلاّ إلى مَنْ يُحِبُّ أَنْ يَجِدَ لكَ عُذْرًا . ولا تَستعِينَنَّ إِلاّ بِمَنْ يُحب أن يَظْفَرَ لكَ(٤) بحاجتِكَ . ولا تُحَدِّثَنَّ إِلاّ مَنْ يَرَى حديثَكَ مَغْنَمًا(٥) ، ما لم يَغْلِبْكَ الاضطِرَارُ .

إذا غَرَسْتَ مِنَ المَعْرُوفِ غَرْساً وأَنْفَقْتَ عليه نَفَقَةً ، فلا تَضَنَّنَّ(٦) بالنَّفَقَةِ فى تَرْبِيَةِ ما غَرَسْتَ [واُسْتِنْمائِه](٧) ، فَتَذْهَبَ النَّفَقَةُ الأُولى ضَياعاً .

إذا اعْتَذَرَ إليكَ مُعْتَذِرٌ فَتَلَقَّهُ بِوَجْهٍ مُشْرِقٍ ، وبِشْرٍ(٨) ، [ولِسانٍ](٧) طَلْقٍ(٩) ، إِلّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ قَطِيعَتُه غَنِيمَةٌ .

***

اعْلَمْ أنَّ إِخْوَانَ الصِّدْقِ هُمْ خَيْرُ مَكاسِبِ الدُّنْيا : [هم](٧) زِينَةٌ فى الرَّخاءِ ، وعُدَّةٌ فى الشِّدَّةِ(١٠) ، ومَعُونَةٌ فى المَعاشِ والمَعادِ(١١) ، فلا تُفَرِّطَنَّ(١٢) فى اكْتِسابِهِم وابْتِغاءِ(١٣) الوُصَلاتِ والأَسْبابِ إليهِم .

اعْلَمْ أنَّكَ واجِدٌ رَغْبَتَكَ مِنَ الإِخاءِ عندَ أَقْوامٍ قدْ حالَتْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُم بعضُ الأُبَّهَةِ(١٤) الَّتِي قدْ تَعْتَرِى(١٥) أَهْلَ المُرُوآتِ فَتَحْجُزُ مِنْهُمْ كَثِيرًا مِمَّنْ يُرْغَبُ فى أَمْثالِهِمْ . فإذا رَأَيْتَ أَحَدًا مِنْ اولَئِكَ قدْ عَثَرَ(١٦) بِهِ الزَّمانُ فأَقِلْه(١٧) .

---

(١) الكلام من هنا إلى قوله فأقله ، (س ١٥) جاء فى الأصل متقدما عن موضعه هذا ، مذكورا فى باب السلطان وهو بهذا الباب أليق ، وكذا ورد فى أكثر الأصول .

(٢) دنوك ، أى قربك . (٣) ابتغائك ، أى طلبك . (٤) فى خ ، م : « يظفرك » .

(٥) مغنما ، مصدر ميمى ، بمعنى الغنيمة . (٦) ضن بكذا : بخل به ، من باب تعب .

(٧) التكملة من خ ، م . (٨) البشر (بالكسر) : طلاقة الوجه .

(٩) كذا فى خ ، م . والذى فى سائر الأصل : « طليق » .

(١٠) الرخاء : الخصب واتساع العيش ، ضد الشدة . والعدة ، بالضم : الاستعداد والتأهب وما أعددته من مال أو غيره ، ويجمع على عدد ، كغرفة وغرف .

(١١) فى خ ، م : « على خير المعاش والمعاد » . (١٢) التفريط : التقصير والتضييع .

(١٣) الابتغاء : الطلب ، والوصلات : جمع وصلة ، أى الاتصال .

(١٤) الأبهة : العظمة والنخوة . (١٥) تعترى ، أى تصيبهم ، وتحجز ، أى تمنع .

(١٦) عثر ، أى سقط ، من العثرة ، بمعنى السقوط . وفى خ : « عثرية الدهر » . وأقله ، أمر من الإقالة ، يقال : أقاله الله عثرته ، إذا رفعه من سقوطه .

(١٧) مكان هذه الكلمة فى خ ، ط ، م : « وعرفت نفسك أنه ليس فى دنوك معه وابتغائك مودته =

إذا كانت لك عند أحدٍ صنيعة، أو كان لك عليه طَوْلٌ(١)، فالتمس إحياء ذلك بإماتته، وتعظيمه(٢) بالتصغير له. ولا تقتصرن في قلة المن [به](٣) على أن تقول: لا أذكره، ولا أصغي بسمعي إلى من يذكره؛ فإن هذا قد يستحى منه بعض من لا يوصف بعقل ولا كرم. ولكن احذر أن يكون في مجالستك إياه وما تكلمه به أو تستعينه عليه أو تجاريه فيه، شيء من الاستطالة(٤)؛ فإن الاستطالة تهدم الصنيعة وتكدر المعروف.

* * *

احترس من سَوْرة(٥) الغضب، وسورة الحمية، وسورة الحقد(٦)، وسورة الجهل. وأعدد(٧) لكل شيء من ذلك عُدة تجاهده بها، من الحلم والتفكر والروية وذكر العاقبة وطلب الفضيلة(٨).

واعلم أنك لا تصيب الغلبة إلا بالجهاد(٩)، وأن قلة الإعداد(١٠) لمدافعة(١١) الطبائع المتطلعة هو الاستسلام [لها](٣)، وأنه ليس أحد [من الناس](٣) إلا وفيه من كل طبيعة سوء غريزة(١٢)، وإنما التفاضل بين الناس في مغالبة طبائع السوء. فأما أن يسلم أحد من أن يكون فيه [من](٣) تلك الغرائز [شيء](٣) فليس

= وتواضعك له مذلة فاغتنم ذلك واعمل فيه». وقد مرت هذه العبارة مع قليل من المخالفة قبل ذلك بأسطر.

(١) الصنيعة: ما اصطنعته من خير. والطول (بالفتح): المن. يقال: طال عليه يطول طولا، أي امتن وأفضل.

(٢) تعظيمه، معطوف على إحياء. (٣) التكملة من خ، م.

(٤) الاستطالة، أي التطاول.

(٥) السورة: الحدة. والسورة: البطش. والسورة: الوثوب.

(٦) الحمية: العار والأنفة. والحقد (بالكسر): الضغن والعداوة، ويجمع على أحقاد.

(٧) أعدد: أي هيئ وأحضر.

(٨) العدة (بالضم): ما أعددته من مال أو سلاح أو غير ذلك. وضمير «تجاهده» البارز راجع إلى «كل شيء من ذلك»، أي المذكورات. وضمير «بها» للعدة، وقوله من «الحلم والتفكر.. الخ» بيان للعدة.

(٩) الغلبة، أي التغلب والقهر. وفي خ، م: «بالاجتهاد والفضل».

(١٠) الإعداد، أي الاستعداد والتهيؤ.

(١١) في أكثر الأصول: «لموافقة» وما أثبتنا من خ، ط، م. (١٢) الغريزة: الطبيعة.

فى ذلكَ مَطْمَعٌ . إلاأنَّ الرَّجُلَ القوىَّ إذا كابَرَها[١] بالْقَمْعِ لها كُلَّما تَطَلَّعَتْ[٢]، لم يَلبَثْ أنْ يُميتَها حتّى كأنَّها لَيْسَتْ فيه ، وهىَ فى ذلكَ كامِنَةٌ كُمُونَ النّارِ فى العُودِ [والحَجَرِ][٣] . فإذا وَجَدَتْ قادِحًا مِنْ عِلّةٍ[٤] أو غَفْلَةٍ ، اسْتَوْرَتْ كما تَسْتَوْرِى [النارُ][٣] عندَ القَدْحِ[٥] [فى الحَطَبِ][٣]، ثمَّ لا يَبْدَأُ ضَرُّها إلا بِصاحِبِها ، كما لا تَبْدَأُ [النارُ][٣] إلا بِعُودِها التى كانتْ فيه .

* * *

ذَلِّلْ نَفْسَكَ[٦] بالصَّبْرِ على جارِ السَّوْءِ ، وعَشِيرِ السَّوْءِ ، وجَلِيسِ السَّوْءِ ؛ فإنَّ ذلكَ مالا يَكادُ يُخْطِئُكَ .

[واعْلَمْ][٣] أنَّ الصَّبْرَ صَبْرانِ : صَبْرُ الرَّجُلِ على ما يَكْرَهُ ، وصَبْرُهُ عَمّا يُحِبُّ . فالصَّبْرُ على المَكْرُوهِ أكْبَرُهُما[٧] وأشْبَهُهُما بأنْ يكونَ صاحِبُه مُضْطَرًّا . واعْلَمْ أنَّ اللِّئامَ أصْبَرُ أجْسادًا ، والكِرامَ أصْبَرُ نفوسًا . وليسَ الصَّبْرُ [المَحْمُود][٣] المَمْدُوحُ بأنْ يَكُونَ جِلْدُ الرَّجُلِ وَقاحًا[٨] [على الضَّرْبِ][٣]، أو رِجْلُهُ قَوِيَّةً على المَشْىِ ، أوْ يَدُهُ قَوِيَّةً على العَمَلِ ، فإنَّما هذا مِنْ صِفاتِ الحَمِيرِ . ولكِنَّ [الصَّبْرَ المَحْمُودَ المَمْدُوحَ][٣] أنْ

(١) كابرها ، أى غالبها بالقمع ، أى بالقهر والإذلال . وفى خ ، م : « إذا كان يردها » مكان « إذا كابرها » .

(٢) تطلعت ، أى استشرفت . (٣) التكملة من خ ، م .

(٤) فى أكثر الأصول : « من غير علة » وما أثبتنا من خ ، ط ، م .

(٥) القادح ، اسم فاعل ، من قدح بالزند : رام الإيراء به . والزند : العود الذى يقدح به النار . واستورت ، أى طلبت الورى . يقال : ورى الزند ، كرمى ، يرى وريا ، إذا خرجت ناره : ويقال فى التعدية ، أوريته ووريته واستوريته ، من أبواب : الإفعال ، والتفعيل ، والاستفعال .

(٦) ذلل نفسك ، أى لينها وعودها . والعشير : المعاشر . والجليس : المجالس . وقوله « فإن ذلك » أى تذليل نفسك بالصبر على ماذكر ما لا يكاد يخطئك ، أى لا يقرب أن يخطئك ، أى يتجاوزك .

(٧) كذا فى ط . وفى خ ، م : « وأكبرهما وأشبههما أن » . والذى فى سائر الأصول : « وأكثرهما وأشبههما » . قال الشارح : « أى أكثر الصبرين المذكورين ، وهو مبتدأ ، وأشبههما معطوف عليه . وأن يكون صاحبه مضطرا ، جملة فعلية فى تأويل المصدر خبر أكثرهما ، أى كون صاحبه مضطرا . هذا على مافى النسخة ، والذى أراه أن كلمة « أن » محرفة عن إذا التعليلية . وأن قوله « فالصبر » مبتدأ ، وقوله « أكثرهما » خبره « وأشبههما » معطوف عليه . وقوله « إذ يكون . . . الخ » جملة قصد بها تعليل كونه أكثر وأشبه . فتأمل » .

(٨) وقاحا : صلبا .

يكونَ للنَّفْسِ غَلُوبًا، وللأُمُورِ مُحْتَمِلاً(١)، وفي الضُّرِّ مُتَجَمِّلاً(٢)، ولنفسِه عندَ الرَّأْيِ والحِفَاظِ مُرْتَبِطًا(٣)، وللحَزْمِ مُؤْثِرًا(٤)، وللهَوَى تاركاً، ولِلْمَشَقَّةِ التي يرجُو عاقبتَها مُستخِفًّا، و[لنفسِه](٥) على مُجاهَدَةِ الأهْواءِ والشَّهَوَاتِ مُوَاظِبًا(٦)، ولبصَرِه(٧) بعَزْمِه(٨) مُنْفِذًا.

حَبِّبْ إلى نفسِكَ العلمَ حتى تألفَهُ وتلزَمَهُ، ويكونَ هُوَ لهوَكَ ولذَّتَكَ وسَلْوَتَكَ(٩) وبُلغتَكَ(١٠).

واعْلَمْ أنَّ العِلمَ عِلْمانِ: عِلْمٌ للمَنافِعِ، وعِلْمٌ لتَذْكِيَةِ(١١) العَقْلِ.

وأفْشَى العِلْمَيْنِ(١٢) وأجْداهُما أنْ يَنْشَطَ له صاحِبُهُ مِنْ غيرِ أنْ يُحَرَّضَ(١٣) عليهِ عِلمُ المَنافعِ. ولِلعِلْمِ(١٤) الذي هُوَ ذَكاءُ(١٥) العُقُولِ وصِقالُها وجِلاؤُها فَضِيلةُ مَنزِلةٍ عند أهلِ الفَضْلِ في الألْبابِ(١٦).

* * *

(١) قال الأزهري: كل ما كان سوء حال وفقر وشدة فى بدن، فهو ضر، بالضم. وما كان ضد النفع، فهو بالفتح.

(٢) متجملا، أى متصبرا. وفى خ، م. «مجملا». وفى ش: «متحملا».

(٣) الرأى: العقل والتدبير. والحفاظ: الغضب. ومرتبطاً، بمعنى رابطا. والمعنى أن الصبر المحمود هو أن يكون المرء رابطا نفسه عند الرأى والغضب ممسكا بعنانها. وارتبط، وإن كان متعدياً بنفسه إلا أن اسم الفاعل، لضعفه فى العمل لكونه فرعا فى العمل عن الفعل، تزاد لام فى مفعوله تسمى لام التقوية، كقوله تعالى: (مصدقا لما معهم).

(٤) الحزم: ضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة. ومؤثرا، أى مختارا.

(٥) التكملة من خ، م. (٦) فى خ، م: «موطنا». (٧) فى خ، م: «ولبصيرته».

(٨) عزم على الشيء: عقد ضميره على فعله، ومنفذا، اسم فاعل أنفذ أو نفذ، بالتشديد، يقال: نفذهم وأنفذهم، إذا جازهم.

(٩) السلوة: التسلى بالشيء ونسيان غيره، اسم من سلاه وسلا عنه، إذا نسيه.

(١٠) البلغة (بالضم): ما يتبلغ به من العيش، أى يكتفى به. يقال: تبلغ بكذا، أى اكتفى به. وفى خ، م: «تعللك وشهوتك» مكان «وبلغتك».

(١١) كذا فى خ، م. وهو يتفق وما سيأتى. والذى فى سائر الأصول: «لتزكية» والتزكية: الإنماء.

(١٢) أفشى العلمين، أى أكثرهما انتشارا. وأجداها، أنفعهما. ونشط له، أى خف وأسرع لعمله عن طيب نفس من غير أن يحرض ويحث عليه. وأفشى، مبتدأ. وأجدى، معطوف عليه. وأن ينشط، جملة فى تأويل مصدر محله الجر بالباء المقدرة قبل أن، وهذا الجار متعلق «بأجدى». وخبر المبتدأ قوله. «علم المنافع».

(١٣) فى خ، م: «يحض». (١٤) فى خ، م: «والعلم ... له فضيلة».

(١٥) ذكاء العقول، أى توقدها. (١٦) الألباب: جمع لب، وهو العقل.

عَوِّدْ نفسَكَ السَّخاء[١] ، واعْلَمْ أنهما سَخَاآنِ : سَخَاوَةُ نَفْسِ الرَّجُلِ بما في يَدَيْه ، وسَخَاوَتُهُ عمَّا في أَيْدِى النَّاسِ .

وسَخَاوَةُ نَفْسُ الرَّجُلِ بمَا في يَدَيْهِ أكثرُهما وأقربُهُمَا مِنْ أنْ تَدْخُلَ فيه المفَاخَرَة ، وتَرْكُهُ ما في أيْدِى النَّاسِ أَمْحَضُ في التَّكَرُّم ، وأَنْزَهُ مِنَ الدَّنَس[٢] .

فإنْ هُوَ جَمَعَهُمَا[٣] ، فبَذَلَ وعَفَّ ، فقَدِ اسْتَكْمَلَ الْجُودَ والكَرَمَ .

***

لِيَكنْ مِمَّا تَصْرِفُ بِهِ الأَذَى والعذابَ عنْ نفسِكَ ألَّا تَكونَ حَسُودًا ؛ فإنَّ[٤] الحسدَ خُلُقٌ لئيمٌ ، ومِنْ لُؤْمِهِ أَنَّهُ يُوَكَّلُ بالأَدْنى فالأَدْنَى مِنَ الأقاربِ والأكفاء [والمعارف][٥] والخُلطاء [والإخوان][٥] . فليَكنْ ماتُقابِلُ[٦] بِهِ الحسدَ أن تعلمَ أنَّ خيرَ ما تَكونُ حينَ تَكونُ مع مَنْ هُوَ خيرٌ منك ، وأنَّ غُنْماً [حَسَنا][٥] لكَ أن يكونَ عَشِيرُكَ وخليطُكَ أفضلَ منكَ في العلمِ فتقتبسَ مِنْ عِلْمِهِ ، وأفضلَ منكَ في القُوَّةِ فيَدْفَعَ عنكَ بقُوَّتِهِ ، وأفضلَ منكَ في المالِ فتُفيدَ[٧] من مالِه ، وأفضلَ منكَ في الجاهِ فتُصيبَ حاجتَكَ بجاهِهِ ، وأفضلَ منكَ في الدِّينِ فتَزْدادَ صلاحًا بصلاحِهِ .

***

---

(١) السخاء والسخاوة : الجود والكرم ، وفى فعله ثلاث لغات : سخى يسخو ، من باب علا ، وسخى يسخى ، من باب تعب ، وسخو يسخو ، من باب ظرف ، والفاعل من الأولى ساخ ، ومن الثانية سخ ، منقوص . ومن الثالثة سخى . كذا فى المصباح .

(٢) سخاوة ، مبتدأ . وأكثرها ، خبره . وأقربهما ، معطوف عليه . ومن أن تدخل فيه المفاخرة جملة مؤولة بالمصدر محله الجر بمن ، ومتعلق الجار «أكثر» أو «أقرب» . أى أكثرهما أو أقربهما من دخول المفاخرة . وقوله ، «أمحض» اسم تفضيل ، من محض فى كذا، أخاص . والمحض : الخالص من كل شيء . وأنزه ، أى أبعد ، من نزه ، ككرم وضرب ، نزاهة ونزاهية : تباعد عن كل مكروه . والدنس (بفتحتين) : الوسخ . وفى خ ، م : « وأبرأ من الدنس وأنزه » .

(٣) جمعهما ، أى السخاءين ، فبذل وأعطى ما فى يديه . وعف ، أى امتنع عما فى أيدى الناس.

(٤) فى خ ، م : « واعلم أن » .

(٥) التكملة من خ ، م .

(٦) فى خ ، م : « ما تعامل » .

(٧) تفيد ، أى تستفيد . يقال : أفدت المال واستفدته . ويقال : أفدت المال ، بمعنى أعطيته ، فهو من الأضداد .

لِيَكُنْ مما(١) تَنْظُرُ فيه مِنْ أمْرِ عَدُوِّكَ وحاسِدِكَ أن تَعْلَمَ أنّهُ لا يَنْفَعُكَ أنْ تُخْبِرَ عَدُوَّكَ [أو حاسدكَ](٢) أنّكَ لهُ عَدُوٌّ، فَتُنْذِرَهُ نفسَكَ، وتُؤْذِنَه(٣) بِحَرْبِكَ قَبْلَ الإعْدادِ(٤) والفُرْصةِ، فَتَحْمِلَهُ على التَّسَلُّحِ(٥) لكَ، وتُوقِدَ نارَهُ عليكَ.

واعْلَمْ أنّه أعْظَمُ لِخَطَرِكَ(٦) أن تُرِيَه(٧) أنّكَ لا تَتَّخِذُهُ عَدُوًّا؛ فإنّ ذلكَ غِرَّةٌ لهُ، وسَبِيلٌ(٨) لكَ إلى القُدْرَةِ عليهِ. فإنْ أنتَ قَدَرْتَ فاستَطَعْتَ اغْتِفارًا لعَداوَتِه(٩) عَنْ أنْ تُكافِئَ بِها، فَهُنالِكَ استَكْمَلْتَ عَظِيمَ الخَطَرِ.

وإنْ كُنْتَ مُكافِئًا بالعَداوَةِ والضَّرَرِ، فإيّاكَ أنْ تُكافِئَ عَداوَةَ السِّرِّ بِعَداوَةِ العَلانِيَةِ، وعَداوَةَ الخاصَّةِ بِعَداوَةِ العامَّةِ؛ فإنّ ذلكَ هُوَ الظُّلْمُ والعارُ(١٠).

واعْلَمْ مَعَ ذلِكَ أنّهُ ليسَ كلُّ العَداوَةِ والضَّرَرِ يُكافَأُ بِمِثْلِه، كالخِيانَةِ لا تُكافَأُ بالخِيانَةِ، والسَّرِقَةِ لا تُكافَأُ بالسَّرِقَةِ.

ومِنَ الحِيلَةِ فى أمْرِكَ مَعَ عَدُوِّكَ(١١) أنْ تُصادِقَ أصْدِقاءَهُ، وتُؤاخِيَ إخْوانَهُ، فَتَدْخُلَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ فى سَبِيلِ الشِّقاقِ(١٢) والتَّجافى؛ فإنَّهُ ليسَ رَجُلٌ ذُو طَرْقٍ(١٣)

---

(١) كذا فى خ، ط، م. والذى فى سائر الأصول: «ما».

(٢) التكملة من خ، ط، م.

(٣) لعل الصواب تؤاذنه، بمعنى تعلمه. من آذنه بكذا، إذا أعلمه به. وأما قوله تعالى: فأذنوا بحرب من الله ورسوله، فهو من أذن بالشىء يأذن، من باب طرب، بمعنى علم به. والمعنى: كونوا على علم به.

(٤) الإعداد: من أعد لأمر كذا، إذا هيأ له العدة.

(٥) التسلح، لبس السلاح، وهو ما يقاتل ويدافع به فى الحرب.

(٦) المراد بالخطر هنا: القدر والمنزلة.

(٧) كذا فى ط. وفى خ، م: «اعلم أنه أعظم لخطرك أن يرى عدوك». والذى فى سائر الأصول: «اعلم أنه أعظم خطرك أن ترى عدوك».

(٨) غرة، اسم من غره يغره، إذا خدعه واستغفله. والسبيل: الطريق.

(٩) فى خ، ط، م. «اغتفار العداوة».

(١٠) فى خ، م: «والاعتداء». (١١) فى ط: «فى أمر عدوك».

(١٢) الشقاق، مصدر شاقة، إذا خالفه. والتجافى: الترفع والتباعد. وفى خ، م: «التحامل».

(١٣) الطرق (بفتح فسكون): ضعف العقل. وقد طرق، كعنى، فهو مطروق. ويقال: فلان به طرقة، أى هوج. وطرق فلان وأخذ فى التطريق، إذا احتال. والطرق أيضا: الفخ أو شبهه. وفى خ، ط، م: «ظرف» فى الموضعين.

يَمْتَنِعُ مِنْ مُؤَاخاتِكَ إذا الْتَمَسْتَ ذلكَ منهُ . وإن كانَ إخوانُ عدُوِّكَ غيْرَ ذوى طرْقٍ فلا عَدُوَّ لكَ .

لا تَدَعْ[١] ، معَ السُّكوتِ عنْ شَتْمِ عدُوِّكَ ، إحْصاءَ معايبِهِ ومثالبِهِ[٢] [ومَعايِره][٣] واتِّباعَ عَوْرَاتِهِ[٤] ، حتى لا يَشِذَّ عنكَ منْ ذلكَ صَغِيرٌ [ولا كَبِيرٌ][٣] ، منْ غيْرِ أن تَشِيعَ[٥] [ذلكَ][٦] عليهِ فيتَّقِيَكَ[٧] بهِ ، ويَستعِدَّ لهُ . ولاتَذْكُرْهُ فى غيْرِ موْضِعِهِ ، فتكُون كَمُسْتَعْرِضِ الهَوَاءِ بِنَبْلِهِ ، قبلَ إمْكانِ الرَّمْيِ .

لا تَتَخِذِ اللَّعْنَ والشَّتْمَ على عدُوِّكَ سِلاحًا ؛ فإنَّهُ لا يَجْرَحُ فى نفسٍ ولا فى مالٍ ولا دِينٍ ولا مَنْزِلَةٍ .

* * *

إنْ أَرَدتَ أنْ تَكُونَ دَاهِيًا[٨] فلا تُحِبَّنَّ أنْ تُسَمَّى داهيًا ؛ فإنهُ مَنْ عُرِفَ بالدَّهاءِ خاتَلَ[٩] علانيَةً وحَذِرَهُ النَّاس ، حَتّى يمْتَنِعَ مِنهُ الضَّعِيفُ[١٠] .

فإنَّ منْ إرْبِ[١١] الأريبِ دَفْنَ إرْبِهِ ما استطاعَ ، حتى يُعْرَفَ بالمُسامحَةِ فى الخليقَةِ[١٢] و[الاسْتقامة][٣] فى الطَّرِيقَةِ[١٣] . ومنْ إرْبِهِ ألّا يُؤارِبَ[١٤] العاقلَ المُستقيمَ لهُ الّذِى يَطَّلِعُ على غامِضِ إرْبِهِ فَيَمْقُتَهُ عليهِ[١٥] .

(١) لاتدع ، نهى ، من ودع يدع ، بمعنى ترك ، وأصل مضارعه الكسر ، من باب ضرب يضرب ، ولذلك حذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة ثم فتحت الدال لمكان حرف الحلق .

(٢) العيوب : جمع معابة ، بالفتح . والمثالب : جمع مثلبة ، وهى المسبة والتعييب . يقال : ثلبه ، إذا صرح بالعيب فيه وتنقصه . وفى ط : « احصاء معاثره ومعايبه » .

(٣) التكملة من خ ، م .

(٤) العورات : جمع عورة ، وهى كل شىء يستره الإنسان أنفة وحياء . (٥) فى ط : « تشنع » .

(٦) التكملة من خ ، ط ، م . (٧) فى خ ، م : « فيتسلح له » .

(٨) داهيا ، اسم فاعل من الدهى ، كالرمى ، والدهاء كسماء ، وهو الفكر وجودة الرأى . ويأتى اسم فاعله على ده وداهية ، ويجمع على دهاة ، كغزاة ، ودهون . والفعل دهى كرضى .

(٩) خاتل : خادع ، من المخاتلة . وختلة ختلا ، خدعه . وفى خ ، ط ، م : « صار مخاتلا » .

(١٠) فى خ ، م : « الضعيف ويتعرض له القوى » .

(١١) الإرب (بكسر فسكون) : الدهاء والمكر ، وهو من العقل . والأريب : العاقل .

(١٢) الخليقة : الطبيعة . (١٣) الطريقة : المذهب .

(١٤) يؤارب ، أى يداهى . (١٥) فى خ ، م : « لذلك » .

[و] (١) إن أردتَ السَّلامةَ فأشعِر (٢) قلبكَ الهَيْبةَ للأمورِ ، من غيرِ أن تظهرَ [للناس] (١) منك الهيبةُ ، فتُفطِنَهم بنفسك (٣) ، وتجرِّئَهم عليك ، ويدعُوَ ذلكَ إليكَ منهم كُلَّ ما (٤) تهابُ . فاشْعَبْ (٥) لِمُداراةِ ذلكَ ، منْ كِتمانِ المَهابةِ (٦) وإظهارِ الجَراءةِ والتَّهاوُنِ ، طائفةً مِنْ رَأْيِكَ .

وإنِ ابتُليتَ بِمُجازاةِ (٧) عَدوٍّ مُخالِف (٨) هذهِ الطَّريقةَ التى وصفْتُ لكَ مِنَ اسْتِشْعارِ الهَيْبةِ ، وإظهارِ الجَراءةِ ، والتَّهاوُنِ . وعليكَ بالحَذَرِ (٩) فى أمرِكَ ، والجَراءةِ فى قلبك ، حتَّى تَمْلأَ قلبكَ جَراءةً ، ويَسْتفرِغ (١٠) عَمَلَكَ الحَذَرَ .

* * *

[اعْلَمْ] (١١) أنَّ مِن عدوِّكَ مَنْ تعْمَلُ فى هَلاكِهِ ، ومنهُمْ مَنْ تعْمَلُ [فى مُصالحته ، ومنهم مَنْ تَعْمَل] (١٢) فى البُعْدِ عنهُ (١٣) . فاعْرِفْهُمْ على مَنازِلِهِمْ .

ومِنْ أقْوَى القُوَّةِ لكَ على عدوِّكَ ، وأعزِّ أنْصارِكَ فى الغلبَةِ [له] (١٤) ، أنْ تُحْصِىَ

---

(١) التكملة من خ ، م .
(٢) أشعر قلبك ، أى أعلمه ، أمر من أشعره يشعره ، من باب الإفعال ، يتعدى إلى مفعولين بنفسه .
(٣) كذا فى خ ، م . وفى ط : « فيفطن الناس بنفسك » . والذى سائر الأصول : « فيفطن الناس لهيبتك » . والفطنة ، بالكسر : الحذق والفهم ، وقد ورد الفعل من ثلاثة أبواب ، فرح ونصر وكرم ، يعدى بالباء ، وإلى ، واللام .
(٤) فى خ ، م : « كل الذى » .
(٥) اشعب ، أى اجمع ، أمر من شعب يشعب ، من باب قطع يقطع ، بمعنى جمع ، ويأتى لمعنى فرق وأصلح وأفسد ، وليست مرادة هنا .
(٦) فى خ ، م : « الهيبة » . (٧) فى خ ، م : « الجرأة » .
(٨) فى خ ، م : « بمحاربة » .
(٩) كذا فى ط . وفى خ ، م : « مخالف » . والذى فى سائر الأصول : « مخالف فالزم » مكان « مخالف » .
(١٠) عليك ، اسم فعل أمر بمعنى الزم ، يتعد بنفسه وبالباء كما هنا . وقيل الباء زائدة . والحذر : التحرز والتيقظ ، والفعل كعلم .
(١١) يستفرغ الحذر ، أى يستقصيه . (١٢) التكملة من خ ، م .
(١٣) فى خ ، م : « من يعمل فى هلاكك ... يعمل فى مصالحتك ... يعمل فى البعد عنك ... » .
(١٤) التكملة من خ ، ط ، م .

على نفسكَ العُيُوبَ والعَوْرَاتِ كَمَا[١] تُحْصيها على عدوِّكَ ، و تَنْظُرَ عندَ كلِّ عَيْبٍ تَرَاهُ أوْ تَسْمَعُهُ لِأحَدٍ مِنَ النَّاس : هَلْ قارَفْتَ مِثْلَهُ ، أوْ مُشاكِلَهُ[٢] . فإنْ كُنْتَ قارَفْتَ منهُ شَيْئًا فأَحْصِهِ فِيما تُحْصِي على نَفْسِكَ ، حتى إذا أحْصَيْتَ ذلكَ كلَّهُ ، فَكابِرْ[٣] عدوَّكَ بإصْلاحِ عُيُوبِكَ ، وتَحْصِينِ عَوْرَاتِكَ ، و إحْرازِ مَقاتِلِكَ[٤] ، وخُذْ نفسَكَ بذلكَ مُمْسِيًا مُصْبِحًا[٥] .

فإذا آنَسْتَ[٦] منها دَفْعًا لذلكَ أوْ تَهاوُنًا بِهِ فاعْدُدْ نفسَكَ عاجزًا ضائعًا خائبًا[٧] ، مُعْوِرًا[٨] لعَدُوِّكَ ، مُمْكِنًا[٩] لهُ مِنْ رَمْيِكَ .

و إنْ حَصَلَ مِنْ عُيُوبِكَ [وعَوْراتك][١٠] بَعْضُ ما لا تَقْدِرُ على إصْلاحِهِ مِنْ أمْرٍ لك قَدْ مَضَى ، يَعِيبُكَ[١١] عندَ النَّاسِ ولا تَرَاهُ أنْتَ عَيْبًا ، فاحْفَظْ ذلكَ وما عَسى أنْ يقُولَ فيهِ[١٢] قائلٌ ، مِنْ حَسَبِكَ[١٣] أوْ مَثالِبِ آبائِكَ أوْ عَيْبِ إخْوانِكَ ، ثمَّ اجْعَلْ ذلِكَ كُلَّهُ نُصْبَ عَيْنَيْكَ . واعْلَمْ أنَّ عَدُوَّكَ مُرِيدُكَ بذلِكَ ، فلا تَغْفُلْ عَنِ التَّهَيُّؤِ لهُ والإعْدَادِ لِقُوَّتِكَ وحُجَّتِكَ فِيهِ سِرًّا وعَلانِيَةً .

فأمَّا الباطِلُ فلا تُرَوِّعَنَّ[١٤] بِهِ قلبَكَ ، ولا تَشْتَغِلَنَّ بِهِ ، فإنَّهُ لا يَهُولُكَ[١٥]

---

(١) كذا فى أكثر الأصول . والذى فى سائر الأصول : « كما أحصيتها » .

(٢) أى خالطت مثل ذلك العيب أو مشاكله ، أى مشابهه . وفى خ ، م « هل قارفت ذلك العيب أوما شاكله أوسلمت منه » .

(٣) كابر عدوك ، أى غالبه . والذى فى خ ، ط ، م : «فكاثر» .

(٤) مقاتل الإنسان : المواضع التى إذا أصيبت قتلته ، واحدها مقتل ، بفتح الميم والتاء .

(٥) أى حال كونه داخلا فى الصباح والمساء .

(٦) آنست ، أى علمت .

(٧) كذا فى خ ، م . وقد سقطت هذه الكلمة من ط . والذى فى سائر الأصول : «جانيا» :

(٨) المعور : الممكن البين الواضح ، من أعور لك الصيد ، أمكنك . وأعور الشيء : ظهر وأمكن.

(٩) ممكنا ، اسم فاعل ، من أمكنه ، وكذا مكنه من الشيء ، إذا جعل له سلطانا وقدرة عليه.

(١٠) التكملة من خ ، ط ، م .

(١١) فى خ ، م : « إصلاحه من ذنب مضى لك أو أمر يعيبك » .

(١٢) فى خ ، م : « فاحفظ ذلك واجعله نصب عينك ولا تقل وما عسى يقول فى القائل ؟ فاعلم أن عدوك مريدك بذلك ... وعلانية وعن الإعداء لقوتك وحجتك من نسبك ومثالب آبائك أو عيب إخوانك وأخواتك » .

(١٣) الحسب : ما يعد من المآثر . وقال الأزهرى : الحسب: الشرف الثابت له ولآبائه .

(١٤) الروع (بالفتح) : الفزع . وروعه (بالتشديد) وراعه : أفزعه .

(١٥) لا يهولك ، أى لا يفزعك .

مالمْ يَقعْ ، و إذا وَقعَ اضْمَحَلَّ(١) .

***

واعلمْ أنَّهُ قلَّما بُدِهَ(٢) أحَدٌ بشىْءٍ يعْرِفهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وقدْ كانَ يَطْمَعُ فى إخْفائِهِ عَنِ النَّاس ، فَيُعَيَّرُهُ(٣) بِهِ مُعَيِّرٌ عندَ السُّلْطانِ أوْ غَيْرِهِ ، إلَّا كادَ يَشْهَدُ عليهِ وَجْهُهُ وَعَيْناهُ ولِسَانُهُ ، لِلَّذى يَبْدُو منْهُ عندَ ذلكَ ، والَّذِى يَكُونُ مِنَ انْكِسارِهِ وفُتُورِهِ(٤) عندَ تِلْكَ البَدَاهَةِ(٥) .

فاحْذَرْ هٰذِهِ وتَصَنَّعْ لَهَا(٦) ، وَخُذْ أُهْبَتَكَ لِبَغَتَاتِها(٧) ، [وتَقدَّمْ فى أخْذ العَتَاد لِنَفْيِها](٨) .

[باب](٨)

اعلَمْ أنَّ مِنْ أوْقَعِ(٩) الأُمُورِ فى الدِّينِ ، وأنْهَكِها(١٠) لِلْجَسَدِ ، وأتْلَفِها لِلْمَالِ ، وأضَرِّها بالعَقْلِ(١١) ، [وأزْراها للمُرُوءَةِ](٨) ، وأسْرَعِها فى ذَهابِ الجَلَالَةِ(١٢) والوَقَارِ ، الغَرَامَ(١٣) بالنِّسَاءِ . ومِنَ البَلَاءِ على المُغْرَمِ بِهِنَّ أنَّهُ لا يَنْفَكُّ يَأْجِمُ(١٤) ما عندَهُ ، وتَطْمَحُ(١٥) عَيْناهُ إلى ما لَيْسَ عندَهُ منْهُنَّ .

(١) اضمحل ، أى ذهب . وفى خ ، م : « وما إن وقع اضمحل » .
(٢) بده ، أى فوجىء ، مبنى للمفعول ، من بدهه بأمر ، إذا استقبله به وفاجأه ، وبابه قطع .
(٣) التعيير : التوبيخ والتعييب . (٤) فتوره ، عطف تفسير ، إذ هو بمعنى الانكسار .
(٥) وفى خ ، م : « البديهة » . (٦) التصنع : تكلف حسن السمت والتزين .
(٧) الأهبة (بالضم) : العدة (بالضم أيضا) . يقال : أخذ أهبته للحرب ، إذا استعدلها . وتجمع الأهبة على أهب ، كغرفة وغرف . والبغتات : جمع بغتة ، من بغته بغتا ، من باب نفع ، إذا فاجأه . والمباغتة : المفاجأة .
(٨) التكملة من خ ، م .
(٩) أوقع ، اسم تفضيل ، من وقع فلان فى فلان وقوعا ووقيعة : سبه وثلبه ؛ أو الشىء : سقط . ويقال : وقعت بفلان ، إذا لمته . ووقعت فيه ، إذا عبته وذممته .
(١٠) أنهكها ، أى أشدها نهكا ، أى هزلا ، من نهكته الحمى نهكا ، من بابى نفع وتعب : هزلته .
(١١) فى خ ، م : « وأقتلها للعقل » . (١٢) الجلالة : العظمة . والوقار : الرزانة والحلم .
(١٣) الغرام : الولوع . رجل مغرم بكذا ، أى مولع به . وأصل معنى الغرام : العذاب الدائم والشر والهلاك ، ومنه الغرام بالنساء ، لإيصاله إلى ذلك فى الأكثر .
(١٤) يأجم ، أى يكره ، وأجم الطعام وغيره : كرهه ومله ، وبابه ضرب .
(١٥) تطمح عيناه ، أى ترتفع وتستشرف ، وبابه خضع .

وإنّما النِّسَاءُ أشباهٌ، وما يُرَى[١] في العُيُونِ والقلوبِ مِنْ فَضْلِ مَجْهُولاتِهِنَّ على مَعْرُوفاتِهِنَّ باطِلٌ وخُدْعَةٌ[٢]. بَلْ كثيرٌ مِمَّا يَرْغَبُ[٣] عنهُ الرَّاغِبُ مِمَّا عندَه أفضلُ مِمَّا تَتُوقُ[٤] إليهِ نَفْسُهُ [منهنّ][٥].

وإنَّما المُتَرَغِّبُ[٦] عمـا في رَحْلِهِ[٧] منهنَّ إلى ما في رِحالِ النَّاسِ، كالمُتَرَغِّبِ عَنْ طَعامِ بَيْتِهِ إلى ما في بُيُوتِ النَّـاسِ؛ بل النِّسَاءُ أشْبَهُ بالنِّساءِ مِنَ الطَّعَامِ بالطَّعَامِ، وما في رِحالِ النَّاسِ مِنَ الأطْعِمَةِ أشدُّ تفاضُلاً وتفاوُتاً مِمَّا في رِحالِهِمْ مِنَ النِّسَاءِ.

وَمِنَ العَجَبِ أنَّ الرَّجُلَ الذي لا بَأْسَ في لُبِّهِ[٨] [ورأيه][٥] يَرَى المَرْأَةَ مِنْ بَعِيدٍ مُتَلَفِّفَةً في ثِيابِها، فيُصَوِّرُ لها في قَلْبِهِ الحُسْنَ والجَمالَ حَتَّى تَعْلَقَ بِها نَفْسُهُ، مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ ولا خَبَرِ مُخْبِرٍ، ثُمَّ لَعَـلَّهُ يَهْجُمُ مِنها على أَقْبَحِ القُبْحِ وأَدَمِّ الدَّمامَةِ[٩]. فلا يَعِظُهُ ذلكَ [ولا يَقْطعه][٥] عَنْ أَمْثالِها، ولا يَزَالُ مَشْغُوفاً بِما لَمْ يَذُقْ، حتى لَوْ لَمْ يَبْقَ في الأرْضِ غَيْرُ امْرَأَةٍ واحِدَةٍ لَظَنَّ أنَّ لها شأناً غَيْرَ شأْنِ ما ذاقَ. وهذا هو الحُمْقُ والشَّقاءُ[١٠] [والسَّفَهُ][٥].

ومَنْ لَمْ يَحْمِ نَفْسَهُ وَيَظْلِفْها[١١] ويَجْلُها[١٢] عن الطعامِ والشَّرابِ والنِّسَاءِ في بَعْضِ

---

(١) في خ، م: «وما يتزين».

(٢) الخدعة: مايخدع به الإنسان، مثل اللعبة لما يلعب به، من خدعه يخدعه، من باب منع. إذا اختله وأراد به المكروه. ومنه: الحرب خدعة.

(٣) يرغب عنه، أي لم يرده، لأن رغب إذا عدى بعن يكون معناه عدم الإرادة، وإذا عدى بفي يكون بمعنى أراده.

(٤) تتوق، أي تشتاق، وبابه قال.

(٥) التكملة من خ، م.

(٦) في خ، م هنا وفيما سيأتي: «المرتغب».

(٧) الرحل: مسكن الرجل ومأواه في الحضر، ويطلق على أمتعة المسافر، لأنها هناك مأواه.

(٨) لا بأس، أي لا ضرر في لبه، أي عقله. وفي خ، م: «بلبه».

(٩) الدمامة: قبح المنظر وصغر الجسم؛ يقال: دممت المرأة تدم دمامة، من بابي ضرب وتعب، إذا قبح منظرها وصغر جسمها، واسم التفضيل أدم.

(١٠) الحمق: قلة العقل. والشقاء: ضد السعادة.

(١١) يحمي نفسه، أي يمنعها. يقال: حمى الطبيب المريض عن الطعام يحميه، وحماه ما يضره: منعه، وبابه رمى. ويظلفها (أيضا) بمعنى يمنعها، يقال: ظلف نفسه عن الشيء يظلفها: كفها ومنعها من أن تأتيه، وبابه ضرب. وفي خ، م: «ويطلقها».

(١٢) يجلها، أي يبعدها ويطردها، يقال: جلاهم وأجلاهم عن البلد، إذا أخرجهم ونفاهم، وبابه عدا يعدو. وفي خ، م: «ويحلئها» وهي بمعناها.

ساعاتِ شَهْوَتِهِ وقُدْرَتِهِ ، كانَ أَيْسَرَ مَا يُصِيبُهُ مِنْ وَبَالَ أَمْرِهِ[١] انقِطَاعُ تِلْكَ اللَّذَّاتِ عنهُ ، بِخُمُودِ[٢] نارِ شهوتهِ ، وضَعْفِ عَوَامِلِ جَسَدِهِ . وقَلَّ مَنْ تَجِدُ إلاّ مُخَادِعًا لِنَفْسِهِ فى أَمْرِ جَسَدِهِ ، عندَ الطَّعامِ والشَّرَابِ والحِمْيَةِ والدَّواءِ ، وفى أَمْرِ مُرُوءَتِهُ ، عندَ الأَهْوَاءِ والشَّهَوَاتِ ، وفى أَمْرِ دِينِهِ ، عندَ الرِّيْبَةِ والشُّبْهَةِ[٣] والطَّمعِ .

* * *

إنِ استَطَعْتَ أَنْ تُنْزِلَ[٤] نفسَكَ دُونَ غايتِكَ[٥] فى كلِّ مَجْلِسٍ ومَقامٍ ومَقَالٍ ورأْيٍ وفِعْلٍ فافعَلْ ؛ فإنَّ رَفْعَ النَّاسِ إيّاكَ فَوْقَ المَنْزِلَةِ التى تَحُطُّ[٦] إليها نفْسَكَ ، وتَقْرِيبَهُمْ إيّاكَ فى المَجْلِسِ الذى تَبَاعَدْتَ عنهُ ، وتَعْظِيمَهُمْ مِنْ أَمْرِكَ مالمْ تُعَظِّمْ ، وتَزْيِينَهُمْ مِنْ كَلامِكَ ورأْيِكَ ما لَمْ تُزَيِّنْ ، هُوَ الجَمالُ .

لا يُعْجِبَنَّكَ العالِمُ ما لَمْ يَكُنْ عالِمًا بِمَوَاضِعِ ما يَعْلَمُ[٧] ، [ولا العاملُ إذا جهِل مَوْضِعَ ما يَعمَل][٨] .

* * *

إنْ غُلِبْتَ على الكلامِ وَقْتًا فلا تُغْلَبَنَّ على السُّكُوتِ ؛ فإنَّهُ لَعَلَّهُ يكون [أَشَدَّهما لك زينةً ، وأجلبَهما إليك مَوَدَّة ، وأبقاهما للمهابة ، وأنفاهما للحسد][٨] .

[احْذَرْ][٨] المِراءَ واعْرِفْهُ[٩] ، ولا يَمْنَعَنَّكَ حَذَرُ المِراءِ[١٠] مِنْ حُسْنِ المُنَاظَرَةِ

(١) وبال أمره ، أى عاقبة أمره فى الوخامة . والوبال : الوخامة وسوء العاقبة ، من وبل المرتع يوبل ، بالضم ، وبالا ووبالة ، بمعنى وخم ، وبابه كرم . وفى خ ، م : « من وبال ذلك » .
(٢) الخمود : السكون . وخمدت النار : سكن لهبها ، وبابه دخل .
(٣) الريبة : الشك والتهمة . والشبهة : الالتباس .
(٤) فى خ ، ط ، م : « أن تضع » .
(٥) غاية الشيء : نهايته . أى دون المنزلة التى تستحقها وينتهى إليها استحقاقك لها .
(٦) تحط : أى تنزل . والحط : الإنزال من علو إلى سفل ، وبابه قتل .
(٧) فى بعض الأصول : « ما لم يعلم » .
(٨) التكملة من خ ، م .
(٩) فى خ ، م : « وأعزبه » أى أبعده .
(١٠) المراء : الجدال .

والمُجَادَلَةِ . واعلمْ أَنَّ المُمَارِىَ(١) هُوَ الذى لا يُحِبُّ أَنْ يَتَعَلَّمَ ولا يُتَعَلَّمَ مِنْهُ(٢) . فإنْ زَعَمَ زَاعِمٌ أَنَّهُ إنَّمَا يُجَادِلُ فى البَاطِلِ عَنِ الحَقِّ ؛ فإنَّ المُجَادِلَ ، وإنْ كانَ ثابتَ الحُجَّةِ ظَاهِرَ(٣) البَيِّنَةِ ، فإنَّهُ يُخَاصِمُ إلى غَيْرِ قاضٍ ، وإنَّمَا قَاضِيهِ(٤) ، الذى لا يَعْدُو بالخُصُومَةِ إلّا إليهِ ، عَدْلُ صاحِبِهِ وَعَقْلُه . فإنْ آنسَ أو رَجَا مِنْ صَاحِبِه عَدْلًا يَقْضى بِهِ على نَفْسِهِ ، فَقَدْ أَصَابَ وَجْهَ أَمْرِهِ ، وإنْ(٥) تَكَلَّمَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، كان مُمَارِيًا .

* * *

إنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لا تُخْبِرَ أَخَاكَ عَنْ ذاتِ نَفسِكَ بشَىْءٍ إلّا وأَنْتَ مُحْتَجِنٌ(٦) عنه بَعْضَ ذلِكَ ، التِماسًا لِفَضْلِ الفِعْلِ على القَوْلِ ، واسْتِعْدادًا لتَقْصِيرِ فِعْلٍ إنْ قَصَّرَ ، فافْعَلْ .

واعْلَمْ أَنَّ فَضْلَ الفِعْلِ عَلَى القَوْلِ زِينَةٌ ، وفَضْلَ القَوْلِ على الفِعْلِ هُجْنَةٌ(٧) ، وأَنَّ إحْكَامَ هَذِه الخَلَّةِ(٨) مِنْ غَرائِبِ الخِلَالِ .

* * *

إذا تَرَاكَمَتِ الأَعْمالُ عَلَيكَ فَلَا تَلْتَمِسِ الرَّوْحَ فى مُدافَعَتِهَا بالرَّوَغانِ(٩) مِنْها ؛ فإنَّهُ لا رَاحَةَ لَكَ إلّا فى إصْدَارِهَا ، وَإنَّ الصَّبْرَ عليها هُوَ [الذى](١٠) يُخَفِّفُها [عنك](١٠) ، وإنَّ الضَّجَرَ منها هُوَ يُرَاكِمُهَا(١١) عليكَ .

فَتَعَهَّدْ(١٢) مِنْ ذَلِكَ فى نَفْسِكَ خَصْلَةً قَدْ رَأَيْتُهَا تَعْتَرِى(١٣) بَعْضَ أصْحَاب الأَعْمَالِ ؛

(١) المماري : المجادل .

(٢) فى ط : « واعلم أن المماري يحب أن يتعلم من صاحبه ولا يرجو أن يتعلم منه صاحبه » . وفى خ ، م : « واعلم أن المماري هو الذى يريد أن يتعلم ... الخ » .

(٣) فى خ ، ط ، م : « حاضر » .

(٤) قاضيه ، مبتدأ . واسم الموصول مع صلته فى محل رفع صفته ، والخبر قوله : عدل صاحبه . وفى خ ، م : « وإنما قاضيه الذى لا يعدل بالخصومة إليه عدل » .

(٥) فى أكثر الأصول : « وإذا » .

(٦) محتجن ، اسم من احتجن المال أو غيره ، إذا ضمه إلى نفسه واحتواه .

(٧) الهجنة : القبح والعيب .

(٨) الخلة (بالفتح) : الخصلة ، وتجمع على خلال .

(٩) الروح (بالفتح) : الراحة . والروغان : الحيدان والميل بالمخادعة والمداورة .

(١٠) التكملة من خ ، م .

(١١) ركم الشىء : جمعه وألقى بعضه على بعض . وبابه نصر . وارتكم وتراكم ، اجتمع .

(١٢) تعهد ، أى تفقد .

(١٣) تعترى ، أى تصيب وتأتى .

[وذلك] (١) أنَّ الرَّجُلَ يَكُونُ فى أمْرٍ مِنْ أمْرِهِ فَيَرِدُ عليهِ شُغْلٌ آخَرُ ، ويأتِيهِ شَاغِلٌ مِنَ النَّاسِ يَكْرَهُ تأخِيرَهُ (٢) ، فيُكَدِّرُ ذلكَ بِنَفْسِهِ تَكْدِيرًا يُفْسِدُ ما كانَ فيهِ ، وما وَرَدَ عليه ، حتى لا يُحْكِمَ وَاحِدًا منهما . فإنْ وَرَدَ عليكَ مثلُ ذلكَ فليَكُنْ معكَ رَأْيُكَ [وعَقْلُكَ] (١) اللذانِ تَخْتَارُ بهما (٣) الأُمُورَ ، ثمَّ اخْتَرْ أَوْلَى الأَمْرَيْنِ بِشُغْلِكَ فاشْتَغِلْ بهِ حَتّى تَفْرُغَ منهُ ، ولا يَعْظُمَنَّ عَلَيْكَ فَوْتُ ما فاتَ وتأخِيرُ ما تأخَّرَ ، إذا (٤) أَعْمَلْتَ الرَّأْيَ مَعْمَلَهُ ، وجَعَلْتَ شُغْلَكَ فى حَقِّهِ .

اجْعَلْ لِنَفْسِكَ فى كلِّ شَىْءٍ (٥) غايَةً تَرْجُو القُوَّةَ والتَّمامَ عليها . واعلمْ أنَّكَ إنْ جاوَزْتَ الغايةَ فى العِبادةِ صِرْتَ إلَى التَّقْصِيرِ ، وإنْ جاوَزْتَهَا فى حَمْلِ العِلمِ صِرْتَ مِنَ الجُهَّالِ (٦) ، وإنْ جاوَزْتَهَا فى تَكَلُّفِ رِضَى النَّاسِ والخِفَّةِ معَهُمْ فى حاجاتِهِمْ كُنْتَ المَحْسُورَ المُضَيَّعَ (٧) .

***

أَعلمْ أنَّ بعْضَ العَطِيَّةِ لُؤْمٌ (٨) ، و بَعْضَ البَيانِ عِيٌّ (٩) ، و بعْضَ العِلْمِ (١٠) جَهْلٌ ، فإنِ اسْتَطَعْتَ ألاّ يَكُونَ عَطاؤُكَ خَوَرًا (١١) ، ولا بَيانُكَ هَذَرًا (١٢) ، ولا عِلْمُكَ جَهْلًا ، فافْعَلْ .

***

أَعْلَمْ أنَّهُ سَتَمُرُّ عليكَ أحادِيثُ تُعْجِبُكَ ، إمَّا مَلِيحَةٌ ، و إمَّا رَائِعَةٌ (١٣) . فإذا

(١) التكملة من خ ، م . (٢) فى خ ، م : « إتيانه » .

(٣) كذا فى خ ، م . والذى فى سائر الأصول : « الذى ... به » وهو يتفق وروايتها .

(٤) جعل المرحوم زكى باشا الكلام من هنا غير متصل بما قبله . وعده بدء باب ، وجعل قوله « اجعل » جوابا لإذا وقرنه بالفاء .

(٥) فى خ ، م : « شغل » . (٦) فى خ ، م : « لحقت بالجهال » .

(٧) كذا فى ط . وفى خ ، م : « المحسر المضيع » . وفى الأصل ، ف : « المصنع المحشود » وفى ش ، ك : « المصطنع المحصور » .

(٨) اللؤم : ضد الكرم . وفى بعض الأصول : « سرف » . وزادت خ ، م بعد قوله « لؤم » : « وبعض السلاطة غم » .

(٩) العى : الحصر والعجز . وفى ط : « السلاطة » مكان « البيان » .

(١٠) فى خ ، م : « الحلم » .

(١١) الخور (بفتحتين) : الضعف . وفى خ ، ط ، م : « جورا » .

(١٢) الهذر (بفتحتين) . سقط الكلام ، أو الكثير الردىء منه .

(١٣) رائعة ، اسم فاعل من راعنى الشىء ، أعجبنى . والرائع من الجمال : الذى يعجب روع من رآه فيسره . ويقال : كل معجبة رائعة .

أعْجَبَتْكَ كُنْتَ خَلِيقاً[١] أنْ تَحْفَظها ؛ فإنَّ الحِفْظَ مُوكَّلٌ بِمَا [مَلُح و] [٢] رَاعَ . وستَحْرِصُ على أنْ يَتَعَجَّبَ[٣] منها الأقْوَامُ ؛ فإنَّ الحِرْصَ على[٤] التَّعَجُّبِ مِنْ شَأْنِ الناسِ . وليسَ كلُّ مُعْجِبٍ لكَ مُعْجِبًا لِغَيْرِكَ .

وإذا نَشَرْتَ ذلكَ مَرَّةً أوْ مَرَّتَيْنِ فَلَمْ تَرَهُ وَقَعَ مِنَ السَّامِعِينَ مَوْقِعَهُ منكَ ، فازْدَجِرْ[٥] عَنِ العَوْدِ [له] [٦] ، فإنَّ العَجَبَ[٧] مِنْ غَيْرِ عَجِيبٍ سُخْفٌ[٨] شَدِيدٌ . وقد رَأَيْنا مِنَ الناسِ مَنْ يَعْلَقُ[٩] الشَّيْءَ ولا يُقَالِعُ[١٠] [عنه و] [٢] عَنِ الحَدِيثِ بهِ ، ولا يَمْنَعُهُ قِلَّةُ قَبُولِ أصْحَابِهِ لهُ مِنْ أنْ يَعُودَ ثمَّ يَعُودُ .

* * *

ثمَّ انظرُ[١١] الأَخْبَارَ الرَّائِعَةَ وتَحَفَّظْ منها ؛ فإنَّ الإنْسَانَ مِنْ شَأْنِهِ الحِرْصُ على الأخْبارِ ، لاسيَّما مارَاعَ منها[١٢] . فأكْثَرُ الناس مَنْ يُحَدِّثُ بِمَا سَمِعَ ولا يُبالِي مِمَّنْ سَمِعَ ، وذلكَ مَفْسَدَةٌ لِلصِّدْقِ ، ومَزْرَاةٌ بالرَّأْيِ[١٣] .

فإنِ اسْتَطَعْتَ ألَّا تُخْبِرَ بشَيْءٍ إلّا وأنْتَ بهِ مُصَدِّقٌ ، وألّا يَكُونَ تَصْدِيقُكَ إلّا بِبُرْهانٍ ، فافْعَلْ .

ولا تَقُلْ كما يَقُولُ السُّفَهاءُ : أُخْبِرُ بِمَا سَمِعْتُ . فإنَّ الكَذِبَ أكْثَرُ ما أنْتَ سامِعٌ ، وإنَّ السُّفَهاءَ أكْثَرُ مَنْ هُوَ قائِلٌ ، وإنَّكَ إن صِرْتَ لِلأحاديثِ وَاعِيًا

---

(١) خليقا : جديرا وحقيقا. (٢) التكملة من خ ، م .
(٣) كذا فى ط . وفى الذى سائر الأصول : « تعجب » .
(٤) فى الأصل ، ف : «على ذلك التعجب » .
(٥) ازدجر ، أى امتنع وانته عن العود . وفى خ ، ط ، م . « فانزجر » .
(٦) التكملة من ط. (٧) فى أكثر الأصول : « التعجب » .
(٨) سخف ، أى نقص عقل. وفى ط : « سقط » .
(٩) يعلق الشيء ، أى يهواه . وفى خ ، م : « تعلق بالشيء » .
(١٠) لا يقلع ، أى لا يكف عنه .
(١١) كذا فى ح ، ط ، م . والذى فى سائر الأصول : « إياك » مكان « ثم انظر » .
(١٢) فى ط : « لا سيا على ما يرتاح له الناس » . وفى خ ، م : « لا سيما مايرتاح الناس له » .
(١٣) مزرة ، مصدر ميمى ، من أزرى بالشيء ، أدخل عليه عيبا أو تهاون به . وفى خ . م : « ومزراة بالمروءة » .

وحاملًا ، كانَ ما تَعِى وتَحْمِلُ عَنِ العامةِ أكْثَرَ مِمَّا يَخْـتَرِعُ المُخْتَرِعُ بأضْعافٍ .

***

انظُرْ مَنْ صاحبْتَ مِنَ الناسِ ، مِنْ ذِى فَضْلٍ عليكَ بسُلْطانٍ(١) [أ](٢) ومَنْزِلَةٍ ، [أ](٢) ومَنْ دُونَ ذلكَ مِن الخُلَصاءِ والأَكْفاءِ والإِخْوانِ(٣) ، فَوَطِّنْ(٤) نَفْسَكَ فى صُحْبَتِهِ على أنْ تَقْبَلَ منه العَفْوَ(٥) ، وتَسْخُوَ نَفْسُكَ عَمَّا اعْتاصَ [عليكَ](٦) مِمَّا قِبَلَهُ ، غَيْرَ مُعاتِبٍ ولا مُسْتَبْطِئٍ ولا مُسْتَزِيدٍ ؛ فإنَّ المُعاتَبَـةَ مَقْطَعَةٌ لِلْوُدِّ ، وإنَّ الاسْتِزادَةَ مِنَ الجَشَعِ(٧) ، وإنَّ الرِّضَى بالعَفْوِ والمُسامَحَةَ فى الخُلُقِ مُقَرِّبٌ لكَ كلَّ ما تَتُوقُ(٨) إليهِ نَفْسُكَ ، مَعَ بَقاءِ العِرْضِ والمَوَدَّةِ والمُرُوءَةِ .

اعْلَمْ أنَّكَ سَتُبْتَلَى مِنْ أقْوامٍ بِسَفَهٍ ، وأنَّ سَفَهَ السَّفِيهِ سَيُطْلِعُ لكَ منه [حِقْدًا](٩) . فإنْ عارَضْتَهُ أوْ كافَأْتَهُ بالسَّفَهِ(١٠) فَكأنَّكَ قدْ رَضِيتَ ما أتَى بهِ . فاجْتَنِبْ أنْ تَحْتَذِىَ مِثالَهُ(١١) ؛ فإنْ كانَ ذلكَ عندَكَ مَذْمُومًا فَحَقِّقْ ذَمَّكَ إيَّاهُ بِتَرْكِ مُعارَضَتِهِ ، فأمَّا أنْ تَذُمَّهُ وتَمْتَثِلَهُ(١٢) فليسَ ذلكَ لكَ [سَدادا](١٣) .

***

(١) بسلطان ، أى بولاية وسلطنة .

(٢) التكملة من خ ، م .

(٣) الخلصاء : جمع خلص ، بكسر فسكون : الخدن ، بوزنه أيضا . وفى خ ، ط ، م : «الخلطاء» . والأكفاء : جمع كفء ، وهو المثل . والإخوان ، بكسر الهمزة وضمها : جمع أخ .

(٤) وطن نفسه على الأمر توطينا : مهدها لفعله وذللها .

(٥) أصل العفو : الفضل والمعروف . والمراد هنا : الميسور من أخلاق الرجال وعدم الاستقصاء عليهم . ومنه قوله تعالى (خذ العفو) .

(٦) اعتاص ، أى صعب . يقال : اعتاص عليه الأمر ، أى اشتد والتاث عليه فلم يهتد للصواب .

(٧) الجشع : أشد الحرص ، فعله من باب طرب ، والجار والمجرور ظرف مستقر خبر «إن» .

(٨) تتوق ، أى تشتاق .

(٩) التكملة من خ ، م . وفى ط مكان «حقدا» : «جدا» .

(١٠) السفه : ضد الحلم ، وأصله الخفة والحركة ، ويطلق على الجهل أيضا . والسفيه ، هو المتصف بذلك .

(١١) احتذى مثاله ، اقتدى .

(١٢) تمتثله ، أى تتبع طريقته .

لا تُصاحِبَنَّ أحَدًا وإنِ استأنستَ بهِ ، أخا[1] قرابةٍ أو أخا مودَّةٍ ولا والِدًا ولا ولَدًا ، إلّا بمُروَّةٍ[2] ؛ فإنَّ كثيرًا مِن أهلِ المُروَّةِ قد يحملُهمُ الإسترسالُ أو التَّبذُّلُ[3] على أنْ يَصْحَبوا كثيرًا منَ الخُلَصاءِ[4] بالإدلالِ[5] والتَّهاوُن .

ومَنْ فقدَ مِنْ صاحبِهِ صُحْبةَ المُرُوَّةِ ووَقارَها [وجلالها][6] ، أحْدَثَ [ذلك][7] له في قلبِهِ رِقَّةَ شأنٍ وخِفَّةَ[8] منزِلَة .

***

لا تَلتمِسْ[9] غلَبةَ صاحبِكَ والظَّفَرَ عليهِ[10] بكُلِّ كلِمةٍ ورأْيٍ ، ولا تَجترِئَنَّ على تقريعِهِ وتبكيتِهِ[11] بظَفَرِكَ إذا استبانَ ، وحُجَّتِكَ إذا وَضَحَتْ ؛ فإنَّ أقوامًا يحملُهُمْ حُبُّ الغلَبةِ وسَفَهُ الرَّأيِ في ذلكَ على أنْ يتعقَّبوا الكلِمةَ بعدَ ما تُنْسَى ، فيلتَمِسُوا فيها الحُجَّةَ ، ثمَّ يَستَطيلُوا[12] بها على الأصْحابِ ، وذلكَ ضَعْفٌ في العقلِ ولُؤْمٌ[13] في الأخلاقِ .

لا يُعْجِبَنَّكَ إكْرامُ مَنْ يُكرِمُكَ لِمَنزِلَةٍ أو سُلطانٍ ؛ فإنَّ السُّلْطةَ أوْشَكُ[14] أُمورِ الدُّنيا زَوالًا . [ولا يعْجِبَنَّكَ إكْرامُ من يُكرِمك المال ؛ فإنه هُوَ الذي يَتلُو السُّلطان في سُرْعةِ الزَّوال][15] . ولا يُعْجِبَنَّكَ إكْرامُهُمْ إيّاكَ لِلنَّسَبِ ؛ فإنَّ الأنسابَ أقلُّ

---

(١) في خ ، م : « أخا ذا مودة » . وفي ط : « إخاء مروءة ... ولا إخاء قرابة » .
(٢) في ط : « بمرونة » .
(٣) الاسترسال : الانبساط والاستئناس . يقال : استرسل إلى كذا ، أي انبسط واستأنس . والتبذل : ترك التصاون . وفي خ ، م : « والبذل » .
(٤) في ط : « الخلطاء » .
(٥) الإدلال ، كالتدلل ، وهو الانبساط . وزادت خ ، م بعد قوله « والتهاون » كلمة « والتبذل » .
(٦) التكملة من خ ، م . وفي ط مكان هذه الكلمة : « وخلالها » .
(٧) التكمله من خ ، ط ، م . (٨) في خ ، ط ، م : « وسخف » .
(٩) الالتماس : الطلب والغلبة والقهر ، وهو مصدر مضاف إلى مفعوله .
(١٠) الظفر : الفوز بالمطلوب ، يقال : ظفر به وعليه . وبابه طرب . وفي ط : « الظفر به » .
(١١) التقريع : التعنيف والتثريب ، والتبكيت : التعنيف والغلبة بالحجة .
(١٢) يستطيلو ، أي يتطاولوا بها ، أي بالحجة .
(١٣) لؤم ، أي دناءة . (١٤) أوشك : أقرب . (١٥) التكملة من خ ، م .

مَنَاقِبِ الخيْرِ غَنَاءٌ(١) عَنْ أَهْلِها فى الدِّينِ والدُّنْيَا .

ولٰكِنْ إذا أُكْرِمْتَ على دِينٍ أَوْ مُرُوءةٍ فذلكَ فَلْيُعْجِبْكَ : فإنَّ المُرُوءَةَ لاتُزَايِلُكَ(٢) فى الدُّنيا ، و[إنَّ] الدِّينَ لايُزايِلُكَ فى الآخِرَةِ .

***

اعْلَمْ أنَّ الجُبْنَ مَقْتَلَةٌ ، وأنَّ الحِرْصَ مَحْرَمَةٌ(٣) .

فانظُرْ فيما رَأَيْتَ أوْ سَمِعْتَ : أَمَنْ قُتِلَ فى القِتَالِ مُقْبِلاً أكْثَرُ ، أمْ مَنْ قُتِلَ مُدْبِراً ؟ وانظُرْ : أَمَنْ يَطْلُبُ إليكَ بالإجمالِ(٤) والتَّكَرُّمِ أحقُّ أنْ تَسْخُوَ إليه(٥) نَفْسُكَ بِطَلِبَتِهِ ، أم مَنْ يَطْلُبُ إليكَ بالشَّرَهِ(٦) [والرَّثَع](٧) .

***

اعْلَمْ أنّه ليسَ كلُّ مَنْ كانَ لكَ فيهِ هَوًى ، فَذَكَرَهُ ذَا كَرٌ بِسُوءٍ وذَكَرْتَهُ أنتَ بخَيْرٍ ، يَنْفَعُهُ ذلكَ بَلْ عَسى أنْ يَضُرَّهُ(٨) ؛ فَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ(٩) ذِكْرُ أحَدٍ مِنْ صَدِيقٍ أَوْ عَدُوٍّ إلّا فى مَوْطِنِ(١٠) دَفْعٍ أَوْ مُحَامَاةٍ ؛ فإنَّ صَدِيقَكَ إذا وَثِقَ بكَ فى مَوَاطِنِ

---

(١) غناء ، نفعا . وفى ط : « المناقب التى للخير عنها غنى فى الدين والدنيا » .

(٢) لا تزايلك ، أى لا تفارقك .

(٣) الجبن ، لغه : ضعف القلب . وعرفه السيد بأنه هيئة حاصلة للقوة الغضبية بها يحجم عن مباشرة ما ينبغى ومالا ينبغى . والحرص : طلب الشىء باجتهاد فى إصابته . والمقتلة ، مصدر ميمى بمعنى القتل ، وكذا المحرمة بمعنى الحرمان ، وقد صاغوا مفعلة من الثلاثى اللفظ أو الأصل لسبب كثرة مسماه أو محلها ، كقولهم ، الولد مجبنة مبخلة ، أى سبب لكثرة الجبن عن الحرب وكثرة البخل . وقولهم أرض مأسدة ومسبعة ، أى محل لكثرة الأسد والسباع . ومعنى عبارة المصنف هنا أن الجبن سبب لكثرة القتل وأن الحرص سبب لكثرة الحرمان ، وقد علل ذلك بقوله « فانظر ... الخ » .

(٤) الإجمال : مصدر أجمل فى الطلب ، إذا اتأد واعتدل .

(٥) فى بعض الأصول : « إليك » .

(٦) الطلبة (بوزن كلمة) : الشىء المطلوب . والشره : غلبة الحرص ، فعله شره يشره ، من باب طرب .

(٧) هذه الكلمة من ط . والرثع (محركة) : الشره والحرص والطمع . ومكانها فى خ ، م : «والزيغ» وظاهر أنها محرفة عما أثبتنا .

(٨) فى أكثر الأصول : « أو يضره » مكان « بل عسى أن يضره » ، وما أثبتنا من خ ، م . والذى فى ط : « ينفعه أو يضره ذكرهم » .

(٩) لا يستخفنك ، أى لا يحملنك على الطيش والخفة ، أى الإسراع من ذكر أحد ...الخ . من قولهم : استخف فلان فلانا ، إذا حمله على الخفة والجهل .

(١٠) الموطن (كمسجد) : المكان والموضع . ويجمع على مواطن . وفى خ ، م : «موضع» وقوله =

المُحاماةِ لم يحفلْ بما تركتَ ممّا سوى ذلك ، ولم يكُنْ لهُ عليكَ سبيلُ لائمةٍ . وإنَّ الأحزمَ(١) فى أمرِ عدوِّكَ ألّا تذكرَهُ إلّا حيثُ يضرُّهُ ، وألّا تعُدَّ يسيرَ الضرِّ [له](٢) ضرًّا .

اعلَمْ أنَّ الرَّجُلَ قدْ يكُونُ حليماً فيحمِلُهُ الحِرْصُ عَلَى أنْ يُقالَ جليدٌ(٣) والمخافةُ أنْ يُقالَ مَهِينٌ(٤) عَلَى أنْ يتكلَّفَ الجهلَ . وقدْ يكونُ الرَّجُلُ زَمِيتًا(٥) فيحمِلُهُ الحِرْصُ على أنْ يُقالَ لَسِنٌ والمخافةُ مِنْ أنْ يُقالَ عَيٌّ(٦) عَلَى أنْ يقُولَ فى غيرِ موْضِعِهِ ، فيكُونُ هَذَرًا(٧) . فاعْرِفْ هذا وأشْبَاهَهُ ، واحْتَرِسْ مِنْهُ كُلِّهِ .

إذا بَدَهَكَ(٨) أمْرانِ لا تدْرِي أيُّهُما أصْوَبُ ، فانظُرْ أيهُما أقْرَبُ إلَى هَوَاكَ فخالِفْهُ ؛ فإنَّ أكْثَرَ الصَّوَابِ فى خِلَافِ الهَوَى(٩) .

***

= لم يحفل ، أى لم يبال . والسبيل : الطريق . واللائمة : العذل ، من قولهم : لامه على كذا ، من باب قال ، أى عذله .

(١) الأحزم : اسم تفضيل ، من حزم فلان رأيه ، إذا ضبطه وأتقنه . أى إن الأضبط والأتقن فى شأن عدوك عدم ذكرك إياه إلا فى مكان يضره ذكرك له وعدم عدك قليل الضر ضرا .

(٢) التكملة من خ ، م .

(٣) الجليد : القوى الشديد . اسم فاعل من الجلد ، بفتحتين ، الذى هو الشدة والقوة . يقال : جلد الشىء ، من باب ظرف ، إذا صلب وقوى . وفى خ ، ط ، م : « على أن يقول الناس جليد » .

(٤) المهين : الحقير . وفى ط : « من أن يقولوا مهين » .

(٥) الزميت ، كأمير : الوقور . وكسكيت : أوقر منه . وفى لسان العرب : الزميت والزميت : الحليم الساكن القليل الكلام ، كالصميت . واللسن : الفصيح ؛ يقال : لسن كفرح ، والمصدر اللسانة ، أى الفصاحة .

(٦) عى : اسم فاعل ، بوزن فعل ، ويقال عيي ، على وزن فعيل ، من عى . وعيي بالأمر : لم يهتد لوجه مراده . وعيي فى المنطق عيا ، بالكسر : حصر .

(٧) الهذر ، بفتحتين : الهذيان ، اسم من هذر فى منطقه ، من باب ضرب ونصر : خلط وتكلم بما لا ينبغى . وحاصل معنى هذه المقولة أن الرجل قد يكون حليما لكنه يحرص على أن يقال عنه إنه قوى شديد ، ويخاف أن يقال عنه إنه مهين حقير فيحمله حرصه وخوفه على أن يتكلف الجهل ، وأن الرجل قد يكون وقوراً حليما ساكناً قليل الكلام كثير الصمت لكنه يحرص على أن يقال عنه إنه فصيح . ويخاف من نسبته إلى العى والحصر فيحمله هذا الحرص والخوف على أن يقول فى غير موضع القول ، فيكون قوله هذياناً وخلطاً .

(٨) بدهك : أى فاجأك وبغتك ، وبابه نفع . وفى خ ، م : « عرض لك » . وفى ط : « دهمك » .

(٩) قال فى المصباح : الهوى ، مقصور : مصدر هويته ، من باب تعب ، إذا أحببته وعلقت به . ثم أطلق على ميل النفس وانحرافها نحو الشىء ، ثم استعمل فى شىء مذموم ، فيقال : اتبع هواه ، وهو من أهل الأهواء . وقال الراغب : الهوى ميل النفس إلى الشهوة ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة =

لِيَجْتَمِعْ فى قَلْبِكَ الافْتِقَارُ إلى النَّاسِ والاسْتِغْنَاءُ عنهم ، فَيَكُونَ[١] افْتِقَارُكَ إليهم فى لِينِ كَلِمَتِكَ وحُسْنِ بِشْرِكَ[٢] ، ويَكُونَ اسْتِغْنَاؤُكَ عنهم فى نَزَاهَةِ عِرْضِكَ وبَقَاءِ عِزِّكَ .

لا تُجَالِس امْرَأً بِغَيْرِ طَرِيقَتِهِ ، فإنَّكَ إنْ أَرَدْتَ لِقَاءَ الجاهِلِ بالعِلْمِ ، والجافى بالفِقْهِ ، والعَىّ بالبَيَانِ[٣] ، لم تَزِدْ على أَنْ تُضِيعَ عَقْلَكَ[٤] ، وتُؤْذِىَ جَلِيسَكَ ، بِحَمْلِكَ عليه ثِقَلَ ما لا يَعْرِفُ ، وغَمِّكَ إيَّاهُ بِمِثْلِ ما يَغْتَمُّ[٥] بِهِ الرَّجُلُ الفَصِيحُ مِنْ مُخَاطَبَةِ الأَعْجَمِىِّ[٦] الَّذِى لا يَفْقَهُ .

واعْلَمْ أنَّهُ ليسَ [شىءٌ][٧] مِنْ عِلْمٍ تَذْكُرُهُ عندَ غيرِ أهْلِهِ إلّا عَادَوْهُ ، ونَصَبُوا لَهُ[٨] ، ونَقَضُوهُ عليكَ ، [وأَبْغَضُوكَ عليه][٩] ، وحَرَصُوا على أَنْ يَجْعَلُوهُ جَهْلاً ، حتَّى إنَّ كَثِيرًا مِنَ اللَّهْوِ واللَّعِبِ ، الَّذِى هو أَخَفُّ الأَشْيَاءِ على النَّاسِ ، لَيَحْضُرُهُ مَنْ لا يَعْرِفُهُ ، فَيَثْقُلُ عليه ويَغْتَمُّ بِهِ .

= وقيل سمى بذلك لأنه يهوى بصاحبه فى الدنيا إلى كل داهية ، وفى الآخرة إلى الهاوية . ثم قال : فقد عظم الله ذم اتباع الهوى فقال تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » ، « ولا تتبع الهوى » ، « واتبع هواه » . وقوله : « ولئن اتبعت أهواءهم » ، فإنما قاله بلفظ الجمع تنبيهاً على أن لكل واحد هوى غير هوى الآخرين ثم هوى كل واحد لا يتناهى ، فإذاً اتباع أهوائهم نهاية الضلال والحيرة . وقال الماوردى : وأما الهوى فهو عن الخير صاد ، وللعقل مضاد ، لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها ، ويظهر من الأفعال فضائحها ، ويجعل ستر المروءة مهتوكا ، ومدخل الشر مسلوكا » . وفى ط : « فى مخالفة الهوى » .

(١) فى خ ، م : « وليكن » .
(٢) البشر ، بالكسر : طلاقة الوجه .

(٣) طريقة الرجل : مذهبه . والجافى : الغليظ ، من جفا الثوب يجفو ، إذا غلظ . والفقه : الفهم . والبيان : الفصاحة .

(٤) فى خ ، م : « علمك » .

(٥) الجليس : المجالس . والغم : التغطية ؛ يقال : غمه الشىء غما ، من باب قتل ، غطاه ، ومنه قيل للحزن غم ، لأنه يغطى السرور والحلم . واغتم ، مطاوع غم ، يقال : غمه فاغتم . ومأخذ هذا قول علىّ عليه السلام : « حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله » . وقول ابن مسعود رضى الله عنه : ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة . وقد ورد من طرق كلها ضعيفة : « أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم » .

(٦) فى خ ، م : « الأعجم » .
(٧) التكملة من ط .

(٨) نصبوا له : عادوه . وناصبه العداوة : أظهرها له . وفى خ ، م : « إلا عابوه ونصبوا له » .

(٩) التكملة من خ ، م .

لِيَعْلَمْ صاحبُك أنّكَ حَدِبٌ عَلَى صَاحِبِهِ(٢) . وَ إيّاكَ إنْ عاشَرَكَ امْرُؤٌ وَرَافَقَكَ أَنْ لا يَرَى منكَ بأحَدٍ مِنْ أصْحَابِهِ وَأخْدانِهِ رَأْفَةً(٣) ؛ فإنّ ذلكَ يأخُذُ مِنَ القُلُوبِ(٤) مَأْخَذًا ، وَإنّ لُطْفَكَ بِصَاحِبِ صاحِبِكَ أحْسَنُ عِندَهُ مَوْقِعًا مِنْ لُطْفِكَ بِهِ بِنَفْسِهِ(٥)

* * *

اتّقِ الفَرَحَ عندَ المَحْزُونِ(٦) ، واعلَمْ أنّهُ يَحْقِدُ عَلَى المُنطَلِقِ ، ويَشْكُرُ لِلْمُكْتَئِبِ(٧) .

واعلَمْ أنّكَ ستَسْمَعُ مِنْ جُلَسَائِكَ الرّأْيَ والحَدِيثَ تُنْكِرُهُ وَتَسْخَفُهُ(٨) ، [وتَسْتَشْنِعُهُ](٩) مِنَ المُتَحَدِّثِ(١٠) عَنْ نَفْسِهِ أوْ عَنْ غَيْرِهِ ، فلا يَكُونَنّ منكَ التّكْذِيبُ ولا التّسْخِيفُ لشَيْءٍ مما يَأْتِي بِهِ جَلِيسُكَ ، ولا يُجَرّئَنّكَ عَلَى ذلكَ أنْ تَقُولَ إنّمَا حَدّثَ عَنْ غَيْرِهِ ؛ فإنّ كلَّ مَرْدُودٍ عليهِ سَيَمْتَعِضُ(١١) مِنَ الرّدِّ . و إنْ كانَ فى القَوْمِ مَنْ تَكْرَهُ أنْ يَسْتَقِرّ فى قَلْبِهِ ذلكَ القَوْلُ لِخَطَإٍ تَخَافُ أنْ يَعْقِدَ(١٢) عليهِ ، أوْ مَضَرّةٍ

(١) الكلام من هنا إلى قوله : « وإذا كنت فى قوم ليسوا بلغاء » (ص ١٠٣) ساقط من ط .

(٢) حدب : أى مشفق متعطف ، اسم فاعل من حدب فلان على فلان يحدب ، كسمع يسمع ، أى أشفق عليه وعطف . وفى خ ، م : « تشفق عليه وعلى أصحابه » .

(٣) الرأفة : أشد الرحمة . يقال : رؤف به ، بالضم ، رأفة ، من باب ظرف ، ورأف به يرأف ، من باب قطع . والعبارة فى خ ، م : « أن يرى منك الولوع بأحد من أصحابه وأخدانه » .

(٤) فى خ ، م : « من أعنة القلوب » . (٥) فى خ ، م : « فى نفسه » .

(٦) المحزون : اسم مفعول ، من حزنه الأمر يحزنه ، من باب قتل ، وجاء من باب طرب لازما ، ويعدى بالهمزة فيقال : أحزنه . وهذه لغة تميم ، والأولى لغة قريش ، وبها جاء التنزيل . قال تعالى : « إنى ليحزننى أن تذهبوا به » . ومنع أبو زيد استعمال الماضى من الثلاثى فقال : لا يقال حزنه وإنما يستعمل المضارع من الثلاثى فيقال : يحزنه . كذا فى المصباح .

(٧) المكتئب : المحزون ، اسم فاعل من اكتأب . والكآبة ، بالمد : سوء الحال والانكسار من الحزن ، والفعل كئب ، كسلم .

(٨) التسخيف : جعل الشىء سخيفاً ونسبته إلى السخف ، وهو نقصان العقل . وفى خ ، م : « وتستخفه » . وفى سائر الأصول : « تستجفيه » . وتستجفيه : أى تجده جافياً غليظا .

(٩) التكملة من خ ، م .

(١٠) كذا فى خ ، م . والذى فى سائر الأصول : « عن محدث عن » .

(١١) امتعض من الشىء : غضب منه وشق عليه .

(١٢) يعقد : مبنى للمعلوم ، والضمير فى « عليه » راجع للخطأ . ومفعول « يعقد » محذوف . أى يعقد عليه القلب ويعتقده . وقوله : « أو مضرة » عطف على « خطأ » . والنقض : نقيض العقد ، ومعناه حل ما أبرم . ونقض البناء : هدمه .

تَخْشَاهَا عَلَى أَحَدٍ ، فإنك قَادِرٌ عَلَى أَنْ تَنْقُضَ ذلكَ فى سِرٍّ (١) ، فَيَكُونَ [ذلك] (٢) أَيْسَرَ للنَّقْضِ وَأَبْعَدَ للبغْضَةِ (٣) .

واعلمْ أنَّ البِغْضَةَ خَوفٌ ، والمَوَدَّةَ أَمْنٌ ، فاسْتَكْثِرْ مِنَ المَوَدَّةِ صامِتًا (٤) ، فإن الصَّمْتَ يَدْعُوهَا إلَيْكَ (٥) ؛ وناطِقًا بالحُسْنَى ، فإنّ المَنْطِقَ الحَسَنَ يَزِيدُ فى وُدِّ الصَّدِيقِ ويَسُلُّ (٦) سَخِيمَةَ (٧) الوَغْرِ .

واعْلَمْ أنَّ خَفْضَ الصَّوْتِ وسُكُونَ الرِّيحِ ومَشْيَ القَصْدِ (٨) مِنْ دَوَاعِى المَوَدَّةِ ، إذَا لمْ يُخَالِطْ ذلِكَ بَأْوٌ (٩) ولا عُجْبٌ . أَمَّا العُجْبُ فَهُوَ مِنْ دَوَاعِى المَقْتِ والشَّنْآنِ .

***

تَعَلَّمْ حُسْنَ الاسْتِمَاعِ ، كما تَتَعَلَّمُ حُسْنَ الكَلَامِ . ومِنْ حُسْنِ الاسْتِمَاعِ إمْهَالُ المُتَكَلِّمِ حَتَّى يَقْضِيَ (١٠) حَدِيثَهُ ، وقِلَّةُ التَّلَفُّتِ إلَى الجَوَابِ ، والإقْبَالُ بالوَجْهِ والنَّظَرِ إلَى المُتَكَلِّمِ ، والوَعْيُ (١١) لِمَا يَقُولُ .

واعلَمْ أنَّ المُسْتَشَارَ لَيسَ بِكَفِيلٍ ، و [أنَّ] (٢) الرَّأْيَ لَيْسَ بمَضْمُونٍ ، بلِ الرَّأْيُ

---

(١) فى خ ، م : « فى ستر » .
(٢) التكملة من خ ، م .
(٣) فى خ ، م : « من البغضة » . والبغضة ، بالكسر : أشد البغض ، كالبغضاء .
(٤) صامتا : حال من الضمير المستتر فى « استكثر » ومثله ناطقا . والحسنى : ضد السوءى . وهو مصدر ، كالرجعى والبشرى .
(٥) فى خ ، م : « سيدعوها إليك » .
(٦) فى خ ، م : « ويستل » .
(٧) السخيمة : الضغن والحقد . والوغر (بالفتح ويحرك) : الحقد والضغن والعداوة والتوقد من الغيظ .
(٨) خفض الصوت : غضه ونقصه . وسكون الريح ، يراد به الوقار ؛ يقال : هو رجل ساكن الريح ، أى وقور ، وهو استعمال مجازى . ومن معانى الريح : الغلبة والقوة والدولة . وعليها قوله تعالى : « فتفشلوا وتذهب ريحكم » . والقصد : العدل ، وهو التوسط بين طرفى الإفراط والتفريط ، ومشى القصد ، هو التوسط فيه بين الدبيب والإسراع .
(٩) البأو : الفخر بالنفس ورفعها ، يقال : بأى (كسعى) بأوا : فخر ، ونفسه رفعها وفخر بها . والعجب ، بضم فسكون : الزهو والكبر . والمقت : البغض . والشنآن ، بفتح النون وسكونها : مصدر شنىء وشنأ ، من بابى سمع ومنع ، إذا أبغض . والشانىء : المبغض .
(١٠) فى خ ، م : « ينقضى » : (١١) الوعى ، أى الحفظ والتدبر .

كلَّهُ غَرَرٌ(١) ؛ لِأَنَّ أُمُورَ الدُّنيا لَيْسَ شيْءٌ منها بِثِقَةٍ ، ولِأَنَّهُ لَيْسَ شيءٌ مِنْ أَمْرِهَا يُدْرِكُهُ الحازِمُ إلّا وقَدْ يُدْرِكُهُ العَاجِزُ ، بَلْ رُبَّمَا أَعْيَا الحَزَمَةَ(٢) ما أَمْكَنَ العجزَةَ . فإذَا أَشَارَ عَلَيكَ صَاحِبُكَ بِرَأْيٍ فلَمْ تَجِدْ عاقِبَتَهُ على ما كُنْتَ تأمُلُ ، فلا تَجْعَلْ ذلِكَ عليهِ لَوْمًا وعَذْلًا(٣) [بأنْ](٤) تقولُ : أَنْتَ فَعلْتَ هذا بى ، وأَنْتَ أَمَرْتَنى ، ولولا أنْتَ [لم أَفْعَلْ](٤) ، ولا جَرَمَ(٥) لا أُطِيعُكَ [فِى شىء بعدهَا](٤) : فإنَّ هذا كلَّهُ ضَجَرٌ ولؤمٌ وخِفَّةٌ .

وإنْ كُنْتَ أنْتَ المُشِيرَ ، فعَمِلَ بِرَأْيِكَ أَوْ تَرَكَه فَبَدَا صَوَابُكَ ، فَلا تَمْتَنَّ(٦) ولا تُكْثِرَنَّ ذِكْرَهُ ، إِنْ كانَ فيه(٧) نَجاح ، ولا تَلُمْهُ(٨) عليه إِنْ كانَ اسْتَبانَ(٩) فى تَرْكِهِ ضَرَرًا ، [بأن](٤) تَقولُ : أَلَمْ أَقُلْ ! أَلَمْ أَفْعَلْ !(١٠) فإنَّ هذا مُجَانِبٌ لِأَدَبِ الحُكَماء .

* * *

اعْلَمْ ، فِيما تُكَلِّمُ بِهِ صاحِبَكَ ، أَنَّ مِمَّا يُهَجِّنُ(١١) صَوابَ مَا تأْتِى بِهِ ، ويُذْهِبُ بَهْجَتَهُ ، ويُزْرِى بِقَبُولِه ، عَجَلَتَكَ فى ذلِكَ قَبْلَ أَنْ يُفْضِىَ إِلَيْكَ بِذَاتِ نَفْسِهِ .

ومِنَ الأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ على كلِّ حالٍ مُغَالَبَةُ(١٢) الرَّجُلِ على كَلَامِهِ ، والاعْتِرَاضُ

---

(١) الغرر : الخداع .

(٢) الحزمة ، بفتحات : جمع حازم ، كالعجزة جمع عاجز . والحازم : هو الذى يضبط رأيه ويتقنه .

(٣) فى خ ، م : « فلا تجعل ذلك عليه ديناً ، ولا تلزمه لوماً وعذلا » .

(٤) التكملة من خ ، م .

(٥) لا جرم : بمعنى حقا . قال الفراء : هى فى الأصل بمعنى لا بد ولا محالة ، ثم كثرت فحولت إلى معنى القسم وصارت بمعنى حقا ، ولهذا تجاب باللام نحو : لا جرم لأفعلن .

(٦) فى خ ، م : « فلا تمتن » . (٧) كذا فى خ ، م . والذى فى سائر الأصول : « بنجاح » .

(٨) كذا فى خ ، م . والذى فى سائر الأصول : « ولا تلم » .

(٩) استبان ، هنا : بمعنى عرف ، ولذا نصب ضرراً على المفعولية .

(١٠) فى خ ، م : « ألم أقل لك افعل هذا » .

(١١) التهجين : التقبيح . والبهجة : الحسن . والإزراء : التهاون بالشىء واحتقاره . والإفضاء : الوصول والانتهاء . والمعنى أنك إذا أردت أن تكلم صاحبك بكلام فلا تسرع به قبل أن يقبل عليك بكليته ويستمع لكلامك ، لأن العجلة فى الكلام قبل ذلك مما يقبح صواب ما تأتى به من الكلام ويذهب حسنه ويكون سببا للإزراء والتهاون به .

(١٢) المغالبة ، مفاعلة ، وحقيقتها المشاركة ؛ يقال : غالبه فغلبه . والاعتراض : المنع ، والأصل ـــ

فيه ، والقَطْعُ لِلْحَدِيث[(١)] .

ومِنَ الأَخْلَاقِ الّتى أنتَ جَدِيرٌ بِتَرْكِهَا ، إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ حَدِيثًا تَعْرِفُهُ ، أَلّا تُسَابِقَهُ إِلَيْهِ ، وَتَفْتَحَهُ عليه ، وَتُشَارِكَهُ فيه ، حتّى كأَنَّكَ تُظْهِرُ لِلنّاسِ بِأَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّكَ تَعلَمُ مِنْ مِثْلِ الّذى يَعْلَمُ[(٢)] ؛ ومَاعليْكَ[(٣)] أَنْ تُهَنِّئَهُ بِذلِكَ وتُفْرِدَهُ بِهِ . وهذا البابُ مِنْ أَبْوَابِ البُخْلِ ، وأَبْوَابُهُ الغَامِضَةُ كَثِيرَةٌ .

***

وإذا كُنْتَ فى قَوْمٍ لَيْسُوا بُلَغَاءَ ولا فُصَحَاءَ ، فَدَعِ التَّطَاوُلَ[(٤)] عليهِمْ فى البَلَاغَةِ والفَصَاحَةِ .

اعْلَمْ أَنَّ بَعْضَ[(٥)] شِدَّةِ الحَذَرِ عَوْنٌ عليْكَ فِيما[(٦)] تَحْذَرُ ، وأَنَّ [بعض][(٧)] شِدَّةِ الاتِّقاءِ [مِمّا][(٧)] يدْعُو إِلَيْكَ مَا تَتَّقِى .

***

إِنْ رَأَيْتَ نَفْسَكَ تَصَاغَرَتْ إِليها[(٨)] الدُّنْيَا [أ] و[(٧)] دَعَتْكَ إِلى الزَّهَادَةِ[(٩)] فيها على حالِ تَعَذُّرٍ مِنها عليك ، فَلَا يَغُرَّنَّكَ ذلكَ مِنْ نفسِكَ عَلَى تِلْكَ الحالِ ، فإِنَّها لَيْسَتْ بِزَهادَةٍ ، ولٰكِنَّها ضَجَرٌ واسْتِخْذاءٌ[(١٠)] ، وتَغَيُّرُ[(١١)] نَفْسٍ عِنْدَما أَعْجَزَكَ مِنَ الدُّنْيَا ،

= فيه أن الطريق إذا اعترض فيه بناء أو غيره منع السابلة من سلوكه . كذلك الاعتراض على الرجل فى كلامه منع له من إتمامه وقطع له فيه .

(١) كذا فى خ ، م . والذى فى سائر الأصول : « فيه » مكان « للحديث » .

(٢) فى خ ، م : « أنك تعلم من ذلك مثل الذى يعلم » .

(٣) أى أى شىء عليك فى تركك له يهنأ بما يحدث وينفرد به من غير أن تسابقه إليه وتشاركه فيه . فما ، استفهامية ، ويجوز أن تكون نافية . أى ليس عليك بأس فى تركك له يهنأ بالحديث وينفرد به بلا مشاركتك إياه . والاستفهام للإنكار ، فيرجع إلى معنى النفى ، والجملة حالية .

(٤) التطاول : رفع النفس ، من تطوّل فلان على فلان ، إذا علاه وترفع عليه .

(٥) فى ط فى الموضعين : « بغض » . (٦) فى خ ، ط ، م : « لما » .

(٧) التكملة من خ ، ط ، م :

(٨) تصاغر إليه الشىء : صار صغيراً عنده . والدنيا : فاعل تصاغرت . وفى ط : « تصاغرت الدنيا عندها »

(٩) الزهادة والزهد : الترك والإعراض . يقال : زهد فى الشىء وزهد عنه أيضا زهداً وزهادة ، بمعنى تركه وأعرض عنه ، وبابه سلم . وفرق الخليل بين المصدرين ، فجعل الزهد فى الدين ، والزهادة فى الدنيا . (١٠) الاستخذاء : الخضوع .

(١١) فى خ ، م : « وتعيير النفس عليك » . وفى ط : « وتغير النفس عندما أعجزها » .

وغضبٌ منك عليها لما التَوى[1] عليكَ منها . ولو تمّمْتَ عَلَى رَفْضِها ، وأَمْسَكْتَ عَنْ طَلَبِهَا ، أَوْشَكْتَ أَنْ تَرَى مِنْ نَفْسِكَ مِنَ الضَّجَرِ والجزَعِ[2] أَشَدَّ مِنْ ضَجَرِكَ الأَوَّلِ بأَضْعَافٍ[3] ، ولكِنْ إذا دَعَتْكَ نَفْسُكَ إلي رَفْضِ الدُّنْيَا وهِيَ مُقْبِلَةٌ عَلَيْكَ ، فأَسْرِعْ [إلى][4] إجابتِهَا .

اعْرِفْ عَوْرَتَكَ[5] ، وإيَّاكَ أن تعرَّضَ بأَحَدٍ فيما ضارعها[6] . وإذا ذُكِرَتْ مِنْ أَحَدٍ خَلِيقَةٌ[7] فلا تُناضِلْ عنهُ مُناضَلَةَ[8] المُدافِعِ عَنْ نَفْسِهِ ، [المُصَغِّر لما يُصيب الناسُ منه][9] فتُتَّهَم بِمِثْلِها[10] . ولا تُلِحَّ كلَّ الإِلْحَاحِ ، وليَكُنْ مَا كانَ مِنْكَ مِنْ غَيْرِ احْتِلَاطٍ ، فإنَّ الاحْتِلَاطَ[11] مِنْ مُحَقِّقَاتِ الرِّيَبِ .

إذا كُنْتَ فى جَماعةِ قَوْمٍ أبدًا ، فلا تَعُمَّنَّ جيلًا مِنَ الناسِ أَوْ أُمَّةً [من الأمم][12] بِشَتْمٍ وَلا ذَمٍّ ، فإنَّكَ لا تَدْرِى لَعَلَّكَ تَتَناوَلُ بَعْضَ أَعْرَاضِ جُلَسائِكَ ولا تَعْلَمُ[13] . ولا تَذُمَّنَّ معَ ذَلِكَ اسْمًا مِنَ الرِّجالِ أو النِّساءِ بأَنْ تَقُولَ : إنَّ هَذَا لَقَبِيحٌ مِنَ الأَسْماءِ ؛ فإنَّكَ لا تَدْرِى لَعَلَّ ذلِكَ مُوافِقٌ[14] لِبَعْضِ جُلَسائِكَ فى بَعْضِ أَسْمَاءِ الأَهْلِينَ

---

(١) التوى ، أى اعتاص وصعب . وما أثبتنا من خ ، م . والذى فى سائر الأصول : « بما التوى » . وفى ط : « وغضب منها عليها لما التوى عليها منها » .

(٢) الجزع : ضد الصبر . (٣) فى ط : « ضجرها الأول بالأضعاف »

(٤) التكملة من ط. (٥) فى خ ، م : « عوراتك » .

(٦) كذا فى خ ، ط ، م . وفى ش : « سارعها » . والذى فى سائر الأصول : « شاركها » . وقد ذكر المرحوم زكى باشا أنها من تصويبات الأمير شكيب .

(٧) الخليقة : الطبيعة .

(٨) المناضلة : المحاماة والمجادلة .

(٩) التكملة من ط . وهى كذلك فى خ ، م إلا أن فيهما « يعيب » مكان « يصيب » .

(١٠) مكان هذه العبارة « فتتهم بمثلها » فى ط : « ولا تتمهل فى عتبها » .

(١١) كذا فى خ ، ش ، ط ، م . والاحتلاط (بالحاء والطاء المهملتين) : الاجتهاد فى الحلف واليمين ، وهو المبالغة فى الغضب أيضا . والذى فى سائر الأصول : « اختلاط ... الاختلاط » بالخاء المعجمة .

(١٢) التكملة من خ ، ط ، م .

(١٣) ولا تعلم ، جملة حالية ، أى حال كونك غير عالم بها . ومكانها فى خ ، م « مخطئا فلا تأمن مكافأتهم ، أو متعمداً فتنسب إلى السفه » . وهى ساقطة من ط .

(١٤) فى ط : « يوافق ... بعض أسماء » . وفى خ ، م : « غير موافق لبعض جلسائك . ولعله يكون بعض أسماء الأهلين والحرم » .

والحَرَم [١] . ولا تَستَصغِرَنَّ مِنْ هذا شيئًا ، فَكُلُّهُ يَجْرَحُ فى القَلْبِ [٢] ، وجرْحُ اللِّسَانِ أَشَدُّ مِنْ جرح اليَدِ .

اعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ يَخْدَعُونَ أَنْفُسَهُمْ بالتَّعْرِيضِ والتَّوْقيعِ [٣] بالرِّجَالِ فى الْتِماسِ [٤] مَثَالِبِهِمْ ومَسَاوِيهِمْ و نَقِيصَتِهِمْ [٥] ، وكلُّ ذَلِكَ أَبْيَنُ عند سَامِعِيهِ مِنْ وَضَحِ [٦] الصُّبْحِ . فلا تَكُونَنَّ مِنْ ذلكَ فى غُرورٍ ، ولا تَجْعَلَنَّ نفسَكَ مِنْ أَهْلِهِ [٧] .

[[٨] واعْلَمْ أَنَّ مَنْ تنَكُّبِ الأُمُورِ مَا يُسَمَّى حَذَرًا ، ومنه ما يُسَمَّى خَورًا . فإنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يكونَ تَجَنُّبكَ [٩] مِنَ الأَمْرِ قبل مُواقَعَتِكَ إيَّاهُ ، فافعلْ ؛ فإنَّ ذلكَ هُوَ الحَذَر . ولا تَنْغَمِسْ فيه ثم تَتَهَيَّبُهُ ؛ فإن ذلك هو الخَوَر . فإنَّ الحَكِيمَ لا يَخُوضُ نَهرًا حتَّى يَعْلَمَ مِقْدارَ قَعرِهِ .

وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ سُوءِ الُمجَالَسَةِ أَنَّ الرَّجُلَ تَثْقُلُ عليه النِّعْمَةُ يرَاهَا بِصَاحِبِه ، فيَكُون مَا يَتَشَفَّى [١٠] فيهِ فى تَصْغيرِ أَمْرِ صَاحِبِه وتَكْدِيرِ النِّعْمَةِ ، أَنْ يَذْكُرَ الزَّوالَ والفَسَادَ [١١] والدُّوَلَ كأَنَّه وَاعِظٌ . فلا يَخْفَى ذَلِكَ عَلَى مَنْ يُعْنَى به ولا غيرهُ ، ولا يُنزِّلُ قَوْلَهُ بمنزلة المَوْعِظَةِ ، ولكِنْ بمنزلَةِ الضَّجَرِ بالنِّعْمَةِ والاغْتِمامِ لها ، والاسْتِرَاحَةِ إلى غيرِ رَواحٍ] .

إنِّى مُخْبِرُكَ عَنْ صَاحِبٍ كانَ أَعْظَمَ النَّاسِ فى عَيْنِى ، وكَانَ رَأْسُ ما أَعْظَمَهُ عِنْدِى صِغَرَ الدُّنْيَا فى عَيْنِهِ . كانَ خَارِجًا مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ فلا يَشْتَهِى [١٢] مالا يَجِدُ ، ولا

---

(١) الحرم : الحريم . (٢) فى ط : « يجرح القلب » .

(٣) التوقيع : تظنى الشيء وتوهمه ؛ يقال : وقع ، أى ألق نظرك على شيء . والتوقيع بالظن والكلام والرمى يعتمده ليقع عليه وهمه .

(٤) فى ط : « بالتماس » .

(٥) فى خ ، م : « وتنقصهم » . وفى ط : « وتنقيصهم » .

(٦) الوضح : بياض الصبح . (٧) أهله ، أى الغرور .

(٨) الكلام من هنا ، إلى قوله « رواح » من ط . وهو كذلك فى خ ، م مع بعض خلاف أشرنا إليه .

(٩) فى خ ، م : « لحينك » .

(١٠) فى خ ، م . « يشتفى » .

(١١) فى خ ، م : « الفناء » . (١٢) فى خ ، م : « فلا يتشهى » .

يُكْثِرُ إذا وَجَدَ . وكانَ خارجًا مِنْ سُلْطَانِ فَرْجِهِ فلا تَدْعُو إليهِ مُرُوءَتَه(١) ، ولا يَسْتَخِفُّ له رَأْيًا ولا بَدَنًا . [كان لا يَأْشَرُ عندَ نِعْمَة ، ولا يَسْتَكِينُ عندَ مُصِيبة](٢) ، وكانَ خارجًا مِنْ سُلْطَانِ الجَهَالةِ فلا يُقْدِمُ إلّا عَلَى ثِقَةٍ أو مَنْفَعَة . وكانَ أَكْثَرَ دَهْرِه صامتًا ، فإذا قالَ بَذَّ(٣) القائلِينَ . كانَ يُرَى مُتَضَعِّفًا مُسْتَضْعَفًا(٤) ، فإذا جاءَ الجِدُّ(٥) فهُوَ اللَّيْثُ عاديًا . وكانَ لا يَدْخُلُ فى دَعْوَى ، ولا يَشْرَكُ فى رَأْى(٦) ولا يُدْلِى بحُجَّة ، حَتَّى يَجِدَ قَاضِيًا عَدْلًا وشُهُودًا عُدُولًا . وكانَ لا يَلُومُ أحدًا عَلَى ما قَدْ يَكُونُ العُذْرُ فى مِثْلِهِ حَتَّى يَعْلَمَ ما اعْتِذارُهُ . وكانَ لا يَشْكُو وَجَعًا إلّا إلى مَنْ يَرْجُو عِنْدَهُ البُرْءَ ، ولا يَصْحَبُ إلّا مَنْ يَرْجُو عِنْدَهُ النَّصِيحَةَ(٧) . وكانَ لا يَتَبَرَّمُ(٨) ولا يَتَسَخَّطُ ولا يَتَشَهَّى ولا يَتَشَكَّى ، ولا يَنْتَقِمُ مِنَ الوَلِىّ ، ولا يَغْفُلُ عَنِ العَدُوّ ، ولا يَخُصُّ نَفْسَهُ دُونَ إخْوانِهِ بشَىْءٍ مِن اهتمامِهِ وحِيلَتِهِ(٩) وقُوَّتِه .

فَعَلَيْكَ بِهذِهِ الأَخْلَاقِ إنْ أَطَقْتَ ، ولَنْ تُطِيقَ ، ولكِنَّ أَخْذَ القَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الجَمِيعِ(١٠) .

---

(١) كذا فى ط . وفى خ ، م : « فلا يدعو إليه ريبة » . والذى فى سائر الأصول : « فلا يدعو إليه مئونة » . (٢) التكملة من ط . (٣) بذهم : سبقهم وغلبهم .

(٤) استضعفه وتضعفه ، عده ضعيفا ، كضعفه . وفى خ ، م « متضاعفا مستضعفا » .

(٥) الجد : ضد الهزل . والليث : الأسد . وعاديا ، حال منه ، وهو اسم فاعل من عدا يعدو ، بمعنى تجاوز وظلم .

(٦) كذا فى ط . والذى فى سائر الأصول : « مراء » . والمراء : الجدال . وأدلى بحجته ، بمعنى أثبتها فوصل بها إلى دعواه .

(٧) زيد فى الأصل ، ف ، ل بعد قوله « النصيحة » : « لهما جميعا » .

(٨) برم وتبرم : تضجر . والتسخط : الكراهة وعدم الرضى ؛ يقال : سخط وتسخط ، إذا غضب ويتشهى ، أى يقترح شهوة بعد شهوة . ويتشكى : أى يكثر من الشكاية ، وبناء التفعل فى الأربعة للتكثير : والعبارة فى ط : « لا يتبرد ولا يتسخف ولا يتبهى » .

(٩) كذا فى خ ، ط ، م . والذى فى سائر : « بحيلته » .

(١٠) زيد فى بعض الأصول : « وبالله التوفيق » . كما زيد فى خ ، م : « اعلم أن خير طبقات أهل الدنيا طبقة أصفها لك : « من لم يرتفع عن الوضيع ولم يتضع عن الرفيع » .

يتيمة ثانية

لابن المقفع

وقعت شبهة لبعض أهل العلم فيما إذا كانت هذه الرسالة المنشورة قبل هي اليتيمة بعينها ، أم هي يتيمة ثانية لابن المقفع ويزول هذا التناقض إذا لوحظ ما قاله إمام المتكلمين أبو بكر الباقلاني البصريّ المتوفى سنة ثلاث وأربعمائة ، فإنه ذكر في كتابه إعجاز القرآن أن الدرة اليتيمة كتابان : أحدهما ، يتضمن حكَمًا منقولة ، والآخر في شيء من الديانات ، غير أنه يبقى هناك إشكال في أنه ليس في إحدى الرسالتين ما يتعلق بالديانات ، كما قال الباقلّاني . وإذا رضينا بالظن فنقول : إن هذا الاسم وضعه أناس لبعض رسائل ابن المقفع ، ومن هنا نشأ الأشتباه فعدّدها الناظرون . ويبعد أن يقال إن ابن المقفع سمى الرسالتين معاً باسم واحد ، لمخالفته في الظاهر لمقتضى الحكمة ، ولو قلنا إنه سمّى إحدى الرسائل ، فيبعد مع قرب عصر الناقلين عنه وقوعُ الأشتباه في المسمّى ، مع شدة عنايتهم بجميع ما قال .

أما الرسالة الثانية ؛ فمنقولة عن كتاب المنثور والمنظوم ، المحفوظ في دار الكتب المصرية لمؤلفه أبي الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور من أبناء خراسان . ولد كما جاء في فهرستها سنة ٢٠٤ وتوفى سنة ٢٨٠ (١) .

وهاك ما أورده ولم نحذف منه إلا بعض جمل تركنا مكانها نقاطاً وأثبتناها في الحواشي ، لأنها محرفة جدا لم نهتد إلى وجه الصواب فيها . قال أبوالفضل أحمد بن أبي طاهر :

ومن الرسائل المفردات اللواتي لا نظير لها ولا أشباه ، وهي أركان البلاغة ، ومنها استقى البلغاء ، لأنها نهاية في المختار من الكلام ، وحُسن التأليف والنظام : الرسالةُ التي

---

(١) هذا ما ذكره الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد نقلا عن ابن أحمد بن أبي طاهر طيفور . (انظر ج ٤ ص ٢١١ — ٢١٢) . وابن النديم في فهرسته (ص ٤٦ طبعة ليبزج) . وقد ذكر ابن النديم كتبه المصنفة فقال : « وله من الكتب المصنفة : كتاب المنظوم والمنثور . أربعة عشر جزءاً . والذي بيد الناس منه ثلاثة عشر جزءاً » .

لابن المقفع اليتيمة ، فإن الناس جميعاً مجمعون أنه لم يعبر أحد عن مثلها ، ولا تقدمها من الكلام شيء قبلها[١] ، ولم نكتبها على تمامها لشهرتها وكثرتها فى أيدى الرواة .

* * *

فمن فصولها قوله فى صدرها :

وقدْ أَصْبَحَ النَّاسُ ، إلا قَليلًا مِمَّنْ عَصمَ اللهُ ، مَدْخُولِينَ مَنْقُوصِينَ ، فَقَائِلُهُمْ باغ ، وسَامِعُهم عيّاب ، وسَائِلُهُمْ مُتَعَنِّت ، ومُجِيبهم مُتَكَلِّف ، وواعِظُهُمْ غير مُحَقِّق لِقَوْلِه بالفِعْل ، ومَوْعُوظُهمْ غير سَلِيم مِنَ الهُزْء والاسْتِخْفافِ ، ومُسْتَشِيرُهم غيرُ مُوطِّن نَفْسَه عَلَى إنْفاذِ مَا يُشارُ بِهِ عليهِ ومُضْطَرٍ للحَقّ مِمَّا يَسْمَعُ ، ومُسْتَشارُهم غيرُ مَأْمُون[٢] الغِشِّ والحَسَدِ ، وأنْ يَكُونَ مِهتاً كا للسِّتْر ، مُشِيعًا للفاحِشَةِ ، مُؤْثِرًا لِلهَوَى . والأَمِينُ منهم غير مُتَحَفِّظ مِنْ ائْتمانِ الخَوَنَة ، والصَّدُوق غيرُ مُحْتَرِس مِنْ حَدِيثِ الكَذَبَة ، وذُو الدِّين غير مُتَوَرِّع عَنْ تَفْرِيطِ الفجَرَة . يَتَقارَضُونَ الثَّنَا[٣] ، ويَتَرَقَّبُونَ الدُّوَل ، ويَعِيبُون بالهَمْز ، يكادُ أحْزَمُهُمْ رَأْيًا يَلْفِتهُ عَنْ رَأْيِه أدْنى الرِّضا وأدْنى السُّخْط ، ويَكاد أَمْتَنُهُمْ عُودًا أنْ تَسْحَرَهُ الكلِمَة ، وتُنَكِّرَهُ اللَّحْظَةُ .

وقد ابتُلِيتُ أَنْ أَكُونَ قائِلاً ، وابتُلِيتُمْ أَنْ تَكُونُوا سَامِعِين . ولا خَيْرَ فى القَوْلِ إلّا ما انْتُفِعَ به ، ولا يُنتَفعُ إلّا بالصِّدْقِ ، ولا صِدْقَ إلّا مَع الرَّأْيَ ، ولا رَأْيَ إلّا فى مَوضِعِه وعِنْدَ الحاجَةِ إليْه . فإنَّ خيْرَ القَائلينَ مَن لم يكُن الباطِلُ غايتَه ، ثمَّ لَزِمَ القَصْدَ والصَّوَابَ ؛ وخيْرَ السَّامِعينَ مَن لم يكُن ذلك مِنهُ سُمْعَةً ولا رِياءً[٤] ، ولم يتّخذْ ما يَسْمَعُ عَوناً على دَفْعِ الهُدَى ، ولا بُلْغَةً إلى حاجَةِ دُنيا . فإنِ اجتمعَ لِلقَائِلِ والسَّامِعِ : أَنْ يُرْزَقَ القَائلُ مِن الناسِ مِقَةً وقَبُولًا على ما يَقُولُه ، ويُرْزَقَ السامعُ اتِّعاظاً بما يَسْمَعُ

(١) فى الأصلين المخطوطين والمحفوظين بدار الكتب المصرية (برقم ٥٨١ أدب ورقم ١٨٦٠ أدب) جاء بعد قوله « قبلها » ومن فصوله « قوله فى صدرها » والسياق بعد يوحى بأنها سبقت إلى هذا المكان من مكانها سهواً من الناسخ .

(٢) فى الأصلين : « غير مأمون على الغش » .

(٣) الثنا (بالقصر) : ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيئ .

(٤) يقال : ما فعله رياء ولا سمعة ، بالفتح ويضم ويحرك ، وهى ما نوه بذكره ليرى ويسمع .

فى أمرِ دُنياهُ ، وقد صَلُحَتْ نيّاتُهُما فى غيرِ ذلك ، فعسَى ذلك أنْ يكُونَ مِن الخيرِ الذى يُنيله اللهُ عِبادَه ، ويُعَجِّلُ لهم به مِن حَسنةِ الدُّنيا ما لا يَحرِمهُمْ مِن حَسنةِ الآخِرة . كما أنّ المُريدَ بِكلامِهِ أنْ يُعجِبَ النّاسَ قد يَجْتمع عليْهِ حِرمانُ ما طَلَبَ مع سُوءِ النِّيَّةِ وَحَمْلِ الوِزْر .

وقد وَافقتمْ مِنّى مُسارَعةً فِيما سَألتُمُونى[1] . . . . طَمعًا فى أنْ يَنفعَ اللهُ بذلك مَن يَشاء ، فإنّه ما يَشاءُ يقع .

أمّا سُؤالُـكم عن الزّمانِ ؛ فإنَّ الزّمانَ النّاس ، والنّاسَ رَجُلانِ : والٍ ومُولًّى عليه . والأزْمِنَةُ أرْبعةٌ ، على اخْتِلافِ حالاتِ النّاسِ :

فَخِيارُ الأزْمِنَةِ ما اجْتمع فيه صلاحُ الرّاعِى وَالرّعيّةِ ، وكانَ الإمامُ مُؤدِّيًا إلى الرّعيّةِ حقّهُم فى الرّدِّ عَنهم ، والغَيْظِ على عَدُوِّهم ، وَالجِهادِ مِنْ وَراءِ بَيْضتِهم ، والاخْتِيارِ لِحُـكّامِهِم ، وتَوْلِيَةِ صُلَحائِهِم ، والتَّوْسِعَةِ عَليهم فى مَعايشِهم ، وإفاضةِ الأمْنِ فيهم ، والمُتابعةِ فى الحقّ[2] لهم ، والعَدْلِ فى القِسْمَةِ بيْنَهُمْ ، والتّقْويمِ لأوْلادِهم ، والأخْذِ لهم بحُقُوقِ اللهِ عزَّ وَجلَّ عليهم . وكانت الرّعيّةُ مُؤدِّيةً إلى الإمامِ حقّه فى المَوَدَّةِ والمُناصَحَةِ والمُخالَطَةِ ، وتَرْكِ المُنازَعَةِ فى أمْرِه ، والصّبْرِ عِندَ مَكْرُوهِ طَاعَتِه ، والمَعُونةِ له على أنْفُسِهم ، والشِّـدَّةِ على مَنْ أخَلَّ بحقِّهِ وخالَفَ أمْرَه ، غيرَ مُؤْثِرِينَ فى ذلك آباءَهم ولا أبناءَهم ، ولا لابِسِينَ عَليْهِ أحَدًا . فإذا اجْتَمَعَ ذلكَ فى الإمَامِ والرّعيّةِ تمّ صَلاحُ الزّمانِ ، وَبِنِعْمَةِ اللهِ تتِمُّ الصّالحاتُ .

ثمّ إنَّ الزمَانَ الّذى يَلِيهِ : أنْ يَصْلحَ الإمَامُ نفسُهُ وَيَفْسُـدَ النّاسُ . ولا قُوّةَ بالإمَامِ مع خِذْلانِ الرّعيّةِ وَمُخالفتِهم وزُهْدِهِم فى صَـلاحِ أنفُسِهم ، على أنْ يَبلُغَ ذاتَ نَفْسِهِ فى صَلاحِهِم وذلك أعْظَمُ ما تكُونُ نِعْمَةُ اللهِ على الوَالِى ، وحُجّةُ اللهِ على الرّعيّةِ بِوَالِيهم .

---

(١) فى الأصلين المخطوطين مكان هذه النقاط : «من غير معاودة فى أشباهه ولـكن استطال الناس فى جسيم أمورهم وإنفاذ الطوالع . ولم يبرح يطلع منى فى ذلك واحتساب الخير فيما بلغته القوة فى ذلك » .

(٢) فى الأصلين : « الخلق » .

والزَّمانُ الثالثُ : صَلاحُ النَّاسِ وفَسادُ الوَالِي . وهٰذا دُونَ الذى قَبْلَه ؛ فإنَّ لِوُلاةِ النَّاسِ يدًا فى الخيرِ والشَّرِّ ، ومَكانًا لَيسَ لأَحَدٍ . وقد عَرفْنا فيما يُعتَبَرُ به : أنَّ أَلْفَ رَجُلٍ كُلُّهُمْ مُفْسِد وأَميرُهم مُصلِح ، أَقلُّ فسادًا مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ كُلُّهُمْ مُصلِح وأَميرُهم مُفْسِد . والوَالِي إلى أنْ يُصْلِحَ اللهُ به الرَّعِيَّةَ ، أَقربُ مِنَ الرَّعِيَّةِ إلى أنْ يُصْلِحَ اللهُ بهم الوَالِي ؛ وذلكَ لِأنَّهُم لا يَستطِيعُونَ مُعاتَبَتَه وتَقوِيمَه مع اسْتِطالَتِه بالسُّلطانِ والهَيْبةِ[1] التى تَعلُوه .

وشَرُّ الزَّمانِ ما اجْتمَع فيه فَسادُ الوَالى والرَّعِيَّة[2] ... فقَوْلِى فى هٰذا الزَّمانِ إنَّه إلَّا يَكُنْ خَيرَ الأزمانِ ، فلَيسَ عَلى والِيكُمْ ذَنب ، وإلَّا يَكُنْ شَرَّ الأزمَانِ ، فلَيسَ لَكُمْ حَمْد .

ذلكَ ، غيرَ أنَّا بِحَمْدِ اللهِ قد أَصبَحْنَا نَرجُو لِأَنفُسِنا الصَّلاحَ بِصَلاحِ إمامِنا ، ولا نَخافُ عَلَيْهِ الفَسادَ بفَسادِنا . قد رَأَيْنَا حَظَّهُ مِنَ اللهِ عزَّ وجَلَّ فى التَّثَبُّتِ والعِصْمَةِ . فلَمْ يَبْرَح اللهُ يَزيدُه خَيْرًا ، ويَزِيدُ به رعِيَّتَهُ مُذْ وَلّاه ، فعِنْدَنا مِن هٰذا وَثائِقُ مِن عِبَرٍ وبَيِّنَاتٍ . ونَحْتَسِبُ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ أن لا يَزالَ إمامُنَا يُسارِعُ فى مَرضاةِ رَبِّهِ بالاسْتِصلاحِ لِرَعِيَّتِه ، والصَّبْرِ على ما يَسْتَنكِرُ منهم ، وَقِلَّةِ المُؤَاخَذَةِ لهم بذُنُوبِهم ، حتَّى يُقَلِّبَ اللهُ له بِصَلاحِهِ قُلُوبَهُمْ ، ويَفتَح له أَسْمَاعَهم ، وأَبصارَهُم ، فيَجمَعَ أُلْفَتَهُم ، ويُقَوِّم أَوَدَهم ، ويُلزِمَهم مَراشِدَ أُمُورِهم ، وتَتِمَّ نِعْمَةُ اللهِ على أميرِ المُؤمنينَ ، بأَنْ يُصْلِح به وعلى يَدَيْه ، فيَكُونُوا رَعِيَّةً خَيْرَ راعٍ ، ويَكُونَ راعِىَ خَيرِ رعيّة ، إنْ شاءَ اللهُ ، وبه الثِّقَة .

والذى أَصْبَحْنا نَحْمَدُ مِن أميرِ المؤمنينَ فَكَثِير[3] ، أَنَا ذاكِرٌ ما تَيَسَّرَ مِنْهُ[4] ...

فإنَّا قَلَّمَا نَلقَى مِن أَهلِ العَقلِ والمُعايَنَةِ مُنكِرًا لنِعْمَةِ اللهِ بأَميرِ المؤمنينَ على المسلمِينَ[5] ...

---

(١) فى الأصلين : « الحمية » .

(٢) فى الأصلين المخطوطين : كارهة لم ينقادم عهد كونها ولم يعف عنكم أثارهم ، وكل هذه الطباق من الشدة والرخاء ، ولا يبتلى الله عز وجل به عباده بجزاء معد وكلمة سابقة . قال الله عز وجل « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » .

(٣) فى الأصلين : « تفسير » وظاهر أنها محرفة عما أثبتنا .

(٤) فى الأصلين المخطوطين : « وإلى هذا سبق فيه الحديث وهورعية العهد وجحده الجحدة وفيه استبطى المستبطئون وليم المليمون . فإن المستبطئ فى التقصير لأكثر من المستبطئ فى الإنكار » .

(٥) الأصلين المخطوطين : « أوذ كرذلك ووقف عليه وقلما نلقى إلا مقصراً من ناطق أوصامت . =

ومَن أشدُّ جهلًا وأقطعُ عُذرًا ، مِمَّنْ لم يعرِف النِّعْمة ، ولم يَقْبل العافية . نعُوذُ باللهِ أنْ نكُونَ مِن الذين لا يعقِلونَ .

فتفهَّمُوا ما أَنَا ذاكِرٌ لكُمْ ، وتدبَّرُوه بالحقِّ والعَدْلِ ، فإنَّ المرْءَ ناظِرٌ بإحْدَى عُيُونٍ ثَلاث : وهُمَا الغاشَّتانِ والصَّادِقة ، وهى التى لا تكادُ تُوجَدُ : عَيْنُ مَودَّةٍ تُريهِ القَبِيحَ حَسنًا ، وعَيْنُ شَنآنٍ تُريهِ الحَسَنَ قَبيحًا ، وعَيْنُ عَدْلٍ تُرِيهِ حسنَها حَسنًا وقَبيحَها قبيحًا .

فتفكَّرُوا فيما جَمَع اللهُ لِأميرِ المؤمنينَ فى مَعْدِنه وفى سِيرَته ، وفيما هو ظاهِرٌ عليكُمْ مِنَ النِّعْمةِ والحقِّ والحُجَّةِ بذلك ، فيما عَسَى أن يَبْتَغِى فيه القائلُ المَغْمَزَ والمَقالَ .

فلعَمْرِى إنَّ الشَّيْطانَ مِن أهْواءِ النَّاس وألسِنتهم فى الأمْرِ لمُصيب ، وإنّ له لمُسْتراحًا حِينَ يَسْتوفى أُمْنِيَّته ، ويَصْدُق عليهم ظَنَّه ، ويُوحى إليهم بمكايِده . فجعَلَ اللهُ كَيدَه ضَعيفًا ، وحِزْبَه مَغْلوبًا ، وجعَلَه وإياهُم نَصيبًا لجهَنَّمَ ، مِن أجزائها المقْسُومَة لأبوابِها ، وحَطبِها ووقُودِها وحَصَبِها المُعدِّ لها . فمَنْ كان سائلًا عَنْ حَقِّ أميرِ المؤمنينَ فى مَعْدِنه ، فإنَّ أعظَمَ حُقوق النَّاسِ مَنزلةً ، وأكرمَها نِسْبَة ، وأوْلاهَا بالفضلِ ، حَقُّ رَسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم ، نبيُّ الرَّحْمَة ، وإمامُ الهُدَى ، ووارِث الكتابِ والنُّبُوَّة ، والمُهَيْمِن عليهمَا ، وخاتَم النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداء والصَّالِحينَ ، بَعثَهُ اللهُ بشيرًا ونذيرًا ، وداعِيًا إلى اللهِ بإذْنه وسِراجًا مُنيرًا . ثمّ هو باعِثُه يوْمَ القِيامَةِ مَقامًا مَحْمودًا . شَرَعَ اللهُ بهِ دِينَهُ ، وأتمَّ بهِ نُورَه على عَهْدِه ، ومَحَقَ بهِ رُءوسَ الضَّلالَة ، وجَبابِرَة الكُفْر ، وخَوَّلَه الشَّفاعَة ، وجَعلَه فِى الرَّفيقِ الأعْلى ، صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ .

= ولم يصبحوا يعاتبون على ما جهلتم من حق أمير المؤمنين وفضله فى سير الأمور حتى أقبلت . فإن الأمر فى مستقبله مما يستبهم على ذوى العقول وتشتد فيه جرأتهم ، وإما أن يشتبه عندهم ببعض ما يتذكرون مما مضى من أمور لم يكن لها تمام ، وأخرى تمت ، فلم تحمد . ولئن كان علم وصل إلى خاصة قوم ما على من قصر ذلك عنه لو صرت ، وإن كان ممن وصل ذلك إليه فأخذه بحقه فضله بذلك . فإذا آلت الأمور إلى مراتبها وحصل محصولها وصرحت عن محضها لم يكن فى حالتها عذر ولا فى تضييع حق ذى الحجة حجة » .

حكم لابن المقفع

[إليك رسالة أخرى من كلام ابن المقفع محفوظة فى دار الكتب المصرية بالقاهرة ، كتبها علىّ بن أحمد الحلبى سنة ٨٤٤ هـ وقال فى أولها : إنهـا كتاب الأدب ، وذكر أنها كتبت برسم خزانة المقر الأشرف الكريم العالى الجمالى ناظر الخواص الشريفة بالممالك الإسلامية عظَّم الله شانه ، وصانه عما شانه] .

***

قال عبد الله بن المقفع رحمه الله تعالى :

عَمَلُ البِرِّ خَيْرُ صاحِب . أَحَقُّ ما صانَ الرَّجُلُ أَمْرَ دِينِهِ . الآلِفُ لِلدُّنْيا مُغْتَرٌّ . مَنْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ ذِكْرَ الآخِرَةِ اشْتَغَلَ بالعَمَلِ [لها] . المَغْبُون مَنْ طَلَبَ ثَوابَ الآخِرَةِ فى الدُّنْيا . القَلْبُ أَسْرَعُ تَقَلُّبًا مِنَ الطَّرْفِ . أَحْسَنُ العَفْو ما كانَ عَنْ عَظِيمِ الجُرْمِ . الجَوادُ مَنْ بَذَلَ مَا يُضَنُّ بِهِ . المُتَكَلِّفُ لِما لا يَعْنِيهِ مُتَعَرِّضٌ لِمَا يَكْرَه . الفِكْرُ مِفْتاحُ القَلْبِ . الاسْتِماعُ أَسْلَمُ مِنَ القَوْلِ . كُمُون الحُقُودِ(١) كَكُمُونِ النّارِ فى العُودِ . أَكْرَمُ الأَخْلاقِ التَّواضُع . التَّواضُع يُورِث المَحَبَّةَ . الكِبْرُ مَقْرُونٌ بِهِ سُوء الظَّنّ . مَنْ عَذُبَ لِسانُهُ كَثُرَ إخْوانُه . مَن اسْتَبْعَدَ الآخِرَةِ رَكَنَ إلى الدُّنْيا . سُرُورُ الدُّنْيا كأَحْلامِ النّائِم . المَغْبُون مَنْ طَلَبَ الدُّنْيا بِعَمَلِ الآخِرَةِ . المُصِيبَةُ العُظْمى الرَّزِيَّةُ فى الدِّين . سُرُورُ الدُّنْيا مَخُوفُ المَغَبَّة . مَن أَهْلَكَ نَفْسَه فى مَرْضاة غيره عَظُمَتْ جِنايَتُه . أَنْفَعُ الكُنُوز العَمَلُ الصّالِح . أَحَقُّ النّاسِ بالبِرِّ أَعْلَمُهُمْ بالعاقِبةِ . مَنْ أَبْصَرَ العاقِبةَ فآثَرَها أَمِنَ النَّدامَةَ . الوالى مِن وُزَرائِهِ بمنزِلَةِ الرَّأْسِ فى أَعْضائِه . مَن عَرَفَ ثِمارَ الأَعْمالِ كانَ حَقِيقًا أَنْ لا يَغْرِسَ مُرًّا .

(١) الحقود (بالضم) : من جموع حقد (بالكسر) ويجمع أيضا على أحقاد وحقائد .

أهِنْ دُنْيا بائِدَة تستكمِلْ كرامةً باقية[١] . أبقى الجرُوح مضضًا جرحُ الآثام . إيتِ إلى النّاس ما تحبّ أنْ يؤْتى إليك . اسْتصْغِر المشقّةَ إذا أدّتْ إلى منفعة . رأس البرّ الورَع . أطلبْ الرّحمة بالرّحمة . خيْرُ الأعمال ما دُبّر بالتقْوى . بالحزم يتمّ الظّفر . منْ أحبّ التزْكية تعرّض للضّحكة[٢] . الدُّنيا نوْمُ نائم ، والدّولة حُلْمُ حالم . منْ سالم النّاس ربح السّلامة ، ومنْ تعدّى عليهم كسب النّدامة . بادرْ بعمل الخيْر إذا أمكنك . منْ حصّن سِرّهُ أمِن ضرر ذلك . الدُّنيا قدْ تدْرك بالجهْل ، كما تدْرك بالعقْل . أحْسنُ العمَل الصّالح ما كان بصِدْق النيّة . خسر منْ أنفق حياتهُ فى غيْر حقّها . طُوبى لِمنْ ترك دُنياهُ لآخرته . مِن الحقّ على السُّلْطان رفْعُ ذِى الفضيلة[٣] وأنْ يسُدّ فاقته . لا تحْمدْ نفسك على ما تركْت مِن الذّنوب[٤] عجْزًا . بالرّسُول يعْرفُ قدْرُ المُرْسِل[٥] . رِفْقُ الرّسُول يلين القلْب الصّعْب . لا رأْى لِمنِ انفرد برأيه . منْ ترك رأْى ذى النّصيحة اتّباعًا لما يهْوى استوْخم العاقِبة . المُشاورةُ أوْثق ظهير . المُستشارُ مؤتمن . اعْتبِرْ عقْل الوالِي بإصابتِه موْضع أصْحابه . منْ صحِب السلطان لمْ يزلْ مُروّعًا . كثْرةُ أعْوان السّوءِ مضرةٌ بالعملِ . اسْتوْجب الطّاعة مِنْ ذوى الرّأْى بالمودّةِ . الصّنيعةُ عِنْد الكفُور لا تثْمِرُ إلّا مُرًّا . الملِكُ الحازِم من اسْتمْسك برأْيِ الحزمة ذوى الرّأْى . لا صلاح لِرعيّةٍ والِيها فاسدٌ . خيْرُ مُسْتفادٍ الهُدى . أكْبرُ مُحادثة منْ يصْدُقك عنْ عيُوبك . حِلْيةُ المُلوكِ وُزراؤُهم . أكْملُ النُّصحاءِ منْ لمْ يكْتُمْ صاحِبهُ نصيحةً

(١) هذه الكلمة ليست بالأصل . إلا أن الناسخ عودنا ذكر الكلمة التى تبدأ بها الصفحة اليسرى فى ذيل الصفحة اليمنى . وقد أثبت هذه الكلمة فى مكان الدلالة وأغفل كتابتها فى موضعها الأصلى .

(٢) الضحكة (بالتحريك) : جمع ضاحك .

(٣) من الحق على الوالى أن يرفع ذا المروءة . (الظاهرية) .

(٤) الإثم . (الظاهريه) .

(٥) فى الظاهرية : « بالرسول تعتبر عقل المرسل » .

وإنِ اسْتَقَلَّها . فسادُ الوالي أضرُّ بالرعيّةِ من جدبِ الزمان . اسْتَعِنْ بالصَّمْتِ على إطفاءِ الغضب . لا تَجْنِيَنَّ على نفسِكَ عداوةً وبغضةً اتّكالاً على ما عندك من العَمَلِ والقوّةِ والمَنَعَةِ . كُنْ في الحِرْص على معرفةِ عيبِكَ بمنزلةِ عدوِّك في معرفةِ ذلك . البصيرُ مَنْ عرفَ ضرَّهُ من نفعِهِ . التواضعُ يورثُ المحبّةَ . أكرمُ الأخلاقِ التواضع . الكِبْرُ مقرونٌ به سوءُ الظنّ[1] . رُبَّما تحوّلتِ البغضاءُ مودّةً والمودّةُ بغضاء . قُرْبُ الصالحينَ داعٍ للصلاحِ . أحسنُ العفوِ ما كانَ عن عظيمِ الجُرْم . المالُ عونٌ قويٌّ على المروءة . مَنْ عدمَ مالَهُ أنكرَهُ أهلُه . خيرُ الملوكِ مَنْ يرى أنَّهُ لا يضبطُ مُلْكَهُ إلّا بالعدلِ بينَ رعيّتِهِ ، وأضيعُهُمْ الفظُّ المتهاون . لا يغترُّ الأقوياءُ بفضلِ قوّتهم على الضعفاء . الضعيفُ المحترسُ منَ العداوةِ أقربُ إلى السلامةِ منَ القويِّ المغترّ . أخوفُ الأحقادِ أحقادُ الملوك . أبصرُ الوزراءِ مَنْ بصّرَ صاحبَهُ عيبَهُ بالأمثال . مَنْ قلَّ كلامُهُ حُمِدَ عقلُه . مَنْ عرفَ قدرَهُ قلَّ إفراطُه . أحسِنْ والدولةُ لكَ يُحْسَنْ إليكَ والدولةُ عليك . مَنْ حُرِمَ العقلَ رُزِئَ دنياهُ وآخرتَه . آفةُ العقلِ العُجْب . الهمُّ مرضُ العقل . احذرْ صولةَ اللئيمِ إذ شَبِع . أحسنُ المدحِ أصدقُه . الإحسانُ يقطعُ اللسانَ .

تتمة الحكم[2]

السعيدُ مَنِ استكملَ رضوانَ اللهِ عليه . مِنْ عقلِ[3] السلطانِ حُسْنُ انتقاءِ

---

(١) في الظاهرية : « الثناء » .

(٢) دخل دار الكتب الظاهرية في بغداد مخطوطة تحمل رسائل أدبية وعلمية نادرة كان من جملتها رسالة لابن المقفع في الحكم . ومنها ما ورد في الرسالة السالفة ومنها ما لم يرد فيها . فأضفنا الحكم التي فاتت كتاب الأدب ، واسم الرسالة في هذا المخطوط الذي كتب في بغداد سنة سبع وخمسين وخمسمائة هكذا : « الأدب الصغير لأبي عمرو عبد الله محمد المقفع رضي الله عنه » . وفي هذه المخطوطة نحو سبعين حكمة زائدة على ما قدمنا نقلا عن المخطوطة المصرية ، ومنها ما أفسده التحريف ، فرأينا أن نضم إلى هذه ما كان سليما من الحكم .

(٣) في الأصل : « عقل السلطان من أحسن .. الخ » وظاهر أن صوابه ما أثبتنا . وفي معنى هذه الحكمة قول ابن المقفع قبل (ص ١١٣) : « اعتبر عقل الوالي بإصابته موضع أصحابه » .

الإخوانِ . مَنْ طَلَبَ الدُّنْيا بِعَمَلِ الآخِرَة خَسِرَ . مَن اسْتَبْعَدَ الآخِرَةَ رَكَنَ إلى [الدُّنْيا] . لا تترُكْ قليلَ ما تقوَى عليه من الخيرِ لِكَثِيرِ ما لا تحتاجُ إليه . الرسُولُ الخَرِقُ يُخَشِّنُ القَلْبَ اللَّيِّن . اليَأْسُ مِنَ الثَّوَابِ قُنُوطٌ . القَدَرُ غالبٌ . قد يستوجبُ [الخُرْق][1] مَنْ عَمِلَ بالشِّدَّة فى مَوَاضِعِ اللِّين ، واللِّين فى مَوَاضِعِ الشِّدَّة . مَنْ لَجَّجَ[2] فى البَحْرِ فقد خاطَرَ ، وأَعْظَمُ مِنه مُخَاطَرَةً صاحبُ السُّلْطَان . لا تَطْمَع فى صَلَاحٍ مع وُزَرَاءِ السَّوْءِ . مَنْ تَرَكَ مِنَ المُلوكِ المَشُورَةَ ، فهو ضائعٌ مُضَيِّع . لا تغترَّ بِوَالٍ إذا كان خِلْصَكَ[3] ، ولا تغترَّ إذا هُوَ أَكْرَمَكَ . مَن لَانَتْ حِجَابَتُهُ اتقاهُ وُزَرَاؤه . جَدِيرٌ بالحِرْمَان مَنْ لم يَكُنْ نَظَرُهُ إلا لِنَفْسِهِ . أَرْفَقُ الوُلاةِ مَنْ جَمَعَ اللِّينَ والشِّدَّة . مَنْ لَاحَى السُّلْطَانَ نَدِم . بِطَانَةُ السَّوْءِ أَحَقُّ بالاتقاءِ مِن عامّة السُّوء . أرْضَى الإخْوَانِ أقلُّهُمْ مُخادَعَةً فى النَّصِيحة . الوَفَاءُ يُثْبِتُ الإخاء . قاطعُ ذِي الفضلِ الكَرِيمِ كقاطِعِ يَمِينِه . أَوْجعُ المَصائبِ فِقْدانُ أخٍ صالح . مَن مَنحكَ ذاتَ نَفْسِه فقد أضعفكَ أُخوّته . كُنْ لِمَنْ فَوْقَكَ مُوَقِّرًا . مَن صَحِبَ الحُكَماءَ ظَفِرَ بِحُسْنِ الثَّناء . لا تَدْخلَنّ فى أمرٍ لا تكُنْ فيه ماهِرًا . لا تَثِقْ بالأشْرار ، ولا بالثَّناءِ الكاذِب ، ولا بعِشْقِ النِّساء ، ولا بالمالِ الكثير . اسْتَصغِرْ ما أتيْتَهُ مِن مَعْروف وإنْ كانَ كثِيرًا . اللِّسانُ أنفذُ مِن السِّنَان . المُتَكلِّفُ لِمَا لا يَعنيه مُتعرِّضٌ لما لا يَلزمه . دَعْ كثيرًا مِن صِغارِ الذُّنوبِ لِتَتَّقِي[4] كِبارها . سُلْطانُ الغَضَبِ أَضعَفُ سُلْطان . اسْتَعِن بالصَّمْتِ على إطفاءِ الغضَب . اجْعَل على نَفْسِكَ رَقيبًا مِن ذَوِى العَقْلِ وَالنُّصْح . اطلُبْ لنَفْسِك مَوضِعاً ولْيَكُنْ طَلَبُكَ على قدْرِ قُوَّتِك . القَناعةُ أوسَعُ الغِنى . مَن قَنَع لم يُهِمّه [شىء] . أطْوَلُ النَّاسِ فاقةً الشَّرِهُ الحَرِيص . لا يكُونُ الشَّحِيحُ

(١) بمثل هذه الكلمة أو بكلمة « الخيبة » أو ما فى معناهما يستقيم الكلام .

(٢) لجج : خاض اللجة ، وهى معظم الماء .

(٣) الخلص (بالكسر) : الخدن . وفى الأصل : « خلفك » .

(٤) فى الأصل : « لتخفى » وظاهر أنها محرفة عما أثبتنا ، أو كلمة بمعناها .

وَصُولًا . أَحَقُّ النَّاسِ بالفاقةِ البخيل . مَن جانَبَ الشَّهواتِ لم يُدَنَّس . الحازمُ مَن كَسَبَ مِن حلّه فأنفقه فى حَقِّه . لا تمنع قِلّةُ المالِ كثرةَ الإنفاق . أَشْبَهُ الناسِ بالبهائم مَن كانت هِمَّتُه بطنَه . رُبما كان وَجْهُ المرءِ مِرآةً لما فى صَدْرِه . أَظْهِرْ لِعدُوِّك الصَّداقة إذا رَجَوتَ نَفْعَه ، وَأَضْمِرْ لِصَديقِك العَداوَة إذا خَشِيت ضُرَّه . النُّسْكُ أَجْملُ لِباس ذِى المُروءة . مَن صَغَّر بذِى المُروءة صَغَّر بنَفْسِه . قلْبُ الكَذَّابِ أَكذَبُ مِن لِسانِه . الذى يُعطِى الفاجِر كمانعِ المُستحِق . مُصاحَبَةُ الأحمق عَناء . الرَّاحةُ مِن قَرِينِ السّوءِ فِراقُه . مُقارَنة الأَشرارِ تدعُو إلى سُوءِ الظَّنِّ بالأَخيار . قَطِيعةُ الفاجِرِ غُنْم . رُبَّ حِيلةٍ تُهْلِكُ المُحْتال .

رسالة ابن المقفع فى الصحابة[1]

أما بعد . أصلح اللهُ أميرَ المؤمنين ، وأتم عليه النِّعمة ، وألبسه المعافاة والصِّحة[2] .

فإنّ أميرَ المؤمنين — حفظه الله — يجمع مع علمه ، المسألة والاستماع ، كما كان وُلاةُ الشرّ يجمعون ، مع جهلهم ، العُجبَ والاستغناء ؛ ويستوثق لنفسه بالحُجَّة ، ويتخذها على رعيَّته فيما يلطُف له من الفحص عن أمورهم ، كما كان أولئك يكتفون بالدَّعة ، ويرضون بدُحوض الحُجة[3] وانقطاع العُذر فى الامتناع ، أنْ يجترئ عليهم أحدٌ برأيٍ أو خبر ، مع تسلط الديان[4] .

وقد عصَم اللهُ أميرَ المؤمنينَ — حين أهلكَ عدوّه ، وشفى غليله ، ومكّنَ له فى الأرض ، وآتاهُ مُلكها وخزائنها — مِن أنْ يشغلَ نفسه بالتمنّع والتفيُّش[5] ، والتأثُّل والإتلاد[6] ، وأن يرضى مما أوى[7] بالمتاع به ، وقضاء حاجة النفس منه . وأكرمَ اللهُ أميرَ المؤمنين باستهانةِ ذلك واستصغاره إياه . وذلك مِن أبين علاماتِ السعادة ، وأنجح الأعوانِ على الخير .

وقد قصّ اللهُ عزّ وجلّ علينا مِن نبإ يوسف بن يعقوب أنه لما تمّتْ نعمةُ الله عليه ، وآتاهُ الملك وعلّمه من تأويلِ الأحاديثِ ، وجمع له شمْلَه ، وأقرّ عينَه بأبويْهِ وإخوتِه ،

---

(١) من « اختيار المنثور والمنظوم » .

(٢) فى الأصلين : « والرحمة » وظاهر أنها محرفة عما أثبتنا أو كلمة بمعناها .

(٣) دحوض الحجة : بطلانها . والفعل كمنع .

(٤) كذا فى الأصلين .

(٥) كذا فى هامش ب مصححة . ويريد بالتفيش : الكبر والإدلال ؛ يقال : فاش الرجل ، إذا افتخر . ولعل خير ما ينساق مع « التفيش » التمنع ، بمعنى العز ، وتمنع الرجل ، إذا اعتز وتعسر . وفى الأصلين : « التمتع » بتاءين .

(٦) التأثل : جمع المال واكتسابه . وإتلاده ، أى تنميته . يقال : تلد المال يتلد (بضم اللام وكسرها) : ولد عندك ونتج ؛ وأتلدته أنت . وفى الأصلين : « والإخلاد » .

(٧) أوى ، أى جمع . وأوى ، بالقصر ، بمعنى آوى ، بالمد . وفى ا : « ممن أوى » . وفى ب : « من أوى » .

أثنى على الله عزّ وجلّ بنعمته ، ثم سلا عمّا كان فيه ، وعرف أنّ الموت وما بعده هو أولى ، فقال : توفّنى مسلماً وألحقنى بالصّالحين .

* * *

وفى الذى قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجّع ذا الرّأى على مبادرته(١) بالخبر فيما ظنّ أنه لم يبلغه إياه غيره ، وبالتّذكير بما قد انتهى إليه . ولا يزيد صاحب الرّأى على أن يكون مخبرًا أو مذكّرًا ، وكلٌّ عند أمير المؤمنين مقبولٌ إن شاء الله . مع أنّ ممّا يزيد ذوى الألباب نشاطا إلى إعمال الرّأى ، فيما يصلح الله به الأمّة فى يومها أو غابر(٢) دهرها ، الذى(٣) أصبحوا قد طمعوا فيه . ولعلّ ذلك أن يكون على يدى أمير المؤمنين ؛ فإن مع الطمع الجدّ ، ومع اليأس القعود(٤) . وقلّما ضعف الرّجاء ، إلا ذهب الرّخاء . وطلب المؤيَّس(٥) عجز ، وطلب الطّامع حزم . ولم ندرك النّاس نحن ولا آباؤنا إلا وهم يرون فيها خلالاً تقطع الرّأى وتمسك بالأفواه ، من حال وال لم يهمّه الإصلاح ، أو أهمّه ذلك ولم يثق فيه بفضل رأى ، أو كان ذا رأى وليس مع رأيه صولٌ بصرامة أو حزم ، أو كان ذلك استئثارًا منه على النّاس بنشب ، أو قلّة تقدّم لما يجمع أو يقسّم ، أو حال أعوان يبتلى بهم الولاة ليسوا على الخير بأعوان ، وليس له إلى اقتلاعهم سبيل ، لمكانهم من الأمر ، ومخافة الدّول والفساد إن هو هاجهم أو انتقص ما فى أيديهم ، أو حال رعيّة متّزرة(٦) ليس من أمرها النّصف فى نفسها ، فإن أخذت بالشدّة حميت ، وإن أخذت باللّين طغت .

وكلّ هذه الخلائق قد طهّر الله منها أمير المؤمنين فآتاه ما آتاه فى نيّته ومقدرته

---

(١) فى الأصلين : « تناوله » وظاهر أنها محرفة عما أثبتنا أو كلمة بمعناها .
(٢) غبر : مكث وذهب ، ضد ، والمراد هنا الأول .
(٣) الذى ، اسم أن .
(٤) كذا فى ب . وفى ا : « القنوت » .
(٥) المؤيس (بتشديد الياء المفتوحة) : اسم مفعول من « أيسته » ، إذا جعلته يقنط .
(٦) اتزر : ركب الوزر ، وهو الذنب .

وعَزْمِهِ ، ثم لم يَزَلْ يرى ذلكَ منه النّاسُ حَتّى عرَفَهُ منهم جُهّالُهُمْ فضْلاً عن عُلمائِهم. وصَنَع اللهُ لأميرِ المؤمنين أَلْطَفَ الصُّنْع في اقْتِلاع مَنْ كانَ يَشْرَكُهُ في أمْرِهِ على غيرِ طريقتِهِ ورأيِهِ ، حتّى أراحَهُ اللهُ وآمَنَهُ منهُمْ ، بما جعَلوا من الحُجَّةِ والسَّبيلِ على أنفُسِهم ، وماقوّى اللهُ عليهِ أميرَ المؤمنينَ في رَأْيِه واتّباعِه مَرْضاتَه ، وأذَلَّ اللهُ لأميرِ المؤمنين رَعيّتَه بما جمعَ لهُ منَ اللِّينِ والعفْو ، فإنْ لانَ لأحدٍ منهُمْ ففي الإلْحان[1] لهُ شهيد ، على أنَّ ذلكَ ليْسَ بضَعْفٍ ولا مُصانَعَةٍ ؛ وإنِ اشْتدَّ على أحدٍ منهُمْ ففي العَفْوِ شهيدٌ ، على أنَّ ذلكَ ليسَ بعُنْفٍ ولا خُرْقٍ ، مع أمورٍ سِوَى ذلكَ نَكُفُّ عَنْ ذِكْرِها ، كَرَاهَةَ أنْ نَكُونَ كأنّا نُصِبْنا المَدْحَ .

فما أخْلَقَ هذه الأشياءَ أنْ تكُونَ عَتادًا لكُلِّ جَسيمٍ منَ الخَيْرِ في الدُّنْيا والآخرةِ ، واليَوْمِ والغَدِ ، والخاصّةِ والعامّةِ ، وما أرْجانا لأنْ يكُونَ أميرُ المؤمنين بما يُصْلِح[2] اللهُ الأمَّةَ منْ بعْدِهِ أشدَّ اهْتمامًا منْ بعْضِ الوُلاةِ بما يُصْلِحُ[3] رَعِيّتَهُ في سُلطانه . وما أشدَّ ما قدِ اسْتَبانَ لنا أنَّ أميرَ المؤمنينَ أطولُ بأمْرِ الأمّةِ عِنايةً ، ولها نَظَرًا وتَقْديرًا ، منَ الرّجُلِ مِنّا بخاصّةِ أهْلِهِ . ففي دون هذا ما يُثْبِتُ الأمَلَ ، ويُنَشِّطُ للعَمَلِ ، ولا قوّةَ إلا بالله ، ولله الحمدُ ، وعلى الله التّمام .

* * *

فمِنَ الامُورِ التي يُذَكَّرُ بها أميرُ المؤمنينَ ، أمْتَعَ اللهُ بهِ ، أمرُ هذا الجُنْدِ مِنْ أهْلِ خُراسانَ ، فإنّهُمْ جُنْدٌ لم يُدْرِكْ مِثْلَهُمْ في الإسْلام ، وفيهم[4] صِفَةٌ بها يَتِمُّ فَضْلُهُمْ إنْ شاءَ اللهُ . أمّا هُمْ فأهْلُ بَصَرٍ بالطّاعَةِ ، وفَضْلٍ عِندَ النّاسِ ، وعَفافِ نُفُوسٍ وفُروجٍ ، وكَفٍّ عَنِ الفَسادِ ، وذُلٍّ للوُلاةِ . فهذهِ حالٌ لا نَعْلَمُها تُوجَدُ عندَ أحَدٍ غيرِهم . وأمّا ما يحتاجُونَ فيهِ إلى النَّقْفةِ[5] ، مِنْ ذلكَ تَقْويمُ أيْديهِمْ ورَأْيِهِمْ وكلامِهِمْ ؛ فإنَّ في ذلكَ القومِ أخلاطًا[6]

(١) إلا لحان ، الإفهام . (٢) في الأصلين : «أصلح» . صوابه ما أثبتنا لتستقيم العبارة .
(٣) في ا : «بما لا يصلح» . (٤) في ا : «منعة» .
(٥) كذا في ب . والنقفة : العصا ، وهي فعلة من النقف . يريد ما يحتاجون فيه إلى التأديب . وفي ا : «المنعة» . (٦) في الأصلين : «اليوم اختلاطا» .

مِنْ رَأْس مُفْرِطٍ غالٍ، وتابِـعٍ مُتَحَـيِّرٍ شاكٍّ. وَمَنْ كانَ إنَّما يَصُولُ على النَّاسِ بِقَوْمٍ لا يَعْرِف مِنهمُ المُوافَقَةَ فى الرَّأْيِ والقَوْلِ والسِّيرَةِ، فَهُوَ كَرَاكِبِ الأَسَدِ الَّذى يَوْجَلُ مَنْ رَآهُ، والرَّاكِبُ أَشَدُّ وَجَلاً. فَلَو أنَّ أَميرَ المُؤْمِنينَ كَتَبَ أَمانًا مَعْرُوفًا بليغًا وجيزًا مُحِيطًا بِكلِّ شَىْءٍ يجِبُ أَنْ يعملوا فيه أو يكُفُّوا عنهُ[1]، بالِغًا فى الحُجَّةِ قاصِرًا عن الغُلُوِّ، يَحْفَظهُ رُؤسَاؤُهُمْ، حَتَّى يَقُودوا بِهِ دَهْماءَهُمْ، ويَتَعَهَّدوا[2] بِهِ مِنْهُمْ مَنْ دُونَهُمْ مِنْ عُرْضِ النَّاسِ، لَكانَ ذلكَ إن شاء الله لرأيهم صَلاحًا، وعَلى مَنْ سِوَاهُمْ حُجَّةً، وعندَ اللهِ عُذْرًا؛ فإن كثيرًا مِنَ المُتَكَلِّمينَ مِنْ قُوَّادِ أميرِ المؤمِنينَ اليَوْمَ إنَّمَا عامَّةُ كلامهم، فيما يأمر الآمر ويزعم الزاعم، أنَّ أَميرَ المؤمنينَ لَوْ أمرَ الجبَالَ أنْ تَسيرَ سَارَتْ، ولو أمرَ أن تُسْتَدْبَرَ القِبْلَةُ بالصَّلاةِ فُعِلَ ذلِكَ. وهَذَا كلامٌ قَلَّ أَنْ يَسْمَعَهُ مَنْ كانَ مُخَالِفًا، وقلَّما يَرِدُ فى سَمْعِ السامِـعِ إلَّاأَحْدَثَ فى قَلْبِهِ رِيبَةً وشَـكًّا.

والَّذى يَقُولُ أَهْلُ القَصْدِ مِنَ المُسْلِمينَ هُوَ أَقْوَى لِلأَمْرِ، وأَعَزُّ للسُّلطانِ، وأَقْمَعُ لِلمُخَالِفِ، وأَرْضَى لِلْمُوَافِقِ، وأَثْبَتُ لِلعُذْرِ عِنْدَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

* * *

فإنَّا قَدْ سَمِعْنَا فَرِيقًا مِنَ النَّاس يَقُولونَ: لا طَاعَةَ لِلْمَخْلُوقِ فى مَعْصِيَةِ الخَالِقِ، بَنَوْا قَوْلَهُمْ هَذَا بِناءً مُعْوَجًّا، فقَالُوا: إنْ أَمَرَنا الإمَامُ بِمَعصِيَةِ اللهِ فَهُوَ أَهْلٌ أَنْ يُعْصَى، وإنْ أَمَرَنا الإمَامُ بطاعَةِ الله فَهُوَ أَهْلٌ أَنْ يُطَاع؛ فإذا كانَ الإمَامُ يُعْصَى فى المَعْصِيَةِ، وكانَ غَيْرُ الإمَامِ يُطَاع فى الطَّاعَةِ، فَالإمَامُ ومَنْ سِواهُ على حَقِّ الطَّاعَةِ سَوَاء. وهَذَا قَوْلٌ مَعْلُومٌ يَجِدُهُ الشَّيْطانُ ذَرِيعَةً إلى خَلع الطَّاعَةِ والَّذى فيهِ أُمْنِيَّتُهُ، لِكَىْ يَكُونَ النَّاس نَظَائر، وَلا يَقُوم بأَمْرِهِمْ إمَامٌ، ولا يَكُون على عَدُوِّهِم مِنْهُمْ ثِقل.

[و] سَمِعْنَا آخَرِينَ يَقُولُونَ: بَلْ نُطيعُ الأَئِمَّةَ فى كلِّ أُمُورِنا، ولا نُفَتِّشُ عَنْ طَاعَةِ

(١) فى ا: «يقول فيه ويكفوا عنه».

(٢) فى ا: «يقود ... يتعهد».

اللهِ ولَا مَعْصِيَتِهِ ، ولا يَكُونُ أحَدٌ مِنّا عليهم حَسِيبًا ، هُمْ وُلاةُ الأمْرِ ، وأهْلُ العِلْمِ ، ونَحْنُ الأتْبَاعُ وعَلينَا الطَّاعَةُ والتَّسْلِيم .

ولَيْسَ هَذَا القَوْلُ بأَقَلَّ ضَرَرًا فى تَوْهِينِ السُّلْطَانِ وتَهْجِينِ الطاعَةِ مِنَ القَوْلِ الَّذى قَبْله ؛ لِأنَّهُ يَنْتَهى إلى الفَظِيع المُتَفاحِش مِنَ الأمر ، فى اُسْتِحْلَالِ مَعْصِيَةِ اللهِ جِهَارًا صُرَاحًا .

وقالَ أهْلُ الفَضْل والصَّوَاب : قَدْ أصابَ ٱلذينَ قَالوا : لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فى مَعْصِيَةِ الخَالِق ، ولم يُصِيبُوا فى تَعْطِيلِهِمْ طَاعَةَ الأئِمَّةِ وتَسْخِيفِهِمْ إيَّاهَا . وأصَابَ ٱلَّذين أقَرُّوا بِطَاعَةِ الْأئمة لِمَا حَقَّقُوا مِنْهَا ، ولم يُصِيبُوا فيما أبْهَمُوا مِنْ ذَلِكَ فِى الأُمُورِ كُلّها .

فأمَّا إقْرَارُنَا بأَنَّهُ لا يُطَاعُ الإمَامُ فى مَعْصِيَةِ الله ؛ فإنَّ ذلكَ فى عَزَائِم الفَرَائِض والحُدُودالَّتِى لمْ يَجْعَل اللهُ لِأَحَدٍ عَليها سُلْطَانًا ، ولو أنَّ الإمَامَ نَهَى عَنِ الصَّلَاةِ والصِّيَام والحَجِّ ، أو مَنَع الحُدُودَ وأبَاحَ مَا حَرَّمَ الله ، لم يَكُنْ لهُ فى ذلكَ أمر .

فأمَّا إثْبَاتُنَا لِلْإمَام الطَّاعَةَ فيما لا يُطَاعُ فيهِ غَيْرُهُ ؛ فإنَّ ذلكَ فى الرَّأْيِ والتَّدْبِير والأمر ٱلَّذِى جَعَلَ الله أزِمَّتَهُ وعُرَاهُ بأيْدِى الأئِمَّةِ ، لَيْسَ لِأَحَدٍ فيهِ أمْرٌ ولا طَاعَة ، مِنَ الغَزْوِ والقُفُول، والجَمْع والقَسْم ، والاُسْتِعْمَالِ والعَزْل[1] ، والحُكْم بالرَّأْيِ فيما لم يَكُنْ فيهِ أثَرٌ ، وإمْضَاء الحُدُودِ والأحْكام على الكِتَاب والسُّنَّة، ومُحَارَبَةِ العَدُوِّ ومُهَادَنَته[2] ، والأخْذِ لِلْمُسْلِمِينَ والإعْطَاء عنهم[3] . وهٰذِهِ الأمُور كُلُّها وأشْبَاهُهَا مِنْ طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وجَل الواجِبَةِ ، ولَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فيها حَقٌّ إلا الإمَام ، ومَنْ عَصَى الإمَامَ فيها أو خَذَلَهُ فَقَدْ أوْتَغَ[4] نَفْسَه .

ولَيس يفتَرِقُ هذانِ الأمرانِ إلا بِبُرْهانٍ مِن اللهِ عزَّ وجلّ ؛ وذلكَ أن اللهَ جَعَل

(١) فى ا : « الترك » .
(٢) فى الأصلين : « ومخادعته » .
(٣) فى الأصلين : « عليهم » .
(٤) أوتغ نفسه : أهلكها .

قِوامَ النّاسِ وصَلاحَ معاشِهم ومَعادِهم فى خَلّتَيْن : الدِّين والعقل ، ولم تكن عقولُهم — وإنْ كانت نِعمةُ اللهِ عزَّ وجلّ عَظُمتْ عليهم فيها — بالِغةً مَعرفةَ الهُدَى ، ولا مُبْلِغةً أَهلَها رِضوانَ اللهِ ، إلا ما أَكمَلَ لهم مِن النِّعمةِ بالدِّين الذى شَرع لهم ، وشَرَح به صَدْرَ مَن أرادَ هُداه مِنهم . ثمّ لو أنَّ الدِّينَ جاءَ مِن اللهِ ، لم يُغادِر حَرفاً مِن الأَحْكام والرَّأْيِ والأَمْرِ وجَميع ماهو وارِدٌ على النّاس وحادثٌ فيهم ، مُذْ بَعث اللهُ رسُولَه صلّى اللهُ عليه وسلّم إلى يَوم يَلقَونه ، إلا جاءَ فيه بِعزيمة ، لـكانُوا قد كُلِّفُوا غيرَ وُسْعِهم ، نَضُيِّق عليهم فى دِينِهم ، وآتاهُم ما لم تَتَّسع أسماعُهم لِاستِماعِه ، ولا قُلوبُهم لِفهمِه ، ولَحارَتْ عُقولُهم وَألبابُهم التى أمْتَنَّ اللهُ بها عليهم ، ولـكانَتْ لَغوًا لا يَحتاجُونَ إليها فى شىء ، ولا يُعمِلونَها إلا فى أمْرٍ قد أتاهم به تنزِيلٌ ؛ ولـكنّ اللهَ مَنّ عليهم بدِينِهم الذى لم يكُنْ يَسَعه رأيُهم كما قال عِبادُ اللهِ المتّقون : (وَمَا كُنّا لِنَهتَدِىَ لوْلا أنْ هَدَانَا اللهُ) .

ثمّ جَعلَ ما سِوَى ذلك مِن الأمرِ والتَّدْبيرِ إلى الرأيِ ، وجَعل الرَّأْيَ إلى وُلاةِ الأمْرِ ، ليْسَ للنّاسِ فى ذلك الأمرِ شى إلا الإشارة عند المشُورَةِ ، والإجابةُ عِندَ الدّعْوة ، والنَّصِيحةُ بظَهْرِ الغَيْبِ .

ولا يَسْتحِقُّ الوَالى هذه الطاعةَ إلا بإقَامةِ العَزائمِ والسُّنَن مما هو فى مَعنَى ذلك .

ثمّ ليس مِن وُجُوهِ القَوْل وَجْهٌ يُلتَمس فيه إثباتُ فَضْل أهْل بيْتِ أميرِ المُؤمنين على أهْلِ كلِّ بيْت ، وغَير ذلك ممّا يَحتاجُ النّاسُ إلى ذِكْرِه ، إلّا وهو مَوجُودٌ فيه مِنَ الـكلامِ الفاضِلِ المَعْروفِ ما هوَ أبلَغُ ممّا يَغلو فيه الغالُون ؛ فإنَّ الحُجّةَ ثابِتةٌ والأمْرَ وَاضِـح بِحَمْدِ اللهِ ونِعمَته .

* **

وَممّا يَنظرُ فيه لِصلاحِ هذا الجُنْدِ ألّا يُوَلّى أحَدًا مِنهم شيْئاً مِن الخِراج(١) ؛ فإنَّ وِلايةَ الخِراجِ مَفْسدةٌ لِلْمُقاتِلة . ولم يزَل النّاسُ يتحامَوْن ذلك مِنهم ويُنحّونه عنهم ، لأنَّهم أهْلُ دالّةٍ ودَعوَى بلاء ، وإذا كانُوا جُلّاباً لِلدّراهمِ والدّنانيرِ اجْترءُوا عليهما .

(١) ضبطها النهانوى بالعبارة بكسر الخاء .

وإذا وَقَعُوا[1] فى الخيانةِ صارَ كُلُّ أَمْرِهم مَدخُولاً : نَصِيحتهم وطاعتهم ، فإنْ حيل بيْنهم وبين وَضْعه أخرَجَتْهم الحَمِيَّة[2] . مَعَ أنَّ وِلايةَ الخراجِ داعية إلى ذِلّةٍ وحُقْرِيَّة[3] وهَوانٍ ، وإنما مَنزلة المُقاتِلِ مَنزلةُ الكَرامَةِ واللُّطف .

ومِمّا ينظرُ فيه مِن أمرِهم أنَّ مِنهم مِن المجهولين مَن هو أفضلُ مِن بَعضِ قادَتِهم ، فلو التُمِسوا وصُنِعوا[4] كانُوا عُدَّةً وقُوَّة ، وكان ذلك صَلاحًا لِمَنْ فوقَهم مِن القادَة ، ومَن دُونهم مِنَ العامَّة .

ومِن ذلك تَعهّدُ أدَبِهم فى تَعلُّمِ الكِتابِ ، والتَّفقُّهِ فى السُّنَّة ، والأمانةِ والعِصْمةِ ، والمُبايَنةِ لأهْلِ الهوَى ، وأنْ يُظْهِر فِيهم مِن القَصْدِ والتَّواضعِ واجْتِنابِ رَأْيِ المُترَفِين وشَكْلِهم مِثلَ الذى يَأخُذُ به أميرُ المؤمنينَ فى أمرِ نَفسِه ، ولا يَزالُ يُطَّلَعُ [عليه] مِن أميرِ المؤمنينَ ويَخرُج مِنه من القَوْل ، مما يُعرَف به مَقتُه للإتْرافِ والإسْرافِ وأهْلِهما ، ومَحبّتُه القَصْد والتَّواضُع ومَن أخَذَ بِهما ، حتّى يَعْلَموا أنَّ مَعرُوفَ أميرِ المؤمنينَ مَحْظُورٌ عمَّن يَكنِزهُ بُخلاً ، أو يُنفِقه سَرفًا فى العِطرِ واللِّباس والمُغالاةِ بالنِّساءِ والمَراكِب ، وأنَّ أميرَ المؤمنينَ يُؤْثِرُ بالمعْروفِ مَنْ وُجهَتُه المَعروف والمُواساة .

ومِن ذلكَ أمْرُ أرْزاقِهم ، أنْ يُوقِّتَ لهم أميرُ المؤمنينَ وَقتًا يَعرِفونَه فى كُلِّ ثلاثةِ أشْهرٍ أو أرْبعة أو مَا بَدَا له ، وأنْ يَعْلَمَ عامّتُهم العُذرَ الذى فى ذلك ، مِن إقامَةِ دِيوانِهم وجَمْلِ[5] أسمائِهم ، ويَعلَموا الوقْتَ الذى يَأخُذونَ فيه ، فيَنْقطِع الاسْتبطاء والشكْوَى ؛ فإنَّ الكَلِمَةَ الواحِدَةَ تَخرُج مِن أحَدِهم فى ذلك أهْلٌ أنْ تُستَعظَم ، وإنَّ بابَ ذلكَ جَدِيرٌ أنْ يُحسَم . مع أنَّ أميرَ المؤمنينَ قد عَلِم كَثرةَ أرْزاقِهم ، وكَثرَةَ المالِ الذى يَخرُج لهم ،

---

(١) فى ا « اجترأ ... وقع » .
(٢) وضعه ، أى وضع الخراج . ووضعه ، أى حطه وانتقاصه . والحمية : الأنفة . وأخرجتهم ، أى جعلتهم يشقون عصا الطاعة . والعبارة فى الأصلين : « فإن جعل فيه وبين رفعه أمر ضعته الحمية » .
(٣) الحقرية (بالضم) : الذلة ، من مصادر حقر . وفى الأصلين « عقوبة » وظاهر أنها محرفة عما أثبتنا .
(٤) صنعوا ، أى أحسن إليهم .
(٥) جمل : جمع . وفى ا : « وتحمل » .

وَأنَّ هذا الخراجَ إنْ يكُنْ رائجاً لغلاءِ السِّعرِ ، فإنه لا بُدَّ من الكسادِ والكسر ، وأنَّ لكلِّ شىء دِرّةً وغزارةً ، وإنما دُرور خراجِ العراقِ بارْتفاعِ الأسعارِ . وإنما يحتاجُ الجُندُ اليومَ إلى ما يحتاجونَ إليه من كثرةِ الرِّزقِ لغلاءِ السِّعرِ . فمِن حُسْنِ التَّقديرِ إن شاء اللهُ ألا يدْخُلَ على الأرضِ ضررٌ ، ولا بيتِ المالِ نقصانٌ من قِبَلِ الرحمٰنِ ، إلا دخل ذلك عليهم فى أرْزاقِهم . مع أنه ليس عليهم فى ذلك نُقصان ؛ لأنهم يشترونَ بالقليلِ مثلَ ما كانوا يشْترُونَ بالكثيرِ . فأقولُ : لو أنَّ أميرَ المؤمنين خَلَّى[1] شيئاً من الرِّزقِ ، فيجعَل بعضَه طعامًا ، ويُجعَل بعضَه علفاً ، وأُعطوهُ بأعْيانه ؛ فإنْ قُوِّمت لهم قيمتُه تخرج ما خرج على حِسابة[2] قيمةِ الطَّعامِ والعلفِ ، لم يكُنْ فى أرْزاقِهم لذلك نُقصانٌ عاجلٌ يستنكرُونه ، وكانَ ذلك مَدْرجةً لِثَباتهم فى نزالهم على العدوِّ ، وإنْصافَ بيتِ المالِ مِن أنفسِهم فيما يَسْتنبِطُون ، مع أنَّه إنْ زادَ السِّعْرُ أخذُوا بحِصَّتهم من فَضلِ ذلك .

ومِن جِماعِ الأمرِ وقِوامِه ، بإذنِ اللهِ ، أن لا يخفَى على أميرِ المؤمنينَ شَىْءٌ مِنْ أخْبارِهم وحالاتِهمْ وباطنِ أمرِهم بخُراسانَ والعَسكرِ والأطْراف ، وأنْ يحتَقِر فى ذلك النَّفقة ، ولا يَستعين فيه إلاّ بالثِّقاتِ النُّصَّاح ، فإنَّ تركَ ذلك وأشْباهه أحزمُ بتاركه مِن الاستعانة فيه بغيرِ الثِّقة ، فتَصيرُ مغبَّتُه للجهالةِ والكذب .

***

ومِمَّا يُذكر به أميرُ المؤمنينَ ، أمْتعَ اللهُ به ، أمرُ هذينِ المِصرينِ[3] ، فإنهم بعد أهلِ خُراسان أقربُ النَّاسِ إلى أن يكُونوا شيعتَه وحقيبتَه[4] ، مع اختلاطِهم بأهلِ خُراسانَ ، وأنهُم مِنهُم عامتُهم[5] ، وإنما ينظرُ أميرُ المؤمنينَ منهم .... [6] ، صِدق ، ولرابطتِهم .

(١) خلى ، أى انتقص واقتطع . وفى الأصلين : «ما خلا شىء» .
(٢) الحسابة : الحساب .
(٣) يعنى البصرة والكوفة .
(٤) أى خالصته وموضع سره .
(٥) فى الأصلين : « وهامتهم » .
(٦) بياض بالأصلين.

وما أرادَ مِنْ أُمُورِهِم مَعرفتَه استعان[1] أهْلَ خُراسانَ [على] ذلكَ مِن أمرِهِم ، معَ الّذى فى ذلكَ مِن خَبال[2] الأمْرِ واُختِلاطِ النَّاسِ بِالنَّاسِ : العَرَب بالْعَجَم ، وأهْل خُرَاسَان بالمِصْرِيِّن .

إنَّ فى أهْلِ العِراقِ يا أميرَ المُؤمنينَ مِن الفِقْهِ والعَفَافِ والألْبابِ والألسِنَة شيئاً لا يَكادُ يُشكُّ أنَّه ليْسَ فى جَميعِ مَن سِواهُم مِنْ أهلِ القِبْلةِ مثلُه ولا مِثْلُ نِصْفه ، فلَوْ أرادَ أميرُ المُؤمنينَ أنْ يَكْتفِى فى جَميعِ ما يُلتَمس له بأهلِ [هذه] الطَّبَقةِ مِن النَّاسِ رَجَوْنا أنْ يكُونَ ذلكَ فِيهِم مَوجُوداً . وقد أزْرَى بأَهْلِ العِراقِ فى تلكَ الطَّبَقةِ أنَّ وُلاة العِراقِ فيما مَضَى كانوا أشْرارَ الوُلاةِ ، وأنَّ أعوانَهُم مِن أهلِ أمصارِهِم [كانوا كذلكَ] ، فحُمِلَ جميعُ أهلِ العِراقِ على ما ظَهَرَ مِن أُولئكَ الفُسُول ، وتعلَّقَ بذلكَ أعْداؤُهم مِن أهْلِ الشَّام فنَعَوْهُ عليهِم . ثُمَّ كانَتْ هذه الدَّوْلة ، فلَم يَتعلَّقْ مَنْ دُونَكم من الوُزَراء والعُمَّالِ إلاّ بالأقْرَبِ فالأقْرَب مِمَّن دَنَا منهم ، أو وَجَدُوه بسبيلِ شَىْءٍ مِن الأمْرِ ، فوَقَع رِجالٌ واقِع شَائنة لِجَميعِ أهلِ العِراقِ حَيْثُما وَقَعوا مِن صَحابةِ خَلِيفةٍ ، أو وِلايةِ عَمَلٍ ، أو مَوضع أَمانة ، أو مَوطِنِ جِهاد . وكان مِن رَأْىِ أهْلِ الفَضْلِ أنْ يَقْصِدوا حيث يُلتَمَسون ، فأبطأ ذلكَ بِهِم أنْ يُعرَفُوا ويُنْتفَعَ بِهِم . وإنْ كان صاحِبُ السُّلطانِ مِمَّن لم يَعرِف النَّاسَ قبل أنْ يَلِيهِم ، ثمّ لم يَزَلْ يسألُ عنهُم مَن يَعرِفهُم ويَسْتَثْبِتُ فى اُستِقصائِهِم ، زالَتِ الأُمورُ عنْ مراكِزِها ، ونَزَلَت الرِّجالُ عنْ مَنازِلِها ؛ لأنَّ النَّاسَ لا يَلقَوْنَه إلا مُتَصنِّعينَ بأحسَنِ ما يَقدِرُونَ عليْهِ مِن الصَّمْت والكلامِ . غَيْرَ أنَّ أهلَ هذا النَّقْصِ هُم أشَدُّ تَصنُّعاً ، وأحْلى ألْسِنَةً ، وأرْفَقُ تَلطُّفاً لِلوُزراءِ أو تَمحُّلاً لأنْ يُثْنَى عليهِم من وَراء وَراء . فإذا آثَرَ الوالى أنْ يَسْتَخْلِصَ رجُلاً وَاحِداً مِمَّنْ لَيْسَ لذلك أهْلاً دَعا إلى نَفْسِه جَميعَ ذلكَ الشَّرْج[3] ،

(١) جاءت هذه الكلمة فى الأصلين قريبة الرسم مما ذهبنا إليه .

(٢) خبال الأمر : اضطرابه واختلاطه . وفى الأصلين « جمال » ولعلها محرفة عما أثبتنا أو عن كلمة بمعناها .

(٣) الشرج : المثل والنوع .

وطمعوا فيه ، وَاجْتَرءوا عليه ، وتواردوه وتزاحموا على ما عنده . وإذا رأى ذلك أهل الفضل كفّوا عنه ، وباعدوا منه ، وكرهوا أن يُرَوْا فى غير موضعهم ، أو يُزاحموا غيرَ نُظرائهم .

***

ومما يَنْظُرُ أميرُ المؤمنينَ فيه مِن أمرِ هذينِ المِصْرَين وغيرِهما مِن الأمصارِ والنَّواحى اختلافُ هذه الأحكامِ المُتناقضةِ التى قد بلغ اختلافُها أمرًا عظيمًا فى الدِّماء والفروج والأموالِ ، فيُستحَلُّ الدَّمُ والفرْجُ بالحيرةِ ، وهما يحرُمان بالكوفةِ ، ويكونُ مثلُ ذلك الاختلافُ فى جوفِ الكوفةِ ، فيُستحلُّ فى ناحيةٍ منها ما يَحْرُمُ فى ناحيةٍ أُخرى . غيرَ أنّه على كثرةِ ألوانه نافذٌ على المسلمينَ فى دمائهم وحُرَمِهم ، يقْضى به قُضاةٌ جائزٌ أمرُهمُ وحُكمُهم . معَ أنه ليسَ ممّن ينْظرُ فى ذلك مِن أهْلِ العراق وأهل الحِجاز فريقٌ إلّا قدْ لَجَّ بهم العُجْبُ بما فى أيْديهم ، والاستخفافُ بمَنْ سِواهُم ، فأقْحمهُم ذلك فى الأمورِ التى يَتَبيَّغ (١) بها مَن سمعها مِن ذَوِى الألباب .

أمَّا مَن يدَّعى لزومَ السُّنةِ منهم فيجعَل ما ليسَ سُنّةً سُنّةً ، حتّى يَبلُغ ذلك به إلى أنْ يَسفِك الدّمَ بغيرِ بيّنةٍ ولا حُجّةٍ عَلَى الأمرِ الّذى يزعُم أنَّه سُنّة . وإذا سُئِل عن ذلك لمْ يَستطِعْ أن يَقول هُرِيق فيه دَمٌ عَلَى عَهْدِ رسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عليْه وسلّم أو أئمّةِ الهُدَى مِن بعدِه ، وإذا قِيلَ له : أىُّ دَمٍ سُفِك عَلَى هذه السُّنّة التى تزْعمُون ؟ قال : فعلَ ذلكَ عبدُ المَلكِ بن مَروان أوْ أميرٌ مِنْ بعضِ أُولئكَ الأُمراء . وَإنمَا يأخذُ بالرَّأى فيَبلُغ به الاعْتزامُ عَلَى رَأْيه أن يقُولَ فى الأمْرِ الجَسِيمِ مِن أمرِ المُسْلِمينَ قوْلاً لا يُوافِقُه عليْه أحدٌ مِن المسْلِمينَ ، ثمّ لا يَسْتوْحِشُ لانفرادِه بذلكَ وإمْضائه الحُكمَ عليْه ، وهُو مُقرٌّ أنه رَأىٌ منه لا يَحْتجُّ بكتابٍ ولا سُنّة .

فلَو رَأى أميرُ المؤمنينَ أن يَأمُرَ بهذه الأقْضيةِ والسِّيرِ المختلفَة فتُرْفَع إليه فى كِتاب ،

---

(١) يتبيغ بها: يهيج . وفى ا : « يشفع » .

وُيرْفَع مَعَها ما يحتجّ به كُلُّ قَوْمٍ مِن سُنَّةٍ أو قِياس ، ثم نَظَر فى ذلكَ أميرُ المؤمنين وأمْضَى فى كُلِّ قَضيّةٍ رَأيَه الّذى يُلهِمه اللهُ ، ويعزِمُ عليه عزْمًا وينْهَى عن القضاء بخِلافِه ، وكتَب بذلكَ كِتابًا جامِعًا ، ولرَجَوْنا أن يَجعَل اللهُ هذه الأحْكامَ المُخْتَلِطَةَ الصَّوابَ بالخَطأ حُكمًا واحِدًا صَوابًا ، لرَجَوْنا أن يكُون اجْتِماعُ السِّيَرِ قَرِينَةً (٢) لإجماعِ الأمْر برأى [أمير] المؤمنين وعَلَى لِسانِه ، ثمّ يكُون ذلكَ مِن إمامٍ آخرَ آخرَ الدَّهْرِ إن شاء الله.

فأمّا اختِلافُ الأحْكامِ ، إمّا شىءٌ مأثورٌ عن السّلَفِ غيرُ مُجْمَعٍ عليه ، يُدبِّره قومٌ على وَجْهٍ ويُدبِّرُه آخرونَ عَلَى وَجْهٍ آخَر ، فيُنْظر فيه إلى أحَقّ الفريقَيْنِ بالتَّصْديقِ ، وأشْبَه الأمرَيْنِ بالعَدْلِ ؛ وإمّا رَأْىٌ أجْراهُ أهْلُه عَلَى القِياسِ فاخْتَلَف وانْتَشَر ، بغلَطٍ فى أصْلِ المُقايَسةِ ، وابتِداءِ أمرٍ على غَيْرِ مِثالِه وإمّا لِطُولِ مُلازَمَتِه القِياس ؛ فإنَّ مَنْ أرادَ أن يَلزَمَ القِياسَ ولا يُفارِقهُ أبدًا فى أمْرِ الدِّين والحُكْمِ ، وَقَع فى الوَرَطاتِ ، ومضَى عَلَى الشُّبهاتِ ، وغمَّضَ على القَبيحِ الذى يَعرِفه ويُبْصِرُه ، فأبى أن يَترُكَه كَراهةَ تَرْكِ القِياسِ . وإنما القِياسُ دَليلٌ يُستَدَلُّ به على المَحاسِن ، فإذا كان ما يَقُودُ إليه حَسَنًا مَعرُوفًا أُخِذَ به ، وإذا قادَ إلى القَبيحِ المُستَنْكَر تُرِكَ ؛ لأنّ المُبتَغى ليس عَيْنَ (٢) القِياسِ يَنبَغِى ، ولكِنْ مَحاسِنَ الأُمورِ ومَعْرُوفَها وما أَلحَقَ الحقّ بأهْلِه . وَلوْ أنَّ شيئًا مُستَقيما عَلى النّاسِ ومُنْقادًا حيثُ قِيدَ لَكانَ الصِّدْقُ هو ذلك، ولا يُعتَبَر بالمَقاييسِ ، فإنه لو أرادَ أن يَقُودَه الصِّدْقُ لم يَنْقَدْ له ؛ وذلك أنّ رَجُلاً لو قال : أتأمُرُنى أن أصدُقَ فلا أكذِبُ كِذْبَةً أبدًا ؟ لَكانَ جَوابُه أن تقُولَ : نعَم. ثمّ لو الْتُمِس منه قَوْدُ ذلك ، فقال : أأصْدُقُ فى كَذا وكَذا ؟ حتّى تَبلُغَ به أنْ يقُولَ الصِّدقَ فى رَجُلٍ هارِبٍ استدَلّه عليه طالِبٌ ليظلِمه فيقتُلَه، لَكُسِر عليه قِيادُه ، وَكان الرَّأْىُ له أن يترُكَ ذلك ويَنصرِفَ إلى المُجْمَع عليه المَعْرُوف المُستَحْسَن .

***

ومِمّا يُذكَر به أميرُ المؤمنين أهْلُ الشّامِ ، فإنّهم أشَدُّ النّاسِ مَؤُنَةً وأخوفُهم

(١) فى الأصلين : «غير». (٢) فى ا : «قربة».

عَداوَةَ وبائقةً ، وليْسَ يُؤاخِذُهم أميرُ المؤمنِينَ بالعَداوةِ ، ولا يَطمَع منهم فى الاستجماعِ على المودَّه . فمِنَ الرَّأْيِ فى أمرِهم أنْ يختصَّ أميرُ المؤمنين منهم خاصَّةً ممَّنْ يرجُو عِنْدَه صلاحًا ، أوْ يعرفُ مِنه نَصيحةً أو وفاءً ؛ فإنَّ أُولئكَ لا يَلبثُونَ أنْ ينفصلُوا عن أصحابِهم فى الرأْيِ والهوَى ، ويَدْخُلوا فيما حُمِلوا عليْه مِن أمْرِهم ، فقدْ رأَيْنا أشْباهَ أولئك مِن أهْلِ العِراقِ الّذين اسْتَدْخلَهمْ أهْلُ الشامِ . ولكن أُخِذَ فى أمرِ أهْلِ الشام(١) علَى القِصاصِ : حُرِمُوا كما كانُوا يحرِمُونَ النَّاسَ ، وجُعِل فَيْئُهم إلى غيْرِهم كما كانَ فَيْءُ غيْرِهم إليهم ، ونُحُّوا عنِ المَنابِرِ والمَجالسِ والأعْمالِ كما كانوا يُنحُّونَ عن ذلكَ مَنْ لا يجهلُون فضْلَه فى السَّابقةِ والمَواضعِ ، ومُنِعتْ مِنهم المَرافقُ كما كانوا يَمنعونَ النَّاسَ أن ينالُوا معَهُم أَكْلةً مِن الطَّعامِ الّذى يَصنَعُه أُمراؤُهم للعامَّة .

فإنْ رَغِب أميرُ المؤمنِينَ لنَفسه عنْ هذه السِّيرَة وما أشبهَها ، فلَمْ يُعارِضْ ما عابَ ، ولم يُمثِّلْ ما سَخِط ، كان العَدْلَ أن يقْتَصِرَ بهِم على فَيْئهم ، فيجعَل ما خرَجَ مِن كُوَرِ الشام فضلاً من النفقات ، وما خرج من مِصرَ فَضْلاً من حُقُوقِ أهْلِ المَدينةِ ومكَّةَ(٢) ، بأن يجعلَ أميرُ المؤمنينَ دِيوانَ مُقاتلتِهم دِيوانَهم ، أو يَزيدَ أو يَنقُص ، غيْرَ أنَّه يَأخذُ أهْلَ القُوَّةِ والغَناءِ بخفَّةِ(٣) المؤنة والخِفَّةِ فى الطَّاعةِ ، ولا يُفضِّلُ أحَدًا مِنهم علَى أحَدٍ إلّا علَى خاصَّةٍ معْلُومَةٍ . ويَكونُ الدِّيوانُ كالغَرَضِ المُسْتأنَف . ويَأمرُ لكلِّ جُنْدٍ مِن أجْنادِ الشامِ(٤) بعُدَّةٍ مِن العِيالة(٥) يَقْترِعُون عليها(٦) ، ويُسوِّى بَينَهم فيما لَمْ يكونوا أُسْوةً فيه فيما مانَ مِن عِيالتِهم(٧) ، فلا يُضيَّعُ أحَدٌ مِن المُسلِمينَ .

---

(١) فى الأصلين : « وليس أحد فى أمر أهل السلم » .

(٢) أى يجعل ماخرج زائدا من كور من الشام فى النفقات ، وماخرج زائدا من كور مصر فى حقوق أهل المدينة ومكة . والذى فى الأصلين : « فضلا عما » فى الموضعين . (٣) فى الأصلين: « وخفة » .

(٤) أجناد الشام: خمس كور: دمشق وحمص وقنسرين والأردن وفلسطين . وهذه الخمسة أماكن كل واحد منها يسمى جندا . أى المقيمين بها من المسلمين المقاتلين .

(٥) العيالة ، أى الكفاية والمون ، يقال : عاله عيالة ، إذا كفاه ومانه وقاته وأنفق عليه . وفى الأصلين : « العيال » .

(٦) كذا فى الأصلين . ولعلها محرفة عن عبارة بمعنى : يعيشون عليها ، أو يرضون بها .

(٧) أى يسوى بينهم فيمايكفيهم ويعولهم . وفى الأصلين : « فيمن مات من عيالاتهم » .

وأمّا ما يتخوّفُ المتخوّفون من نزواتهم ، فلعمري لئن أُخذوا بالحقّ — ولم يؤخذوا به — إنهم لخُلقاء ألاّ تكون لهم نزوات ونزقات . ولكنّا على مثل اليقين ، بحمد الله ، من أنهم لم يشغلوا(١) بذلك إلّا أنفسهم ، وأنّ الدائرة لأمير المؤمنين عليهم آخر الدهر إن شاء الله ، فإنه لم يخرج المُلكُ من قوم إلّا بقيت فيهم بقيّة يتوثّبون بها ، ثم كان ذلك التوثّبُ هو سبب استئصالهم وتدويخهم .

* * *

وممّا يُذكّر به أميرُ المؤمنين أمرُ أصحابه فإنّ من أولى أمر الوالي بالتثبّت والتخيّر ، أمر أصحابه الذين هم بهاء فنائه ، وزينة مجلسه ، وألسنة رعيّته ، والأعوانُ على رأيه ، ومواضع كرامته ، والخاصّةُ من عامّته . فإنّ أمر هذه الصحابة قد عمل فيه من كان وليه من الوزراء والكتّاب قبل خلافة أمير المؤمنين عملاً قبيحًا مُفرط القبح ، مُفسدًا للحسب والأدب والسياسة ، داعيًا للأشرار ، طاردًا للأخيار ، فصارت صحبةُ الخليفة أمرًا سخيفًا ، فطمع فيه الأوغادُ ، وتزهّد إليه من كان يرغبُ فيما دونه ، حتّى إذا لقينا(٢) أبا العبّاس ، رحمةُ الله عليه ، وكنتُ في ناس من صُلحاء أهل البصرة ووجوههم ، فكنتُ في عصابة منهم أبوا أن يأتوه ، فمنهم من تغيّب فلم يقدم ، ومنهم من هرب بعد قدومه اختيارًا للمعصية على سوء الموضع ، لا يعتذرون في ذلك إلّا بضياع المكتب والدعوة والمدخل(٣) ، يقولون : هذه منزلة كان من هو أشرفُ من أبنائنا يرغبون فيما هو دونها عند من هو أصغر من أمراء ولاتنا اليوم ، ولكنها قد كانت مكرمةً وحسبًا ، إذ الناسُ يُنظرون ويُسألُ عنهم . فأمّا اليوم ، ونحن نرى فلانًا وفلانًا يُنفّر بأسمائهم ، على غير قديم سلف ، ولا بلاء حدث ، فمن يرغب فيما هاهنا يا أمير المؤمنين ! أكرمك

(١) في الأصلين : « يشركوا » . (٢) في الأصلين : « التقينا » .

(٣) المكتب ، أي الكتابة . ويريد بالدعوة : الإذن . والمدخل ، أي الدخول على الخليفة . وانظر (ص ١٣٠) ففي قريب من هذه العبارة جاء قوله : « فإن في إذن الخليفة في المدخل عليه والمجلس عنده » .

اللهُ . إلاّ أن[1] يَصيرَ العدْلُ كُلّه إلى تقْوَى اللهِ عزّ وجلّ ، وإنزالِ الأُمُورِ مَنازِلَهـا ؛ فإنّ الأوّل قال :

لا يَصْلُحُ النّاسُ فَوْضَى لاسَراةَ لهم ولا سَرَاةَ إذا جُهّالُهمْ سَادُوا

وقال :

هُمُ سَوّدُوا نَصْرا وَكُلُّ قبيلَةٍ يُبَيّنُ عَنْ أحْلامِها مَنْ يَسُودُها

وإنّ أمْرَ هذه الصّحَابةِ قَدْ كان فيه أعاجِيبُ دَخلَتْ فيها مَظَالم . أمّا العَجَبُ ، فقَدْ سَمِعْنَا مِن النّاسِ مَنْ يَقُولُ : ما رأينا أعْجوبَةً قطُّ أعْجَبَ مِنْ هذه الصّحابةِ ، مِمّنْ لا يَنْتَهِى إلى أدَبٍ ذِى نَباهَةٍ ، ولا حَسَبٍ مَعْرُوف ، ثمّ هُوَ مَسْخُوط الرّأىِ ، مَشْهورٌ بالفُجُورِ فى أهْلِ مِصرِه ، قَدْ غَبرعامّة دَهْرِه صانعًا يَعْملُ بِيَدِه ، ولا يَعْتَدُّ مع ذلكَ ببَلاء ولا غَناء ، إلاّ أنّه مَكّنَهُ مِنَ الأمْرِ صَاغٍ[2] ، فانْتهى[3] [إلى] حيثُ أحَبّ ، فصار يُؤذَنُ له عَلَى الخليفَةِ قبلَ كَثيرٍ مِن أبْناءِ المُهاجِرِينَ والأنْصار ، وقبلَ قَرابَةِ أميرِ المؤمنينَ وأهْلِ بُيُوتَاتِ العَرَب ، ويُجْرَى عليْه مِن الرِّزْقِ الضِّعْفُ مِمّا يجْرِى على كَثيرٍ مِن بنى هَاشِمٍ وغيْرِهم مِنْ سَرَوَاتِ قُرَيْش ، ويُخرَج له مِنَ المَعونَةِ على نَحْوِ ذلكَ . لمْ يَضَعْه بِهذا الوَضْعِ رِعايَةُ رَحِم ، ولا فِقْهٌ فى دِينٍ ، ولا بَلاءٌ فى مُجَاهَدَةِ عَدُوٍّ مَعْرُوفَةٍ ماضيَةٍ شائعة[4] قَدِيمَةٍ ، ولا غَناء حَدِيث ، ولا حاجة إليه فى شىء من الأشْياءِ ، ولا عُدّة يَسْتَعِدُّ بها ، وليسَ بِفَارِس ولَا خَطيبٍ ولَا علّامَةٍ ، إلا أنّه خَدَمَ كاتِبًا أو حاجبًا ، فأخْبَرَه أنَّ الدِّين لا يَقُومُ إلا بهِ ، حتى كَتَبَ كيفَ شَاءَ ، ودَخلَ حيْثُ شاء .

وأمّا المَظْلَمة الّتِى دَخلت فى ذلك فعَظِيمَة ، قَدْ خَصّتْ قُرَيشاً ، وعمّتْ كَثِيرًا من النّاسِ ، وأدْخلَتْ على الأحْسابِ والمُرُوآتِ مِحْنَةً شَدِيدَةً وضَيَاعًا كثِيرًا ؛ فإنّ فى إذْنِ الخليفةِ فى المَدْخلِ عليه والمَجْلِس عِنْدَهُ ، وما يُجْرَى على صَحابَتِه مِنَ الرِّزْقِ والمَعُونَةِ ، وتَفْضِيلِ بَعْضهم على بَعْضٍ فى ذَلِكَ ، حُكْمًا عَظِيمًا على النّاس فى أنسابِهمْ وأخْطارِهمْ

(١) فى الأصلين : « أما »
(٢) صاغ إليه : مال .
(٣) فى الأصلين : « فاحتوى »
(٤) فى ا : « متتابعة » .

و بلاءِ أَهْلِ البَلاءِ مِنهم . ولَيْسَ ذَلِكَ كَخَوَاصِّ المَعْرُوفِ ولَطِيفِ المَنازِلِ أو الأَعْمَالِ يَخْتَصُّ بها المَوْلَى مَنْ أَحَبَّ، ولـكِنَّهُ بابٌ مِن القَضَاءِ جَسِيمٌ عَامٌّ ، يُقْضَى فيه لِلْمَاضِينَ مِنْ أَهْلِ السَّوَابِق ، والبَاقِينَ مِنْ أَهْلِ المآثِرِ (١) ، وأَهْلِ البَلاءِ والغَنَاءِ ، بالعَدْلِ أو بما يُخَالُ فيه عليهم ، فإِنَّ أَحَقَّ المظالِمِ بِتَعجيلِ الرَّفْعِ والتَّغْيِيرِ ما كانَ ضَرُّهُ عَائِبًا ، وكانَ لِلسُّلطانِ شائِنًا ، ثم لَمْ يَكُنْ فى رَفْعِهِ مَؤُنَةٌ ولا شَغَبٌ ولا تَوْغِيرٌ لِصُدُورِ عَامَّة ، ولا لِلقَسْوَةِ (٢) والإِضرارِ سَبَب .

ولِصَحَابَةِ أَمِيرِ المُؤْمنينَ — أَكْرَمَهُ الله — مَزِيَّةٌ وفَضْلٌ ، وهِىَ مَكْرُمَة سَنِيَّة ، حَرِيَّة أَنْ تَكُونَ شَرَفًا لأَهلها ، وحَسَبًا لأَعْقَابِهِمْ ، وحَقِيقَةً أَنْ تُصَان وتُحْظَر ، ولا يكونُ فيها إلا رجُلٌ بَدَرَ بِخَصْلَةٍ مِنَ الخِصَالِ ، أو رَجُلٌ لهُ عِنْدَ أَمِيرِ المؤمنين خاصَّةٌ بِقَرابَةٍ أو بَلاء ، أو رَجُلٌ يكونُ شَرَفُه ورأْيُهُ وعَمَلُه أَهْلًا لمجلس أَمِيرِ المُؤْمنين وحَدِيثِه ومَشُورَتِه ، أو صَاحِبُ نَجْدَةٍ يُعْرَفُ بها و يستَعِدُّ لها ، يَجْمَعُ مع نَجْدَتِه حَسَبًا وعَفَافًا ، فيُرْفَعُ مِنَ الجُنْدِ إلى الصحابَةِ ، أورَجُلٌ فَقِيه مُصْلِحٌ يُوضَعُ بين أَظْهُرِ النَّاسِ لِيَنْتَفِعُوا بصَلاحِهِ وفِقْهِه ، أو رَجُلٌ شريفٌ لا يُفْسِدُ نفْسَه أو غيرَها . وأَمَّا مَنْ يَتَوَسَّلُ بالشَّفاعاتِ ، فإنَّه يكْتَفِى أو يُكتَفَى له بالمعرُوفِ والبرِّ فيما لا يُهَجِّنُ رَأْيًا ، ولا يُزِيلُ أَمْرًا عَن مَرْتَبَتِه . ثُمَّ تَكُونُ تلكَ الصحابةُ المُخْلِصَةُ على مَنَازِلها ومَدَاخِلِها ، لا يَكُونُ لِلـكاتِبِ فيهـا أَمْرٌ فى رَفْعِ رِزْقٍ ولا وَضْعِه ، ولا لِلحَاجِب فى تَقْدِيمِ إِذْنٍ ولا تَأْخِيره .

* * *

ومما يُذَكَّر به أَميرُ المُؤْمنين أَمرُ فِتْيَان أَهْل بَيْتِه وبَنِى أَبيهِ و بنِى عَلِيّ وبَنِى العَبَّاس ؛ فإِن فيهم رِجالًا لو مُتِّعُوا بِجِسَامِ الأُمُورِ والأَعْمَال سَدُّوا وجُوهًا ، وكانُوا عُدَّةً لأُخْرَى .

* * *

(١) فى الأصلين : « والمآثر من أهل الباقين » . وظاهر أن صواب العبارة فى ترتيب كلماتها على الوجه الذى ذهبنا إليه .

(٢) فى الأصلين : « القوة » .

ومما يذكّر به أميرُ المؤمنينَ أمرُ الأرضِ والخراجِ ، فإنّ أجسَمَ ذلكَ وأعظَمَه خطرًا ، وأشدَّه مؤنةً ، وأقربَه من الضَّياعِ ، ما بَينَ سهلِه وجبلِه ، ليسَ له تفسيرٌ على الرَّساتيق(١) والقُرى ، فليس للعُمال أمرٌ ينتهُون إليه ، ويُحاسبونَ عليه ، ويحول بينهم وبينَ الحُكمِ على أهلِ الأرضِ بعد ما يتأنَّقونَ لها فى العِمارة ، ويرجون لها فضلَ ما تعمَلُ أيديهم . فسيرةُ العُمّالِ فيهم إحدَى ثنتَين : إمّا رَجُلٌ أخذَ بالخُرق والعُنفِ مِن حيثُ وَجدَ ، وتتَبّع الرِّجالَ والرَّساتيق بالمُغالاةِ ممن وُجِدَ ؛ وإما رَجُلٌ صَاحِبُ مِساحَة يستخرِجُ ممَّنْ زرَعَ ، ويترُكُ مَن لم يَزرَع ، فيغرم مَن عمَّرَ ويَسلَم مَنْ أخربَ . مع أنَّ أُصُولَ الوظائفِ على الكُورِ لم يكن لها ثَبتٌ ولا عِلمٌ ، ولَيسَ مِنْ كُورةٍ إلا وقد غُيِّرَتْ وظيفتُها مِرارًا ، فخفِيَتْ وَظائفُ بعضها ، وبَقِيَتْ وظائفُ بعض . فلوْ أنَّ أميرَ المؤمنينَ أعمَلَ رَأيَه فى التَّوظيفِ على الرَّساتيق والقُرى والأرضِينَ وظائفَ مَعلُومةً ، وتَدوينَ الدَّواوين بذلك ، وإثباتِ الأُصُولِ ، حتّى لا يُؤخَذَ رَجُلٌ إلّا بوَظيفَةٍ قدْ عرَفَها وضمِنَها ، ولا يَجتهِدَ فى عِمارةٍ إلّا كانَ له فَضلُها ونفعُها ، لرجَونا أن يكون فى ذلكَ صلاحٌ للرَّعيَّةِ ، وعِمارةٌ للأرضِ ، وحَسمٌ لأبوابِ الخِيانَة وغَشمِ العُمّالِ .

وهذا رَأيٌ مؤنَتُه شَديدَةٌ ، ورجاله قَليلٌ ، ونفعهُ مُتأخِّرٌ ، وليس بعدَ هذا فى أمرِ الخراجِ إلّا رأيٌ قد رَأينا أميرَ المؤمِنينَ أخذَ به ، ولم نرَهُ من أحدٍ قبلَه ، مِنْ تخَيُّرِ العُمّالَ وتَفقُّدِهم ، والاستِعتَابِ لهم ، والاستبدال بهم .

***

ومما يُذكَّرُ بِه أميرُ المؤمنين جزيرة العَربِ مِنَ الحِجازِ واليمنِ واليَمامةِ وما سِوَى ذلك ، أَنْ يَكونَ من رَأيِ أميرِ المؤمنينَ ، إذا سخَتْ نفسُه عنْ أموالِها مِنَ الصَّدقاتِ وغيرِها ، أنْ يَختارَ لولايتِها الخِيارَ منْ أهلِ بيْتِه وغيرِهم ؛ لأنَّ ذلكَ مِن تَمامِ السِّيرَةِ العَادلَةِ ، والكَلِمَةِ الحسنة التى قدْ رزَق الله أميرَ المؤمنين وأكرَمهُ بها ، مِن الرأى الذى

---

(١) الرساتيق : النواحى ؛ الواحد رستاق (بالضم) معرب .

هوَ بإذنِ الله حمّى ونِظامٌ لهذه الأمورِ كلّها فِى الأمْصارِ والأجْنادِ والثُّغُورِ والـكُورِ .

إنَّ بالنَّاسِ من الأسْتِجراحِ (١) والفَسادِ مَا قَدْ عَلِمَ أميرُ المؤمنِينَ ، وبهِمْ من الحاجَةِ إلى تقوِيمِ آدابِهم وطرائقِهم ما هُوَ أشَدُّ من حاجتِهم إلى أقواتِهمْ التى يَعِيشُونَ بِها . وأهْلُ كلِّ مِصْرٍ وجُنْدٍ أو ثغرٍ فقَرَاءُ إلى أنْ يكُونَ لهم من أهلِ الفِقْهِ والسُّنَّة والسِّيَرِ والنَّصِيحَة مُؤَدِّبونَ مُقَوِّمُون ، يُذَكِّرُون ، ويُبَصِّرُون الخطأ (٢) ، ويَعِظُون عن الجهل ، ويَمْنَعون عن البِدَعِ ، ويُحَذِّرُون الفِتَن ، ويَتفقّدُون أُمُور عامَّةِ مَن هُوَ بَيْنَ أظهرِهم ، حَتى لا يَخْفَى عليهم منها مُهِمّ ، ثُمّ يستَصْلِحُونَ ذلِكَ ، ويُعَالِجُون ما استَنْكَروا منهُ بالرَّأْيِ والرِّفقِ والنُّصْحِ ، ويَرْفَعون ما أعياهم إلى ما يَرْجُونَ قُوَّتَهُ عليهم ، مَأمُونِينَ عَلى سَيْرِ ذلك وتَحْصِينِهِ ، بُصَراءَ بالرَّأْيِ حِينَ يَبْدُو ، وأطِبَّاءَ باستئصاله قبلَ أن يَتمَكّن .

وفى كلِّ قَوْمٍ خَوَاصُّ رِجالٍ عندَهم على هذا مَعُونَةٌ إذا صُنِعُوا لذلك ، وتُلُطِّفَ لهم ، وأُعِينُوا على رأيِهم ، وقُوُّوا على مَعاشِهم ، ببَعْضِ مَا يُفرِّغُهم لذلك ، ويُبَسِّطُهم لهُ . وخَطَرُ هذا جَسِيمٌ فى أمْرَين : أَحَدهما ، رجوعُ أَهْلِ الفَسَادِ إلى الصَّلاحِ ، وأهْلِ الفُرْقَة إلى الألْفَةِ ؛ والأمرُ الآخَرُ أنْ لا يَتحرَّكَ مُتَحَرِّكٌ فى أمرٍ من أُمُورِ العامَّةِ إلّا وعَيْنٌ ناصحةٌ تَرْمُقُهُ ، ولا يهْمِسُ هامِسٌ إلّا وأُذُنٌ شَفِيقَةٌ تُصِيخُ نَحْوَهُ ، وإذا كان ذلك لا يَقْدِرُ أهْلُ الفَسَادِ على تَرَبُّصِ (٣) الأمُورِ وتَلْقِيحِها ، وإذا لم تُلَقَّحْ كانَ نِتاجُها بإذنِ الله مأموناً .

وقَدْ عَلِمْنَا عِلْمًا لا يُخَالِطُه شَكٌّ أنَّ عَامَّةً قَطُّ لم تَصْلُح من قِبَل أنْفُسِهَا ، وأنها لم يَأْتِها الصَّلاحُ إلّامِنْ قِبَلِ إمامِهَا ؛ وذلكَ لأنَّ عَدَدَ النَّاس فى ضَعَفَتِهِمْ (٤) وجُهَّالِهِم الّذِينَ لا يَسْتَغنون برأى أنفُسِهم ، ولا يَحْمِلُون العِلْمَ ، ولا يَتقدَّمُون فى الأمُور . فإذا جعلَ الله

(١) الاستجراح : الفساد والعيب . وفى الأصلين : « الااستخراج » تصحيف

(٢) يبصرون الخطأ ، أى يعرفونه ويوضحونه . (٣) فى الأصلين : « تربيض » .

(٣) الضعفة والضعاف : جمع ضعيف.

فيهم خَوَاصّ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ والعُقُول ، يَنْظُرُون إليهم ويَسْمَعُون مِنْهُمْ، وأُهْتَمَّتْ خَوَاصُّهُمْ بأُمُورِ عَوَامِّهِمْ، وأَقْبَلُوا عليها بِجِدٍّ وَنُصْحٍ وَمُثَابَرَةٍ وقُوَّة ، جَعَلَ الله ذلكَ صَلاحًا لجماعتِهِمْ ، وسَبَبًا لأَهْلِ الصَّلاحِ مِن خَوَاصِّهِمْ ، وزِيادَةً فيما أَنْعَمَ الله بِهِ عليهم ، وبَلاغًا إلى الخَيْرِ كُلِّهِ .

وحاجةُ الخَواصّ إلى الإمامِ الّذى يُصْلحهم اللهُ به كحاجَةِ العامّةِ إلى خَوَاصِّهِمْ وأَعْظَم مِنَ ذلكَ . فبالإمام يُصْلِح (١) الله أمرَهُم ، ويَكْبِتُ أهلَ الطعن عليهم ، ويَجْمَع رَأْيَهُم وكلمتَهمْ ، ويُبَيِّن لهم عندَ العامَّةِ منزِلَتَهُمْ . ويَجْعَل لهم الحُجَّةَ والأَيْدَ فى المقالَ على مَن نَكَبَ عن سبيل حَقِّهِمْ .

فلما رَأَيْنَا هَذِه الأُمُورَ يَنْتَظِم بعضُها ببَعْض ، وعَرَفْنا من أمر أمير المُؤمنين ما بِمِثْلِهِ جَمع الله خواصّ المُسلمين على الرَّغْبة فى حُسْن المُعَاوَنَة والمُؤازرة والسَّعى فى صلاح عامَّتِهم ، طَمِعْنا لهم فى ذلك يا أمير المؤمنين وطَمِعْنا فيه لعامّتِهم ، ورَجونا أن لا يعمَل بهذا الأمر أحدٌ الا رزقه الله المتابعةَ فيه والقُوةَ عليه ؛ فإنّ الأمرَ إذا أعانَ على نَفْسِهِ جعل للقائل مَقالًا ، وهَيّأَ للساعى نَجاحًا . ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلّا بالله . وهُوَ رَبُّ الخَلْقِ ، ووليّ الأمر ، يَقْضى فى أُمورهم ، ويُدَبِّرُ أمرَهم بِقُدْرَةٍ عَزيزة ، وعِلْمٍ سَابِق . فنَسْأله أن يَعْزِم لأمير المُؤمنين على المراشد ، ويُحَصِّنَهُ بالْحِفْظِ والثَّبَاتِ . والسلام ، ولله الحمدُ والشكر .

(١) فى الأصلين : « يجمع » وقد عدلنا عنها إلى ما أثبتنا حذر التكرار .

تحميد لابن المقفع

الحَمْدُ لله ذِي العَظَمَةِ القَاهِرَة ، والآلاءِ الظَّاهِرَة ، الّذِي لا يُعجِزُهُ شيءٌ ولا يَمتَنِعُ مِنهُ ، ولا يُدْفَعُ قَضاؤُه ولا أَمرُهُ ، وإنَّما قَوْلُه إذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فيكُون .

والحمدُ للهِ الّذِي خلَقَ الخلْقَ بِعِلْمِه ، ودَبَّرَ الأُمُورَ بِحُكْمِهِ ، وأَنْفَذَ فيما اُخْتارَ واُصْطَفَى مِنْها عَزْمَه بقُدْرَةٍ منه عليها ، ومَلَكَةٍ منه لها ، لا مُعقِّبَ لِحُكْمِهِ ، ولا شَريكَ له فِي شيءٍ من الأُمُورِ ، يَخْلُقُ ما يَشاءُ ويَخْتَارُ ، ما كان للنّاس الخِيرَةَ في شيءٍ من أُمورِهم ، سُبْحَانَ اللهُ وتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُون .

والحمدُ لله الّذي جَعَلَ صَفْوَةَ ما اُخْتارَ منَ الأُمُورِ دِينَه الّذي اُرْتَضَى لِنَفْسِهِ ، ولِمَنْ أراد كرامتَهُ مِنْ عباده ، فقامَ به مَلائِكَتُهُ المُقرَّبون ، يُعَظِّمُون جَلالَهُ ، ويُقدِّسُون أَسْماءَه ، ويَذْكُرونَ آلاءَهُ ، لا يستَحْسِرُونَ(١) عَنْ عِبادَتِه ولا يَسْتَكبِرُونَ ، يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لا يَفْتُرُون . وقام به من اُخْتارَ من أنبيائه وخُلَفائه وأوليائه فِي أرْضِهِ ، يُطِيعُونَ أمرَهُ ، ويَذُبُّونَ عَنْ مَحَارِمِه ، ويُصَدِّقُونَ بوَعْدِهِ ، ويُوفُونَ بعَهده ، ويأخذون بحَقِّهِ ، ويُجاهِدُونَ عَدُوَّهُ ، وكانَ لهم عند ما وعدهم مِنْ تَصْدِيقه قولَهم ، وإفلاجه حُجَّتَهم ، وإعْزَازه دِينَهُمْ ، وإظهاره حَقَّهمْ ، وتَمْكِينِه لهم . وكانَ لعَدُوِّه وعَدُوِّهم عِند ما أَوْعدهم مِنْ خِزْيِهم ، وإخْلالِه بأْسَهُمْ ، وانْتِقامِهِ منهم ، وغَضَبِهِ عليهم . مَضَى على ذلك أمرُهُ ، ونَفَذَ فِيه قَضاؤُهُ فيما مَضَى ، وهو مُمْضِيه ومُنْفِذُهُ على ذلك فيما بَقِيَ ، لِيُتِمَّ نُورَهُ ولو كَرِهَ الكافرون ، ولِيُحِقَّ الحَقَّ ويُبْطِلَ الباطِلَ ولو كَرِهَ المُجْرِمُون .

والحمدُ لله الّذي لا يَقْضِي فى الأُمُورِ ولا يُدَبِّرُها غَيْرُهُ ، اُبْتَدَأَها بِعِلْمِهِ ، وأَمْضاها بقُدْرَتِه ، وهُو وليُّها ومُنْتَهاها ، ووليُّ الخِيرَة فيها ، والإمْضاء لما أَحَبَّ أَنْ يُمضِي منها ، يَخْلُقُ ما يشاءُ ويَخْتار ، ما كان لهم الخِيرَة ، سُبْحانَ الله وتعالى عَمَّا يُشركون(٢) .

(١) استحسر : أعيا وتعب . (٢) سبقت هذه العبارة فى صدر هذا التحميد .

والحمدُ لله الفتّاح العليم ، العزيز الحكيم ، ذِى المَنّ والطَّوْل ، والقدْرَةِ والحَوْل ، الّذى لا مُمْسِكَ لما فَتَحَ لِأَوليائهِ من رَحْمَتِهِ ، ولا دَافعَ لما أنزَلَ بأَعدائه منْ نِقْمَته ، ولا رادَّ لأمرِهِ فى ذلك وقَضَائه ، يفعل ما يشاء ، ويَحْكُم مَا يُرِيدُ ، والحمدُ لله المثيب بِحَمْدِهِ ، ومنه ابتداؤه ؛ والمُنْعِمُ بشكرِهِ ، وعليه جَزَاؤهُ ؛ والمُثنى بالإيمان ، وهُو عطَاؤهُ .

* * *

[تهنئة]

كتب ابن المقفع إلى صديق له ولدت له جارية .

بارك اللهُ لكم فى الأبنة المستفادة ، وجَعَلها لكم زَيْنًا ، وأَجْرَى لكم بها خَيْرًا ، فلا تكرهوها فإنهُنَّ الأُمّهاتُ والأخَوات والعمّات والخالات ، ومِنْهُنّ الباقيات الصالحات . ورُبَّ غُلَام ساء أهلَه بعْدَ مَسرَّتِهم ، ورُبَّ جارِيةٍ فرَّحتْ أهْلَهَا بَعْدَ مَسَاءَتِهم .

[تعازى]

تعزية لابن المقفع عن ولد :

أَعْظَمَ اللهُ على المُصِيبَةِ أَجْرَكَ ، وأَحْسَنَ عَلَى جَلِيلِ الرُّزْءِ ثَوَابَكَ ، وعَجَّلَ لَكَ الخَلَفَ فِيه ، وذَخَرَ لَكَ الثَّواب عليه .

وله :

إنَّمَا يَسْتَوْجِبُ على الله وعْدَه مَن صَبَرَ لله بِحَقّهِ ، فلَا تجْمَعَنَّ إلى مَا فُجِعْتَ بِهِ مِنْ وَلَدِكَ الفجيعةَ بالأجر عليه والعِوَضَ مِنْه ؛ فإنّهَا أعْظَمُ المُصِيبَتَيْنِ عليك ، وأنكَى

المَرْزِئَتين لك . أَخْلَفَ اللهُ عَلَيكَ بِخَيْرٍ ، وذَخرَ لكَ جَزِيلَ الثواب

وتعزية له عن بنت :

لا يَنْقص اللهُ عددَك ، ولا ينزع عنكَ نعمَته التى ألبسكَ ، وأحْسنَ العِوضَ لك ، وجعَلَ الخلَفَ لك خَيْرًا مما رَزأَكَ به ، ومَا أعْطاكَ خَيْرًا مما قبَضَ منْكَ .

وله تعزية عن ابنة :

جَدَّدَ اللهُ لك منْ هِبَتِهِ ما يكون خَلفًا لكَ بِمَا رُزِئْتَهُ ، وعِوَضًا من المُصِيبة به ، ورزَقَكَ مِنَ الثّوابِ عليه أضعافَ مَا رَزَأكَ بِهِ مِنْهَا . فما أقلَّ كثيرَ الدُّنْيَا فى قليل الآخرةِ ، مع فناء هذه ودَوَام تِلْكَ .

وتعزيةٌ له أيضاً :

أَعظَمَ اللهُ أَجْرَكَ فى كلِّ مُصيبَةٍ ، وأَوزَعَكَ الشُّكْرَ على كلِّ نِعْمَةٍ . اُعْرفْ لِلهِ حَقَّه ، واُعْتَصِمْ بِما أَمرَ به مِن الصَّبْرِ ، تَظْفَرْ بِما وَعَدَ مِن عَظِيمِ الأَجْر .

وتعزيةٌ له :

أمّا بَعْد ، فإنّ أمْرَ الآخرةِ والدُّنْيا بِيَدِ اللهِ ، هُو يُدَبِّرُهُما وَيَقْضِى فيهما ما يَشاء ، لا رَادَّ لِقضَائِه ، ولا مُعقِّبَ لِحُكمِه ؛ فإنّ اللهَ خَلقَ الخلْقَ بقُدْرَته ، ثمّ كَتَب عليهم المَوْتَ بعْدَ الحياةِ ، لِئَلّا يَطْمَعَ أحَدٌ مِن خَلقِهِ فى خُلْدِ الدُّنيا . ووَقّتَ لِكلِّ شَىْءٍ ميقَاتَ أَجَل ، لا يَسْتَأخرُونَ عَنهُ ساعةً ولا يَسْتَقْدِمُون . فليْس أحدٌ مِن خَلْقِه إلاّ وهُو مُستَيْقِنٌ بِالمَوْتِ ، لا يَرجُو بأَنْ يُخلِّصَه مِن ذلك أحَدٌ . نَسْأَلُ اللهَ خَيرَ المُنقَلَب . وبَلغنى وَفَاةُ فُلان ، فكَانَتْ وَفاتُه مِن المَصَائبِ العِظامِ ، التى يُحْتَسَبُ ثوابُها مِن ربِّنا الّذى إليه مُنْقلَبُنا

ومَعادُنا ، وعليه ثوابُنا . فعليكَ بتقْوَى اللهِ والصَّبْرِ وحُسْنِ الظَّنِّ باللهِ ، فإنَّه جعل لأهل الصَّبْرِ صلَواتٍ منهُ ورحْمةً وجعلهم من المُهتَدِين .

[فى السلامة] (١)

ولابنِ المقفع فى السلامة :

أمّا بعْد ، فقد أتانِى كِتابُك فيما أخبرْتَنا عنه مِن صَلاحِكَ وصَلاحِ مَنْ قِبلَك ، وفى الّذى ذكرتَ مِن ذلك نِعْمةٌ مُجَلَّلةٌ عظيمةٌ ، نَحمَدُ عليها وليَّها المُنعِمَ المُتفضِّلَ المحْمُود ، ونسْألُهُ أنْ يُلهِمَنا وإيَّاكَ مِن شُكْرِه وذِكْرِه ما به مَزِيدُها وتأْدِيَةُ حَقِّها . وسألتَ أنْ أكْتُبَ إليكَ بخَبرِنا ، ونحنُ [من عافية الله وكفايته ودفاعه] عَلَى حالٍ لوْ أطنَبْتُ فى ذِكرِها لمْ يكُنْ فى ذلكَ إحْصاءٌ للنِّعْمَةِ ، ولا اعْتِراف بكُنْهِ الحقّ . نَرْغَبُ إلى الذى تَزدادُ نِعْمُهُ علينا فى كُلِّ يوْمٍ وليلةٍ تظاهُرًا ألاَّ يجعلَ شُكرَنا منقوصًا ولا مَدْخولاً ، وأنْ يَرْزُقَنا مع كُلِّ نِعْمةٍ كِفاءَها مِن المَعرِفَةِ بفَضْلِهِ فيها ، والعَمَلِ فى أداءِ حقِّها إليْه ، إنّه وَلِيٌّ قَدِير .

وله كِتابٌ للثقفِيِّ فى السَّلامَة :

أمّا بعْد ، فإنَّ مِمّا نمّقَ اللهُ به مَناقبَكَ الكَرِيمةَ المَحْمُودَةَ ، الغانيَةَ عن القوْلِ والوَصْفِ ، أنَّكَ واضعُ المؤُنَاتِ عن إخوانِك ، حَمَّالٌ عنهم أثقالَ الأُمور . فمِمّا(٢) وَضعْتَ عنهم(٣) فيه المؤْنة ارْتفاعُك عن الأُمورِ التى يُطأْطأُ إليها الكلامُ على ألْسِنَةِ النّاسِ إذا أباحُوه وبَهْرَجُوه ، وضَيَّعوا القوْلَ ، ونَسُوا القصْدَ فيه ، وأخَذُوا به فى كلِّ فَنٍّ ، وأصْفَوا بصَفْوَتِه

---

(١) من « اختيار المنثور والمنظوم » .
(٢) فى الأصلين : « مما » .
(٣) فى الأصلين : « عنه » .

غَيْرَ أهله ، فيما لا يَنْبَغِى لهم مِن التَّشْبِيه والتَّوْقِيرِ والتَّفْضِيل .

كان مِن خَبَرِى بَعْدَكَ أنى قَدِمتُ بلدَ كذا، فتهيَّأَ لِي بعْضُ ما شَخَصتُ له ، والمحْمُودُ على ذلك اللهُ عزَّ وجَلَّ ، وأنا على أنْ يَأتِيَنِى خبَرُكَ مُحْتاجٌ ، فأمَّا جُمْلَةُ خَبرِى فى فِراقِكَ فقَلْبِى مَكةُ ، كُلُّ ما سِواكَ حَرامٌ فيها .

وله جَوابٌ فى السَّلامةِ :

أمَّا بعْد ، فقد أتانِى كِتابُ الأميرِ رَجعَةَ كِتابِى إليه ، فكانَ فيه تَصْدِيقُ الظَّنِّ ، وتَثْبِيتُ الرَّأْيِ ، ودَرَكُ البُغْيةِ ، واللهُ مَحْمودٌ . فأَمْتَعَ اللهُ بالأَميرِ وأمْتَعَهُ بصالحِ ما آتاه ، وزَادَه مِن الخَيْر مُسْتَعمِرًا له فيه ، مُسْتَعْمَلاً بطاعَتِهِ التى بها يَفُوزُ الفائزُون . والذى رَزَقَ اللهُ مِن الأميرِ فهُوعنْدى عَظِيمٌ نَفِيس ، وكلُّ الذى قِبَلِي عَن مُكافأَته فمُقَصِّر ، إلّا أنَّه ليْسَ فى النِّيَّةِ تَقْصِيرٌ ولا بُلوغٌ لشَىْءٍ مِن الأُمورِ إلّا بِتَوفيقِ اللهِ عزَّ وجَلَّ ومَعُونَتِهِ . والسَّلام .

وفى السَّلامةِ أيضاً (ولم يَقُلْ[1] إنها له) :

كَتَبْتُ إليْكَ وأميرُالمؤمنينَ وما يأتيهِ[2] مِن لِينِ الطَّاعَةِ واتِّساقِ الكلمَةِ [التى] عَمَّتْ فى الدَّانى والقاصِى مِن بُلْدانِه ، وحَواشِى سُلْطانِه ، عَلَى ما يُحمَدُ اللهُ عليه ؛ فإنَّ نعمَةَ اللهِ عَلَى أميرِ المؤمنينَ تجْرِى عَلَى أذْلالها[3] ، وتَنقادُ فى أسهَلِ سبِيلِها .

[فى الشكر]

قال المؤلِّف[1] : « ومِن مُختارِ ما كُتِبَ به مِن بابِ الشُّكرِ » . ولَمْ أعْرِفْ إنْ كانَتْ له[4] أو لغَيْرِه ، لأنَّه أوْرَدَ « كُتِبَ » بضَمِّ أوَّلها ، ومعَ هذا فهذه هى الرِّسالةُ :

---

(١) أى أن ابن طيفور صاحب اختيار المنثور والمنظوم . (٢) أى يصل إلى أميرالمؤمنين ويبلغه .
(٣) على أذلالها ، أى على مجاريها . (٤) له ، أى لابن المقفع .

أمّا بعد ، فما أعجز تعدادى عمّا أتعرّفُ منك وأتعرّفهُ بك دانيًا ونائيًا ، وما أدرى : ما ابتدأتنى به من معروفك أرهنُ لشكرى ؟ أم ما تنقّيت به من برّك ، لبذلك بعنايتك على نأيك ؟ أم ما ألبستنى جماله على لسانك بإطرائك وثنائك ؟ أم ما عقدته لى عند غيرك بتلطّفك وتأتّيك ؟ غير أنى أعلم أنك لم تقصّر فى استحقاق شكر علىّ ، وأرجو أن لا أكون مقصّرا فى معرفة ذلك منك ، ومن لم يقصّر علمه ، ولم يوفّ شكره ، من عظم المعروف عنده مع جهده ، فقد دخل بالعلم والجهد فى الشاكرين . غير أنّ الذى آنستنى به من رفدك وتوطيدك ، قد زادنى وحشة إليك . وإنّ حفظ من حفظنى فيك ، ولم[1] يكن مقصّرا ، قد جدّد لى المعرفة بوثارة مكانى عندك . ولقد بلغت أن أصلحت لى الأمور والرّجال ، وأصلحتنى ، إلى صلاحى ، لنفسك . فليس كتابى هذا باستنبطاء لأحد حتّى يستنبطئك ، ولا شكرى حتّى يكون البدء منك . ولكن روّحت عن نفسى بذكرك ، وزيّنتها بشكرك ، وزكّيتها بالإقرار بفضلك .

[فى الحوائج]

ولابن المقفع من مختار ما كتب به من الفصول والرّسائل فى الحوائج :

إنّ النّاس لم يعدموا أن يطلبوا الحوائج إلى الخواصّ من الإخوان ، وأن يتواصلوا بالحقوق ، ويرغبوا إلى أهل المقات ، ويتوسّلوا إلى الأكفاء . وأنت بحمد الله ونعمته من أهل الخير ، وممّن أعان عليه ، وبذل لأهل ثقته المصافين . وإنّ بذل النّفوس فيه ، وإعطاء الرّغيب[2] ، ليس منك ببكر ولا طريف ، بل هو تليد أتلده أوّلكم لآخركم ، وأورثه أكابركم أصاغركم . ومن حاجتى كذا ، وأنت أحقّ من طلبت إليه ، واستعنته

(١) الرغيب : العطايا الكثيرة ، الواحدة : رغيبة .

(٢) فى ا : « وإن » .

على حوادث الدهر ، وأنزلت به أمرى ؛ لقرب نسبك ، وكريم حسبك ، ونباهتك وعلو منزلتك ، وحميد[1] طبائعك ، وعوام أياديك إلى عشيرتك وغيرها . فليكن من رأيك ما حملتك من حاجتى على قدر قسم الله لك من فضله ، وما عودك من مننه ، ووسع غيرى من نعمائك وإحسانك .

ولابن المقفع أيضا :

أما بعد . فإن من قضى الحوائج لإخوانه ، واستوجب بذلك الشكر عليهم ، فلنفسه عمل لا لهم . والمعروف إذا وضع عند من يشكره فهو زرع لا بد لزارعه من حصاده ، أو لعقبه من بعده . وكتبت إليك ، ولحاجتنا[2] التى نحن بها ، فيما نذكرك ، حاجة أول ما فيها معروف تستوجب به الشكر علينا ، وتدخر به الأيادى قبلنا .

ولعبد الله بن المقفع إلى يحيى بن زياد [الحارثى][3] ابتداء فى المؤاخاة :

أما بعد : فإن أهل الفضل فى اللب ، والوفاء فى الود ، والكرم فى الخلق ، لهم من الثناء الحسن فى الناس لسان صدق يشيد بفضلهم ، ويخبر عن صحة ودهم ، ووثيق[4] مؤاخاتهم ، فيتخير إليهم رغبة الإخوان ، ويصطفى لهم سلامة صدورهم ، ويجتبى لهم ثمرة قلوبهم . فلا مثنى أفضل تقريظا ، ولا مخبر أصدق أحدوثة منه . وقد لزمت من الوفاء والكرم فيما بينك وبين الناس طريقة محمودة نسبت إلى مزيتها فى الفضل ، وجمل بها ثناؤك فى الذكر ، وشهد لك بها لسان الصدق . فعرفت بمناقبها ، ووسمت بمحاسنها . فأسرع إليك الإخوان برغبتهم مستبقين ، يبتدرون ودك ، ويصلون حبلك ، ابتدار

---

(١) فى الأصلين : « وجسيم » .

(٢) انظر الفهرست لابن النديم والأغانى ، ففيهما عن يحيى بعض أخبار .

(٣) فى الأصلين : « ولحالنا » .

(٤) فى الأصلين : « وثقة » .

أهْل التَّنافُسِ فى حَظٍّ رَغِيب[١] ، ونصبت لهم غايةً يَجْرى إليها الطالبون ، ويَفوزُ بها السَّابقون . فَمنْ أَثبَت اللهُ عِنْدكَ بموضع الحِرْزِ والثِّقَةِ ، ومَلأَبه يدَكَ مِنْ أخى وَفاء وصِلَة ، استنام منك إلى شِعْبٍ مَأمون ، وعهدٍ مَحْفُوظ ، وصار مَغْمُورًا بفَضْلِكَ عليه فى الوُدِّ ، يَتَعَاطى من مُكافأتكَ مالا يَسْتَطيع ، ويَطْلُب مِنْ أثَرِكَ فى ذلك غايَةً بُلُوغُها شديد . فَلَوْ كنتَ لا تُؤاخى من الإخوانِ إلّا مَنْ كافأ بوُدِّك ، وبَلَغ من الغَايَات حدَّك ، ما آخَيْتَ أَحَدًا ، ولَصِرْتَ مِنَ الإخوانِ صِفْرًا . ولـكنَّ إخْوَانَكَ يُقِرُّونَ لكَ بالفَضْل ، وتَقْبَل أَنْتَ مَيْسُورَهم من الوُدِّ ، ولا تُجَشِّمُهم كُلَفَ مُكافأتك ، ولا بُلوغَ فَضْـلِك فيما بيْنَك وبَيْنَهُمْ ، فإنَّما مثلُكَ ومثلُهم كما قال الأول :

ومَنْ يُنازِع سَعِيدَ الخَيْرِ فى حَسَبٍ يَنْزِعْ طَلِيحًا ويقصِر قيدَه الصَّعَدُ[٢]

ولم أُرِدْ بهذا الثناءِعليكَ تزْكِيتَك ،ليَكُونَ ذلكَ قُرْبَةً عِنْدَك، وآخِيَّةً لى لَدَيك ، ولـكنْ تَحَرَّيْتُ فيما وَصفتُ من ذلك الحقَّ والصِّدْقَ ، وتَنَـكَّبت الإثمَ والبَاطِلَ ؛ فإنَّ القَلِيلَ من الصدق البرىءِ من الـكَذِب ، أفضلُ من كثيرٍ من الصِّدْقِ المشوبِ بالباطل . ولقد وصفتُ مِنْ مَنَاقِبِكَ ، ومحاسِنِ أُمورِكَ ، وإنى لَأخافُ الفِتْنَة عليك حين تَسْمَع بتزْكِيَةِ نَفْسِك ، وذِكْرِى مَا ذكَرْتُ مِنْ فَضْلِكَ ؛ لأنَّ المدْح مَفْسَدَةٌ لِلقَلْبِ ، مَبْعَثَة لِلعُجْبِ .

ثم رجوتُ لكَ المَنَعَةَ والعِصْمَة ، لأنى لمْ أذْكُرْ إلّا حقًّا ، والحقُّ يَنْفى مع اللَّبِيبِ العُجْبَ وخُيَلاءَ الـكِبْرِ ، ويَحْمِلهُ عَلَى الاقتصاد والتواضع . وقد رأيتُ ، إذ كُنتَ فى الفَضْل والوفاءِ على ما وصفتُ منك ، أنْ آخُذَ بنصيبى من وُدِّك ، وأَصِلَ رِبْقَةَ[٣] حَبْلِى بِحَبْلِك ، فيَجْرى بيننا من الإخاءِ أَوَاصِرُ الأَسْبَاب الَّتى بها يَسْتَحْـكِم الوُدّ ، ويَدُومُ العَهْد . وعلمتُ أنَّ ترْكى ذلك غَبْن ، وإضاعتى إياه جَهْل ، لأنَّ التَّارِكَ لِلحَظِّ داخِلٌ فى

---

(١) رغب : واسع (٢) طليحا : معيا . والصعد : المشقة .

(٣) ربقة الحبل : عروته . وفى الأصلين : « وثيقة » .

الغَبَنِ ، والعائِدُ عن الرشد مُوجِف(١) إلى الغَيّ . فارْغَبْ من وُدّى فيما رغبتُ من وُدِّك ، فإنى لم أدَعْ شيئاً أستتلى(٢) به منك الرَّغْبَة ، وأجْتَرّ به مِنْك المودَّة ، إلّا وقد اقتدْتُ إليك ذريعَتَه(٣) ، وأعْملْتُ نَحْوَك مَطِيَّتَهُ ، لترَى حِرْصى على مودّتك ، ورَغْبَتى فى مُؤاخاتك . والسَّلام .

جوابه من يحيى بن زياد فى صفة الإخاء :

أمّا بعْد . فإنّا لمّا رأينا مَوْضِعَ الإخاء مِمّنْ يَحْتَمِلُهُ فى تأنيسِهِ مِنَ الوَحْشَةِ ، وتقريبِهِ لِذِى البُعْدة ، ومُشاركته بين ذوى الأرْحام فى القُرْبَةِ ، لَمْ نَرْضَ بمعرفة عَيْنِه دُونَ مَعْرِفة نِسْبَته ، فنَسَبْنا الإخاء فوجدناهُ فى نِسْبَته لا يستحقّ اسم الإخاء إلّا بالوفاء . فلما انتقلنا عنه إلى الوفاء فنَسَبْناهُ ، انْتَسَبَ إلى الصَّبْرِ ، فوَجَدناه محتوياً على الكرَم والنَّجْدَة ، والصِّدق والحياء ، والنَّجَابة والزَّكانة(٤) وسائر مالا يأتى عليه العددُ من المَحامِد . ثم انحدرنا فيما أصْعَدْنا فيه من هذا النَّسَب ، فعُدنا إلى الإخاء فوجدناه لا يَقوم به إلا مَن هذه الخصال كُلُّها أخلاقه .

ولما استوجبَ الإخاء مسالكَ المَحْمدة كلَّها رأينا أن نتَخيَّر له المواضعَ فى صواب التّوزير ، وإحكام التّقدير ، وعلمنا أن الاحتباس به أحسنُ من النّدَم بعد بَذْلِه . واستوجب ، إذ كان جِمَاعَ المَحامد ، أن نتخيَّر له محامِلَه التى يُحْمَل عليها ، فكان الناسُ فيما احتبسنا به عنهم من الإخاء على صِنْفين : فصِنْفٌ عَذَرُونا بالتحبّس للتخَيُّر ، إذ كان التّخيُّر من شأنهم ، وصِنْفٌ هم ذوو سُرعة إلى الإخاء وسُرْعة فى الانتهاء ، فقدَّموا اللائمة ، واستعجلوا بالمودَّةِ ، وتركوا باب التَّرْوِية(٥) ، واستحلّوا عاجل المحبَّة ، ولَهَوْا عن آجل الثّقَة ، فكانوا بذلك أهلَ لائمة . ولم يجد المُعْذِرون(٦) إلا الصَّبْر عَلَى تلك ، والاستعمال للرأى ، والاستعداد بالعُذْر عند المُحاجّة .

---

(١) موجف ، أى مسرع .
(٢) استتلاء الشيء : دعاه إلى تلوه .
(٣) الذريعة : الوسيلة .
(٤) الزكانة : صدق الظن .
(٥) التروية : التفكر .
(٦) المعذر : من كان له عذر .

وقد فهمتُ كتابَكَ إلىَّ بالمودَّة، واستيحاشَك إيَّاى فى الأُخُوَّة، وما دنوتَ به من حُرْمَة المَحبَّة. فنازعتْ إليك نفسى بمثل الذى نازعتْ به إلىَّ نفسُك؛ فواثبتْنى عادةُ الاستمهال للتَّرْويَة فى الخِبْرَة، والتَّخيُّر للمغبَّة. فجُلْتُ عن كتابك جَوْلةً غيرَ نافرَة، ثم راجعتُ مُقاربتك فقلت: أُلقِى إلىَّ أسباب المودَّة قبل كَشْف الغطاء بالخِبْرَة. فخشيتُ أن تعزِرَ[1] نفسَك بالتقدُّم، وتُحْدِث الزهادةَ للتعسُّف بالجهالة عندَ الخِبْرَة. فجلتُ عن هذا جولةً كالجولة الأولى، ثم عاودتُ إسعافَكَ، وطاعةَ التشوق، ومَعْصِيةَ التخيُّر، ثم قلت: ما حالُ مَن جعل الظَّنَّ دُون اليقين، والتقدُّمَ قبل الوثيقة. فلمَّا كان الرأىُ لِى خصماً تنكّبتُ الوُقوع فى خلافه، فلم أجد إلا الإدبار عن إقبالك سبيلاً، ولا مع ذلك فى طاعة الشَّوق حُجَّة. فتبيَّنت[2] السبيل بين ذلك إلى إعطائك طَرَفَ حَبْل الإخاء فى غير الخُروج عن سبيل التخيُّر، وكرهتُ أن تستعبدنى بالإخاء قبل أن أعرفَكَ بحُسْنِ المَلَكة، وأن تَسْتَظهر بى على الأعداء قبل أن أعرفك بِعَدْلِ السيرة، وأن تستضىء بى فى ظُلَم الجَهْل قبلَ أن أعرفَك بِعَقْدِ اللُّبِّ، وأن تَسْتَمْكِن بى فى المطالب قبل أن أعرفك بقَصْدِ الهِمَّة، فقدَّمتُ إليك الترحيبَ والعِدَة، وأحسنتُ عنك المُفاوَضة والثِّقة، وتنظّرتُ أنْ تثْمِرَ لى فأذُوق جَناك، فأعرفك بالمذاقة فى الطَّعم، إما لافظاً وإما مُبتلِعاً[3]؛ فإن كان اللفظُ لم أكنْ من الرَّأى فى قَلْبه، وإن كان الابتلاعُ[4] ذوَّقتُكَ ما تشوقتَ إليه مما أدْعَيْتَ منِّى به الخِبْرَة. وأول ما أنا مُعْتَبر به منك المُواظبةُ على استنجاح ما سألتَ أو السآمةُ له، فإن كانت المُواظبة فأحدُ الشُّهودُ المُعدَّلين، وإن كانت السَّآمة فأنت عن حَمْلِ ما تُعطى أضعفُ منك عن حَمْلِ ما تَطْلُب.

طالعنى بكُتبِكَ، فإنّك قد حللتَ قِبَلِى عَقْدًا من التحفّظ، وعقدت عَقْدًا من التقرّب. والسَّلام.

---

(١) العزر: اللوم. وفى الأصلين: «تعذر». (٢) فى الأصلين: «فتغيبت».
(٣) فى الأصلين: «مستبلغاً». (٤) فى الأصلين: «الاستبلاغ».

يتيمة السلطان

لابن المقفع

رسالة بين مجموع مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٦٧٢ مجاميع . وهى فى نحو من ثمانية عشر ورقة بخط فارسى مجود . ولا يعرف لها تاريخ كما ليس بها إشارة إلى الأصل المنقولة عنه . وهى غير كاملة ، كما يدل على هذا ختامها . وبين عبارات هذه اليتيمة ما جاء بلفظه فيما سبق لابن المقفع أو فى ثوب من اللفظ قريب منه . أما عن صحة نسبة الرسالة إلى ابن المقفع فذلك شىء لم يُعنَّا عليه ما كان بين الاختيار والطبع من زمن قصير . وهاهى ذى الرسالة بين يدى الباحثين منشورة بعد أن كانت مطمورة وهم على الأيام شركاؤنا فى التعقيب والبحث .

بسم الله الرحمن الرحيم

و به نستعين

هذه يتيمة السلطان ، تجمع جوامع الحكم والبيان ، لابن المقفع رحمه الله .

قال :

العِلْم رُوح والعَمل بدن . والعِلْم [أصل] والعمل فرْع . والعِلْم والد والعمل مولود . وكان العملُ لمكان العِلم ، ولم يكن العِلم لمكان العمل .

الغِنى فى القناعة ، والسلامة فى العُزلة ، والحرّية فى رفَض الشهوات ، والمحبّة فى ترك الرّغبة.

أعلم أنّ التمتّع فى أيام طويلة يُوجد بالصَّبر فى أيام قليلة .

الغِنَى الأكبرُ فى أربعة أشياء : نفسٌ عاملة تستعين بها على دينك ، وبَدَن صابرٌ فى طاعة ربّك تستعدُّ به ليوم فقرك ، وقناعةٌ بما يَرزق الله ، ويأسٌ عما عند الناس .

الصديق لا يُحاسَب ، والعدوّ لا يُعاتَب .

حَسْبُ البخيل من بُخله سوء ظَنّه بربّه عزّ وجل .

من أيقن بالخَلَف جاد بالعَطيّة .

وقال : أخرج الطمعَ من قَلبك تحُلّ القيدَ من رجلك وتُرح بدنَك .

الظالم نادم وإنْ مَدحه الناس ، والمظلومُ سالم وإن ذمّه الناس .

المُقتنع غنيٌّ وإن جاع وعَرِى ، والحريصُ فقير ولو مَلَك الدنيا .

لا ينبغى للعاقل أن يَنْشط إلا فى ثلاثة : مَرَمّة لمعاش ، أو تزوّد لمعاد ، أو لَذّة فى غير مُحرّم .

لا ينبغى للعاقل أن يتزوّج إلا بعد أن يَتسع خُلقه لمُداراة الجَهْل ، وبَذْلِ ما له فى وجوه الإفضال .

أحفظ مَن تحتك يَحفظك مَن فوقك . الزم الصحّة يَلْزمك العمل . الأمانةُ تُورث

الغِنى ، والخيانة تُورث الفقرْ . جزاء الحَسنةِ السيّئةُ عند من لا أَصل له . ما أقبحَ المنَّ بالغنى . إذا أفتقر من لا يَرحم لا يُرحم . من لم يَغضب للجَفوة لم يَشكر للنِّعمة . إذا بَسطك الأملُ فأقبض نفسَك بذِكر الأجل .

وقال : حدُّ الشجاعة سَعةُ الصدر بالإقدام على الأُمور المُتْلفة ، وحدُّ الصبر الأحتمالُ للمكاره المُوبلة ، وحدُّ السخاء سماحةُ النفس ببَذْل الرغائب الجليلة فى مواضعها ، وحدُّ الحِلْم تركُ الأنتقام مع إمكان القُدرة ، وحَدّ الحَزْم أنتهاز الفُرصة .

وقال : الدنيا دار عَمل ، والآخرة دار ثَواب .

زمام العافية بيد البلاء ، ورأسُ السلامة تحت جَناح العَطَب ، وباب الأَمن مَرْدود على الخوف ؛ فلا تكوننّ فى حال من هـذه غيرَ متوقّعٍ لأضدادها ، ولا تجعل نفسَك غرضا للسهام المُهلكه ، فإنّ الزمانَ عدوّ أبن آدم ، فأحترز من عدوّك بغاية الأستعداد ، فإذا فكّرت فى نفسك وعدوّها أستغنيت عن الوَعظ .

أجلُ أبن آدم قريبٌ فى يدى غيره ، والسَّوْقُ حثيث من الليل والنهار ؛ فإذا انتهت المدة حِيل بينه وبين العُدة ، فَليحتل قبل المَنْع ، وليمكن نفسَه بصُحبة الصالحين . وإذا آنسته السلامةُ فَلْيستوحش من العَطب ، وإذا فرح للعافية فَلْيحزن للبلاء ، فإليه تكون الرَّجعة ، وإذا بسطه الأملُ فَليذكر قُرب الأجل ، فهو الموعد وإليه المَوْرد ، وليتزوّد للموت قبل الفَوت .

وقال : الحِيلة خيرٌ من الشدَّة ، والتأنّى خيرٌ من العَجلة ، والجهل فى الحَرب خير من العَقل . والتفكّر هناك فى العاقبة مادّة الجزع .

التأنِّى فيما لا يُخاف عليه أقربُ من العجلة إلى إدراك الأمل .

أضْعَف الحيلة أنفعُ من أقوى الشدة .

التأنى أجدى من أكثر العَجلة . الدّولةُ رسول القضاء المُبرم .

إذا أستبدّ الملكُ برأيه عَميت عليه المراشد .

وقال : ثلاثةٌ لا يُرجى صلاحهنّ بشىء من الحِيَل : عداوةُ الأقارب ، وتحاسد الأكْفاء ، والركاكةُ فى الملوك . وثلاث لا يُستفسد صلاحهنّ بشىء من المَكْر : العبادةُ فى العلماء ، والقناعةُ فى المُستبصرين ، والسخاء فى ذَوى الأخطار . وثلاث لا يُشبع منهن : العافيةُ والحياةُ والمال .

وقال : إذا كان الداء من السماء بَطل الدواء . وإذا أراد الربُّ بَطل حذرُ المَرْبوب . ونعم الدواء الأجلُ ، وبئس الداء الأمل .

ثلاث هنّ سرور الدنيا : التقلُّب فى النِّعم ، والرضَى بالقَسم ، وتركُ الاهتمام لرزقِ غدٍ . وأما الغمُّ : فحِرْصُ مُسرف ، ووعدُ مُخْلف ، وسؤال ملحف (١) .

مَن زرع الخيرَ حصد الغِبْطة .

الكلامُ من فضّة والسكوتُ من ذهب .

وقال : لذة الدنيا فى أربعة أشياء : البِناء والنساء والطِّلاء والغِناء .

أربعة من جَهد البلاء : كثرةُ العيال ، وقلّة المال ، وجار السَّوْء ، والزَّوجة الجائرة .

شدائد الدنيا أربعة : الشَّيخوخة مع الوُحدة ، والمرضُ فى الغُربة ، وكثرةُ الدَّين مع القلّة ، وبعدُ المسافة مع الرِّحلة .

وقال : المرأة الصالحةُ عماد الدِّين ، وعمارةُ البيت ، وعونٌ على الطاعة .

ليس بكامل إلا مَن غزا ، و[من] لم يَبْن على أمرأة تزوّجها ، أو بنى بناء ولم يُكمله (٢) ، أو زَرع زرعا ولم يَحْصده .

ثلاث ليس للعاقل أن يتشاءم منهن (٣) : فناء الدنيا ، وتصرّف أحوالها ، والآفات التى لا أمانَ منها .

ثلاث لا تدرك بثلاث : الغِنى بالمنى ، والشَّباب بالخِضاب ، والصحّة بالأدْوية .

---

(١) فى الأصل : « وتمنى ما يلهف » . وما أثبتنا من هامشه .
(٢) فى الأصل : « أو نبا بنا ولم يكامه » . تحريف .
(٣) فى الأصل : « من » .

وقال : أربع خصال إذا أعطيتهنّ فليس يَضرّك ما فاتك من الدنيا : عَفافُ طُعمة ، وصِدْق حديث ، وحِفظ أمانة ، [وحُسن خليقة](١) .

ستة أشياء تعدل الدُّنيا : الطعامُ المرئ ، والسيّد الرءوف ، والوَلد البرّ ، والزوجة المُوافقة ، والكلام المحكم ، وكمال العقل .

وقال : تَرْكُ الحَبِّ بعد(٢) أوانه فى الأرض السّبخة جهلٌ ، وحملُ الصّعب المسنّ على الرِّياضة عناء .

القائدُ المشفق حسنُ المنطق . العناء المُعْيِى تطبع من لا طَبع له . الداء العَياء رُعونة مَوْلودة . الجُرح الدوىّ امرأة السَّوْء . الحِمْل الثقيل الغَضب .

وقال : ثلاثة أشياء حَسنة فى ثلاثة مواضع : المُواساة عند الجُوع ، والصِّدْق فى اللقاء ، والعَفْو فى الغَضب .

العاقل لا يَرجو ما يُعنَّف برجائه ، ولا يسأل ما يَخاف مَنْعَه ، ولا يَضْمن ما لا يثقُ بالقُدرة عليه .

ثلاث ليس معهن غُربة : حُسن الأدب ، وكفُّ الأذى ، واجتناب الرِّيب .

وقال : ثمان خصال من طبائع الجُهّال : الغضبُ فى غير شىء ، والعطاء فى غير حقّ ، وإتعاب البدن فى الباطل ، وقلّة معرفة الرجل بصديقه من عدوّه ، ووَضْعه السرّ فى غير أهله ، وثِقته بمن لم يُجرّ به ، وحُسن ظنّه بمن لا عَقل له ولا وفاء ، وكثرةُ الكلام من غير نفع .

وقال : مَن ظَلم من المُلوك فقد خرج من كَرم المُلوك والحرّية وصار إلى دناءة الشّره والمعْصية ، وتَشبّه بالعبيد والرعيّة .

---

(١) ما أقرب هذا من الحديث الشريف : « أربع إذا كن فيك فلا يضرك ما فاتك من الدنيا : صدق حديث وحفظ أمانة وحسن خليقة وعفة فى طعمة » .

(٢) فى الأصل : « قبل » .

إذا ذَهب الوفاء نَزل البلاء ؛ وإذا مات الاعتصام عاش الانتقام ؛ وإذا ظهرت الخيانات مُحِقت البَركات .

الهزل آفةُ الجدّ . الكذبُ عدوّ الصدق . الجَوْر مُفسد العدل .

وإذا استعمل الملكُ الهزلَ ذهبت هيبته ، وإذا استصحب الكذابَ استُخفّ به ، وإذا أظهر الجَوْر فسد سلطانه .

الحزمُ انتهاز الفُرصة عند القُدرة ، وتركُ التوانى فيما يُخاف عليه الفوت .

وقال : لاتتمّ الرياسةُ إلا بحُسن السياسة ، ومَن طلبها صَبر على مَضضها باحتمال المُؤَن .

تحت السُّودد بالأفضال تَعْظم الأخطار ، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال .

إذا كان الرأىُ عند من لايُقبل منه ، والسِّلاح عند من لا يَنفعه ، ضاعت الأُمور .

على الملك أن يعمل بخصال ثلاث : تأخير العُقوبة عند سُلطان الغضب ، وتَعجيل مُكافأة المحسن ، والأناة فيما لا يخاف فَوته ؛ فإنّ له فى تأخير العقوبة إمكانَ العفو ، وفى تعجيل المُكافأة بالإحسان المُسارعةَ بالطاعة من الرعيّة ، وفى الأناة انفساحَ الرأى وإيضاح الصواب .

الحازم فيما أشكل عليه من الرأى بمنزلة من أضلّ جوهرةً فجمع ما حول مَسقطها من التراب فنَخله حتى وجدها ، كذلك الحازم يَجمع أصناف الرأى فى الامر المُشكل ثم يُخلّصه ويُسقط بعضه حتى يَحصل منه الرأى الحاصل .

وقال : لا ضَيعةَ مع حزم ، ولا سَرف مع عجز .

الحزم مَظنه النُّجح ، والعَجز يورث الحِرمان ، والضَّعة تُورث الذلّ .

أربع خصال تَقْبُح بالمُلوك والعظماء والأشراف : مجالسُ النساء ، والصّبيان ، ومشاورتهم ، وتركُ ما يحتاج إليه من الأُمور فيما يعمله بيده ويُحضره بنفسه .

لا يكون المِلكُ ملكاً حتى يُؤكل من غَرْسه ، ويُلقّح من طُروده (١) ، ويُلبس من طرازه ، ويُركب من نتاجه .

---

(١) الطرود : فراخ النحل ؛ الواحد : طرد . والعبارة فى الأصل : « وينكح من طراده » . وقد تكون فيما أثبتنا أقرب إلى الصواب .

إحكام الأمور بالتّدبير ، والتدبيرُ بالمَشورة ،والمشورة بالوُزراء الناصحين المشتدين بالرأى.

أُستظهر على مَن دونك بالفَضل ، وعلى مَن فوقك بالإجلال ، وعلى نُظرائك بالإنصاف ، تأخذْ بأزمّة التّدبير .

وقال : يجب على العاقل من حقّ الله تعالى التعظيمُ ، ومن حقّ السلطان الطاعةُ والنصيحة ، ومن حقّه على نفسه الاجتهادُ فى الخيرات واُجتنابُ السيآت ، ومن حق الخُلطاء الودادُ والمعونة ، ومن حق العامّة كفُّ الأذى وبَذل الندى وحسنُ المعاشرة .

لا يكمل الرجلُ إلا بأربع : قديم فى شَرف ، وحديث فى نَسب ، وإعطاء عند مال ، وصِدْق عند بأس .

من لم يُبطره الغنى ، ولم يَستكنّ عند الفاقة ، ولم تَهدّه المصائب ، ولم يأمن الدوائر ، ولم يَنس العواقب ، فذلك الرجلُ الكامل .

الكمال فى ثلاثة : الفِقه فى الدِّين ، والصبرُ على المصائب ، وحُسن التّقدير فى المعيشة .

يُستدلّ على تقوى المرء بثلاث : حسنُ التوكل فيما لم يَنل ، وحُسن الرضا بما قد نال ، وحُسن الصبر على ما قد فات .

وقال : ذِرْوة الإيمان على أربع خصال : الصبرُ على الحُكم ، والرِّضا بالقَضاء ، والإخلاصُ فى التوكل ، والاُستسلامُ للربّ سبحانه .

ليس للصحّة عِوَض ، ولا للرِّضى بَدل ، ولا للنَّفس خلف ، ومَن كان مطيته الليل والنهار فإنه يُسار به وإن لم يَسرْ .

مَن جمع السخاء والحياء فقد اُستجاد الإزار والرِّداء .

مَن لم يُبالِ بالشِّكاية فقد عُرف بالدناءة .

أربعة أشياء القليلُ منها كثير : المرضُ والدين والنارُ والعداوة .

مَن جهل قدرَ نفسه فهو بقَدر غيره أجهل . مَن أنِف من عمل نفسه اُضطُر إلى عمل غيره . من اُستنكف من أبويه انتفى من الرُّشد . مَن لم يتّضع عند نفسه لم يَرتفع عند غيره .

وقال : ابنَ آدم ، اذكر مع كُل نعمة زوالهَا ، ومع كُل بليّة كَشْفَها ؛ فإن ذلك أبقى للنعمة ، وأسلم من البَطر ، وأقرب من الفرح .

إذا لم يكن العدلُ غالباً على الجَوْر لم تزل تَحدث ألوانُ البلاء والآفات . وليس شيء لتغيير النِّعمة وتعجيل النِّقمة أقربُ من الإقامة على الظلم .

الأملُ قاطع عن كُل ضر ، والطمعُ مانع من كل خَوْف ، والصبرُ حافز إلى الظفر ، والنفس داعيةٌ إلى كل شر .

وقال : باُستصلاح المعاش يَصلح أمر العباد ، وبصدْق التوكّل ، ويُستحق الرزق ، وبإخلاص العمل يُستحق الجزاء ، وبسلامة الصدر تتأكّد المودّة فى القلب ، وبالكفّ عن المحارم يُنال رضى الرب عزّ وجلّ ، وبالحكمة يُكشف غطاء العِلم ، ومع الرضا بالقضاء يَطيب العيش ، وبالعُقول تُنال ذِروة الأمور ، وعند نزول البلاء تظهر فضائل الإنسان ، وعند طول الغيبة تظهر مُواساة الإخوان ، وعند الحَيْرة يُستشف عقل الرجل ، وبالأسفار تُختبر الأخلاق ، ومع ضيق اليد يَبين السخاء ، وفى الغضب يُعرف صِدْق الرجل ، وبالإيثار على النَّفس تُملك الرِّقاب ، وبالأدب يُفهم العِلم .

وقال : بتَرْك الخطايا يَسلم المؤمنُ من العُيوب ، وبالزُّهد تُفهم الحكمة ، وبالتَّوفيق تُحرز الأعمال ، وعند الغايات تَظهر قُوى العزائم ، وبالصاحب الصَّدْق يُتقوّى على الأمور ، وبمُلاقاة الإخوان يكون ازدياد المودّات ، ومع الزُّهد فى الدنيا تثبت المُواخاة فى الله عزّ وجل ، ومن الوفاء دوامُ المُواصلة ، ومن قَبول رُشد العالِم ركوبُ مطيّة العلم ، ومن استقامة صُحبة الأخيار اُجتنابُ صُحبة الأشرار ، ومن الغَرر ركوبُ البحر ، ومن غنى النَّفس لزومُ القناعة ، ومن سُلطان اليقين التجلّد على الشدّة ، ومن الدُّخول فى مكامِن الصِّدق الوقوعُ على مالا يَعرفه العوامُّ ، ومن حُب الصّحة الاُنقطاع عن الشهوات ، ومن خَوف النّار الانصرافُ عن السيآت ، ومن طَلب الفضول الوقوعُ فى البلاء .

وقال : من لم يجد للإساءة إليه مَضضا لم يجد للإحسان إليه مَوقعا .

قطيعةُ الجاهل تعدل صِلَة العاقل . الحسود لا يسود . مُنازع الحق مخصوم . أولى الناس بالفَضل أعودهم بفضله . أعونُ الأشياء على عقل العاقل حسنُ التدبير .

وقال : العِلْم قائدٌ، والعَمل سائق ، والنَّفس حرون . فإذا كان القائد لا سائقَ له تلكأت ، و إذا كان السائقُ بلا قائد عَدلت بمينا وشمالا ، و إذا كان لها قائد وسائق أتت طوعاً وكرهاً .

وقال : العِلْم يُرشدك ، وترْكُ ادعائه يَنفى عنك الحسد ، والشيطانُ عدوك فلا تتخذه صديقك ، والمنطقُ يَبلغ بك حاجتك ، والصمتُ يَكْسبك المحبة ، وأنت فى الأُسماع أكثرُ فائدةً من النطق . وأحسن الأدب أن لا يفخر بأدبه ، ولا يُظهر القُدرة على من لا قدرةَ له عليه ، ولا يَنى فى العلم إذا طلبه .

وقال : ثلاثة ضُروب لا يَستوحشون فى غُربة ولا يُقصّر بهم عن مَكرمة : الشجاع حيثما توجّه ، فإن بالناس حاجةً إلى شجاعته وبأسه ؛ والعالم ، فإنّ بالناس حاجة إلى علمه وفهمه ؛ والحُلوُ اللّسان الظاهر البيان ، فإن عند الناس تجوز كلمتُه بحلاوة لسانه ولِين كلامه .

وقال : إذا لم تُعْطوا فى أنفسكم رباطَة الجأش وجُرأة الصّدر فلا يفوتنكم العِلْم وقراءة الكُتب ، فإنه أدبٌ وعلم قد قَيّد لكم ما مضى ، تزدادون به عقلاً ومهابةً وفهما ، فقد قيل : ما الذى يُحتاج إليه ولا يُستغنى عنه ؟ قال : هو الذى إذا قُصِّر فيه كان ذلك ضررا . وحَسْب العاقل معرفةً بالدنيا وشرُورها بكاء الطفل ساعةَ ولادته ، و إلا فما يُبكيه وهى أرغد مما كان فيه(١) .

إذا صلح صِنفان صلح الناسُ كلهم : العُلماء والسُّلطان ، والعالِم أجل الأشياء ، تُدرك به وهو لا يدرك بالأشياء .

(١) زيد على الأصل البيتان الآتيان ، كما زيد قبلهما هذا التنبيه :
« ليست هذه الأبيات من الكتاب وإنما أضافها من استجاد هذا المعنى » . والبيتان هما « قال ابن الرومى :

لما توزن الدنيا به من شرورها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأفسح مما كان فيه وأرغد »

من أستحيا حقّ الحياء فليحفظ الرأسَ وما حوى ، والبطن وما وَعى ، وليذكر الموتَ والبلاء ، وليترك فضل زينة الدنيا .

من رُزق أربعاً لم يحرم أربعا : من رُزق الشكر لم يحرم الزِّيادة ، ومن رُزق الاستغفار لم يحرم المَغفرة ، ومن رُزق الدُّعاء لم يُحرم الإجابة ، ومن رُزق التوبةَ لم يُحرم القبول .

وقال : اجعل الحِلْم عُدَّة للسّفيه ، وجُنة من أبتهاج الحاسد بمَخازيك ، فإنك لم تُقابل سفيهاً بالإعراض عنه والاُستخفاف بفِعله إلا أذللته فى نفسه وسلّطت عليه الانتصار .

قال حكيم : يَنبغى أن يُكثِر الإنسانُ المُقابسة ويَنْتفع بالتّجارب ، فإذا أصابه شىء يَكرهه حَذِره وأشباهَه وقاس بعضَه على بعض . وينبغى أن يَعلم أنّ لكل إنسان سعياً ، فمن كان سعيُه لدنياه فحسابُه عليه ، ومن كان سعيُه لآخرته كان حسابُه له . وينبغى إذا التبس عليه أمرٌ أن لا يُلحّ فيه ولا يَحرص عليه حتى يَسْتيقن الصوابَ منه ثم يتقدّم على بَصيرة . وينبغى أن يكون للأمر عنده غايةٌ ينتهى إليها ؛ فإنه من أجرى فرسه إلى غير نهاية أهلَكَ دابّته وأعيا نفْسه ولم يبلغ شيئا . وينبغى له ألاّ ييأس مما لا يُوجد ، فالرزقُ ربما أتى منْ ليس يطلبه ، واُمتنع ممن يطلبه ، كمثل الرجل الذى قيل إنه أصابه فقر شديد حتى إنه لم يجد مايُوارى به عورته ، فقعد فى بَيته متفكّرا فغلبه النومُ فنام ، فدخل عليه سارق ، فدار فى البيت فلم يَجد شيئا ورأى فى جَرة دقيقا ، فألقى عن عاتقه مِلحفة جديدة وبَسطها وأخذ الجرّة يُفرغها عليها ، وانتبه الفقير فرآه ، فقام إليه بعصا كانت إلى جانبه ، فترك اللص المِلحفة ومضى ، فأخذها الرجل وانتفع بها .

وقال : إنّ الأعمالَ لا يُستعان عليها إلا بالصَّبر ، ولا يتمّ الصبرُ إلا بالعَقْل ، وإنما يتمّ العقل مع التَّجربة ، ويحفظه ويَجمعه الاُجتهاد والتقدم .

وعَقل الرجل يَستبين فى ثمانى خِصال : الأولى الرِّفق واللطف ، والثانية حِفظ الرّجل لنَفسه ومعرفته بها ، والثالثة طاعةُ الملوك والتحرّى لمَرضاتهم ، والرابعة مَعرفة الرجل موضع سرِّه وكيف ينبغى أن يُطْلع عليه صديقَه ، والخامسة أن يكون على أبواب

المُلوك أديباً حَمولا ملقا ، والسادسة أن يكون لسرِّه وسرّ غيره حافظاً ، والسابعة أن يكون على لسانه قادراً مُحتاطا مُقسطا ، والثامنة أن يكون إذا كان فى محفل لا يُجيب عما لا يسأل عنه ، ولا يقول ما لا يَسْتيقن ، ولا يُظهر ما يَندم عليه .

وقال : إنّ صاحب الدُّنيا يَطلب ثلاثة أمور لا يُدركها إلا بأربعة أشياء ؛ أما الثلاثة التى يطلب : فالسَّعة فى المَعيشة ، والمنزلة فى الناس ، والزّاد للآخرة ؛ وأما الأربعة التى يُحتاج إليها لدرك الثلاثة ، فاكتساب المال من أحسن وَجه ، ثم القيام بحُسن التدبير على ما اكتسبه منه ، ثم التثمير ، ثم الإنفاق له فيما يُصلح المعيشة ورضى الأهل والإخوان ويعود فى الآخرة نفعُه . فمن أضاع شيئاً من هذه الخِلال الأربع لم يُدْرك ما أراد ، فإنْ هو لم يَكتسب لم يكن له ما يَعيش به ، وإن كان ذا مال واكتساب ثم لم يُحسن القيام عليه أوْشك أن يَفْنى أو يبقى بغير مال ، وإن هو أنفقه ولم يُثمِّره لم تمنعه قلة إنفاقه من سُرعة ذهابه ، كالكحل الذى لا يُؤخذ منه إلا مثل الغُبار وهو مع ذلك سَريع النَّفاد ؛ وإن هو اكتسب وأصلح وثَمّر ثم أمْسك عن الإنفاق فى أبوابه ومَواضعه كان ممن يُعد فقيرا ليس له مال ، ثم لا يَمنع ذلك ما له أن يفارقه ويَذهب حيث لا يُدرك ، كحبس الماء الذى لا تَزال المياه تنصبّ فيه ، فإذا لم يكن له مَخرج ومَفيض يخرج منه بالقدر الذى يَنبغى تحلّب وسال من نواحى كثيرة ؛ وربما انبثق الشق العظيمُ فذهب الماء ضياعا .

وقال : ليس كُل مَن يدنو من الملوك إنما يدنو لبَطنه ؛ فإنّ البَطن قد تَشبع بكل مكان ، ولكنه يلتمس مسرّة الصديق ومَساءة العدوّ ، إلا القليلى المُروءة من الناس فإنهم يرضون بالقَليل ويَفرحون ، كالكلب الذى يُصيب عظما يابساً فيفرح به . وأما أهلُ المروءة والفضل فلا يُغنيهم القليل ولا يَفرحون به دون أن تَسمُوَ هِمَمُهم إلى ما هم له أهل، كالأسد الذى يُصيب الأرنب فإذا رأى العَيْر ترك الأرنب . ومَن عاش غير خامل المَنزلة ذا فضل على نفسه وعلى أصحابه ، فهو وإن قَلّ عمره طويل ، ومن كان عيشه فى وحدة وضيق وقلة خير على نفسه وعلى الناس فهو وإن طال عُمره قصيرُ العمر ؛ فإنه يقال : البائس مَن طال عمره فى ضُرّ وقلّة .

وقيل : ليُعَدَّ من البهائم من لم تكن هِمّته إلا بطْنه وفرْجه .

وقال : إن السلطان لايتوخّى بكرامته أفضلَ من بحَضْرته ، ولـكنه يُؤثر بذلك مَن دنا منه . ومثله فى ذلك كمثل الـكَرْم الذى لا يتعلّق بأكرم الشجر ولـكن بما دنا منه .

وقيل : لايواظب أحد على باب السُّلطان فيُلقِى عنه الأنَفة ، ويَحتمل الأذى ، ويَكْظم الغيظ ، ويرفق بالناس ، إلا خَلَص إلى حاجته .

وقال : أمور كثيرة لا يجترئ عليها إلا أهوج ، ولا يَسلم منها إلا قليل : صُحبة السلطان ، وأئتمان النّساء على الأسرار ، وشُرب السّم للتّجربة ، ورُكوب البَحر .

وشُبه السُّلطان بالجَبل الصَّعب الذى فيه الثّمار الطيّبة ، وهو مكان السّباع الضارية والحيّات المهلـكة ، فالأرتقاء إليه صَعب والمُقام فيه أصعب .

وقال : أعمال ثلاثة لاتُستطاع إلا بمَعرفة وأرتفاع همة وعِظَم خطر ، منها : عملُ السلطان ، وتجارة البَحر ، ومُناجزة العدو .

وقال : الفاضلُ المروءة لا ينبغى له أن يُرى إلا فى مَوْطنين : إما مع الملوك مُـكَرَّما ، وإما مع النّساك مُتبتِّلا ، كالفيل الذى بهاؤه وجَماله [فى أن يُرى] إما مَركبا للملوك وإما وحشيّا فى البرّية .

وقال : أبواب الملوك ربما احتيج فيها إلى مَن لا نَباهة له ، ولا تَصْغر منزلةُ أحد عن أن يكون عنده مَنْفعة ؛ فإنّ العُود المَطروح ربما أُنتفع به المُنتفع يَحُك به أُذنه أو يتخلّل به ، والإنسان العالم بالضُّر والنفع أحرى أن يُنتفع به .

وقال : إنَّ السُّلطان لا يُقرِّب الرجال لقُرب آبائهم ، ولا يُباعدهم لبُعدهم ، ولـكن يَنظر إلى ما عند كلّ رجل منهم وما يَنْبغى له ، فإنه لا شىء أقربُ إلى الرجل من جَسده ، فمِن جَسده ما يَدْوَى عليه حتى يُؤذيه فلا يَدفع ذلك عنه إلا الدواء المجلوب من البُعد ، كالجُرذ فى البيت مُجاور ، فمن أجل إضراره أُبعد ونُفى ، والبازى وَحشىّ غريب ، فلما صار نافعاً اتُّخذ واقتُنى وقُرِّب .

وقال : إنما يُؤتى السُّلطان من قِبل ستّ خِلال : الحِرمان والفِتنة والهوى والفظاظة والزمان والخُرق ؛ فأما الحرمان ، أن يحرم الإخوان والنُّصحاء والساسة من أهل الرأى والنَّجدة والأمانة فيَفْقد بعض مَن هو كذلك ؛ وأما الفتنة ، فوُقوع الحرب ؛ وأما الهوى ، فالغَرام بالنِّساء والحديث والشَّراب والصَّيد ، وما أشبه ذلك ؛ وأما الفظاظة ، فإفْراط الشِّدة حتى يَجمح اللِّسان بالشتم واليدُ بالبَطْش فى غير موضعه ؛ وأما الزّمان ، فهو ما يُصيب الناسَ من السِّنين والمَوَتان ونَقْص الثمرات والغَرق ، وما أشبه ذلك ؛ وأما الخُرق ، فإعمالُ الشدة فى مَوضع اللِّين ، واللِّين فى موضع الشِّدة .

وقال : مَن كَتم السلطان نصيحته والأطباءَ عِلّته والإخوانَ رأيَه فقد خان نفسه .

وقال: إذا عَرف الملكُ مِن الرجل أنّه قد ساواه فى الرّأى والمَنزلة والهيبة والمال والتَّبع فَليصرعه ، فإنه إنْ لم يَفعل ذلك كان هو المَصروع .

وقال : الرجالُ ثلاثة : حازمان وعاجز ، فأحد الحازمين من إذا نَزل به البلاء لم يَدْهش ولم يَذْهب قلبهُ ولا عقلهُ ولم يَعْى برأيه وحِيلته ومَكيدته التى يَرجو بها المَخرجَ ؛ وأحزمُ منه من عَرف الأمرَ قبل وُقوعه فيحتال له لئلا يُبتلى به ، ويَحْسم الداء قَبل حُدوثه ؛ والعاجزُ لا يزال متردِّدًا حائرا لا يهتم بالأمر قبل نُزوله ، ولا إذا نزل به ، إلى أن يهلك .

وقال : من الْتمس الرُّخص من الإخوان عند المُشاورة ، ومِن الأطباء عند المرض ، ومن الفُقهاء عند الشُّبهة ، أخطأ الرأى وزاد فى مرضه واحتمل الوِزْر .

وقال : من لم يَرْض من دُنياه بالكَفاف الذى يُغنيه ، وطَمحت عينهُ إلى مافوق ذلك ، ولم يَنظر إلى مايتخوّف منه ، كان كالذُّباب الذى لا يَرْضى بالشَّجر ولا بالرَّياحين حتى يطلب الماء الذى يسيل من أُذن الفِيل ، فيَضْربه بأذنه فيُهلكه .

وقال : إنّ خير السُّلطان من أَشبه النَّسر حوله الجِيف لا مَن أشبه الجيفةَ حولها النُّسور .

وقال : فى الناس مَن هو يُحسن القولَ ولا يُحسن العَمل ، ولا خير فيه ؛ فإنه يقال : لا خيرَ فى القول إلا مع الفِعل ، ولا فى المَنظر إلى مع المَخبر ، ولا فى المال إلا مع الجُود ،

ولا فى الصِّدق إلا مع الوَفاء ، ولا فى العفّة إلا مع الوَرَع ، ولا فى الصَّدقة إلا مع النيّة ، ولا فى الحياة إلا مع الصحّة ، ولا فى السعة إلا مع السرور .

وقال : إنّ السُّلطان إذا كان صالحاً وكان وُزراؤه وزراءَ سَوْء امتنع خيرُه من الناس ، فلا يَسمع مِن أحدٍ نصيحة . ومَثَله كمَثل الماء الصافى العَذْب الذى فيه التماسيحُ فلا يَستطيع أحدٌ أن يَدْخله ، وإن كان سابحا وإلى الماء محتاجا . وإنما حِلْيَةُ الملوك وزينتهم وزراءهم ونُصّاحهم .

وقال : لا تزال العشيرة فى سعادة مُستقيماً أمرُها ، مجتمعًا شملُها ، ما لم ينشأ فيهم ناسُ سَوْء . ولا تزال المودّة ثابتةً عند أهلها ما لم يدخلها الهَمْز واللَّمز ، وما لم يدخل فيها ذو لسانين .

وقال : أصحب العاقلَ الحسنَ الخُلق واسترسل إليه ، وإيّاك وفراقَه ؛ ولا عليك أن تَصحب ذا العقل وإن كان غيرَ محمود الخليقة والكَرَم ، فاحترس من سيّئ أخلاقه وانتفع بعقله ؛ ولا تذمّ مُواصلة الكريم وإن [لم] تحمد عقله ، ولكن انتفع بكَرَمه وانفعه بعقلك ؛ وفِرَّ كلَّ الفِرار من اللّئيم الأحمق .

وقال : السببُ الذى يُدرك به العاجز حاجتَه هو الذى يَحول بين الحازم وطِلبته .

وقال : لا يَعْدَم من لا يُريد نَفْعك ومعونتك ، إذا نزلتْ بك نازلة شدّة لأمحة وطول عناء ، أن يجعل ذلك سبباً لإبطال حقّك عليه ، ودَفع معونتك إيّاه عنه .

وقال : ليس صُلح العدوّ موثوقا به ؛ فإنّ الماء إنْ هو أُسخن ثم أُطيل إسخانُه ليس يَمنعه شدّة حرّه من إطفائه النار ، وإنما صاحبُ العدو المُصالح له كصاحب الحيّة التى يَحملها فى كمه وليس يَدرى متى تَهيج عليه فتَلْدغه . وليس يَنْبغى للعاقل أن يستأنس إلى العدوَ على حال من الحال .

وقال : إن المودّة بين الصالحين بطىء انقطاعُها سريع اتصالُها ، كالكوز من الذّهب بطىء الانكسار ، سريع الإصلاح والإعادة إن أصابه كسر أو صَدْع ؛ والمودة بين الأشرار

سريع انقطاعها بطىء اتصالها ، كالكوز الفخار يكسره أدنى ما يَمُر به ثم لا وَصل له أبدا . وذو الكرم يودّ الكريمَ على لقاءة واحدة ويوم واحد .

وقال : إنّ من علامة الصديق أن يكون لصديقه وصديق صديقه مُحبّا ، ولعدوّه وعدو صديقه عدوّا .

وقال التّبعُ والأعوانُ والأهلُ والصديقُ مع المال ، والمُروءة لا يُظهرها إلا المال ؛ لأنّ الفقيرَ إذا أراد أنْ يتناول الأمرَ قَعد بِه الفقرُ عمّا تسمو إليه همّته فانقطع عن بلوغ غايته ، كما تنقطع أمطار الصيف فى الأودية فلا تصل إلى بحر ولا نهر حتى تَنْشفها الريح والأرض ؛ لأنه لا مادة لها تبلغ بها .

وقال[1] : من لا إخوانَ له لا أهل له ، ومن لا ولدَ له لا ذِكر له ، ومن لا عَقل له لا دُنيا له ولا آخرةَ له ، ومن لا مال له لا شىء له ؛ لأنّ الرجل إذا أصابته الحاجةُ رفضه إخوانُه وهان على ذوى قرابته ، وربما اضطرته الحاجةُ وما يحتاج إليه لنفسه وعياله إلى ما يغرّر فيه بدينه ، فعسى أنْ يُهلِك آخرته ، فإذا هو قد خَسِر الدنيا والآخرة .

فلا شىء أشدُّ من الفقر ، وهو رأس كُل بلاء ، وداعٍ لصاحبه إلى مَقْت الناس ، وهو مَسْلبة للعقل ، ومَدْهشة للفِطنة ، ومَنقصة للمروءة ، ومَذهبة للعلم والأدب ، ومَظِنّة للتُّهَمة ، ومَقطعة للحياء ، ومَجمعة للبلاء .

ومن انقطع حياؤه وذَهب سروره مُقت ، ومن مُقت أُوذى ، ومن أوذى حَزن ، ومن حَزِن فقد عقلَه وفَهْمَه وحفْظَه ، ومن أصيب فى فَهمه وحِفْظه وعَقله كان أكثرُ قوله وعَمله عليه لا له .

والرجلُ إذا افتقر اتَّهمه مَن كان له مُؤتمنا ، وأساء به الظنَّ من كان ظنُّه به حَسنا ، فإنْ أذنب غيرُه ظنُّوه به وصار للتُّهمة مَوضعا .

وليست من خَـلة تكون للغنى مَدْحًا إلى وهى للفقير عيبا ، فإن كان شُجاعا قيل

(١) انظر (ص ٣٤) من هذا الكتاب . فبين الكلام هنا وهناك فى الأدب الصغير مشابهة .

أهوج ، وإن كان وقُورا سُمِّى بليدا ، وإن كان حليماً قيل دنيًّا ، وإن كان صموتا سُمِّى عييًّا ، وإن كان جوادا قيل مُبذِّرا .

فالموتُ أهون من الفاقة التى تضطر صاحبَها إلى المسألة للناس ، ثم لاسيما مسألةَ الأشحّاء اللّؤماء ؛ فإن الكريم لو كُلِّف أن يُدخل يدَه فى فم التّنين فيُخرج منه سمًّا يبتلعه كان ذلك أخفَّ عليه من مسألة اللئيم البخيل .

وقد قيل من اُبتُلى بمرض فى جسده لا يُفارقه ، وبفراق الأحبّة والإخوان ، وبالغُربة حيث لايعرف مَبيتا ولا مَقيلا ولا يَرجو إيابا ، وبفاقة تضطره إلى المَسألة ، فالحياة له موتٌ والموت له حياة .

وربما كره الرجل المسألةَ وبه الحاجةُ ، فتحمله الحاجةُ على الخيانة والغَصْب ، وهما شرٌّ من التى رَغب عنها ، فإن كان الخَرس بلاءً فهو خير من البيان بالكذب ، والعِىُّ خيرٌ من الهذر ، والعنّين خير من العاهر ، والفاقة خيرٌ من السّعة من الحرام ، والحِرص والشدّة يُؤديان صاحبَهما إلى البلاء . والحالُ مختلفة بأهل السّخاء والبخل اُختلافا شديداً متفاوتا ، وركوب الأهوال وتَجشُّم الأخطار والأسفار البعيدة على الحريص أهونُ من بَسْط اليد إلى قَبض المال على الغنىّ ، والرِّضى والقُنوع هما جماع الغِنى .

وقد قالت العُلماء لاعقلَ كالتّدبير ، ولا وَرَع كالكفّ ، ولا حَسبَ كحُسن الخُلق ، ولا غنى كالرِّضا . وأحقُّ ما صُبر عليه ما ليس إلى تَغْييره سَبيل . وكان أفضلُ البِرّ الرّحمة ، ورأسُ المودّة الاُسترسال . وجِماع العقل معرفةَ ما يكون مما لا يكون ، وطِيب النفس حُسنَ الانصراف عما لا سبيلَ إليه .

وقال : أشياء لا ثَباتَ لها ولا دوامَ ولا بقاء : ظِلُّ الغمام ، وخُلّة الأشرار ، وعِشق النّساء ، والثناء الكاذب ، والمال الكثير ، والسلطان الغَشوم الجائر .

وليس يُفرح العاقلَ كثرةُ المال ولا تُحزنه قِلّته ، ولكنّ مالَه الذى يُفرحه ما قدّم من صالح .

والعاقل واثقٌ أنه لا يُسلب خيرًا عَمِله ، ولا يؤاخذ بذنب لم يَعْمله .

والعاقل حقيق أن لا يُهمل أمرَ آخرته والتزوّد لها ، فإنّ الموتَ يأتيه بغتةً ليس بينه و بين أحد وقتٌ معلوم .

وقال : إن الكريم إذا عثر لم يَنْتعش إلا بالكرام ، كالفِيل إذا وَحِل لم تَستخرجه إلا الفيلة .

وقال : يُختبر ذو البأس عند اللِّقاء ، وذو الأمانة عند الأخذ والعطاء ، والأهلُ والولد عند الفاقة ، والإخوانُ عند النّوائب

وقال : إنه من لم يعرف قدرَ نفسه وقدر عدوّه فقاتَل من لا يَقوى عليه فعلى نفسه سَعى ، ولعدوّه أعان ؛ مع أنّ العاقل لا يَغفل عن أمر عدوّه ، فإنه إن فَعل ذلك اُغترّ ، ومن اغترّ عَطِب . والحازم لا يأمن عدوّه على حال تخوّفًا لمواثبته إن قرُب منه ، ومكيدته إن بَعُد عنه ، ولكمونه إن انكشف عنه ، ولاستطراده إن وَلّى عنه ، ولمكره إن رآه وحيدا . فأحزم الرِّجال وأكيسُهم من حَذِر عدوّه على كل حال ، وأعقلُهم من كَرِه القِتال ما وَجد عنه مَزْحلا ، لأنّ النفقةَ(١) عليه من الأنفس ، وغيره النفقة(٢) عليه من المال والقول والعمل .

وقال : إنّ أقسام الخير لم تُوجّه على الحسب ولا على الجمال ، ولكنها وُجِّهت للعاقل المُستمع بعقله وعَقل ذوى العُقول من نُصحائه .

وقال : إنما يُصيب الملك الظفرَ بإجالة الرأىَ ، والرأىَ بتكرار النظر وتَحْصين الأسرار . وإنما يظهر السرّ من المُستشير والمُستشار ، ومن قِبل الرُّسل ، أو قبل المُستمعين والناظرين فى مخارج الرأى ومواضع الآثار فى العمل ، أو من قِبل التشبيه والظّن . ومن حَصّن سرّه فله من تحصينه خَصلتان : إما الظفر بما يريد ، أو السلامة من العَيب والمَضرّة

---

(١) فى الأصل : « وعن التفقة » .
(٢) فى الأصل : « التفقة » .

إن أخطأه الظفر . ولا بُد لصاحب السرّ من مُستشار مأمون يُفضى إليه بسرّه ، ويعاونه على الظفر بحاجته ؛ فإنّ المُستشير ، وإنْ كان أفضلَ من المُستشار رأياً ، فإنه يزداد برأيه رأياً كما تزداد النارُ بالوَدك ضوءًا وقُوة . وعلى المستشير موافقة المُستشار على صواب ما يَرى والرِّفق به فى خطأ إن أتى به ، وتَقْليب الرَّأى فيما شكّا فيه وأشكل عليهما من أمرهما حتى يَستقيم لهما رأيُهما فيه بتعاونهما ، فإذا لم يكن المُستشير كذلك فهو على المُستشار عَيْلة ؛ ومثله فى ذلك مثلُ الذى يَرْمِى الحية ويُمسكها ، فإن هو لم يُحكِم الرمية ولم يَحترس فى مَسكها نَهشته وأهلكته .

وقال : إذا كان المَلِكُ مُحصِّنا للأسرار ، مُختبِرا الصالح الوُزراء ، مَهيبا فى نفس العامّة ، بعيدًا من أن يَعلم الناسُ ما فى نفسه ، مُكافيا بحُسن البلاء ، لا يَسلم منه ذو الجريمة ، ولا يخافه البرىء ، ويأمن به أهلُ السلامة ، [وإذا كان] مُقدِّرا لما يُنفق وما يفيد ، كان خليقاً لبقاء ما أنعم الله به عليه .

وقال : إنّ منزلة المال عند ذى اللُّب بمنزلة مدّ السيل ، ومنزلةَ النساء بمنزلة الأفاعى لا يُؤمن شرُّها ، ومنزلةَ الناس فيما يُحب لهم بمنزلة نفسه فيما يُحب لها من الخير ويَكره من الشر .

وقال : إن الفأس(١) يُقطع بها الشجر ثم ينبت ويعود ، والسيفَ يُجرح به الجرح الكبير ويُكسر به العظم ثم يَندمل ويُجبر ، والنُّصول تغيب فى الجوف ثم تُنزع وتستخرج . ولكلِّ حريقٍ مُطفِئ ، فيُطفِئُ النارَ الماء ، والسمَّ الدواء ، والحُزنَ الصبرُ ، والعشقَ الفُرقةُ ، ونارَ الحقد لا تخبو أبدا .

وقال : إن العاقل وإن كان واثقاً بقُوته ومَنَعته وفَضْله لم يَحمله ذلك على التعرُّض للعداوة . وإنّ أهلَ حُسن العمل وإن قَصّر بهم القولُ فى مُستقبل الأمر كان فضلُهم(٢)

(١) فى الأصل : « القوس » .
(٢) فى الأصل : « به القول » . « فضله »

عند العاقبة بيّنا ظاهرا . وإنّ أهلَ حُسن القوْل ، وإن أعجب الناسَ صفتهم وعاجلُ أمرهم وحلاوةُ منطقهم ، فإنّ عاقبة أمرهم تصير مذمّة وبُغضا .

وقال : إنّ العدوَّ الشديد لا يَرُد غضبَه وبأسَه إلا الخضوعُ له ، ألا ترون الحشيش إنما يَسلم من الرِّيح العاصف بلينه وأنثنائه[1] مع الرِّيح حيثُ مالت به .

وقال : من أستمكن من الأمر الجَسيم فأضاعه كان خليقاً أن لا يناله بعد . ومن التمس فُرصة عَمله وأمكنتْه الفرصةُ فأخّر العملَ فيها كان خليقاً أن يفوته العملُ ولا ترجع إليه الفُرصة . ومن وَجد عدوّه ضائعاً مُعوزا فلم يَسْترح منه أصابته الندامةُ حين يَقوى عدوّه ويستعدّ فلا يَقدر عليه .

وقال : إنّ السعيدَ من الرِّجال الذى تُحتضن[2] ابنتُه فى بيت غيره .

وقال : إنّ صاحبَ السُّلطان حقيقٌ أن يتحفّظ من كل شىء ، حتى إنه ليجب عليه أن يَحفظ سرّه من الماء الذى يَشرب ، ومن طَعامه وثيابه ، ودابّته التى يَركبها ، والسَّرج الذى يَركب عليه ، والأدوية التى يتناولها ، والطِّيب والرياحين والدُّهن ، وسائر الأشياء التى تُصيبه وتُقارب جسدَه ، ومنه الفَرْش ، والدِّثار الذى يتدثَّر به ، فضلا عن الأولياء والوُزراء ، إلا مَن لا يَستغنى عن مُناظرته فى سرّه بعد أن يُجرّبه ويَختبره ويختاره لموضع سرّه ، ويختبر[3] كتمانه وحفظه لما يُلقى إليه من أسراره مرّة بعد مرة ، حتى لا يَدخله شك فى الثقة[4] به . وإنه مما يجب عليه الإغراقُ فى الحَذر لئلا يَطمع أحدٌ من الناس فى النَّظر [إلى] مواضع الرأى ومواقع العمل .

وقال : قلما حَرِص رجل على النساء فلم يَفتضح . ومن ذا الذى بلغ جسيماً من الأمر فلم يَبْطر ؟ ومن ذا الذى أكثر من الطَّعام فلم يَسْقم ، ومن ذا الذى وَثق بمُشاورة الوُزراء فلم يَهْلك ؟

---

(١) فى الأصل : « وانبثاثه » .

(٢) فى الأصل : « تختص » .

(٣) فى الأصل : « ويسر » .

(٤) فى الأصل : « والتفقة » .

وكان يُقال : لا يَطْمعنّ ذو الكِبر فى الثناء الحَسن ، ولا الخبّ المكر فى كَثْرة الصّديق ، ولا السيّئ الأدب فى الشّرف ، ولا البخيل فى المُروءة وحُسن الذّكر ، ولا الحريص فى قِلّة الذّنوب ، ولا المُستهزئ بالناس فى صِدْق المَحبّة ، ولا من لا فقْه له فى القضاء ، ولا المُصرّ على الإساءة فى قَبول العُذر ، ولا المُغْتاب فى السلامة ، ولا الحسود فى راحة القَلب ، ولا المُكافئ على صغير الذّنوب فى السُّودد ، ولا القليل التّجربة المُعجب فى الرّياسة ، ولا المُستغنى برأيه فى صَواب الرّأى ، ولا المَلك المُختال المُتهاون بالأمر ذو الوزراء الجُهال فى ثبات مُلكه .

وقد قيل : إذا بلغت النارُ الحطبَ اليابسَ ، والوجعُ إذا بلغ الجاهل ، والغضبُ إذا بلغ من لا رَحمة له ، وعملُ التقى إذا بلغ الرأفةَ والمُروءة ، والجرأةُ إذا بلغت أهلَ الشجاعة ، ازداد كُلّه قوّة ونموا .

وقال : إنّ الرجل العاقلَ لو حَمل عدوّه على عُنقه لم يَشُقّ ذلك عليه إذا هو رجا أن يُصيب بعد ذلك رَوْحا وراحة ، وحَق عليه أن يُوطّن نفسه على الصبر .

وقال : أربعة أشياء لا يُستقل قليلها : النار ، والمرض ، والعدو ، والدين .

وقال : صَرعة اللّين بالمكر والرّفق والحِيل أبلغ وأشدّ استئصالا من صَرعة المُكابرة والمُواجهة والمُحاربة والمُبارزة ؛ فإنّ النار لا يزيد حَرّها وشِدّتها إذا أصابت الشجرةَ على أن تَحْرق فروعَها ويَبقى أصلها وما هو تحت الأرض ، والماء بلينه وبَرْده يستأصلها عما تحت الأرض .

وقال : إذا حاول رجلان إبطال أمر ظَفِر به أقواهما ، فإنِ اعتدلا فى القُوة فأجراهما ، فإن اعتدلا فى الجُرأة فأصوبهما تدبيرا ، فإن اعتدلا فى التدبير فأشدّهما اجتهادا ، فإن اعتدلا فى الاجتهاد فأسعدهما جدا .

وقال : إنّ العِلم وحُسن التّدبير أبلغ فى هَلاك العدوّ من النّجدة والمُحاربة ؛ لأنّ الرجل النّجد إذا اجتهد قتل عشرة من أعدائه ، والرجل العالم الحسن التدبير يُهلك بحيلته

وتَدبيره أهلَ العسكر الكبير الشديد الشوكة .

وقال : إن العالم البَصير بالعمل المُشاور فى أمره أهل النصيحة له من ذوى الرأى ، وإن ابتدأ أول أمره بالوَهن والتَّقصير والتوانى ، فإنّ عاقبة أمره صائرة إلى السُّرور والظَّفر . ومَن شاور أهلَ الجهالة والسَّفه وقِلّة البَصر بالأمور ؛ فإنه وإن أبتدأ عملَه بالصواب فإنّ عاقبة أمره صائرة به إلى الفسادِ والعَطب .

وقال : لا يجد السَّقيم لذَّة العَيش والطَّعام والنَّوم حتى يَبرأ ؛ ولا الحريص الشَّره الذى قد طَمِع فى شىء حتى يُنجز ذلك له ، ولا الرجل الذى قد ألحّ عليه عدوُّه فهو يخافه صباحًا ومساء حتى يَستريح منه .

ويقال : من أقلعت عنه الحُمّى استراح جسمُه ، ومن وُضع عنه الحِمْل الثقيلُ استراح بدنه ، ومن أمِن عدوّه ثَلِج صدرُه وبَرد قلبُه ، ومَن بلَغ من عدوّه حاجتَه سكنت نفسُه .

وقال : ينبغى الملوك أن تكون عقولهُم مُعينةً لهم على أمورهم وضَبْط مُلْكهم وسُلطانهم ؛ فإنه لا يُضبط المُلك إلا بالعقول الذكية الشديدة ؛ لأنّ المُلك خفيف الطّبيعة ، ثقيل الحمل ، سريع الأنتقال من أيدى الملوك إذا قصّروا فى ضبطه . وليس بعائد [إلى] من أنتقل عنه ؛ لأنه مَن عَجز عن حِفظه وهو فى يده فهو فى إعادته إليه أعجز .

وقال : ثلاثة يَزداد بها الإخاء : الزيارةُ فى الرجال ، والمُواكلة والمُشاربة ، ومَعونة[1] الأهل والحَشم .

وقال : يُستدلّ على جَودة الذهب بالنار ، وعلى قُوة الدواب بالأحمال ، وعلى أهل الأمانة بالأخذ والعطاء . ولا يُستدل على أقصى عِلْم النساء بشىء من الأشياء .

وقال : لا يغفلنّ العاقل عن ألتماس عِلْم ما فى نفس أهله وإخوانه وأقاربه وولده عند كُل حادث من الأمر فى كُل لحظة وكلمة وعند القيام والقعود وعلى كل حال ؛ فإنّ ذلك

(١) فى الأصل : « ومعرفة » .

كلّه يشهد على مافى القلوب . وقد قال[1] العلماء : إذا دخلت قلبُ الصديق من صديقه رِيبة فليأخذ بالحزم فى التحفّظ برفق ، فإنْ كان الذى ظنّ كما ظن ظَفِر بالحزم والأمن ولم يَضُرّه ولا صديقه ما كان من تحفظه وأستزابته فيما[2] ساء به ظنّه .

وقال : إنه ليس كل ما تأتى به المُلوك فى أمرها يُتكلّف علمه ، لأن الملوك من فضيلة الرّأى والنَّظر ما تَقصر[3] عنه أراء من هو دونهم من العامة .

وقال : كل آفة سببُها شىء من الأشياء فإنه لا يقوى عليها إلا بمثلها من خير وشر ، كالرجل الذى يَعْثر بالأرض وبها ينتعش وينهض .

وقال : إنّ الحكيم الركين إذا نَزل به البلاء لم يتفرّق عليه رأيُه ولم يَعْزُب عنه عقله على حال ، فإنما عقول ذوى الرأى كالبحر الذى لايدرك غَوْره[4] ، وليس البلاء ببالغ من ذى[5] الرأى والعقل مجهودا يهلك مِن عقله ورأيه إذا كان كاملاً ، ولا الرخاء ببالغٍ منه مبلغاً يُبطره ويُعْم عليه أمرَه .

وقال : ليس أحدٌ أبعدَ من الخير منزلةً من أثنين منزلتُهما واحدة وصفتهما مختلفة : أحدهما ، من لا يثق[6] بأحدٍ ، والآخر من لا يثق به أحد .

وقال : ينبغى للرجلين إذا نزل بهما شدّةٌ ، وإن كانا مُتباعدين فى المودّة ، أن يجتهد كلٌ واحد منهما فى مُعاونة صاحبه ويكونا كالسّفينة التى فى البحر والرُّكاب فيها ، إنما تخرج السفينة بالرُّكاب والرُّكاب بالسفينة ، وكل ذلك تأتى به المقادير .

وقال : إنّ الأصدقاء صديقان : راغب ومضطر ، وكلاهما يلتمس المنافع ويحترس من المضارّ ، فأما الراغب منهما فمُسترسل إليه مأمون على كل حال ؛ وأما المضطر إليه فإن له

(١) فى الأصل : « كان » .
(٢) فى الأصل : « واستبرائه ما » .
(٣) فى الأصل : « وفيما تقتضر » .
(٤) فى الأصل : « غدره » .
(٥) فى الأصل : « ذوى » .
(٦) فى الأصل : « لا يثق بأحد أحدهما » . وظاهر أن كلمة « أحدهما » مقمحة .

أحوالا يُسترسل إليه فيها وأحوالا يحترس منه فيها . ولايزال العاقلُ يرتهن بعض حاجته لبعض ما يتّقى ويخاف ؛ وليس التواصلُ من المتواصلين إلا لطلب عاجل النّفع أوما يُؤمّل .

وقال : ربّ عداوة باطنة ظاهرها صداقة ، فهى أشد ضرّا من العداوة الظاهرة ، وإنْ لم يحترس منها [الإنسان] وَقع موقع الرجل الذى يُمسك الحية يلعب بها ، فإنْ لم يحترس منها نهشتْه . وإنما يودّ الرجلُ صديقَه رجاءَ المنفعة ، ويُباعد عدوّه خوفاً من ضُره . فإذا رجا العاقلُ من عدوّه نفعاً أظهرَ له الصداقة ، وإذا خاف من الصديق ضرّا أظهر له العداوة ، أو لا يرى البهائم إنما تتبعها أولادُها رجاء غذائها ، فإذا انقطع ذلك انصرفت ، فذلك العاقل يتلوّن لإخوانه على اختلاف الأُمور وحالات الأصحاب ، فينشط تارة ويَسخط أُخرى ، ويتجلّد مرّة ويستكين أخرى . وربما قَطع الصديقُ عن صديقه صلتَه إياه فلم يُخَف شرُّه ، لأنّ أصل أمره لم يكن عداوة . فأمّا من كان أمرُ عداوة ، ثم أحدث صداقة لحاجة حملتْه على ذلك ، فإنه إذا ذهب الأمر الذى حَمله على ذلك تحوّلت صداقته عداوة ، وصار إلى يدىّ أمره ، كالماء الذى يسخن بالنار ، فإذا رُفع عن النار عاد باردا .

وقال : إن الضعيف المحترس من العدوّ القوى أحرى بالسلامة من القوىّ المغترّ بالعدوّ الضعيف . والعاقل يُصانع عـدوّه ويُظهر له المودّة ويُريه من نفسه الاسترسال إليه إذا لم يَجد من ذلك بُدًّا ، ويُعجِّل الانصراف عنه إذا صار عنه غنيّا .

وقال : إن صريع الاسترسال لا ينفك يستقيل[1] عثرته إذا كان يثق من نفسه بالوفاء ولم يكن صاحبه فى الثقة على مثل ما هو عليه .

وكان يقال : لا تؤثر على البعد من عدوّك شيئا ما استطعت ، فلا شىء أمثلُ من الحزم فى أمره .

وقال : إن الملوك لا عهدَ لهم ولا ذمام ، ولا صديق لهم ولا حميم ، ولا يَحبون أحداً ولا يُكرمونه إلا أن يكون لهم إليه حاجة ، فيقرّبونه عند ذلك ويكرمونه .

(١) فى الأصل : « لا يكاد يستقل » .

[١] بلسانه فاستطابه، فأقبل دائباً يتطعّمه ويلعقه، وشغل ذلك قلبه عن الحيلة فى أمره وأنسى ما هو فيه، فلم يزل ساهياً لاهياً حتى قطع الجرذانُ الغصنين، فوقع فى فم التّنين فهلك.

فالغُصنان هما الحياة والأمل، والجرذان الليل والنهار اللذان يقرضان فى عُمره، والبئر الدُّنيا المملوءة آفات. والحيّات الأربع الطبائع الأربع التى لا يدرى متى تهيج إحداهن عليه فتقتله، والتنّين الموت الذى مَصير الإنسان إليه، والعسلُ تشاغلُ الإنسان بالملاذ التى تشغله عن الاهتمام للآخرة. فانصرفت عن عمل الأشياء وكففت نفسى عن الضَّرب والغصب والقتل والسرقة والخيانة، وحصنت فرجى عن المُنكرات، وحفظتُ لسانى من الكذب والنمائم والغيبة والقذف والخناء والبهتان، وكل ما علمت أنّ غائلته مذمومة، والتمست من قلبى أن لا أتمنى لأحد سوءا، ولا أكذب بالبعث والعقاب والثواب، وزايلتُ الأشرار، ولزمتُ الصلحاء والأخيار جَهدى، ورأيتُ الصلاحَ ليس كمثله [شىء] إذا أعان الله تعالى ووفّق له ويسّر، ووجدته لا ينقص إذا ما أنفق منه، بل يزيد نموّاً، ولا يخلق على الاستعمال، بل يزداد جِدَّة وحسنا، ووجدتُه لا خوفَ على صاحبه من سُلطان يسلبه، ولا شىء من الآفات تدركه. ووجدت الرجلَ يَزهد فى حَلاوة يسيرة يجدها فى العاجلة، كالعسل فيه السمّ يلعقه فيستحليه، ثم يعمل السم فى بدنه فيُهلكه، فله حلاوة عاجلة، وفى آجله سمّ ناقع. وقلتُ: يا نفس، إياك والتسويفَ. واذكرى أن هذا الجسدَ رِخو ذو آفات، وأنه مملوء أخلاطاً فاسدة قذرة يجمعها أربعة أخلاط متعادية متغالبة يصدهن الحياة، والحياة فى شىء كالصنم المفصَّلة أعضاؤه، إذا ركبت الأعضاء ووضعت مواضعها جمعها مسمار واحد يمسك بعضها إلى بعض، فإذا أخذ المسمار تساقطت تلك الأعضاء.

---

(١) الكلام أول ساقط من الأصل. وهو كامل فى كليلة ودمنة (ص ٥٦ — ٥٨) إلا أن بينهما خلافا فى الألفاظ، وأوله كما هو فى كليلة ودمنه: « فالتمست للإنسان مثلا فإذا مثله مثل رجل نجا من خوف فيل هائج إلى بئر فتدلى فيها وتعلق بغصنين كانا على سمائها، فوقعت رجلاه على شىء فى طى البئر فاذا حيات أربع قد أخرجن رؤسهن من أجحارهن ثم نظر فاذا فى قاع البئر تنين فاتح فاه، منتظر ليقع فأخذه، فرفع بصره إلى الغصنين فاذا فى أصلهما جرذان أسود وأبيض وهما يقرضان الغصنين دائبين لا يفتران، فبينما هو فى النظر لأمره والاهتمام لنفسه إذ أنصر قريبا منه كوارة فيها عسل نحل فذاق العسل ».

يا نفس ، لا يحملك أقاربك وأهلك على جمع ما تهلكين فى جمعه تريدين بذلك صلتهم ورضاهم ، فإذا أنتِ كالدُّخنة الطيِّبة تحترق ويُذهب بريحها [إلى] من ينتفع به ، وكالشَّمعة تفنى وتذهب ويستضىء بها قوم آخرون .

يا نفس ، لا تغترّى بصُحبة أحبابك وأخلاّئك ، ولا تحرصى على ذلك كلّ الحرص ، فإن صُحبتهم على ما فيها من الشرور كثيرةُ الأذى والمُؤنات والأحزان ، ثم يكون عاقبة ذلك الفراق . يانفس ، لا تكونى كالمغرفة التى تُستعمل فى سُخونة المرق عند جدّتها وصحتها فإذا انكسرت صارت وقودا للنار . يانفس ، لا تغترّى بالغِنى والمنزلة التى لا تُبطر أهلها ؛ وإنّ صاحب ذاك لا يُبصر صغير ما يَستعظم حتى يُفارقه ، فيكون كشعر الرأس الذى يَخدُمه صاحبُه ويَفرح به ما دام على رأسه فإذا فارقه تَقَذَّره .

فصـــل

اختلف ثلاثة فى العقل والدولة والعافية ، فقال بعضُهم : العقل أفضل . وقال آخر : الدولة خير . وقال الثالث : العافية خير الأشياء كلّها . وكُل منهم أثنَى على ما فضّله وفضّل ما أنتصر له . فلما أنتهى بهم الخطابُ إلى غايته أتوا حكيماً فى عَصْرهم فاضلاً له فى الإصابة عجائب ، حتى إنه يتصور له فى خاطره الأشياء على صُور مختلفة ، فسألوه أن يَحكم بينهم ويُبيّن لهم الفاضل من المَفضول . فقال لهم : إنى فاعل ذلك . ففكّر فيما سألوه فتمثّل له العقلُ على صورة شابّ حسن اللَّون عليه ثياب فاخرة وزينة ظاهرة ، وكأنّ وجهه الشمس الطالعة ، ذات الأنوار الساطعة ، وهو جالس على قَعَدة[1] مُربّعة . ثم تصوّرت له الدولة فى صُورة شاب طُوال الجسم قوىّ البدن عَبْل الذّراعين متين الساعدين عظيم المَنكبين ، لا يُحدّ مدى قُدرته ولا يُوقف على غاية قوّته ، وفى بصره بعضُ الغشاوة ، وهو قاعد على كرسىّ مستدير مُتدحرج ، ثم تصوّرت له العافية فى صُورة أمرىء مصبغ الثياب ،

(١) القعدة : « الطنفسة » ويريد بها هنا الكرسى ، استئناسا بما سيأتى .

طيّب الريح ، كثير الزينة ، وهو جالس على عَجلة . فسأل الحكيم العقل وقال : ما هذا النور الذى عليك ؟ قال : هو العلم والبَصر . قال : فما هذه الزينة التى عليك ؟ قال : هى الوقار والتثبّت التى بها قوام العالم وتمام أُمور الدنيا وهى اللذة العلميّة التى عليها يجرى المتعلّمون . قال : فما هذا الكرسى المربّع الذى أنت قاعد عليه ؟ قال : هو لأنى إذا حَللتُ موضعاً لم أزُل عنه إلا أن أُزال . ثم سأل الدولة وقال : ما هذه القامة الطويلة والأَوصال الغليظة والمادة الثابتة فى الأحوال كلها ؟ قال : هو عِظم قوتى ، وشدّة صولتى وغَلبتى ، تفضل قوتى وقدرتى الكثير من الجند والعديد من الفرسان باليسير الضعيف من الأعوان . قال : فما هذه الغشاوة التى فى عينيك ؟ قال : لوقوعى إلى من لا يَستحقنى ومن يستحقنى ، وكونى فى غير أهلى مرّة وفى أهلى أخرى ، فصرتُ لذلك أعشى . قال : فما هذا الكرسىّ المُتدحرج الذى أنت عليه ؟ قال : قلّة لُبثى فى موضع واحد وثباتى ، وتحوّلى من قوم إلى قوم . ثم سأل العافية فقال : من أنت ؟ قالت : أنا العافية : قال : فما بالك أمرد ؟ قال : لأن ذلك أفضلُ حالات الإنسان . قال فما هذه الثياب المُصبّغة التى أراها عليك ؟ قال : هى حِليتى وزينتى . قال : فما هذه الرائحة الطيبة التى تفوح منك . قال : هى المنفعة التى لها يُريدنى كل أحد . قال : فما هذه العجلة التى أراك جالساً عليها ؟ قال : هى سُرعة إجابتى إذا حُركت ، ولزومى موضعى إذا تركت . ثم تصوّر له فى خاطره كهل حسنُ الوجه رَبْع القدّ مُقتدر الحركات مُعتدل الأوصال ، عليه ثياب بيضٌ نِظاف ، بإحدى يديه الشكّر وفى الأخرى الصَّبر ، وبين يديه دواء مركّب ، وهو جالس على سرير ، له قوائم أربع ، فسأله الحكيم وقال : من أنت ؟ قال : أنا العدل . قال : فما بالك رَبْع القامة معتدل الحركات ؟ قال : كذا ينبغى أن يكون العدل واسطاً بين الطرفين ، قال : فما هذه الثياب البيض النِّظاف التى أراها عليك ؟ قال : لأنه لم يَشُبها دَنس ولا خِلْط . قال : فما هذا الشكّر الذى فى إحدى يديك والصَّبر فى الأخرى ، وما الدواء المركب الموضوع بين يديك ؟ قال : أما الشكّر ، فهى الحلاوة التى يجدها من أقضى له

بالحق ؛ وأما الصبر ، فهى المرارة التى يجدها من أقضى عليه ؛ وأما الدواء المركب ، فهو مركب من الأخلاط الأربعة على التساوى ليكون مُعتدلا ، وهو دليل الصُّلح يكون بين الخصمين . قال : فما هذا السرير الذى أراك جالساً عليه . قال : لا يصلح لى غيرُه لأنه لو نَقَص منه قائمة لنقص شكل المساواة ولظهر ميلُ السرير واعوجاجُه وأنا ضد ذلك . قال الحكيم : فأنا أسألك أن تحكم بين هؤلاء وتقضى بينهم لأنك العَدل . قال العدل للعقل : أما أنت فما مَعنى مخاصمتك لهذين وأنت تعلم أن الأمور كلَّها لها جهات ، فبعض الأشياء أفضل فى جهة وبعضها أفضل فى جهة ، وأنت أفضل فى كل الجهات ، وكل واحد من هذين الخصمين خُلق لأمر واحد وأنت المحيط بجميع العلوم . قال العقل : صدقت أيها العدل ، وما أحوجنى إلى هذا الموقف إلاّ ظلمُ الدولة إياى وجَوْرها علىّ فى باطن أدعائها الفضل لنفسها ، ولا أستريح منه حتى تحكم بيننا بحكمك . قال العدل : أما إذا ادعيتم أنى فاصل بينكم بحكمى فأقول : أيها العقل إنك بَصر ونُور ، وأنتِ أيتها الدولة فقوة وقهر وتدبير ، ولا تمام إلا باجتماعكما فاجتمعوا . قال : فاعتنقوا وصاروا هنالك شيئاً واحداً ، ثم التفت إلى العافية فقال : أنت زينٌ وجَمال ولذّة ومَتعة ، فمن كنتِ معه انتفع بنفسه وطابت له الحياة وحَسُن عيشه .

سئل بعض الحكماء عن الاجتهاد والقضاء أيهما أنفع ؟ فقال : إن المجتهد غير المقضىّ له كالرجل الشديد التعب السائر فى طريق ضالّ عن سبيله ومنهَج قَصْده ، فتعبهُ ضائع وسعيُه غير مُفيد ومَسيره مَشقّة لا فائدة فيه ، والمقضىّ له غير المُجتهد كمن يُورّث ميراثاً فلا يحرزه ، ويُبذل له مال فلا يَقبله ، ويُدعى إلى وليمة فلا يجيب إليها ، ولكنهما توأمان يحتاج كل واحد منهما إلى صاحبه .

وسُئل بعض الحكماء فقيل له : قد قيل : لا يستقيم الملك إلا بأمرين : بالمال[1] والرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا مال إلا بالرجال ، كما أنه لا تكون

(١) الكلام من هنا إلى آخره بحاشية الأصل وبقلم غير قلم الأصل لا يكاد يبين . وقد انتهينا إلى ما يمكن قراءته منه بجهد تاركين بعض كلمات أخيرة منه لم نستطع قراءتها بعضها ممحو والبعض الآخر مطموس .

دجاجة إلا من بيضة ، ولا بيضة إلا من دجاجة . فقال : صدق والذى قال ذاك ، إن استقامة بالمال الرجال ولا يثبت إلا بهم ، وذلك أن الرجال أساس و بناء ، والمال سقف ، والأساس متقدم على السقف . والرجال هم علة المال ، وذلك أن المال فى الدنيا لا يمكن أخذه وإعطاؤه إلا وهو مربوب ، والمربوب محفوظ محروس ، والمحروس لا يستخرج من يدى حارسه إلا بفضل قوة ، وفضل القوة هو بالجماعة وهم الرجال ، فإن الرجال أحرار غير محفوظين ولا محروسين ، وقد يمكن تحصيلهم بحسن القول ولطف اللسان ومداراتهم بسعة الخلق .

رسالة عبد الحميد الكاتب

فى نصيحة ولى العهد

قال أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر فى كتابه المنثور والمنظوم : « ومن الرسائل المفردات رسالةُ عبد الحميد بن يحيى إلى عبد الله بن مَروان ، حينَ وُجِّه لمحاربة الضحّاك الخارجى[١] ، فى تَعبية الحروب ، فإنه يقال إنها لا مِثْل لها فى معناها » :

أما بعد . فإنّ أميرَ المؤمنين — عند ما اُعتزم عليه من تَوجيهك إلى عدوّ الله الجِلْف الجافى الأعرابىّ ، المُتسكّع فى حَيْرة الجَهالة ، وظُلَم الفِتْنة ، ومَهاوِى الهَلَكة ؛ ورَعاعِهِ الذين عاثُوا فى الأرض فسادًا ، وانتهكوا حُرمَة [الإسلام][٢] اُستخفافًا ، و بدّلوا نِعَم الله كُفْرا ، واُستحلّوا دماء أهل سِلْمه جَهلا — أحبّ أن يَعهد إليك فى لطائف أُمورك ، وعوامّ شُؤونك ، ودَخائل أحوالك ، ومُصْطرف[٣] تنقُّلِك ، عهداً يَحمِلُك فيه أدبَه ، ويَشْرع لك به عِظَته ؛ و إن كُنتَ بحمد الله من دينِ الله وخِلافته بحيثُ اُصطنعك الله لولاية العَهْد ، مُخصَّصًا[٤] لك بذلك دون لُحمتك و بنى أبيك .

ولولا ما أمر الله [تعالى] به ، دالاًّ عليه ، [وتقدّمت فيه الحكماء آمرينَ به ، من تقديم

---

(١) هو الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى . كان له شأن فى أواخر الدولة الأموية فى الكوفة وواسط ، خرج سنة سبع وعشرين ومائة واستولى على الموصل وكورها . قال ابن الأثير فى حوادث سنة ثمان وعشرين ومائة : « وبلغ مروان خبره وهو محاصر حمص مشتغل بقتال أهلها فكتب إلى ابنه عبد الله وهو خليفته بالجزيرة يأمره أن يسير إلى نصيبين فيمن معه ليمنع الضحاك عن توسط الجزيرة . فسار إليها فى سبعة آلاف أو ثمانية آلاف ، وسار الضحاك إلى نصيبين فحصر عبد الله فيها ، وكان مع الضحاك ما يزيد على مائة ألف . ثم إن مروان سار إلى الضحاك فالتقوا بنواحى كفر توثا من أعمال ماردين فقاتله يومه أجمع ، فأحدقت بالضحاك وصحابه خيول مروان ، وألحوا عليهم فى القتال حتى قتلوهم » . قلنا : وكثرة ظهور الخوارج على الأمويين فى آخر أمرهم دعت مروان إلى أن يكتب إلى ابنه بهذه الرسالة من إنشاء كاتبه عبد الحميد ، والدهشة بادية فى سطورها من أمر الضحاك وجنده .

(٢) التكملة من صبح الأعشى . والرسالة فى الجزء العاشر ، من (ص ١٩٥ — ٢٣٣) . وهكذا كل ما جاء بين معكوفتين فهو عنه .

(٣) فى الأصلين : « ومضطر » . وما أثبتنا من صبح الأعشى .

(٤) فى صبح الأعشى : « مختصا » .

العِظَة ، والتَّذْكير لأهل المَعْرِفة] ، وإن كانوا أولِى سابقَةٍ فى [الفَضْل] وخِصِّيصَى[١] فى العلم ، لاعتمد أميرُ المُؤمنين منكَ على اصطناع الله إيّاك ، [وتَفضيله لك] بما رآك أهلَه فى محلّك من أمير المؤمنين ، وسَبْقك إلى رغائب أخلاقِه . وانتزاعِك محمودَ شِيمه ، واستيلائك على مشابه تَدْبيره .

ولو كان المُؤدِّبون أخذوا العلمَ من عند أنفُسهم ، أو لُقِّنوه إلهاماً من تِلقائهم ، ولم [نُصِبْهم] تعلّموا شيئاً من غيرهم ، لنَحَلْناهم عِلْمَ الغَيْب ، ووضعناهم بمنزلة [نَقْصُر بها عنهم] خالقُهم المستأثِر بعلم الغَيْب عنهم بوَحْدانيته وفَرْدانيّته[٢] فى إلاهيته ، احتجاباً منهم لتعقُّب فى حُكْمه ، وتثبُّت فى سلطانه ، وتَنْفيذ إرادته على سابق مَشيئته . ولكن العالِم الموفّق للخير ، المَخصوص بالفَضل ، المحبوّ بمزيّة العلم [وصفوته] ، أدركه مُعاناً عليه بلطيف بَحْثه ، وإذْلال كنَفه ، وصحة فَهْمه ، وهَجْر سآمته .

وقد تقدَّم أميرُ المؤمنين إليك ، آخذاً بالحُجَّة عليك ، مؤدِّياً حقَّ الله الواجبَ عليه فى إرشادك وقضاء حقك ، وما يَنْظر به الوالدُ المَعْنىُّ الشفيقُ لولده . وأميرُ المُؤمنين يَرجو أن يُنزِّهك اللهُ عن كُلّ قبيح يَهَشُّ له طمع ، وأن يَعصِمَك من كلِّ مَكروه حَقَّ بأحد ، وأن يُحصِّنك من كلِّ آفة أستولت على أمرئ فى دِين أو خُلق ، وأن يُبلِّغه فيك أحسنَ ما لم يَزَل يُعوِّده ويُريه من آثار نعمة [الله عليك] ، سامية بك إلى ذِروة الشَّرف ، ومتبجحة[٣] بك بَسطة الكَرَم ، لائحة بك فى أزهر معالى الأدب ، [مُورثة لك أنفس ذَخائر العِز] . واللهَ يستخلف عليك [أميرُ المؤمنين] ، ويَسأله حياطتك ، وأن يعصِمَك من زَيْغ الهوى ، ويُحضركَ دواعى التوفيق ، مُعاناً على الإرشاد فيه ؛ فإنه لا يُعين على الخَير ولا يُوفق له إلّا هو .

* * *

(١) يقال : خصه بالشيء خصا وخصوصا وخصوصية وخصيصى ، ويمد ، وخصية وتخصة : فضله . ولا نظير لها إلا المكيثى .

(٢) فى صبح الأعشى : « فى فردانيته وسابق لاهوتيته » .

(٣) كذا فى صبح الأعشى . وفى الأصلين من ابن طيفور : « ومنجحة لك بسطة الكرم » .

اعلمْ أنّ للحكمة مسالكَ ، تُفْضى مضايقُ أوائلها بمن أمَّها سالكاً ، وركب أخطارها[(١)] قاصداً ، إلى سَعة عاقبتها ، وأَمْن سَرْحها ، وشَرف عِزّها ، وأنها لا تُعار بسُخْف الخِفة ، ولا تَنْشأ[(٢)] بتَفْريط الغَفلة ، ولا يُتعدى فيها بأمرئ حدُّه ، [وربما أظهرت بَسْطَةُ الغَىّ مَستورَ العيب] . وقد تلقّتك أخلاقُ الحِكمة من كلّ جهة بفَضْلها ، من غير تَعب البَحْث فى إدراكها[(٣)] ، ولا مُتطاوِل لمنال ذِرْوتها ؛ بل تأثّلتَ[(٤)] منها أكرمَ معانيها[(٥)] ، واستخلصتَ منها أعتقَ جواهرها ، ثم شمَّرت[(٦)] إلى لُباب مُصاصها ، وأحْرزت مُنْفَس[(٧)] ذخائرها . فاقتَعِد ما أحرزتَ ، ونافِس فيما أصبتَ .

واُعلمْ أنّ احتواءك على ذلك وسَبْقَك إليه بإخلاصِ تَقوى الله فى جَميع أُمورك مُؤْثراً لها ، واصطبارِكَ على طاعته[(٨)] ، وإعظامِ ما أنعم [اللهُ] به عليك شاكرًا له ، مُرتبطاً فيه للمزيد بحُسن الحِياطة له والذّب عنه من أنْ تدخلك منه سآمةُ مَلال ، أو غَفلة ضَياع ، أو سِنَة تَهاون ، أو جَهالة معْرفة ؛ فإنّ ذلك أحقُّ ما بُدِئَ به ونُظِر فيه ، معتمِداً عليه بالقوة والآلة [والعُدَّة] والأنفراد [به] من الأصحاب والحامّة[(٩)] . فتمسَّكْ به لاجئاً إليه ، واُعتَمِدْ عليه مُؤْثراً له ، والتجئْ إلى كنفه متحيِّزاً إليه ، فإنه أبلغ ما طُلب به رضَى الله ، وأَنجحُه مَسْألة ، وأجزلُه ثواباً ، وأَعودُه نفعاً ، وأعمُّه صلاحاً . أرشدَكَ اللهُ لحظِّك ، وفهّمك سَدادَه ، وأخذ بقلبك إلى مَحموده .

ثم اُجعلْ لله فى كلّ صَباح يُنعم عليك ببُلوغه ، ويُظهر منك السلامةَ فى إشْراقه ، من نَفْسك نَصيباً تجعله لله شُكراً على إبلاغه إيّاك يومَك ذلك بصحة [جوارح] ، وعافية

---

(١) كذا فى صبح الأعشى . وفى الأصلين : « خبارها » . والخبار : ما لان من الأرض واسترخى . وفى المثل : من تجنب الخبار أمن العثار .

(٢) فى الأصلين : « لا تعاب ... ولا تنسى ... » وما أثبتنا من صبح الأعشى .

(٣) فى صبح الأعشى : « فى طلبها » .

(٤) تأثلت : اكتسبت وجمعت . (٥) فى صبح الأعشى : « نبعاتها » .

(٦) فى صبح الأعشى : « سموت » .

(٧) شىء نفيس ومنفوس ومنفس (بفتح الفاء وكسرها) كمخرج ، إذا كان يتنافس فيه .

(٨) فى صبح الأعشى : « وإضمار طاعته منطويا عليها » . (٩) الحامة : الأقارب .

بدَن ، وسُبوغ نِعَم ، وظُهور كرامة ؛ وأن تقرأ [فيه] من كِتاب الله عزّ وجلّ جُزءاً تردِّد رأيك فى أدبه ، وتزيّن لفظَك بقراءته ، وتُحضره عقلَك ناظراً فى مُحكمه ، وتتفهّمه متفكّراً فى مُتشابهه ، فإن فيه شفاء القُلوب[٢] من أمراضها ، وجِلاء وَساوس الشَّيطان وسَفاسفه ، وضِياء معالم النُّور ، تِبياناً لكُلّ شيء وهُدًى ورحمةً لقوم يؤمنون . ثم تعهَّد نفسَك بمُجاهدة هواك ، فإنه مِغلاق[٣] الحَسنات ، ومفتاحُ السّيئات ، [وخصمُ العقل] .

* * *

واعلمْ أن كلّ أهوائك لك عدوّ يحاوِل هَلَكتك ، ويعترض غَفلتك ؛ لأنها خُدع إبليس ، وحَبائل[٤] مَكره ، ومَصايدُ مَكيدته . فاحذَرْها مُجانباً لها ، وتوقَّها مُحترساً منها ، واستَعِذْ بالله [عزّ وجلّ] من شرِّها ، وجاهدْها إذا تناصرتْ[٥] عليك ، بعَزم صادق لا وَنْية فيه ، وحزْم نافذ لا مَثنويّة[٦] لرأيك بعد إصْداره ، وصِدْق غالب لا مَطْمع فى تَكْذيبه ، ومضاءِ صارمة لا أناةَ معها ، ونيّة صَحيحة لا خَلْجة[٧] شَكٍّ فيها ؛ فإنّ ذلك ظِهْرِيٌّ[٨] صِدْق لك على ردِّها عنك ، وقطعها[٩] دون ما تتطلّع إليه منك ، وهى وَاقيةٌ لك سُخْطَ ربّك ، داعيةٌ إليك رِضا العامّة [عنك] ، ساترةٌ عليك عَيْبَ مَنْ دُونك . فازْدَن بها مُتحلّياً[١٠] ، وأصِبْ بأخلاقك مواضعَها الحميدةَ منها ، وتوقّ عليها [الآفة] التى تقطعك عن بُلوغها ، وتُقصّر بك دون شأوها ؛ فإن المؤُونة إنما اشتدّت مستصعبة ، وفَدَحت باهظةً ، أهلَ الطلب لأخلاق أهل الكرم ، المنتحلين سمو القدر بجهالة مواضعِ ذميمِ الأخلاق ومحمودها ، حتى فرّط أهل التقصير فى بعضِ أمورهم ، فدخلت عليهم الآفاتُ

(١) فى صبح الأعشى : « فى آيه » . (٢) فى صبح الأعشى : « الصدور » .
(٣) المغلاق والغلاق والغلق : ما يغلق به الباب . (٤) فى صبح الأعشى : «وخوائل» .
(٥) تناصرت الأخبار : صدق بعضها بعضا .
(٦) مثنوية : استثناء . (٧) خلجة : اضطراب .
(٨) الظهرى : ما يجعله المرء عدة له عند مس الحاجة إليه .
(٩) فى صبح الأعشى : «وقمعها» . (١٠) فى الأصل : «ملتحفا» . وما أثبتنا من صبح الأعشى .

من جهاتٍ أمنوها ، فنُسبوا إلى التفريطِ ، ورضُوا بذلّ المنزل ، فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل ، عَمِهين عن دَرَج الشرف ، ساقطين دون منزلة [أهل] الحجا . فحاولْ بُلوغَ غاياتها مُحرزاً لها بسَبْق الطَّلب إلى إصابةِ المَوضع ، مُحَصناً أعمالَك[(١)] من العُجب ، فإنه رأس الهوَى ، وأولُ الغواية ، ومَقاد الهلَكة ؛ حارسًا أخلاقَكَ مِن الآفات المُتَّصِلة بمَساوى الألقاب وذَميم تنابزها ، من حيثُ أتت الغفلةُ ، وانتشر الضَّياع ، ودَخَل الوَهَن . فتَوقَّ[(٢)] الآفات على عَقلك ؛ فإنَّ شواهد الحق ستُظهر بأماراتها تَصْديقَ رأيك عند ذوى النُّهى[(٣)] ، وحال الرأى وفحص النَّظر . فاجتَلِبْ لنفسك محمودَ الذِّكْر ، وباقى لسانِ الصِّدق ، بالحَذَر لِمَا تَقدَّم إليك فيه أميرُ المؤمنين ، مُتحَرِّزاً من دُخولِ الآفات عليك مِن حيثُ أَمْنُك ، وقِلّةِ ثِقتك بمُحْكَمها .

ومن ذلك[(٤)] أن تَملك أُمورَك بالقَصْد ، وتَصُونَ سِرَّك بالكِتْمان ، وتُدارى جُنْدَك بالإحسان[(٥)] ، [وتُداوى حقدك بالإنصاف] ، وتُذَلِّل نَفسَك بالعَدْل ، وتُحَصِّن عُيوبَك بتَقْويم أوَدك ، [وتَمنع عقلَك مِن دُخولِ الآفات عليه بالعُجْب المُردى] ؛ وأناتَك فَوِّتْها المَلال وفوْتَ العَمَل ؛ ومَضاءَتك فدَرِّعها رويَّةَ النَّظر واكْنُفها بأناةِ الحِلْم ؛ وخَلواتك فاحْرُسْها مِن الغَفْلة واعْتياد الرَّاحة ؛ وصَمْتَك فانفِ عنه عِيَّ اللَّفظ وخَفْ فيه سُوءَ القَالة[(٦)] ؛ واستماعَك فأَرْعِه[(٧)] حُسْن التَّفهُّم وقوِّه بإشهادِ الفِكْر ؛ وعطاءَك فامْهَد له[(٨)] بُيوتاتِ الشَّرَف وذَوِى الحَسَب ، وتَحرَّزْ فيه مِن السَّرَف ، [واستطالة البَذَخ ، وامْتنان الصَّنيعة] ؛ وحَياءَك فامْنَعه من الخَجَل وبَلادَة الحَصَر ؛ وحِلْمك فَزَعْهُ عن التَّهاوُن

---

(١) فى الأصلين: « عمالك » . وما أثبتنا من صبح الأعشى .

(٢) فى صبح الأعشى : « فتوق غلوب الآفات » .

(٣) فى صبح الأعشى : «ذوى الحجا » .

(٤) فى الأصلين : « ومنها » . وما أثبتنا من صبح الأعشى .

(٥) كذا فى صبح الأعشى . وفى الأصلين : « بالإنصاف » .

(٦) يطلق القول فى الخير ، والقال والقيل والقالة فى الشر .

(٧) يقال : أرعنى سمعك ، وراعنى سمعك : استمع لمقالى .

(٨) كذا فى صبح الأعشى . ومهد . كسب . أى خص أهل الشرف والحسب بعطائك تكسبهم . وفى الأصلين : « فانهد »

وأحْضِره قُوّةَ الشَّكِيمَة[١]، وعقوبَتَك فقصِّر بها عن الإفراط، وتعمَّدْ بها أهلَ الاستحْقاق؛ وعفوَك فلا تُدْخِله تعطيلَ الحُقوق، وخُذْ به واجبَ المُفترض، وأقِم به أَوَد الدِّين؛ واستِئْناسَك فامْنَع منه البَذاءة وسُوءَ المُناقشة[٢]؛ وتعهُّدَك أمورَك فحُدَّه أوقاتاً، وقَدِّرْه ساعاتٍ، لا يَستَفرغ قُوَّتك ويَستدْعى سآمتَك؛ وعَزْمتَك فانفِ عنها عجلةَ الرَّأى، ولَجاجةَ الإقْدام؛ وفَرحاتِك فاشكُمها[٣] عن البَطَر، وقيِّدْها عن الزَّهْو؛ ورَوْعاتِك فحُطْها من دَهَش الرَّأْى واستِسْلام الخُضوع؛ وحَذارَتك [فامنعْها] عن الجُبْن، وأعْمِد بها للحَزْم؛ ورَجاءَك فقيِّده بخَوْف الفائت، وامْنَعْه من أَمْن الطَّلَب.

* * *

هذه جَوامعُ [خِلال] دخّال[٤] النَّقْص منها واصلٌ إلى العَقْل بلَطائف أَبنِيه[٥] وتَصاريف حِوَلِه[٦]. فأحْكِمها عارِفاً [بها]، وتَقدَّم فى الحِفْظ لها، مُعْتزِماً على الأخذ بمَراشِدها، والانتهاء منها إلى حيثُ بلغَتْ بك عظمةُ أمير المؤمنين وأدَبُه إن شاء الله.

ثُم لتَكُن بطانتُك وجُلساؤُك فى خَلَواتك، ودُخلاؤُك فى سِرِّك، أهلَ الفِقْه والوَرَع مِنْ [خاصَّة] أهْلِ بَيْتك، وعامّةِ قُوّادك، مِمَّنْ قد حَنَّكته السِّنُّ بتَصاريف الأُمور، وخَبَطته فصالُها بيْن فَراسن البُزَّل[٧]، وقلّبتْه الأُمور فى فُنُونها، ورَكِبَ أطْوارَها، عارِفاً بمَحاسن الأُمور، ومَواضعِ الرَّأْى [وعَين المشورة]، مأمُونَ النَّصيحَة، مَطْوِىَّ الضَّمير على الطَّاعة.

ثُمَّ أحْضرهم مِن نَفْسِك وَقاراً يَستدعى لَك منهم الهَيْبَة، واستِئْناساً يَعْطف إليْك

---

(١) الشكيمة: قوة القلب. (٢) المناقشة: الأذية بالكلام.

(٣) قال الليث: يقال: فعل فلان أمراً فشكمته، أى أثبته.

(٤) فى الأصلين: «دخائل» وما أثبتنا من صبح الأعشى.

(٥) فى الأصلين: «الله» وما أثبتنا من صبح الأعشى.

(٦) كذا فى الأصلين. والذى فى صبح الأعشى: «حويله». والحول والحويل: الحذق وجودة النظر والقدرة على التصرف.

(٧) البازل فى الأصل: البعير إذا ظهر نابه. ومن المجاز: البازل، للرجل الكامل فى تجربته، تشبيها بالبعير البازل، والجمع بزل، كركع وكتب.

منهم المودّة ، وإنصاتا يفلُّ إفاضتهم [عندك] بما تكرَه أنْ ينْتَشرَ عنك مِن سَخَافةِ الرَّأى [وضياع الحزْم . ولا يَغلبنَّ عليك هَواكَ فيَصْرفك عَن الرَّأى] ، ويَقْطعك دُون الفِكْر .

وتعلَّم [أنَّك و] إنْ خَلوْتَ بِسرٍّ فألقيْت دُونَه سُتورَكَ ، وأغلقتَ عليه أبوابَك ، فذلك لامحالةَ مكْشُوفٌ للعامَّةِ ظاهرٌ عنك ، وإنِ اُستترْ [ت بر بما] ولعلّ وما أرى [إذاعة] ذلك وما أعلم ، بما يَروْنَ مِنْ حالاتِ مَنْ يَنْقطع به فى تلكَ المواطن . فتقدَّم فى إحْكام ذلك من نَفْسِك ، وسُدَّ خَلَله عَنْك ؛ فإنَّه لَيْس أحَدٌ أسْرعَ إليْه سُوءِ القَالة ولغط العامَّة بخَيْر أو شرٍّ ممَّن كانَ فى مِثْل حالِك ومكانك الذى أصبحْتَ به مِن دِينِ الله ، والأمل المَرجُوّ المنْتَظر فيك .

وإياك أنْ يُغمِز[١] فيك أحَدٌ مِن حامّتك و بطانة خَدمك بضَعْفةٍ يجد بها مَساغاً إلى النُّطق عِندك بما لا يعتزِلك عَيْبُه ، ولا تَخلو من لائمته ، ولا تأمَن سُوءَ الأُحْدُوثة فيه ، [ولا يرخُص سوءالقالة به] إنْ نَجم ظاهِراً ، أو عُلِن بَادياً . ولن يَجْترِئوا على تلكَ عِنْدكَ إلاّ أنْ يَروْا مِنْكَ إصْغاءً إليها ، وقَبولاً لها ، وترْخيصًا [لهم فى الإفاضَةِ بها] .

ثُم إيّاك وأنْ يُفاضَ عِنْدكَ بشىء مِن الفُكاهاتِ والحِكايات والمُزاح والمَضاحِك الّتى يَستخِفُّ بها أهلُ البَطالةِ ، ويَتسرّعُ نحوَها ذَوو الجَهالة ، ويَجدُ فيها أهلُ الحَسدِ مَقالاً [لِعيْب] يُذيعُونَه ، وطَعْنًا فى حَقٍّ يجْحَدُونه ، معَ ما فى ذلكَ مِن نَقْص الرَّأى ، وَدَرَنِ العِرْض ، وهَدْم الشَّرَف ، وتأثيل الغَفْلةِ . وقُوَّةِ طِباعِ السُّوءِ كامنَة فى النَّاسِ كُمُونَ النَّارِ فى الحَجَرِ الصَّلْد ، فإذا قُدِح لاَح شَررُه ، وتَلهّب وَميضُه ، ووَقَدَ تَضَرُّمُه . وليست فى أحَدٍ أقوَى سَطوَةً ، وأظهَر تَوَقُّدًا ، وأعْلى كُموناً ، وأسْرعَ إليه بالعَيْب [وتَطرُّق الشّين] ، منها إلى مَن كان فى سِنِّك مِن أغفال الرِّجالِ ، وذَوى العُنفُوانِ فى الحَداثَة ، الذين لم تقَع عليهم سِماتُ الأُمور ناطِقاً عليهم لائحُها ، ظاهِراً فيهم

(١) أغمز فى فلان ، إذا عابه واستضعفه وصغر شأنه .

وَسْمُها ؛ ولم تَمْحَضهم شهامَتها ، مُظهِرَةً للعامّة فضلهم ، مُذيعَـةً حُسنَ الذِّكرِ عنهم ، ولم يَبلغْ بهم الصِّيت فى الحُنْـكَة مُستَمعًا يدفَعُونَ به عن أنفُسهم نَواطقَ أَلْسُن أَهْل البَغْى ، ومَوادَّ أَبْصارِ أَهْل الحَسَد .

ثُمَّ تَعهَّد مِن نَفْسِك لَطيفَ عَيْبٍ لازمٍ لـكَثيرٍ من أَهْل السُّلطان والقُدْرَة : من [إبْطال] الورع[١] ونَخْوة [الشَّرف و] التِّيه ، [وعَيْب الصَّلف] ؛ فإنَّها تُسْرِع بهم إلى فَسادِ رَأيِهم وتَهْجين عُقولهم فى مَواطِن جَمَّة ، منها : قِلَّةُ اقْتِدارِهم على ضَبْط أنفُسهم فى مَوا كِبهم ومُسايرَتِهم العامّة . فمِن مُقَلْقِلٍ شَخصَه بكثرة[٢] الالْتِفات [عن يمينه وشِماله] ، تزدَهيه الْخِفَّة ، ويُبطره إجلاب[٣] الرِّجالِ حَولَه ؛ ومِن مُقبِلٍ فى مَوكِبه على مُداعَبة مُسايِره ، بالمُفا كَهَة له ، والتَّضاحُك إليه ، والإيجافِ فى السَّيْر مُهَمرِجًا[٤] ، وتَحْريك الجَوارح تَسرُّعًا ، يخال له أنَّ ذلك أسرعُ له وأحثُّ لِمطيَّته . فلتُحَسِّن فى ذلك هَيئَتَك ، ولتُجَمِّل فيه دَعَتَك[٥] ، وليَقِلَّ على مُسايرِك إقبالُك إلاَّ وأنْتَ مُطرقُ النَّظر غَيرُ مُلتفِت إلى مُحدِّث ، ولا مُقبِـل عليه بوَجهِك فى مَوْكبك لمحادَثته ، ولا مُوجِفٍ فى السَّير تُقلقِل جَوارحَك بالتَّحريك [والاستنهاض] ؛ فإنَّ حُسن مُسايرَة الوالى واتِّداعه فى تلك مِن حالِه دَليلٌ على كَثيرٍ مِن غُيوب أَمره ، ومُستَتِرِ أَحوالِه .

***

واُعْلَمْ أنَّ أقوامًا يُسرِعونَ إليْك بالسِّعاية ، ويَأتونك مِن قِبَل النَّصيحَة ، ويَستَميلونك بإظْهارِ الشَّفقة ، ويَسْتَدعونك بالإغراء والشُّبهة ، ويُوطئُونك عَشوة[٦] الحَيرة ، ليَجعلوك

---

(١) فى أحد الأصلين وصبح الأعشى : «الذرع» . ويريد بالورع : سمات التقى وأسباب الحشية، فإنها من مظاهر الهيبة والوقار .

(٢) فى الأصلين : « يكثر» . وما أثبتنا من صبح الأعشى .

(٣) الإجلاب : اختلاط الأصوات كالجلبة ، وأجلبوا وجلبوا . فعلان من الجلب ، بمعنى الصياح .

(٤) الهمرجة : الخفة والسرعة ولغط الناس والاختلاط فى المشى ، والهملجة : سير الدابة فى سرعة وبخترة . والإيجاف : الاضطراب .

(٥) فى الأصلين : « رعيتك » . وما أثبتنا من صبح الأعشى .

(٦) العشوة : الظلمة . كالعشواء . وركب فلان العشواء ، إذا خبط فى أمره .

لهم ذَريعةً إلى اُستئكالِ[١] العامّة بموْضعهم منك فى القبول مِنهم والتّصديق لهم على مَنْ قَرَفُوه[٢] بتُهَمَة ، أو أسرَعُوا بك فى أمرِه إلى الظّنّة . فلا يَصِلَنّ إلى مُشافهتِك ساعٍ بشُبهة ، ولا مَعرُوفٌ بتهمةٍ ، ولا مَنْسوبٌ إلى بِدعة ، فيُعرّضك لإيتاغِ[٣] دِينك ، ويَحمِلك على رَعيّتك بما لا حَقيقةَ [له عِندك] ، ويلحّك[٤] عَلَى أعراضِ قوْم لا عِلْم لك بدخْلِهم[٥] إلاّ بما أقدَم به عليهم ساعِيًا ، وأظهَر لك منهم مُنْتَصِحا .

وليَكنْ صاحبُ شُرْطتِك ومَن أحببْتَ أنْ يتولّى ذلك مِن قُوّادِك لإنهاء ذلك ، هو المنصوب[٦] لأولئك ، والمُسْتَمع لأقاويلهم ، والفاحِص عن نصائحم ؛ ثمّ لِيُنْهِ ذلك إليْك عَلَى ما يُرفع إليه مِنه ، لتَأمرَه بأمرِك فيه ، وتَقِفَه[٧] عَلَى رأيك ، مِن غير أنْ يَظْهرَ ذلك للعامّة ؛ فإنْ كان صَواباً نالَتْك حُظْوته[٨] ، وإنْ كان خَطأً أقدم به [عليك] جاهلٌ ، أو فَرْطةً سَعى بها كاذب فنالَتْ السّاعىَ أو المَظلومَ عُقوبة ، أو بَدَر مِن وَاليكَ إليْه [عُقوبة و] نَكال ، لم يَعْصِب[٩] ذلك الخطأُ بك ، ولم تُنْسب إلى تفريط ، وخَلَوتَ مِن مَوضع الذمّ فيه .

وتَقدّم إلى مَن تُولّى [ذلك الأمرَ وتَعتمدُ عليه فيه أنْ] لا يُقدِمَ عَلَى شىء ناظرًا فيه ، ولا يُحاولَ أخذَ أَحَدٍ طارِقاً له ، ولا يُعاقِبَ أحداً مُنَكِّلاً به ، ولا يُخلى سَبيلَ أحَدٍ صافِحًا عنه ، لإظهارِ[١٠] بَراءته ، وصِحّة طَريقته ، حتى يَرفَع إليكَ أمرَه ، ويُنْهِى إليكَ قَضيّتَه ، على جِهة الصِّدق ، ومَنْحى الحَقّ ، [ويقين الخبر] .

---

(١) من قولهم : استأكل الضعفاءَ ، إذا أخذ أموالهم .
(٢) قرفه : عرضه لها . (٣) أوتغ دينه بالإثم : أفسده .
(٤) ألحه بعرض فلان : أمكنه منه يشتمه . وفى صبح الأعشى « يلحمك ، أعراض قوم : أى يجعل أعراضهم طعمة لك .
(٥) دخلهم : نيتهم . (٦) فى صبح الأعشى : « شرطتك المتولى لإنهاء ذلك هذا المنصوب » .
(٧) وقف ، يتعدى بنفسه ، قال تعالى : « وقفوهم إنهم مسئولون » . أما وقفته توقيفاً ، وأوقفته إيقافا ، فقد أنكره الجمهور وقالوا إنهما غير مسموعين أو غير فصيحين .
(٨) فى صبح الأعشى : « خيرته » .
(٩) يعصب : يقرن .
(١٠) فى صبح الأعشى : « لإصحار » أى لوضوح براءته .

فإنْ رأيتَ عليه سبيلاً لمحبس، أو مجازاً لعقوبة، أمرتَه فتولّى ذلك من غير إدخال له عليك، ولا مُشافهةٍ منك له، فكانَ المتولِّى لذلك، ولم يجرْ على يدِك مكرُوه [رأى]، ولا غِلَظ عُقوبة. وإنْ وَجدتَ إلى العفوِ عنه سبيلاً، وكان مما قُرِف به خليًّا، كُنتَ أنتَ المتولِّى الإنعامِ عليه، بتخْليَة سبيله، والصَّفح عنه بإطْلاقِ أسْره، فتولَّيتَ أجْرَ ذلك وذُخْرَه، ونَطقَ لسانُه بشُكرِك [، وطوقت قومه حَمْدك، وأوْجَبتَ عليهم حقَّك]، فقرَنْتَ بين خَصْلتَين: ثوابَ اللهِ فى الآخرَة، ومَحْمود الذِّكرِ فى العاجلة.

***

ثمّ إيّاك وأنْ يَصِل إليْك أحَدٌ مِن جُنْدك وجُلسائك وخاصّتكَ وبطانتكَ بمسألةٍ يَكْشِفها لك، أو حاجَة يَبْدهك(١) بطلبها، حتى يَرْفعَها قبلُ إلى كاتبك الذى أهْدفتَه لذلك، ونَصَبْتَه له، فيعْرِضها عليك مُنْهيًا لها على جِهةِ الصِّدْق عنها، وتكون على مَعْرفةٍ مِن قَدْرها. فإنْ أردتَ إسْعافَه[بها] ونَجاحَ ماسأل مِنها، أَذِنْتَ[له] فى طَلَبِها، باسِطًا له كَنَفك، مُقبلاً عليه بوَجْهكَ، مع ظُهورِ سُرُورِك بِما سَألك، بفُسْحَة رَأى، وبَسْطة ذَرْع، وطِيب نَفْس. وإنْ كَرِهتَ قَضاءَ حاجَتِه، وأحْبَبْتَ رَدَّه عن طَلِبته(٢)، وثَقُل عليْك[إجابتُه إليها و] إسْعافُه بها، أمَرتَ كاتبكَ فصَفَحه عنها، ومَنَعَه من مُواجَهتك بها، نخفَّتْ عليكَ فى ذلك المؤُونَة، وحَسُن لك الذِّكر، [ولم يُنشَر عنك تجهّم الرّدّ، ويَنلْك سُوء القالةفى المَنْع]، وحُمِل على كاتبِك [فى ذلك] لائمةٌ أنتَ منها برىءُ السَّاحَة.

وكذلك فليكنْ رَأيُك وأمْرُك فيمَن طَرأ عليك مِن الوُفُود، وأتاكَ مِنَ الرُّسُل: فَلا يَصلَنَّ إلَيْك أحدٌ منهم إلاّ بعْدَ وُصول عِلْمه إليك، وعِلْم ما قَدِم له عليك، ووجْهة ما هُو مُكَلِّمك به، وقَدْر ما هو سائلك إيّاه إذا هُو وَصَل إليك، فأَصْدرْتَ رَأيك فى حَوائجه، وأجَلْتَ فِكرَكَ فى أمْرِه، وأنْفَذْتَ مَصْدَر رويّتك فى مرْجُوع مَسألته قبْل

(١) بدهه بالأمر: استقبله به مفاجأة.
(٢) الطلبة (بكسر اللام): ما طلبته.

دُخُوله عليك ، وعلمه بوُصول حاله إليك ؛ فرفعْتَ عنك مَؤونةَ البَديهة ، وأرْخيتَ عن نفسكَ خِناقَ الرَّويّة ، وأقْدَمتَ على ردّ جَوابه بعد النّظر وإجالة الفِكْر فيه . فإنْ دَخل عليك أحدٌ منهم فكلَّمكَ بخلافِ ما أنهَى إلى كاتبك ، وطَوَى عنه حاجَتَهُ قِبَلك ، دَفعْتَه عنك دَفْعاً جميلًا ، ومَنَعته جَوابَك مَنعاً وَديعًا ، ثمّ أمَرْتَ حاجبَك بإظهارِ الجفْوَة له ، والغِلظَة عليه ، ومَنعه منَ الوُصُولِ إليْك ؛ فإنَّ ضَبْطك ذلك مما يُحكم لك تلك الأسبَاب ، صَارفًا عنك مَؤُونتَها ، [ومُسهلاً عليك مستَعصِيَها] (١) ، إنْ شاءَ اللهُ .

***

احذَرْ تَضْييع رَأْيكَ ، وإهمالَ أدبك فى مَسالِك الرِّضاَ والغَضَب واعْتِوارِهما إيّاك . فلا يَزْدهِينَّك إفْرَاطُ عُجبٍ تَسْتخفّك رَوائعُه ، ويَستَهويك مَنْظرُه ولا يبْدُرنَّ منك ذلك خَطأً ونَزقَ خِفّة لِمكرُوه إنْ حلّ بك ، أوْ حادِث إنْ طرأُ عليك . وَليكنْ لك من نَفْسِك ظِهْرِيّ مَلجَإٍ تتحرّزُ به مِن آفَاتِ الرّدَى ، وتَسْتعْهده (٢) فى مُهمّ نازل ، وتَتعقّبُ به أُمُورَك فى التَّدْبير . فإن احْتَجْتَ إلى مادّة مِنْ عَقلك ، وَرَويّة مِنْ فِكْرك ، أو انبِساط مِن مَنْطقك ، كان انحِيازُك إلى ظِهْرِيّك مُزداداً ممّا أحببْتَ [الامتياج] منه والامتِيارَ ، وإن ابتَدرتْ (٣) من أمورك بوادرُ جَهل أو زَلَل ، أو مُعانَدة حَق ، أو خَطأ تَدْبير ، كان ما احتَجَنتَ [إليه] مِن رَأيك عُذرًا لك عِند نَفسك ، وظِهْريا قويّا على رَدِّ ما كَرهتَ ، وتخفيفاً لمؤونَة الباغينَ عليك فى القَالَةِ وانتِشارِ الذِّكر ، وحِصْنًا من غُلوب الآفاتِ [عليك ، واستِعلائها] على أخلاقِك ، إن شاء الله .

وامنَع أهْلَ بِطانتك ، وخاصّة خَدمك ، وعامّة رَعيّتك ، مِن استْلحامِ أعراضِ النَّاس عِندك بالغيبة ، والتّقرّب إليك بالسِّعاية ، والإغراء من بَعض ببَعض ، أو النَّميمة إليك بشَيْء من أحوالهم المُستترة عنك ، أو التَّحميل لك على أحَدٍ منهم بوَجْهِ النَّصيحَة ، ومَذهب الشَّفقَة ؛ فإنَّ ذلك أبلَغ بك سُمُوًّا إلى مَنازل (٤) الشَّرف ، وأعْون لك على محْمودِ الذِّكْر ، وأطلَق لعِنان الفَضْل فى جَزالة الرَّأى ، وشَرف الهِمّة ، وقُوّة التّدْبير .

---

(١) فى صبح الأعشى : « مستصعبها » .
(٢) استعهد فلاناً من نفسه : ضمنه حوادث نفسه . وفى صبح الأعشى : « وتستعضد فى موهم المنازل » .
(٣) فى صبح الأعشى : « استدبرت » . (٤) فى صبح الأعشى : « منالة » .

وَأَمْلِكْ نفسَكَ عن الأنبِساط فى الضَّحِك والأنفِهاق(١) ، وعَن القُطوبِ بإظهار الغَضب وتَنحّلِه ؛ فإنَّ ذلك ضَعفٌ عن [مِلك] سَوْرَة الجَهل ، وخُروجٌ مِن أنتِحالِ أسْم الفَضْل . وَلْيَكُن ضَحِكُك تبسّماً أو كَشْرًا فى أحايين ذلك وأوقاتِه ، وعِند كلِّ [رائع] مُستخف مُطرِب ، وقُطوبك إطْرَاقًا فى مَواضع ذلك وأحْواله ، بلا عَجَلة إلى السَّطوة ، ولا إسْراعٍ إلى الطِّيرَة ، دُونَ أنْ تَكْنُفها رويّةُ الحِلم ، وتَملك عليها بَادِرة الجَهْل .

* * *

إذا كُنتَ فى مَجْلس مَلئك ، و [حيث] حُضور العامّة مَجْلسَك ، فإيّاك والرّمىَ ببَصرِك إلى خاصّ مِن قُوّادك ، أو ذى أثَرة [عِندك] مِن حَشمِك . وَلْيَكُن نَظَرك مَقْسومًا فى الجميع ، وَإعارَتك سَمْعك ذَا الحديث بِدعةٍ هادِئة ، ووَقار حَسَن ، وحُضور فَهْم مُسْتجمع ، وقلّة تَضجّر بالمُحدِّث . ثمّ لا يَبْرَح وجْهُك إلى بَعض قُوّادِك وحَرَسك مُتوجّهاً بنَظرٍ رَكين ، وتفقّدٍ مَحْض . فإنْ وَجّه أحدٌ منهم نَظَره مُحدِّثاً ، أو رَماكَ ببَصرِه مُلِحًّا ، فاخْفِض عنه إطْراقاً جميلاً باتّداع وسُكون . وإيّاكَ والتّسرّعَ فى الإطراق ، والخِفّةَ فى تَصارِيف النّظَر ، والإلحاحَ على مَن قَصَد إليك فى مُخاطَبته إيّاك رَامِقاً بنظرِه .

وأعلَم أنَّ تَصفّحك وُجُوهَ [جُلسائك ، وتفقّدك مَجالسَ] قُوّادِك ، مِن قُوّة التّدبير وشَهامةِ القَلب ، [وذكاء الفِطنة] . فتفقّد ذلك عارفاً بمَنْ حَضرك وغابَ عنك ، عَالمًا بمَواضِعهم من مَجْلسك ، ثمّ اغْدُ بهم عن ذلك سائلاً [لهم] عن أشغالهم التى مَنعتْهم مِن حُضور مَجْلسك ، وعاقَتهم بالتّخلّفِ عنك ، إنْ شاء الله .

إنْ كانَ أحدٌ من أعْوانك وحَشَمك تَثِقُ منه بغَيبِ ضَمِير ، وتَعرِف منه لِينَ طاعة ، وتُشْرِف منه على صِحّة رَأْى ، وتأمَنُهُ على مَشُورَتك ، فإيّاك والإقْبالَ عليه فى كُلّ حادِثٍ

---

(١) الانفهاق فى الشيء : التوسع فيه .

يَرِد عليك ، والتَّوجُّه نحوه بنظرك عند طَوارق ذلك ، أو أنْ تُريه أو أحدًا مِن أهْلِ مَجلسكَ أنَّ بك إليه حاجَةً مُوحِشة ، وأنْ ليس بك عنه غِنًى فى التَّدْبير ، أو أنك لا تقضى دُونَه رَأيًا ، إشْرَاكًا منك له فى رَويَّتك ، وإدْخالًا منك له فى مَشورَتِك ، واضْطرارًا منك إلى رَأيِه [فى الأمرِ يعروك] ؛ فإنَّ ذلك مِن دَخائل العُيوب المُنتشِر بها سُوءُ القَالةِ عن نُظَرائك . فانْفِها عن نَفْسِك خائفًا لاعْتلاقِها ذِكرَك ، وأحْجُبْها عنْ رَوِيتك قاطِعًا أطْماعَ أوليائك عنْ مِثلها عندك ، أو غَلبَتِهم عليك منها[١] .

* * *

واعْلم أنَّ للمَشُورة مَوضعَ الخلوة وانفِراد النَّظر ، [ولكلِّ أمْرٍ غاية تحيط بحدُودِه ، وتجمع مَعالمه] ؛ فابغِها مُحْرِزًا لها ، ورُمْها طالبًا لنَيْلها ، وإيَّاك والقُصُورَ عنْ غايتها ، أو التَّفريط فى طَلَبها ، [إن شاء الله تعالى] .

وإياك والإغرامَ بكثرةِ السّؤال عن حَديثٍ مّا أعجبَك ، أو أمرٍ مّا ازدَهاك ؛ أو القطعَ لحديث مَنْ أرادك بحَديثه حتى تَنْقُضه عليه بالأخْذِ[٢] فى غَيره ؛ أو المَسْألة عَمَّا ليس منه ؛ فإنَّ ذلك عندَ العامّة منْسوبٌ إلى سُوءِ الفهْم وقِصَر الأدَب عن تناوُل مَحاسنِ الأُمور ، والمَعرفة بمساوِئها . ولكن أنْصِتْ لمُحَدِّثك ، وأرْعِه سَمْعك ، حتى يَعلمَ أنك قد فَهِمتَ حديثه ، وأحَطْتَ مَعرفةً بقَوْله . فإنْ أردتَ إجابتَه فعَنْ مَعْرفةٍ بحاجته ، وبعد عِلمٍ بطلِبَته ، وإلاَّ كنْتَ عند انقِضاء كلامِه كالمُتعجِّب[٣] منْ حديثه بالتَّبَسُّم والإغضاء ، فأجْزَى عنك الجوابَ ، وقَطع عنك ألسُنَ العَتْب .

إيَّاك وأنْ يَظْهرَ منك تبَرُّم بطول مجالسك ، أو تَضَجّر مِمَّن حَضَرَك . وعليْك بالتَّثبّتِ عند سَوْرة الغضَب ، وحَمِيّة الأنف ، ومَلال الصَّبر فى الأمرِ تَسْتَعْجِل به ، والعَمل تأمرُ بإنفاذه ؛ فإنَّ ذلك سُخفٌ شائن ، وخِفَّةٌ مُرْدِية ، وجَهالة بادية . وعليك بثُبوتِ

(١) فى صبح الأعشى : « أو غلوبهم عليها منك » .
(٢) فى صبح الأعشى : « بالخوض »
(٣) فى الأصلين : « كالمتعلل » : وما أثبتنا من صبح الأعشى .

المَنْطق ، ووَقار المَجْلس ، وسُكون الرِّيح ، والرَّفْض لحَشْو الكلام ، والترْك لفُضُوله والإغرام[١] بالزِّيادات فى مَنْطقِك، والتَّرْديد للَفْظك، من نحو : اسمع، [وأفهم عنى ، و ياهناه]، وألا تَرى ، أو ما يُلهجُ به من هذه الفُضُول المُقصِّرة بأهْلِ العَقل ، [الشَّائنة لذوى الحِجَا فى المنطق] ، المَنْسُوبة إليهم بالعِىّ ، المُرْدِية لهم فى الذِّكر . وخِصالٌ من مَعايب المُلوك والسُّوقةُ عنها غبيَّةُ النَّظر ، إلاّ مَن عرَفها مِن أهْل الأدَب ، وقَلّما حاملٌ لها ، مُضطلعٌ [بها ، صابرٌ على ثِقْلها] ، آخِذٌ لنَفسِه بجَوامعِها . فانفها عن نَفْسِك بالتَّحَفُّظ منها ، وأمْلِك عليها اعتيادك[٢] إيَّاها معْنِيًّا بها منها : كَثْرةُ التَّنحْنُم والتَّبصق والتَّنخع والتَّثاؤُب والجُشاء والتَّمطِّى [وتحْريك القَدَم] و تَنْقِيض الأصابع والعَبَث بالوَجْه [واللحية] والشَّارب والمِخْصرَة وذُؤابة السَّيف ، والإيماض بالنَّظر ، والإشارة بالطَّرْف إلى أحَدٍ مِن خَدَمك بأمْرٍ إنْ أرَدْته ، أو السِّرار فى مَجْلسك ، أو الاستعجال فى طَعْمك وشُرْبك .

وليكُنْ مَطْعَمك متَّدِعًا ، وشُرْبك أنفاساً ، وجَرْعُك مَصًّا . و إيَّاك والتَّسرُّع إلى الأيمان فيما صَغُرَ أو كَبُر من الأُمور ، أو الشَّتِيمة بقَوْل : يابن الهَناة ؛ أو الغَمِيزة لِأحدٍ من خَدَمك وخاصَّتِك ، بتَسْويفِهم مُقارَفَة الفُسُوق بِمَحْضرِك ، أو فى دارِكَ وفنائك ؛ فإن ذلك مِمَّا يَقبُح ذِكْرُه ، ويَسوءُ مَوْقع القَوْل فيه ، وتُحمل عليك مَعايبه ، و ينالك شَيْنُه ، ويَنتشر عنك سُوءُ نَبَئِه . فاعرِفْ ذلك مُتَوقِّياً له ، واحْذره مُجانباً لِسُوءِ عاقبَته .

استَكْثر من فَوائدِ الخَيْر ، فإنَّها تَنْشرُ المَحْمدة وتُقيلُ العَثْرة . واصْطَبِرْ على كظْم الغَيظ ، فإنه يُورِثُ الراحة[٣] ، و يُؤَمِّن السَّاحة . وتَعهَّد العامَّةَ ، بمَعرفةِ دَخْلهم ، و تَبطُّن أحْوالهم ، واستِثارةِ دفائنهم ، حتى تَكُونَ منها على مَرْأى العَيْنِ ، ويَقِين الخِبْرَة ، فتُنعِش عَدِيمَهم ، وتَجْبُر كَسِيرَهم ، وتُقيم أوَدَهم ، وتُعلِّمَ جاهلَهم ، وتَستَصلح فاسِدَهم ؛ فإنَّ ذلك من فِعالِك بهم يُورِثك العِزَّة ، ويُقدِّمك فى الفَضْل ، ويُبْقِى لك لِسانَ صِدقٍ فى العاقبة ،

---

(١) فى الأصلين : « والترك للاغمام » .

(٢) فى الأصلين : « اعتمادك » . وما أثبتنا من صبح الأعشى .

(٣) فى الأصلين : « العز » . وما أثبتنا من صبح الأعشى .

و يُحرِز لك ثوابَ الآخرة ، ويُرد عليك عَواطفَهم المُستنفِرة منْك ، وقلوبَهم المُشيحة[١] عنك.

قِس بيْن مَنازلِ أهْل الفضْل فى الدِّين والحِجا والرَّأى والعقْل والتَّدْبير والصِّيت فى العامَّة ، و بين مَنازل أهْل النَّقص فى طَبقات الفضْل وأحْواله ، والجُمُود[٢] عِند مُباهاة أهْل الحَسَب ، وَانظرْ بِصُحبة أيّهم تنالُ من مودته الجميل[٣] ، وتَستْجمع لك أقاويل العامَّة على التَّفضيل ، وتَبلغ دَرَج الشَّرَف فى الأحْوالِ المُتصرِّفة بك ؛ فاعتَمِدْ عليهم مُدْخلاً لهم [فى أمْرِك] ، وآثِرْهم بمُجالستِك لهم مُسْتَمِعاً منهم ، وإيَّاكَ وتَضييعهم مُفرِّطاً ، وإهْمالَهم مُضَيِّعًا .

* * *

هذه جَوامعُ خِصالٍ قد لَخَّصها لكَ أميرُ المؤمنين [مفسراً]، وَجمَع لك شواذَّها[٤] مؤلِّفاً، وأهْداها إليكَ مُرشداً ، فقِف عِند أوَامرِها ، و[تَناه عن] زَوَاجِرها ، وتَثَبَّت فى مَجَامِعها ، وخُذ بوَثائق عُرَاها ، تَسْلَم من مَعاطِبِ الرَّدَى ، وتَنَل أنفس الحُظوظ ، ورَغيب الشَّرَف ، وأعْلى دَرَج الذِّكْر . واللهَ يَسأَل لك أميرُ المؤمنين حُسنَ الإرشاد ، وتَتابُعَ المزيد ، وبُلوغَ الأمل ، وأنْ يجعلَ عاقبَة ذلك بك إلى غِبْطة يُسوِّغك إيَّاها ، وعافِية يُحلُّك أكنافَها ، ونِعمَة يُلهِمَك شُكرَها ، فإنَّه المُوَفِّق للخير ، والمُعين على الإرشاد ، ومنْهُ تمام الصَّالحات ، وهو مُؤْتى الحسنات ، عِنْده مَفاتيح الخَيْر ، وبِيَده المُلك ، وهُو عَلَى كلِّ شَىْءٍ قدير .

فإذا أفضيْتَ نحو عَدوِّك ، واعتزَمْتَ على لِقائهم ، وأخذتَ أُهبةَ قِتالهم ، فاجْعل دِعامتَك التى تَلجأُ إليها ، وثِقتَك التى تأمُلُ النَّجاةَ بها ، ورُكْنَك الذى ترْجى منَالَ الظَّفرِ به ، وتَكْتَهِف[٥] به لمَعَاق الحذَر ، تَقوَى الله عزَّ وجلَّ مُسْتشعراً لها بمُراقبَتِه ، والاعتصامَ بطاعتِه مُتَّبِعاً لأمره ، مُجْتنِبًا لسخْطِه ، مُحْتذِياً لسُنَّته ، والتَّوقِّى لمَعاصيه

(١) فى صبح الأعشى : « المتنحية » .
(٢) فى صبح الأعشى : « والخمول » .
(٣) كذا فى صبح الأعشى . وفى الأصلين : « تنال مودة الجميع » .
(٤) فى الأصلين : « شواهدء» . وما أثبتنا من صبح الأعشى .
(٥) اكتهف وتكهف : لزم الكهف ، والكهف المغارة والوزر والملجأ .

فى تعطيل حُدُودِه أو تعدّى شرائعه ، مُتوكّلا عليه فيما صَمَدت[١] له ، وَاثقاً بنَصْرِه فيما وُجِّهتَ نحوه ، مُتبرئاً من الحولِ والقوّة فيما نالك من ظَفَر ، وتلقّاك من عِزّ ، رَاغِبًا فيما أهاب[٢] بك أميرُ المؤمنين إليه من فضْل الجِهادِ ورَمَى بك إليه ، محمودَ الصَّبر فيه عند اللهِ من قِتالِ عدوّ المُسلمين ، أكلبَهم عليه ، وأظهرَه عداوةً لهم ، وأفدَحه ثقلاً لعامّتهم ، وآخذه بِربَقِهم[٣] ، وأعْلاه عليهم بَغيًا ، وأظهرَه عليهم فِسقاً وفجورًا ، وأشدّه على فيئهم الذى أصارَه الله لهم [وفتَحَه عليهم] مؤونة [وكَلاً . والله المُستعانُ عليهم ، والمستنْصَر عَلَى جماعَتهم ، عليه يتوكّلُ أميرُ المؤمنين ، وإيّاه يَستصرخُ عليهم ، وإليه يُفوّضُ أمره ، وكَفى باللهِ وَليًّا وناصرًا ومُعِيناً ، وهو القَوِىّ العزيز] .

ثمّ خُذ مَنْ مَعك مِن تُبّاعك وجُنْدِك بكَفّ مَعرّتهم ، ورَدّ مُستعلى جورهم ، وإحكام خَلَلهم[٤] ، وضَمّ مُنْتشِر قواصِيهم ، ولَمّ شَعثَ أطرافهم ، وتقييدهم عمّنْ مرّوا به من أهْلِ ذِمّتِك ومِلّتك ، بحُسْنِ السّيرَة ، وعَفاف الطُّعمة ، ودَعَة الوَقار ، وهَدْى الدّعَة ، وجمام[٥] المُستجمّ ، مُحكمًا ذلك منهم ، مُتفقّدًا لهم فيه تَفقّدكَ إيّاه من نَفسك .

* * *

ثمّ اُصمِد لعَدُوِّك المُتسمّى بالإسلام ، الخارج مِن جماعَةِ أهلِه ، المُنتَحِل ولايةَ الدّين ، مُستَحِلاً لدماءِ أوليائِه ، طاعِنًا عليهم ، راغِبًا عنْ سُنّتهم ، مُفارِقاً لِشرائعهم ، يَبْغيهم الغوائل ، ويَنْصب لهم المكايد ؛ أضْرَم حِقْداً عليهم ، وأرصَد عداوةً لهم ، [وأطلَب لِغِرّات فُرصهم] منَ التُّرْك ، وأُمم الشِّرْك ، وطَواغى المِلَل ، يدْعو إلى المعْصِيَة والفُرْقة ، والمرُوقِ منَ الدّينِ إلى الفِتنَة ، مُخْترِعًا بهَواه للأدْيانَ المُنتَحَلة ، والبِدع المُتفرِّقة ، خَسارًا وتَخْسيرًا ، وضَلالًا وتَضليلًا ، بغَيْرِ هُدًى من اللهِ ولا بَيان ، ساءَ مَا كَسبَتْ يدَاه ،

(١) صمد للأمر : قصده معتمداً عليه . (٢) أهاب بصاحبه : دعاه .
(٣) الربقة : حبل يوضع فى العنق ، وجمعه ربق .
(٤) فى صبح الأعشى : « ورد مشتعل جهلهم وإحكام ضياع عملهم » .
(٥) الجمام (كسحاب) : الراحة .

وما اللهُ بظَلَّامٍ للعبيد ، وبِئسَما سَوَّلت له نَفْسُهُ الأمَّارة بالسُّوء ، واللهُ من وَرَائه بالمرْصاد ، وسيَعلَم الذينَ ظلَموا أىَّ مُنْقَلبٍ يَنْقلبُون .

حَصِّنْ جُنْدَكَ ، واُشْكُمْ نَفسَك بطاعةِ اللهِ فى مُجاهدَةِ أعدائه ، وارْجُ نصْرَه ، وتَنجَّز موْعودَه ، مُتقدِّماً فى طَلبِ ثَوابِه عَلَى جِهادِهم ، مُعْتزماً فى ابتغاءِ الوَسيلةَ إليه عَلَى لِقائِهم ، فإنَّ طاعتَك إيْاهُ فيهم ، ومُراقبتَك لَه ، ورَجاءَك نصْرَه ، مُسهِّلٌ لك وُعوره ، وعاصِمُك منْ كلِّ سُبَّة ، ومُنْجيك من كلِّ هُوَّة ، وناعشُك منْ كلِّ صَرْعة ، ومُقيلُك منْ كُلِّ كَبْوَة ، ودَارِئٌ عنْك كُلَّ شُبهه ، ومُذْهب عنْك لَطْخةَ كُلِّ شَك ، ومُقَوِّية بكلِّ أيْدٍ[1] ومَكِيدة ، [ومعِزُّك فى كُلِّ معْتَرك قِتَال] ، ومُؤيِّدُك فى كُلِّ مَجمع لِقَاء ، [وكالِئُك عنْد كُلِّ فِتْنةٍ مُغْشِيَة] ، وحافِظُك من كلِّ شُبْهةٍ مُرْدية ، واللهُ وَليُّك وولِىُّ أَمير المؤمنين فِيك ، [والمُستَخْلَفُ عَلَى جُنْدكَ ومن معك] .

* * *

اُعلَمْ أنَّ الظفَرَ ظفَرَان : أحدُهما — وهو أعمُّ منْفعَة ، وأبلَغ فى حُسنِ الذِّكْرِ قالَة ، وأحْوَطُه سَلامةً ، وأتمّه عافيَة ، وأعْوَده عاقبَة ، وأحْسَنُه فى الأُمورِ موْرِداً ، [وأعلاه فى الفضل شرفاً] ، وأصَحّه فى الرؤْيَة حَزْماً ، وأسْلَمُه عنْد العامَّة مَصْدَرًا — ما نيلَ بِسلامةِ الجُنود ، وحُسنِ الحِيلَة ، ولُطْف المَكِيدَة ، ويُمْن النَّقيبَة[2] ، [وَاسْتِنزال طاعة ذَوى الصُّدوف] ، بغَيْر إخطار[3] الجيُوش فى وَقْدَة جَمْرَة الحَرْب ، ومُنازَلَة الفُرْسان فى مُعتَرك المَوْت ، وإنْ ساعَدَك [الظَّفَر ، ونالك] مزيد السَّعادة فى الشَّرف ، ففى مُخاطرة التَّلف مَكْروه المَصائب ، وعِضاض السُّيوف ، وألم الجِراح ، وقِصاص الحُروب وسِجالها بمُعاورة[4] أبطالها ، عَلَى أنك لا تَدْرى لأى الفريقَين يكون الظفَر فى البَديهة ، ومَن المَغلوب فى الدَّولة ؟

---

(١) الأيد : القوة .
(٢) النقيبة : النفس ؛ يقال : إنه ميمون النقيبة ، منجح الفعال ، مظفر المطالب .
(٣) أخطر : جعله فى خطر .
(٤) يقال : تعاور القوم فلاناً ، إذا تعاونوا عليه بالضرب واحداً بعد واحد .

ولعلّك أن تكون المطْلوب بالتّمْحيص . فحاول إصابة أبلغهما فى سلامة جُنْدك ورَعيّتك ، وأشْهرِهما صيتاً فى بُدوّ تدبيرك ورأيك ، وأجمعهما لأُلفة وليّك وعَدوك ، وأعونهما على صَلاح رعيّتك وأهل مِلّتك ، وأقواها شكيمة فى حزمك ، وأبعدِها من وَصْم عَزْمك ، [وأعلقهما بزمام النّجاة فى آخرتك] ، وأجْزلها ثواباً عند ربك .

وأبدأْ بالإعذار [إلى عدوّك] ، والدُّعاء لهم إلى مُراجعة الطّاعة ، وأمر الجماعة ، وعُرَى الأُلفة ، آخذاً بالحُجَّة عليهم ، مُتقدّماً بالإنذار لهم ، باسطاً أمانَك لمن لجأ إليك منهم ، داعياً لهم إليه بألْين لفظك ، وألطف حِيلتك ، متعطّفاً عليهم برأْفتك ، مُترفّقاً بهم فى دُعائك ، مُشفِقاً عليهم من غَلبة الغَواية لهم ، وإحاطة الهَلكة بهم ، مُنفذاً رُسُلك إليهم بعد الإنذار ، تَعِدهم إعطاء كلّ رَغبة يَهش إليها طَمعهم فى مُوافقة الحقّ ، وبَسط كلّ أمان سألوه لأنفُسهم ومَن معهم ومَن تَبعهم ، مُوَطّناً نفسك فيما تَبسط لهم مِن ذلك على الوَفاء بوَعْدك ، والصّبر على ما أعْطيْتَهم مِن وثائق عَهْدك ، قابلاً تَوبة نازعهم[1] عن الضّلالة ، ومُراجعة مُسيئهم إلى الطّاعة ، مُرْصِداً للمنحاز إلى فئة المُسلمين وجماعتهم إجابةً إلى ما دَعوته إليه ، وبَصّرته إياه مِن حَقّك وطاعتك ، بفَضْل المَنزلة ، وإكرام المَثْوى ، وتَشريف الحال . ولْيَظْهر من أثرك عليه ، وإحسانك إليه ، ما يَرْغب فى مِثْله الصّادفُ عنك ، المُصرّ على خِلافك ومَعْصيتك ، ويَدْعو إلى الاعتلاق بحَبْل النّجاة ، وما هو أمْلَكُ به فى الاعتِصام عاجلا ، وأنْجَى له من العِقابِ آجلا ، وأحْوطُ على دِينه ومُهْجته بَدْءا وعاقبةً ؛ فإنّ ذلك مما تَسْتدعى به نصرَ الله عزّ وجلّ عليهم ، وتَعتصم[2] به فى تَقْدمة الحُجّة إليهم ، مُعْذراً أو مُنذراً إن شاء الله .

ثم أذْكِ عُيونَك[3] على عدوّك ، مُتطلّعاً لعِلْم أحْوالهم التى يَتقلّبون فيها ، ومَنازلهم التى همُ بها ، ومَطامِعهم التى قد مَدُّوا بها أعناقَهم نحوَها ، وأىّ الأمور أدْعَى لهم إلى الصّلح ، وأقْودها لِرضاهم إلى العافية ، [وأسهلها لاستنزال طاعتهم] . ومن أىّ الوُجوه مأتاهم :

(١) نازعهم : المنتهى عن الضلالة . (٢) لعلها : « وتعضد » .
(٣) أذكى عليه العيون : أرسل عليه الطلائع .

أمِن قِبَل الشِّدة والمُنافَرة والمَكيدة والمُباعَدة ، والإرْهاب والإيعاد ، أو التَّرْغيب والإطْماع ؟ مُتَثَبِّتاً فى أمْرك ، مُتخيِّراً فى رَويّتك ، مُتمكِّناً مِن رَأْيك ، مُسْتَشيراً لذوى النَّصيحة ، الذين قد حَنَّكتهم [السنُّ ، وخبطتهم] التَّجْربة ، ونَجَّذتهم[1] الحُروب ، مُتشزِّناً[2] فى حَرْبك ، آخذاً بالحَزْم فى سُوءِ الظَّنِّ ، مُعِدًّا للحَذَر ، مُحترسًا من الغِرَّة ، كأنك — [فى مسيرك كله ونُزولك] أجمع — مُواقفٌ لعدوِّك رأىَ عَين ، تنْظر حَملاتهم ، وتَتخوَّف غاراتهم ، مُعِدًّا أقوَى مَكيدتك ، وأجَدَّ تَشْميرك ، وأرْهَب عَتادك ، مُعظِّماً أمرَ عَدُوِّك لأكثر مما بَلغك ، [حذراً يكاد يُفرط ؛ لتُعِدَّ له من الاحتراس عظيمًا] ، ومن المَكيدة قَويًّا ؛ من غير أن يَفْثأك[3] ذلك عن إحكام أُمورك ، وتَدْبير رَأْيك ، وإصْدار رَويّتك ، والتأهُّب لما يحزُبك ؛ مُصغِّراً له بعد استِشعار الحَذَر ، واستبطان[4] الحَزْم ، وإعمال الرَّوية ، وإعْداد الأُهْبة . فإن ألفيْت عدوَّك كليل الحدِّ ، وَقِم الحَزْم[5] ، نَضِيض الوَفْر[6] ، لم يَضرُرْك ما أعْدَدتَ له من قُوَّة ، وأخذتَ من حَزْم ، ولم يَزِدْك ذلك إلا جُرأة عليه ، وتَسرُّعًا إلى لقائه . وإنْ ألفيتَه مُتوقِّد الجمر ، مُسْتكثِف الجَمْع ، قوىَّ التَّبع ، مُسْتَعلىَ سَورة الجَهْل ، معــه من أعْوان الفِتْنة وتَبَع إبليس مَنْ يُوقد لهبَ الفِتنة مُسعِّرًا ، ويَتقدَّم إلى لِقاء أبطالها مُتسرِّعًا ، كُنتَ لأخْذك بالحَزم ، واسْتعدادك بالقُوة ، غيرَ مَهين الجُند ، ولا مُفْرط فى الرَّأى ، ولا مُتلهِّفٍ على إضاعة تَدْبير ، ولا مُحتاجٍ إلى الإعداد وعَجَلةِ التَّأهُّب مُبادرةً تَدْهَشك ، وخَوفاً يُقلقك . ومتى [تَغترّ بترقيق المُرقِّقين] ، وتأخذ بالهُوَينى فى أمرِ عدوِّك ، لتَصغير المصغِّرين ، يَنْتَشر عليك رأْيُك ، ويَكون فيه انْتِقاض[7] أمرِك ، ووَهَن تَدْبيرك ، وإهمال الحَزْم فى جُنْدك ، وتَضْييع له ، وهو مُمكن الإصحار ، رَحْب المَطْلب ، قوىّ العِصْمة ، فَسيح المُضْطرب ، مع ما يَدْخل رعيَّتك من الاغْترار والغَفْلة عن إحكام أسرارهم[8] ، وضَبْط مَراكزهم ، لِما يَرَوْن من اسْتنامتك

(١) نجذته التجارب : أحكمته .

(٢) متشزنا : متأهبا .

(٣) يفثأك : يسكنك ويكسرك .

(٤) فى أحد أصلى المنظوم : « واضطهاد » .

(٥) وقم الحزم : مقهوره .

(٦) نضيض الوفر : قليل المال :

(٧) الانتقاض : الانتكاث .

(٨) فى المنظوم : «أحراسهم» .

إلى الغِرَّة ، ورُكُونك إلى الأمْن ، وتهاوُنك بالتَّدْبير . فيَعود ذلك عليك فى انتشار الأطراف ، وضَياع الأحكام ، ودُخول الوَهَن ، بما لا يُسْتقال مَحْذوره ، ولا يُدْفع مَخُوفه .

***

احْفَظْ من عُيونك وجَواسيسك ما يأتُونك به منْ أخْبار عدُوِّك ، وإياكَ ومُعاقبة أحدٍ منهم على خَبَرٍ إن أتاكَ به اتَّهمته فيه ، وسُوئتَ ظَنًّا عليه به ، وأتاك غيرُه بخلافه ، أو أنْ تُكَذِّبه فيه وتَرُدّه عليه . ولعلّه أنْ يكون قد محضك النَّصيحة ، وصَدَقك الخبر ، وكَذَبك الأوَّل . أو خَرَج جاسُوسك الأوَّل مُتقدِّمًا قبل وُصول هذا منْ عِندِ عدُوِّك . وقد أزْمَعوا لك أمْرًا ، وحاولوا لك مَكيدة ، وأرادُوا منك غِرَّة ، فأزدلفوا إليك فى الأهبة ، ثم انتقض بهم رأيهُم ، واختلف عنه جماعتهم ، فأوردا[1] رَأيًا ، وأحْدَثوا مَكيدَة ، وأظْهَروا قُوَّة ، وضَرَبوا مَوْعدًا ، وأمُّوا مَسْلكاً ، لمَدَد أتاهم ، أو قُوّة حَدَثت لهم ، أو بَصيرة فى ضَلالة شغَلَتهم . فالأحوال مُتنقِّلة بهم فى الساعات ، وطَوارق الحادثات ، ولكن البَسهمْ[2] جميعًا على الانتصاح ، وأرْجح لهم المَطامع[3] ، فإنك لَن تَسْتعبِدهم بمثلها . وعِدْهم جزالةَ المَثاوب فى غيرِ ما اسْتنامة منك إلى ترقيقهم أمْرَ عدُوِّك ، والاغترار بما يأتونك به ، دُون أن تُعمل رويّتك فى الأخْذ بالحزْم ، والاستكثار مِن العُدَّة . واجْعلهم أوثَقَ مَن تقدر عليه ، وآمَنَ من تَسْكنُ إلى ناحيته ، ليكونَ ما يُبْرم عدُوُّك فى كلّ يومٍ وليْلة عندكَ إن اسْتَطعتَ ذلك ، فتَنقُض عليهمْ بتَدْبيرك ورأيك ما أبْرموا ، وتأتيهم منْ حيثُ [أمنُوا ، وتأخُذ لهم أهبة ما عليه] أقْدَموا ، وتَسْتعِدَّ لهم بمثل ما حَذِرُوا .

واعلَمْ أنَّ جَواسيسَك وعيُونَك رُبما صَدَقوك ، وربما غَشُّوك ، وربما كانوا لك وعليك ، فنَصحوا لك وغَشُّوا عدُوَّك ، وغَشُّوك ونَصَحوا عدُوَّك ، وكثيراً ما يَصْدُقونك ويَصْدُقونه ؛ فلا تبدُرنَّ منك فَرطةُ عُقوبةٍ إلى أحَدٍ منهم ، ولا تَعْجَل بسُوء الظَّنِّ إلى مَن اتَّهمته على ذلك ، [واسْتَنزل نصائحَهمْ بالمَباحة والمَنالة][4] ، وابْسُط منْ آمالهم فيك ،

(١) فى صبح الأعشى : « فأرادو » .
(٢) فى المنظوم : وأرضخ لهم «المطامع» : ويقال : رضخ له من ماله ، إذا أعطاه .
(٣) البسهم : خالطهم ، والضمير للجواسيس .
(٤) المباحة : الإعطاء .

منْ غَير أن ترَى أحداً منهم أنك أخَذتَ من قوْلِه أخْذَ العامل به والمُتّبع له، أو عَملتَ على رَأيهِ عَمَل الصَّادر عنه ، أو رَددتَه عليه ردَّ المُكَذِّب به ، والمُتّهم له ، المُسْتخِفّ بمَا أتَاك منه . فتُفسد بذلك نَصِيحتَه ، وتَسْتدْعى غِشّه ، وتَجْتَرّ عدوَاتَه . واحذَر أن يُعرف جواسيسُكَ فى عسكرك ، أو يُشار إليهم بالأصابع . ولْيكن منزلُهم على كاتب رَسائلك وأمين سِرك ، ويكون هو المُوَجِّه لهم ، والمُدْخل عليك مَن أردتَ مُشافهتَه منهم .

واعلم أن لعدوّك فى عَسكرك عُيوناً راصدة ، وجَواسيس كامنة ، وأنَّ رأيَه فى مَكيدتك مثل ما تُكايده به ، وسَيحتال لك كاُحتيالك له ، ويُعدّ لك كإعدادك له [فيما تزاوله منه ، ويحاولك كمحاولتك إياه فيما تُقارعه عنه] ، فاحذَر أن يُشهَر رجل مِن جواسيسكَ فى عَسْكرك فيبلغ ذلك عدوّك ، ويَعرف مَوضعه ، فيُعدّ له المَراصد ، ويَحتال له بالمَكايد ، فإن ظَفِر به وأظهر عُقوبَته كَسر ذلك ثِقاتِ عُيونك ، وخذلهم عن تَطلُّب الأخبار مِن مَعادنها ، واُستقصائها من عُيونها ، [واستعذاب اجتنائها من ينابيعها] ، حتى يَصيروا إلى أخذها مما عَرض من غير الثّقة ولا المُعاينة ، لَقْطاً لها بالأخبار الكاذبة ، والأحاديث المُرْجفة .

واحذَر أن يَعرف بعضُ عُيونك بعضاً ، فإنك لا تأمن تواطؤَهم عليك ، وممالأتَهم عدوّك ، واجتماعَهم على غِشّك ، [وتَطابُقهم على] كَذبك ، [و إصفاقَهم على خيانتك] ، وأن يُورِّط بعضهم بعضاً عند عدوّك . فأحْكم أمرَهم ؛ فإنهم رأسُ مَكيدتك ، وقِوامُ تَدْبيرك ، وعليهم مدارُ حَرْبك ، وهو أول ظَفَرك . فاعمَل على حَسَب ذلك ، وحيث رجاؤك به ، تنل أمَلك مِن عدوّك ، وقُوتك على [قِتاله ، واحتيالَك لإصابة غِرّاته] ، وانتهاز فرصه ، إن شاء الله .

فإذا أحكَمتَ ذلك ، وتقدَّمت فى إتقانه ، واستظهرت بالله وعَوْنه ، فوَلِّ شُرطتك وأمرَ عَسْكرك أوثقَ قُوّادك عندك ، وآمنَهم نصيحةً ، وأنفذهم بصيرةً فى طاعتك ، وأقواهم شَكِيمة فى أمْرك ، وأمْضاهم صَريمة ، وأصدقَهم عفافاً ، وأجزأَهم غناء ، وأكفاهم

أمانةً ، وأصحّهم ضميراً ، وأرضاهم [فى العامّة ديناً] ، وأحمدهم [عند الجماعة] خُلقاً ، وأعطفهم على جماعتهم[١] رأفةً ، وأحسنهم لهم نظراً ، وأشدّهم فى دين الله وحقّه صلابةً . ثم فوِّضْ إليه مقوِّياً له ، وابسُط من أمله مُظهراً عنه الرِّضا ، حامداً منه الابتلاء . وليكن عالماً بمراكز الجنود ، بصيراً بتقدُّم المَنازل ، مُجرِّباً ، ذا رأْى وتجربة وحزْم فى المكيدة ، له نباهةٌ فى الذِّكر ، وصيت فى الولاية ، مَعْروف البَيت ، مَشهور الحسب . وتَقدَّم إليه فى ضَبط مُعَسكرك ، وإذكاء أحراسه فى آناء ليله ونهارِه ، ثم حَذِّره أن يكونَ له إذْن لجنُوده فى الانتشار والاضطراب والتقدُّم لطلائعك ؛ فتُصاب لهم غِرّة يَجترئُ بها عدوُّك عليك ، ويُسرع إقداماً إليك ، ويَكسِر من أفئدة جُنودك ، ويُوهن من قُوّتهم ؛ فإن إصابة عدوِّك الرجلَ الواحدَ من جُندك وعَبيدك مُطْمِعٌ لهم فيك ، مُقوٍّ لهم على شَحذ أتباعهم عليك ، وتَصغيرهم أمرَك ، وتَوْهينهم تَدْبيرك . فحَذِّره ذلك وتقدَّمْ إليه فيه . ولا يكونَنَّ منه إفراطٌ فى التَّضييق عليهم ، والحَصْر لهم ، فيَعُمُّهم أزْله[٢] ، ويَشْملهم ضَنْكه ، ويَسوء عليهم حاله ، وتشتدُّ به المؤنة عليهم ، وتَخبث له ظُنونهم . وليكن موضعُ إنزاله إياهم ضامًّا لجماعتهم ، مُستديراً بهم ، جامعاً لهم ، ولا يكون منتشراً متبدّدًا فيشقّ ذلك على أصحاب الأحراس ، ويكون فيه النُّهزة للعدوّ ، والبُعد من المادّة ، إن طَرق طارق فى فَجآت الليل وبَغتاته . وأوْعز إليه فى أحراسه ، [وتقدم إليه فيهم كأشد التقدم ، وأبلغ الإيعاز] ، ومُرْه فليولِّ عليهم رجلاً رَكيناً مُجرِّباً ، جرىء الإقدام ، ذاكى الصَّرامة ، جَلْد الجوارح ، بصيراً بموضع أحراسه ، غيرَ مُصانع ولا مُشفع للنَّاس فى التَّنحِّى إلى الرَّفاهية والسَّعة ، وتقدُّم العَسكر أو التأخُّر عنه ، فإن ذلك مما يُضعف الوالى ويوهنه ، لاستنامتِه إلى مَن ولاّه ذلك ، وأمّنه به على جَيْشه .

* * *

واعْلم أنّ مواضعَ الأحراس مِن مَوضعك ، ومكانَها من جُندك ، بحيثُ الغَناء عنهم ،

---

(١) فى المنظوم : « كافتهم » .
(٢) الأزل : الضيق والشدة .

والردُّ عليهم ، والحِفْظ لهم ، والـكِلاءة لمن بَغتهم طارقاً ، وأرادهم مُخاتلاً ، ومَراصدُها المُسـلّ منها ، والآبق من أرقائهم وأعْبدهم ، وحِفظُها من العُيون والجَواسيس من عدوّهم .

واحذَر أن تَضْرب على يَديه ، أو تَشْـكُمه عن الصَّرامة بمؤامرتك فى كل أمر حادث وطارئ ، إلاّ فى المُهم النَّازل ، والحَدَث العـام ، فإنك إذا فعلتَ ذلك به دعوته إلى نُصحك ، واستوليتَ على محصول[1] ضَميره فى طاعتك ، وأَجهد نفسه فى تزيينك ، [وأعمل رأيه فى بلوغ موافقتك] و إغاثتك ، وكان ثقتَك ورِدأك وقوتَك ودعامتَك ، وتفرغتَ أنت لمُـكايدة عدوّك ، مُريحاً نفسَك من هَمّ ذلك والعِناية به ، مُلقيا عنك مَؤنة باهظةً ، وكلفةً فادحة ، إن شاء الله .

ثم اعلم أنَّ القضاءَ من الله بمكانٍ ليس به شىء من الأَحكام ، ولا بمثل محلّه أحدٌ من الولاة ، لِما يجرى على يَديه مِن مَغاليط الأحكام ، ومَجارى الحُدود . فليكن مَنْ تُولِّيه القضاءَ فى عَساكرك من ذوى الخير فى القَناعة والعَفاف والنَّزاهة والفَهم والوَقار والعِصْمة والوَرع ، والبَصَر بوُجوه القضـايا ومَواقعها ، قد حَنَّـكته السِّنّ ، وأَيَّدَته التَّجْربة ، وأَحْـكمته الأُمور ، ممن لا يَتصنَّع للولاية ، ويَستعد للنُّهْزة ، ويَجْترئُ على المُحاباة فى الحُـكم ، والمُداهنة فى القَضاء ، عَدْلَ الأمانة ، عفيفَ الطُّعمة ، حسنَ الإنصات ، فَهِم القَلْب ، وَرِع الضَّمير ، مُتخشِّع السَّمت ، بادِى[1] الوَقار ، مُحْتسباً لِلخَير . ثم أجْرِ عليه ما يَكْفيه ويَسعه ويُصلحه ، وفرِّغه لما حمّلته ، وأَعِنْه على ما ولَّيته ، فإنك قد عرَّضته لهَلـكة الدنيا و بوار الآخرة ، أو شَرف العاجلة وحُظْوة الآجلة ، إن حَسُنت نيّتُه ، وصَدَقَت رَويّته ، وصحَّت سريرته ، وسلَّط حكم الله على رعيَّته ، [مُطلقاً عِنانه] ، مُنفذاً قضاءه فى خَلقه ، عاملاً بسُنَّته فى شَرائعه ، آخذاً بحُدوده وفرائضه . واعلم أنّه من جُنـدك ومُعَسكرك بحيثُ ولايتك ، وفى المَوضع الجارية أحكامُه عليهم ، النافذة أَقْضيتُه فيهم ، فاعْرِف مَن تُولِّيه ذلك ، وتُسنده إليه .

* * *

(١) فى المنظوم : « محض » . (١) فى المنظوم : « هادى الوقار » .

ثم تقدَّم فى طلائعك ، فإنها أوَّلُ مكيدتك ، ورأسُ حربك ، ودعامة أمرك ، فانتخب لها من كلّ قادة وصحابة ، رجالاً ذوى نجدة وبأس ، وصرامة وخبرة ، حماةً كفاةً ، قد صَلُوا بالحرب ، وتذاوقوا سجالها(١) ، وشربوا من مرارة كؤوسها ، وتجرَّعوا غُصص درَّتها ، وزبنتهم(٢) بتكرارها ، وحملتهم على أصعب مراكبها ، [وذلّلتهم بثقاف أَوَدِها] . ثم انتقهم على عينك ، واعرض كُراعهم(٣) بنفسك ، وتوخَّ فى انتقالهم ظهورَ الجَلَد ، وسَجاحة الخُلُق ، وجمال الآلة ، وإيَّاك أن تقبل من دوابّهم إلا الإناثَ من الخيل المهلوبة(٤) ، فإنها أسرعُ طلباً ، وأنجى مهرباً ، [وألين معطفا] ، وأبعدُ فى اللُّحوق غايةً ، وأصبرُ فى مُعترك الأبطال إقداماً . وخذهم من السِّلاح بأبدان الدُّروع ، ماذيّة الحديد ، شاكّة النسْج ، متقاربة الحلَق ، مُتلاحمة المَسامير ، وأسوقُ الحديد ، مموَّهة الرُّكب ، مُحْكمة الطَّبع ، خفيفة الصَّوغ ، وسَواعدُ طَبْعها هندىّ ، وصَوْغها فارسىّ ، رِقاق المعاطف ، بأكُفّ وافية ، وعَمَل مُحْكم ، و يَلَق(٥) البَيْض ، مُذْهبة ومُجرَّدة ، فارسيةُ الصَّوْغ ، خالصة الجوْهر ، سابغة المَلْبس ، واقية الجُنَن ، مُستديرة الطَّبع ، مُبْهمة السَّرْد ، وافية الوَزْن ، كتَريك(٦) النَّعام فى الصَّنعة ، [واستدارة التقبيب ، واستواء الصَّوغ] ، مُعلَمة بأصْناف الحرير ، وألوان الصِّبغ ، فإنها أهيبُ لعدوّهم ، وأفتُّ لأعضاد(٧) مَن لقيهم ، والمُعْلِم مَخْشىّ مَحْذور له بديهة رائعة [وهيبة هائلة] ، معهم السُّيوف الهِنْديّة ، وذُكور البيض اليمانيّة ، رقاق الشَّفرات ، مسمومة الشَّحذ ، غير كليلة الحدّ ، مُشطَّبة الضرائب ، مُعتدلة الجواهر ، صافيةُ الصَّفائح ، لم يَدْخلها وَهَن الطَّبع ، ولا عابَها أَمْت الصَّوْغ ، ولا شانَها خِفّة الوَزْن ، ولا فَدَح حامَلها

(١) السجل : الدلو العظيمة ؛ جمعها سجال . والحرب بينهم سجال ، أى سجل منها على هؤلاء وآخر على هؤلاء .
(٢) الزبن : الدفع .
(٣) الكراع : اسم يجمل الخيل .
(٤) المهلوبة : المقطوعة الذنب .
(٥) اليلق (محركة) ، الأبيض من كل شىء .
(٦) التريكة : البيضة بعد أن يخرج منها الفرخ ، أو يخص بالنعام ؛ والجمع : ترائك وتريك .
(٧) فت فى ساعده : أضعفه .

بهور الثِّقَل ، قد أشْرعوا لُدْن القَنا ، طِوال الهوادى (١) ، [مقوَّمات الأود] ، زُرْق الأسِنّة ، مُستوية الثَّعالب (٢) ، وميضُها مُتوقِّد ، وشَحذها مُتلهِّب ، مَعاقِص (٣) عُقَدها مَنْحوتة ، ووَصْم أودها مُقوَّم ، وأجناسُها مُختلفة ، وكُعوبها جَعْدة ، وعُقدها حُبْكة ، شَطْبة الأسنان ، مُحْكمة الجلاء ، مموّهة الأطراف ، مُستحدّة الجَنبات ، دقاق الأطراف ، ليس فيها التواء أوَد ، ولا أمْت وَصْم ، ولا بها مسقط عَيْب ، ولا عنها وُقوع أُمْنية ، مُستحقبِي كَنائن النَّبْل ، وقِسِيّ الشَّوْحط والنَّبع (٤) ، أعرابيّة التَّعقيب ، رُوميّة النُّصول ، [مَسمومة الصَّوْغ . ولتكن سهامُها على خَمس قَبَضات سوى النصول] ؛ فإنّها أبلغُ فى الغاية ، وأنفذُ فى الدُّروع ، وأشكُّ فى الحديد ، سامطين (٥) حقائبهم على مُتون خُيولهم ، مُستخفِّين من الآلة والأمتعة والزاد إلا مالا غناءَ بهم عنه .

* * *

واحذَر أن تَكل مُباشرة عَرْضِهم وانتخابهم إلى أحد مِن أعوانك أو كُتّابك ، فإنّك إن وكلته إليهم أضعتَ مواضع الحَزم ، وفرَّطت حيثُ الرأى ، ووقفت دون عزم الروية ، ودَخل عملَك ضياعُ الوَهْن ، وخَلَص إليك عيبُ المحاباة ، وناله فسادُ المداهنة . وغَلَب عليه من لا يَصلُح أن يكون طليعةً للمسلمين ، ولا عُدّة ولا حِصناً يدَّرِئون به ، ويكتنِفون بموضعه .

واعلم أن الطّلائع عُيونٌ وحُصون للمُسلمين ، وهم أول مَكيدتك ، وعُرْوة أمْرك ، وزِمَام حَرْبك ، فليكن اعتناؤُك بهم ، [وإنشاؤك إياهم] بحيث هم مِن مُهم عملك ، ومَكيدة حَرْبك . ثم انتخب للولاية عليهم رجلاً بعيدَ الصَّوت ، مَشْهور [الاسم ، ظاهرَ]

---

(١) الهادى : العنق ؛ والجمع هوادى .
(٢) الثعلب : طرف الرمح الداخل فى جبة السنان .
(٣) المعقص (كمنبر) : السهم المعوج ، وماينكسر نصله فيبقى سنخه فى السهم فيخرج ويضرب حتى يطول .
(٤) الشوحط : شجر تتخذ منه القسى ، أو ضرب من النبع ، أو هما .
(٥) يسمط : يحمل .

الفضل ، نبيه الذكر ، له فى العدوّ وقعات معروفات ، وأيام طوال ، وصولات متقدمات ، قد عرفت نكايته ، وحذرت شوكته ، وهيب صوته ، وتنكّب لقاؤه ، أمين السريرة ، ناصح الجيب ، قد بلوتَ منه ما يسكنك إلى ناحيته ، من لين الطاعة ، وخالص المودّة ، ونكاية الصرامة ، وغلوب الشهامه ، واستجماع القوّة ، وحصافة التدبير . ثم تقدّم إليه فى حسن سياستهم ، واستنزال طاعتهم ، واجتلاب مودّاتهم ، واستعذاب ضمائرهم ، وأجر عليهم أرزاقاً تسعهم ، وتمدّ من أطماعهم ، سوى أرزاقهم فى العامّة ، وفى ذلك من القوة لك عليهم ، والاستنامة إلى ما قبلهم .

* * *

واعلم أنهم فى أهمّ الأماكن لك ، وأعظمها غناء عنك وعمّن معك ، وأقمعها كبتاً لمحادّك وأشجاها غيظاً لعدوّك . ومن يكن فى البأس والثقة والجلد والطاعة والقوّة والنصيحة [والعدة والنجدة] حيث وصفتُ لك وأمرتك(١) به ، يضع عنك مؤنة الهمّ ، ويرخ من خناقك روع الخوف ، وتلتجىء إلى أمر متين ، وظهر قوىّ ، ورأى حازم ، تأمن به فجآت عدوّك ، [وغرّات بغتاتهم ، وطوارق أحداثهم] ، ويصير إليك علم أحوالهم ، ومتقدمات خيولهم . فانتخبهم رأى عين ، وقوّهم بما يصلحهم من المنالات والأطماع والأرزاق ، واجعلهم منك بالمنزل الذى هم به من محارز علاقتك ، وحصانة كهوفك ، وقوّة سيارة عسكرك .

وإيّاك أن تدخل فيهم أحداً بشفاعة ، أو تحتمله على هوادة(٢) ، أو تقدّمه لأثرة ، أو أن يكونَ مع أحدٍ منهم بغل نقل ، أو فضل من الظهر ، أو ثقل فادح ، فتشتد عليهم مؤنة أنفسهم ، ويدخلهم كلال السآمة ، فيما يعالجون من أثقالهم ، ويشتغلون به عن عدوّهم ، إن دهمهم منه رائع ، أو فجأهم منه طليعة . فتفقد ذلك محكماً له ، وتقدّم فيه آخذاً بالحزم فى إمضائه . أرشدك الله لإصابة الحظ ، ووفقك ليمن التدبير ، [وقصد

(١) فى المنظوم : « حيث وصف لك أمير المؤمنين وأمرك به » .
(٢) الهوادة : اللين وما يرجى به الصلاح والرخصة .

بك لأسْهل الرَّأْيِ وأعْوده نَفْعاً فى العاجِل والآجِل ، وأَكْبته لعدوّك ، وأَشْجاه لهم ، وأَرْدعه لعاديتهم] .

ولِّ دَرّاجة عَسْكرك وإخراجَ أهله إلى مَصافّهم ومَراكزهم رجلاً من أهل بيُوتات الشَّرف ، مَحْمود الخِبْرة ، مَعْروف النَّجدة ، ذا سِنّ وتَجْربة ، لين الطاعة ، قديمَ النَّصيحة ، مأمون السَّريرة ، له بَصِيرة بالحقّ نافذة تُقدمه ، ونيّة صادِقة عن الإدهان[(١)] تَحْجِزه ، واُضمم إليه عِدّة مِن ثِقات جُنْدك [وذوى أسنانهم] ، يكونون شُرْطةً معه. ثم تقدّم إليه فى إخراج المَصافّ ، وإقامَة الأحْراس ، وإذْكاء العيُون ، وحِفْظ الأطْراف ، وشدّة الحَذَر . ومُرْه فَلْيضع القوّاد بأنفسهم مع أصحابهم فى مَصافّهم ، كُلّ قائد بإزاء مَوْضعه ، وحيثُ منزلُه ، قد شُدّ ما بينَه وبين صاحبه بالرِّماح شارِعةً ، والتراس مَوْضونة[(٢)] ، والرِّجال راصِدةً ، ذاكيةَ الأحْراس ، وَجِلَةَ الرَّوْع ، خائفة طَوارقِ العدوّ وبَياتَه . ثم مُرْه أن يُخرج كلّ ليلة قائداً مِن أصحابه ، أو عِدّة منهم إن كانوا كثيراً ، على غَلْوة أو غَلوتين من عَسكرك ، [منتبذاً عنك] ، مُحِيطاً بمنزلك ، ذاكِيةً أحراسُه ، قَلِقة التردّد ، مُفرطة الحَذَر ، مُعدّة للرَّوْع ، متأهّبة للقتال ، آخذةً على أطْراف العَسكر ونَواحيه ، مُتفرّقين فى اختلافهم كُرْدوساً كُرْدوساً[(٣)] ، يَسْتقبل بعضُهم بعضاً فى الاختلاف ، ويَكْسع تالٍ[(٤)] مُتقدِّماً فى التردّد . واجعل ذلك بين قُوادك وأهل عَسكرك نُوَباً مَعْروفة ، وحِصَصاً مَفْروضة ، لا تُعفِ منها مُزْدلِفاً بمودّة منك ، ولا تتحامل فيه على أحدٍ بمَوْجدة ، إن شاء الله .

فوِّض إلى أُمراء جُندك وقُوّاد خيلك أُمورَ أصحابهم ، والأخذَ على أيديهم ، رياضةً منك لهم على السَّمع والطاعة لأُمرائهم ، والأتّبـاع لأمْرِهم ، والوُقوف عند نَهيهم . وتقدّم إلى أُمراءِ الأجناد فى النَّوائب التى أَلْزمتهم إياها ، والأعمال التى أَستنجدتهم لها ،

(١) المداهنة : الغش .

(٢) ضن الشيء يضنه ، فهو موضون ووضين : ثنى بعضه على بعض وضاعفه ونضده .

(٣) كردس الخيل : جعلها كتيبة كتيبة . والكردوسة (بالضم) : قطعة عظيمة من الخيل ، والجمع كراديس .

(٤) كسعه (كمنعه) ، ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه .

والأسلحة والكُراع التى كتبتها عليهم . واحذَر اعتلال أحدٍ من قوّادك عليك بما يحول بينك و بين تأديب جندك وتقويمهم لطاعتك ، وقمعهم عن الإخلال بمراكزهم لشىء مما وُكِّلوا به من أعمالهم ، فإنَّ ذلك مَفسدة للجُند ، مَفثأة للقوّاد عن الجدّ والإيثار المناصحة ، والتقدّم فى الأحكام .

* * *

واعلم أنَّ استخفافهم بقوّادِهم ، وتضييعهم أمرَ رؤسائهم ، دخولاً للضَّياع على أعمالك ، واستخفافاً بأمرك الذى يأتمرون به ، ورأيك الذى ترتئى . وأوعز إلى القوّاد أنْ لا يُقدم أحدٌ منهم على عُقوبة أحدٍ من أصحابه إلاَّ عُقوبةَ تأديب ، وتقويم مَيل ، وتثقيف أوَد . فأمّا عُقوبة تَبلغ تلف المُهجة ، و إقامة الحدّ فى قَطع ، أو إفراط فى ضرب ، أو أخذ مال ، أو عُقوبة فى شَعَر ؛ فلا يَلِيَنَّ ذلك من جُندك أحدٌ غيرُك ، أو صاحبُ شُرطتك ، بأمرك وعَن رأيك و إذْنك . ومَتى لم تُذلِّل الجُندَ لقوّادهم ، وتُضرِعهم[1] لأمرائهم ، تُوجب لهم عليك الحجّة بتَضييع — إن كان منهم — لأمرك ، أو خَلل — إنْ تهاونوا به — من عَملك ، أو عجز — إن فرّط منهم — فى شىء ما وكّلتهم به ، أو أسنَدْته إليهم ، ولا تجد إلى الإقدام عليهم باللَّوْم وعضّ العُقوبة عليهم مجازاً تصِل به إلى تَعْنيفهم بتَفريطك فى تَذليل أصحابهم لهم ، و إفسادك إياهم عليك وعليهم . فانظرْ فى ذلك نظراً مُحكماً ، وتقدّم فيه برِفقك تقدُّماً بليغاً . و إيّاك أنْ يَدخل حَزمك وَهنٌ ، أو يشوبَ عزْمك إيثار ، أو يخلط رأيكَ ضَياع . والله يستودع أمير المؤمنين نَفسك ودينك .

* * *

إذا كنتَ من عدوّك على مَسافة دانية ، وسَنَن لقاء مُختصر ، وكان من عَسكرك مُقترِباً ، قد شامتْ طلائعُك مقدّماتِ ضَلالته ، وحُماةَ فتنته ، فتأهّبْ أهْبة المُناجزة ، وأعد إعداد الحذَر ، وكتّبْ خيولَك ، وعَبِّ جُنودَك ، و إيّاك والمَسير إلاّ فى مقدمة

(١) تضرعهم : تذللهم .

وميمنة وميسرة وساقة ، قد شهروا الأسلحة ، ونشروا البنود والأعلام . وعرّف جندك مراكزهم سائرين تحت ألويتهم ، قد أخذوا أهبة القتال ، واستعدّوا للقاء ملتجئين إلى مواقفهم ، عارفين بمواضعهم فى مسيرهم ومعسكرهم . وليكن ترحلهم وتنزّلهم على راياتهم وأعلامهم ومراكزهم . قد عرّف كل قائد منهم أصحابه مواقعهم ، من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليعة ، لازمين لها ، غير مخلّين بما أستنجدتهم له ، ولا متهاونين بما أهبت بهم إليه ، حتى تكون عساكرك فى منهل تصل إليه ، ومسافة تجتازها[1] ، كأنها عسكر واحد فى أجتماعها على العدو ، وأخذها بالحزم ، ومسيرها على راياتها ، ونزولها على مراكزها ، ومعرفتها بمواضعها ، إن ضلّت دابّة موضعها عرف أهل العسكر من أى المراكز هى ومن صاحبها ، وفى أى المحل حلوله منها ، فردّت إليه هداية معروفة بسمت صاحب قيادتها . فإنّ تقدّمك فى ذلك وإحكامك له طارح عن جندك مؤونة الطلب ، وعناية المعرفة ، وأبتغاء الضالة .

ثمّ أجعل على ساقتك أوثق أهل عسكرك فى نفسك صرامة ونفاذاً ، ورضاً فى العامّة ، وإنصافاً من نفسه للرعيّة ، وأخذاً بالحق فى المعدلة ، مستشعراً تقوى الله وطاعته ، آخذاً بهذيك وأدبك ، واقفاً عند أمرك ونهيك ، معتزماً على مناصحتك وتزيينك ، نظيراً لك فى الحال ، وشبيهاً بك فى الشرف ، وعديلاً فى الموضع ، ومقارباً فى الصيت . ثم أكثف معه الجمع ، وأيّده بالقوّة ، وقوّه بالظهر ، وأعنه بالأموال ، وأمدده بالسلاح ، ومره بالعطف على ذوى الضعف من جندك ، ومن أزحفت[2] به دابّته ، وأصابته نكبة من مرض ، أو رجلة[3] أو آفة ، من غير أن تأذن لأحد منهم فى التنحّى عن عسكره ، أو التخلف بعد ترحله ، إلا لمجهود سقماً ، أو لمطروق بآفة جائحة . ثمّ تقدّم إليه محذّراً ، ومره زاجراً ، وانهه مغلظاً ، بالشدة على من مرّ به منصرفاً عن معسكرك من

---

(١) فى المنظوم وصبح الأعشى : « يختارها » .

(٢) أزحفت : أعيت .

(٣) رجلة : شدة المشى .

جُندك بغير جوازك ، شادًّا لهم أسْراً ، ومُوقرَهم حديداً ، ومُعاقبهم مُوجِعاً ، ومُوجِّههم إليك ، فتَنْهـكهم عُقوبة ، وتجعلهم لغيرهم من جُندك عِظةً .

***

واْعلم أنه إنْ لم يكنْ بذلك المَوضع مَن تسكن إليه ، واثقاً بنَصيحته ، عارفاً ببَصيرته ، قد بلوتَ منه أمانةً تُسكنك إليه ، وصرامةً تؤْمنك مَهانته ، ونَفاذاً فى أمرك يُرْخى عنك خِناق الخوف فى إضاعته ، لم يأمن أمير المؤمنين تسلّل الجُند عنك لِواذاً[1] ، ورَفْضَهم مراكزهم ، وإخلالهم بمواضعهم ، وتخلفهم عن أعمالهم ، آمنين تغيير ذلك عليهم ، والشدّة مَن اجترمه منهم ، فأوشك ذلك فى وَهْنك ، وخذَل من قُوّتك ، وقلّل من كثْرتك .

اِجعل خَلْف ساقَتك رجلاً من وُجوه قُوادك ، جليداً ماضياً عفيفاً صارماً ، شَهْم الرّأى ، شديدَ الحذر ، شَكيم القُوة ، غيرَ مُداهن فى عُقوبة ، ولا مَهين فى قُوة ، فى خَمسين فارساً من خَيْلك ، يَحشُر إليك جندَك ، ويُلحق بك مَن تخلّفَ عنك ، بعد الإبلاغ فى عُقوبتهم ، والنّهك لهم ، والتّنْـكيل بهم ، وليـكن بعقْوتك[2] فى المنزل الذى تَرتحل عنه ، والمَنْهل الذى تَتقوّض منه ، مُفْرطاً فى النّقض له ، والتّتبع لمن تخلّف عنك به ، مشتدًّا فى أهل المنزل وساكنه بالتقدّم ، مُوعزاً إليهم فى إزعاج الجُند عن مَنازلهم ، وإخراجهم من مكامنهم ، وإيعاد العُقوبة المُوجعة ، والنّـكال المُبسِل[3] ، فى الأشعار والأبشار ، واستصفاء الأموال ، وهَدْم العقار ، لمن آوى منهم أحداً ، أوستَر موضعه ، وأخْفَى محلّه . وحذِّره عقوبتك إياه فى التّرخيص لأحد ، والمُحاباة لذى قَرابة ، والاختصاص بذلك لذى أثَرة أو هَوَادة . وليـكن فُرْسانه مُنتخَبين فى القُوة ، مَعروفين بالنّجدة ، عليهم سَوابغ الدُّروع ، دونها شِعار الحشو وجُبَب الاستجنان ، متقلِّدين سُيوفهم ، سامطين كَنائنهم ، مُسْتعدين لهَيْج أن يبدههم ، أو كَمين أن يَظْهر لهم . وإياكَ أن تَقبل

(١) اللوذ بالشيء : الاستتار والاحتضان به ، كاللواذ ، مثلثة ، واللياذ والملاوذة .
(٢) العقوة : ما حول الدار والمحلة .
(٣) المبسل : المهلك .

منهم فى دوابّهم إلا فرَساً قويا ، أو بِرْذونا وثَيجاً[1] ؛ فإن ذلك من أقوى القُوة لهم ، وأعوَن الظهرىّ على عدوّهم ، إن شاء الله .

ليكُن رحيلُكَ إبّاناً واحداً ، ووقتاً معلوماً ، لتخفّ المؤونة بذلك على جُندك ، ويَعْلموا أوَان رَحيلهم ، فيقدّموا فيما يُريدون من مُعالجة أطعمتهم ، وأعلاف دوابّهم ، وتسْكن أفئدتُهم إلى الوقت الذى وقفوا عليه ، ويَطْمئن ذوو الرأى إلى إبانَ الرّحيل . ومتى يكون رحيلُكَ مختلفاً تَعظُم المؤونة عليك وعلى جُندك ، ويُخلّوا بمَراكزهم ، ولا يزال ذوو السّفه والنَّزق يترحَّلون بالإرجاف ، ويَنْزلون بالتوهّم ، حتى لا يَنْتفع ذوو رأىٍ بنَوْم ولا طُمَأنينة .

إياك أن تُنادى برَحيل مِن مَنزل تكون فيه حتى تأمرَ صاحبَ تَعْبئتك بالوُقوف بأصحابه على مُعسكرك ، آخذاً بفوّهة جَنَبتيه بأَسْلحتهم ، عُدة لأمرٍ إن حَضر ، أو مُفاجأة مِن طليعة للعدوّ إن رأت منكم نُهزة ، أو لَمحت عندكم غِرّة . ثم مُرِ الناسَ بالرّحيلِ وخيلُك واقفة ، وأُهْبتك مُعدَّة ، وجُنَّتك واقية ، حتى إذا اُستقللتم من مُعسكركم ، وتوجَّهتم من مَنزلكم ، سِرتم على تَعْبئتكم بسُكون رِيح ، وهُدو حَمْلة ، وحُسن دَعة .

فإذا انتهيت إلى مَنهل أردتَ نُزوله ، أو همَمْتَ بالمُعسكر به ، فإياك ونُزوله إلا بعد العِلْم [بأهله ، والمعرفة بمرافقه . ومُر صاحب طليعتك] أنْ يَعرف لك أحوالَه ، ويَسْبُر[2] علم دَفينه ، ويَستنبطن عِلْم أُموره ، ثم يُنهيها إليك على ما صارتْ إليه ، لتعلم كيف اُحتمالُه لعَسْكرك ، وكيف ماؤه وأعلافه ، وكيف موضع عَسْكرك منه ، وهَل لك ، إن أردتَ مقاماً به أو مُطاولة عدوّك أو مُكايدته فيه ، قُوّة تحملك ومَدد يأتيه ؟ فإنك إنْ لم تَفعل ذلك لم تأمن أن تَهجُم على منزلٍ ، يُزعجك منه ضيقُ مكانه ، وقلّة مياهه ، وانقطاعُ موادّه ، إن أردتَ بعدوّك مَكيدة ، أو احتجتَ من أُمورهم إلى مُطاولة ، فإن ارتحلتَ منه كنْتَ غرضاً لعدوّك ، ولم تجد إلى المُحاربة والأخطار سبيلا ، وإن أقمتَ به أقمتَ

(١) وثيجا : مكتنزاً .

(٢) فى المنظوم : « ويستثير لك » .

على مَشقّة وحَصْر ، وفى أزل (١) وضِيق ، فاعرِف ذلك وتقدّم فيه .

فإذا أردتَ نُزولاً أمرتَ صاحبَ الخَيْل التى وكّلت الناس ، فوقفتْ خيله مُنتحيةً من مُعسكرك ، عُدّة لأمر إن غالك ، ومَفزعاً لبَديهة إن راعتْك ، فقد أمِنتَ بإذن الله وحَوله فجَاةَ عدوّك ، وعرفتَ مَوْقِعها مِن حِرزك ، حتى يأخذَ الناسُ منازلَهم ، وتُوضَع الأثقالُ مواضعَها ، ويأتيك خبرُ طَلائعك ، وتخرج دبّاتك (٢) من عَسكرك درّاجة ودُبّاباً ، مُحيطين بمَسكرك ، وعُدّة لك إن احتجْتَ إليهم . وليكن دُبّاب جندك أهل جَلَدوقُوة ، قائداً أو اثنين أو ثلاثة بأصحابهم فى كُلّ ليلة ويوم ، نُوباً بينهم . فإذا غربتْ الشمسُ ، ووجب (٣) نورُها ، أخْرج إليهم صاحب تَعْبئتك أبدالهم عَسساً بالليل فى أقْرب من مواضع دبّابى النهار ، يَتعاور ذلك قُوادُك جميعاً ، بلا مُحاباة لأحَدٍ منهم فيه ولا إدهان ، إنْ شاء الله .

* * *

إياك أنْ يكون منزلُك إلا فى خَندق أو حِصْن تأمنُ به بَيات عدوّك ، وتَستنيم فيه إلى الحَزْم من مَكيدته . إذا وُضعت الأثقال ، وخُطت أبنية أهل العَسكر ؛ لم يَمدد [طنب ولم يرفع] خباء ، ولم يُنصب بناء ، حتى تقطع لـكُل قائد ذرعا مَعْلوما من الأرض بقَدْر أصحابه ، فيَحْفروه عليهم خَندقاً ، يُطيفونه بعد ذلك بخنادق الحسك ، طارِحين لها دون اشتجار الرّماح ، ونصب الترسَة . لها بابان قد وكّلت بحِفظ كلّ باب منهما رجلاً من قُوّادك فى مائة رَجل من أصحابه ، فإذا فُرغ من الخَنْدق كان ذانك الرّجلان القائدانِ بمَن معهما من أصحابهما أهْلاً لذلك المرْكز ، ومَوْضع تلك الخَيْل ، وكانوا هم البَوّابين والأحْراس لذينك المَوْضعين ، قد كفوها وضبطوها ، وأعفوا من أعمال العسكر ومكروهه غيرها .

---

(١) الأزل : الضيق والشدة .

(٢) المراد بالدبابات هنا : الجماعات التى تدب حول الجيش لحراسته ، وليس المراد بها هنا تلك الآلة التى تتخذ للحروب فتدفع فى أصل الحصن فينقبون وهم فى جوفها .

(٣) وجب : غاب .

واعلم أنك إذا [كنت فى خندق] أمنت بإذن الله طوارق عدوك وبغتاتهم ، فإذا راموا ذلك منك كنت قد أحكمت ذلك وأخذت بالجد فيه، وتقدمت فى الإعداد له ، ورتقت مخوف الفتق منه ، [وإن تكن العافية استحقبت حمد الله عليها، وارتبطت شكره بها، ولم يضررك أخذك بالحزم ، لأن كل كلفة ونصب ومؤنة إنفاق ومشقة عمل مع السلامة، غنم وغير خطر بالعاقبة] ، إن شاء الله

وإنه إذا ابتليت ببيات عدوك ، أو طرقك رائعاً فى ليلك ، فليلفك حذراً مشمراً عن ساقك ، [حاسراً عن ذراعك] ، متشزناً لحربك ، قد تقدمت دراجتك إلى مواضعها، على ما وصف لك [أمير المؤمنين ، ودبابتك فى أوقاتها] التى قدر لك ، وطلائعك حيث أمرك ، وجندك على ماعبأ لك ، قد خطرت عليهم بنفسك ، وتقدمت إلى جندك إن طرقهم طارق ، أو فاجأهم عدو ، ألا يتكلم أحد منهم رافعاً صوته بالتكبير ، مغرقاً فى الإجلاب ، معلناً بالإرهاب لأهل الناحية التى يقع بها العدو طارقاً ، وليشرعوا رماحهم مادين لها فى وجوههم، ويرشقونهم بالنبل ملبدين[1] بترستهم ، لا زمين لمراكزهم ، غير مزيلى قدم عن موضعها ، ولا منحازين إلى غير مركزهم . وليكبروا ثلاث تكبيرات متواليات ، وسائر الجند هارون . لتعرف موضع عدوك من معسكرك ،فتمد أهل تلك الناحية بالرجال من أعوانك وشرطك ، ومن انتخبت قبل ذلك عدة للشدائد بحضرتك ،وتدس إليهم النشاب والرماح .

***

وإياك أن يشهروا سيفاً يتجالدون به . وتقدم إليهم أن لا يكون قتالهم بالليل فى تلك المواضع لمن طرقهم إلا بالرماح ، مسندين لها إلى صدورهم ، والنشاب راشقين به وجوههم ، قد ألبدوا بالترسة ، واستجنوا بالبيض ، وألقوا عليهم سوابغ الدروع ، وجباب الحشو ، فإن صد العدو عنهم حاملين على ناحية أخرى ، كبر أهل تلك الناحية [التى يقع فيها كفعل الناحية] الأولى ، وبقية العسكر سكوت ، والناحية التى صد عنها العدو لا زمة لمراكزها [منتطقة الهدو ، ساكنة الريح] ، ثم فعلت فى تقويتهم وإمدادهم بمثل صنيعك بإخوانهم .

(١) ملبدين : لاصقين .

وإياك وأن تخمد نارَ رُواقك ، وإذا وقع العدوّ فى مُعسكرك فأجّجها ساعراً لها ، وأوقدها حطبا جَزْلا ، يَعْرف بها أهلُ العسكر مكانَك وموضعَ رواقك ، فيسكن نافرُ قلوبهم ، ويَقوى واهن قُوتهم ، ويشتّد مُنْخذل ظُهورهم ، ولا يرجمون بك الظّنون ، ويُجيلون لك آراءَ السّوء ، [ويُرْجفون بك آناء الخوف] ، وذلك من فعلك رادٌّ عدوك بغيظه ، لم يستغل(١) منك ظُفرا ، ولم يَبْلغ من نِكايتك سُرورا ، إن شاء الله .

فإن انصرف عنك عدوّك ، ونكَل عن الإصابة من جُندك ، وكان بخَيلك قُوة على طلَبه ، أو كانت لك من فرسانك خيل مُعدّة ، وكتيبةٌ مُنْتخبة ، وقدرت أن ترْكب بهم أكتافَهم ، وتَحْملهم على سَنَنِهم ، فأتبعهم جريدةَ خيل عليها الثقاتُ من فُرسانك ، وأولوا النَّجدة من حُماتك ، فإنك ترْهق عدوّك ، وقد أَمِن بياتَك ، وشُغل بكلاله عن التّحرّز منك . والأخذ بأبواب مُعسكره ، والضّبط لمحارسه عليك ، مُوهَنةً حُماتهم ، لغبةً(٢) أبطالهم ، لما ألهوكم عليه من التّشمير والجِدّ ، قد عَقر الله فيهم ، وأصاب منهم ، وجَرح من مُقاتلتهم ، وكَسر من أمانى صَلاتهم ، وردّ من مُستعلى جماحهم .

وتقدّم إلى من توجهه فى طَلبهم ، وتَتُبّعه أكساءهم(٣) وهم فى سُكونِ الرِّيح ، وقلة الرّفث ، وكثرة التّسبيح والتّهليل ، واستنصار الله عزّ وجلّ بقُلوبهم وألْسنتهم سرًّا وجَهراً ، بلا لجَب ضَجّة ، ولا ارتفاع ضَوْضاء ، دون أن يَردُوا على مَطْلبهم ، ويَنْتهزوا فرصتهم . ثم ليشهروا السّلاح ، ويَنْتَضُوا السُّيوف ، فإن لها هيبةً رائعة ، وبَديهة مَخُوفة ، لا يَقوم لها فى بُهمة الليل وحِندسه إلا البَطل المُحارب ، وذو البصيرة المُحامى ، والمُسْتميت المُقاتل ، وقليل ما هم عند تلك الحَميَّة ، وفى ذلك الموضع .

* * *

لِيكن أولَ ما تتقدم به فى التّهيؤ لعدوك ، والاستعداد للقائه ، انتخابُك من فُرسان

(١) لم يستغل ، أى لم يكسر .
(٢) لغب : أعيا أشد الإعياء .
(٣) الكسى (بالضم) : مؤخر العجز فى كل شىء ؛ والجمع أكساء . وركب أكساءه ، سقط على قفاه .

عَسْكرك ، وحُماة جُنْدك ، ذوى البأس والحُنكة ، والجلد والصّرامة ، ممن قد اعتاد طِراد الكُماة ، وكَشر عن ناجذه فى الحَرْب ، وقام على ساق فى مُنازلة الأقران ، ثَقِفَ الفروسية ، مُسْتَجْمع[٣] القوة ، مُسْتَحصد المريرة[١] ، صَبُوراً على أهوال الليل ، عارفاً بمَناهز الفرص ، لم تُمهنه الحُنكة ضَعْفا ، ولا بلغت به السن كلالا ، ولا أسْكرته غرة الحداثة جهلا ، ولا أبْطرته نَجْدة الأعمار صَلفا ، جَريئا على مُخاطرة التّلاف ، مقدما على ادّراع الموت ، مكابراً لمرهوب الهَول ، متقحماً مَخشى الحُتوف ، خائضاً غمرات المَهالك ، برأْى يؤَيِّده الحزم ، ونيّة لا يخالجها الشك ، وأهواء مُجتمعة ، وقُلوب مؤتلفة ، عارفين بفَضْل الطاعة وعزّها وشَرفها ، وحيثُ محل أهلها من التّأييد والظّفر والتّمكين ، ثم اعرضهم رأى عَيْن على كُراعهم وأسْلحتهم ، ولْتكن دوابّهم إناثَ عِتاق الخيول ، وأسْلحتهم سوابغَ الدُّروع ، وكمالَ آلة المحارب ، متقلّدين سُيوفهم المُسْتَخلصةِ من جيّد الجواهر ، وصافى الحديد ، المتخيرة من مَعادنِ الأجناس ، هنديّة الحديد ، يمانية الطَّبع ، رقاق المَضارب ، مُسمومة الشَّحذ ، مشطّبة الضَّريبة ، مُلبدين بالتِّرسة الفارسيّة ، صِينية التّعقيب ، مُعْلمة المقابض بحلَق الحديد ، أنحاؤها مُربّعة ، ومخارزها بالتّجليد مُضاعفة ، ومحملها مُستخفّ ، وكنائن النبل جِعاب القِسىّ قد استحقبوها ، وقسىّ الشِّريان[٣] والنَّبع ، أعرابية الصَّنعة ، مُختلفة الأجناس ، مُحْكمة العَمل ، [مقومة التثقيف] ، ونُصول النَّبْل ، مَسْمومة ، [وعملها مصِّيصى][٤] ، وتركيبها عراقى ، وتَرْييشها بَدوى ، مُختلفة الصَّوغ فى الطَّبع ، شَتّى الأعمال فى التَّشْطيب والتجنيح والاستدارة ، ولْتكن الفارسيّة مَقلوبة المَقابض ، مُنْبسطة السِّية ، سَهْلة الانعطاف ، مَقرّبة الأنحاء ، مُمكنة الرمى ، واسعة الأسْهم ، فُرَضها سَهْلة الوُرود ، ومعاطفها غير مُقتربة المُواتاة .

ثم ولّ على كُلّ مائة رجل منهم رجلاً من أهل خاصّتك وثقاتك ونُصائحك ، [له صيت فى الرّياسة ، وقَدم فى السابقة ، وأوليه فى المشايعة] . وتقدّم إليه فى ضَبْطهم ، وكفّ معرّتهم

---

(١) المريرة : العزيمة . ومستحصد : مجتمع . (٢) أمهنه : أضعفه .

(٣) الشريان (بالفتح والكسر) : شجر للقسى . (٤) نسبة إلى المصيصة ، بلد بالشام .

وأستنزال نصائحهم ، وأستعداد طاعتهم ، وأستخلاص ضمائرهم ، وتعاهد كراعهم وأسلحتهم ، مُعْفياً لهم من النوائب التى تلزم أهلَ العسكر وعامّة جُنْدك ، وأجعلهم عدّة لأمر إن فاجأك ، أو طارق بيّتك[1] . ومُرْهم أن يكونوا على أهبة مُعدَّة ، وحَذّر نافٍ لسِنة الغفلة عنهم ، فإنك لا تدرى أى الساعات من ليلك ونهارك تكون إليهم حاجتُك . فليكونوا كرجل واحد فى التّشمير والترادف وسُرعة الإجابة ؛ فإنك عَسيتَ أن لا تجد عند جماعة جُندك فى مثل تلك الرّوعة والمُباغتة ، إن أحتجت إلى ذلك منهم ، مَعونة كافيةً ولا أهبةً معدّة ، بل ذلك كذلك. فليكن هؤلاء القوم الذين تنتخب عُدَّتك وقُوتك ، بعوثاً قد وَظّفتها على القوّاد الذين وَلّيتهم أمورَهم ، فسميت أولا وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً ، إلى عشرة ، فإن اكتفيتَ فيما يَبْدهك ويطرقك ببَعث واحد ، كان مُعدًّا ، لم تَحْتج فيه إلى أنتخابهم فى ساعتهم تلك . وقطّع البَعْث عليهم عند ما يُرهقك ، وأن أحتجت إلى أثنين أو ثلاثة وجّهت منهم إرادَتك ، أو ماترى قوتك ، إن شاء الله .

* * *

وَكّل بخزائنك ودَواوينك رجلاً أميناً صالحاً ذا وَرَع حاجز ، ودين فاضل ، وطاعة خالصة ، وأمانة صادقة ، واجعل معه خيلا ، يكون مسيرُها ومنزلُها وترحلها مع خَزائنك وحولها ، وتقدّم إليه فى حِفْظها ، والتّوفّر عليها ، واتهام كل من تُسند إليه شيئاً منها على إضاعته والتهاون به ، والشدّة على مَن دنا منها فى مَسير ، أو ضامّها فى مَنزل ، [أو خالطها فى منهل] . وليكن عامة الُجند والَجيش ، إلاّمَن أُستخصلت المَسير معها ، مُتنحّين عنها ، مُجانبين لها فى المسير والمنزل ، فإنه ربما كانت الجَوْلة ، وحَدثت الفَزْعة . فإن لم يكن للخزائن ممّن يُوكّل بها أهلُ حِفْظ لها وذبّ عنها ، [وحياطةٍ دونها ، وقوة على من أراد انتهابها] ، أَسْرع الُجند إليها ، وتداعَوْا نحوَها ، حتى يكاد يتَرامى ذلك بهم إلى أنتهاب العَسْكر ، وأضطراب الفِتْنة . فإن أهلَ الفِتن وسُوء السِّيرة كثير ، وإنما همّتهم الشرّ ، فإيّاك وأن يكون

(١) فى صبح الأعشى : «لأمر إن حزبك ، أو طارق إن أتاك» .

لأحـد فى خزائنك ودواوينك و بيوت أموالك مطمع ، أو يجد سبيلاً إلى أغتيالها ومرزئتهـا ، إن شاء الله .

اعلم أنّ أحسنَ مكيدتك أثراً فى العـامة ، وأبعدها صوتاً فى حُسن القاله ، ما نِلْتَ الظفر فيه بحُسن الرويّة ، وحزم التّدبير[١] ، ولُطف الحِيـلة . فَلْتكن رويّتك فى ذلك وحِرْصك على إصابته بالحيل ، لا بالقِتال وأخطار التّلف . وادسُس إلى عدوّك ، وكاتِبْ رؤساءهم وقادتهم ، وعِدْهم المَنالات ، ومنّهم الولايات . وسوّغهم التّراث ، وضَع عنهم الإحَن ، واقطَع أعناقهم بالمَطامع ، واستدعهم بالمَثاوب ، وأَملأ قلوبَهم بالترّهيب ، إن أمكنتك منهم الدّوائر ، وأصارتْهم إليك الرّواجع ، وادعُهم إلى الوُثوب بصاحبهم ، أو أعتزاله إن لم يكن لهم بالوُثوب عليه طاقة . ولا عليك أن تَطْرح إلى بعضهم كُتباً كأنها جوابات كُتب لهم إليك ، وتَـكتب على ألْسنتهم كُتباً إليـك تَدفعها إليهم ، وتحمل بها صاحبَهم عليهم ، وتُنزلهم عندهَ منزله التُّهَمة ومحل الظنة ، فلعل مكيدتك فى ذلك أن يكون فيها أفتراق كلمتهم ، وتَشتيت جَماعتهم ، و إحن قلوبهم ، وسوء الظن مِن واليهم بهم ، فيُوحشهم منه خوفُهم إياه على أنفسهم إذا أيقنوا باتهـامه إياهم . فإنْ بَسط يَده بقتْلهم ، وأوْلغ سَيفه فى دِمائهم ، وأسْرع الوُثوب بهم ، أشْعرهم جَميعاً الخوْفَ ، وشَمِلهم الرُّعب ، ودَعاهم إليك الهرب ، فتَهافتوا نَحْوك بالنَّصيحة ، وأمُّوك بالطلب . و إن كان مُتأنّياً مُحتمِلا ، رجوت أن تَسْتميل إليك بعضَهم ، وتَسْتدعىَ بالطّمع ذوى الشَّرَه منهم ، وتَنال بذلك ماتُحب من أخبارهم ، إن شاء الله .

***

إذا تدانى الصّفان ، وتَواقف الجمعَان ، واحتضَرت الحَرب ، وعَبَّأتَ أصحابَك لقتال عدوّهم ، فأ كثر من قول : لا حول ولا قُوة إلا بالله ، والتوكّل على الله عز وجل ، والتفويض إليه ، ومَسْألِته تَوْفيقك و إرشادك ، وأن يَعزم لك على الرَّشَد المنجِى ، والعصمة الـكالئة ، والحيطة الشاملة .

(١) فى المنظوم والمنثور : « بحسن الروية وحسن التدبير » .

ومرْ جُندك بالصَّمت ، وقلّة التلفّتِ إلى المُصاولة ، وكَثرة التَّكبير فى أنفسهم ، والتَّسبيح بضمائرهم . وألا يُظْهروا تكبيراً إلا فى الكرّات والحملات ، وعند كُل زُلفة يزْدلفونها . فأمّا وهم وقُوف ، فإن ذلك من الفَشل والجبن . وليذكروا الله فى أنفسهم ، ويسألوه نصرهم وإعزازهم ، وليكثروا من « لا حَول ولا قُوة إلا بالله العلى العظيم حَسْبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم انصُرنا على عدوّك وعدوّنا الباغى ، واكْفِنا شَوْكته المُستحدّة ، وأيّدنا بملائكتك الغالبين ، واعْصِمنا بعَونك من الفَشل والعَجْز ، إنك أرحم الراحمين » .

وليكن فى عَسْكرك المُكبّرون بالّليل والنّهار قبل المُواقعة ، وقوم موقوفون يحُضّونهم على القِتال ، ويُحرِّضونهم على عدوّهم ، ويَصفون لهم مَنازل الشّهداء وثوابَهم ، ويُذكّرونهم الجنة ودرجاتها ونعيم أهلها وسُكانها ، ويقولون : اذكُروا الله يَذْكُركم ، واستنصروه ينْصركم ، [والتجئوا إليه يمنعكم] .

وإن استطعت أن تكون أنت المُباشر لتعبية جُندك ، ووضَعْهم مواضعهم من راياتك ، ومعك رجالٌ من ثِقات فُرْسانك ، ذوو سنّ وتَجربة ونَجدة على التعبئة التى أمير المُؤمنين واصفها لك فى آخر كِتابه هذا ، فافعل ، إن شاء الله .

أيّدك الله بالنّصر ، وغَلَب لك على القُوة ، وأعانَك على الرّشد ، وعَصَمك من الزّيغ ، وأوْجب لمن استُشهد معك ثوابَ الشُّهداء ، ومَنازلَ الأصفياء . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

وكُتب سنة تسع وعشرين ومائة

ومن الرسائل المفردات فى الشطرنج

رسالة عبد الحميد

أمّا بعد . فإنّ الله شَرع دِينه بإنهاج سُبله ، وإيضاح مَعالمه بإظهار فَرائضه ، وبَعث رُسلَه إلى خَلقه ، دلالةً على رُبوبيّته ، واُحتجاجًا عليهم برسالاته ، وتقدّماً إليهم بإنذارِه ووعيدِه ، ليَهْـلك مَن هلك عن بيّنة ، ويَحيا من حيّ عن بيّنة . ثم ختَم بنبيّه صلّى الله عليه وَحْيَه ، وقَـفّى به رُسله ، واُبتعثه لإحيـاءِ دِينه الدارس ، مُرتضياً له ، على حين أنطمست الأعلامُ مُختفية ، وتَشتّت السُّبل مُتفرّقة ، وعَفت آثار الدين دارسـة ، وسَطع رَهج الفِتن ، واُعتلى قَتام الظُّلم ، واُستنْهد[1] الشركُ ، واُسْدف[2] الـكُفر ، وظهر أولياءُ الشيطان لطُموس الأعلام ، ونَطق زعيمُ الباطل بسَكْتة الحق ، واُستطرَق الجَوْر ، واستنـكح[3] الصدوف عن الحقّ ، واقمطرّ[4] سَلْهب[5] الفِتْنة ، واُستضرم لقاحُها ، وطبّقت الأرض ظُلمةُ كُفر ، وغَيابة فَساد ، فَصَدع بالحقّ مأموراً ، وبَلّغ الرِّسالة مَعْصوماً ، ونَصَح الإسلام وأهلَه ، دالاً لهم على المَراشد ، وقائداً لهم إلى الهداية ، ومُنيراً لهم أعلام الحقّ ضاحيَةً ، مُرْشداً لهم إلى اُستفتاح باب الرّحمة ، وإعلان عُروة النجاة ، مُوضِّحاً لهم سُبل الغَواية ، زاجراً لهم عن طريق الضلالة ، مُحذِّراً لهم الهَلـكة ، مُوعِزاً إليهم فى التّقدِمة ، ضارباً لهم الحُدود على ما يتّقون من الأُمور ويَخشون ، وما إليه يسارعون ويَطلبون ، صابراً نَفْسه على الأذى والتّـكذيب ، داعياً لهم بالتّرغيب والتّرهيب ، حريصاً عليهم ، مُتحنِّناً على كافّتهم ، عزيزاً عليه عَنتهم ، رءوفاً بهم رحيماً ، تُقدِّمه

(١) نهد الرجل : نهض : ولعدوه : صمد له . والمناهدة : المناهضة فى الحرب .

(٢) أسدف : أظلم

(٣) يقال : نكح النعاس عينه ، غلبها .

(٤) اقمطر : اشتد .

(٥) السلهب : الطويل من الرجال . ومن الخيل : ما عظم وكاد .

شفقته عليهم ، وعنايته برُشدهم ، إلى تجريد الطَّلب إلى ربّه ، فيما فيه بقاء النّعمة عليهم ، وسلامةُ أديانهم ، وتخفيفُ أواصرالأوزارعنهم . حتى قَبضه الله إليه صلّى الله عليه وسلّم ناصحاً مُتنصِّحاً ، أميناً مأموناً ، قد بلّغ الرِّسالةَ ، وأدّى النّصيحةَ ، وقام بالحقّ ، وعدّل عمود الدين ، حتى اعتدل مَيله ، وأذلّ الشرْكَ وأهْلَه . وأنجز اللهُ له وَعدَه ، وأراه صِدْقَ أسبابه فى إكماله للمُسْلمين دِينَه ، واُستقامة سنّته فيهم ، وظُهور شرائعه عليهم . قد أبان لهم مُوبقاتِ الأعمال ، ومُفظعات الذّنوب ، ومُهبِطات الأوزار ، وظُلم الشُّبهات ، وما يدعو إليه نقصانُ الأديان ، وتَستهويهم به الغَوايات . وأوضح لهم أعلام الحقّ ، ومنازلَ المَراشد ، وطُرق الهُدَى ، وأبوابَ النّجاة ، ومعالقَ العِصمَة ، غير مدّخر لهم نُصْحاً ، ولا مُبتَغ فى إرشادهم غُنما .

فكان مما قدّم إليهم فيه نَهيَه ، وأعلَمهم سُوء عاقبته ، وحذّرهم إصْرَه ، وأوعز إليهم ناهياً وواعظاً وزاجراً ، الاعتكافُ على هذه التماثيل من الشّطْرنج ، والمُواصلة عليها ، لما فى ذلك من عظِيم الإثم ، ومُوبِق الوِزْر ، مع مَشغلتها عن طلب المَعاش ، وإضرارها بالعقول ، ومَنْعها من حُضور الصّلوات فى مَواقيتها مع جميع المسلمين .

***

وقد بلغ أميرَ المؤمنين أنّ ناساً ممّن قِبَلك من أهْل الإسلام ، قد ألهجهم الشيطانُ بها ، وجَمعهم عليها ، وألّف بينهم فيها ، فهُم مُعتكفون عليها من لَدُن صُبحهم إلى مُمساهم ، مُلهيةً لهم عن الصلوات ، شاغلةً لهم عما أُمروا به من القيام بسُنَن دينهم ، واُفتُرِضَ عليهم من شَرائع أعمالهم ، مع مُداعبتهم فيها ، وسُوء لَفظهم عليها . وإنّ ذلك من فِعلهم ظاهرٌ فى الأندية والمجالِس ، غيرُ مُنكر ولا مَعيب ، ولا مُستفظع عند أهلِ الفِقْه وذَوى الوَرع والأديان والأسنان منهم . فأَكبرَ أميرُ المؤمنين ذلك وأعظَمه وكَرهه واُستكبرَه ، وعلِم أنّ الشيطانَ عند ما يَئِس من بلوغ إرادته فى مَعاصى الله عزّ وجلّ بمعصرِ المُسْلمين ومجمعهم صُراحًا وجِهاراً ، أقدمَ بهم على شُبهة مُهْلِكة ، وزيّن لهم وَرْطة مُوبقة ، وغرّهم

بمكيدة حيله ، إرادةَ لاستهوائهم بالخُدع ، واجتيالهم (١) بالشُّبه والمَراصد الخفيّة المشكلة . وكُلٌّ مقيم على معصية الله ، صَغُرت أو كبرت ، مستحلاً لها ، مُشيداً بها ، مُظهراً لارتكابه إياها ، غيرَ حَذِر من عِقاب الله عزّ وجلّ عليها ، ولا خائفٍ مكْروهاً فيها ، ولا رعيب (٢) من حُلول سطوته عليها ، حتى تلحقه المنيّةُ ، فتختلجه وهو مُصِرٌّ عليها ، غيرَ تائب إلى اللهِ منها ، ولا مُستغفرٍ من ارتكابه إياها ، فكم قد أقام على مُوبقات الآثام ، وكَبائر الذُّنوب ، حتى صَدّه مخترم (٣) أيامه .

وقد أحبَّ أميرُ المؤمنين أن يتقدَّم إليهم فيما بلَغه عنهم ، وأن يُوعز إليهم ويُعلمهم ما فى أعناقهم عليها ، وما لهم فى قَبول ذلك من الحظ ، وعليهم فى تَركهِ من الوِزر . فأذِّن بذلك فيهم ، وأشِدْه فى أسواقهم وجميع أنديتهم ، وأوْعز إليهم فيه ، وتقدَّم إلى عامل شُرطتك فى إنهاك العُقوبة لمن رُفع إليه من أهْل الاعتكاف عليها ، والإظهار لِلَّعب بها ، وإطالة حَبْسه فى ضِيق وضَنك ، وطَرْح اسمه من ديوان أميرِ المؤمنين ، وافطِمْهم عما لَهِجوا به من ذلك . والتمسْ بشدّتك عليهم فيه وإنهاكِك بالعُقوبةِ عليه ثوابَ الله وجَزاءه ، واتّباعَ أمير المؤمنين ورأيه . ولا يجدنّ أحدٌ عندك هوادةً فى التَّقصير فى حق الله عزّ وجل ، والتعدّى لأحكامه ، فتُحلّ بنفسك ما يَسوءك عاقبته ومغبّته ، وتتعرّض به لغيرِ الله عزّ وجلّ ونَكاله . واكتُب إلى أمير المؤمنين ما يكونُ منك إن شاء الله ، والسّلام .

(١) اجتيالهم : حولهم عن طريق قصدهم .
(٢) رعيب ، أى مرعوب .
(٣) فى أحد الأصلين ؟ « مدبه مخرم » .

تحميد له فى أبى العلاء الحرورى

الحمدُ لله الناصرِ لدينه وأوليائه وخُلفائه ، المُظهر للحقّ وأهلِه ، والمُذلّ لأعدائه أهلِ البِدعة والضلالة ، الذى لم يَجمع بين حق وباطل ، وأهلِ طاعة ومَعصية ، إلاَّ جعل النُّصرة والفَلَج والعاقبة لأهل حقّه وطاعته ، وجَعل الخِزْى والذِّلّة والصَّغار على أهل الباطلِ والخلاف والمَعصية . حمْدًا يتقبّله ويَرضاه ، ويُوجب به لأميرِ المؤمنين وأهلِ طاعته الزيادةَ التى وَعد مَن شَكره . والحمدُ لله على ما يتولّى من إعزازِ أميرِ المؤمنين ونَصره وإفلاجه ، وإظهار حقّه ، على ماوقع بأعدائِه وأهلِ معصيته والخلاف عليه ، من سَطواته ونِقماته وبأسه ، فيما ولّى أمير المؤمنين من مُوالاة مَن والاه ، وعَداوة مَن بَغى عليه وعاداه ، لا يَكله فى شىء من الأُمور إلى نَفسه ، ولا إلى حَوْله وقُوّته ومكيدته ، فإنه لا حوْل ولا قُوّة لأمير المؤمين إلاَّ به .

تحميد له فى فتح

الحمدُ لله العلى مكانُه ، المُنير برهانُه ، العزيز سُلطانُه ، الثابتة كلماتُه ، الشافية آياتُه ، النافذ قضاؤه ، الصادق وعدُه ، الذى قَدر على خَلقه بِملكه ، وعزّ فى سماواته بعظَمته ، ودبّر الأُمور بعِلمه ، وقدّرها بحُكمِه ، على ما يشاء من عَزمه ، مُبتدعًا لها بإنشائه إياها ، وقُدرته عليها ، واُستصغار عظيمِها ، نافذاً إرادته فيها ، لا تجرى إلاَّ على تقديره ، ولا تَنتهى إلاّ إلى تأجيله ، ولا تَقع إلاّ على سَبْق من حَتْمه ، كلُّ ذلك بلُطفه وقُدرته ، وتصريف وَحيه ، لا معدِلَ لها عنه ، ولا سبيلَ لها غيرُه ، ولا يعلم أحدٌ بخفاياها ومَعادها إلا هو ، فإنّه يقولُ فى كتابه الصادقَ : (وعِندَه مَفاتحُ الغَيْب لا يَعلَمُها إلاَ هُو و يَعْلَمُ ما فى البرِّ والبَحْرِ . وماتَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُها ولا حَبّة فى ظُلُماتِ الأرضِ ولا رطبٍ ولا يابس إلاّ فى كتابٍ مُبين) .

وله فى فتح يعظم فيه أمر الإسلام

أمّا بعد . فالحمدُ لله الذى أصطفى الإسلامَ ديناً ، رضى شرائعَه ، و بيّن أحكامَه ، ونوّر هداه ، ثم كَنفَه بالعِزّ المؤيّد ، وأيّده بالظَّفر القاهِر ، وآزره بالسّعادة المُنتجبة(١) ، وجعل مَن قام به داعياً إليه من جُنده الغالبين ، وأنصاره المُسلَّطين ، كلما قَهر بهم مُناوئاً أورثهم رباعَهم المأهولة . وأموالَهم الثّرِيَّة ، ودارَهم الفسيحة ، ودولَتهم المُطوَّلة ، أمراً حَتمه على نفسه ، ثم جَعل مَن عاندهم وأبتغى غيرَ سبيلهم ، مُسْلَماً ، قد أستهوته ذِلّة الـكفر بظُلَمها ، وحَيرة الجهالة بجوارِها ، وتيه الشقاء بمغاويه ، وكلما أزدادوا لدعوة الحقّ إباء ، أزداد الحقّ إليهم أزدلافاً ، وعليهم عُـكوفاً ، وفيهم إقامة ، إلى أن يحل بهم عزّ الغَلبة ، ونَجاةُ المُجتاز(٢) ، داعين فيما شوّقهم إليه ، مُحافظين على ما نَدَبهم له ؛ قد بذلوا فى طاعة الله دماءهم ، وقبلوا المَعروض عليهم فى مُبايعة ربّهم لهم بأنفسهم الجنّة ، محمودٌ صبرُهم ، مسهلٌ بهم عزمهم ، إلى خير الدنيا والآخرة .

والحمد لله الذى أكرمَ محمداً صلّى الله عليه وسَلّم بما حَفظ له من أُمور أُمته ، أن أختار لمواريث نُبوته ما أصار إلى أمير المؤمنين من تَطويقه ما حَمـل ، بحُسن نُهوض به ، وشُحٍّ عليه ، ومُنافسة فيه ، أن فَعل وفعل .

والحمد لله الذى تمّم وعدَه لرسوله ، وخليفته فى أُمة نبيّه ، مُسدِّداً له فيما أعتزم عليه . والحمد لله المُعز لدينه ، المتولّى نصر أُمة نبيّه ، المُتخلى عمن عاداهم وناوأهم ، حمداً يزيد به مِن رضا شُـكره ، وحمداً يعلو حمدَ الحامدين من أوليائه ، الذين تكاملت عليهم نِعمُه فلا توصف ، وجلّت أياديه فلا تُحصى . [والحمد لله] الذى حمّلنا ما لا قُوة بنا على شـكره إلا بعَوْنه ، وبالله يستعين أميرُ المؤمنين على ذلك ، وإليه يَرغب ، إنه على كلّ شىء قدير .

تحميد له أيضاً

أما بعد . فالحمد لله الذى اصطفى الإسلامَ لنفسه ، وارتضاه ديناً لملائكته ، وأهل طاعته

---

(١) المنتجبة : المختارة .   (٢) فى أحد الأصلين : « المتجاوز » .

من عباده ، وجعله رحمةً وكرامةً ونجاةً وسَعادة لمن هُدِى به من خَلْقه ، وأكرمَهم وفضَّلهم وجَعلهم بما أنعم عليهم به أولياءه المقرَّبين ، وحزْبه الغالبين ، وجُنده المَنصورين ، وتوكَّل لهم بالظُّهور والفَلج ، وقَضى لهم بالعُلو والتَّمكين ، وجعل مَن خالفه وعَزب عنه ، وابتغى سبيل غيره ، أعداءه الأفلّين ، وأولياء الشيطان الأخسرين ، وأهل الضلالة الأسفلين ؛ مع ما عليهم فى دُنياهم من الذُّل والصَّغار . فأعجل لهم فيها من الخِذْلان والانتقام ، إلى ما أعدّ لهم فى آخرتهم من الخِزْى والهوان المُقيم ، والعذاب الأليم . إنه عزيز ذو انتقام .

وله فى مولود

وكتب عبد الحميد فى مولود ولد له ، وهو أول مولود كان ، إلى أخ له :

أما بعد . فإنّى ما[1] أتعرّف من مواهب الله نِعمةً خُصصت بمزيّتها ، وأُصفيت بخَصيصتها ، كانت أسرّ لى مِن هبة الله لى وَلداً سَمّيته فلاناً ، وأمّلتَ ببقائه بَعدى حياة ذِكْرَى ، وحُسْن خلافة فى حرُمتى ، وإشراكه إياى فى دُعائه ، شافعاً لى إلى ربّه عند خَلَواته فى صلاته وحجّه ، وكُل موْطن من مواطن طاعتِه . فإذا نظرتُ إلى شخصه تحرّك به وَجْدى ، وظهَر به سرُوى ، وتعطّفت عليه منّى أَنسة الولد ، وتولّت عنّى وَحشة الوَحدة . فأنا به جَذِل فى مَغيبى ومَشْهدى ، أُحاول مسّ جسده بيدى فى الظُّلَم ، وتارة أُعانقه وأرشفه ، ليس يَعدِله عندى عَظيماتُ الفوائد ، ولا مُنْفِسات الرغائب . سرّنى به واهبُه لى على حين حاجتى . فشدّ به أزْرى ، وحمّلنى من شُكره فيه ما قد آدنى[2] بِثقَل حمْل النّعم السالفة إلىّ به ، المَقرونة سرّاؤها فى العجب بتارات ما يُدركنى به ، مِن رقة الشَّفقة عليه ، مخافةَ مُجاذبة المنايا إياه ، ووجلاً من عواصف الأيام عليه .

فأسأل الله الذى أمتنّ علينا بحُسن صُنعه فى الأَرحام ، تأديبَه بالزّكاء ، وحَرْسه بالعافية ، وأن يرزقنا شُكر ما خَوّلنا فيه وفى غَيره ، وأن يجعل ما يَهب لنا من سَلامته ، والمَدَّة فى عمره ، موصولاً بالزيادة ، مقروناً بالعافية ، محُوطا من المكروه ؛ فإنه المنّان بالمواهب ، والواهب للمُنى ، لا شريك له .

(١) فى أحد الأصلين : « فان مما » .
(٢) آده الأمر : بلغ منه المجهود .

حملنى على الكتاب إليك لعِلْم ما سُررت به ، عِلْمى بحالك فيه ، وشركتُك إياى فى كُل نعمة أسداها إلىّ ولىُّ النعم . وأهلُ الشكر أولى بالمزيد من الله جلّ ذكره ، والسلام عليك .

وله فى السلامة

وكتب عبد الحميد عن هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر ، وهو باليمن ، فى السلامة : فإن أمير المؤمنين كَتب إليك ، وهو فى نِعمة الله عليه و بلائه عنده ، فى ولده وأهل لُحمته ، والخاص من أموره ، والعامّ ، والُجنود والقواصى ، والثُّغور ، والدَّهماء من المسلمين ، على مالم يَزل ولىُّ النِّعم يتولاّه من أمير المؤمنين ، حافظاً له فيه ، مُكرماً له بالحياطة لما أَلهمه الله فيه من أمر رعيّته ، على أعظم وأحسن وأكمل ما كان يحوطه فيه ، ويَذبّ له عنه . والله محمود مشكور إليه فيه مرغوب .

أحبّ أميرُ المؤمنين ، لعِلْمه بسُرورك به ، أن يكتب إليك بذلك لتحْمد الله عليه ، وتَشْكره به ؛ فإنّ الشُّكر من الله بأحسن المَواضع ، وأعظم المنازل . فازدد منه تزْدد به ، وحافِظ عليه تُحفظ به ، وأرغبْ فيه يُهْدِ إليك مزيدَ الخير ، ونفائس المواهب ، و بقاء النعم . فاقرأ على مَن قِبلك كتاب أمير المُؤمنين إليك ، ليُسرّ به جُندُك ورعيتك ، ومن خَوّله الله النعم بأمير المؤمنين ، ليحمدوا ربّهم على ما رَزق الله عبادَه من سلامة أمير المُؤمنين فى بدنه ، ورَأفته بهم ، واعتنائه بأمورهم ؛ فإن زيادة الله تعلو شُكر الشاكرين ، والسلام .

وله إلى مروان فى حاجة

إن الله بنعمته علىّ ، لما رَزقنى المنزلةَ من أمير المُؤمنين ، جَعل معها شُكرَها مقْروناً بها ، فهى تَنمِى بالزيادة ، والشُّكر مُصاحب لها . فليست تَدْخلنى وحشةٌ من إنباء حاجتى ، وأنا أعلم أنه لو وصَل إلى أمير المؤمنين عِلْمُ حالى أغنانى عن اُستزادته ، ولكنى تكنّفتنى مُؤن اُستنفضت ما فى يدى ، وكنتُ للخَلَف من الله مُنتظراً ، فإنى إنما أتقلب فى نِعَمه ، وأتمرّغ فى فوائده ، وأعتصم بسالف مَعروفه كان عندى .

وله فى وصف الإخاء

فإن أولى ماأعتزم عليه ذوو الإخاء . وتواصل عليه[1] أهلُ المودّات ، ما دعا أسبابَه صدقُ التقوى ، وبُنيت دعائمه على أساس البرّ ، ثم أنهد[2] البناءَ حريزُ[3] التواصل ، وشيّده مُستعذب العِشْرة ، فأدّعم قويًّا ، وصفا مُونقا ، وأخلصته المِقةُ[4] مُنعطفةً ، وسكنتْ به القلوبُ أنيسةَ ، وسَمت من مُواصلته الهمم مُستعلية عن كل زائغ مُعتاق[5] ، ومَخوف عارض ، يخترم مُشْكة الإخاء ، ويحتز[6] مَربوب المِقة ، ضنًّا بما استعذبوا من محمود وثائقه ، وازدياداً فيما تمطّقوا به من حلاوة جَناه ، فإذا استحكم لهم مَذْخورُ الصفاء بثَبات أواخيه ، وظُهورأعلامه ، ومَحصول مُختبره ، وثقة موادّه . كان سرورُهم باعتلاقه[7] ، وابتهاجُهم بوِجْدانه ، وإنماؤهم صلتَه ، وبَذْلُهم رعايته ، وحياطتُهم محمودَه ، بحيث نالوا من معرفة حُظوته ، واستولوا عليه من مزية كرمه ، وتعرّفوا من ذَخيرة عائدته ، ومأمونِ حِفاظه ، وكَشَف لهم عن نفسه ، مُظهراً أعلامَه ، مُبدِيا دفينَته ، طارحاً قناع سرّه ، مُعلِنا مكنونَ ضميره ، فى نأى الدار ، وجدان[8] المجتمع ، بإظهار ماأستتر من المحاسن ، وبُثّ فى الحِقَب من المكارم ، قياماً لهم بالنُّصرة ، وحياطاً للمودّة ، وتَرغيبا فى العِشْرة . وكان أكهف لجأ[9] ، وأحرز حِصن ، وأحصفَ جُنّة[10] ، وأعونَ ظَهير ، وأبقى ذَخيرة ، وأعظم فائدة ، وأشرف كَنز ، وأنفس صنيعة ، وآنق منظر ، وأينعَ زهرة ، أكثر الأشياء رَيْعاً[11] ، وأنماها وَصلا ، وأمدّها سببا ، وأقواها أيْدا ، وأحلاها ذَوْقا ، وأدعمها ثباتا ، وأرساها رُكنا ، لا يدخل

---

(١) فى أحد الأصلين : « توصل إليه » (٢) أنهد : رفع .
(٣) الحريز : الحصين . وفى أحد الأصلين : « حزين » .
(٤) المقة : المحبة . وفى أحد الأصلين : « وبخاصة الحقة » .
(٥) المعتاق : المعوق .
(٦) يحتز : يقطع . ومربوب المقة : أى تام المحبة . وفى أحد الأصلين : « ويختار ... » .
(٧) باعتلاقه ، أى بالتعلق به . (٨) كذا فى الأصلين .
(٩) اللجأ : الملجأ . وأكهف : أمنع وأحصن .
(١٠) أحصف جنة ، أى أحكمها .
(١١) راع يريع روعا : نما وزكا .

مستحقها سآمةُ ملالٍ ، ولا كَلالَ مِهنة ، ولا تثبيط وَنية ، ولا ضَعف خَور ، لنزول بائقة ، أو طُروق طارقة ، من عوارض الأقدار ، وحوادث الزمان ، بل مُواسياً فى إزَمها ، متورِّطا غمرات قُحَمها(١) ، متدرِّعا هائلَ بوائقها ، مُستلحما(٢) نواظرَ مقاطعها ، حتى تصير به الأقدار إلى تناهيها ، ويبلغ به القضاء مقدارَه ، غير منَّان بالنصرة ، ولا برم بالتعب ، يرى تعبه غُنما ، ونصبه دعة ، وكَلفه فائدة ، وعمله مُقصِّرا ، وسعيهُ مفرِّطا ، واجتهاده مضيعا ، عِدْل الولد فى برّه ، والوالد فى شَفَقته ، والأخ فى نُصرته ، والجار فى حِفْظه ، والذُّخر فى مِلكه . فأين المعدل عن مثله ؟ أو كيف الإصابةُ لشِبْهه ؟ أو أىُّ عِوَضٌ مِن فَقْده ؟ جمعنا الله و إياك على طاعته ، وألفنا بمحَابّه ، وجعل أخوتنا فى ذاته .

وقد حددتُ لك أى أخى الإخاء متشعِّبا ، ووصفتُه لك مُخلصا ، وأنتهيت بك إلى غاية أهلِ العقل منه ، وما تواصلَ أهلُ الرأى عليه ، ودعا إليه الإخاء من نفسه ، مُنتطقا به ، ضامناً له ما فَرط فى ذلك تقصيرٌ من أهله ، وداخله تَضييع مِن حَمَلته ، أو حاطه إحكام وكَنفه حِفاظ من رُعاته .

ووافانى كتابُك بما سألتَ من ذلك وعقلى مَحصور ، ورأيى مُنقسم ، وذهنى فيما يتأهّب به الأمير(٣) [لقتال عدو] الله من خَزر الترك ، واختلاف رُسله إلى جبال اللّان والطّبران(٤) وما والاهما ، بنوافذ أمره ، ومَخارج رأيه . فأنا مُصيخُ السَّمع للفظه ، عَقِل العقل عن سوى أمره ، مُحتضِر الذِّهن فى تدبيرهم ، ذَهِل القلب عن تفنين القول وتَشعيب الكلام فى تَصنيف طبقات الرجال ، ومن أين دخَل عليهم نقص الإخاء ، وكيف خانهم مُونِق الصفاء . وقد صرّحت لك عن رأى ذوى الصفاء ، وكَشفت لك خباء الإخاء ، وجمعتُ لك إلْف مودة أهل الحجا . فتلقَّ ما وصفتُ لك بقلب فَهِم عقول ذى مِيزة يقظانَ ،

(١) القحمة (بضم القاف) : الاقتحام فى الشىء والمهلكة .
(٢) مستلحما ، أى متتبعا .
(٣) هو مروان بن محمد ، وكان هشام ولاه أرمينية وأذربيجان سنة ١١٤ هـ واستمر واليا عليها إلى أن تولى الخلافة ، وكان عبد الحميد متصلا به .
(٤) اللان : بلاد واسعة فى طرف أرمينيه . والطيران : جنوب بحر الخزر .

وذهن جامع حافظ ذى ثَقافة راعٍ . أحضرك الله عِصمة التوفيق ، وسدّدك الله لإصابة الرُّشد ، ومكّن لك صِدق العزيمة . والسلام .

وله فى التعزية(١)

ومن رسائل عبد الحميد ما كتب عن مروان إلى هشام يُعزّيه بامرأة من حظاياه :

إن الله تعالى أمتع أميرَ المُؤمنين من أنيستِه وقَرينتِه متاعاً مدّه إلى أجل مُسمّى ، فلما تمّت له مواهبُ الله وعاريّته ، قَبض إليه العارية ، ثم أعطى أميرَ المؤمنِين من الشُّكر عند بقائها ، والصَّبر عند ذهابها ، أنفسَ منها فى المُنقلب ، وأرجحَ فى الميزان ، وأسنى فى العِوَض . فالحمد لله رب العالمين ، وإنا إليه راجعون .

وله فى التوصية

وكتب مُوصياً بشخص يقول :

حقُّ مُوصِّل كتابى إليك كحقّه علىّ ، إذ جعلك مَوْضعاً لأمله ، ورآنى أهلا لحاجته . وقد أُنجزتُ حاجَته ، فصدِّق أملَه .

وله فى فتنـــــة

وكتب فى فتنة بعض العمال من رسالة :

حتى أعترانى حنادسُ جَهالة ، ومَهاوى سُبل ضَلالة ، ذَلَّلا لسياقه ، وسَلّمانى قياده ، إلى نُزل من حميم ، وتَصلية جَحيم ، سوى ما أنتجت الحفيظة فى نَفسه من عوائد الحَسَك ، وقَدَحت الفِتنة فى قَلبه من نار الغَضب ، مضادّة لله تعالى بالمُناصبة ، ومُبارزة لأمير المؤمنين بالمُحاربة ، ومُجاهدة المُسلمين بالمُخالفة ، إلى أن أصبح بفَلاة قَفر ، وتِيه صِفْر ، بعيدة المَناط ، يقطع دونها النِّياط ، وكذلك يَفعل الله بالظالمين ، ويستدرجهم من حيثُ لا يعلمون .

(١) هذه الرسائل الأربع منقولة عن سرح العيون .

له إلى أهله

وكتب من رسالة إلى أهله وهو منهزم مع مروان :

أما بعد ، فإنّ الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكُره والسُّرور ، فمَن ساعده الحظُّ فيها سَكن إليها ، ومَن عَضّته بنابها ذمّها ساخطاً عليها ، وشكاها مُستزيداً لها ، وقد كانت أذاقتنا أفاويق(١) استحليناها ، ثم جمحت بنا نافرةً ، ورمحتنا مُولّية ، فملُح عَذْبُها ، وخَشُن ليّنها ، فأبعدتْنا عن الأوطان ، وفرّقتنا عن الإخوان . فالدارُ نازحة ، والطيرُ بارحة .

وقد كتبتُ والأيام تزيدنا منكم بُعدا ، وإليكم وَجدا ، فإنْ تتمّ البليةُ إلى أقصى مُدتها . يكن آخر العهد بكم و بنا ، وإن يَلحقنا ظُفر جارح من أظفار مَن يليكم نرْجع إليكم بذُل الإسار ، والذُّل شرُّ جار .

نسأل الله الذى يُعز مَن يشاء ، ويُذل من يشاء ، أنّ يَهب لنا ولكم أُلفة جامعة ، فى دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فإنه ربُّ العالمين ، وأرحم الراحمين .

وله إلى فرق العرب

وله من رسالة كتب بها عن آخر خلفاء بنى أمية ، وهو مروان الجعدى ، لفِرق العرب ، حين فاض العجم من خُراسان بشعار السواد قائمين بالدولة العباسية (٢) :

فلا تُمكنوا ناصِية الدولة العربية ، من يَد الفئة العَجمية ؛ واثبتُوا ريثما تَنجلى هذه الغَمرة ، ونَصْحو من هذه السَّكرة ، فسيَنضب السيلُ ، وتُمحى آيةُ الليل ؛ والله مع الصابرين ، والعاقبة للمتقين .

(١) الأفاويق : جمع فيقه (بالكسر) ، وهى اللبن يجتمع فى الضرع بين الحلبتين .
(٢) انظر عنوان المرقصات والمطربات وسرح العيون .

رسالته إلى الكتاب

وكتب عبد الحميد رسالته هذه إلى الكتاب يوصيهم فيها ، فقال :

أما بعد . حفظكم الله يأهل صِناعة الكتابة ، وحاطكم ووفّقكم وأرشدكم ؛ فإن الله عزّ وجلّ جَعل الناس بعد الأنبياء والمُرسلين ، صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين ، ومن بعد الملائكة المُكرمين ، أصنافا[١] ، وإن كانوا فى الحقيقة سواء ، وصرّفهم فى صنوف الصناعات ، وضُروب المُحاولات ، إلى أسباب مَعايشهم[٢] ، وأبواب أرزاقهم ، فجعلكم معشرَ الكُتّاب فى أشرف الجهات ، أهلَ الأدب والمُرُوءة[٣] والعِلْم والرواية[٤] ، بكم تنتظم للخلافة مَحاسنُها ، وتَستقيم أمورُها ، وبنصائحكم يُصلح اللهُ للخلق سُلطانَهم ، وتَعمر بلادهم[٥] . لا يَستغنى الملكُ عنكم ، ولا يُوجد كافٍ إلا منكم ، فموقعكم من الملوك موقع أسماعِهم التى بها يَسمعون ، وأبصارهم التى بها يَبطشون . فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نَزع عنكم ما أضفاه من النعمةِ عليكم .

وليس أحدٌ من أهل الصِّناعات كلها أحوجَ إلى اجتماع خلال الخير المحمودة ، وخِصال الفضل المذكورة المَعدودة ، منكم أيها الكتاب ، إذا كُنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم ؛ فإنّ الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبُه الذى يَثق فى مُهمات أموره ، أن يكون حليماً فى موضع الحلم ، فَهيما فى موضع الحكم[٦] ، مِقداما فى موضع الإقدام ، محجاما[٧] فى موضع الإحجام ، مُؤثرا للعفاف والعَدل والإنصاف ، كتوما للأسرار ، وفيًّا عند الشدائد ، عالما بما يأتى من النوازل ، يضَع الأمور مواضعها ، والطوارق

(١) انظر صبح الأعشى : (١ : ٨٥) ومقدمة ابن خلدون (ص ٨٥) — وقد انتفعنا هنا بمخطوطتى المرحومين زكى باشا وتيمور باشا — والوزراء والكتاب (ص ٧٠) .

(٢) فى المقدمة : « معاشهم » .

(٣) فى المقدمة : « والمروآت » .

(٤) فى المقدمة : « والرزانة » .

(٥) فى المقدمة : « بلدانهم » .

(٦) فى المقدمة : « الفهم » .

(٧) فى المقدمة : « محجما » .

فى أماكنها . قد نَظر فى كل فنّ من فُنون العِلْم فأحكمه ، فإن لم يُحكمه أخذ منه بمقدار مايكتفى به ؛ يعرف بغَريزة عقله ، وحُسن أدبه ، وفَضل تجربته ، مايرد عليه قبل وُروده ، وعاقبةَ مايصدُر عنه قبل صُدوره ، فيُعدّ لكل أمر عُدّته وعَتاده ، ويُهيئ لكل وَجه هَيئته وعادته .

وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها ، التَمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت جموحا[1] لم يَهجها إذا ركبها . وإن كانت شَبوبا أتقاها من قِبل يديها ، وإن خاف منها شُروداً توقّاها مِن ناحيةَ رأسها ، وإن كانت حَروناً قمَع برفق هواها فى طريقها ، فإن أستمرت عَطفها يسيراً ، فيَسْلس له قيادُها . وفى هذا الوصف من السياسة دلائل[2] ، لمن ساس الناسَ وعامَلهم وجربهم[3] وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صَنعته ، ولطيف حيلته ومُعاملته لمن يُحاوره من الناس ويناظره ، ويَفهم عنه أو يخاف سطوته . أولى بالرفق بصاحبه ، ومُداراته وتَقويم أَوَده ، من سائس البهيمة التى لاتُحير جوابا ، ولا تعرف صوابا ، ولا تفهم خطابا ، إلا بقدر مايُصيِّرها إليه صاحبُها الراكب عليها .

* * *

ألا فأنعموا[4] رحمكم الله النظر ، وأعملوا فيه ما أمكنكم من الروّية والفكر ، تأمنوا بإذن الله ممن صَحبتموه النّبوة ، والأستثقال والجفوة ، ويَصير منكم إلى المُوافقة ، وتصيروا منه إلى المُؤاخاة والشَّفقة، إن شاء الله تعالى .

ولا يجاوزنَّ الرجلُ منكم فى هيئة مجلسه ومَلبسه ومَركبه ومَطعمه ومَشربه وبنائه وخدمه ، وغير ذلك من فُنون أمره ، قدر حَقّه ، فإنكم ، مع ما فضّلكم الله به من شَرف صَنْعتكم ، خدمة لاتُحمَلون فى خِدمتكم على التقصير ، وحفظة لا تحتمل منكم أفعالُ

---

(١) فى المقدمة : « رموحا » .
(٢) فى المقدمة : « دليل » .
(٣) فى المقدمة : « وخدمهم » .
(٤) فى المقدمة : « فارفقوا » .

التّضييع والتّبذير . واستعينوا على عفافكم بالقَصْد فى كل ما ذكرتُه لكم ، وقصصتُه عليكم . واحذروا متالف السَّرف ، وسوء عاقبة التَّرف ، فإنهما يُعقبان الفقر ، ويُذلان الرِّقاب ، ويفضحان أهلهما . ولا سيما الكتّاب ، وأرباب الآداب .

وللأمور أشباه ، وبعضُها دليل على بعض . فاستدلّوا على مؤتَنَف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اُسلكوا من مسالك التّدبير أوضحها محجّة ، وأصدقها حُجة ، وأحمدها عاقبة .

واعلموا أنّ للتدبير آفة مُتلفة ، وهى الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورُؤْيته(١) . فليقصِد الرجلُ منكم فى مَجلسه قَصد الكافى فى منطِقه ، وليُوجز فى اُبتدائه وجوابه ، وليأخذ بمجامع حُججه ؛ فإنّ ذلك مَصلحة لفعله ، ومَدفعة للتشاغل عن إكثاره . وليضرع إلى الله فى صِلة تَوْفيقه ، وإمداده بتَسديده ، مخافَةَ وقوعه فى الغَلط المضرّ ببدنه وعَقله وأدبه . فإنه إن ظنّ منكم ظان أو قال قائل : إن الذى بَرز من جميل صَنعته وقُوة حَركته ، إنما هو بفَضل حيلته وحُسن تدبيره فقَد تعرّض بظنّه(٢) أو مقالته إلى أن يكِلَه الله عزّ وجلّ إلى نفسه ، فيصير منها إلى غير كاف ، وذلك على من تأمله غيرُ خاف .

ولا يقول أحدٌ منكم إنه أبصرُ بالأمور ، وأحملُ لعبء التدبير من مُرافقه فى صناعته ، ومصاحبه فى خِدْمته . فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب من رَمى بالعُجب وراء ظهره ، ورأى أن صاحبه أعقلُ منه وأحمد فى طريقته . وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضلَ نِعم الله جلّ ثناؤُه من غَير اُغترار برأيه ، ولا تزْكية لنفسه ، ولا تَكاثُر على أخيه أو نظيره ، وصاحبه وعشيره .

وحمدُ الله واجبٌ على الجميع ، وذلك بالتواضع لعظمته ، والتذلل لعزّته ، والتحدّث

---

(١) فى المقدمة : « علمه ورويته » .

(٢) فى المقدمة : « بحسن ظنه » .

بنعمته .

فتنافسوا يا معشَر الكُتّاب ، فى صنوف الآداب ، وتَفقّهوا فى الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثِقاف ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخطّ ؛ فإنه حلية كُتبكم ، وارووا الأشعار ، واُعرفوا غريبَها ومعانيها ، وأيامَ العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ؛ فإن ذلك مُعين لكم على ما تسمُوا إليه هممكم . ولا تُضيّعوا النظر فى الحِساب ؛ فإنه قوام كُتّاب الخراج . وارغبوا بأنفسكم عن المَطامع : سنيّها ودنيها ، وسفساف الأمور ومَحاقرها ، فإنها مذلّة للرّقاب ، مفسدة للكُتّاب . ونزّهوا صناعتكم عن الدّناءة[1] ، واربئوا بأنفسكم عن السّعاية والنّميمة ، ومافيه أهلُ الجهات ، وإياكم والكِبْر والصلف[2] والعَظَمة ؛ فإنها عداوة مُجتلبة من غير إحنة . وتحابُّوا فى الله عزّ وجلّ فى صناعتكم ، وتواصَوْا عليها بالذى هو أليقُ بأهل الفَضل والعدل والنُّبل من سلفكم .

وإن نبا الزمانُ برجل منكم فاعطِفوا عليه وواسوه ، حتى يرجع إليه حالُه . ويثوبَ إليه أمرُه . وإن أقعد أحداً[3] منكم الكِبرُ عن مَكسبه ولقاء إخوانه ، فزوروه وعظّموه وشاوروه ، واستظهروا بفَضل تَجربته ، وقَديم مَعرفته . وليكن الرجلُ منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحفظَ[4] منه على ولده وأخيه . فإن عرضتْ فى الشغل محمدة ، فلا يضيفها[5] إلا إلى صاحبه ، وإن عرضت مذمة فَلْيحملها هو من دُونه ، وليحذر السّقطة والزّلة والمَلل عند تغيرُ الحال ؛ فإن العَيب إليكم معشرَ الكُتّاب أسرعُ منه إلى القراء ، وهو لكم أفسدُ منه لها .

***

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يبذل[6] له من نَفسه ما يجبُ له عليه من حقّه ،

(١) فى المقدمة : الدناآت .
(٢) فى المقدمة : « السخف » .
(٣) فى المقدمة : « أحدكم » .
(٤) فى المقدمة : « أخوط » .
(٥) فى المقدمة : « يصرفه » .
(٦) كذا فى المقدمة . والذى فى سائر المراجع : « الرجل » .

فواجبٌ عليه أن يَعتقد له من وفائه وشُكره، واحتماله وصبره[١]، ونصيحته وكتمان سرِّه، وتدبير أمره، ما هو جزاء لحقه، ويصدِّق ذلك بفعاله[٢] عند الحاجة إليه، والاضطرار إلى ما لديه.

فاستشعروا ذلك، وفقكم الله، من أنفسكم في حالة الرَّخاء والشدة، والحِرْمان والمؤاساة والإحسان، والسرَّاء والضراء، فنعمت الشِّيمة هذه لمن وُسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة. وإذا وُلّى الرجل منكم أو صُيِّر إليه من أمر خلق الله وعياله أمرٌ فليراقب الله عزَّ وجل، وليؤثر طاعته، وليكن على الضعيف رَفيقا، وللمظلوم مُنصفا؛ فإنَّ الخلق عيالُ الله، وأحبّهم إليه أرفقُهم بعياله.

ثم ليكن بالعدل حاكما، وللأشراف مُكرِما، وللفيء مُوفِّرا، وللبلاد عامرا، وللرعيّة مُتألِّفا، وعن أذاهم مُتخلِّفا. وليكن في مَجلسه مُتواضعا حليما، وفي سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقا. وإذا صحب أحدُكم رجلاً فليختبر خلائقَه، فإذا عَرف حَسنها وقَبيحها أعانه على ما يُوافقه من الحسن، واحتال على صرفه عما يهواه من القُبح، بألطف حيلة، وأجمل وَسيلة.

وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل: من يلزم النصيحة يلزمه العمل. وهو جوهر هذا الكتاب وغُرة كلامه، بعد الذي فيه من ذكر الله عزّ وجل؛ فلذلك جعلتُه آخره وتممتهُ به.

تولانا الله وإياكم يا معشَر الطَّلبة والكَتبة بما يتولّى به مَن سبق علمُه بإسعاده وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[٣].

---

(١) في المقدمة: «وخيره».

(٢) في المقدمة: «تبعا له».

(٣) بين المراجع خلاف في ترتيب بعض الفقرات.

الرسالة العذراء(١)

فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة

كتب بها أبو اليسر إبراهيم بن محمد(٢) المُدَبِّر

بسم الله الرحمن الرحيم

فَتق الله بالحِكمة ذهنَك، وشَرح بها صدرك، وأَنطق بالحق لسانَك، وشرَّف به بيانك. وصل إلىَّ كتابُك العَجيب — الذى أُستفهمتنى فيه بجوامع كَلمك جوامعَ أسباب البلاغة، وأُستكشفتنى عن غوامض آداب أدوات الكِتابة، وسألتنى أن أقفَ بك على وزن عُذوبة اللفظ وحلاوته، وحُدود فخامة المَعنى وجزالته، ورَشاقة نَظم الكتاب ومُشاكلة سرده، وحُسن افتتاحه وختمه، وأنتهاء فصوله، وأعتدال وصوله، وسلامتهما من الزلل، وبُعدهما من الخَطل. ومتى يكون الكاتبُ مستحقاً اسم الكتابة، والبليغُ مسلماً له معانى البلاغة فى إشارته واستعارته، و إلى أى أدواته هو أحوج، و بأىّ آلاته هو أعمل، إذا حَصحص الحق، ودُعى إلى السّبق — وفهمتُه.

وأنا راسم لك، أيدك الله، من ذلك ما يَجمع أكثَر شرائطك، ويُعبّر عن جُملة سؤالك، وإن طوّلتُ فى الكتاب وعرّضت، وأطنبت فى الوصف وأسهبت، ومُستقص على نفسى فى الجواب على قدر أستقصائك فى السؤال، و إن أخلَّ به التقيات

(١) منقولة من مجموع قديم من كتب إسلامية للشيخ الطاهر الجزائرى. وقد عرضناها على الأصل وعلى مخطوطة أخرى محفوظة بدار الكتب المصرية رقم (٨٠ مجاميع تيمور). وأخبار إبراهيم بن المدبر فى الأغانى وطبقات الأدباء لياقوت.

وانظر العقد الفريد (ج ٤ طبعة لجنة التأليف) ونهاية الأرب (ج ٧ : ١١) فقد ورد فيها كثير من فقر هذه الرسالة مع زيادات ومخالفات.

(٢) فى التيمورية : «كتب بها أبو اليسر إبراهيم بن محمد الشيبانى إلى إبراهيم بن محمد بن المدبر».

الحال ، وسُكون الحركة ، وفُتور النشاط ، وأنتشار الروية ، وتقسّم الفكر ، واشتراك القلب ، والله المستعان .

* * *

اعلم ، أيدك الله ، أن أدواتِ ديوان جميع المحاسن ، وآلات المكارم ، طاعةٌ مُنقادة لهذه الصناعة التى خطَبتها ، وتالية تابعة لها ، وغير خارجة إلى جحد أحكامها ، ولا دافعة لما يلزمها الإقرار به لها ، إضراراً منها إليها وعجزاً عنها . فإن تقاضَتْك نفسُك عِلْمها ، ونازعتْك همّتك إلى طلبها ، فاتخذ البرهان دليلا شاهدا ، والحق أماماً قائدا ، يقرب مسافة ارتيادك ، ويُسهل عليك سبل مطالبها . واستوهب الله توفيقاً تستنْجح به مطالبك ، واُستمنحه رشداً يقبل إليك بوجه مذاهبك ، فاقصد فى أرتيادك ، وتأمّل الصوابَ فى قولك وفعلك ، ولا تَسكن إلى جُحود قَصْد السابق باللّجاج ، ولا تَخرج إلى إهمال حق المُصيب بالمُعاندة والإنكار ، ولا تَستخفّ بالحِكمة ولا تُصغِّرها حيثُ وجدتَها ، فترحلَ نافرةً عن مواطنها من قلبك ، وتَظعن شاردةً عن مكانها من بالك ، وتتعفّى بعد العِمارة من قلبك آثارُها ، وتَنطمس بعد الوُضوح أعلامها .

* * *

وأعلم أنّ الاكتساب بالتعلّم والتكلّف وطول الاختلاف إلى العلماء ، ومُدارسة كُتب الحكماء ، فإن أردتَ خوضَ بحار البلاغة ، وطلبتَ أدواتِ الفصاحة ، فتصفّح من رسائل المُتقدّمين ما تعتمد عليه ، ومن رسائل المُتأخرين ما تَرجع إليه ، فى تَلْقيح ذهنك ، وأستنجاح بلاغتك ، ومن نوادر كلام الناس ماتَستعين به ، ومن الأشعار والأخبار والسِّير والأسمار ما يَتّسع به منطقك ، ويعذُب به لسانُك ، ويطول به قلمُك .

* * *

وانظر فى كُتب المقامات والخُطب ، ومحاورات العرب ، ومعانى العجم ، وحدود المنطق ، وأمثال الفُرس ، ورسائلهم وعُهودهم ، وتوقيعاتهم وسِيَرهم ، ومكايدهم فى حُروبهم

بعد أن تتوسّط فى علم النحو والتّصريف واللّغة، والوثائق والشروط، ككتب السجلاّت والأمانات؛ فإنه أول ما يحتاج إليه الكاتب. وتمهر فى نَزْع آى القرآن فى مواضعها، واُجتلاب الأمثال فى أماكنها، واُختراع الألفاظ الجزْلة، وقَرْض الشّعر الجيّد، وعلم العروض؛ فإنّ تَضْمين المثل السائر، والبيت الغابر، مما يزين كتابك، ما لم تُخاطِب خليفةً أو ملكا جليل القدر؛ فإن اجتلاب الشّعر فى كُتب الخلفاء، والجِلّة الرؤساء، عيبٌ واُستهجان للكُتب، إلا أن يكون الكاتب هو القارض للشعر والصانع له، فإن ذلك مما يزيد فى أُبهته، ويدلّ على بَراعته. وإن شَدَوْتَ من هذه العلوم مالا يشغلك مَحلُّه، وتنقَّبت من هذه الفنون ما تَستعين به على إطالة قَلمك، وتقويم أَوَد بيانك.

بعد أن يكون الكاتبُ صحيحَ القريحة، حُلو الشمائل، عَذْب الألفاظ، دقيق الفَهم، حسنَ القامة، بعيداً من الفَدَامة، خفيفَ الروح، حاذق الحس، مُحنَّكاً بالتّجربة، عالما بحلال الكتاب والسنّة وحرامهما، وبالملوك وسيرها وأيامها، وبالدّهور فى تقلّبها وتداولها، مع براعة الأدب، وتأليف الأوصاف، ومشاكلة الاُستعارة، وحُسن الإشارة، وشَرح المعنى بمثله من القول، حتى يَنصب صُوراً منطقيّة تُعرف عن أنفسها، وتدل على أعيانها؛ لأن الحكماء قد شَرطوا فى صفات الكُتّاب طولَ القامة، وصِغر الهامة، وخفّة اللّهازم[1]، وكثافة اللّحية، وصِدْق الحس، ولُطف المذهب، وحَلاوة الشمائل، وملاحة الزّى؛ حتى قال بعضُ المهالبة لولده: تزيّوا بزىّ الكُتّاب، فإن فيهم أدبَ الملوك، وتواضع السوقة.

* * *

وخاطِبْ كُلاًّ على قدر أُبهته وجلالته، وعُلوه وارتفاعه، وتفطّنه واُنتباهه. واُجعل طبقاتِ الكلام على ثمانية أقسام: فأربعة منها للطبقة العلوية، وأربعة دونها، ولكل

(١) اللهازم: جمع لهزمة، وهى عظم ينشأ تحت الأذن.

طبقة منها درجة ، ولكل قسمة حظ ، لا يتسع للكاتب البليغ أن يُقصر بأهلها عنها ، ويَقْلِب معناها إلى غيرها . فالطبقة العليا ، الخلافة التى أعلى الله شأنها عن مُساواتها بأحد من أبناء الدنيا فى التَّعظيم والتوقير ، والمُخاطبة والترسّل . والطبقة الثانية الوزراء والكُتّاب الذين يُخاطبون الخلفاء بعقولهم وألسنتهم ، ويَرْتقون الفتوق بآرائهم ، ويتجمّلون بآدابهم . الثالثة أمراء ثغورهم ، وقوّاد جيوشهم ، يُخاطَب كل أمرئ منهم على قدره ، وبما حمل من أعباء أمورهم ، وجلائل أعمالهم . الطبقة الرابعة القُضاة ، فإنهم وإن كان لهم تواضعُ العُلماء وحِلية الفضلاء ، فمعهم أُبهةُ السلطنة ، وهيبةُ الأمراء .

وأما الطبقات الأربع الأخرى ، فالملوك الذى أوجبت نِعمهُم تعظيمَهم فى الكتب ، وأفضالهُم تفضيلَهم فيها . والثانية وزراؤهم وكُتّابهم وأتباعهم ، الذين بهم تُقرع أبوابهم ، وبعنايتهم تُستماح أموالهم . والثالثة هم العلماء الذين يجب توقيرهم فى الكُتب لشَرف العِلْم وعلوّ درجة أهله . الرابعة أهل القَدر والجلالة ، والظَّرف والحلاوة ، والعلم والأدب ، فإنهم يضطرونك بحدّة أذهانهم ، وشدّة تمييزهم وانتقادهم ، إلى الأستقصاء على نفسك فى مُكاتبتهم .

* * *

وأستغنينا عن التّرتيب للتجّار والسُّوقة والعوامّ رتبةً لأستغنائهم بتجاراتهم عن هذه الآلات ، وأشتغالهم بمُهماتهم عن هذه الأدوات .

ولكل طبقة من هذه الطبقات معانٍ ومذاهب يجب عليك أن تُراعيها فى مُراسلتك إليهم فى كتبك ، وتزن كلامك فى مُخاطبتهم بميزانه ، وتُعطيه قَسمه ، وتُوفِّيه نصيبه ، فإنك متى أضعتَ ذلك لم آمن عليك أن تَعدل بهم غيرَ طريقهم ، وتُجرى شُعاع بلاغتك فى غير مَجراه ، وتَنظِمَ جوهرَ كلامك فى غير سِلْكه . فلا تعتد بالمعنى الجزل ما لم تلبسه لفظاً جزلا لائقا بمن كاتبته ، ومُشابهاً لمن راسلته . فإن الباسك المعنى ، وإن شَرُف وصلح ، لفظاً مختلفاً عن قدر المكتوب إليه لم تَجْر به عادتُهم ، تهجين للمعنى ، وإخلالٌ بقدره ،

وظلم لحق المكتوب إليه ، ونقصٌ مما يجب له ؛ كما أن فى اتباع تعارفهم ، وما انتشرت به عاداتهم ، وجرت به سنتُهم ، وضعاً لقدرهم(١) ، وخُروجاً من حقوقهم ، وبُلوغاً إلى غير غاية مُرادهم ، وإسقاطاً لُحجة أدبهم .

فمن الألفاظ المَرغوب عنها ، والصُّدور المُستوحش منها فى كُتب السادات والأمراء والملوك ، على اتفاق المَعانى ، مثل : أبقاك الله طويلاً وعَمَّرك مليًا . وإن كُنا نعلم أنه لافرق بين قولهم : « أطال اللهُ بقاءك » وبين قولهم : « أبقاك الله طويلا » . ولكنهم جعلوا هذا أرجح وزناً ، وأنبه قدرا فى مُخاطبه الملوك . كما أنهم جعلوا « أكرمك الله وأبقاك » أحسنَ منزلة فى كُتب الظرفاء والأدباء من « جعلت فداك » على اشتراك معناه ، واحتماله أن يكون فداءه من الخير ، كما يكون فداءً له من الشر . ولولا أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قال لسعد بن أبى وقاص : فِداك أبى وأمى ، لكره أن يكتب بها أحد . على أنّ كُتاب العسكر وعوامّهم قد أُولعوا بهذه اللّفظة ، حتى استعملوها فى جميع محاوراتهم ، وجعلوها هِجِّيراهم(٢) فى مُخاطبة الشريف والوضيع ، والصّغير والكبير ؛ ولذلك قال محمود الوراق :

كلّ مَن حَلّ سُرَّ مَن را من النّا ... س ومَن يُصاحب الأملاكَا
لو رأى الكَلْبَ ماثلاً فى طريق ... قال للكَلْب : يا جُعِلت فِداكا

* * *

وكذلك لم يُجيزوا أن يكتبوا بمثل « أبقاك الله وأمتع بك » إلا إلى الحرمة والأهل ، والتابع والمُنقطع إليك ؛ وأما فى كُتب الإخوان فغيرُ جائز ، بل مَذموم مرغوبٌ عنه ؛ ولذلك كتب عبدُ الله بن طاهر إلى محمد بن عبد الملك الزيات :

أحُلتَ عما عَهِدتُ من أدبك ... أم نِلتَ مُلْكاً فتهت فى كُتبك
أم هل تَرى أنّ فى التّواضع لا ... إخوان نقصاً عليك فى حَسبك

(١) فى العقد الفريد : « قطعا لعذرهم » . (٢) هجيراهم : عادتهم .

أتعبتَ كفّيك فى مُكاتبتى حَسْبك مما يَزيد فى تعبك
إنّ جفاء كتابُ ذى أدب يُكتب فى صَدْره : وأمتع بك

فكتب إليه محمدُ بن عبد الملك :

أنكرتَ شيئاً فلستُ فاعلَه فلن تَراه يُخطّ فى كُتبك
فاعفُ فَدَتْك النفوسُ عن رجلٍ يَعيش حتى المماتِ فى أدبك
كيف أخونُ الإخاء يا أملى وكل شىء أنالُ مِن سَببك
إنْ يكُ جهلاً أتاك مِن قبلى فَعُد بفضلٍ علىّ فى أدبك

* * *

وأما صُدور السلف ، فإنما كانت : من فلان بن فلان إلى فلان . كذلك جرت كُتب رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلى العلاء بن الحضْرمى ، وإلى أقيال اليمن ، وإلى كِسرى وقيصر ، وكُتب أصحابه والتابعين كذلك ، حتى اُستخلص الكُتّاب هذه المُحدثاتِ من بدائع الصُّدور ، واُستنبطوا لطيفَ الكلام ، ورتّبوا لكُلٍّ رُتبة ، وجَرَوْا على تلك السُّنة الماضية إلى عصرنا هذا فى كُتب الخلفاء والأمراء ، وثبتوا على ذلك المنهاج فى كُتب الفتُوحات والأمانات والسجلاّت .

* * *

ولكل مكتوب إليه قدر ووزن ، ينبغى للكاتب ألاّ يتجاوزَ به عنه ، ولا يُقصر به دونه . وقد رأيتُهم عابوا الأحوصَ حين خاطب الملوك بمُخاطبة العوام فى قوله :

وأراكَ تَفعل ما تقول وبعضُهم مَذِقُ الحديث يَقول مالا يَفعلُ

فهذا معنى صحيح فى المَدح ، ولكنهم أجلّوا أقدارَ الملوك أن يُمدحوا بما يُمدح به العوام ؛ لأنّ صِدْق الحديث وإنجاز الوعد ، وإن كان مدحاً ، فهو واجبٌ على كلّ ، والملُوك لا يُمدحون بالفرُوض الواجبة ، وإنما يحسن مدحُهم بالنوافل ؛ لأن المادح لو قال لبعض الملوك : إنك لا تَزْنى بحليلة جارك ، وإنك لا تَخون ما اُستُودعت ، وإنك تصدق

فى وَعْدك ، وتَفَى بعهدك ، كان قد أثنى بما يجب ، ولـكنه لم يصل بثنائه إلى مقصـده ، وقال ما لا يُستحسن مثله فى الملوك .

***

ونحن نعلم أن كل أمير تولّى من أمور المؤمنين شيئاً فهو أميرُ المؤمنين ، غير أنهم لم يُطلقوا هـذه اللفظة إلا للخلفاء خاصة . ونعلم أن الـكَيس هو العقل ، إذا عَنَوا به ضدّ الحمق . ولـكنّك لو وصفت رجلاً فقلت : إن فلانا لعاقل ، كنتَ قد مدحته عند الناس ؛ ولو قلت : إنه كيّس ، كنت قد قصّرت فى وصفه ، وصغرت من قدره ، إلا عند أهل العلم باللغة ؛ لأن العامة لا تَلتفت إلى معنى الـكلمةِ إلا إلى حيثُ جَرت منها العادة فى أُستعمالها فى الظاهر ، مع الحداثة والغِرّة وخَساسة القدر وصِغَر السن ، فقد رَوينا عن علىّ رضى الله عنه أنه تبجّح بالـكَيس حين بنى سجن الـكوفة وقال :

أما ترانى كيسا مُـكيسا بنيتُ بعـد نافع مُخيّسا
حِصْناً حَصيناً وأَميناً(١) كيّسا

وقال آخر :

ما يصنَع الأحمق المَرزوق بالـكيس

ونعلم أن الصلاة رحمة ، غير أنهم قد حَرّموها إلا على الأنبياء . كذلك روى عن ابن عباس رضى الله عنه . وسمع سعدُ بن أبى وقّاص أخا له يُلبّى ويقول : يا ذا المعارج . فقال : نحن نعلم أنه ذو المَعارِج ، ولـكن ليس كذلك كُنّا نلبّى على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، إنما كُنا نقول : لبّيك اللهم لبّيك .

وكان أبو إبراهيم المُزَنى قال فى بعض ما طالب به داودَ بن على بن خلف الأصبهانى ، فقال : وإن قال كذا فقد خرج من المِلّة والحمد لله . فانتقد عليه ذلك داود ، وقال : تحمد الله على أن يَخرج مُسلم من الإسلام ! هـذا موضع أُسترجاع ، وللحمد مكان يليق به .

(١) فى العقد : « وأميرا » .

ونحن نقول على المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون .

* * *

فامتثلْ هذه الرسومَ والمذاهب ، واجر على آدابهم ، فلكلٍّ رسوم أمتثلوها . وتحفّظ في صُدور كتبك وفُصولها واُفتتاحها وخاتِمتها ، وضَع كل معنى في موضع يليق به ، وتخير لكل لَفظة معنى يُشاكلها ، وليكن ما تَختْم به فصولك في موضع ذِكر الشَّكوى بمثل : والله المُستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ وفي موضع ذكر البلوى . نَسأل الله دَفْع المَحذور ، ونسأل الله صَرْف السوء ؛ وفي موضع ذكر المُصيبة بمثل : إنا لله وإنا إليه راجعون ؛ وفي موضع ذكر النِّعم بمثل : والحمد لله خالصاً ، والشكر لله واجبا . فإنها مواضع ينبغي للكاتب تفقّدها ، فإنما يكون كاتباً إذا وَضع كل معنى في مَوضعه . وعَلّق كل لَفْظة على طبقها من المعنى . فلا يَجعل ما ينبغي له أن يكتب في آخر كتابه في أوّله ، ولا أوّله في آخره ؛ فإني سمعتُ جعفر بن محمد الكاتب يقول : لا ينبغي للكاتب أن يكون كاتباً حتى لا يَستَطيع أحدٌ أن يُؤخِّر أولَ كتابه ولا يُقدِّم آخره .

* * *

واُعلم أنه لا يجوز في الرسائل ما أتى في آي القرآن من الإيصال والحذف ، ومُخاطبة الخاص بالعام ، والعامّ بالخاصّ ؛ لأنّ اللهَ سبحانه وتعالى إنما خاطب بالقرآن أقواماً فُصحاء فهموا عنه جلّ ثناؤه أمرَه ونهيَه ومُراده . والرّسائل إنما يُخاطب بها قومٌ دُخلاء على اللُّغة ، لا عِلم لهم بلسان العرب . وكذلك ينبغي للكاتب أن يتجنّب اللفظَ المُشترك ، والمَعنى المُلتبس ؛ فإنه إن ذهب على مثل قوله تعالى : (واُسألِ القَرْيةَ التى كُنّا فيها والعِيرَ التى أقبلنا فيها) وقوله تعالى : (بل مَكر اللّيل والنّهار) احتاج أن يُبين أن معناه : اُسأل أهل القرية وأهل العير ، وبل مكركم بالليل والنهار . ومثله في القرآن كثير .

* * *

ولا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر ؛ لأن الشِّعر موضع اُضطرار ، فاغتفَروا فيه

الإغراب ، وسُوء النظم ، والتّقديم والتأخير ، والإضمار فى موضع الإظهار . فمن الحذف قولُ الُحطيئة : « من صُنع سَلّام » يريد سليمان بن داود . وكقول الآخر :

والشيخ عثمان أبو عفان

وكقول الآخر :

وسائلة بثَعلبة بن سَـيْرٍ وقد عَلقت بثَعلبة العَلوق

أراد : ابنَ سيَّار . وكقول النابغة :

ونسج سليم كل قضّاء ذائل

يريد سليمان :

وكذلك ينبغى فى الرّسائل أن لا يصغّر الاُسم فى موضع التعظيم ، وإن كان ذلك جائزاً على مثل قولهم : دويهية ، وجُذَيْل ، وعُذَيق .

ومما لا يجوز فى الرسائل : كلمت إياك ، وأعنى إياك .

وإساءة النظم فى التأليف فى الشعر كثير . وتكون الكلمة بَشعة ، حتى إذا وُضعت موضعَها ، وقرنت مع أخواتها ، حَسُن حالُها وراقت ، كقول الحسن بن هانئ :

ذو حُضُر أفلَت من كَدّ القبَل

والكد ، كلمة قلقة لا سيما فى الرقيق والغزل والتّشبيب ، غير أنها لما وقعت فى موضعها حَسُنت . كما أن اللفظة العَذْبة إذا لم تُوضع موضعها نفَرت ؛ قال :

رأت عارضا جوناً فقامت غريرة بمسحاتها قبل الظلام تبادره

فأوقع الجلف الجافى هذه اللفظة غير موقعها ، وظلمها إذ جعلها فى غير مكانها ؛ لأن المساحى لا تكون ولا تصلح للغرائر ، وأين كان عن قول الشاعر :

غرائر ما حَدّثن يهدين أنسة فما فوقه منهنّ غيرُ غرائرِ

حديث لوأن العَصْم تُدْعَى به أتت ودون يدِ الفَحْشاء حَدُّ البواتر

فتخيَرْ من الألفاظ أرجحها وزنا ، وأجزلها معنى ، وأليقها فى مكانها .

* * *

وليكن فى صدر كتابك دليلٌ واضح على مُرادك ، وافتتاح كلامك بُرهان شاهد على مَقصدك ، حيثما جريتَ فيه من فنون العلم ، ونزَعت نَحوه من مذاهب الخُطب والبلاغات ؛ فإن ذلك أجزَل لمَعناك ، وأحسنُ لاتساق كلامك .

ولا تُطيلنّ صدرَ كلامك إطالة تُخرجه من حَدّه ، ولا تَقصر به عن حَقّه . ولو صُوِّر اللفظ وكان له حـدٌّ لوقفتُك عليه ، غير أنهم فى الجملة كَرهوا أن يَزيدوا سُطورَ كُتب الملوك على سَطرين . وهذه إشارة لا تُعبِّر إلا عن الجملة من المقصود إليه ، لأن الأسطر غير محدودة .

* * *

واعلم أن أول ما ينبغى لك أن تُصلح آلتك التى لا بُد لك منها ، وأدواتك التى لا تتمّ صناعتُك إلا بها ، وهى : دواتُك ، فابدأ بعمارتها و إصلاحها وتخير لها ليقة نقيّة من الشَّعر والوذح(١) ، لئلا يَخرج على حَرف قَلمك ما يُفسد كتابَك ، ويَشغلك بتَنقيته . وخُذ من المداد الفارسىّ خمسـةَ دراهم ، ومن الصَّمغ العربىّ دِرْهما ، وعَفصاً مَسْحوقاً نِصف درهم ، ورَماد القِرطاس المحرق درهمين ، ثم تَسحقها وتُغربلها وتَجمعها ببَياض البيض ، ثم تُبنْدقها واجعلها فى الظلّ ، فإذا احتجتَ إليها أخذتَ منها مِقدارَ حاجتك فكَسرتَه ، وحشوتَ به دواتك . و إذا نقعته فى ماء السَّلق حتى ينحلّ ويَذوب ويَختمر ، ثم أمددتَ من مائه دواتك ، كان أجودَ وأنقى . ثم اختر بعـد ذلك من أنابيب القَلم الذى يَصلح لـكتابة القَراطيس أقلَّه عُقداً ، وأكثفه لحماً ، وأصلبه قِشراً ، وأعدله استواء . وتجنَّب الأقلام الفارسيّة ما استطعت ، فإنها ما تَصلح إلا للكَواغد والرُّقوق .

* * *

واجعل لقَلمك براية حادّة ، فإنّ تَعثّر يد الكاتب وقت قَطع القرطاس ناقصٌ من مروءته ، ومُخـلٌّ بظَرفه . وإن قدرتَ ألا تقطع القرطاس إذا فرغتَ من كتابك

(١) الوذح : ما تعلق بأصواف الغنم من البعر والبول ؛ الواحدة بهاء .

إلا بخُرطوم قلمك فافعل ؛ فإن ذلك أكملُ لمُروءتك ، وأبدعُ لظَرفك وقَطعك .

واستعمل لبَرى القلم سكِّيناً طواويسياً(١) مذلّق الحد ، وميض الطَّرف . فيكون ذلك عوناً لك على برى أقلامك ؛ فإن محلّ القلم من الكاتب محلُّ الرُّمح من الفارس . ولئن قيل : كأنه الرُّمح الرُّديني ، فقد قال الكاتب : كأنه القلم البحرى .

وتفقَّد الأُنبوبة قبل بريكها ، لئلا تَجعلها مَنكوسة . وأبرها من ناحية نَبات القَصبة ، وأرهف ما قدرتَ جانبى قَلمك ، ليردّ ما انتشر من المِداد ، ولا تُطل شقّه ، فإن القلم لا يَمُج المداد من شَقه إلا مقدار ما احتملت شَبتاه(٢) . فارفع شَبتيه ليجمعا لك حواشى تَحْضيره .

وأما قطّ القلم ، فعلى قَدْر القلم الذى يتعاطاه الكاتب من الخطّ ، غير أنّ المُسلسل لا يكاد يتسلسل إلا بالقلم المُربَّع القط ؛ كما أن كتب الملوك والسجلات لا تَحسن إلا بالقلم المُحرّف الكوفى ؛ وأما قلم اللازَورد ، فهو المُعتمد عليه ، والمقصود إليه فى النوائب والمهمات .

***

ورأيت كثيراً من الكُتاب يختارون قلم النَّرجس ، لتجعّده وتجانسه ، واللازورد أبسط منه وأقوم حروفاً . وأما الموشّع والمولّع والمدبّج والمنمنم والمسهم ، فعلى قدر رَشاقة خط الكاتب وحلاوة قلمه . وأما حُسن الخط فلا حَدَّ له ؛ قال على بن زيز النَّصرانى الكاتب : أُعلمك الخطَّ فى كلمة واحدة : لا تكتبَن حرفاً حتى تَستفرغ مجهودَك فى كِتابة الحرف المَبدوء به ، وتجعل فى نَفسك أنك لا تكتب غيرَه ، حتى لا تَعجل عنه إلى غيره .

***

وإياك والنَّقطَ والشكلَ فى كتابك ، إلا أن تمرّ بالحرف المعضل الذى تعلم أن المَكتوب إليه يعجز عن استخراجه ، فلأنْ يُشكل علىّ الحرف ، أحبّ إلى من

(١) طواويس : بلدة ببخارى . (٢) شبتاه : حداه . وفى التيمورية : « شعبتاه » .

أن يُعاب بالنُّقط والإعجام. وقال المأمون لكُتابه: إياكم والشُّونيز[١] فى كُتبكم. يعنى النَّقط؛ ولذلك قال ابنُ هانئ:

لم ترضَ بالإعجام حين كتبتَه   حتى كتبتَ[٢] السبَّ بالإعرابِ

***

ولا تُغفل الصلاةَ على النبىّ عليه الصلاةُ والسلام، فقد قال أبو العيناء: إن بنى أُمية هم الذين كانوا أمروا كُتابهم فطرحوا ذلك من كُتبهم. فجرت عادةُ الكُتّاب إلى يومنا هذا على ما سنّوه. وقد قال عليه الصلاة والسلام: لا تَجعلونى كقَدح الراكب، ولكن اجعلونى فى أول الدُّعاء وأوسطه وآخره. صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم، أولاً وأوسطَ وآخرا.

وأحب أن تجعل بدل الأشارة[٣] الترابَ؛ فإن النبى صلّى الله عليه وسلّم قال: أَتربوا كُتبكم فإنه أنجحُ للحاجة. ولا تدع التأريخ فإنه يدل على تَحقيق الأخبار، وقُربها و بُعدها. وانظُر إلى ما مَضى من الشّهر وما بقى منه، فإن كان الماضى أقلّ من نصف الشهر، قلت: لكذا ليلة مضت من شهر كذا، وإن كان الباقى أقلّ من النصف، قلت: لكذا أيضاً بقيت. وقد قال بعضُ الكتاب: إن الماضى من الشهر تُحصيه، والباقى لا تُحصيه، لأنك لا تَدرى أيتمّ الشهر أم يَنْقص. وليس هذا بشىء، لأن تأريخ الكتاب ليس من الأحكام فى شىء. وما على الكاتب أن يكتب إلا بما ظَهر و تبيّن لا بما يظن.

ولا تَجعل سَحاة كُتبك غليظةً إلا فى العهود والسجلاّت التى تَحتاج إلى خواتمها وطوابعها؛ فإن محمد بن عيسى الكاتب، كاتب آل طاهر، أخبر عنهم: أن عبد الله بن طاهر كتب إلى العراق فى إشخاص كاتب كان كَتب إليه، فكَتب وغلّظ سَحاة

(١) الشونيز: الحبة السوداء.
(٢) فى أدب الكاتب: «حتى شكلت عليه بالإعراب».
(٣) الأشارة: نشارة الخشب.

كتابه . فردَّ الكتاب إليه . فقدم عليه راجيًا لبرِّه وجائزته . فقال عبدُ الله بن طاهر : إن كان معك مِسحاة فاُقطع خَزْم كتابك واُنصرف وراءك .

وكذلك لا تُعظم الطِّينة ، ففى المثل : من عظم الطينة فإنه ملوم مَظلوم . ولا تَطْبعها إلا بعد عُنواناتها ، فإن ذلك مراد يهم . وقد يجب عليك عِلْم إلصاق القَراطيس ومَحْوها ، ولم أر شيئا فى إلصاقها ألطفَ من أن يُنقع الصمغ العربىّ فى الماء ساعة حتى يذوب ثم يلصق به . وكذلك ماء الكثيراء[1] أو النَّشاستج[2] ، ثم تَطويه طَيًّا رَقيقا ، وتَجعله فى مِنديل نظيف ، ويُوضع تحت وسادة حتى يَجف .

وأما مَحوها فعلى قدر لُطف الكاتب وتأنِّيه ، غيرَ أنه يَنبغى له أن لا يَلقط السوادَ من القرطاسِ الا بمثل الشّمع المُسخَّن ، واللُّبانِ المَمْضوغ وما أشبههما ، ثم يكون لَقْطه رُويدا رويدا ، كلما لَقط جانباً حوَّله إلى الجانب الآخر .

* * *

وأما قراءةُ الكتب المَختومة ، والتلطّف فى فض خواتيمها ، فما لا نَذكره خوفاً من سفيه .

وأما تَضمين الأسرار حتى لا يَقرأها غيرُ المكتوب إليه ، ففيه أدب . وقد تعلقَّت العامةُ بالقُمّى والأصبهانى . فيجب أن تُبدَّل الحروف تبديلاً يخفى . وألطفُ من ذلك أن تأخذ لَبناً حليباً فتكتب به فى قِرطاس ، فيذرُّ المكتوب إليه عليه رماداً حارًّا من رَماد القراطيس ، فإنه يظهر . وإن كُتب بماء الزاج وذُر عليه العَفص المَدقوق بزاج أو بماء العَفص ، وذَرّ عليه شيئا من الزَّاج ، أو يَنقع شيئاً من وَشْق[3] ، ثم تكتب به ، ثم نثرت عليه الرّماد فإنه يظهر . وإن أحببتَه لا يُقرأ بالنهار ويُقرأ بالليل ، فاكتُبه بمَرارة السلحفاة

* * *

(١) الكثيراء : رطوبة تخرج من أصل شجرة .

(٢) النشاستج : هو النشا ، بالقصر والمد معرب .

(٣) الوشق : نوع من العشب .

وإن حاولتَ صَنعة رسالة أو إنشاء كتاب ، فزِن اللفظَة قبل أن تُخرجها ، بميزان التَّصريف إذا عَرضت ، والكلمةَ بعياره إذا سَنحت ، فربما مرَّ بك موضع يكون مَخرج الكلام إذا حُسب « أنا فاعل » أحسن من « أنا أفعل » ، و « استفعلت » أحلى من « فعلت » .

وأدِر الألفاظ فى أماكنها ، واعرضها على معانيها ، وقلّبها على جميع وُجوهها ، حتى تَقع موقعها . ولا تجعلها قلقة نافرة ، فمتى صارت كذلك هَجَّنت الموضع الذى أردت تحسينَه . واعلم أن الألفاظ فى غير أماكنها كترقيع الثوب الذى إذا لم تتشابه رِقاعُه تغيّر حسنُه . قال الشاعر :

إن الجديد إذا مازيد فى خَلق تبيَّن الناسُ أنّ الثوبَ مَرْقوعُ

* * *

وارتصِد لكتابك فراغَ قَلْبك ، وساعةَ نشاطك ، فتجد ما يَمتنعُ عليك بالكدِّ والتكلّف ؛ لأنّ سماحة النفس بمَكنونها ، وجُودَ الأذهان بمَخزونها ، إنما هو مع الشّهوة المُفرطة فى الشىّ ، والمحبّة الغالبة فيه ، أو الغضب الباعث منه ذلك . وقيل لبعضهم : لِمَ لا تقول الشعر ؟ قال : كيف أقوله وأنا لا أغضبُ ولا أطرب .

وهذا كُله إنْ جريت من البلاغة على عِرْق ، وظهرتَ منها على حظّ . فأما إن كانت غيرَ مُناسبة لطبعك ، ولا واقعةً شهوتُك عليها ، فلا تُنض مطيّتك فى التماسها ، ولا تُتعب بدنك فى ابتغائها ، واُصرف عَنانَك عنها ، ولا تَطمع فيها باستعارتك ألفاظَ الناس وكلامهم ؛ فإنّ ذلك غيرُ مُثمر لك ، ولا مُجد عليك . ومَن كان مَرجعُه فيها إلى اغتصاب ألفاظ مَن تقدّم ، والاستضاءة بكَوكب مَن سَبقه ، وسَحْب ذَيل حُلّة غيره ، ولم يكن معه أداةُ تولّد له من بنات قلبه ، ونَتائج ذِهْنه ، الكلامَ الُحر ، والمعنى الَجزْل ، فلم يكن من الصناعة فى عِير ولا نَفير .

على أنّ كلام العظماء المَطبوعين ، ودَرْس رسائل المُتقدِّمين ، على كل حال ، مما يَفتُق اللِّسان ، ويُوسِّع المَنطق ، ويَشْحذ الطبع ، ويستثير كوامنَه ، إن كانت فيه سجيّة .

قال العتابى : ما رأينا فيما تصرّفنا فيه من فُنون العِلم ، وجَرينا فيه من صُنوف الآداب ، شيئاً أصعبَ مَراماً ، ولا أوعرَ مَسلكا ، ولا أدلَّ على نَقص الرِّجال ورَجاحتهم وأصالة الرأى وحُسن التمييز منه واختياره من الصناعة التى خَطبتَها ، والمعنى الذى طلبتَه . وليس شىء أصعبَ من اختيار الألفاظ ، وقَصْدك بها إلى موضعها ؛ لأن اللَّفظة تكون أختَ اللَّفظة ، وقسيمَتها فى الفصاحة والُحسن ، ولا تَحسن فى مكان غيرها . وبتَمييز هذه المعانى ، ومناسبة طبائع جَهابذتها ، ومُشاكلة أرواحهم ، جعلوا الكتابةَ نسبا وقرابة ، وأوجَبوا على أهلها حفْظها .

سهل بن وهب[1] : الكتابة نفسٌ واحدة تجزّأت فى أبدان مُفترقة . ومَن لم يعرف فضلَها ، وجَهِل أهلَها ، وتعدَّى بهم رُتبتهم التى وَضعهم الله بها ، فإنه ليس من الإنسانية فى شىء .

قالت البرامكة : رسائل المرء فى كُتبه دليل على عَقله ، وشاهدٌ على غَيبه .

قال الشاعر :

وتُنكَرُ ودُّ المرء فى لحظ عيْنه وتَعرفُ عَقل المرء حين تُكاتبه

وقال آخر :

وشِعْر الفتى يُبدى غريزَة طَبْعه وبالكُتْب يَبْدو عقلُه وبلاغتُه

الشَّعبى : يُعرف عقل الرجل إذا كَتب وأجاب .

العُتْبى : عقولُ الناس مدوّنة فى كُتبهم .

ابن المقفع : كلامُ الرجل وافد عَقْله .

* * *

(١) فى العقد : « الحسن بن وهب » .

وشَبّهت الحكماء المعانى بالغوانى ، والألفاظ بالمعارض . فإذا كسا الكاتبُ البليغُ المعنى الجَزل لفظاً رائقاً ، وأعاره مخرجاً سهلاً ، كان للقلب أحْلى ، وللصدر أملى ، ولكنه بَقِى عليه أن ينظمه فى سِلْكه مع شقائقه ؛ كاللؤلؤ المَنثور الذى يتولى نظمَه الحاذقُ ، والجوهرىُّ العالم ، يُظهر بإحكام الصَّنعة له حُسناً هو فيه ، ويَمنحه بهجةً هى له ؛ كما أنَّ الجاهل إذا وضع بين الجوهرتَين خَرزة هجَّن نَظمه ، وأطفأ نُوره . كان حبيب بن أوس ربما وَقع على جوهرة فجعلها بين بَعرتين . قال الشاعر :

ولو قَرَنْت بدُرٍّ فاخر خَرزاً   من الزُّجاج لقُلنا بئس ما نَظَما

والياقوت حَسن ، وهو فى جِيد الحَسناء أحسن ؛ وكذلك الشِّعر الجيِّد مُونق ، ولكنه من أفواه العُظماء آنَق ؛ والتاجُ الشريف بهىّ المَنظر ، وهو على المَلِك أبهى ؛ كما قال ابن قيس الرقيّات :

* يعتدل التاج فوق مفرقه *

قال أبو العتاهية لابن مُناذر : بلغنى أنك تقول الشِّعر فى الدهر ، والقصيدةَ فى الشهر . فقال : نعم ، لو رضيتُ لنفسى أن أؤلف تأليفَك وأقول :

* يا عتب يا درة الغوّاص *

لقلتُ فى اليوم والليلة ألفَ قصيدة . وقال عمرُ بن لجأ لشاعرٍ : أنا أشعر منك . قال : ولم ؟ قال : لأنَّك تقول البيتَ وابنَ عمّه ، وأنا أقول البيتَ وأخاه .

* * *

فإن مُنيتَ بحُب الكتابة وصناعتها ، والبلاغة وتأليفها ، وجاش صدرُك بشعر مَعقود ، أو دَعتْك نفسُك إلى تأليف الكلام المَنثور ، وتهيَّأ لك نَظم هو عندك مُعتدل ، وكلامٌ لديك مُتَّسق . فلا تدعونَّك الثقةُ بنفسك ، والعُجْب بتأليفك ، أن تَهْجُم به على أهل الصناعة ، فإنك تَنظر إلى تأليفك بعَين الوالد لوَلده ، والعاشق إلى عَشيقه ، كما قال حبيب :

ويُسىء بالإحْسان ظنَّا لا كَمن   هو بابنه وبشِعره مَفتون

ولكن أعْرِضه على البُلغاء والشُّعراء والخطباء ممْزوجا بغيرِه ، فإن أصغوا إليه ، وأذِنُوا له ، وشخصوا بالأبصار واسْتعادوه ، وطلبوه منك وامتزج . فاكشف من تلك الرِّسالة والخُطبة والشعر اسمه ، وانْسُبه إلى نَفْسك . وإنْ رأيتَ عنه الأسماع مُنصرفة ، والقلوب عنه لاهية ، فاستدلّ به على تخلّفك عن الصِّناعة ، وتقاصرك عنها ، واستَرِب رأيك عند رأى غيرك ، من أهل الأدب والبلاغة . وقد بلغَنى أنّ بعضَ المُلوك دعا إنساناً إلى مُؤانسته ، حتى ارتفعت الحِشْمَة بينهما ، فأخرج له كتاباً قد غشّاه بالجُلود ، وجمع أطرافَه بالإبريسم ، وسوّى ورقه ، وزخرف كِتابتَه ، وجعل يقرأ عليه كلاماً قد حَبَّره فيه ، ونَمّقه عند نفسه ، وجعل يَسْتحسن ما لا يَحْسُن ، ويقف على ما[1] يستثقل قراءته ، حتى أتى على الكتاب . فقال له : كيف رأيتَ ما قرأتُ عليك ؟ فقال : أرى عَقل صانع هذا الكلام أكثرَ من كلامه . ففطن له ولم يُعاوده ، إلى أن وَقف به على تنُّور مَسجور ، ثم قذف بالكتاب فى النار . وهذا رجل فى عَقله فضلة ، وفيه تمييز .

وإنما البليّة فيمن إذا بيَّنت له سوء نظمه واختياره ، ووقفتَه على سَخافة لَفظه ، هَجَرك وعاداك .

فاجْعل هذا الأصل ميزاناً تزن به مَذْهبك فى رَسائلك وبلاغتك ، ولا تُخاطبنّ خاصًّا بكلام عام ، ولا عامًّا بكلام خاص . فمتى خاطَبتَ أحَداً بغير ما يُشاكله ، فقد أجريتَ الكلامَ غيرَ مجراه وكشفتَه ، وقَصْدُك بالكلام الشريف للرجل الشريف ، تنبيهٌ لقدر كلامك ، ورفعٌ لدرجته . قال :

فلم أمدحْك تفخيماً لِشِعرى ولكنّى مدحتُ بك المَديحا

فلا تُخرجنّ كلمةً حتى تزنها بميزانها ، فتعرفَ تمامَها ونظامها ، ومواردَها ومصادرها . وتجنّب ما قَدرتَ الألفاظَ الوحشيّة ، وارتفع عن الألفاظ السَّخيفة ، واقتضب كلاماً بين الكلامَين .

---

(١) كذا فى التيمورية . وفى الأصل « ما لا يستثقل » .

الجاحظ : ما رأيت قوماً أمثلَ طريقة فى البلاغة من هؤلاء الكتاب ، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعِّراً وَحْشيًّا ، ولا ساقطاً سُوقيًّا .

وقال خالد بن صفوان : أبلغُ الكلام ما لا يَحتاج إلى كلام ، وأحْسنُه ما لم يكن بالبدوىّ المُغرب ، ولا القروىّ المُخْدَج (١) ، الذى صَحّت مبانيه ، وحَسُنت معانيه ، ودار على ألسن القائلين ، وخفّ على آذان السامعين ، ويَزداد حُسناً على مرّ السنين بتَجْلية الرواة ، وتَنْقية السُّراة .

والكاتب المُستحق اسم الكتابة ، والبليغ المحكوم له بالبلاغة ، مَن إذا حاول صَنعة كتاب ، سالت على قلمه عيونُ الكلام من ينابيعها ، وظهرت من معادنها ، وبدرت من مواطنها ، عن غير استكراه ولا اغتصاب .

حدّثنا صديقٌ للعتّابى قال له : اعمل لى رسالة ، واستمدَّه مرةً بعد أخرى ، فقال له : ما أرى بلاغتك إلا شاردة . فقال له العتّابى : لما تناولتُ القلم تداعتْ علىّ المعانى من كُل جهة ، فأحببتُ أن أترك كُل معنى يرجع إلى مَوضعه ، ثم أجْتنى لك أحسنها .

أمْلى يزيدُ بن عبد الله ، أخو دينار ، على كاتب له ، وأعجل عليه الإملال ، فتعثّر قلمُ الكاتب عن تقييد إمْلاله . فقال مُتحرّشاً : اكتُبْ يا حمار . فقال الكاتب : أصلح الله الأميرَ ، إنه لما هَطلت شآبيبُ الكلام ، وتدافقت سيولُه على حرْف القَلم ، كلّ القلم عن إدراك ما وَجب عليه تقييدُه ، فَليتذكرْ الأمير عُذرى . فكان جوابُه أبلغ من بلاغة يزيد .

وكلما أحلولَى الكلامُ وعذُب ، ورَق وسهلت مخارجُه ، كان أسهلَ ولوجاً فى الأسماع ، وأشدَّ اتصالاً بالقُلوب ، وأخفّ على الأفواه ، ولا سيّما إذا كان المعنى البديعُ مُترجَماً بلفظ مُونق شريف ، ومعَبّراً بكلام مُؤلّف رشيق ، لم يَشِنْه التكلف بِميسمه ، ولم يُفسده التعقيد باستهلاكه ، كقول ابن أبى كَريمة :

---

(١) المخدج : الناقص .

قَفاه وجهُ حُسن والذى   قَفاه وجهٌ يُشْبه الشَّمسا

فهجَّن المعنى بتوعُّر مخارج الحروف . وأخذه الحسنُ بن هانى فسهَّله وقال :

* بذَّ حسن الوجوه حسن قفاكا *

وكلاهما من حسّان حيث يقول :

قفاؤك أحسنُ من وَجهه   وأُمك خيرٌ من المُنذرِ

وانظر إلى سلاسة الحسن بن سهل حيث قال :

شَرِستَ بل لِنْتَ بل قابلتَ ذاك بذا   فأنتَ لا شكَّ فيك السهلُ والجبلُ

وكتب عيسى بن لَهيعة كتاباً إلى بعضهم ، فعقَّد كلامه ، وجاز المقدار فى التنطّع ، فوقَّع له :

أنّى يكون بليغاً   من اسمُه كان عيّا

وثالثُ الحرف منه   إذا كتبتَ مُسيّا

ودخل كاتبٌ على مريض فوجده يئنّ . فَخَرج من عنده فوجد طائراً يقال له « الشَّفانين » بباب الطاق ، فاشتراه وبعث به إليه ، وكتب كتاباً يتنطَّع فيه ، ويذكر أنه يقال له الشَّفانين ، شفاء من الأنين . فأجابه : لو عطستَ ضبًّا لم تكن عندى إلا نبطيًّا ، فأقصر عن بَغْضك ، وسهِّل كلامَك . ومثله لمخلد الموصلى يهجو حَبيب بن أوس الطائى :

أنت عندى عربىٌّ   ليس فى ذاك كلام

شَعر ساقيكَ وفَخذيكَ خُزامى وثمام

وقفاً يحلف ما إن   أعْرَقت فيه الكرام

أنا ما ذنبيَ إن أكـ   ذب بنى فيك الأنام

* * *

وسألنى بعضُ أهل العلم أن أكتبَ له قصَّة إلى جعفر بن عبد الواحد القاضى وقال : اكتُب لى قصةً سهلة بليغة الألفاظ . فقلت له : دَعنى أكتُب لك ما يَصْلح للقضاة .

فغضب وقال : ما أسألُ أن تعطيني شيئاً ، إنما أسألك هذا المعنى الرَّخيص . فاحتملتُ عتبه لذِمام ، فكتبت له قصَّةً لا تصلح أن تُدفع إلاَّ لرُؤْبة بن العجّاج يقرؤها أو الطِّرِمّاح . فلما حصلتْ بيد القاضى أراد قراءتها ، فإذا هى مُغْلقة عليه ، فقال له : أنت كتبتَ هذه القصة ؟ قال : نعم . قال : إذاً فاقرأها . فذَهب ليقرأها ، فإذا هى بالسُّودانية استعجاماً عليه . فقال له : أصلح الله القاضى ، إنما أقرؤها فى بَيتى . فقال له . فاطلُب حاجتك إذاً فى بيتك . فرَجع إلىَّ غضبان أسِفاً ، يشتم ويُؤذى ، وسألنى أن أكتُب له قصَّة على ما أرى . فكتبتُ له كتاباً يشبه أن يكون مِن مثله إلى القُضاة ، فقرأها وقَضى حاجته ، وعلم أنه لم يكتب واحدةً منهما .

والكتاب إذا لم يكن شبيهاً بحاجة صاحبه ، كان أحدَ الأسباب المانعة .

* * *

والمَعانى كلها متماثلة ، والكلام مُشعَّب ، ولكنّ سياسته صعبة ، وتأليفه شديد ، إلا على جَهابذته وفرسانه أمراء الكلام ، يصرِّفونه كيف شاءوا . ولا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظَه ، ولفظُه معناه ، ويكون اللفظُ أسبقَ إلى الأسماع من معناه إلى القلوب .

الجاحظ : كان لفظه فى وزن إشارته ، وطبعه فى مُطابقة معناه .

ذكر الحسنُ بن وهب أحمدَ بن يوسف فقال : ما كنتُ أدرى ألفظُه آنق أم مَعناه ، أو مَعناه أجزل أم لفظه ؟

والمعانى وإن كانت كامنة فى الصدور ، فإنها مصوّرة فيها ، ومَتصلة بها ، وهى كاللآلئ المنظومة فى أصدافها ، والنار المَخبوءة فى أحجارها ، فإن أظهرتَه مِن أكنانه وأصدافه ، تبيّن حسنُه ، وإن قدحْت النار من مكامنها وأحجارها انتفعْت بها ، وَإلا بقيَت محجوبةً مستورة . وإنما[1] يُستثار الكامنُ منها ، ويُستخرج المُستسِر من جواهرها ،

(١) فى الأصل : « وربما » .

بقدرِ حِذْق المستنبط ، وصواب حركات المُستخرج ، وقصد إشارته ، ولُطف مذاهبه . وكذلك ليس كلُّ ناطق ولا كاتب يُوضِّح عن المعنى ، ولا يُصيب إشارتَه ، وكلما كان الـكلامُ أفصح ، والبيانُ أوضح ، كان أدلَّ على حُسن وجه المعنى ، [وقد شبهوا المعنى] الخفيّ بالروح الخفيّ ، واللفظ الظاهر بالجُسمان الظاهر ، وإذا لم يَنهض بالمعنى الشريف لفظٌ شريف جَزل ، لم تـكن العِبارة واضحة ، ولا النِّظامُ مُتَّسقاً .

والدالُّ على المعنى أربعة أصناف : لفظ ، وإشارة ، وعَقْد ، وخط .

وذكر أرسطاطاليس خامساً ، وهى التى تسمى النَّصـبة ، وهى الحالة الدالة التى تقوم مقام تلك الأصناف الأربعة الناطقة بغير لفْظ ، والمُشيرة إليه بغير يد ، وذلك ظاهر فى خَلق السموات والأرض ، وفى كُل صامت وناطق ، وهى داخلة فى جملة هذه المعانى الأربعة ، وخارجة منها بالحِلية .

ولـكل واحدة من هذه الدلائل صورة مخالفة لصورة صاحبتها ، وحِلية غير مُشاكلة لحِلية أختها ، غير أنها فى الجملة كاشفة عن أعيان المعانى . وأوضح هذه الدلائل صنفان ، وهما اللسان والقلم ، وكِلاهما يُترجمان ويدلاّن على القلب ، ويَستمليان منه ، ويؤديان عنه ما لا تؤدِّى هذه الأصناف الباقية .

***

وأما اللّسان فهو الآلة التى يخرج الإنسان بها من حد الاُستبهام إلى حد الإنسانية ؛ ولذلك قال صاحب المنطق : حدّ الإنسان الحىّ الناطق . [وقال على بن عبيدة][1] : وإنما يبين عن الإنسان اللسان ، وعن المودّة العينان . [وقال هشام بن عبد الملك][1] : والله سُبحانه رَفع درجةَ اللّسان فأنطقه من بين الجوارح بتَوْحيده ، وما جعل الله مَن عبّر عن شىء مِثلَ مَن لم يُعبِّر عنه .

[وقال آخر : الرجل مخبوء تحت لسانه . وقالوا : المرء بأصغرَيه : قلبه ولسانه .

(١) التكملة من العقد الفريد .

وقال الشاعر :

وما المرء إلا الأصغران لسانه ومعقوله والجسم خلق مُصوّر

فإن ترها راقتك يوماً فربما أمرّ مذاق العود والعودُ أخضر](١)

الأعور التيمى : (٢)

لسانُ الفتى نِصْفٌ ونصفٌ فؤادُه فلم يَبق إلا صُورة اللّحم والدمِ

وقال آخر :

إنّ الكلامَ لفى الفؤاد وإنما جُعل اللسانُ على الفؤاد دليلا

الطائى :

ومما كانت الحكماء قالتْ لسانُ المرء من خَدم الفُؤاد

***

وللخطّ صورة معروفة ، وحِلية موصوفة ، وفضيلة بارعة ليست لهذه الأوصاف ؛ لأنه ينوب عنها فى الإيضاح عند المَشهد ، ويَفضُلها فى المغيب . [ولأن الكتب تُقرأ فى الأماكن المُتباينة ، والبلدان المتفرقة ، وتدرس فى كل عصر وزمان ، وبكل لسان ، واللسان وإن كان زلقاً فصيحاً لا يعدو سامعه ، ولا يجاوزه إلى غيره](٣) .

وكفى بفَضيلة القلم والخطّ قولُ الله عزّ وجلّ : (الَّذِى عَلّم بالقَلم ، عَلّمَ الإنسانَ ما لمْ يَعلَم) . وأقسم به كما أقسمَ بغيره ، ثم أقسم بما يَكتبه القلم ، إفصاحاً عن حاله ، وإعظاماً لشأنه ، وتنبيهاً لذكره ، فقال : (وما يَسْطُرون) .

ومن فضيلة الخط أنه لسان اليد ، ورسول الضمير ، ودليل الإرادة ، والناطق عن الخواطر ، وسفيرُ العقول ، ووَحى الفكر ، وسلاح المعرفة ، ومحادث الأخِلاء على التنائى ، وأنس الإخوان عند الفرقة ، ومُستودع الأسرار ، وديوان الأمور ، وتَرجمان القلوب ، والمُعبّر عن النفوس ، والمُخبر عن الخواطر ، ومورّث الآخِر مكارمَ الأول ، والناقل إليه

(١) التكملة من العقد الفريد .
(٢) هذا البيت منسوب لزهير .
(٣) التكملة من العقد الفريد .

مآثر الماضى ، والمُخلّد له حكمته وعلمه ، والمُسامر للعين بسرّ القلب ، والمُخاطب عن الناصت ، والمُجادل عن الساكت ، والمُفصح عن الأبكم ، والمتكلّم عن الأخرس ، الذى تشهد له آثاره بفضائله ، وأخباره بمناقبه .

***

وقد وضعت البلاغةُ من القلم عليّ[١] القدر ، و باذخ العز ، كأبى مُسلم صاحب الدولة ، فرّقت شملَه ، وبدّدت جمعَه ، ونقَضت بَرْمه ، وأفسدت صلاحَه ، وضعضعت بنيانَه ، مع ذكائه وتفطّنه ، ومكايده ودهائه ، وأصالة رأيه ، وشدّة شكيمته ، وامتناعه على أبى جعفر ، ونفاره عنه ، كيف استفزّه ابن المقفّع ، وصالح بن عبد القدّوس ، وجَبَل ابن يزيد ، واستمالوه بسحر ألفاظهم ، و بلاغة أقلامهم ، حتى نزل من باذخ عزّه ، وجاء مُبادراً حتى وقع فى الشَّرك المَنصوب له ، فتفرّق جمعُه ، وانطفأ نُوره ، وصار خبراً سائراً ، ورسماً داثراً .

ورفع القلمُ خاشعَ الطَّرف ، صغيرَ الخطر ، لئيم الجنس ، دَرج من عشّ التّجار ، ونَشَأ بين المِكيال والميزان ، كيف أشالت البلاغةُ بضَبعيه ، ورَفعت من ناظريه ، حتى شافهت به عَنان السماء ، ورَفعت بناءه فوق البناء ، حتى طلبه الراكب ، وقَصده الطالب ، وخَشعت له الرجال ، ولحظته العيونُ بالوقار ، وتمكّن من الصنائع ، ومدّت نحوه الأصابع ، فشُكرت منه اللفظة ، ورُجيت منه اللحظة ، كمحمد بن عبد الملك بن الزّيات . وفيه يقول عليّ بن الجهم :

أحسن من عِشرين بيتاً سُدى ... جَمْعُك معناهنّ فى بيتِ
ما أحوجَ الملكَ إلى مَطْرة ... تَغسل عنه وَضَر الزيت

وأجابه محمد بن عبد الملك :

رَقيتَ فى القول إلى خُطة ... قدرُك فيها قد تعدّيتْ
فَيرّتمُ الملكَ فلم نُنقه ... حتى غَلسنا القار بالزيتْ

(١) فى الأصلين : « وقعت البلاغة من العلم علو » . وظاهر أنها محرفة عما أثبتنا . وانظر قوله بعد « ورفع القلم . . . الخ » .

ومدحه حبيب بن أوس [فقال] يمدحه ويصف قلمه :

لك القلم الأعلى الذى بشَباته تُصاب من الأمر الكُلى والمفاصلُ

وكان محمد من ألطف الناس ذِهْناً ، وأرقهم طبعاً ، وأصدقهم حسًّا ، وأرشقهم قلما ، وأملحهم إشارة ، إذا قال أصاب ، وإذا كتب أبلغ ، وإذا شعر أحسن ، وإذا اختصر أغنى عن الإطالة . أمره الواثق أن يتلطّف بعبد الله بن طاهر ويعلمه أنه صَرفه عن أمر الجزائر والعواصم ، وفوّض ذلك لابن عمه إسحاق بن إبراهيم . فكتب : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين رأى أن يَخلع ما فى يمينك من أمر الجزائر والعواصم ، فيجعلَه فى شمالك . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

ولسهل بن بركة يهجو أبا نوح النّصرانى الكاتب فقال :

بأبى وأُمى ضاعت الأحلامُ أم ضاعت الأذهان والأفهامُ
من صدَّ عن دين النبىّ محمد أَلَهُ بأمر المُسلمين قيام
إلا تكن أسيافُهم مشهورةً فينا فتلك سُيوفهم أقلام

* * *

قال عبدُ الرحمن بن كَيْسان : استعمال القلم(١) أجدر بإحضار الذّهن عند تَصحيح الكتاب من أستعمال اللسان على تصحيح الكلام .

ولم يُختلف فى شرف القلم ، وإنما اختُلف فى كيفية البلاغة وماهيتها ، وقد مدَحها كلّ قوم بأوضح عبارتهم وأحسن بيانهم .

فقال صاحب اليونانيين : البلاغة تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام .

الرومى : البلاغة وُضوح الدلالة ، وانتهاز الفُرصة ، وحسن الإشارة .

الفارسى : هى معرفة الفصل من الوصل .

(١) كذا فى التيمورية . وفى الأصل : « الكلام » .

الهندى : هى البَصَر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة ، ثم أن تدع الإفصاح بها إلى الـكناية عنها ، إذا كان الإفصاح أوعر طريقا . وربما كان الإضراب عنها صفحا(١) أبلغ فى الدَّرك ، وأحق بالظفر .

غيره : جماع البلاغة التماسُ حُسن الموقع ، والمعرفه بساعات القول ، والحِذق بما التبس من المعانى وغَمض ، وبما شَرد عليك من اللفظ وتعذَّر . ثم قال : وزَين ذلك كُله وبهاؤه وحلاوتُه أن تكون الشمائلُ معتدلة ، والألفاظ موزونة ، واللهجة نقيّة . فإنْ جامع ذلك السنَّ والسمتَ والجمالَ وطولَ الصمت ، فقد تم كل التمام .

وقيل لهندى : ما البلاغة ؟ فأخرج صحيفة مكتوبة عندهم ، فيها : أول البلاغة اُحتمال آلة البلاغة . وذلك أن يكون البليغ رابطَ الجأش ، ساكنَ الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأُمة بكلام الأَمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون فى قواه فضل للتصرّف فى كُل طبقة ، ولا يُدقق المعانى كل التدقيق ، ولا يُنقّح الألفاظ كل التنقيح ، ويصفّيها كل التصفية ، ويُهذّبها غاية التهذيب ، ولا يكون كذلك حتى يُصادف فيلسوفاً حكيماً عليماً . ومن قد تعوّد حذف فضول الـكلام ، وإسقاط مشترك اللفظ .

أنوشروان لبزرجمهر : متى يكون العيى بليغا ؟ فقال : إذا وصف بليغا .

أرسطاطاليس : البلاغة حسن الاُستعارة .

جعفر(٢) بن خالد : البلاغة التقرّب من المعنى البعيد ، والتباعدُ عن خَسيس الـكلام ، والدلالة بالقليل على الـكثير .

خالد بن صفوان : ليس البلاغةُ بخفّة اللسان ، ولا بكثرة الهَذيان ، ولـكنها إصابة المعنى ، والقَرع بالحجة .

عمر بن عبد العزيز : البليغ من إذا وجد كثيراً ملأه ، وإذا وجد قليلاً كَفاه .

---

(١) فى الأصلين : « الإطراق عنها » . وما أثبتناه من البيان .

(٢) كذا فى العقد : وفى الأصلين : « بشر » .

ابن عُتبة : البلاغة دنو المأخذ ، وقرع الحجة ، والاستغناء بالقليل عن الكثير .

بعضهم : إنى لأكره للإنسان أن يكون مقدار لسانه فاضلاً عن مقدار عقله ، كما أكره أن يكون مقدار عقله فاضلاً عن مقدار لسانه وعلمه .

يكفى من حظّ البلاغة أن لا يؤتى السامعُ من سُوء إفهام الناطق ، ولا يُؤتى الناطق من سُوء فهم السامع .

عمرو بن عبيد : ماالبلاغة ؟ فقال : ما بلّغك الجَنة ، وعَدل بك عن النار ، ومابصّرك بمواقع رشدك ، وعواقب غيك . فقال السائل : ليس هذا أريد . فقال : من لم يُحسن أن يسكت لم يُحسن أن يستمع ، ومن لم يُحسن الاستماع لم يُحسن القول ؟ قال : ليس هذا أريد . [قال] : قال النبى عليه الصلاة والسلام : إنا معاشر الأنبياء بكّاؤن (١) . وكانوا يكرهون أن يزيد منطقُ الرجل على عقله . فقال السائل : ليس هذا أريد . قال : كانوا يَخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام مالا يخافون من فتنة السكوت ومن سقطات الصمت (٢) . فقال : ليس هذا أريد . فقال : فكأنك إنما تريد تخير اللفظ فى حُسن إفهام . [قال : نعم . قال] : إنك إن أردت تقرير حُجة الله فى عُقول المكلفين ، وتخفيف المؤنة عن المُستمعين ، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين ، بالألفاظ المُستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبةً فى سُرعة استجابتهم ، ونَفى الشواغل عن قلوبهم ، بالمَوعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنتَ قد أوتيتَ فصل الخطاب ، واستوجبتَ من الله سبحانه جزيلَ الثواب .

الخليل بن أحمد : كُل ما أدّى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة ، فإن استطعت أن يكون لفظُك لمعناك طِبْقاً ، ولتلك الحال وَفقاً ، وآخرُ كلامك لأوّله مُشابهاً ، ومَوارده لمصادره موازناً ، فافعل ، واحرص أن تكون لكلامك مُتّهماً وإن ظَرُف ، ولنظامك مُستريباً

(١) البك : قلة الكلام .

(٢) فى الأصلين : « فتنة السكوت وسقطات الصمت » ، وما أثبتنا من البيان .

وإن لَطُف ، بمواتاة آلتك لك ، وتصرّف إرادتك معك ، فأفعل إن شاء الله .

* * *

وهذه الرسالة عذراء ، لأنَّها بكرُ معانٍ لم تفترعها بلاغةُ الناطقين ، ولا لمستها أكفُّ المفوّهين ، ولا غاصت عليها فِطَن المُتكلِّمين ، ولا سَبق إلى ألفاظها أذهان الناطقين ، فاجْعلها مثالاً بين عينيك ، ومصوّرة بين يديك ، ومسامرة لك فى ليلك ونهارك ، تَهطِل عليك شآبيبُ منافعها ، ويُظلك منها بركاتُها ، وتُوردك مناهلَ بلاغاتها ، وتدلك على مَهيع رشدها ، وتُصدرك وقد نَقع ظمؤك بينابيع بَحر إحسانها . إن شاء الله عزّ وجَل .

والحمد لله وحدَه ، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

رسالة ابن القارح*

إلى أبى العلاء المعرّى (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

أُستفتاحاً باسْمِه ، واسْتنجاحاً ببركته ؛ والحمد لله المبتدئ بالنِّعم ، المُنفرد بالقِدَم ؛ الذى جلّ عن شبه المخلوقين ، وصفات المُحدثين ؛ ولىّ الحسنات ، المبرأ من السيئات ؛ العادل فى أفعاله ، الصادق فى أقواله ؛ خالق الخلق ومُبديه ، ومُبقيه ما شاء ومُفنيه ؛ وصلواتُه على محمد وأبرار عِترته وأهليه ، صلاة تُرضيه ، وتُقرِّبه وتُدنيه ، وتُزلفه وتُحظيه .

كتابى أطال الله بقاء مولاى الشيخ الجليل ، ومدَّ مُدتَه ، وأدام كفايتَه وسعادتَه ، وجعلنى فداءه ، وقدّمنى قِبَله على الصِّحة والحقيقة ، وبُعْد القَصد والعقيدة ، وليس على مَجاز اللفظ ومَجْرى الكناية ، ولا على تَنقُّص وخلابة ، وتحبُّب ومُسامحة ، ولا كما قال بعضُهم وقد عاد صديقاً له : كيف تجدك ؟ جعلنى الله فداك ، وهو يقصد تحبُّباً ، ويريد تملُّقاً ، ويظن أنه قد أسدَى جميلاً يشكره صاحبُه إن نهض وأستقلّ ، ويكافئه عليه إن

(*) عرضت على النسخة التيمورية المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٨٠ مجاميع تيمور .

(١) ظفرنا بهذه الرسالة فى خزانة كتب أستاذنا الشيخ طاهر الجزائرى . كتبها أبو حسن على بن منصور الحلبى المعروف بابن القارح إلى أبى العلاء المعرى ، فأجاب عنها هذا فى رسالة خاصة سماها رسالة الغفران . أما ابن القارح ، وكان يلقب بدوخلة ، فكان شيخاً من أهل الأدب ، راوية للأخبار ، حافظاً لقطعة كبيرة من اللغة والأشعار ، قؤوما بالنحو ؛ وكان ممن خدم أبا على الفارسى فى داره وهو صبى ، ثم لازمه وقرأ عليه ، وكانت معيشته التعليم بالشام ومصر . قال ابن عبد الرحيم : وشعره يجرى مجرى شعر المعلمين ، قليل الحلاوة ، خال من الطلاوة ، وكان آخر عهدى به بتكريت فى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة ، فإنا كنا مقيمين بها ، واجتاز بنا وأقام عندنا مدة ، ثم توجه إلى الموصل فبلغتنى وفاته من بعد ، وكان يذكر أن مولده بحلب سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة . قال ياقوت : وعلى بن منصور هذا يعرف بابن القارح ، وهو الذى كتب إلى أبى العلاء المعرى الرسالة المعروفة برسالة ابن القارح فأجابه أبو العلاء برسالة الغفران وذكر اسمه فيها . وقرأت بآخره تعليقة لأستاذى رحمه الله قال إنها رسالة الأديب البارع أبى الحسن على بن منصور الحلبى المعروف بابن القارح ، وهى رسالة بديعة كتب بها إلى شاعر الحكماء وحكيم الشعراء أبى العلاء المعرى ، يتقرب بها إليه ، ويثنى فيها عليه ، وقد حثّ فيها على اتباع الشرع وأنحى فيها على الزنادقة وأبان شدة غيظه عليهم ، وذكر نبذاً عما مرّ عليه من الأحوال ، إلى غير ذلك من الفوائد الجمة التى جعلت لها موقعا من النفوس .

أفاق وأبلّ ، عن سلامة تمامها بحُضور حَضرته ، وعافية نظامها بالتشرُّف بشَريف عزّته ، ومَيمون نَقيبته وطلعته . ويعلم الله الكريمُ تقدّست أسماؤه أنى لو حَننت إليه ، أدام الله تأييده ، حَنينَ الواله إلى بَكرها ، وذات الفرخ إلى وَكْرها ، أو الحمامة إلى إلْفها ، أو الغزالة إلى خِشْفها ، لكان ذلك مما تغيِّره الليالى والأيام ، والعصورُ والأعوام ، لكنّه حنين الظمآن إلى الماء ، والخائف إلى الأمن ، والسَّليم[1] إلى السلامة ، والغريق إلى النجاة ، والقَلِق إلى السُّكون ؛ بل حنينَ نفسه النَّفيسة إلى الحمد والمجد ، فإنى رأيتُ نِزاعها إليهما نِزاعَ الأُسطقسات[2] إلى عناصرها ، والأركان إلى جواهرها . فإن وَهب الله لى ملأً من العمر يُؤنسنى برُؤيته ، ويُعلِّقنى بحبل مودّته ، سرت[3] كسارى الليل أُلقى عصاه ، وأحمد مسراه ، وقرّ عيناً ، ونَعِم بالاً ، وكان كمن لم يَمَسّه سوء ، ولم يتخوّفه[4] عدو ، ولا نَهكه رَوَاحٌ ولا غُدو . وعسى الله أن يَمن بذلك بيَوْمه أو بثانيه ، وبه الثقةُ . وأنا أسأل الله على التّدانى والنّوى والبعاد إمتاعَه بالفضل الذى استعلَى على عاتقه وغار به واستولى على مشارقه ومغاربه . فمن مَرّ على بَحره الهيّاج ، ونَظر فى لألاء بدره الوهّاج ، خليقٌ بأن يكبوَ قلمهُ بأنامله ، وينبوَ طبعُه عن رسائله . إلا أن يُلقى إليه بالمقاليد ، أو يَستوهبه إقليداً من الأقاليد ؛ فيكون منسوباً إليه ، ومحسوباً عليه ؛ ونازلاً فى شِعْبه ، وأحدَ أصحابه وحِزْبه ؛ وشرارة تيّاره ، وقُراضة دِيناره ؛ وسَمكَ بحره ، وثمدَ غمْره . وهيهات ! ضاق فِتْر عن مَسير . ليس التكحُّل فى العينين كالكَحل ، خُلقوا أسخياء لا مُتساخين ، وليس السخىُّ من يَتساخى ، لا سيما وأخلاقُ النفس تَلزمها لزومَ الألوان للأبدان ، لا يقدر الأبيض على السواد ، ولا الأسود على البياض ، ولا الشجاع على الجُبن ، ولا الجبان على الشجاعة . قال أبو بكر العَرْزمىّ :

يفرُّ جبانُ القوم عن أُم رأسه ... ويَحمى شجاعُ القوم من لا يُناسبهُ

---

(١) السليم : الملدوغ .

(٢) الأسطقسات الأربعة : النار والهواء والماء والأض ، وتسمى العناصر . (مفاتيح العلوم) .

(٣) كذا فى التيورية . وفى الأصل : « مرت » .

(٤) فى التيمورية : « يتخونه » .

ويُرزقُ معروفَ الجواد عدوُّه ويُحرم معروفَ البخيـل أقاربُه

ومن لا يكفّ الجهلَ عمّن يَودّه فسوف يكفّ الجهلَ عمّن يُواثبُه

ومن أين للضباب صوبُ السحاب ، وللغُراب هَدْىُ العُقاب ، وكيف وقد أصبح ذكره فى مواسم الذِّكر آذاناً ، وعلى معالم الشُّكر لساناً . فمن دافع العِيان ، وكابر الإنس والجان ، واُستبدّ بالإفك والبهتان ، كان كمن صالَب بوَقاحته الحجر ، وحاسن بقَباحته القمر ، وهَذَى وهَذر ، وتعاطَى فعَقر ، وكان كمَحموم بُلسم فعفر ، ونادى على نفسه بالنقص فى البدو والحضر ، وكان كما قال مَن يَعنيه ولا يشكّ فيه :

كناَطح صَخرةً يوماً ليَفْلِقها فلم يَضِرْها وأوهى قرنَه الوعلُ

ورُوى أن رسولَ الله صلّى الله عليه ، وزاده شرفاً لديه ، قال : لعن الله ذا الوجهين ، لعن الله ذا اللسانين ، لعن الله كل شقار[١] ، لعن الله كل قتات[٢] .

***

وردت حلب ، ظاهرها حماها الله تعالى وحرسها ، بعد أن مُنيت ربَضها بالدَّرخمين[٣] وأُم حَبوْكرى[٤] والفتكرين[٥] ، بل رُميتُ بآبدة[٦] الآباد ، والداهية النآد ، فلما دخلتُها وبعد لم تستقرّ بى الدار ، وقد نكرتُها لفقدان معرفةٍ وجار ، وأنشدتُها باكياً :

إذا زرتُ أرضاً بعد طُول اُجتنابها فقدتُ حبيباً والبـلادُ كما هيا

كان أبو القَطران المرّار بن سَعيد الفَقْعسى يهوى اُبنة عمّه بنَجد ، واسمُها وَحْشِيّة ، فاُهتداها رجلٌ شامىٌّ إلى بلده ، فغمّه بُعدها ، وساءه فراقُها . فقال من قصيدة :

إذا تركتْ وحشيةُ النجدَ لم يكن لعينيكَ مما تبـكيانِ طبيبُ

رأى نظرةً منهـا فلم يَملك البُـكا معاوزُ[٧] يربو تحتهنّ كثيب

(١) الشقار : الـكذاب . (٢) القتات : النمام .
(٣) الدرخمين (كشرحبيل) : الداهية .
(٤) الحبوكر (كغضنفر) : الداهية . كالحبوكرى وحبوكرى وأم حبوكرية وأم حبوكرى .
(٥) لم نجد الفتكرين فيما بين أيدينا والمراجع .
(٦) الآبدة : الداهية ، والآباد : الدهر . (٧) المعاوز : جمع معوز ، وهو الثوب الخلق .

وكانت رياحُ الشام تُـكره مرةً فقـد جُعلت تلك الرِّياحُ تَطيب

فحصلتُ من الرَّباح على الرِّياح ، كما حصل لأبى القَطران من وحشيّة ، ثم وثم وثم وثم أجرى ذكره ، أدام الله تأييده ، من غير سَبَب جرَّه ، وغير مُقتضٍ اقتضاه ، فقال : الشيخ بالنحو أعلم من سيبويه ، وباللغة والعروض من الخليل . فقلت ، والمجلس يأزز[1] : بلغنى أنه أدام الله تأييده ، يصغِّر كبيره ، ويَنزر صغيره ، فيصير تصغيره تكبيراً ، وتحقيره تكثيراً ، وهكذا شاهدتُ مَن شاهدتُ من العلماء ، رحمهم الله أجمعين ، وجعله وارثَ أطول أعمارهم وأمدّها ، وأنضرها وأرغدها ، وما ثمَّ له حاجة دَعت إلى هذا ، قد تفتّح النَّور ، وتوَضَّح النُّور ، وأضاء الصبحُ لذى عَينين . كان أبو الفرج الزَّهرجى كاتبُ حضرة نصر الدولة أدام الله حراسته ، كتب رسالة إلىَّ أعطانيها ، ورسالةً إليه أدام الله تأييدَه أستودعنيها ، وسألنى إيصالَها إلى جليل حَضرته ، وأكون نافثَها لا باعثها ، ومُعجلِها لا مؤجِّلها ، فسَرق عديلى رحلاً لى ، الرسالةُ فيه ، فـكتبتُ هذه الرسالة أشكو أُمورى ، وأبثّ شقورى[2] ، وأطلعه طلع عُجَرى وبُجرى[3] ، وما لقيتُ فى سَفرى من أُقيوام[4] يدّعون العِلم والأدب ، والأدب أدب النَّفس ، لا أدب الدَّرس ، وهم أصفارٌ منهما جميعاً ، ولهم تَصحيفات كنت إذا رددتُها عليهم نَسبوا التَّصحيف إلىَّ ، وصاروا إلباً علىَّ . لقيتُ أبا الفرج الزَّهرجى بآمد ومعـه خزانة كُتبه ، فعرَضها علىَّ ، فقلت : كتبُك هذه يهوديّة ، قد برئتَ من الشَّريعة الحنيفيّة ، فأظهر من ذلك إعظاماً وإنكاراً . فقلت له : أنت على المجرب ، ومثلى لا يَهرف بما لا يَعرف ، وأبلغ تيقن . فقرا هو وولده ، وقال : صَغَّر الخبر الخُبر . وكتب إلىَّ رسالة يُقرِّظنى فيها بطَبع له كريم ، وخُلق غير ذميم . قال المتنبّى :

* أذمُّ إلى هـذا الزّمان أُهيلَه *

صَغَّرهم تَصغير تحقير غير تَـكبير ، وتقليل غير تَـكثير ، فنفثَ مَصدوراً ، وأظهر ضميراً

---

(١) يأزز : يمتلئ . (٢) الشقور : الحاجة .

(٣) عيوبه وأحزانه وما أبدى وما أخفى . (٤) أقيوام : تصغير قوم .

مَستوراً ، وهو سائغٌ فى مجاز الشعر ، وقائله غير ممنوع من النَّظم والنثر ، ولـكنَّه وَضعه غيرَ موضعه ، وخاطب به غيرَ مُستحقّه ، وما يَستحق زمان ساعده بلقاء سَيْف الدولة ، أن يُطلق على أهله الذمّ ، وكيف وهو القائل يخاطبه :

أسيرُ إلى إقطاعه ، فى ثِيابه على طِرْفه ، مِن داره ، بحُسامه

وقد كان من حقّه أن يجعلهم فى خِفارته إذ كانوا مَنسو بين إليه ، ومَحْسو بين عليه ، ولا يجب أن يشكو عاقلا ناطقاً إلى غير عاقل ولا ناطق ، إذ الزمانُ حركات الفلك ، إلا أن يكونَ ممن يَعتقد أنّ الأفلاكَ تَعقل وتَعْلم وتَفْهم وتَدرى بمَواقع أفعالها بقُصود وإرادات ، ويَحمله هذا الأعتقاد على أن يُقرِّب لها القرابين ، ويدخن الدّخن فيكون مُناقضاً لقوله :

فتبًّا لدين عَبيــد النُّجوم ومَن يَدَّعى أنهـا تَعقِل

أو يكون كما قال اللهُ تعـالى فى كتابه الـكريم : (مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذٰلِكَ لا إلى هٰؤلاءِ ولا إلى هٰؤلاءِ) ويُوشك أن تـكون هذه صفته .

***

حكى القُطْرُبلى وابنُ أبى الأزهر فى تاريخ اُجتمعا على تَصنيفه ، وأهلُ بغداد وأهل مصر يَزْعمون أنه لم يُصَنَّف فى مَعناه مثلُه لصغر حَجمه وكِبر عِلْمه ، يَحكيان فيه أن المُتنبِّى أُخرج ببغداد من الحبس إلى مجلس أبى الحسن علىّ بن عيسى الوزير رحمه الله ، فقال له : أنت أحمدُ المتنبِّى ؟ فقال : أنا أحمدُ النبىّ ، وكشف عَن بطنه فأراه سِلعةً فيه ، وقال : هذا طابع نُبوَّتى ، وعلامةُ رسالتى . فأمر بقلع جَمْشكه[1] ، وصَفعه به خمسين ، وأعاده إلى مَحْبسه . ويقول لسيف الدولة :

وتَغْضبون على مَن نال رِفدَكمُ حتى يُعاقبَــه التنغيصُ والمِنَنُ

كذب والله ، لقد كان يتحرَّش بالمـكارم ، ويتحكّك بها ، ويحسد عليها أن تـكون

(١) كذا فى التيمورية . والجمشك : الحذاء . فارسية . وفى الأصل : «الخشتك» : قطعة معلقة فى الثوب تحت الإبط ، فارسية .

إلا منه وبه ، وهذا غيرُ قادح فى طَلاوة شعره ، ورَونق دِيباجته ، ولكنّى أغتاظُ على الزّنادقة والمُلحدين الذين يتلاعبون بالدّين ، ويرومون إدخال الشُّبه والشُّكوك على المسلمين ، ويَسْتعذبون القَدْح فى نُبوة النبيّين ، صلواتُ الله عليهم أجمعين ، ويتظرّفون ويَبْتدئون ، إعجاباً بذلك المذهب ، رِتيه مُغنٍ وظَرف زنديق . وقَتل المهدىُّ بشاراً على الزّندقة ، ولما شهر بها وخاف ، دافع عن نفسه بقوله :

يابنَ نهيا رأسِى علىّ ثقيلُ　　　واُحتمال الرأسين عِبْءٌ ثقيلُ
فادْعُ غيرى إلى عبادة رَبّيْــن　　　فإنّى بواحـد مَشْغولُ

وأحضر صالحُ بن عبد القُدُّوس وأحضر النِّطع والسَّياف ، فقال : علام تقتلنى ؟ قال : على قَوْلك :

رُبَّ سِرٍّ كتمتهُ فكأنى　　　أخرسٌ أو ثنى لِسانىَ عَقْـل
ولو أنى أظهرتُ للناسِ دِينى　　　لم يكُن لى فى غير حَبْسِىَ أكل

يا عُدىَّ الله ، وعُدَىَّ نفسه :

السترُ دون الفاحشات ولَا　　　يَلْقاكَ دون الخَيْر من سِتْرِ

فقال : قد كنتُ زنديقاً وقد تُبت عن الزندقة . قال : كيف وأنت القائل :

والشـيخُ لا يترك عاداتِه　　　حتى يُوارَى فى ثرَى رَمْسه
إذا أرعوى عادَ إلى غيّه　　　كذى الضَّنى عاد إلى نُكْسه

وأخذ غفلته السياف ، فإذا رأسه يتدهدى[1] على النّطع .

وظَهر فى أيامه فى بلد خلف بُخارَى وراء النهر رجلٌ قصّار أعور ، عمل له وجهاً من ذهب ، وخُوطب بربِّ العزة ، وعَمل لهم قمراً فَوق جبل أرتفاعه فراسخ . فأنفذ المهدىُّ إليه فأُحيط به وبقَلعته ، فحَرق كل شىء فيها ، وجمع كل مَن فى البلد وسَقاهم شراباً مسموماً ، فماتوا بأجمعهم ، وشَرب فلحق بهم ، وعجَّل الله بروحه إلى النار .

(١) دهده الحجر فتدهده : دحرجه ، كتدهدى .

والصناديقى فى اليمن ، فكانت جيوشه بالمُذيخرة وسَقْهنه ، وخُوطب بالرُّبوبية وكوتب بها ، فكانت له دار إفاضة يجمع إليها نساء البلدة كلها ، ويُدخل الرِّجال عليهن ليلا . قال مَن يوثق بخبره : دخلتُ إليها فسمعتُ امرأة تقول : يا بنى . فقال : يا أُمه ، نُريد أن نُمضى أمرَ ولىّ الله فينا . وكان يقول : إذا فعلتم هذا لم يتميّز مال من مال ، ولا ولد من ولد ، فتكونون كنفس واحدة . فغزاه الحَسَنىّ من صَنعاء فهزمه ، وتحصّن منه فى حصن هناك ، فأنفذ إليه الحسنى طبيباً بِمبضع مسموم ، ففصده به فقتله .

والوليد بن يزيد أقام فى الملك سنةً وشهرين وأياماً وهو القائل :

إذا مِتُّ يا أُم الحُنيكل فانْكحى ولا تأملى بعد الفِراق تلاقيا

فإنَّ الذى حُدِّثته من لقائنا أحاديثُ طسمٍ تَتْرك العقل واهيا

ورمَى المُصْحَف بالنُّشَّاب وخرقه ، وقال :

إذا ما جئتَ ربَّك يومَ حَشْرٍ فقُل يا ربِّ خرَّقنى الوليدُ

وأنفذ إلى مكّة بنّاء مجوسيًّا ليبنى له على الكعبة مَشْربة ، فمات قبل تمام ذلك . فكان الحجاج يقولون : لبَّيك اللهم لبيك ، لبيك يا قاتل الوليد بن يزيد ، لبّيك[1] . وأحضر بُنايجةً من ذهب ، وفيها جوهرة جليلة القدر ، صُورة رجل ، فسَجد له وقبّله ، وقال : أُسجد له يا علج . قلت : ومَن هذا ؟ قال : هذا مانى ، شأنه كان عظيماً ، اضمحلّ أمرُه لطول المدة . فقلت : لا يجوز السجود إلاَّ لله . فقال : قُم عنا ، وكان يشرب على سطح وبين يديه باطية كبيرة بلّور ، وفيها أقداح ، فقال لندمائه : أين القمر الليلةَ ؟ فقال بعضُهم : فى الباطية . فقال : صدقتَ ، أتيْتَ على ما فى نفسى ، والله لأشرَبنَّ الهَفْتجة ، يعنى شُرب سَبعة أسابيع مُتتابعة . وكان بموضع حول دِمَشق يقال له البخراء فقال :

تَلعَّب بالنبوّة هاشمىٌّ بلا وَحْى أتاه ولا كتاب

فقُتل بها ، ورأيت رأسَه فى الباطية التى أراد أن يُهفتج بها .

(١) هذا مما افتراه على الوليد بن يزيد خصوم سياسته ، والتاريخ لا يثبت شيئا من ذلك .

وأبو عيسى بن الرَّشيد القائل :

دهانيَ شهرُ الصَّوم لا كان من شَهرِ ولا صمتُ شهراً بعـده آخرَ الدهرِ
ولو كان يُعديني الإمامُ بقُـدرةٍ على الشَّهر لاستعديتُ دَهْرى على الشَّهر

عَرض له فى وقته صَرَع فمات ، ولم يُدْرك شهراً غيره والحمد لله .

والجنَّابى قَتل بمكة أُلوفاً ، وأَخذ ستّة وعشرين ألفَ جِمل خِفًا ، وضَرب آلاتهم وأثقالَهم بالنار ، وأستملك من النساء والغِلْمان والصِّبيان مَن ضاق بهم الفضاء كثرةً ووُفوراً ، وأخذ حجرَ الملتزم ، وظَن أنها مغناطيس القلوب ، وأخذ الميزاب . قال : وسمعتُ قائلاً يقول لغلام دُحْشمان طوال يَرْفُل فى بُرديه ، وهو فوق الـكعبة : يا رَحْمة ، اقلعه وأسرع . يعنى ميزاب الـكعبة . فعلمتُ أن أصحابَ الحديث صحَّفوه فقالوا : يقلعه غلام أسمه رحمة ، كما صحفوا على علىّ رضى الله عنه : تَهْلك البَصرة بالرِّيح . فهلـكتْ بالزَّنج ، لأنه قتل علوىُّ البصرة فى مَوضع بها يقال له العقيق أربعةً وعشرين ألفاً عدّوهم بالقَصب ، وحَرق جامعَها . وقال فى خُطبة يخاطب الزَّنج : إنـكم قد أُعنتم بقُبح منظر ، فاشفَعوه بقبح مَخْبر ، أجعلوا كلّ عامر قَفْراً ، وكُل بيْتٍ قبراً .

قال لى بدمشق أبو الحسـين اليزيدىّ الوزير بن(١) ، على نسب جدّى دخل وإياه أدّعى ، قال أبو عبد الله محمد بن علىّ بن زرام الطائى الـكوفى : كنتُ بمكة وسيفُ الجَنّابىّ أخذ الحاج ، ورأيتُ رجلاً منهم قد قَتل جماعة وهو يقول : يا كِلاب ! أليْس قال لـكم محمد المَكّى : (ومَن دَخَله كان آمِناً) أى أمن هنا ؟ فقلتُ له : يا فتى العرب ، تؤمِّنى سيفَك أفسِّر لك هذا ؟ قال : نعم . قلت : فيها خمسة أجوبة (الأول) ومن دخله كان آمِناً من عذابى يوْم القيامة . (والثانى) من الفَرض الذى فرَضتُ عليه . (والثالث) خرج مخرج الخبر ، وهو يريد الأمر كقوله : (والمُطلّقات يتربَّصْن بأنفسهن) . (والرابع) لا يقام عليه الحدّ فيه إذا جَنى فى الحِل . (والخامس) مَنّ الله عليهم بقوله : (إنّا جَعلْنا حَرَمًا آمِناً وَيُتخَطّف الناسُ من حوْلهم) . فقال : صدقتْ هذه اللحية ، ألِيَ توْبة ؟ فقلتُ : نعم . فخَلّانى وذهب .

---

(١) فى التيمورية : « الوزريني » .

والحُسين بن منصور الحَلّاج مِن نَيسابور ، وقيل من مرو ، يَدّعى كل علم ، وكان متهوّراً جَسوراً ، يروم إقلاب الدُّول ، ويدّعى فيه أصحابه الإلٰهية ، ويقول بالحلول ، ويُظهر مذاهب الشِّيعة للمُلوك ، ومذاهب الصُّوفية للعامة ، وفى تضاعيف ذلك يدّعى أن الإلٰهيّة قد حلت فيه . وناظَره علىّ بن عيسى الوزير فوجده صِفْراً من العلوم ، وقال : تعلُّمك لطهورك وفَرْضك أجدى عليك من رسائلَ أنت لا تَدرى ما تقول فيها ، كم تكتب إلى الناس : نهارك ذو النّور الشّعشعانىّ الذى يَلمع بعد شَعشعته ! ما أحوجَك إلى أدَب .

حَدّثنى أبو علىّ الفارسى قال : رأيتُ الحلاج واقفاً على حَلْقة أبى بكر الشِّبلى : أنت بالله ستفسد خَشبة ، فنفّض كمه فى وجهه وأنشد :

يا سرّ سِرٍّ يدقُّ حتى   يَجِل عن وَصف كُل حَىِّ
وظاهراً وباطناً تبدَّى   مِن كُل شىء لكُل شى
يا جُملة الكُل لستَ غيرى   فما اعتذارى إذاً إلىّ

وهو يعتقد أنّ العارف ابن الله بمنزلة شُعاع الشمس ، منها بدأ وإليها يعود ، ومنها يستمدّ ضَوءه ، أنشدنى الظاهر لنفسه :

أرى جيل التصوّف شرّ جيلٍ   فقُل لهم وأهْون بالحُلولِ
أقال اللهُ حين عَشقتُموه   كُلوا أكْل البهائم وارقصُوا لى

وحرّك يوماً يده فانتثر على قوم مِسكٌ ، وحرّك مرّة أخرى فانتثر دراهم . فقال له بعض مَن حضر ممن يفهم : أرنى دراهمَ معروفة أومن بك وخَلْق معى ، إن أعطيتَنى درهماً عليه اسمُك واسمُ أبيك . فقال : وكيف هذا وهذا لا يُصنع ؟ قال : مَن أحضَر ما ليس بحاضر صنع ما لَيس بمَصنوع . وكان فى كُتبه : إنى مُغرق قَوم نوح ، ومُهلك عاد وثمود . فلما شاع أمرُه ، وعَرف السلطانُ خبرَه على صحة ، وقَّع بضَربه ألفَ سوط وقَطع يديه ، ثم أحرقه بالنار فى آخر سنة تسع وثلثمائة .

وقال لحامد بن العبّاس : أنا أُهلكك . فقال حامد : الآن صحّ أنك تدّعى ما قُرِفتَ به .

وابن أبى العذافر أبو جعفر بن على الشَّلْمغانى ، أصله من قرية من قرى واسط تعرف بشَلْمغان ، وصورته صورة الحلّاج ، ويدعى عنه قوم أنه إله ، وأنّ الله حلّ فى آدم ثم فى شِيث ، ثم فى واحد واحد من الأنبياء والأوصياء والأئمة ، حتى حَلّ فى الحسن بن علىّ العَسْكرى ، وأنه حلّ فيه . وكان قد أستغوى جماعةً ، منهم ابن أبى عَون صاحب كتاب التّشبيه ، ومعه ضُربتْ عُنقـه ، وكانوا يُبيحونه حُرمهم وأولادَهم يتحكّم فيهم ، وكان يتعاطى الـكيمياءَ ، وله كُتب معروفة .

وكان أحمد بن يحيى الرّاوندى من أهْل مَرْو الرُّوز ، حسنَ السرّ ، جميلَ المذهب ، ثم أنسلخ من ذلك كله بأسباب عرضت له ، ولأنّ علمه كان أكثرَ من عقله ، وكان مثله كما قال الشاعر :

ومَن يُطيق مَرَدًّا عنـد صَبوته ومن يقوم لمستور إذا خَلعا

صنّف : كتاب التاج يَحتج فيه لِقِدَم العالم ، فنَقضه أبو الحسن الخيّاط .

الزمرذ ، يحتج فيه لإبطال الرسالة ، نقضه الخياط .

نعت الحـكمة ، سفه الله تعالى فى تـكليف خَلقه أمره ، نقضه الخياط .

الدامغ ، يطعن فيه على نظم القرآن .

القضيب ، يثبت أنّ علم الله مُحدث وأنه كان غيرعالم حتى خلق لنفسه علماً . نقضه الخياط .

الفريد فى الطعن على النبىّ عليه الصلاة والسلام .

المرجان فى أختلاف أهل الإسلام .

على بن العبّاس بن جُريج الرُّومى ، قال أبو عثمان الناجم : دخلتُ عليه فى عِلّته التى مات بها وعند رأسه جامٌ فيه ماء مَثلوج ، وخِنْجرٌ لو ضُرب به صدرٌ خَرج من ظَهر ، فقلت له : ما هذا ؟ قال : الماء أبلّ به حلقى ، فقلّما يموت إنسان إلا وهو عطشان ؛ والخنجر إن زاد علىّ الألم نحرت به نفسى ، ثم قال : أقصّ عليك قِصّتى تستدلّ بها على حقيقة

تَلفى ، أردتُ الانتقال من الكَرْخ إلى باب البَصرة ، فشاورتُ صديقنا أبا الفضل ، وهو مُشتقٌ من الإفضال ، فقال : إذا جئتَ القنطرة فخُذ على يمينك ، وهو مُشتق من اليمن ، وأذهب إلى سكّة النعيمة ، وهو مُشتق من النعيم ، فاسكن دار ابن المُعافى ، وهو مُشتق من العافية . فخَالفتهُ لتعسى ونَحسى ، فشاورتُ صديقنا جعفراً ، وهو مُشتق من الجوع والفِرار ، فقال : إذا جئتَ القَنطرة فخُذ على شمالك ، وهو مشتقٌ من الشُّؤم ، واسكن دار ابن قِلابة ، وهى هذه لا جرم ، قد انقلبت بى الدُّنيا وأضرّ ما علىّ العصافير فى هذه السِّدرة ، تصيح : سِيق سِيق ، فها أنا فى السياق ، ثم أنشدنى :

أبا عثمان أنت قَريع قومك   وجُودُك للعشـيرة دون لومك
تَمتَّع من أخيك فما أراه   يَراك ولا تَراه بعـد يَوْمك

وألحّ به البولُ ، فقلت له : البولُ ملحٌ بك . فقال :

غـداً ينقطـع البَوْل   ويأتى الوَيْل والعَوْلُ
ألاَ إنّ لِقـاء اللّــه هَوْل دونه الهَوْل

ومات من الغد . فأرجو أن يكون هذا القولُ توبةً له مما كان أعتقده من ذبْحه نفسه . والرسولُ عليه الصلاة والسلام يقول : مَن وَجأ نفسَه بحديدة حُشر يوم القيامة وحديدتُه بيده ، يجأُ بها نفسَه خالداً مخلّداً فى النار ، ومَن تحسَّى سُماً حُشر يوم القيامة وسُمَّه بيده يتحسّاه ، خالداً مخلداً[1] فى النار .

***

قال الحسن بن رجاء الكاتب : جاءنى أبو تمّام إلى خراسان ، فبلغنى أنه لا يصلّى ، فوكلتُ به مَن لازمه أياماً ، فلم يَره صلّى يوْماً واحداً ، فعاتبْتهُ ، فقال : يا مولاى ، قطعتُ إلى حضرتك مِن بغداد ، فاحتملتُ المشقّة وبُعد الشقّة ، ولم أرَه يثقل علىّ ، فلو كنتُ أعلم أنّ الصلاة تنفعنى وتركها يضرّنى ما تركتها . فأردتُ قتله ، فَخَشيتُ أن يُحمل على غير هذا .

(١) وقوع لفظ الخلود فى هذه الأحاديث للتهديد .

وفى تآريخ كثيرة أنه أحضر المازيار إلى المُعتصم، وقبل قدومه بيوم سخط على الأفشين، لأن القاضى ابن أبى دُواد قال للمعتصم: أغرل[١] ويطأ امرأة عربيَّة، وهو كاتب المازيار، وزيّن له العِصيان. فأحضر كاتبه وتهدّده المُعتصم، فأقرّ أنه كتب إلى المازيار: لم يكن فى الأرض ولا فى العصر بلية إلا أنا وأنت وبابك، وقد كنتُ حريصاً على حقن دمه، حتى كان من أمره ما كان، ولم يبق غيرى وغيرك، وقد توجّه إليك عسكر من عساكر القوم، فإن هزمْته وثبْتُ أنا بملكهم فى قرار داره، فظهر الدينُ الأبيض. فأجابه المازيار بجواب هو عنده فى سَفَط أحمر. فجمع بين الأفشين والمازيار، فاعترف المازيار بما حُكى عنه، وقيل للمُعتصم: إن وراء المازيار مالاً جليلا، فأنشد:

إنَّ الأُسود أُسود الغاب هِمّتها   يومَ الكريهة فى المَسلوب لا السَّلَب

ذكروا أنَّ اثنين قتلوا ثلاثة آلاف ألفٍ وخمسمائة ذبّاح بالثياب الحمر والخناجر الطّوال، وأنهم وجدوا أسماءهم فى وقعة وقعة وفى بلد بلد، وكانوا يأخذون من كُل واحد علامة، خاتمه أو ثوبه أو منديله أو تِكّته، «أتى الوادى فطمّ على القرىّ»[٢].

قد لقيتُ من يجادلنى أن عليًّا رضى الله عنه وكذلك الحاكم[٣] وقد ظَهر بالبصرة من يدّعى أنه جعفر بن محمد عليهما السلام، وأنه متّصل به وروحه فيه، ومتصلة به، ولو استقصيت القول فى هذا الفن لطال جدًّا، ولكن:

لا بد للمصدور أن يَنْفُثا   والّذى فى الصّدر أن يُبْعثا

بل لو قلت كُل ما أعلمه أكلت زادى فى مَحبسى، بل كنتُ أنشد:

أَحملُ رأْساً قد مَلِلت حملَه   ألا فتًى يحمل عنى ثِقْلَه

وأستريح إلى أن أنشد:

لَيس يَشفى كُلومُ غيرى كُلومى   ما به ما به وما بىَ ما بى

---

(١) الأغرل: الأقلف، والأقلف: من لم يختن.
(٢) قرى الماء: سيله من القلاع، وهو مثل.
(٣) كذا فى الأصلين.

إن شكوت العصرَ وأحكامَه ، وذممت صروفَه وأيامه ، شكَوْتُ مَن لا يُشكى أبداً ، وذَممت من لا يُرضى أحداً ، شيمتُه أصطفاء اللئام ، والتحاملُ على الكرام ، وهمّته رفع الخامل الوضيع ، ووَضْع الفاضل الرفيع ، إذا سَمح بالحباء ، فأبشر بوَشْك الأقتضاء ، وإذا أعار فاحسبه قد أغار ، فما بين أن يُقبِل عليك مُستبشراً ، ويولّى عنك مُتجهِّماً مستقشرًّا ، إلا كلَمح البصر ، وأستطارة الشرَر ، لم يَخترق ذِكْر الوفاء مسامعَه ، ولم يَمسس ماء الحياء مدامعه ، ظاهره يَسُرُّ ويُؤْنس ، وباطنه يَسوء ويُؤيس ، يُخيِّب ظنَّ راجيه ، ويُكذِّب أملَ عافيه ، لا يَسمع الشَّكوى ، ويُشمِّت بالبلوى ، قد ذممت شيئاً ووقعت فيه ، أنا كالغريق يَطلب مَعلقاً ، والأسير يندب مطلقاً ، وأستحسن قَوْل على بن العباس ابن جُريج الرومى :

ألا ليس شيبُك بالمنتزع فهل أنت عن غَيِّه مُرتدِع
وهل أنت تاركُ شكْوى الزما ن إذا شئت تشكو إلى مُستمع
فشيبُ أخى الشَّيب أُمنيّـة إذا ما تَناهى إليها هَلع

كنتُ فى حال الحداثة ، أقرب الناس إلىَّ ، وأعزّهم علىّ ، وأقرَبهم عندى ، وأجلّهم فى نفسى مرتبةً ، من قال : نَسأَ الله فى أجلك ، جَعل الله لك أمدَّ الأعمار وأطولها . فلما بلغتُ عشر الثمانين ، جاء الجزع والهَلع ، فهمّ أرتاع وألتاع ، وأخلد إلى الأطماع ، وهو الذى كنت أتمنّى ويتمنى لى أهلى ، أمِن صُدوف الغوانى عنى ، فأنا والله عنهن أصدف ، وبهن وأدوائهن أعرف ، إذ لستُ ممن يُنشد تحسراً عليهن :

للسُّود فى السود آثارٌ تَركن بها لُمَعاً من البيض تَثْنى أعين البِيض

وقول الآخر :

ولما رأيتُ النَّسر عزَّ ابن دَاية[1] وعَشَّش فى وَكْريه جاشت له نَفسى

ولا أُنشد لأبى عُبادة البُحترى :

---

(١) ابن داية : الغراب .

إن أيامه من البيض بيضٌ ما رأين المَفارق السُّود سُودا
وإذا المَحْلُ ثارَ ثاروا غُيوثا وإذا النَّقع ثار ثاروا أسُودا
يَحسن الذكر عنهم والأحاديـــث إذا حدّث الحديدُ الحديدا
بلدةٌ تُنبت المَعـالى فمَا يثـــغر الطفلُ فيهم أو يسودا

* * *

وهذه صفة معرّة النعمان به ، أدام الله تأييده ، لا خلت منه ومن النِّعمة عليه وعنده ، فقد وجدتُ أهلَها مُعترفين بعوارفه ، خلا أبى العبّاس أحمد بن خلف الممتع ، أدام الله عزّه ، فإنى وجدت آثار تفضّله عليه ظاهرة ، ولسانَه رطباً بشُـكره وذكره ، وقد ملأَ السماءَ دُعاء ، والأرض ثناء . قالت قريش للنبى عليه الصلاة والسلام : أَتباعك من هؤلاء الموالى كبلال وعمّار وصُهيب خيرٌ من قُصى بن كِلاب وعبد مناف وهاشم وعبد شمس . فقـال : نعم ، والله لئن كانوا قليلاً ليكثرنّ ، وإن كانوا وُضعاء ليشرفنّ ، حتى يصيرُوا نُجوماً يهتَدَى بهم ويُقتدى ، فيقال : هذا قول فلان ، وذكر فلان ، فلا تفاخرونى بآبائكم الذين موّتوا فى الجاهلية ، فلما يُدهده الجُعل[1] بمُنخره خَير من آبائكم الذين موّتوا فيهـا ، فاتّبعونى أجعلـكم أنساباً . والذى نفسى بيده لتقتسمُنّ كُنوز كسرى وقيصر . فقال له عمّه أبو طالب : أَبق علىّ وعلى نفسك . فظنّ عليه الصلاة والسلام أنه خاذله ومُسلمه ، فقال : يا عم ! والله لَوْ وَضعوا الشَّمس فى يمينى والقمرَ فى شِمالى على أن أتركُ هـذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركتُه ، ثم استعبر باكياً ، ثم قام . فلما ولّى ناداه : أقبـل يابن أخى ، فأقبل ، فقال : أذهب وقل ما شئتَ ، فوالله لا أسلمتك لسوء أبداً . فـكان عليه الصلاة والسلام يذكر يوماً ما لقىَ من قومه من الجَهد والشدة ، قال : لقد مكثْتُ أياماً وصاحبى هذا ، يشير إلى أبى بكر ، بضعَ عشرة ليلة ما لنا طعامٌ إلا البُر فى شُعب الجبال .

وكان عُتبة بن غَزوان يقول ، إذ ذُكر البلاء والشّدة التى كانوا عليها بمكة : لقد

(١) الجعل ، كصرد : الرجل الأسود الدميم واللجوج والرقيب ودويبة .

مَكثنا زماناً ما لنا طعام إلاّ وَرق البَشام ، أكلناه حتى تقرّحت أشداقُنا ، ولقد وجدتُ يوماً تمرة فجعلتها بيني وبين سعد ، وما مِنّا اليوم أحدٌ إلا وهو أمير على كُورة . وكانوا يقولون فيمن وَجد تمرة فقسمها بَينه وبين صاحبه : إن أسعد الرجلين مَن حَصلت النّواة فى قَسمه يلوكها يومَه وليلتَه ، من عدم القوت .

وكذا قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم : لقد رعيتُ غُنيمات أهل مكّة لهم بالقراريط . وابتدأ أمره أنه وقف على الصّفا ونادى : ياصباحاه . فجاءوا يهرعون ، فقالوا : ما دَهمك ؟ ما طرقك ؟ قال : بما تعرفوننى ؟ قالوا : محمد الأمين . قال : أرأيتم إن قلت لكم إن خيلاً قد طرقتْكم فى الوادى ، وإنّ عسكراً قد غَشِيتكم من الفج، أكنتم تُصدقونى ؟ قالوا : اللهم نعم ، ما جرّبنا عليك كذباً قط . قال : فإن الذى أنتم عليه ليس لله ولا من الله ولا يرضاه الله ، قولوا : لا إله إلاّ الله ، وأشهدوا أنى رسولُه ، وأتبعونى تُطعكم العربُ وتملكون العجم ، وإن الله قال لى : أَستخرجهم كما أَستخرجوك ، وابعْث جيشاً أبعثْ خمسةَ أمثاله ، وضَمن لى أنه يَغلب سلطانى سلطانَ كسرى وقَيصر .

ثم إنه عليه الصلاة والسلام غَزا تَبوك فى ثلاثين ألفاً ، وهذا مِن قِبَل الله الذى يجعل مِن لا شىء كُلّ شىء ، ويجعل كُل شىء لا شىء ، يُجمِّد المائعات ، ويُميع الجامدات ، يُجمد البحر ، ثم يُفجر الصخر ، وما مثله فى ذلك إلا كمثل مَن قال : هذه الزجاجة الرقيقة السخيفة أحكُّ بها هذه الجبالَ الصَّلدة الصلبة المُنيفة فترضُّها وتفضُّها ، وهذه النملة الضعيفة اللطيفة تَهزم العساكر الكثيرة المُعدّة . وكذا حقيقة أمره عليه الصلاةُ والسلام ، حتى لقد قال عُروة بن مَسعود الثّقفى لقريش ، وكان رسولَهم إليه صلّى الله عليه وسلم بالحُديبية : لقد وردتُ على النجاشىّ وكِسرى وقَيصر ، ورأيتُ جندهم وأتباعَهم ، فما رأيتُ أطوعَ ولا أوقر ولا أهيبَ من أصحاب محمد لمحمد ، هم حَوله وكأنَّ الطيْر على رءوسهم ، فإن أشار بأمر بادروا إليه ، وإن توضأ اقتسموا وضوءه ، وإن تنخم دلكوا بالنخامة وجوههم ولحاهم وجُلودهم (١) ، وكانوا له بعد موته أطوعَ منهم فى حياته ، حتى لقد قال

(١) كلام فيه نظر .

بعضُ أصحابه : لا تسبُّوا أصحابَ محمد ، فإنهم أسلموا من خوف الله ، وأسلمَ الناس من خوف أسيافهم . فتأمّل كيف أستفتح دعوتَه وهو ضعيف وحدَه ، بأن هذا سيكون ، فرآه العدوّ والوليّ ، وما كان مثله فى ذلك إلاّ مثل مَن قال : هذه الهَباءة تَعظُم وتصير جبلا يغطِّى الأرض كلَّها ، ثم أنذر الناسَ بها فى حال ضعفها .

* * *

وجاء صلى الله عليه وسلم يوماً ليدخل الكعبة فدفعه عثمان بن طلحة العَبدرى فقال : لا تفعل يا عثمان ، فكأنّك بمفتاحها بيدى أضعه حيثُ شئت . فقال : لقد ذلّت يومئذ قُريش وقلّت . قال : بل كثُرت وعزّت ، وأنا أستعين بعصمة الله وتوفيقه ، وأجعلهما مُعينىّ على دفع شهواتى ، وأشكو إليه عُكوفى على الأمانى ، وأسأله فهماً لمواعظ عِبر الدنيا ، فقد عميتُ عن كلوم غيرها ، بما جَثم على خواطرى من الشّغف ، ولستُ أجد منى مُنصفاً لى منها ، ولا حاجزاً لرغبتى فيها عنها ، وأين ودائع العُقول وخزائن الأفهام يا أولى الأبصار ، صَفحنا عن مساوى الدنيا إغماضاً لعاجل مونّق التنغيص ، وتَرمى إليه يدُ الزوال ، وتمكن له الآفات . قال كثيّر :

كأنى أنادى صخرةً حين أعرضت من الصُّم لو تمشى بها العصم زلّت

وأقول على مذهب كُثير : يا دنيا ، فى كل لحظة لطَرفى منكِ عَبرة ، وفى كل فِكرة لى منك حَسرة ، يا مرنَّقة[1] الصفا ويا ناقضة عَهدِ الوفا ، ما وُفِّق لحظةً من عرج نحوكِ ، ولا سَعِد مَن آثر المقام على حُسن الظن بك . هيهات يا معشر أبناء الدنيا ، لكم فى الظاهر اسمُ الغنى ، وفى الباطن أهل التقلّل ، لهم نفسُ هذا المعنى . كم من يوم أغر كثير الأهلة ، قد أصحت سماؤه ، وامتدّ علىّ ظلّه ، تُمدنى ساعاته بالمُنى ، ويَضحك لى بها عن كُل ما أهوى ، حتى إذا أتصل بكُل أسبابى ، وامتزج سُروره بفرحى وروحى وأترابى ، نفست[2] على

(١) مرنقة : مكدرة .

(٢) نفس به ، كفرح : ضن عليه بخير وحسد ؛ وعليه الشىء نفاسة : لم يره أهلا له

به الدنيا ، فسعتْ بالتشتيت إلى أُلفته ، والنقص إلى مُدته ، فكسفتْ بهجته كُسوفاً ، وأرهقت نَضرته بوحشة الفراق ، وقطّعتنا وِرقاً فى الآفاق ، بعد أن كُنا كالأعضاء المُؤتلفة ، والأغصان اللّدنة المُنعطفة . وَاحسرتى فى يوم يَجمع شرتى كفنٌ واحدْ

ضيَّعتُ ما لا بُدَّ منه بالذى لى منه بُدّ

وأُنشد قول ابن الرومى :

ألا ليس شيبُك بالمُنتزع فهل أنتَ عن غَيّه مُرْتدع

فأقلق وأبكى بكاء غير نافع ولا ناجع ، ويجب أن أبكى على بُكائى وأنشد :

لسانى يقول ولا أفعلُ وقلبى يُريد ولا أعملُ
وأعرف رُشدى ولا أهتدى وأعلم لكنّنى أجهل

* * *

عرضَ علىّ بعضُ الناس كأْسَ خمر فامْتنعتُ منها وقلت : خلّونى والطبوخ ، على مذهب الشيخ الأوزاعى ، وقلت لهم : عَرض إبراهيمُ بن المهدى على محمد بن خازم الخمرةَ فامتنع وأنشد :

أبعد شَيْبِىَ أصبُو والشيبُ للجهل حَربُ
سِنٌّ وشيْبٌ وجهلٌ أمرٌ لعمرك صَعبُ
يا بن الإمام فألاّ أيامَ عودِىَ رطْبُ
وإذ مشيبى قليلٌ ومَنهل الُحبّ عَذْبُ
وإذ شفاء الغوانى منّى حديثٌ وقُرْبُ
فالآن لما رأى بى الـعذّال ما قد أحبُّوا
وآنس الرشدَ منّى قومٌ أُعاب وأصبو
آليتُ أشرب خمراً ما حجّ لله رَكْبُ

وأقبلتُ على نفسى مُخاطباً ، ولها مُعاتباً ، والخطابُ لغيرها ، والمعنى لها : لقد أمهلكم

حتى كأنه أهملكم ، أما تستحيون من طول ما لا تستحيون ، فكُن كالوليد تُقلبه يد اللّطف به على فِراش العطف عليه ، تُصرف إليه المنافعُ بغير طلب منه لِصغره ، وتصرف عنه المضارّ بغير حَذر منه لعجزه . أمَا سمعتَ الرسول عليه الصلاةُ والسلام إذ يقول فى دعائه : اللهم اكْلأنى كَلأَة الوليد الذى لا يَدرى ما يُراد به ولا ما يُريد . ألا متعلّق والاذلال أذيال دليله ، ألا مُعد مطيّة ورحلاً ليوم رحيله ، يا هلاه ، الدّلجة الدّلجة ، إنه مَن لم يسبق إلى الماء يَظمأ ، إنما مَنعتْك ما تَشتهى ضناً بك وغَيْرة عليك . قال الرسولُ عليه الصلاة والسلام : إذا أحبّ اللهُ عبداً حَماه الدنيا . وأنت تشكونى إذا حميتُك ، وتَنكره صِيانتى إذا صُنتك ، ألا لائذٌ بِفنائنا ليَعز ، ألا فارٌّ إلينا لا فارٌّ منا ، يا مَن له بُدٌّ من كُل شىء ، ارحمْ من لا بُدّ له منك على كُل حال ، اللهُ يُغنى بشىء عن شىء ، وليس يُغنى عنه بشىء ؛ فلهذا قال جبريل للخليل : ألك حاجةٌ ؟ قال : أمّا إليك فلا ، الله يَستحق أن يُسأل وإن أغنى ، لأنه لا يُغنى بشىء عنه ، أَطِعه لتُطيعه ، ولا تُطعه ليُطيعك ، فتفتَر وتَملّ . مَن تَرك تَدْبيره لتدبيرنا أرحناه . جَلّ مَن لَوابُ القلوب والهمم بيده ، وعزائم الأحكام والأقسام عنده :

أنسيتَ ذِكْرَ أحبّةٍ ... يَنسون ذنبَك عند ذِكْرِكْ
وجفوتَهم ولطالما ... كانوا خِلافَك طَوْع أمرك
وصبرْتَ عند فِراقهم ... ما كان عُذْرك عند صَبرك

تترك من إذا جفوتَه ، ونسيتَ ذِكْرَه ، وتَعدّيت حدّه ، وتركْتَ نهيَه ، وضيّعت أمرَه ، وتُبتَ إليه ، وعوّلت فى تفضّله عليك وعليه ، وقلت : يا ربِّ . قال لك : لبّيك (وإذا سَألك عِبادى عنّى فإنّى قريب) ، إن كان الذُّبابُ بوجهك فاتّهمك ، وإن قطعتُ أنا أعضاءك فلا تتّهمنى ، أنت الذى إذا أعطيتُك ما أمّلتَ تركتَنى وانصرفت . (وإذا أنعمْنا عَلَى الإنسانِ أعْرضَ ونَأى بجانبِه) يا وَاقفاً بالتهم كم كم ؟ أليس يقول لك : ما غرّك بى ؟ تقول : حلمك ، وإلا لو أرسلت على بقة لجمعتنى عليك إذا أردت أن تجمعنى .

أمن بعد شُربك كأسَ النُّهى وشَمِّك رَيحان أهل التُّقى
عشقتَ فأصبحتَ فى العاشقيـــن أشهرَ من فَرَسٍ أبلقَا
أدُنياى مِن غَمْر بحر الهوى خُذى بيدى قبـل أن أغرَقَا
أنا لكِ عبدٌ فـكونى كمن إذا سرَّه عبـدُه أعتقَا

***

كان ببغداد رجلٌ كبير الرأس، فيليّ الأذنين، اسمه فاذوه، رأسه فى الأزمنة الأربعة مكشوف، لا يتورَّع عن ركوب مُخزية، يقال له: يا فاذوه، ويلك، تُبْ إلى الله. فيقول: يا قوم، لِمَ تدخلون بينى وبين مولاى وهو الذى يقبل التوْبة عن عباده؟ فكان فى بعض الشوارع يوماً ذاهباً والشارعُ قد اتّسَع أسفلُه وضاق أعلاه، والْتقت جناحان فيه، فناوَلتْ جارةٌ جارتها مهراساً أُنسلَّ من يدها على رأس فاذوه، فهرسَ رأسه، وخلطه[1] لخلط الهريسة، وأعجله عن التوبة. وكان لنا واعظ صالح يقول لنا: احْذروا ميتة فاذوه.

قال جبريل فى حديثه: خشِيتُ أن يُتم فرعون الشهادة والتوبة، فأخذتُ قطعةً من حال البحرِ فضربتُ بها وجهه، يعنى طينه، والحال ينقسم ثمانية أقسام، منها الطين، فـكيف يصنع مَن عنده أن التوبة لا تصحّ من ذَنب مع الإقامة على آخر؟ فلا حول ولا قوة.

بلغنى عن مولاى الشيخ، أدام الله تأييده، أنه قال، وقد ذُكِرت له: أعرفه خُبْراً[2]، هو الذى هجا أبا القاسم عليّ بن الحسين المغربى. فذلك منـه، أدام الله عزه، رائع لى، خوفاً أن يَستشرّ طبعى، وأن يتصوَّرنى بصورة مَن يضع الـكفر موضع الشكر، وهو بتَعريف التَّنـكير أنفعُ لى عنده، لجلالة قدره ودينه ونسكه، وأنا أُطلعه طِلعه[3] ليعرف خَفْضه ورفعه، وفُراداه وجَمعه.

---

(١) كذا فى المخطوطة التيمورية، وفى الأصل: «وخلط».
(٢) فى الأصل: «جرا»، وما أثبتنا عن التيمورية.
(٣) كذا فى التيمورية الطلع (بالـكسر): اسم من الاطلاع، وفى الأصل: «طمة».

يَجوز أنْ تُبطئَ المَنايا والخُلد فى الدَّهر لا يَجوز(١)

(السين)

يابن آدم كم تَحْرِس وتحترِس ، والموت أسدٌ يَفْترس ؛ إن كُنْتَ بجَبل أو وَاد ، فإن الأودية مثل الأطواد ؛ يَسمعها من الله داع ، جَلَّ رب العظمة والابتداع .

نظمه

أيحترس المرء من حَتْفه وما حادَ عَن يوْمه المُحْترِسْ
هل الناسُ إلا نظيرُ السوام(٢) وآجالُهم أسدٌ يَفترس
يَحُل الرُّبى ويحُل الوُهود ولا بدَّ للرَّبع أن يَنْدرس

(الشين)

لا تكُ ذا طيش ، وأعجب لما وُهب(٣) من العَيش ؛ ما فَعل آدم وبَنوه ، كم أدرك الثمرَ مُجتنوه ؛ يُبدى التوفر أخو المَعيشه ، والجبلُ مِثل الرِّيشه ؛ المنزل لأمر مَعْروش ، وبالقدر تُثَلّ العُروش .

(١) ذكر العلامة الذهبي ضمن ترجمة المعرى الحكاية الآتية عن القاضى أبى الفتح قال : « دخلت على أبى العلاء التنوخي بالمعرة ذات يوم فى وقت خلوة بغير علم منه ، وكنت أتردد إليه وأقرأ عليه ، فسمعته وهو ينشد من قلبه :

كم غودرت غادة كعاب وعمرت أمها العجوز
أحرزها الوالدان حرزاً والقبر حرز لها حريز
يجوز أن تبطىء المنايا والخلد فى الدهر لا يجوز

ثم تأوه مرات وتلا : (إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد) . ثم صاح وبكى بكاءاً شديداً وطرح وجهه على الأرض زماناً ثم رفع رأسه ومسح وجهه فقال : سبحان من تكلم بهذا فى القدم ! سبحان من هذا كلامه ! فصبرت ساعة ، ثم سلمت عليه . فرد وقال : متى أتيت ؟ فقلت : الساعة ، ثم قلت : يا سيدى ، أرى فى وجهك أثر غيظ . فقال : لا يا أبا الفتح ، بل أنشدت شيئاً من كلام المخلوق وتلوت شيئا من كلام الخالق فلحقنى ما ترى . فتحققت صحة دينه وقوة يقينه » .

(٢) السوام : الإبل الراعية .

(٣) بهامش الأصل : « ذهب » بدل « وهب » .

نظمـــه

أين مَضى آدمٌ وشِيثُ وأين مِن بَعده أَنُوش
مَرّ أبى تابعاً أباه ومُدَّ وقتٌ فكم أعيش (١)
لا مُلْكُ إلا لربّ عَرْش تُثَلّ عن أمره العُروش
خَف من الخَوف كلّ طَوْد حتى كأنّ الجبال رِيش
فَطيش نَبـل الرُّماة مِنّا وأسْهم الحَتْف لا تَطِيش
ولم يَزل المَنون جَيْش تُفَلّ من ذِكره الجُيوش
يُحَثّ بالنَّعش حاملُوه وشَـدّ ما سارت النُّعوش
لا حَبّذا الإنس والخَطايا وحَبّذا النُّسك والوُحوش

(الصاد)

المرء عمّا وجب ناكص ، والشَّخص للحَدَث شاخص ، إنّ ظِلّ الفانية لقالِص ، فهل خَلص إلى الله خالص ؛ إنّ دينَك لوديعـة فى المحار ، إنما يُدْرَك بغَوْص البحار ؛ وعدم دين فى الأنام ، وكان كالحِلْم فى المنام .

نظمـــه

من ادّعى النُّسك على غِرَّة فقُل له ما صَدق الخارِصُ
والنُّسك مثلُ النَّجم فى بُعده والخَلق إنْ يَبْلغه ناكص
كالدُّرة العَـذراء (٢) ما نالها إلا امرؤٌ فى بَحرها غائص
فى لُجة قامِصة سُـفْنها ويُصْرَع المُستمسك القامص
تلعب بالألواح أمواجُها كأنما مَركبُها راقِص (٣)

---

(١) ويشابه هذا المعنى قوله فى اللزوم :
تقضى النـاس جيلا بعد جيل وخلفت النجوم كما تراها
(٢) مقحم « الغراء » عوض « العذراء » .
(٣) وقريب من هذا قوله فى بيت من اللزوميات :
يموج بحرك والأهواء غالبة لراكبيه فهل للسفن إرساء

نحن كَنَبْت عامُه مُجدب ومَاؤه مُستنكَر ناقص

(الضاد)

دِينُك عنّاه المَرَض ، ضاعت النافلة والمُقترض ، وخَدعك هذا العَرَض ، وجِسمك ضَميف حَرَض ، لقد بَعُد منك الغَرَض ، وسوف يُطْلب المُقترض .

نظمـه

دِينُك مُضنًى أصابه سَقَمُ	والخُسر فى أن يُميته المَرَضُ
وهل تُرجى لديك نافلةٌ	مِن بعد ما ضاع منك مُفترض
غَرضت من هذه الحياة فهل	غرّك فيما تَرومه غَرَض
تَميل من جَوهر إلى عَرَض	والرُّوح فى جَوهرها عَرَض (١)
حرّضك الشيبُ أن تتوب فما	تُبْت فهلّا تُذكّر الحرض
أقرضتَ عمرًا فما صنعتَ به	سوف يرد الأنامُ ما أقترضوا

(١) للمعرى أقوال كثيرة فى الروح . والغالب على آرائه فى هذا الشأن التردد والتشكك فى مآلها . فمن ذلك قوله :

	سر قديم وأمر غير متضح	فهل على كشفها للحق إسعاد
	سيران ضدان من روح ومن جسد	هذا هبوط وهذا فيـه إصعاد
وقوله :	والروح شىء لطيف ليس يدركه	عقل ويسكن من جسم الفتى حرجا
	سبحان ربك هل يبقى الرشاد له	وهل يحس بما يلقى إذا خرجا
	أو ذاك نور لأجساد يحسنها	كما تبينت تحت الليلة السرجا
	قالت معاشر : يبقى عند جثته	وقال ناس : إذا لاقى الردى عرجا
	وليس فى الإنس من نفس إذا قبضت	ساف الذين لديها طيبها الأرجا
	وأسعد الناس بالدنيا أخو زهد	نافى بنيها ونادى إذ مضى درجا
وقوله :	والنفس أرضية فى رأى طائفة	وعند قوم ترقى فى السموات
	وكونها فى طريح الجسم احوجها	إلى ملابس عنتها وأقوات
وقوله :	وأوصال جسم للتراب ما لها	ولم يدر دار أين تذهب روحنا

(الطاء)

فَوْدك(١) علاه الشَّمط(٢) ، والمرء يُنقص ويُغمط ، كالطّفل كهلك فهلا يقمط ، لقد عُرف هذا النمط ، والنفسُ تَظعن ولا تُضبط ، وأجرُ مَن كَفرَ يَحبط ، أين مُوفَّق لا يَغلط ، والموت فى العالمَ مُسلَّط ، وعائد الملك لا يَقْنط .

نظمه

إلامَ الحرصُ(٣) والرَّغْبــــة فى أشيبَ كالأشمَطْ

وكالطّفــل غدا الـكَهْل فما للـكَهْل لا يُقْمط

ولا يُغضى(٤) أخو الريبــــة أن يُنْقَص أو يُغْمط

فما الخاسر إلاّ كا فرٌ أعمالُه تحبــط

بنى آدمَ إن تَعْصــوا فما أخسرَ من يَقْنط

غَبَطتُم صاحبَ الثَّرو ة والزَّاهدُ لا يَغْبط

أما تَغْلط فى الدّهْر بأن تُوجَد لا تَغْلط

(الظاء)

أما دينُك فمتَشَظٍّ(٥) ، وأنت على الفانية مُتلَظٍّ ، مُتقرِّب بالمَين مُتحظٍّ .

نظمه

أصبحتَ فى غَمرةٍ ولهوٍ تجىء بالمَـيْن كى تحظَّى

أحذَر على الدِّين من تَشَظٍّ فالدُّر مُلقًى إذا تشظَّى

لَوْ هاب حَرَّ اللظى مُسىء ما اهتاج حِرصاً ولا تلظَّى

(١) الفود : معظم شعر الرأس مما يلى الأذن وناحيــة الرأس ، وهو أول ما يشيب فى الشعر ، فيقال : بدا الشيب بفوديه .

(٢) الشمط : بياض الرأس يخالط سواده ؛ وقيل : بياض شعر الرأس فى مكان واحد .

(٣) مخرج بالهامش « الجهل » بدل « الحرص » .

(٤) فى الأصل : « ولا يغضب » .

(٥) تشظى ، أى تفرق وتشتت .

فأَبْدِ للسائلين لِيناً ولا تَكُن فى الجواب فَظًّا(١)

(العين)

المرء خَدعه الطَّمع ، مَرْأى فى الزَّمن أو مَسمع ، يَدْأب(٢) الرجلُ ويَجمع ، خُلَّب وميضٌ يَلمع ، والعينُ للحَذر تَدْمع ، والسُّحب بالأقضية هُمَّع ، وفى الآخرة يكون المَجمع(٣) .

نظمه

غَرَّكَ ما يَخْدع من زُخرف الـدّ نيا فزاد الحرصُ والطمعُ
علمتَ أنَّ الدهرَ فى صَرْفه مُفرِّقٌ عنك الذى تجمع
سمعتَ بالخطب وعاينته كفاك(٤) ما تُبصر أو تَسمع
تَدمع جَفنـاك على زائلٍ والعينُ للرّهبـة لا تَدْمع
كم أومضَ البارقُ فى عارضٍ فأُلفِىَ الـكاذبَ إذ يَلْمع
سُحْب تجلّى خالياً دَجْنها عنكم وسُحْب بعدها هُمَّع

(الغين)

إنك إلى الدنيا مُصغ ، وحُبّها للبشر مُطْغ ، لو أنك لشأنها مُلغ ، أبغاك ما تأمله مُبْغ .

نظمه

صاغَكَ الله للجمال بقَلْبٍ مُعْرِضٍ عن نَصيحة ليس يُصْغِى
تُكثِر اللغوَ فى المَقال ولو وفـــقت ما كُنت للدِّيانة مُلغى
لم تَزَل تَزجُر الطُّغاة فلا تَطْـــغ فحبُّ الدُّنيـا لِمثلك مُطغى
لو بَغيتَ الذى أراد بك الله لأعطاك فوقَ ما أنتَ تَبْغى

---

(١) كأنما اقتبس من قوله جل من قائل : (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) .
(٢) يدأب ، أى يتعب ويشقى .
(٣) كثيراً ما اعترف أبو العلاء فى شعره بالبعث والمعاد فمن ذلك قوله :

خلق الناس للمعاد فضلت أمة يحسبونهم للنفـــاد
إنما ينقلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشاد

(٤) فى الأصل : « هل كفك » .

(الفاء)

طال الكَلَف والكُلَف ، فأين الخلف والسَّلف ، إنَّ العافيةَ هى التَّلف ، وعند البارئ تكون الزُّلف ، إلامَ تكذب وتحلف ، والإثم لو ظهر أكلف .

نظمـه

كَلِفتَ بدُنياك شرَّ الكَلَف فجاءتك مما صَنعت الكُلَف
تَبِعْتَ الغُواةَ وما أسلفوا فهلّا أخذتَ بقول السَّلَف[1]
وصدَّقت نفسَك فى ظَنّها وكم قائل مانَ[2] لما حَلَف
تُخلِّف مالَك للوارثين وكانوا بعِلْمِك بِئْسَ الخلَف
تُرجِّى الحياةَ وأسبابَها وتَطْلُبُ[3] عند المَليك الزُّلف
ولو ظَهر الإثم للنَّاظرين لراعك فى الوَجه منه كُلَف
نَصحتُك فأَذَن[4] إلى مَن يقول: تَلافَ أُمورَك قبل التَّلَف

(القاف)

قلبُك مُعنّى يَخفق ، يَخاف مِن عاجلتك ويُشفق ، وبارئك هو المُوفّق ، أصبحتَ من عُمرك تنفق ، تَرفع العُذر وتُلفّق ، وأنت فى مَطلبك مُخْفِق ، بطول تعَبك فهلا تَرفُق .

نظمـه

إن خَفق البارقُ فى عارض فالقلبُ من رَوْعته يَخفق
تأسف إن أنفقتَ مالاً ولا تَأسف من عُمرك إذ تُنفِق

---

(١) ومن قوله فى اللزوميات مما يشابه هذا :
ولا تقولن إذا ما جئت مخزية قول الغواة على هذا مضى السلف
لا تحلفن على صدق ولا كذب فما يفيـدك إلا المأثم الحلف
(٢) مان الإنسان ، أى كذب :
(٣) بالأصل « تترك » ومخرج بالهامش « تطلب » التى أثبتناها لمناسبتها للمعنى :
(٤) أذن ، أى أصغى .

تَظَلُّ مِن فَقْد الغِنى مُشْفِقاً ومِن قَبيح الإثم لا تُشْفِق
مُرْتفقاً فى وَطن حافظاً تَسأل ما هان فلا تَرْفق
يَعودُ عن غَيْمك مَن شامه وهو شديدُ ظَمَؤه مُخْفِق

(الكاف)

سَبَّح إلاهَنا الفلك ، وقدّس البَشر والمَلَك ، والجِسْم فى العَفر يُستهلك ، والمرء بالعارفة يُملك ، والنَّهج للآخرة يُسلك .

نظمه

سَبِّح مع الشُّهب كما سَبَّح من قبلُ الفَلَكْ
قَدّس إنسانٌ على الأرض وفى الجوِّ مَلَك
لا تَبْك الميّت فكم مات كريمٌ وهَلَك
ما خبرُ الغابر عن دَفينه أين سَلَك
ما لَكَ شئٌ وإذا أطعتَ فالرَّحمةُ لك

(اللام)

غرَّكَ تفصيل وجمل ، والحىّ خُدعه الأمل ، سَعْيك فَسد والعَمل ، ما نَفعك حَجّ ولا رَمل ، كأنك بين الجهل هَمل .

نظمه

ما زلتَ مشغولاً بلا خَشْية يَغُرُّكَ التفصيلُ بعد الجُمَلْ
تحملك الأرضُ على ظَهرها وأنت سارٍ فوق ظَهر الأمل
ما لى أرى عَينيك لم تَهملا كأنما أنتَ مُخَلّى هَمل
ما يَشفع الحسنُ لأصحابه إنْ حَسن الوجهُ وساء العَمل
رَملت فى مكّة تَبغى الهُدى فهل نَهاكَ السعىُ بعد الرَّمل

(الميم)

أفى مَسمعك حلّ الصَّمم ، أم لُبّك أصاب اللَّمم ، وتحسن للأَنيس الهِمَم ، وفى التّراب تُطوى الرِّمم ، وفى الباطن تُخان الذّمم ، على ذلك تمرّ الأُمم .

نظمه

مالك لم تُصْغ إلى عاذلٍ أحلّ فى المَسمع منك الصّمم
أجاهل(١) أنت فتُلحى على الـ ـعصيان أم مسّ حجاك اللمم
هِمَّتك العُليا هَوت فى الثّرى وشِيمة الزاكى علو الهمم
لم تَف بالذِّمّة للحُرّ والـ ـحرُّ مُراعٍ وافياتِ الذِّمم
والذِّكر يَبقى للفتى بُرهةً وإن توارتْ فى التُّراب الرِّمم
فتَمِّم الْخير ولا تَرْهب الْـ ـموتَ فللموت تَصير الأمم

(النون)

لله السكرمُ والمِنَن ، وعن بارئك تَزول الظّنن ، لا يَسترك من الموت الجُنن ، وبالعاصف يُراع الفَنن(٢) ، لا تَعصمك تلك القُنن .

نظمه

ويحك لا تَمنُن على مُنعمٍ عليه فالخالقُ ربُّ المِنَنْ
فظُنَّ خيراً بالأخلاء وإلـ ـلا فالخير يجفو(٣) الظّنن(٤)
يجُنّك القـبرُ فلا تُلْف كالْـ ـمجنون يَبغى واقياتِ الجُنن
وافتنّ فى خَوفك ربّ العلا وأنت فى سَرحك مثل الفَنن

(١) مخرج بالهامش « أعاقل » بدل « أجاهل » .
(٢) الفنن : الغصن المستقيم ، جمعه أفنان وأفانين .
(٣) بالأصل « يخفو » وهذا غلط كثيراً ما يقع فى المخطوطات خصوصاً القديمة منها .
(٤) كذا .

إنك قِنٌّ[1] لمليك حوى الـ ... ـملك فلا تَعْصِم منه القُنَن[2]
لتقرع السنَّ غداً نادماً ... إن كنتَ ضيَّعت جميل السُّنن

(الهاء)

المرء نُهى فما أنتهى ، ما زال فى العاجلة يزدهى ، إن قيل ما أحسنَ وما أبهى ، فأَين صاحبك لما وَهى ، وطال ما نَعِم ولها ، ونال فى العمر ما أُشتَهى[3] ، ما بين غِزْلان ومَهى ، دَهاه الزمنُ فيمن دَها ، والله عمر باللُّهى ، مُصوِّر القَمر والسُّها .

نظمـه

المرء مَعْتوب على فِعْـله ... كم سَمِـع النَّهى فألاَّ انتهى
زايله اللهوُ وزار البِـلا ... وطالما عاينتهُ مُزدهى
باهَى زماناً بالذى نالَه ... ثم أتى الموتُ فأين البَهى
وهت عقودٌ كان فى عَصره ... أحكمها لا عاقدٌ ما وَهى
ما شهواتُ الحىّ إلا أذًى ... إن نال من مُدّته ما اشتهى
كان يُرى فى غَزل دائماً ... ما بين غِزْلان له أو مَهى
دهاه بالمَقدور لم يَدفع الـ ... ـخطبَ عن مُهجته إذ دَهى

(الواو)

أمَّا صحبُك فقد غوَوا ، عَبّوا فى المَورد فما اُرتوَوا ، أبادتهم الأقضية حتى ثَوَوا ، خلّوا للوارث ما احتوَوا ، طواهم القدَرُ فانطوَوا ، ولاقتهم الآخرةُ بما نَوَوا .

نظمـه

لا تَغْوِ فى دُنياك مستَهتراً ... فإنّ أصحابَك فيها غَوَوْا

(١) القن : هو العبد الذى ملك أبوه من قبله .
(٢) القنن : جمع قنة بالضم ، وهى الجبل أو قلة الجبل .
(٣) هذه الجملة مخرجة بالهامش ومنبه عليها بعلامة ولذا ألحقناها بالأصل .

عزّ لهم فى سربهم (١) موردٌ لو كان يَرْوى مثلهم لارتَوَوْا
نادتهمُ الأقدارُ يا ساكنى الْـــأرض ألا تنْوون حتى ثوَوا (٢)
خلّوا أحاديثهم (٣) واحتوى آخذ ميراث على ما حَوَوْا
انتشروا فى عَيشهم أعصراً ثم طَواهم قدرٌ فانطوَوْا
فَلْتُحسن النية مِن بعدهم فالناسُ يُجزَون على ما نوَوْا

(اللام والألف)

كل غدا يَخدُم أملَا ، يُسىء فيما بطن عملَا ، يُصبح بسيفه مُشتملا ، لا يطلب رزقه مُحتفلا ، والرزقُ لا يترك متوكلا ، لم يرد فى العالم حِيلا .

نظمه

ما فى البسيطة من عَبدٍ ولا ملكٍ إلاّ حليف عَناء يخدُم الأمَلا (٤)
يَحُث نفساً عن الإحسان عاجزةً وقد أساء بِعِلم الواحد العَملا
فهل تَرى الدهرَ أُنثى أو ترى ذكراً يُشابه امرأة فى الخلق أو رَجلا
يروم بالسَّيف رزقاً جاء فى عنف ما كان يَخطوه فى خَفْض لو اتّكلا
يَبغى المعالىَ فى أوفى مُجاهدة فإن تخلَّف عنها لطَّف الحِيَلا
يا ساكنى التُّرب ما عندى لكم خَبر فليت شِعرى عن المَقبور ما فعلا
لم تأتنا منكمُ رُسلٌ مخبِّرة ولا كتابٌ إلينا منكم وَصَلا

---

(١) مقحم بأعلاه « دهرهم » بدل « سربهم » .
(٢) هذا البيت مخرج بالطرة ومكتوب بقلم مغاير للأصل وخطه ردىء جداً .
(٣) بالهامش « أباطيلهم » عوض « أحاديثهم » التى بالأصل .
(٤) ومعنى هذا البيت يشابه قوله فى اللزوميات :

يحسن مرأى لبنى آدم وكلهم فى الذوق لا يعذب
ما فيهم بر ولا ناسك إلا إلى نفــع له يجذب

(الياء)

الحىّ بعد العيشة رَدِى ، وجاءه القَدَرُ فما فُدى ، وشخصُه بالقاضية رُدى ، لم يُرزق النّهل إن صَدى ، لـكنه عن ذلك عَدى ، أظلّته العاجلة فما هُدى ، وجادته الأسمية فما نَدى ، وقتلته الحادثاتُ فما وُدى .

نظمه

المرء فى أرْدية لَوّنت ماشٍ ولـكنْ بعد هذا ردِى
فَدى الأسارى زمناً ذاهباً وجاءه الموتُ فألاّ فُدى
فيارَدِىّ العقل إن الفتى لم يَدفع المَقدور حتى ردى
ظَلّ صَداه فى الثّرى ساكناً ولم يُصادف مَنهلًا إذا صدِى[1]
رَنت له الأعداء أن عاينت صاحبَها عن كلّ خيرٍ عدى
كان الهُدى يهدى إلى قلبه مِن سَمْعه لو أنه يَهْتدى
جادت له أسْمِية بُرْهة وعاد يبساً غُصنه ما نَدِى
لا يطلب الثأر لِميت ولا يُودى لعمُر[2] الله فيمن ودى

نجزت والحمد لله وحده

(١) بالأصل : « مورداً إن صدى » ومخرج بالهامش : « منهلا إذ صدى » وهو ما أثبتناه .
(٢) بالأصل : « لعمر والله » .

رسائل الانتقاد

كلمة للناشر

عثرت على كتاب صغير الحجم ، جميل الخط عتيقه ، فتأملته فوجدته لمؤلف تونسى معدود من البلغاء . ولما أخذت أتلو رشيق معانيه ، وجدت نقصاً فادحاً بين أوراقه ، أفسد عقد جمله ، و بعـد مدة وقعت فى فهرست القسم العربى من مكتبة الأسكوريال بجزيرة الأندلس على اسم مقامة تحت رقم ٣٥٦ منسوبة إلى أبى عبد الله محمد بن شرف القيروانى ، وبادرت فى الحال لطلب نسخة منها وطابقتها بما لدى ، فـكانت القطعة الأندلسية مطابقة للقسم الأول من النسخة التونسية بزيادة ما نقص . فأسرعت حينئذ إلى النسخ ، وأتممت هاته بتلك حتى كملت .

ومن المناسب أن نذكر شيئاً عن الأصلين اللذين أخذنا عنهما . فالأول ، وهى النسخة التونسية ، تشتمل على ستين صفحة شرقية يلوح من شكل خطها أنها من القرن السابع ، لـكنها صعبة القراءة ، لانطماس الأحرف ودثور كتابتها ، دع ما لحق الورق من العث الذى أهلك جانباً وافراً منها .

أما القطعة الأندلسية التى أكملنا بها ما ضاع من التأليف ، فهى تحتوى على ثمانى عشرة صفحة صغيرة الحجم أندلسية الخط قديمة النسخ ، كما يتبين ذلك من التاريخ الذى وضعه بعض المطالعين فى الصـفحة الأخيرة حيث قال : « طالعته فى موفى سنة خمس وخمسمائة » . وبهذا يستدل على أن هاته القطعة كتبت زمن المؤلف مدة إقامته بالأندلس (حوالى سنة ٤٥٥) أو قريباً من عهده . ومهما كان الحال فهى أقدم من أختها التونسية إلا أنها أخصر ولا تشتمل إلا على المقامة الأولى .

ويلوح لى أن مؤلفنا قصد بتدوين هذه الرسائل معارضة (كتاب العمدة) الذى وضعه زميله ومعاصره الحسن بن رشيق القيروانى كما سنبينه فى ترجمته . إلا أن الرسائل

المعارض بها كانت أطول وأكثر مما وجدناه وأوردناه هنا . يؤيد ذلك ما جاء فى سياق كلام ابن شرف فى مقدمته للمجلس الأول حيث قال : « فأقمت من هذا النحو عشرين حديثاً » . فالمظنون أنه يقصد بالحديث مجالسه مع الأستاذ الموهوم الذى سماه (أبا الريان) كما اختلق الحريرى فى مقاماته شخص الحارث بن همام ، واخترع الهمذانى عيسى بن هشام . فعسى أن يساعدنى الحظ بالعثور على بقية هذا التأليف النفيس إن كان فى عالم الموجودات .

وقد احترمت فى الاستنساخ الطريقة التى أتى عليها الأصل فى الرسم وضبطه ، إلا ما نبهت عليه أسفل المتن مع التعاليق . ولما كان الاعتراف بالمعروف فريضة وجب علىّ أن أرفع شكرى الخالص للكاتب البليغ والباحث المدقق محمد بدر الدين أفندى النعسانى الذى أعاننى على إزالة بعض مشكلات النسخة التونسية . كما أقدم عبارات ودادى إلى العالم المستعرب الحجة صديقى الأستاذ كارلو نالينى الذى أسعفنى بالحصول على صور القطعة الأندلسية ، وهو لا يزال يفيدنى بإشاراته العلمية وفكره الصائب ، فجزيا عنى خير جزاء ، والله ولى توفيقى ، به أهتدى وإليه أنيب ؟

تونس حسن حسنى عبد الوهاب

ترجمة المؤلف(١)

نبغ أبو عبدالله محمد بن أبى سعيد بن أحمد بن شرف الجذامى القيروانى نحو سنة ٣٩٠ من احدى البيوتات الشريفة القادمة مع الجيش العربى الفاتح ، والقيروان إذ ذاك زاهية زاهرة بالعلوم ، رافلة بالمعارف والفنون ، فروى المعقول والمنقول عن أفاضل ذلك العصر ، كأبى الحسن القابسى ، وأخذ الفنون الأدبية من أساتذتها ، كأبى إسحاق إبراهيم الحصرى القيروانى ، ومحمد بن جعفر القزاز ، وغيرهما ، حتى برع فيها وأجاد ، فألحقه حينئذ المعز بن باديس الصنهاجى أمير افريقية بديوان حاشيته ، لما رأى فيه من الذكاء والنجابة . وهناك التقى ابن شرف بجماعة من الكتاب البلغاء ، والشعراء الظرفاء ، الذين كان يجمعهم ديوان الملك ، مثل على بن أبى الرجال الكاتب رئيس قلم الإنشاء ، وأبى على الحسن بن رشيق صاحب العمدة ، ومحمد بن حبيب القلانسى وغيرهم .

وطبيعى أن وجود ابن شرف فى مثل هذا الوسط دعاه إلى تتبع الوجهة التى شب عليها وقوى نشاطه إذ كان أولئك الأدباء الأجلاء يتسابقون فى التقرب بنظمهم ونثرهم إلى الأمير ، رغبة فى العطايا الهائلة والهبات الطائلة ، وحصل عن هذا التنافس والتزاحم حركة فكرية أدبية لم تر إفريقية مثلها فى عصر من عصور السلطنة الإسلامية . وصارت القيروان كعبة العلم التى يحج إليها العلماء من جميع أصقاع المغرب حتى من الأندلس . وقد خصص المعز لصحبته من بين هؤلاء الزعماء المتقدمين ابن شرف هذا وابن رشيق ، فكان يلتفت تارة إلى الأول وأخرى إلى الثانى ، وجرى بسبب ذلك بين هذين الأديبين مناقضات ومهاجاة رسمها كل منهما فى رسائل مستقلة ومقامات متنوعة لم يصل إلينا منها شىء فيما نعلم .

حكى ابن شرف المترجم له فى كتابه « أبكار الأفكار » قال : استدعانى المعز بن

(١) اقتبسنا هذه الترجمة بتصرف من تأليفنا « الأدب والأدباء التونسين » .

باديس يوماً واستدعى أبا على الحسن بن رشيق الأزدى ، وكنا شاعرى حضرته وملازمى ديوانه فقال : أحب أن تصنعا بين يدى قطعتين فى صفة الموز على قافية الغين . فصنعنا حالا من غير أن يقف أحدنا على ما صنعه الآخر فكان الذى صنعته :

يا حبـــذا الموزُ وإسعادُه   من قبل أن يمضغه الماضغُ
قد لان حتى لا مَجسَّ له   فالفمُ ملآن به فارغ
سيّانِ قُلنا مأكلٌ طيبٌ   فيه وإلاَّ مشربٌ سائغ

والذى صنعه ابن رشيق :

مَوز سريعُ أكلُه   من قبل مَضْغ الماضغ
فمأكلٌ لآكلٍ   ومَشربٌ لسائغ
فالفمُ من لين به   ملآنُ مثلُ فارغ
يَخال وهو بالغ   للحَلْق غـير بالغ

فأمرنا للوقت أن نصنع فيه على حرف الذال ، فعملنا ، ولم يرَ أحدُنا صاحبَه ما عمل . فكان ما عملته :

هَل لك فى موزٍ إذا   ذُقناه قُلنـا حَبّذَا
فيه شرابٌ وغذا   يُريك كالماء القَذَى
لو مات مَن تلذّذ   به لقِيــل ذَا بِذا

وما عمله ابنُ رشيق :

لله مـــوزٌ لذيذٌ   يُعيـــذه المُستعيذُ
فواكهٌ وشرابٌ   به يُداوى الوَقِيذ
ترَى القذَى العينُ فيه   كما يريها النَّبيذ

قال ابنُ شرف : فأنت ترى هذا الاتفاق لما كانت القافية واحدةً والقصدُ واحدا . ولقد قال مَن حضر ذلك اليوم : ما ندرى ممّ نعجَب . أمن سُرعة البديهة ، أم من غرابة القافية ، أم من حسن الاتفاق ؟

وحكى المؤلف المترجَم له أيضاً فى كتابه المذكور قال : استخلانا المُعز يوماً وقال : أريد أن تصنعا شعراً تمدحان به الشعر الرقيق الخفيف الذى يكون على سُوق بعض النساء ، فإنى أستحسنه ، وقد عاب بعضُ الضرائر بعضاً به وكُلهن قارئات كاتبات ، فأحب أن أريهن هذا وادعى أنه قديم ، لأحتجّ به على مَن عابه وآسى به مَن عِيب عليه . فانفرد كل منّا وصنع فى الوقت فكان الذى قلت :

وبِلقيسيّة زِينت بشَعــر ... يَسير مثلِ مايَهب الشحيحُ
رقيق فى خَدلّجة رَدَاح ... خفيفٍ مثل جِسْم فيه رُوح
حَكى زغبَ الخُدودوكُل خد ... به زَغب فمَعْشوق مَليح
فإن يكُ صَرْح بِلقْيس زُجاجاً ... فمِن حَدَق العُيون لها صُروح

وكان الذى قال ابن رشيق :

يَعيبون بِلقْيسيّة أن رأوا لها ... كما قدرَأى من تلكَ مَن نَصب الصَّرحَا
وقد زادها التَّزغيب ملْحاً كمثل ما ... يَزيد خدُودَ الغِيد تزغيبُها ملْحا

فانتقد المُعز على ابن رشيق قولَه يَعيبون وقال : أوجدتَ لخصمها حجة بأنّ بعض الناس عابه . فانظر ما ألطف هذه المُناضلات ، وما أحلى هذه الحكايات ، ولولا خوف الإطالة لزدنا من هذه طُرفاً تروق الخاطر .

واستمر ابنُ شرف على خدمة المُعزّ إلى أن زحف عربُ الصعيد من هلاليّين ورياح وغيرهم واستولوا على غالب القطر التّونسى بعد ما خرّبوه ودمّروه ، واضطر الأمير المُعز إلى ترك القيروان أمامَ تلك القبائل المتوحشة (سنة ٤٤٩ هـ) وفرّ إلى المهدية واتخذها دار مُلكه ، وقد تبعه إليها شعراؤه وحاشيته . وفى خلاء القيروان يقول ابنُ شرف من قصيدة رنانة :

بعد خُطوب خَطبتْ مُهجتى ... وكان وَشْك البين إمهارها
ذا كبدٍ أفلاذُها حولها ... وقسمت الغربة أعشارها

كنتُ أدرسُ على أبى عبد الله بن خالويه رحمه الله ، وأختلف إلى دار أبى الُحسين المغربى . ولما مات ابنُ خالويه سافَرْت إلى بغداد ونزلتُ على أبى على الفارسىّ ، وكنتُ أختلف إلى علماء بغداد : أبى سعيد السيرافى ، وعلى بن عيسى الرُّمانى ، وأبى عُبيد الله المَرْزبانى ، وأبى حَفص الكِتانى صاحب أبى بكر بن مجاهد . وكتبتُ حديثَ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وبلّغتُ نفسى أغراضَها جهدى ، والجهد عاذر . ثم سافرتُ منها إلى مصر ، ولقيتُ أبا الحسن المَغربى فألزمنى أن لزمتَه لزومَ الظل ، وكنت منه مكان المِثْل ؛ فى كثرة الإنصاف ، والُحنوِّ والتحاف . فقال لى سرًّا : أنا أخاف هِمّة أبى القاسم أن تنزو به إلى أن يُوردنا وِرْدًا لا صَدَر عنه ، وإن كانت الأنفاس مما تُحفظ وتُكتب ، فاكتُبها وأحفَظها وطالِعنى بها . فقال لى يوماً : ما نَرضى بالُخمول الذى نحن فيه . قلت : وأىُّ خُمول هنا ؟ تأخذون من مَولانا ، خلّد الله مُلكه ، فى كُل سنة ستّةَ آلاف دينار ، وأبوك من شُيوخ الدولة ، وهو مُعظَّم مكرَّم . فقال : أريد أن تُصار إلى أبوابنا الكتائب والمَواكب والمَقانب ، ولا أرضى بأن يُجْرَى علينا كالولْدان والنِّسوان . فأعدتُ ذلك على أبيه . فقال : ما أخوفَنى أن يَخضب أبو القاسم هذه من هذه ، وقَبض على لحيته وهامته . وعلم أبو القاسم بذلك ، فصارت بينى وبينه وَقفة .

وأنفذ إلىَّ القائد أبو عبد الله الُحسين بن جوهر فشرّفنى بشريف خدمته . فرأيتُ الحاكم كلما قَتل رئيساً أنفذ رأسَه إليه ، وقال : هذا عدوّى وعدوّك يا حُسين . فقلت : من بَرَّ يوماً بُرَّ به ، والدهر لا يُغتر به ، وعلمت أنه كذا يُفعل به . فاستأذنتُه فى الحجّ فأذن . فَخَرجتُ فى سنة سبع وتسعين ، وحججتُ خمسةَ أعوام ، وعدتُ إلى مصر ، وقد قَتله . فجاءنى أولادُه سرًّا ، يرومون الرجوع إليهم . فقلت لهم : خيرُ ما لى ولكم الهربُ ، ولأبيكم ببغداد ودائع خمسمائة ألف دينار ، فاهربوا وأهرب . ففعلوا وفعلت . وبلغنى قتلهُم بدمشق وأنا بطَرابُلس ، فدخلتُ إلى أنطاكية وخرجتُ منها إلى مَلَطْيَة ، وبها المايَسْطِرِيّة خولةُ بنت سعد الدولة ، فأقمتُ عندها إلى أن ورَد علىَّ كتاب أبى القاسم .

فسرتُ إلى مَيَّافارِقين ، فكان يُسِرُّ حَسْواً فى ارتغاء(١) . قال لى يوماً من الأيام : ما رأيتُك ؟ قلت : أعرضتْ حاجة ؟ قال : لا ، أردْتُ أن ألعنك . قلت : فالعنّى غائباً . قال : لا ، فى وجهك أشفى . قلت : ولم ؟ قال : لمُخالفتك إياى فيما تعلم . وقلت له ونحن على أُنس بينى و بينه : لى حُرمات ثلاث : البلدية ، وتربية أبيه لى ، وتربيتى لإخوته . قال : هذه حُرم مُهتكة ، البلدية نسب بين الجدران ، وتربية أبى لك مِنّة لنا عليك ، وتربيتك لإخوتى بالخِلَع والدّنانير . أردتُ أن أقول له : أُسترحتَ من حيث تعب الكرام ، فخَشيتُ جنونَ جنونه ، لأنه كان جنونُه مجنوناً ، وأصح منه مَجنون ، وأجنّ منه لا يكون ، وقد أنشد :

جُنونك مَجنون ولستَ بواجدٍ طبيباً يُداوى من جُنون جُنونِ

بل جُن جنانه ، ورَقَص شيطانه .

به جِنّة مَجنونة غير أنها إذا حُصِّلت منه ألبُّ وأعقلُ

وقال لى ليلة : أريد أن أجمع أوصاف الشّمعة السبعة فى بيت واحد ، وليس يَسنح لى ما أرضاه . فقلت : أنا أفعل من هذه الساعة . قال : أنت جُذَيلها المُحكّك ، وعُذيقها المرجّب(٢) . فأخذتُ القلمَ من دَواته وكتبتُ بحضرته :

لقد أشبهتْنى شمعةٌ فى صَبابتى وفى هَول ما ألقى وما أتوقّعُ

نُحول وحَرْق فى فَناء ووُحدة وتَسهيد عَيْن واصفرار وأدْمع

فقال : كنتَ عملتَ هذا قبل هذا الوقت ؟ فقلت : تمنعنى سُرعةَ الخاطر ، وتُعطينى علمَ الغيب ؟ وقلتُ : أنت ذاكرٌ قولَ أبيك لى ولك وللبَبّى الشاعر ولُمحسن الدمشقى ، ونحن فى الطارمة(٣) : اعملوا قطعة قطعة ، فمن جوّد جعلت جائزته كَتْبها فيها . فقلت

(١) الارتغاء : شرب الرغوة ، أصله الرجل يؤتى باللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة ولا يريد غيرها فيشربها ، وهو فى ذلك ينال من اللبن . يضرب لمن يريك أنه يعنيك ، وإنما يجر النفع إلى نفسه .

(٢) الجذيل : تصغير الجذل ، وهو أصل الشجرة ، والمحكك : الذى تتحكك به الإبل الجرباء ، وهو عود ينصب فى مبارك الابل تتمرس به الابل الجرباء . والعذيق : تصغير العذق ، بفتح العين ، وهو النخلة ، والمرجب : الذى جعل له رجبة ، وهى دعامة تبنى حولها من الحجارة . يضرب للرجل يستشفى برأيه وعقله .

(٣) الطارمة : بيت من خشب كالقبة ، أعجمى معرب .

بلغ السماء سموَّ بيتٍ شيد فى أعلى مكان
بَنْيت علا حتى توا رَى فى ذراه الفَرْقدان
فانعم به لا زِلْت من رَيْب الحوادث فى أمان

فاستجاد سرعتها، وكتبها فى الطارمة وخلع عليَّ. وكان أبو القاسم ملولاً، والملول ربما ملَّ الملال، وكان لا يَمل أن يَمل، ويحقد حقد مَن لا تلين كَبِدُه، ولا تنحلُّ عُقده. وقال لى بعضُ الرؤساء مُعاتباً: أنت حقود، ولم يكن حقوداً. فقلت له: أنت لا تعرفه، والله ما كان يُخنى عُودُه، ولا يُرجى عَوْده؛ وله رأى يزين له العُقوق، ويُمقت إليه رعاية الحُقوق؛ بعيدٌ من الطَّبع الذى هو للصدِّ صَدُود، وللتآلف ألوف وَدود؛ كأنه من كِبره قد ركب الفَلك، واستوى على ذات الحُبك؛ ولست ممن يرغب فى راغب عن وُصلته، أو ينزع إلى نازع عن خُلته. فلما رأيته سادراً جارياً فى قلة إنصافى على غُلوائه، محوتُ ذكره عن صَفحة فؤادى، واعتددتُ وده فيما سال به الوادى.

فنى الناس إن رثّت حبالُك واصل وفى الأرض عن دار القِلَى متحوَّلُ

وأنشدتُ الرجل أبياتاً أعتذر بها فى قَطعى له:

فلو كان منه الخيرُ إذ كان شرُّه عتيدًا لقُلْنا إنّ خيراً مع الشرّ
ولو كان إذ لا خيرَ لا شرَّ عنده صَبرنا وقُلنا لا يَريش ولا يَبرى
ولكنَّه شرٌّ ولا خيرَ عنده وليس على شرٍّ إذا دام من صَبر

وبُغضى له، شهد الله، حيًّا وميتاً، أوجبه أخذُه محاريبَ الكعبة الذهب والفضة، وضَربها دنانير ودراهم، وسمَّاها الكعبية، وأنهب العرب الرَّملة، وخرَّب بغداد، وكم دمٍ سَفك، وحريم أنتهك، وحُرَّة أرمل، وصبىّ أيتم. وأنا مُعتذر إلى الشيخ الجليل من تقريظه مع تقريظى فيه؛ لأنه قد شاع فضلُه فى جميع البشر، وصار غُرَّة على جَبهة الشمس والقمر؛ خَلّد ذلك فى بدائع الأخبار، وكَتب بسواد الليل على بياض النهار. وأنا فى مُكاتبة حَضرته بمَنظوم وَمنثور كمن أمدّ النار بالشَّرر، وأهدى الضوء إلى القمر؛

(الطاء)

فَوْدك[١] علاه الشَّمط[٢] ، والمَرء يُنقص ويُغمط ، كالطِّفل كهلُك فهلا يقمط ، لقد عُرِف هذا النمط ، والنفسُ تَظعن ولا تُضبط ، وأجرُ مَن كَفر يَحبط ، أين مُوفَّق لا يَغْلط ، والموت فى العالَم مُسلَّط ، وعائذ الملك لا يَقْنط .

نظمه

إلامَ الحرصُ[٣] والرَّغْبـــة فى أشيبَ كالأشمَطْ
وكالطِّفــل غدا الـكَهْل فما للـكَهْل لا يُقمط
ولا يُغضى[٤] أخو الريبـــة أن يُنْقَص أو يُغْمط
فما الخاسر إلاّ كا فرٌ أعمالُه تَحبـــط
بنى آدمَ إن تَعصــوا فما أخسرَ من يَقْنط
غَبَطتُم صاحبَ الثَّرو ة والزَّاهدُ لا يَغْبط
أما تَغْلط فى الدَّهْر بأن تُوجَد لا تَغلط

(الظاء)

أما دينُك فمتَشَظٍّ[٥] ، وأنت على الفانية مُتلظٍّ ، مُتقرِّب بالمَين مُتحظٍّ .

نظمه

أصبحتَ فى غَمرةٍ ولهوٍ تجىء بالمَـيْن كى تحظَّى
أُحذَر على الدِّين من تَشَظٍّ فالدُّر مُلقًى إذا تشظَّى
لَوْ هاب حَرَّ اللظى مُسىء ما اهتاج حِرْصاً ولا تلظَّى

(١) الفود : معظم شعر الرأس مما يلى الأذن وناحيـة الرأس ، وهو أول ما يشيب فى الشعر ، فيقال : بدا الشيب بفوديه .

(٢) الشمط : بياض الرأس يخالط سواده ؛ وقيل : بياض شعر الرأس فى مكان واحد .

(٣) مخرج بالهامش « الجهل » بدل « الحرص » .

(٤) فى الأصل : « ولا يغضب » . (٥) تشظى ، أى تفرق وتشتت .

فأَبْدِ للسائلين لِيناً ولا تَكُن فى الجواب فَظًّا[1]

(العين)

المرء خَدعه الطَّمع ، مَرْآى فى الزَّمن أو مَسمع ، يَدْأَب[2] الرجلُ ويَجمع ، خُلَّب وميضٌ يَلمع ، والعينُ للحَذر تَدْمع ، والسُّحب بالأقضية هُمَّع ، وفى الآخرة يكون المَجمع[3] .

نظمه

غَرَّكَ ما يَخْدع من زُخرف الـدُّ نيا فزاد الحرصُ والطمعُ
علمتَ أنَّ الدهرَ فى صَرْفه مُفرِّقٌ عنك الذى تَجمع
سمعتَ بالخطب وعاينته كفاك[4] ما تُبصر أو تَسمع
تَدمع جَفناك على زائلٍ والعينُ للرَّهبـة لا تَدْمع
كم أومضَ البارقُ فى عارضٍ فألفِيَ الـكاذبَ إذ يَلْمع
سُحْب تجلّى خالياً دَجْنها عنكم وسُحْب بعدها هُمَّع

(الغين)

إنك إلى الدنيا مُصغ ، وحُبّها للبشر مُطْغ ، لو أنك لشأنها مُلْغ ، أَبغاك ما تأمُله مُبْغ .

نظمه

صاغَكَ اللهُ للجمال بقَلْبٍ مُعْرِضٍ عن نَصيحة ليس يُصْغِى
تُكْثِر اللغوَ فى المَقـال ولو وفـــقت ما كُنت للدِّيانة مُلغى
لم تَزَل تَزجُر الطُّغاة فلا تَطْـــغ فحُبُّ الدُّنيـا لِمثْلك مُطغى
لو بَغيتَ الذى أراد بك اللهُ لأعطاك فوقَ ما أنتَ تَبْغى

(١) كأنما اقتبس من قوله جل من قائل : (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) .
(٢) يدأب ، أى يتعب ويشقى .
(٣) كثيراً ما اعترف أبو العلاء فى شعره بالبعث والمعاد فمن ذلك قوله :
خلق للناس للمعاد فضلت أمة يحسبونهم للنفـــاد
إنما ينقلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشاد
(٤) فى الأصل : « هل كفاك » .

ولو لم يكن فى كفّه غيرُ نفسه لجاد بها فَلْيتق الله سائلُه

وقد قيل فى آخر :

تراه إذا ما جئتَه متهلّلا كأنك مُعْطيه الذى أنت سائلُه

ثم قال : بلى ، أقول : يا جواد ، فاق كُلَّ جواد ، بجُوده جاد مَن جاد .

ودخل ابنُ السَّماك على الرشيد فقال له : عِظْنى ، وفى يد الرشـيد كوز ماء . فقال : مهلاً يا أمير المؤمنين ، أرأيتَ إن أقدر اللهُ عليك مُقَدّراً فقال : لن أُمكنك من شَربة إلا بنصف مُلـكك ، أ كنتَ فاعلاً ذلك ؟ قال : نعم . قال : أشرب هَنَّأك الله . فلما شرب قال : أرأيتَ يا أمير المؤمنين أن لو أسفَّت نفْس هذا المُقدر عليك فقال : لن أُمكنك من إخراج هذا الـكُوز إلا بأن أستبدَّ بملـكك دونك ، أ كنت فاعلًا ذلك ؟ قال : نعم . قال : فاُتق الله فى مُلك لا يُساوى إلا بولة .

وكيف أشـكو مَن قاتنى وعالنى نيفاً وسبعين . كان قميصى ذراعين ، فوكل بى والدين حَدبين مُشفقين ، يتناهيان فى دقّته ورقّته وطيبه ، فلما صار أثنى عشر ذراعاً تولّاه هو وطامى ، فما أجاعنى قطّ ولا أعرانى ، والذى هو يُطْعِمنى ويَسْقِين ، خاطَب ربَّه بالأدب فقال : (وإذا مَرِضْتُ فهو يَشْفِين) فنَسَب المرض إلى نفسه ، لأنها تنفر من الأعراض والأمراض ، وكل شىء يطرأُ على الإنسان لا يَقدر على دفعه ، مثل النوم واليَقظة والضَّحك والبكاء والغم والسُّرور والخِصْب والجدب والغِنى والفَقر ، فهو منـه تقدّست أسماؤه . ألاَ ترى أنه لا يتوعّد على فِعله ولا يُعاقب عليه ، وما يُقدر على دَفعه فهو منه ، مثل أن يريد الـكتابة فلا يَقع منه البناء ، ويريد البناء فلا تقع منه الـكتابة ، ومَن به الرعشة لا يقدر على إمساك يد ، ومَن ليست به يَقدر على إمساكها .

* * *

كنت بتّنيس وبين يدى إنسان يقرأ ويحزن : (يُوفُون بالنَّذْر ويَخافون) ويبكى . فَخَطر لى خاطر ، فقلت : أنا بضدٍّ هؤلاء القوم صلواتُ الله عليهم ، أنا لا أنذر ولا أَفِى ،

ولا أخاف شَقاء ولا عَناء ، ولو كنتُ أخاف ما أَصبحت محموماً وُكسة[1] .

وحدّثنى مَن أثق به ولا أتهمه عن أبيه وكان زاهداً قال : كنتُ مع أبى بكر الشّبلى ببغداد فى الجانب الشرقى بباب الطاق ، فرأينا شاوياً قد أخرج حَمَلاً من التّنور كأنه بُسرة نضْجاً ، وإلى جانبه قد عَمِل حَلاوىّ فالُوذجاً ، فوقف ينظر إليهما وهو ساهٍ مُفكّر ، فقلت : يا مولاى ، دَعنى آخذ مِن هذا وهذا ورُقاقاً وخُبزاً ، ومَنزلى قريب تشرّفنى بأن تجعل راحتك اليوم عندى . فقال : يا هذا ، أظننتَ أنى قد اشتهيتُهما وإنما فكرى فى أنّ الحيوان كلّه لا يَدخل النار إلا بعد الموت ، ونحن ندخُلها أحياء :

يا ربّ عفوَك عن ذِى شَيبة وَجِل … كأَنه مِن حِذار النار مَجْنونُ

قد كان ذَمّ أفعالاً مُذمَّمة … أيامَ ليس له عَقْـل ولا دينُ

* * *

تمت الرسالة والحمد لله ذى الإفضال ، وصلواته على محمد وخِيرة الآل ، ما فرغتُ من هذه السوداء ، حتى ثارت بى السوداء ، وأنا أعتذر من خَطل فيها أو زَلل ، فإنّ الخطأ مع الأعتذار ، والأجتهاد والتحرّى موضوع عن المُخطئْ ، ومَن ذا الذى يُؤتى الكمال فيكمل . قال عمَرُ بن الخطاب : رحم الله أمرأً أهدى إلىّ عُيوبى . وأسأله ، أدام الله عزّه ، تَشريفى بالجواب عنها ؛ فإن هذه الرساله على ما بها قد أُستُحسنت وكُتبت عنى وسُمِعت منى ، وشرّفتها بأسمه ، وطرّزتها بذكره . والرسالة التى كتبها الزّهرجىّ إلىّ كانت أكبرَ الأسباب فى دخولى إلى حلب ، وإذا جاء جواب هذه سيّرتها بحلب وغيرها إن شاء الله ، وبه الثقة ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم .

---

(١) فى بعض الأصول : « وكنته » .

ملقى السبيل

سانحة للناشر

المعرى وشپنهاور

من عهد بعيد بحث كتّاب الشرق والغرب عن حياة الشاعر الحكيم أبى العلاء المعرّى وتآليفه وعرفوه بما يستحقه من الإجلال والتعظيم ، فلا حاجة لإيراد ترجمته هنا . إلا أنا لم نر أحداً أشار إلى المُشابهة الغريبة الموجودة بين فلسفة المعرى ومَذهب شپنهاور الحكيم الجرمانى .

ولد أرثور شپنهاور بمدينة دنتسيغ بألمانيا سنة ١٧٨٨ ، فاُعتنت أُمه بتثقيفه ، وكانت من مشاهير قصصيى ذلك القرن ، فأحسنت تربيته . وبعد أن تلقّى العلوم بجامعة برلين وحصل على أعلى شهاداتها أخذ يدوّن آراءه الفلسفية ، فألّف عدة كتب أهمها : (الإرادة فى الطبيعة) و (أساس الحكمة) وأشهرها (فصول فى الحكمة فى الحياة) . وفيه جمع شپنهاور حكمَه فى أقوال موجزة ، وفصول قصار ، وصف فيها أتعاب الحياة ، وآلام البشر ، على صورة تؤلم القارئ لانطباقها فى الغالب على الواقع .

ومذهب شپنهاور أن جميع مشاق الإنسان وأتعابه الدنيوية الأصل فيها ما يسميه (إرادة البشر) ؛ يعنى شهوات طبيعتنا وحبنا التمتع والتلذذ بالحياة . أوليس هذا رأى المعرى عند ما يقول : « إنك إلى الدنيا مصغ ، وحبها للبشر مطغ ، لو أنك لشأنها ملغ ، أبغاك ما تأمله مبغ ؟ » . ولولا خوف الإطالة لأوردنا شيئاً كثيراً من تشابه أقوال الحكيمين .

توفى أرثور شپنهاور بفرنكفورت عام ١٨٦٠ .

ومن اطلع على طريقة هذا الفليسوف الألمانى تيقن أن معتقده ويأسه من الحياة وتشاؤمه المستمر يطابق كثيراً مذهب المعرى ، خصوصاً فى فحصه عن أتعاب البشر وآلامهم ، وجسه أسقام الإنسان ، كالباحث الماهر ، والطبيب العارف ، من غير حنان ولا شفقة ،

على هذا النوع الإنسانى ، وبدون أن يبين فى وصف الأدوية التى ينبغى اتخاذها واستعمالها للاتقاء وتسلية تلك المواجع .

وهناك علاقة وتشابه آخر بين أبى العلاء وشپنهاور ، وهو كونهما لم يتزوجا وعاشا فى عزوبة مستمرة وعزلة وانقطاع ، مما أثر فى طبعيهما وجعلهما يتشاءمان وينتقدان الهيئة الاجتماعيه ، ويتناولان أهل الدين وأرباب الشعائر والنساء والاعتقاد ويسيئان الظن بالدنيا وساكنيها .

والفرق بين العالمين هو كون شپنهاور استقل فى علم الفلسفة ودراستها والتدوين فيها ، بخلاف المعرى الذى لم يشتغل بالفلسفة من حيث هى علم ، وإنما كان يبحث عن أسباب الأشياء وتعليل وجودها ، فتخطر له خطرات حكمية تستحوذ على مخيلته وذهنه الحاد ، فتسبكها قريحته الشعرية فى تلك القوالب العجيبة التى تظهر من قصائده .

بقى علينا أن نتكلم على رسالة (ملقى السبيل) التى نقدمها اليوم إلى محبى الآثار العربية والمولعين بنثر شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء ونظمه . فالظاهر من هيئة هاته الرسالة وإنشائها أن المعرى ألفها فى الدور الأخير من حياته زمن عزلته وانقطاعه ، حوالى سنة ٤٣٠ هـ ، وقد زهد فى الدنيا لكبره واقتراب أجله . فكأنه أراد الرجوع للمبادئ الدينية ، وسلك طريقة الوعظ والنسك وتمسك بالاعتقاد . وأين قوله زمن صغره لما كان فى غزارة قواه وعنفوان شبابه :

ضَحِكنا وكان الضّحكُ منا سفاهةً   وحقّ لسُكان البسيطة أن يَبْكوا

تُحطِّمنا الأيامُ حتى كأننا   زُجاجٌ ولكن لا يُعاد لنا سَبكُ

من اعترافه بالبعث والمعاد فى هاته الرسالة كقوله : « وفى الآخرة يكون المجمع » ، وقولة : « وعند البارى تكون الزلف » ، وهلم جرا .

أما أسلوب هذه الرسالة فى مجمله فهو يشابه كثيراً لهجة الخطب البليغة ذات الفصول القصار التى كان يلقيها خطباء العرب ، كسحبان وائل الباهلى ، وقس بن ساعدة ،

وعامر بن الطفيل ، وأمثالهم بأسواق الجاهلية . وإليك نموذجاً من كلام قس بن ساعدة خطيب بنى إياد الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : « رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر يقول[١] : أيها الناس ، اجتمعوا فاسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، فى هذه آيات محكمات ، مطر ونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، ونجوم تمور ، وبحور لا تغور ؛ وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ؛ وليل داج ، وسماء ذات أبراج . مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ، أم حُبسوا فناموا . يا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد ، أين المعروف الذى يشكر ، والظلم الذى لم ينكر :

فى الذاهبين الأولي ن من القرون لنا بصائر
لما رأيتُ موارداً للموت ليس لها مَصادر
ورأيتُ قومى نحوَها تمضى الأكابرُ والأصاغر
لا يَرجع الماضى ولا يَبقى مِن الباقين غابر
أيقنتُ أنى لا محا لَة حيثُ صار القومُ صائر

وسوف يرى القارئُ ما بين الكلام المتقدّم وحلّ المعرى وعقده فى (ملقى السبيل) من مطابقة المعنى ومشابهة اللهجة .

أما النسخة التى اعتمدنا عليها فى النقل فهى محفوظة بمكتبة الأسكوريال من بلاد الأندلس تحت رقم ٤٦٧ ، وهى بخط الراوى لها القاضى الإمام الشريف أبى محمد عبد الله ابن القاضى أبى الفَضل عبد الرحمن بن يحيى الدِّيباجى العثمانى ، رسمها بالإسكندرية أوائل القرن السادس ، وقد أُعتنى برسمها وضَبط جُملها بطريقة ثابتة مُدققة ، وهى فيما أعتقده أقدم نسخة لملقى السبيل[٢] . ولا يبعد أن تكون هى التى عوّل عليها أدباء الأندلس فى مُعارضاتهم لها ، فقد جاء فى نَفح الطيب أن الحافظ أبا الربيع الكَلاعى الأندلسى المتوفى

(١) كتاب « البيان والتبيين » لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ج ١ ص ١١٩) .
(٢) وبالتيمورية مخطوطة من ملقى السبيل عرضت عليها هذه الطبعة .

بالجهاد سنة ٦٣٤ ﻫ عارض هذه الرسالة بتأليف سماه (مفاوضة القلب العليل ، ومنابذة الأمل الطويل ، بطريقة المعرى فى ملقى السبيل) . كما تحتوى مكتبة الأسكوريال نفسها على كتاب (رقم ٥١٩) من وضع الكاتب الشهير أبى عبد الله محمد بن أبى الخِصال وزير يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين عارض به (ملقى السبيل) أيضاً . ومن جهة أخرى يوجد بمقدمة النسخة التى لدينا ، وهى كما قدمنا صورة فوتوغرافية من الأصل الأندلسى ، كثير من الإجازات تنبئ بقراءة هذه الرسالة على أساتذة متضلّعين تلتحق رواياتهم بالراسم الأول ، نعنى عبد الله الديباجى . وأقدم توقيع من هذا النمط مؤرخ سنة (٥٦٢ ﻫ) وهو مما يستدل به أيضاً على اهتمام الأندلسيين بتآليف المعرى .

وعسى أن ننشر فيما بعد رسائل أخرى من وضع هذا الفيلسوف الشاعر والله ولى التوفيق ؟

تونس ١٠ ربيع الأول سنة ١٣٢٩ ﻫ — ح . ح . عبد الوهاب

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرنى بمُلقى السبيل هذه الشيخ أبو المُظفّر سعد بن أحمد بن حماد المَعرِّى رحمه الله عن أبيه عن أبى العلاء ناظمها . وكتب عبدُ الله بنُ عبد الرحمن العثمانى .

قال الشيخ الإمام أبو العلاء أحمدُ بن عبد الله بن سليمان المعرى ، رهين المَحْبِسَيْن :

(الهمزة)

كم يَجنى الرجلُ ويخطئ ، ويعلم أنَّ حتفه لا يُبطئ .

نظمه

إنَّ الأنامَ لَيُخْطِئو ن ويَغفر اللهُ الخَطِيئه

كم يُبطِئون عن الجميـل وما مَنَايَاهم بَطِيئه

(الألف)

أبنُ آدم فى سَيْر وسُرى ، يَهجرُ بحِرْصه الكَرى ، وطالما كَذَب وأفترى ، ليصل إلى خَسيس القِرَى[١] ، وإنما يحصل على الثَّرى ، كأنه لا يسمع ولا يرى .

نظمـه

أما يُفيق المرء من سُكْرِه مجتهداً فى سَيْرِه والسُّرَى
نمْتَ عن الأخرى فلم تَنْتَبه وفى سوى الدِّين هجرتَ الكَرى
كم قائلٍ راح إلى مَعشر أبطلَ فيما قاله وأفترى
على القِرَى يحمل أثقالَه وإنما يأمُل نَزْر القِرَى
يَفتقر الحىّ ويُثرى وما يَصير إلا جُثْوة[٢] فى الثَّرى
أسْمَع فهذا قائلٌ صادقٌ أراك عُقباك فهلاَّ ترى

(الباء)

يَفتقر إلى الله الأرباب ، وبالكافر يَحُل التَّباب[٣] ، وتَنقطع بالموت الأسباب ، وفى الخالق تحار الألباب .

نظمـه

دانت لربّ الفلك الأربابُ وبالكَفور يَلْحَق التَّبابُ[٤]
كم قُطِّعت لميتةٍ أسبابُ وأفترقت برَغمها الأحباب

---

(١) القرى (بالكسر) : الضيافة أو ما يقدم للضيف .

(٢) الجثوة : الحجارة المجموعة . (٣) التباب : النقص والخسارة والهلاك .

(٤) لأبى العلاء أبيات كثيرة تثبت حسن اعتقاده بالخالق جل جلاله وصحة إيمانه ، فمن ذلك قوله :

مولاك مولاك الذى ما له ندٌّ وخاب الكافر الجاحد

وقوله : والله حق وابن آدم جاهل من شأنه التفريط والتكذيب

وقوله : توحد فإن الله ربك واحد ولا ترغبن فى عشرة الرؤساء

زيادة على ما سيرد له فى هذا المعنى ضمن هذه الرسالة .

(التاء)

النفس تصرّفت وانصرفت ، والأعضاء تألفت ثم تلِفت ، والأقضية بحقٍّ هتفت ، ما أُغفيت المَحلة لكن عفتْ ، كم شُفيت المُدْنفةُ فما اشتفت .

نظمه

نفسُ الفتى فى دَهره   تصرّفت وانصرفتْ
تألَّفت أعضاؤه   وافترقت إذ تَلِفت
أقضيةُ الله دعتْ   فأسمعت إذ هَتفت
ما أُغفيتْ ديارُهم   من الرّزايا بل عَفَتْ
كم شَفيتْ مريضة   مِن مَرض فما اشتفَتْ

(الثاء)

من أعظم الحَدث ، سُكنى الجَدَث(١) .

نظمه

يَدوم القديمُ إلهُ السماء   ويَفنى بأقداره ما حَدَث
وما أرغبَ المرءِ فى عَيشه   ولكن قُصاراه سُكنى الجَدث

(الجيم)

العَجبُ بجاهل مُدَاج ، يأسفُ لبين الأحداج(٢) ، ويَعصى الملكَ والليلُ داج ، وما هو من الحَتف بناج .

نظمه

يأيها العاقلُ المُداجى   وليلُه بالسَّفاه داجى
كأنما عينُه إذا ما   تحمّل الحى فى زُجاج

(١) الجدث : القبر .   (٢) الأحداج : الأحمال .

كم أعمل الناجياتِ حرصاً وليس مِن حَتفه بناجي
رجا أموراً فلم تُقَدَّر وكُل مَن فى الحياة راجي

(الحاء)

إنَّ ابنَ آدم لشحيح ، سوف يَمْرض من القوم صَحِيح ، تَعْصِف بعَقله ريح ، فإذا هو لقَى طَرِيح ، ثم يُحفر له ضَريح ، إن ذلك لهو التَّبريح .

نظمه

يأيها المُمسك الشَّحيحُ سيَمرض السالمُ الصحيحُ
ما لَكَ لم تنتفع بعَقلٍ هل عَصفت بالعُقول ريحُ
إنْ شُيِّد القَصر فى سُرور فبعده يُحفر الضَّريح
يطرح الهمّ بالمنايا من جسمه فى الثرى طَرِيح

(الخاء)

بَكى على المَيت مُواخ ، كان أجلُه فى تَراخ ، فَلتنه الصارخة عن الصُّراخ .

نظمه

فى الله آخَى فتًى لبيبٌ وأسْلم الهالكُ المُواخى
بَكى عليه فهل تراه فى أجلٍ دائم التَّراخى
أعتقِدِ الحقّ واعتمِدْه لا تَزرع الحَبَّ فى السِّباخ

(الدال)

أمَّا بصرُك لحديد ، وأما ثوبُك لجديد ، وظِلُّك بقضاء الله مَديد ، وحولَك العدد والعديد ، ولكنَّك سواك السَّديد ، طَرقك وعدٌ ووعيد ، فهل تُبدى وهل تُعيد ، أم غَرِيّك[1] هو السعيد .

(١) الغرى : البناء الجيد . يريد القبر .

نظمه

أرى ملكاً تحف به موالٍ ... له نظرٌ إلى الدُّنيا حديدُ
ضفا بُرد الشباب عليه حتى ... مَضت حِقَب ومَلبسه جديدُ
يزول القيظُ[1] فى صَيف ومَشْتى ... ويستر شخصَه ظِلٌّ مديد
وَفت عُدد لديه فمن دُروع ... وأسيافٌ ينوء بها عَديد
وكان السعد صاحَبَه زماناً ... ولكن طالما شَقِى السَّعيد
بدا شخصُ المَنون لناظِريْه ... وقيل له أتُبدى أم تُعيد
تَصعَّد فى المَراتب غير وانٍ ... وأحْرزه على الرغم الصَّعيد[2]
تفرَّقت الجُنود[3] فما حَمَته ... وأُبطلت المواعدُ والوَعيد

(الذال)

أما العيش الناعم فيَلذّ ، ولكنّ سببه يجذ[4] .

نظمه

يَلذ الفتى غفلات الحياة ... وليس بمُتَّصِل ما يَلذّ
يَمُد له الظنُّ آمالَه ... ولكنها عن قليل تُجَذ

العاجلة سبيلٌ منفوذه ، وهى عند أهل الرُّشد مَنبوذه ، والأنفس بحقٍ مأخوذه ، لا الدِّرع تَنفع ولا الخوذه[5] .

نظمه

انفُذ من الدُّنيا ولا تَلْتفت ... فإنها بالعُنف مَنْفوذه

---

(١) القيظ : شدة الحر .
(٢) الصعيد : القبر .
(٣) فى الأصل : « الجيود » ، تحريف .
(٤) جذه جذا فانجذ ، أى قطعه أو كسره فانقطع وانكسر .
(٥) الخوذة ، هو ما يجعله المحارب على رأسه ليقيه .

حازتك فانبُذها إلى أهلها فَهى لدى الأخيارِ مَنبوذه
ولا تُمْسك بحبال لها تُصبحُ من كفّيك مَجْذوذه
مَأخوذة مانِعة فى الوَرى نَفْسٌ بِحُكم الله مَأخُوذه
لا سُقْية أغنتْ ولا رُقْيه ولا تَميمات ولا عُـوذه

(الراء)

لقد هُجرت الخُدور ، وغَدر بها الزمانُ الغَدور ، فإذا الخِدْر عِوَضه قبر ، هَل ينفعك جَزع أو صَبر ؛ مِن بارئك يَجرى المَقدور ، وتَفنى الشُّهب والبُدور .

نظمـه

تُظْهر أسرارَها الُخدور بما قَضى الواحدُ القديرُ
كم دار فى خاطر ضميرٌ مِن فَلك دائبٍ يَدور
وضاق صدرٌ بمُشكلات تَضيق عن مِثلها الصُّدور
يثبت فرد بلا نظير[1] وتَهلك الشُّهب والبُدور

(الزاى)

لا تَبرزى يا غانيه ، فإنها الدنيا الفانيه ؛ ستترك يكلؤه والداك ، فَلتَمْسك بالنُّسك يداك ؛ الوَرع ذَهب إبريز ، والجَدث حِرْز حَريز ؛ قد تَهلك فتاةٌ رُود ، وتَلبث مُسِنة تَرود .

نظمـه

يَموت قومٌ وراء قومٍ ويَثبت الأولُ العزيزُ
كم هَلكت غادة كَعابٌ وعُمّرت أُمُّها العَجوز
أحْرزها الوالدان خَوْفاً والقبر حِرْز لها حَريز

(١) كذا مصححاً بهامش الأصل ، ومكانه « قرين » .

أطفالها ما سمعت بالفلا قطٌّ فعادتْ فى الفلا دارها
ولا رأت أبصارُها شاطئاً ثم جَلت باللّج أبصارها
وكانت الأستار آفاقها فعادت الآفاقَ أستارها
ولم تكُن تعلو سريراً علا إلا إذا وافق مقدارها
ثم علت فوق عُشور الخطا ترمى به فى الأرض أحجارها
ولم تكن تلحظها مقلة لو كحلت بالشَّمس أشفارها
فأصبحت لا تتّقى لحظة إلا بأن تجمع أطمارها

وأقام ابن شرف مدة بالمَهدية مع زُمرة شعراء الملك ، يخدُم الأمير المعز وابنه تميما إلى أن رحل عنها قاصداً جزيرة صقلية ، لما سمع من كرم أميرها ، وإليها لحقه رصيفهُ ابن رشيق . وقد قدمنا أنه كان وقع بينهما بالقير وان ما وقع بين جرير والفرزدق ، أو بين الخوارزمى و بديع الزمان . فلما اجتمعا بصقلية تسامحا وأقاما بها زمناً ، ثم استنهض يوماً ابن شرف رفيقه على جواز الأندلس ، فأنشد حينئذ ابن رشيق البيتين المشهورين بين الخاص والعام .

مما يُزهدُنى فى أرض أندلس سماعُ مُقتدر فيها ومُعتضدِ
ألقابُ سَلْطنة مِن غير مَمْلكة كالهِر يَحْكى انتفاخاً صولةَ الأسد

فأجابه ابن شرف بديهة :

إن تَرْمك الغربةُ فى مَعْشر قد جُبل الطبعُ على بُغضهمْ
فدارهمْ ما دمتَ فى دارهم وأرضهم ما دمت فى أرضهم

واجتاز ابنُ شرف وحده الأندلس وسكن المَرِيّة وغيرها وتردّد على ملوك طوائفها ، كآل عباد بإشبيلية وغيرهم . و بهذه المدينة الأخيرة كانت وفاته سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ م) وخلف ابناً يدعى أبا الفضل جعفراً ، كان أديباً مجيداً أيضاً ، أورد له العِماد فى خريدته والفتح فى قلائده قصائدَ وفصولاً تشهد له بطول الباع .

أما تآليف محمد بن شرف فكثيرة على ما نقله إلينا المؤرخون ، فمنها كتاب (أبكار الأفكار) جمع فيه ما اختاره من نظمه ونثره ، وهو أنفسُ مصنفّاته (مفقود وقد يوجد منه شيء فى بعض كتب الأدب) . ومنها كتاب (أعلام الكلام) به نخب وملح ، (مفقود أيضاً) . ثم (رسائل الانتقاد) والمظنون أنه ألفها بعد هجرته القطر التونسى كما يستفاد من سياق كلامه فى مقدمتها . وغيرها من هذه المصنفات الأدبية النفيسة .

وها نحن نأتى هنا على مُنتخبات نثر وشعر من كلام محمد بن شرف ليرى القارىء براعة هذا المؤلف الجليل ومكانته من الأدب .

فمن نظمه فى الشوق إلى بلاده القيروان مدة إقامته بالأندلس :

يا قَيروان وَدِدْتُ أنى طائرٌ ... فأراكِ رُؤية باحثٍ متأمّلِ
يالو شهدتك إذ رأيتك فى الكَرى ... كيف ارتجاع صِباى بعد تكهّلِ
وإذا تجدّد لى أخٌ ومُنادم ... جددتُ ذِكرَ أخ خليل أول
لا كثرة الإحسان تُنسى حَسْرتى ... هيهات تَذهب عِلتى بتعلّل
لو كنتُ أعلم أنَّ آخر عهدهم ... يومَ الرحيل فعلتُ ما لم أفعل

وله فى شكوى الزمان :

إنى وإن عزّنى نَيل المُنى لأرى ... حرصَ الفتى خلة زِيدت على العدمِ
تقلدتنى الليالى وهى مُدبرة ... كأننى صارمٌ فى كفّ مُنهزم

وأنشد فى المعنى :

عِتاباً عسى أن الزمان له عُتْبى ... وشكوى فكم شكْوى ألانت له القلْبا
إذا لم يكن إلا إلى الدّمع راحةٌ ... فلا زال دَمْع العَين مُنْهملا سَكْبا

وقال أيضاً :

وما بُلوغ الأمانى فى مَواعدها ... إلا كأشعب يَرْجو وعد عُرقوبِ
وقد تخالفَ مكتوب القضاء به ... فكيف لى بقضاء غير مكتوب

ومن شعره فى الحكم قوله :

أُحذَر محاسنَ أوجه فقدت محا — سن أنْفس ولو أنها أقمارُ
سُرُج تلوح إذا نظرت فإنها — نورٌ يضىء وإن مَسست فنَار

وقوله :

لا تسأل الناسَ والأيامَ عن خبرٍ — هُما يَبُثّانك الأخبارَ تطْفيلاً
ولا تُعاتب على نقصِ الطباعِ أخاً — فإنّ بدرَ السما لم يُعْطَ تكميلا
لا يُؤيسنّك من أمرٍ تَصعُّبه — فالله قد يُعقب التّصعيب تَسْهيلا
بِع مَن جفاك ولا تبخل بسِلْعته — واطْلب به بدلاً إنْ رام تبديلا
وصيرَّ الأرض داراً والورى رَجلاً — حتى تَرى مُقبلاً فى الناس مَقبولا

وله :

إذا صحب الفتى سعدٌ وجدٌّ — تحامته المَكاره والخُطوب
ووافاه الحبيبُ بغير وَعْد — طُفيليًا وناد له الرَّقيب

وله أيضاً :

ياثاوياً فى مَعشر — قد أُصطلى بنارِهمْ
إن تبك مِن شِرارهم — على يدى شِرارهم
أو ترْم مِن أحجارهم — وأنت فى أحجارهم
فما بقيتَ جارهم — ففى هواهم جارِهم
وأرضهم فى أرضهم — ودارهم فى دارهم

ومن كلامه فى التغزل قوله فى ليلة أنس :

ولقد نعمتَ بليلة جَمُد الحَيا — بالأرض فيها والسماء تَذُوبُ
جَمع العشاءين المُصلّى وانزَوى — فيها الرقيبُ كأنه مَرْقوب
والكأس كاسيةُ القميص كأنها — لوناً وقدراً مِعْصم مَخْضوب
هى وَرْدة فى خَدّه وبكأسها — تحت القَنانى عسجدٌ مَصْبوبُ

منى إليه ومن يَديه إلى يدى فالشمسُ تَطْلع بيننا وتَغيب

وقوله أيضاً :

قامت تجُرُ ذُيولَ العَصْب والحِبَر ضعيفةُ الخطو والميثاق والنَّظر
تخطو فتولى الحصا من حَليها نبذاً وتخلط العَنبر الوَرْدِيّ بالعفر
تلفَّتت عن طلا ، وسنان وابتسمتْ عن واضح مثل نُور الروضة العَطر
ما لذّ للعين يومٌ بعد ما ذكرتْ ليلاً سَمَرناه بين الضالِ والسَّمر
تساقط الطلُّ مِن فوق النُّحور به تساقُطَ الدر فى اللَّبات والثَّغر

وله من خمرية سمية :

خليلَ النفس لا تخلى الزجاجا إذا بحرُ الدُّجى فى الجوّ ماجا
وجاهرَ فى المُدامة من يرائى فما فوق البَسيطة من يُداجى
أمِط عنك الكرى والليلُ ساجٍ ودَعنا نَلْبس الظلماء ساجا
وهاتِ على اهتمام الرُّوح راحاً يعدّ هم النفوس لها افتراجا
إذا مرِّيخها اتقد احمراراً صَببنا المُشترى فيها مِزاجا

وله :

بكيتُ دماً والقاصرات سوافِر فلاحتْ خدودٌ كلهن مُورَّد
وقد وَقف الواشون فى كل وَجْنة على مَحضر فيه المَدامع تَشهد

وله :

يقول لى العاذلُ فى لَومه وقولُه زُور وبُهتان
ما وجْه مَن أحببته قِبْلة قلتُ ولا قولُكَ قرآن

وقال :

قل للعَذول لو اطلعت على الذى عاينته أعناك ما يُعنينى
أتصدّنى أم للغرام تردّنى وتلومنى فى الحب أم تغرينى

دَعنى فلستُ مُعاقباً بجنايتى | إذ ليس دينك لى ولا لك دِينى

وقال فيمن اسمه عمر :

يا أعدلَ الناس أسماً كم تجور على | فؤاد مُضناك بالهجْرانِ والبَيْن
أظنّهم سَرقوك القاف من قمر | فأبدلوها بعَـينِ خيفة العَين

وله أيضاً :

غيرى جَنى وأنا المُعاقب فيكمُ | فـكأننى سَبَّابة المُتندّم

وقال يمدح أستاذه الـكاتب أبا الحسن علىّ بن أبى الرجال :

جاورْ عليًّا ولا تَحْفل بحادثةٍ | إذا ادّرعت فلا تَسأل عن الأَسلِ
اسمٌ حكاه المُسمى فى الفِعال فقد | حاز العليّين من قَوْل ومن عَمل
فالماجدُ السيِّد الحُر الـكريم له | كالنّعت والعَطف والتوكيد والبَدل
زان العُلا وسواه شانَها وكذا | تميز الشمسُ فى الميزان والحَمل
وربمـا عابه ما يَفخرون به | يَشْنامن الخَصْرما يَهوى من الـكَفل
سَلْ عنه وأُنطق به وانظرُ إليه تجد | مِلْءَ المَسامع والأفواه والمُقَـل

ومن نظمه فى أنواع شتى

قال فى العود :

سقى الله أرضاً أنبتتْ عُودكَ الذى | زكتْ منه أغصانٌ وطابتْ مغارسُ
تَغنّى عليها الطيرُ والعودُ أخضرُ | وغَنّت عليه الغِيد والعودُ يابس

وقال فى الدرهم والدينار :

ألا رُب شىء فيه من أَحرف أُسمِهِ | نواه لنـا عَنه وزَجْر و إنذار
فُتِنّـا بدينار وَهِمنـا بدِرْهم | وآخر ذا همّ وآخر ذا نار

وقال من قصيدة فى وصف سيف :

إن قلت ناراً أتندَى النار مُلهبة | أو قلت ماءً أيَرمى الماء بالشَّرَر

وله من أخرى :

وقد وَخطت أرماحهم مَفْرق الدُّجى فبان بأطرافِ الأسـنة شائباَ

ومن نثره ما كتبه مستعطفاً على محبوس فى دين :

قد حكَمتَ بسِجْن الأشباح ، وهى سُجون الأرواح ؛ فامنُن على ما شئت منهما بالسراح ، فالحبس نزاع الأرواح ؛ والعقلة أُخت القتلة ، وكلاهما فَقْد ، ومهر للخطوب ونقد ؛ وإنما بينهما نَفَس مُتصاعد ، وأجل مُتباعد ؛ فألحقْ منهما ما أجّلت بما عَجّلت ، وقد أخرنا الدين ، إلى يوم الدين .

ومن منثور كلامه فى (أبكار الأفكار) :

لما فنى عمر الأمس ، وطفئ سراجُ الشمس ؛ لاحت بُروق الثغور اللوامع ، وجلجلت رعود الأوتار فى المسامع ، وبُعث مُخارق وابنُ جامع ؛ فلم يزل ذلك دأبنا ، ما أقلع سحابنا ؛ حتى مسأنا هجعه ، وكلنا نقول بالرجعة .

وله فى القرابة :

الوجيه بين أقاربه ، كالوادى بين مَذانبه ؛ تجذبن ماءه ، وتطلبن ظماءه .

وفى العداوة :

كم قاطَعك مَن راضَعك ، وقابَحك من مالَحك ، ونافَقك من وافقك ، وناصبَك من صاحبَك ، وحادّك من وادّك .

فى أنواع شتى :

الجود أنصر من الجنود . مَن بخل بماله ، سَمح بعرض آله . الباذل كثيرُ العاذل . الكريم كثير الغريم . احذَر الكريم إذا افتقر ، واللئيمَ إذا اقتدر . احذَر التقيّ إذا أنكر ، والذكى إذا فكّر . المَطْل أحد المَنعين ، واليأس أحدُ الصنعين . العِشق أحد الرِّقّين ، والسلوّ أحد العِتقين . رَفث الكلام أحد السِّفاحين ، ومُوالاة القُبل أحد النِّكاحين . جميل الردّ أحدُ الجودين ، وبقاء الذكر أحدُ الخُلودين . طول الجُمود

أحد القَبرَين ، و بقاء الثناء أحد العُمرين . بأس النصيرُ التّقصير . المُتحاسر خاسر . من كَثر فُجْره ، وَجب هَجره . من كرُمتْ خصاله ، وَجب وصالُه . سحابةُ صيف ، وزيارة طَيف . الوسيلة جَناح النَّجاح . رُبّ عين إذا رأت زَنت . لا كَرَم بمن حرم . المُستلم أحزم من المُتسلم .

هذا ما قصدنا إيرادَه هنا ، على أن ما جمعناه من كلام هذا الأديب البارع هو أطولُ من ذلك ، وقد لاقينا صُعوبات جمة فى نظم ما تشتت ، إذ لا يوجد تأليف يحوى تراجم فضلاء القطر التونسى ، والله المسؤل الإعانة .

ح . ح . ع

بسم الله الرحمن الرحيم

رب أعن برحمتك

قال أبو عبد الله محمدُ بنُ شرفِ القيروانى : هـذه أحاديثُ صنعتُها مختلفة الأنواع ، مُؤتلفة فى الأسماع ؛ عربيّات المَواشم ، غَريبات التراجم ، واُختلفت فيها أخباراً فصيحاتِ الـكلام ، بديعات النظام ؛ لها مَقاصد ظِرافٍ ، وأسانيد طِراف ؛ يَروق الصغيرَ معناها ، والـكبير مغزاها . وعزوتُها إلى أبى الرّيان الصّلت بن السّكْن ، من سَلامان (1) ، وكان شيخاً هِمّا فى اللسان ، وبدرا تما فى البَيان ؛ قد بقى أحقابا ، ولقى أعقابا ؛ ثم ألقتْه إلينا من باديته الأزمات ، وأوردتْه علينا العَزمات ؛ فامتحنّا من علمه بحراً جاريا ، وقدحنا من

---

(1) سلامان (بفتح أوله) : ماء لبنى شـيبان على طريق مكة إلى العراق ، وبه مات نوفل بن عبد مناف . قال حاتم :

إذا حال دونى من سلامان رملة   وجدت توالى الوصل عنـدى أبترا

(من معجم ما استعجم لأبى عبد الله البكرى ج ٣ ص ٧٧٦ طبعة غوتنغن سنة ١٨٧٦) . وفيما يظهر لنا أن ابن شرف اختار سلامان الذى هو اسم منزل لبنى شيبان تذكاراً للقبيلة التى ينتسب إليها أحد أساتذته ومحسنيه ، أبو الحسن على بن أبى الرجال الشيبانى رئيس قلم الإنشاء فى دولة المعز بن باديس الصنهاجى ، كما ذكرناه فى ترجمة المؤلف .

فهمه زَنداً واريا ؛ وأدرنا مِن برّه طَرفا ، واُجتنينا من ثمره طُرفا ؛ ونحن إذ ذاك والشبابُ مُقتبل ، وغفلة الزمان تهتبل ؛ واحتذيتُ فيما ذهبتُ إليه ، ووقع تعريضى عليه ؛ مِن بث هذه الأحاديث ما رأيتُ الأوائل قد وضعته فى كتاب كليلة ودمنة ، فأضافوا حِكَمه إلى الطير الحوائم ، ونَطقوا به على ألسنة الوَحش والبهائم ؛ لتتعلق به شهواتُ الأحداث ، وتُستعذب بسَمره ألفاظُ الحداث . وقد نحا بذا النحو سهل بن هارون[1] الكاتب فى تأليفه كتاب « النمر والثعلب » . وهو مشهور الحكايات ، بديع المراسلات ، مليح المكاتبات . وزوّر أيضا بديعُ الزمان الحافظ الهمذانى ، وهو الأستاذ أبو الفضل أحمد بن الُحسين[2] مقامات كان يُنشئها بديهاً فى أوخر مجالسه ويَنسبها إلى راوية رواها له يُسميه عيسى بن هشام ، وزعم أنه حدّثه بها عن بليغ يُسميه أبا الفتح الإسكندرى ، وعددها ، فيما يزعم رُواتها ، عشرون مقامة . إلا أنها لم تصل هذه العدّة إلينا ، وهى مُتضمنة معانى مختلفة ، ومَبنية على معانى شتى غير مؤتلفة ؛ لينتفعَ بها من الكُتّاب والمحاضرين مَن صرفها من هَزل إلى جد ، ومن ندّ إلى ضد .

فأقمت من هذا النحو عشرين حَديثاً ، أرجو[3] أن يتبيّن فضلها ، ولا تُقصِّر عما قبلها . ولعمرى ما أشكُر من نفسى ، ولا أُثنى على شىء من حسّى ، إلا ظَفَرى بالأقل مما

---

(١) أبو عمر سهل بن هارون بن راهبون الدستميسانى ، أصله فارسى وانتقل إلى البصرة واتصل بخدمة المأمون فتولى رياسة خزانة الحكمة ببغداد . وكان حكيما فصيحا شاعرا شعوبى المذهب شديد التعصب على العرب ، وله مصنفات كثيرة تدل على بلاغته وحكمته ، منها : كتاب (ثلة وعفرة) وكتاب (نصمة وعصرة) عارض بهما كتاب كليلة ودمنة فى أبوابه وأمثاله وزاد عليه بحسن النظم . أما كتاب (النمر والثعلب) الذى نسبه إليه ابن شرف هنا فلم نقف على ذكره فى تآليفه .

(٢) بديع الزمان ، توفى (سنة ٣٩٨) . ومقاماته تبلغ أربعمائة ، كما ذكره إبراهيم الحصرى القيروانى فى كتابه (زهر الآداب) حيث قال : « إن الذى سبب للبديع تأليف مقاماته هو أنه رأى أبا بكر بن الحسين بن دريد قد أغرب بأربعين حديثا ذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، وأنتجها من ينابيع فكره ، على طبع العرب الجاهلية ، بألفاظ بعيدة وحشية ، فعارضه البديع بأربعمائة مقامة . . . » إلا أن المتداول بين الناس خمسون مقامة فقط . والمظنون أن فى عصر ابن شرف لم يصل إلى إفريقية سوى عشرين منها .

(٣) بالأصل : « وأرجوا » .

حاولته ، على ما أضرمته نيران الغُربة من قلبى ، وثلمته صَعقات الفِتنة من لُبّى : وقطعت أهوالُ البر والبحر من خَواطرى ، وأضعفت الوحشةُ من غرائزى و بصائرى . لكنّ نيّة القاصد وسَعة المقصود ، أعانا ذا الودّ على إتحاف المَودود . والله أسأل توفيقاً ، ينهج لنا إلى الرّشد طريقاً . فمنها :

قال[١] محمد : وجاريتُ أبا الرّيّان فى الشّعر والشُّعراء ومَنازلهم فى جاهليّتهم وإسلامهم[٢] ، واستكشفته عن مَذهبه فيهم ، ومَذاهب طَبقته فى قَديمهم وحديثهم[٣] . فقال : الشعراء[٤] أكثرُ من الإحصاء ، وأشعارُهم أبعدُ من شُقة الأستقصاء . فقلت : لا أعنتك[٥] بأكثر من المشهورين ، ولا أُذاكرك إلاّ فى المذكورين[٦] ؛ مثل الضلّيل ، والقتيل ؛ ولَبيد ، وعَبيد ؛ والنوابغ والعُشى[٧] ، والأسود بن يعفر وصَخر الغَى[٨] ؛ وابن الصمّة دُريد ، والراعى عُبيد ؛ وزَيد الخَيل ، وعامر بن الطُّفيل ؛ والفرزدق وجرير ، وجميل بن معمّر وكثير ؛ وابن جندل وابن مقبل ، وجرول والأخطل ؛ وحسّان فى هِجائه[٩] ومَدحه ، وغَيلان فى ميته وصَيدحه ؛ والهذلى بن ذُؤيب[١٠] ، وسُحيم ونُصيب ؛ وابن حِلّزة الوائلىّ ، وابن الرّقاع العاملىّ ؛ وعَنترة العَبسىّ ، وزهير المُزّى[١١] ؛ وشعراء فَزارة ، ومُفلق بنى زُرارة ، وشعراء تَغلِب ، ويثرب . وأمثال هذا النمط الأوسط كالرماح ، والطرماح ؛ والطثرىّ والدّمينىّ ؛ والكُميت الأسدى ؛ وحُميد

(١) من هنا فقط تبتدئ النسخة الأندلسية .
(٢) بالنسخة الأندلسية : « فى ذكر أهل النظام ، ومنازلهم فى الجاهلية والإسلام » .
(٣) هذه الجملة مفقودة من النسخة الأندلسية .
(٤) بالنسخة الأندلسية : « عدد الشعراء » .
(٥) كذا بالنسخة التونسية . وفى الأصل : « أعتبك » .
(٦) من « ولا أذاكرك » إلى « المذكورين » مفقود من النسخة الأندلسية .
(٧) كذا بالنسخة الأندلسية . وفى الأصل : « العشوء » .
(٨) بالنسخة الأندلسية : « ومن سواه من العمى » .
(٩) بالنسخة الأندلسية : « فى أهاجيه » .
(١٠) بالنسخة التونسية : « وأبو ذؤيب الهذلى » .
(١١) بالنسخة التونسية : « المزنى » ، وهو أيضا صحيح .

الهلالى ، وبشار العُقيلى ؛ وابن أبى حَفصة الأموى ، ووالبة الأسدىّ ، وابن جَبلة الحلمى ، وأبى نواس الحَكَمىّ ؛ وصريع الأنصارى ، ودِعْبِل الخزاعى ؛ وابن جهم القُرشى ، وحَبيب الطائى ؛ والوليد البُحترى ، وابن المُعتز العباسى ؛ وعلىّ بن العبّاس الرومى ، وابن رُغبان الحمصى . ومن الطبقة المُتأخرة فى الزمان ، المتقدّمة فى الإحسان ، كأبى فراس ابن حَمْدان ، والمتنبى بن عَبدان ؛ وابن جدار المِصرى ، وابن الأحنف الحنفى ؛ وكُشاجم الفارسى ، والصّنوبرى الحلبى ؛ ونَصر الخُبزرزى[١] ، وابن عبد ربه القُرطبى ؛ وابن هانىء الأندلسى ، وعلى بن العباس الإيادى[٢] التّونسى ، والقَسْطلى .

قال أبو الريَّان : لقد سميتَ مشاهير ، وأبقيت الكثير . قلت : بلى ، ولكن ما عندك فيمن ذكرت ؟ قال : أما الضليل[٣] مؤسس الأساس ، وبنيانه[٤] عليه الناس ؛ كانوا يقولون « أسيلة الخد » ، حتى قال « أسيلة مجرى الدمع » ، وكانوا يقولون « تامة القامة » و « طويلة القامة » و « جيداء » و « نامة العنق » وأشباه هذا حتى قال : « بعيدة مهوى القرط[٥] » . وكانوا يقولون فى الفرس السابق : « يلحق الغزال والظليم » وشبهه ، حتى قال : « قيد الأوابد[٦] » . ومثل هذا له كثير . ولم يكن قبله مَن فطن لهذه الإشارات

(١) بالنسخة التونسية : « الخبزرى » .

(٢) بالنسخة الأندلسية : « الإياذى » ، وعلى بن عباس الإيادى هذا من فحول الشعراء التونسيين خدم بشعره الأمراء العبيديين أواسط القرن الرابع وكان معاصراً لأبى القاسم محمد بن هانى الأندلسى .

(٣) الضليل : هو امرؤ القيس بن حجر الكندى حامل لواء شعراء الجاهلية .

(٤) بالنسخة التونسية : « بنيانه » .

(٥) لم نعثر فى شعر امرىء القيس على هذه الجملة ولا التى قبلها . وأول من استعمل لفظ « القرط » فى نظمه هو عمر بن أبى ربيعة ، حيث يقول :

بعيدة مهوى القرط اما لنوفل ... ابوها واما عبد شمس وهاشم

كما أن الأخطل هو أول من وصف الخد بالسهولة وذلك فى قوله :

أسيلة مجرى الدمع اما وشاحها ... فجار واما الحجل منها فما يجرى

(٦) إشارة إلى قول امرىء القيس :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وهذا البيت يعد من ابتداعات امرىء القيس ومخترعاته .

والاستعارات غيره . فأُمتثلوه بعده . وكانت الأشعار قبلُ سواذج ، فبقيت هذه جُدداً وتلك نواهج ؛ وكل شعر بعدما خلاها فغير رائق النّسج ، و إن كان النهج .

وأما طرفة فلو طال عمره ، لطال شعره ، وعلا ذكره . ولقد خُص بأوفر نَصيب من الشعر ، على أيسر نصيب من العمر ؛ فملأ أرجاء ذلك النصيب بصُنوف من الحِكمة ، وأوصاف[1] من علو الهمة ؛ والطبع معلم حاذق ، وجَواد سابق .

وأما الشيخ أبو عَقيل فشعرُه ينطق بلسان الجَزالة ، عن جَنان الاصالة ؛ فلا تَسمع له إلاّ كلاماً فصيحاً ، ومعنى مبيناً صريحاً ؛ و إن كان شيخَ الوَقار ، والشرفِ والفَخار ؛ لبادئاتٍ فى شعره وهى دلائلُه ، قبل أن يُعلم قائلُه .

وأما العَبسىّ[2] فمُجيد فى أشعاره ، ولا كمعلّقته فقد انفرد بها أنفرادَ سُهيل ، وغَبر فى وجوه الخَيل ؛ وجَمع فيها بين الحلاوة والجزالة ، ورقّة الغَزل وغِلْظة البسالةِ ؛ وأطال وأستطال ، وأمن السآمة والكَلال .

وأما زُهير فأى زُهير ، بين لهَوات زُهير ؛ حِكم فارس ، ومَقامات الفوارس ؛ ومَواعظ الزهّاد ، ومُعتبرات العباد ؛ ومَدْحَ يكْسب الفخار ، و يَبقى بقاءَ الأَعصار ؛ ومُعاتبات مرّة تَحْسن ، ومرّة تَخْشن ؛ وتارة تكون هَجْواً ، وطَوراً تكاد تَعود شكرا .

وأما ابن حِلزّة[3] فسهل الحزون ، قام خطيباً بالمَوزون ؛ والعادة أن يُسهل شَرح الشعر بالنثر ، وهذا أسهل السّهل بالوَعر ؛ وذلك مثل قوله :

أبرموا أمرَهم عشاء فلمّا أصبحوا أصبحت لهم ضَوضاءُ[4]

---

(١) من هنا يبتدئ النقص بالنسخة التونسية . فأتممنا ما ضاع من النسخة الأندلسية .
(٢) العبسى : هو عنترة بن شداد .
(٣) هو الحارث بن حلزة بن مكروه بن زيد اليشكرى البكرى ، أحد شعراء الجاهلية المجيدين .
(٤) البيتان من معلقته المشهورة التى مطلعها :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

يقال إنه ارتجلها بين يدى عمرو بن هند فى شىء كان بين بكر وتغلب بعد الصلح ، وكان ينشده من وراء سبعة ستور . فأمر عمرو برفع الستور عنه استحساناً لها . وتروى «أجمعوا» بدل «أبرموا» .

مِن مُنادٍ ومن مُجيب ومن تَصـ ـهال خَيـــل خلالَ ذاك رُغاء

فلو أجتمع كلُّ خطيب ناثر ، من أوّل وآخر ؛ يصفون سَفْراً نهضوا بالأسحار ، وعسكراً تُنادى بالنُّهوض إلى طلب الثار : ما زادوا على هذا إن لم ينقصوا منه ، ولم يقصروا عنه . وسائر قصيدته فى هذا السلك شكاية وطلاب نَصَفة ، وعِتاب فى عزّة وأنفة ؛ وهو من شعراء وائل ، وأحَدُ أسنة هاتيك القبائل .

وأما ابن كلثوم : فصاحب واحدة بلا زيادة ؛ أنطقه بها عزُّ الظَّفر ، وهَزّه فيها جِنّ الأشر ؛ فقعقعت رُعوده فى أرجائها ، وجَعجعت رَحاه فى أثنائها ؛ وجعلتها تغلبُ قبلتها التى تصلّى إليها ، وملّتها التى تعتمد عليها ؛ فلم يتركوا إعادتها ، ولا خلعوا عبادتها ؛ إلا بعد قول القائل :

أَلهى بنى تغلب عن كُلِّ مَكْرمة قصيدةٌ قالها عمرُو بنُ كلثوم[(١)]

على أنها من القصائد المحقَّقات ، وإحدى المُعلّقات .

أما النابغة زِياد ، فأشعاره الجِياد ؛ لم تخرج عن نار جَوانحه حتى تناهى نُضْجها ، ولا قُطعت من مِنوال خَواطره حتى تكاثَف نَسْجها ؛ لم تُهلهلها مَيعة الشباب ، ولا وهاء الأسباب ، ولا لُؤم الاكتساب ؛ فشعره وسائط سلوك ، وتيجان ملوك .

وأما النابغة الجعدىّ ، فنقىُّ الكلام ، شاعر الجاهلية والإسلام ؛ وأُستحسن شعرَه أفصحُ الناطقين ، ودعا له أصدقُ الصادقين ؛ وكان شاعراً فى الأُفتخار والثناء ، قصيرَ الباع لشرفه عن تناول الهجاء ؛ وكان مغلوباً فيه فى الجاهلية ، وطريدَ ليلى الأخيلية .

وأما العُشى بأجمعهم فكلهم شاعر ، ولا كَميمون بن قيس شاعرِ المدح والهجاء ، واليأس والرخاء ؛ والتصرُّف فى الفنون ، والسعى فى السُّهول والحزون ؛ نفق مَدحُه بنات

(١) قائل البيت مجهول ، وأتبعه ابن قتيبة بيت آخر وهو :

يفاخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسئوم !

المحلّق ، وكان فى فقر ابن المُذلَّق[١] ؛ وأبكى هجوُه علقمة[٢] ، كما تبكى الأمة .

وأما الأسود بن يعفر فأشعرُ الناس إذا ندب دولةً زالت ، أو بكى حالةً حالت ؛ أو وصف ربعاً خلا بعد عمران ، أو داراً درست بعد سُكّان ؛ فإذا سَلَك هذا السبيلَ ، فهو من حَشْو هذا القبيل ؛ كعمرو وزيد ، وسعد وسُعيد .

وأما حسان ، فقد أُجتث بواكر غسّان ؛ ثم جاء الإسلام ، وانكشف الإظلام ؛ فحاش عن الدِّين ، وناضل عن خاتَم النبيّين ؛ فشَعر وزاد ، وحسن وأجاد ؛ إلا أن الفضل فى ذلك لرَبّ العالمين ، وتسديد الروح الأمين .

وأما دريد بن الصمة ، فصِمّة صمم ، وشاعِرُ جشم ، وغَزل ـرم ؛ وأول من تغزّل فى رثاء ، وهَزل فى حُزن و بكاء ؛ فقال فى معبد أخيه ، قصيدته المشهورة يرثيه :

أرثّ جديد الحبل من أم معبد[٣]

وهى من شاجيات النوائح ، وباقيات المَدائح .

وأما الراعى عُبيدفجُبل على وصف الإبل فصار بالراعى يُعرف ، ونسى ماله من الشرف .

وأما زيد الخيلِ فخطيبُ سِجاعة ، وفارس شَجاعة ؛ مشغول بذلك ، عما سِواه من المَسالك .

وأما عامر بن الطُّفيل فشاعرُهم فى الفَخار ، وفى حِماية الجار ؛ وأوصفهم لـكريمة ، وأبعثهم لحميد شيمة .

وأما ابن مُقبل فقديم شعرُه ، وصليبٌ نَجْره ؛ ومغلى مدحه ، ومُغلى قِدْحه .

وأما جَرول فخبيث هجاؤه ، شريف ثناؤه ؛ رفع شعره من الثّرى ، وحطّ من الثريا ،

---

(١) ابن المذلق ، من عبد شمس ، لم يكن يجد بيت (قوت) ليلة ولا أبوه ولا أجداده ، فقيل : أفلس من ابن المذلق .

(٢) هو علقمة بن علاثة ، هجاه أعشى ميمون دفاعا عن عامر بن الطفيل بأبيات مطلعها :

علقم ما أنت إلى عامر النـا　　فض الأوتار والواتر

(٣) قال ابن الـكلبي : لا أعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة (عمدة ـ باب الرثاء) :

أرث جديد الحبل من أم معبد　　بعافية قد أخلفت كل موعد

وأعاد بلطافة فكره ، ومتانة شعره ؛ قبيح الألقاب ، فخراً يبقى على الأحقاب ، ويتوارث في الأعقاب .

وأما أبو ذؤيبٌ فشديد ، أمير الشعر حكيمهُ ، شغله فيه التجريبُ حديثُه وقديمه ؛ وله المَرْثية النقيّة السّبك ، المتينة الحبك ؛ بكى فيها بَنِيه السبعة ، ووصف الحمار فطوّل ، وهي التي أولها :

أمن المَنون ورَيبه تتوجّعُ [١]

وأما الأخطل فسَعد من سُعود بني مروان ، صفت لهم مرآة فِكره ، وظفروا بالبديع من شعره ؛ وكان باقعةً [٢] من حاجاه ، وصاعقة من هاجاه .

وأما الدارمي همام [٣] فجوهرُ كلامه ، وأغراض سهامه ؛ إذا افتخر بمُلك أبن حَنظلة ، وبدارم في شَرف المنزلة ؛ وأطول ما يكون مدًى إذا تطاول اختيارُ جرير عليه بقَليله على كثيره ، وبصَغيره على كبيره ؛ فإنه يُصادمه حينئذ ببَحر مادّ ، ويُقاومه بسيفٍ حادّ .

وأما ابن الخطفى [٤] فزُهد في غَزل ، وحَجر في جَدل ؛ يسبح أولاً في ماء عَذب ، ويطمح آخراً في صخر صلبٍ ؛ كلْبُ منابحة ، وكبش مُناطحة ؛ لا تفُل غربَ لسانه مُطاولة الكِفاح ، ولا تدمى هامتَه مداومةُ النِّطاح ؛ جارَى السوابقَ بعطيّة ، وفاخر غالب بعطيّة ؛ وبلّغته بلاغته إلى المساواة ، وحملته جُرأته على المجاراة ؛ والناس فيهما فريقان ، وبينهما عند قوم فَرْقان .

وأما القيسان [٥] وطبقتهما ، فطبقةُ عَشِقةٍ وتَوَقة ؛ استحوذتِ الصبابةُ على

---

(١) وبقية البيت : « والدهر ليس بمعتب من يجزع » .

(٢) الباقعة : الداهية والذكى العارف لا يفوته شىء ولا يدهن .

(٣) الدارمى همام ، هو الفرزدق الشاعر المشهور .

(٤) ابن الخطفى : هو جرير بن عطية بن الخطفى التميمى الشاعر المشهور ، المتوفى سنة ٢١٠ وكانت بين جرير هذا والفرزدق مهاجاة ونقائض متبعة بتأليف خاص .

(٥) أولهما : قيس بن الملوح مزاحم بن قيس العامرى المشهور بمجنون ليلى ، وأشعاره فيها متداولة بين الناس . وثانى القيسين هو قيس بن ذريح الكنانى ، رضيع الحسن بن على بن أبى طالب توفى فى حدود السبعين للهجرة . وغالب أشعاره فى معشوقته لبنى بنت الحباب .

أفكارهم ، وأستفرغتْ دواعى الحب مَعانى أشعارهم ؛ فـكلهم مَشغول بهَواه ، لا يتعداه إلى سواه .

وأما كُثير ، فحسن النَّسيب فصيحُه ، نظيف العتاب مليحه ، شجىّ الأُغتراب قريحُه ؛ جامعٌ إلى ذلك رقائقَ الظُّرفاء ، وجَزالةَ مدح الخلفاء .

وأما الـكميت والرماح ، ونُصيب والطرماح ، فشعراء مُعاصرة ، ومناقضات ومُفاخرة ؛ فنُصيب أمدح القوم ، والطرماحُ أهجاهم ؛ والرّماح أنسبُهم نسيباً ، والـكميت أشبَهم تَشبيباً .

وأما بشار بن برد ، فأول المحدثين ، وآخر المخضرمين ؛ وممن لحَق الدولتين . عاشقٌ سَمع ، وشاعر جَمع ؛ وشعره ينفق عند ربات الحجال ، وعند فحول الرجال ؛ فهو يَلين حتى يَستعطف ، ويقوى حتى يَستنكف ؛ وقد طال عمرُه ، وكثر شعرُه ، وطما بحرُه ، ونقب فى البلادِ ذكره .

وأما ابنُ أبى حَفصة (1) فمن شعراء الدولتين ، وممن حظى بالنعمتين ، ووصل إلى الغِنَى بالصّلَتين ، وكان دَرِب المعْول ، ذَرِب المِقْول ؛ والدَ شُعراء ، ومُنجب فصحاء .

وأما أبو نُواس ، فأول الناس فى خَرْم القِياس ، وذلك أنه ترك السيرة الأولى ، ونـكّب عن الطريقة المثلى ؛ وجعل الجدّ هزلا ، والصعبَ سهلا ؛ فهلهل المسرّد ، وبلبل المُنضِّد ، وخلخل المُنجد ؛ وترك الدعائم ، وبنى على الطامى والعائم ؛ وصادف الأفهام قد نـكلت ، وأسباب العَربيّة قد تخلخلت وانحلّت ؛ والفصاحات الصحيحة قد سُئمت ومُلّت ؛ فمال الناس إلى ما عَرفوه ، وعَلقت نفوسُهم بما ألفوه ؛ فتهادَوْا شعرَه ، وأغلوا سِعْره ؛ وشُغفوا بأسخفه ، وكلفوا بأضعفه . وكان ساعده أقوى ، وسراجُه أضوى ؛ لـكنه عَرض الأنفق ، وأهدى الأوفق ؛ وخالف فشُهر وعُرف ؛ وأغرب فذكر واستظرف . والعوام تختار هذه الأعلاق ، وأسواقُهم أوسعُ الأسواق ؛ فشعر أبى نواس ، نافق عند هـذه

(1) هو أبو السمط مروان بن أبى حفصة سليمان بن يحيى بن أبى حفصة يزيد ، من الشعراء المجيدين والفحول المتقدمين ، ولد سنة ١٠٥ وتوفى عام ١٨١ ببغداد ، وله نوادر كثيرة .

الأجناس ، كاسد عند أنقد الناس . وقد فَطِن إلى أستضعافه ، وخاف من أستخفافه ؛ فاستدرك بفَصيح طروده ، طرفا حد اللسان وحدوده . وهو محدود فى كثرة التظاهر ، على من غَضّ منه بالحق الظاهر ، ليس إلا لخفّة رُوح المجُون ، وسهولة الـكلام الضعيف المَلْحون ؛ على جُمهور العوام ، لا على خواصّ الأنام .

وأما صَريع[1] فـكلامُه مُرصّع ، ونظامه مُصنع ؛ وجُملة شعره صحيحةُ الأصول ، مصنّعة الفصول ، قليلة الفضول .

وأما العباس بن الأحنف فمُعتزل بهواه ، وبمعزل عما سواه ؛ دفع نفسه عن المَدح والهجاء ، ووضعها بين يدى هَواه من النّساء ؛ قد رَقّق الشغفُ كلامَه ، وثقفت قوةُ الطبع نظامَه ؛ فله رقّة العشاق ، وجَوْدة الحذاق .

وأما دعبل ، فمـدّ يدَ مُقبِل ؛ اليوْم مدح ، وغداً قدح ؛ يُجيد فى الطريقتين ، ويسىء فى الخليقتين ؛ وله أشعار فى العصبية . وكان شاعر علماء ، وعالم شعراء .

وأما على بن الجهم ، فرشيق الفهم ، راشقِ السهم : استوصل بشعره الشرفاء ، ونادم الخلفاء ؛ وله فى الغزل الرصافيّة ، وفى العتاب الداليّة ؛ ولو لم يكن له سواهما ، لـكان أشعَرَ الناس بهما .

وأما الطائى حبيب ، فمُتكلّف إلا أنه يصيب ، ومتعب ، لـكن له من الراحـة نصيب ؛ وشُغله المطابقة والتجنيس ، وحبذا ذلك أو بيس ؛ جزل المعانى ، مرصوص المغانى ؛ ومدحه ورثاؤه ، لا غزله وهجاؤه ؛ طرفا نقيض ، وخطب سماء وحضيض ؛

(١) صريع الغوانى ، لقب لشاعرين ، الأول القطامى ، واسمه عمير بن شييم ابن أخت الأخطل . سمى بذلك لقوله :

صريع غوان راقهن ورقنـه ... لدن شب حتى شاب سود الذوائب

والثانى وهو الذى قصده ابن شرف هنا هو مسلم بن الوليد الانصارى من شعراء الدولة العباسية ؛ لقبه الرشيد بصريع الغوانى لقوله :

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا ... وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

ومولد مسلم بالـكوفة . ووفاته سنة ٢٠٨ هجرية . وهو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع .

وفى شعره علم جم من النّسب ، وجملة وافرة من أيام العرب ؛ وطارت له أمثال ، وحُفظت له أقوال ؛ وديوانه مقرو ، وشعره متلو .

قال ابن بسام : أما صفته هـذه لأبى تمام فمنصفة لم يَثْنِ عِطفَها حَمِيّة ، ولا تعلّقت بذيلها عصبيّة ؛ حتى لو سَمِعها حبيبٌ لاتخذها قِبلة ، واعتمدها مِلّة ؛ فما لام مَن أدّب وإن أوْجَع ، ولا سَبّ من صَدق وإن أقْذع .

وأما البحترىّ فلَفظه ماء ثجّاج ، ودُرّ رَجْراج ، ومعناه سراج وَهّاج ، على أهدى مِنْهاج ؛ يَسبقه شِعره ، إلى ما يجيش به صَدْره ؛ يُسْر مُراد ، ولين قياد ؛ إن شَربْته أرواك ، وإن قَدحته أورَاك ؛ طَبع لا تكلّف يُعييه ، ولا العِناد يَثنيه ؛ لا يُمِل كثيرُه ، ولا يُستكاف غزيزه ؛ ولم يَهْف أيامَ الحُلمُ ، ولم يَصف زَمن الهرم .

وأما ابن المُعتز فملِكُ النّظام ، كما هو مَلكُ الأنام ؛ له التّشبيهات المثليّة ، والأستعارات الشّكلية ؛ والإشارات السِّحرية ، والعبارات الجِرية ؛ والتصاريف الصُّوفية ، والطرائق الفُنونية ؛ والأفتخارات المُلوكية ، والهِمّات العُلْويّة ؛ والغزل الرائق ، والعتاب الشائق ، والوصف الحَسن الفائق :

وخيرُ الشّعر أكرمُه رجالاً   وشرُّ الشعر ما قال العَبيدُ [1]

وأما ابن الرومى [2] فشجرةُ الأختراع ، وثمرة الأبتداع ؛ وله فى الهجاء ، ما ليس له فى الإطراء ؛ فتح فيه أبواباً ، ووصل منه أسباباً ، وخلع منه أثواباً ، وطوّق فيه رِقاباً ، يَبْقين أعماراً وأحقاباً ؛ يطول عليها حسابُه ، ويُمحق بها ثوابه ؛ ولقد كان واسعَ العَطن ، لطيف الفِطن ، إلا أنّ الغالب عليه ضعف المَريرة ، وقوة المِرّة .

وأما كُشاجم فحكيم شاعر ، وكاتب ماهر ؛ له فى التّشبيهات غرائب ، وفى التّأليفات عجائب ؛ يُجيد الوصف ويُحققه ، ويسبك المعنى فيرقّقه ويروقه .

---

(١) البيت للفرزدق هجا به نصيبا ، وقد يروى : « أشرفه رجالا » عوض « أكرمه رجالا » .
(٢) هنا ينتهى النقص الذى بالنسخة التونسية .

وأما الصّنوبرى ففصيح الكلام غريبُه ، مليح التّشبيه عجيبُه ؛ مُستعمِلٌ لشواذّ القوافى ، يغسل كُدرتها بمياه فَهْمه الصّوافى ؛ فتجلو وتدقّ ، وتعذُب وترقّ[١] ؛ وهو وَحيد[٢] جنْسه فى صِفة الأزهار ، وأنواع الأنوار . وكان فى بعض أشعاره يتخالَع ، وفى بعضها يَتشاجع ؛ وقد مَدح وهجا ، ونَثر وشجا[٣] ؛ وأعجبَ شعرُه وأطرب ، وشَرّق وغرّب ؛ ومدح من أهل إفريقية أميرَ الزاب ، جعفرَ بن علىّ[٤] مُنفق سُوق[٥] الآداب ؛ فوَصله بألف دِينار ، بعثها إليه مع ثِقات التجّار[٦] .

وأما الُخبْزرزّى[٧] فخليعُ الشعرِ ماجنُه ، رائق اللّفظ بائنُه ؛ كثيرةٌ محاسنُه ، صحيحةٌ أصولُه ومعادنه ؛ رائقة البزّة ، مائلة إلى العِزّة ؛ تُسلّيه عن الحب الخِيانة ، ويَروقه الوفاء والصِّيانة ؛ وله على خُشونة خَلْقه ، وصُعوبة خُلقه ؛ اختراعاتٌ لطيفة ، وابتداعات طَريفة[٨] ؛ فى ألفاظ كَثيفة . وفُصول قليلة الفضول نظيفة : حتى إنّ بعض كُبراء الشعراء اُهتدم أشياء مِن مبانيه ، واُهتضم طَرفا[٩] من معانيه ؛ وهو من مُعاصريه ، فقلّ مَن فَطن لمراميه .

وأما أبو فراس بن حَمدان ، ففارس هذا المَيدان ؛ إن شئتَ ضرباً وطَعناً ، أو لَفظاً ومَعنى ؛ مَلكَ زماناً ، ومُلِك أواناً . وكان أشعرَ الناس فى المملكة ، وأشعرَهم فى

---

(١) بالنسخة التونسية : « فيجل ويدق ويعذب ويرق » .

(٢) بالنسخة التونسية : « جيد جنسه » .

(٣) بالنسخة الأندلسية : « سر » بدل « نثر » .

(٤) هو أبو على جعفر بن على بن أحمد بن حمدان أمير الزاب من أعمال افريقية ومؤسس مدينة المسيلة بالمغرب ، وقد حار به الأمير بلكين الصنهاجى صاحب القيروان واستظهر عليه ، ففر جعفر إلى الأندلس وبها قتل سنة ٣٦٤ هـ . ولأبى القاسم محمد بن هانىء الشاعر الأندلسى فى جعفر المذكور مدائح فائقة تراجع فى ديوانه .

(٥) بالنسخة التونسية : « سلع » عوض « سوق » .

(٦) من « بعثها إلى التجار » مفقود بالنسخة الأندلسية .

(٧) الخبز رزى ، ويروى أيضاً : الخبز أرزى ، وهو أبو القاسم نصر بن أحمد بن نصر بن ميمون الشاعر البصرى المتوفى سنة ٣١٠ .

(٨) بالنسخة الأندلسية : « طريفة » .

(٩) بالنسخة الأندلسية : « تطرفا » عوض « طرفا » .

ذلّ الملكة [١] . وله الفخريات التى لا تُعارض ، والأسْريات التى لا تُناقض [٢] .

وأما المُتنبى فقد شُغلت به الألسن ، وسَهرت فى أشعاره العُيون الأعين ؛ وكثر الناسخُ لشعرِه ، والآخذ لذكره ، والغائص فى بَحره ؛ والمُفتش فى قَعره ، عن جُمانه [٣] ودرّه ؛ وقد طال فيه الخُلف ، وكثر عنه الكشف . وله شيعة تغلو [٤] فى مَدحه ، وعليه خوارجُ تَتعايا فى جَرْحه . والذى أقول : إن له حسنات وسيئات ، وحسناتُه أكثر عدداً ، وأقوى مدداً ؛ وغرائبه طائرة ، وأمثاله سائرة ؛ وعلمه فسيح ، وميزه صحيح ؛ يروم فيقدّر ، ويدرى ما يورد ويُصدر .

قال أبو الريّان [٥] : هذا ما عندى من شعراء المشرق ، وقد سمّيتَ لى من مُتأخرى شعراء المغرب مَن لعمرى لا يَبعد عن مُعاصِرهم ، ولا يُقصّر عن سابقهم .

فأما ابنُ عبد ربّه القُرطبى ، و إن بعدت عنك دياره [٦] ، فقد صاقبتنا أشعارُه . وقفنا على أشعار صَبوته الأنيقة ، وتكفيرات توبته الصَّدوقة ؛ ومدائحه المَرْوانية ، ومَطاعنه فى العبّاسية . وهو فى كل ذلك فارس مُمارس ، وطاعن مُداعس ؛ واطّلعنا فى شعره على علم واسع ، ومادّة فهم مضىء ناصع ؛ ومن تلك الجواهر نظم عقده ، وتركه لمن يتجمّل به بعده .

وأما ابنُ هانىء محمد الأندلسى ولادة ، القَيروانى وفادة و إفادة ؛ فرعدىّ الكلام ، سردىّ النظام ؛ مَتين [٧] المبانى ، غيرَ مكين المثانى ؛ تجفو بعَطنها عن الأوهام ، حتى تكون كنُقطة النظام ؛ إلا أنه إذا ظهرت معانيه ، فى جَزالة مَبانيه ؛ رمى عن مَنجنيق ،

(١) بالنسخة الأندلسية : « الملك » عوض « الملكة » .
(٢) بالنسخة الأندلسية : « تناهض » .
(٣) بالنسة الأندلسية : « جمانه » بدل « جمانه » .
(٤) بالنسختين : « تعلو » .
(٥) من « قال أبو الريان » إلى « فأما عبد ربه » مفقود من النسخة الأندلسية .
(٦) بالنسخة التونسية : « وإن بعدت عنا ذكر » .
(٧) من « متين » إلى « كنقطة النظام » مفقود من النسخة الأندلسية .

يؤثّر فى النّيق ؛ وله غزل قفرى ، لا عُذْرى ؛ لا يَقنع فيه بالطّيف ، ولا يَشفع فيه[(١)] بغير السّيف ؛ وقد نوّه به ملك الزّاب ، وعَظّم شأنه بأجزل الثواب ؛ وكان سيفَ دولته ، فى إعلاء مَنزلته ؛ من رجل يستعين على صلاح دنياه ، بفسادِ أُخراه ، لرداءة عقله ، ورقة دِينه ، وضَعف يَقينه . ولو عَقل لم تَضق عليه[(٢)] معانى الشعر ، حتى يَستعين عليها بالكفر .

وأما القَسْطلى[(٣)] فشاعرٌ ماهر ؛ عالم بما يقول ، تشهد له العقول ، بأنه المُؤخّر بالعَصر ، المُقدّم فى الشعر ؛ حاذق[(٤)] بوَضع الكلام فى مَواضعه ؛ لاسيّما إذا ذكر ما أصابه فى الفتنة ، وشكا ما دهاه فى أيام المحنة . وبالجملة فهو أشعر أهل مَغربه ، فى أبعد الزمان وأقربه .

وأما علىّ التونسى فشعرُه المَورد العذب ، ولفظه اللؤلؤ الرّطب ، وهو بُحترىّ الغَرب ؛ يصف الحَمام ، فيروق الأنام ؛ ويُشبِّب ، فيُعشّق ويُحبّب ؛ ويمدح ، فيمنَح أكثرَ ما يُمنح .

هذا ما عندى فى المتقدِّمين والمُتأخرين ، على احتقار المُعاصر ، واستصغار المُجاور ، فحاش الله من الأوصاف ، بقلة الإنصاف ؛ للبعيد والقريب ، والعدو والحبيب .

قلت : يا أبا الريان[(٥)] ، أكثر الله مثلك فى الإخوان ، ووقاك محذور الزمان ، ومُرور الحَدثان ؛ فلقد سُبكتَ فهماً ، وحُشيت علماً[(٦)] .

* * *

---

(١) بالنسخة الأندلسية : « يشبع » بدل « يشفع » .

(٢) بالنسخة التونسية : « عنه » بدل « عليه » .

(٣) القسطلى : هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج القسطلى الأديب المطبوع المتوفى سنة ٤٢١ هـ . والقسطلى : نسبة إلى قسطيلية : إحدى الولايات بجزيرة الأندلس .

(٤) بالنسخة الأندلسية : « يوقع » بدل « يوضع » .

(٥) من قوله : « كثر الله » إلى « محذور الزمان » مفقود من النسخة الأندلسية .

(٦) هنا تنتهى النسخة الأندلسية وفى آخرها ما نصه : « نجزت المقامة بأسرها والحمد لله رب العالمين وصلواته على محمد خاتم النبيين وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين وسلامه » . ثم عقب ذلك بخط غير منقوط : « طالعته فى موفى سنة خمس وخمسمائة » . وعليه فتكون النسخة الموجودة الآن باسبانيا « كتبت قريبا من عهد المؤلف »..

قال محمد : قلت لأبى الريّان فى مجلس ، عُقيب هذا المجلس : يا أبا الريان ، لقد رأيتُ لك نقداً مُصيباً ، ومَرمى عَجيباً ، ولقد أرغبُ فى أن أنال منه نصيباً . قال : النقدُ هِبة المولد . وفيـه زيادة طارف إلى تالد ؛ ولقد رأيتُ عُلماء بالشّعر ورُواة له ليس لهم نَفاذ فى نَقْده ، ولا جَودة فَهْم فى رديِّه وجيِّده ؛ وكثيرٌ ممن لا علم له يَفطن إلى غوامضه ، و إلى مُستقيمه ومُتناقضه . قلت : أنا شـديدُ الرغبة إلى فضلك ، فى أن تُمهمنى من ميزك وعَقلك ؛ ما أستهدى بسِراجه ، على مُستقيم منهاجه ؛ فأقف مِن سرائره على بعض ما وقفت ، وأعرف من مفاخره ومعانيه جزء مما عَرفت . قال : نعم أول ما عليه تَعتمد ؛ و إياه تعتقد ؛ أن لا تَستعجل باُستحسان ولا باستقباح ، ولا باستبراد ولا باستملاح ؛ حتى تُنعم[(١)] النظر ، وتَستخدم الفِكر . واعـلم أنّ العجلة فى كُل شىء مَوطِئ زَلُوق ، ومركب زَهُوق ؛ فإنّ من الشعر ما يملأ لفظُه المسامع ، ويردّ على السامع منه قَعاقع ؛ فلا يَرُعْك شَماخة مَبناه ، وانظر إلى ما فى سُـكناه من معناه ؛ فإن كان فى البيت ساكن ، فتلك المَحاسن ؛ و إن كان خالياً ، فاُعده جسماً بالياً . وكذلك إذا سمعتَ ألفاظاً مُستعملة ، وكلمات مُبتذلة ؛ فلا تَعجل باُستضعافها ، حتى تَرى ما فى أضعافها ؛ فكم من مَعنى عَجيب ، فى لفظ غريب ؛ والمعانى هى الأرواح ، والألفـاظ هى الأشباح ؛ فإن حَسُنا فذلك الحظ الممدوح ، و إن قَبُح أحدُهما فلا يكن الرُّوح .

قال : وتحفَّظ عن شيئين : أحدُهما أن يَحملك إجلالُ القديم المذكور على العَجلة باُستحسان ما تَستمع له ؛ والثانى أن يَحملك إصغارُك المعاصر المَشهود على التهاون بما أنشدت له ؛ فإن ذلك جَور فى الأحكام ، وظُلم من الحُـكام ؛ حتى تُمحِّص قولها ، فحينئذ تحكم لها أو عليهما . وهذا باب فى اُغتلاقه اُستصعاب ، وفى صَرف العامَّة و بعض الخاصة عنه إتعاب . وقد وصف تعالى فى كتابه الصادق تشبّث القلوب بسيرة القَديم ، ونفارها من المُحدث الجديد ، فقال حاكياً لقولهم : (إنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلَى أُمَّة) . وقال : (لَنْ

(١) تنعم : مثل تمعن .

نَعْبُدَ إلاَّ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) . وقد قلت أنت :

أُغْرِى الناسُ بامتداح القديمِ ، وبذمِّ الجـديدِ غير ذَميمِ[1]

ليس إلا لأنهم حَسَدوا الحى ورَقُّوا على العِظام الرَّميم

وقلت فى هذا المعنى :

قُل لمن لا يَرَى المُعاصر شيئاً ويرى للأوائل التقـديما

إنَّ ذاك القديمَ كان جديداً وسَيغدو[2] هذا الجديدُ قديما

فلا يَرُعك أن تجرى على منهاج الحق ، فى جميع الخَلق ؛ فبه قامت السمواتُ والأرض ، وبه أُحكم الإبرام والنَّقض ؛ وسأُمثّل لك فى ذلك مثالاً ، وأملأ أسماعك مقالاً ، وفهمك عدلاً وأعتدالاً :

هذا أمرؤ القيس ، أقدمُ الشعراء عصراً ، ومقدَّمهم شعراً وذكراً ؛ وقد اتسعت الأقوال فى فَضله ، اتساعاً لم يَفُز غيره بمثله ؛ حتى إن العامة تظنّ بل توقن أنَّ جواد شعره لا يكبو[3] ، وحُسامَ نَظمه لا ينبو[4] ؛ وهيهات من البشر الـكمال ، ومن الآدميِّين الاستواء والأستدلال ؛ يقول فى قصيدته المقدَّمة ، ومعلقته المفخمة :

ويومَ دخلتُ الخدر خِدْر عُنيزة فقالت لك الويلاتُ إنك مُرْجلى

فما كان أغناه عن الإقرار بهذا ، وما أشك[5] غفلتَه عما أدركه من الوَصمة به ! وذلك أن فيه أعداداً كثيرة النَّقض والبَخس ؛ منها دخولُه متطفّلا على من كَره دخوله عليه ، ومنها قول عُنيزة له « لك الويلات » ؛ وهى قولة لا تقال إلا لخسيس ، ولا يقابل بها رئيس . فإن احتجّ مُحتجّ بأنها كانت أرأس منه . قيل له : لم يكن ذلك ، لأن الرئيسة

---

(١) أورد البيتين العلامة الشريشى فى شرحه الـكبير لمقامات الحريرى . وروى : « أولع » بدل « أغرى » و « الحديث » بدل « الجديد » و « مالوا » عوض « رقوا » ، وقوله « ذميم » أصلها « غير الذميم » ، كما أنه أورد لفظ « ورقوا » فى البيت الثانى ، والأحسن عندى أن تقرأ « فرقوا » .

(٢) بالأصل : « سيغدوا » .

(٣) بالأصل : « يكبوا » .

(٤) بالأصل : « ينبوا » .

(٥) كذا بالأصل ، ولعله « أشد » .

لا تركب بعيراً يَدْرج أو (يمو) ت[١] إذا ازداد عليه ركوب راكب ، بل هو بعير فقير حقير . فإن احتج له بأنه صبر على القول من أجل أنها معشوقة ، قيل له وكيف يكون عاشقاً لها من يقول لها :

فمثلك حُبلى قد طَرقت ومُرْضعاً فألهيتها عن ذى تمائم مُحول

وإنما المعروف للعاشق الانفراد بمَعشوقته واطّراح سواها ، كالقيسين فى لَيلى ولُبنى ، وغَيلان بميَّة ، وجميل ببُثينة ، وسواهم كثير . فلم يكن لها عاشقاً ، بل كان فاسقاً[٢] . ثم أهجنُ هُجنة عليه ، وأسخن سُخنة لعينيه ، إقرارُه بإتيان الُحبلى والمُرضع ؛ فأما الُحبلى فقد جَبل الله النفوس على الزُّهد فى إتيانها ، والإعراض عن شأنها ؛ منها أن الحبَل علّة وأشبهُ العِلل بالاُستسقاء ، ومع الحبَل كُمود اللون ، وسُوء الغذاء ، وفَساد النَّكهة ، وسُوء الخُلق ، وغير ذلك . ولا يميل إلى هذا مَن له نفس سُوقى ، دع نَفس مُلوكى . وأعجب من هذا أن البهائم كلها لا تنظر إلى ذوات الحمل من أجناسها ، ولا تَقرب منها حتى تَضع أحمالها ، أو تُفارق فُصلانها . ثم لم يَكفه أن يذكر الحُبلى حتى أفتخر بالمُرضع ، وفيها من التلويث بأوضار رضيعها ، ومن اهتزالها واشتغالها عن أحكام اغتسالها . وقد أخبر أن ذا التمائم المُحول متعلّق بها بقوله « فألهيتها عن ذى تمائم محول » ، وأخبر أنها ظئر ولدها لا ظئر له ولا مُرضع سواها ، فدلّ بذلك على أنها حقيرة وقيرة ، ومثل هذه لا يَصبو[٣] إليها من له همة . وهذه الصفاتُ كلها تَستقذرها نفس الصُّعلوك والمملوك .

وقد قال أيضاً فى مَوضع آخر من هذا الباب من قصيدة أخرى :

سموتُ إليها بعد ما نام أهلُها سُمو حَباب الماء حالاً على حالِ

---

(١) هنا أثر أكل أرضة أفسد اللفظ .

(٢) قال أبو فرج قدامة بن جعفر فى نقد الشعر : « إنى رأيت من يعيب امرأ القيس فى قوله : « فمثلك حبلى » (البيت) ، ويذكر أن هذا معنى فاحش . وليس فحاشة المعنى فى نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه كما لا يعيب جودة النجارة فى الخشب مثلا رداءته فى ذاته » . وهذا يعارض انتقاد ابن شرف على البيت المتقدم .

(٣) بالأصل : « يصبو » .

فقالت لحاك[١] الله إنك فاضحى ألستَ ترَى السُّمار والناسَ أحوالى[٢]

حلفتُ لها بالله حِلْفة فاجر لنامُوا فما إن من حديث ولا صالى[٣]

فأخبر ها هنا أنه هيِّن القدر عند النساء وعند نفسه برضاه قولها « لحاك الله » . فحصل على « لحاك الله » من هذه و « لك الويلات » من تلك . فشهد على نفسه أنه مكروه ومطرود ، غير مَرغوب فى مواصلته ، ولا محروص على معاشرته ، ولا مَرضىّ بمشاكلته . ثم أخبر عن نَفسه أنه رَضى بالحِنث والفُجور ، وهذه أخلاق لا خَلاق لها . ثم أقرّ فى مكان آخر من شِعره بما يكتمه الأحرار ، ولا ينمّ بفَتحه إلا الأوضاع الأشرار ، فقال :

ولما دنوتُ تسديتُها فثوباً نسيتُ وثوباً أجرّ

وأى فَخْرٍ فى الإقرار بالفضيحة على نفسه وعلى حُبه ! وأين هذا من قول يعقوب الخُزيمى :

ولا أسألُ الولدان عن وجه جارتى بعيداً ولا أرْعاه وهو قريبُ

وإنما سهّل عليه كلّ هذا حرصُه على ما كان ممنوعاً منه ، وذلك أنه كان مُبغضاً إلى النساء جداً ، مفروكاً ممن ملك عصبتها لأسباب كثيرة ذُكرت . وكُل مَن حَرص على نَيل شىء فمُنع منه فعلاً ، أدعاه قولاً . وله أشباهٌ فيما أتاه ، يدعون ما ادّعاه ؛ إفكاً وَزُوراً ، وكذِباً وفجوراً . منهم الفرزدق ، وهو القائل :

هما دلّيانى من ثمانين قامةً كما انقضّ بازٍ أقتمُ الريش كاسرُه

فهذا أول كذبة ، ولو قال : « من ثلاثين قامة » لكان كاذباً ، لتقاصر الأرشية عن ذلك . وقد قرعه جرير هذا فى قوله :

تدلّيت تَزنى مِن ثمانين قامةً وقصرتَ عن باع العُلى والمَكارمِ

---

(١) فى بعض نسخ ديوان امرئ القيس : « سباك » عوض « لحاك » .
(٢) بالأصل : « أحوال » . (٣) بالأصل : « صال » .

وكان مُغرماً بالزنا مُدّعياً فيه ، وقد بُلى بموانع تَصدفه عنه ، منها ما شُهر به من النميمة بمن ساعده ، والأدعاء على مَن باعده ؛ منها دمامتُه ومنها اشتهارُه ، والمشهورُ يَصل إلى شَهوة يتبعها ريبة ، فكان يكثر فى شعره من أُدعاء الزنا ، واستدعاء النساء ؛ وهن أغلظُ عليه من كبد بعير ، وأبغضُ فيه وأهجى له من جَرير . وخُذ أطرف هؤلاء الأجناس ، وهو سُحيم عبد بنى الحَسحاس ؛ أُسيود فى شَملة ، دنسة قملة ؛ لا يواكِله الغرثان ، ولا يُصاليه الصّرد العريان ، وهو مع ذلك يقول[1] :

وأقبلن مِن أَقصى البيُوت يَعدْنَنى نواهدَ لا يَعْرِفن خلقاً سوائيا
يَعدْن مريضاً هنَّ هَيّجن ما به ألا إنما بعضُ العوائد دائياً
تُوَسِّدنى كفّا وتحنو بمعْصَم علىَّ وترْمى رجلَها مِن ورائيا

فأنت تسمع هذا الأسود الشن وأُدعاءه ، وتعلم أن الله لو أخلى الأرض ، فلم يُبق رجلاً فى الطول ولا فى العَرض ؛ لم يكن هذا الزّنمة الزّلمة عند إدراك السّودان إلا كبعرة بعير ، فى مَعر عِير ؛ والممنوع من الشىء حريص عليه ، مُدّع فيه ؛ والمعدّ بما يهواه ، كاتم له مُستغن ببلوغ مُناه ؛ ودليل على ذلك أن المُرَقّش الأكبر[2] كان من أجمل الرجال ،

(١) هو سحيم عبد بنى الحسحاس بن هند ، شاعر مخضرم من الطبقة الأولى ، توفى فى نصف القرن الأول للهجرة ، وكان أسود وكلامه فصيح إلا أنه قليل وغير مدون . وأحسن شعره قصيدته التى أولها :

عميرة ودع إن ترحلت غاديا كفى الشيب والإسلام المرء ناهيا

وهى التى اقتبس منها ابن شرف الأبيات المارة . وقد ورد منها فى كتاب الأغانى (طبعة مصر ج ٢٠ ص ٥) القطعة الآتية لا غير :

تجمعن من شتى ثلاثاً وأربعا وواحدة حتى كملن ثمانيا
وأقبلن من أقصى الخيام يعدننى بقية ما أبقين نصلا يمانيا
يعدن مريضاً هن هيجن داءه ألا إنما بعض العوائد دائيا

(٢) المرقش الأكبر ، واسمه عمرو ، وقيل عوف بن سعد بن مالك ، ينتهى نسبه لبكر بن وائل ، شاعر جاهلى لقب بذلك لقوله :

الدار قفر والرسوم كما رقش فى ظهر الأديم قلم

وهو أحد عشاق العرب المشهورين وصاحبته ابنة عمه أسماء . وكان المرقش يحسن الكتابة الحميرية ، كما ورد فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة .

وكانت للنساء فيه رغبة ، وشدة محبة ؛ وكان كثير الأجتماع بهنّ ، والوصول إليهن ؛ وله في ذلك أخبار مروية ، ولم يكن في أشعاره صفة شيء من ذلك . فحسبك بذلك صحّة على ما قلناه . فإن قال قائل : إنما وصفت عن امرئ القيس عيوباً من خُلقه لا في شعره . قلنا : هل أراد بما وصف في شعره إلا الفَخر . فإن قال : لم يُرد ذلك وإنما أراد إظهار عَيبه . قلنا : فأحمق الناس إذاً هو ، ولم يكن كذلك . وإن قال : نعم ، الفخر . قلنا : فقد نَطق شعرُه بقدر ما أراد ، وترجم[1] عنه قريضه بأقبح الأوصاف . فأى خلل من خلال الشعر أشدّ من الانعكاس والتناقض . وكُل ما يُخزى من الشعر فهو من أشد عُيوبه .

قال : ومن كلام امرئ القيس المُخلخل الأركان ، الضعيفُ الاستمكان ، المتزلزل البنيان ، قوله :

أمَرْخٌ خيامُهم أم عُشر أم القلب في إثرهم منحَدِرْ
وشاقذ بين الخليط الشطر[2] وممن[3] أقام من الحي هِرْ
وهرٌّ تَصيد قلوبُ الرجال وأفلَتَ منها ابنُ عمرو حُجُرْ

فأنت تسمع هذا الكلام الذى لا يتناسب ، ولا يتواصل ولا يتقارب ، ولا يحصل منه معنى ولا فائدة ، سوى أنّ السامع يدرى أنه يذكر فُرقة من أحباب ، لكنّ ذلك عن ترجمة معجمة ، مضطربة مُنقلبة . سأل عن الخيام : أمرخ[4] هى أم عشر[5] ؟ وليست

(١) فى الأصل : « وتزجم وترجم » وظاهر أن صوابه ما أثبتنا .

(٢) رواية هذا الشطر فى الديوان : « أم الظاعنون بها والشطر » وقد جاء عجزاً لا صدرا ، وفى بعضها : « شاقذ بين الخليط الشطر » بالمصراع الآتى : « أم الظاعنون بها فى الشطر » .

(٣) فى الديوان : « وفى من » ، ويروى : « أفى من » .

(٤) المرخ (بالفتح) : شجر سريع الورى يقتدح به ، والمرخ (بالكسر) : الشجر اللين الرقيق .

(٥) العشر : شجر فيه حراق لم يقتدح الناس فى أجود منه ، ويحشى فى المخاد ، ويخرج من زهره وشعبه سكر وفيه مرارة . قال أبو حنيفة : « والعشر من العضاه ، وهو من كبار الشجر وله صمغ حلو وهو عريض الورق صعدا فى السماء » . وفى الصحاح : « وعرته نفاخة كنفاخة القتاد الأصفر » (أقرب الموارد) .

الخيام مرخاً ولا عشراً ، وإنما هما عودان(١) . فإن أراد فى مكان هذين الخيام ، فقد نقض عمدة الكلام ، لأن مرخه وعشره أتى بهما نكرتين فأشكل بذلك . وإنما يجوز لو جعلهما معرفة بالألف واللام ، والوزن لا يساعده على ذلك ، ثم قال :

* أم القلب فى إثرهم مُنحدر *

وليس هذا السؤال من السؤال الأول فى شىء إلا من بعد بعيد ، واحتيال شديد . وقال بعد هذا :

وشاقذ بين الخليط الشطر وممن أقام من الحى هرّ

فأتى بكثير كلام لا يُفيد إلا قليل معنى . وذلك القليل لا غريب ولا عجيب ، وهو كُله ذكر فراق . ثم رجع إلى أن « هر » فقيمة تصيد قلبه وقلب غيره ، فأبطل بإقامتها كل ما قال من أخبار الفراق ونقضه ، وجعل بكاءه المتقدم لغير شىء . ثم قال :

* وأفلت منها ابن عمرو حجر *

فحسن عنده أن يخبر أن الناس قد صادت هر قلوب جميعهم إلا قلب حجر أبيه . وهذا من الأحاديث الركيكة ، والأخبار التى ما بأحد حاجة إليها(٢) . ومع هذا فقد أورد أصحاب الأخبار أن « هر » هذه كانت زوجة أبيه حجر . فانظر ما فى جملة هذه الأبيات من الركاكات ، وقلة الإفادات ؛ فإنها لا تفيد قلامة ، ولا تهز ثمامة . ولسنا ننكر بهذه العيوب ونزارتها ، ما أقررنا له به من الفضائل ونَدارتها ؛ وستجد من لا يصدق معاصرا ، ولا يصدق على متقادم متأخرا ؛ يبنى على ضعف أسه ، ويفديه من الجهل والعيب بنفسه .

(١) قال ابن رشيق : « كتاب العمدة باب التتبيع » : « ومن أعجب التتبيع قول امرئ القيس : « أمرخ خيامهم » (البيت) . يقول : انزلوا نجدا الذى من نباته المرخ أم الغور الذى من نباته العشر . وإن الأعراب يعملون خيامهم من نبات الأرض التى ينزلونها فإذا رحلوا تركوه واستأنفوا غيره من شجر البلد الذى ينزلون به » . ولا أرى العرب تذكر ذلك كثيرا فى أشعارها .

(٢) جاء فى عمدة ابن رشيق (باب الاستعارة) : فمنها قول امرئ القيس : « وهر تصيد قلوب » البيت ... فكأن لفظة « هر » واستعارة الصيد معها مضحكة هجينة . ولو أن أباه حجرا من فارات بيته ما أسف على إفلاته منها هذا الأسف ... لا على أن امرأ القيس أتى بالخطإ على جهته ، ولكن للكلام قرائن تحسنه وقرائن تقبحه ، كذكر الصيد فى هذين البيتين .

فإذا اعترضك مِن هذا النمط متعرض ، فأعرض عنه ودَعه على أخلاقه ، مستمتعاً بخَلاقه ، واتبع المسلك الذى أوضحته لك .

قال أبو الريان : وفضلاء الشّعراء كثير جداً ولـكلٍّ سقطات ، وسأقفك على بعضها لعظيم المؤونة فى الإحاطة ، بها ليس إلا ، لأوضح بذكرها منهجاً من مناهج النقد ، لا حرصاً على بُغض الفصحاء ، ولا قصداً إلى تَهجين الصرحاء . وأية رغبة لنا فى ذلك وهم جرثومة فروعنا ، وبهم افتخار جميعنا .

قال : زُهير بن أبى سُلمى على ما وَصفناه به ووصفه غيرُنا ، من العلو والرفعة ، فى هذه الصنعة ، من مُذهّبته الحـكمية ، ومعلقته العلمية :

رأيتُ المَنايا خَبط عَشواءَ مَن تُصِب ... تُمتْهُ ومن تُخطئْ يُعمَّر فيهرمِ

وقد غلط فى وصفها بخَبط العشواء ، على أننا لا نطالبه بحكم ديننا ، لأنه لم يكن على شرعنا ، بل نطلبه بحكم العقل فنقول : إنما يصح قوله لو كان بعض الناس يموت و بعضهم ينجو[(١)] ، وقد علم هو وعَلم العالم ، حتى البهائم ، أنَّ سهام المنايا لا تُخطئُ شيئاً من الحيوان حتى يعمها رَشقها ، فـكيف يُوصف بخَبط العشواء رامٍ لا يَقصد غرضاً من الحيوان إلاّ أقصده حتى يستـكمل رَمياته ، فى جميع رمياته . و إنما أدخل الوهمَ على زهير موتُ قوم عبطة وموت قوم هرماً ، وظنّوا طول العمر إنما سببه إخطاء المنية ، وسبب قِصره إصابتها . وهيهات الصواب من ظَنّه ! لم يؤخر الهرم إلا أنها قصدته فحين قصدته أصابته . ولو أن الرُّماة تهتدى كاهتدائها ، لملأت أيديها بأقصى رجائها .

وقال زهير أيضاً فى مُذهّبته :

ومَن لا يَذُد عن حَوْضه بسلاحه ... يُهدَّم ومن لا يَظلم الناسَ يُظلَمِ

وقد تجاوز هذا الحق الباطل ، و بنى قولا ينقضه جَريان العادة ، وشهادة المُشاهدة ؛ وذلك أن الظلم وعرةٌ مراكبه ، مذمومة عواقبه ، فى جاهليته وإسلامنا . فحرّض فى

(١) بالأصل : « ينجوا » .

شعره عليه ، وإن كان إنما أشار فى شعره إلى أن الظالم يُرهب فلا يُظلم ، فهذا قياس يَنْفسد ، وأصل ليس بطرد ، لكن يرهبه مَن هو أضعفُ منه ، وربما أُنتقم منه بالحيلة والمكيدة . وقد يَظلم الظالم مَن يغلبه فيكون ذلك سببَ هلاكه مع قباحة السِّمة بالظُّلم . والمثل إنما يضرب بما لا ينخرم ، وقد كانت له مَندوحة واتساع فى أن يقول : « يُهَدَّم ، ومَن لا يَظلم الناسُ يَظلِمِ » فهذا أصح وأسلمُ مِن مَن لا يَظلم ويُظلم .

قال أبو الريان : وقال زهير أيضاً ، وهو من أطيب شعره وأملحه عند العامة ، وكثير من الخاصة ، فها هنا تحفظ وتأمل ، ولا يَهُولَنْكَ ذلك منهم ، الحقُّ أبلج . قال :

تراه إذا ما جئتَه متهللا كأنك تُعطيه الذى أنت سائلُه(١)

مدح بها شريفاً أى شريف ، فجعل سروره بقاصده كسروره بمن يدفع شيئاً من عَرَض الدنيا إليه . وليس من صفات النّفوس العارفة السامية ، والهمم الشريفة العالية ، إظهار السرور إلى أن تَهلّل وجوهُهم وتُسر نفوسهم بهبة الواهب ، ولا شدّة الأبتهاج بعطية المعطى ، بل ذلك عندهم سقوط همة وصغر نفس . وكثير من ذوى النّفوس النّفيسة ، والأخلاق الرئيسة ، لا يظهر السرور متى رُزق مالاً عفواً بلا منّة مُنيل ، ولا يد مُعطٍ مستطيل ؛ لأنه عند نفسه أكبر منه ، ولأن قدر المال يقصر عنه ؛ فكيف يمدح ملك كبير كثير القدر ، عظيم الفخر ، بأنه يتهلل وجهه ويمتلئ سروراً قلبه ، إذا أعطى سائله مالاً . هذا نقض البناء ، ومحض الهجاء ، والفضلاء يفخرون بضدّ هذا ، قال بعضهم :

ولستُ بمفراح إذا الدهرُ سرّنى ولا جَزِع من صَرفه المتقلّب

وإنما غرّ زهيراً وغرّ المُستحسن بيته هذا ما جُبلوا عليه من حُب العطاء ، وما جرت به عاداتهم من الرغبة فى الهِبات والاستجداء ؛ وليس كُل الهمم تستحسن ذلك ، ولا كل الطباع تسلك هذه المسالك .

---

(١) البيت من قصيدة طويلة مدح بها حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى وأولها :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

قال أبو الريان : وقال زهير أيضاً يمدح سادة من الناس فذمَّهم بأنواع الذم ، وأكثرُ الناس على استحسان ما قال ، بل أظنّ كلهم على ذلك ، وهو قوله :

على مُكثِريهم حقٌّ من يَعْتريهمُ وعند المقلّين السماحةُ والبذْلُ[1]

فأول ما ذمّهم به إخباره أن فيهم مُكثرين ومُقلّين . فلو كان مكثروهم كُرماء لبذلوا لمقلّيهم الأموال ، حتى يستووا فى الحال ، ويُشبهوا فى الكرم والحال الذين قال فيهم حسان :

المُلحقين فقيرَهم بغنيِّهم والمُشفقين على اليتيم المُرْمل[2]

المرمل : القليل المال ، وأرمل الرجل : إذا قل زاده . وكما قال غيره :

الخالطين فقيرَهم بغنيِّهم حتى يعود فقيرُهم كالكافى

وكما قالت الخِرنق[3] :

الخالطينَ لُجينَهم بنُضارهم وذوى الغِنى منهم بذى الفَقْرِ

فهذا كُله ، وأبيك ، غايةُ المدح ، النقىّ من القَدح . ثم استمعْ ما فى هذا البيت سوى هذا من الخَلل والزلل . قال :

على مُكثريهم حقٌّ[4] مَن يعتريهمُ وعند المُقلِّين السماحةُ والبذْلُ

ففى هذا القسم الأول عيوب على المُكثرين منهم ، منها أنهم ضيّعوا القريب كما قدّمنا ، ورعَوْا حق الغريب ، وصلةُ الرحم أولى ما بُدِئَ به . ومن مكارم العرب حميتها لذوى أنسابها ، وذبّها عن أحسابها ؛ والأقرب فالأقرب ، وما فضل عن ذلك فللأبعد . ثم أخبر أنَّ المُكثيرين ليس يسمحون بأكثر من الاستحقاق فى قوله :

* على مُكْثريهم حقٌّ من يعتريهمُ *

(١) البيت من القصيدة التى مدح بها سنان بن أبى حارثة المرى ومطلعها :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل

(٢) جاء هذا البيت فى ديوان حسان بن ثابت (طبعة تونس سنة ١٢٨١ ص٧٢) على الصورة التالية :

والخالطون فقيرهم بغنيهم والمنعمون على الضعيف المرمل

(٣) هى الخرنق بنت بدر بن هفان ، أخت طرفة بن العبد لأمه ، وكانت شاعرة جاهلية جليلة توفيت قبل الإسلام بنحو سبعين سنة .

(٤) فى عدة نسخ من ديوان زهير ورد لفظ « رزق » بدل « حق » .

ومن أعطى الحق فإنما أنصف ولم يتفضّل بما وراء الإنصاف ، والزيادة على الإنصاف أمدح . ثم أخبر فى البيت أن المُقلين على قدر قُصور أيديهم أكرمُ طباعاً من مُكثريهم على قَدْرهم فى قوله :

* وعند المقلّين السماحةُ والبذْلُ *

والبذْل مع الإقلال مدحٌ عظيم وإيثار ، والسماحةُ إعطاء غيرُ اللازم ، فمدح بشعره هذا من لا يَحظى منه بطائل ، وذم الذين يرجو[1] منهم جزيلَ النائل ؛ وهذا غايةُ الغلط فى الأختيار ، وفى ترتيب الأشعار . ولزُهير غيرُ هذا من السَّقطات لولا كُلفة الاستقصاء . هذا على اشتهاره بأنه أمدح الشعراء ، وأجزل الوافدين على الأشراف والأمراء ؛ وسيتعامى المُتعصب له عن وضوح هذا البيان ، وسيُنكر جميعَ هذا البرهان ؛ ويجعل التَّفتيش عن غوامض الخطأ والصواب استقصاء وظلماً ، ومطالبة وهَضما . وزعم أن جميع الشعر لو طُلب هذه المُطالبة لبَطل صحيحُه ، وأنعجم فصيحُه . والباطلَ الذى زَعم ، والمُحال الذى به تكلم ؛ فالسليم سليم ، والكليم كَليم ؛ وإنما سمع المِسكين أنَّ أملح الشعر ما قلَّت عباراتُه ، وفُهمت إشاراته ؛ ولمحت لُمَحه ، ومَلُحت مُلحه ؛ ورقِّقت حقائقُه ، وحُققت رقائقه ؛ وأستُغنى فيه بلُمحه الدالة ، عن الدلائل المُتطاولة ؛ وأمثال هذا الكلام ، فى أستعمال النظام . فتوهّم أن خَلل الشّعر وزلله وضعف أركانه ، وتناقض بُنيانه ؛ وأنقلاب لفظه لَغو ، وأنعكاس مدحه هجو ؛ إذا خلا فيما قدّمنا من الأوصاف المُستحسنة ، من لُمَح إشاراته ، ومُلح عباراته . فعاملْ هذا الصنفَ ، بعطفك عنهم للعطف ، ورَفعك عليهم الأنف ، وأعرض عنهم بالفِكْر والذِّكر ، كبراً وإن لم تكن من أهل الكبر .

وفيما أطلعتك عليه من شعر هذين الفَحلين ، والمُتقدمَيْن القديمَين ، ما يُغنى عن التفتيش على سَقطات سواهما ، فقس على ما لم تَره بما ترى ، وأعلم أن كلَّ الصيد فى جوف الفرا .

---

(١) بالأصل : « يرجوا » .

قال أبو الريان : ومن عيوب الشعر اللحنُ الذى لا تَسعه فُسحة العربية ، كقول الفرزدق :

وعض زمانٌ يابن مروان لم يَدَعْ   من المال إلا مسحتاً أو مجلفُ

فرفع « مجلفاً » وحقه النصب . وقد تحيَّل له بعض النحويين بكلام كالضَّريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع . وكقول جرير بن الخطفى :

ولو ولدت فُقيرة جرو كَلب   لسب بذلك الجرو الكلابَا

فنصب « الكلاب » بغير ناصب . وقد تحيَّل أيضاً بعض النحويين على وجهٍ ، الإقفاء أحسن منه ، فاحذر هذا ومثله . وإياك وما يعتذر منه بفسيح من العذر ، فكيف بضيِّق ضنك .

قال : ومما يعاب به الشعر ويستهجنه النقد خشونةُ حروف الكلمة ، كقول جرير :

وتقول بَوزعُ قد دببتَ على العصا   هلّا هزئت بغيرنا يابوزع[(١)]

وهذا البيت فى قصيدة من أحلى قصائد جرير وأملحها ، وأجزلها وأفصحها . فثقُلت القصيدة كُلها بهذه اللفظة .

وللفرزدق أيضاً لفظات خشنة الحروف كهذه تجدها فى شعره . قال : ويكره النقادُ تعقيد الكلام فى الشِّعر وتقديم آخره وتأخير أوله ، كقول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملَّكا   أبو أمه حىّ أبوه يُناسبه[(٢)]

يمدح به إبراهيم بن هشام المخزومى ، وهو خال هشام بن عبد الملك . فمعنى هذا الكلام أن إبراهيم بن هشام ما مثله فى الناس حى إلا مملك . يعنى هشاماً أبا أمه ، أى جد هشام لأمه أبو إبراهيم هذا الممدوح ، فهو خاله أخو أمه ، فهو يشبهه فى الناس لا غير ، وهذا غاية التعقيد والتنكيد ، وليس تحته شىء سوى أنه شريف كابن أخته شريف .

---

(١) البيت من قصيدة فى مدح بعض بنى أمية . قيل لما وصل جرير فى إنشاده إلى هذا البيت قال له الأمير الممدوح : أفسدتها ببوزع .

(٢) وفى رواية : « يقاربه » بدل « يناسبه » . وقال صاحب كتاب الصناعتين : البيت فى مدح هشام بن إسماعيل .

قال أبو الريان : ومن شرِّ عيوب الشعر كُلها الـكسر ، لأنه يُخرجه عن نعته شعراً ، وليس مما يقع لمن نعت بشاعر . فأما الإقوء ، والإيطاء ، والسناد ، والإكفاء[1] ، والزحاف ، وصرف ما لا ينصرف ، فـكل ذلك يستعمل ، إلا أن السالم من جميع ذلك أجمل وأفضل .

قال : ومن عيوبه المذمومة مجاورة الـكلمة ما لا يناسبها ولا يقاربها ، مثل قول الـكُميت :

* حتى تـكامل فيها الدل والشَّنبُ[2] *

وكما قال بعض المتأخرين فى رثاء :

فإنك غُيبت فى حُفرة ... تراكم فيها نعيمٌ وحورُ

وإن كان النعيم والحور من مواهب أهل الجنة ، فليس بينهما فى النفوس تقارب . ولا لفظة « تراكم » مما يجمع بين « الحور » ولا « النعيم » . ومثله قول بعضهم :

والله لولا أن يقـال تغيَّرا ... وصباً وإن كان التصابى أجدرا

لأعاد تُفَّاح الخدود بَنفسجاً ... لثمى وكافورَ الترائب عنبرا

فالتفاح ليس من جنس البنفسج ، لأن التفاح ثمرة والبنفسج زهرة . وقد أجاد فى جمعه بين الـكافور والعنبر ، لأنهما من قبيل واحد . ولو قال :

لأعاد ورد الوَجنتين بنفسجاً ... لَثْمى وكافورَ الترائب عنبرا

لأجاد الوصف ، وأحسن الرصف ، لـكون الوَرد من قبيل البنفسج . فهذا النوع فافتقد ، وهذا الشرع فاعتمد .

قال أبو الريان : ولفُضلاء المولّدين سقطات مُختلفات فى أشعارهم . أذاكرك منها فى أشياء ، لتستدل بها على أغراضك ، لا لطلب الزلات ، ولا لأُقتفاء العثرات . كان بشَّار

(١) قال الخليل : الإقواء : أن يكون بعض القوافى مرفوعا وبعضها منصوبا وبعضها مخفوضا . والإكفاء : أن يكون بعض القوافى على حرف وبعضها على حرف آخر . والإيطاء : إعادة القافية من غير اختلاف المعنى . (كتاب خاص الخاص طبعة تونس ص ٥٩) .

(٢) وبكتاب الصناعتين : * خود تـكامل فيها الدل والشنب *

تتباين طبقات شعره ، فيصعد [صغيرها] كبيرها ، ويهبط قليلها كثيرها . وكذلك كان حبيبُ بن أوس الطائى . فإذا سمعتَ جيّدهما ، كذّبت أنّ رديّهما لهما ؛ وإذا صحّ عندك أنّ ذلك الرديّ لهما ، أقسمتَ أنّ جيدها لغيرهما .

قال : ومما يُعاب من الشِّعر الأُفتتاحات الثقيلة . مثل قول حبيب أولَ قصيدة :

هُنّ عوادى يوسفَ وصواحبُه فعزماً فقِدْماً أدرك الشأوَ طالبُه [(١)]

ومثل قول ديك الجنّ أولَ قصيدة :

كأنها يا كأنه [(٢)] خللَ الخـلّة وقف الهلوك إذ بغَما

فأبتدأ هو وحبيب بمُضمرات على غير مُظهرات قبلها ، وهو ردىء .

قال : ويُعاب أيضاً الأُفتتاحات المتطيّر بها ، والكلامُ المضادّ للغرض ، كأبتداء قصيدة أبى نُواس التى أنشدها الفضلَ بن يحيى بن خالد البرمكىّ يُهنئه ببُنيانه الدار الجديدة ، فدخل إليه عند كمالها وقد جلس للهناء والدعاء ، وعنده وجوهُ الناس ، فأنشده :

أرَبعَ البِلى إنّ الخُشوع لبادِى [(٣)] عليك وإنّى لم أخُنك ودادى

فتطيّر الفضلُ من ذلك ونكّس رأسه ، وتناظر الناسُ بعضُهم إلى بعض ، ثم تمادى فختَم الشعر بقوله :

سلامٌ على الدُّنيا إذا ما فُقدتمُ بنى بَرمك مِن رائحين وغادِى

فكَمل جهلُه ، وتم خطؤه ؛ وزاد القلوب المتوقّعة للخطوب سرعة توقّع ، وأضاف للنفوس المتوجّعة بذكر الموت شدة توجّع ؛ وأراد أن يَمدح فهجا ، ودخل ليسر فشجا .

قال : وقريب من هذا ما وقع للمتنبى فى أول شعر أنشده كافورا :

---

(١) قال أبو هلال العسكرى « كتاب الصناعتين » : لما نظر أبو العميثل فى قصيدة أبى تمام :

هن عوادى يوسف وصواحبه فعزما فقدما أدرك الثأر طالبه

استرذل ابتداءها فأسقط القصيدة كلها حتى صار إليه أبو تمام ووقفه على الإحسان منها فراجع عبد الله بن طاهر فأجازه .

(٢) روى ابن رشيق فى العمدة : « ما كأنه » بدل « يا كأنه » .

(٣) جاء فى ديوان أبى نواس : « البلا » عوض « البلى » و « لباد » بدل « لبادى » .

كفى بك داء أن ترى الموتَ شافياً وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانياً

فهذا خطاب بالكاف بفتح ولا سيّما فى أول لقية ، وفى أُبتداء واستعطاف ورقية . وفى هذا البيت غيرُ هذا من العيوب سنذكره بعد .

ووقع مثلُ هذا من قُبح الأستفتاح فى عصرنا ، وذلك أن بعض الشعراء أنشد بعض الأمراء فى يوم المِهرجان فقال :

لا تَقُل بُشْرى ولكن بُشْريان وجهُ من أهوى ووجه المِهْرجان(١)

فأمر بإخراجه ، وأُستطار بافتتاحه ، وحَرمه إحسانه .

قال أبو الريان : ولو كان هذا الشاعر حاذقاً لكان إصلاح هذا الفساد أيسرَ الأشياء عليه ، وذلك بأن يعكس البيت فيقول :

وجه من أهوى ووجه المِهرجان أى بُشرى هى لا بل بُشريان

قال : ويقبُح جدا الإتيان بكلمة القافية مُعجمة لا ترتبط بما قبلها من الكلام ، وإنما هى مفردة لحشو القافية ، كقول بعضهم :

فبلغت المنى برغم أعادي لك وأبقاك سالماً ربُّ هود(٢)

فأنت ترى غثاثة هذه القافية ، والله تعالى رب جميع الخلق وكل شىء ، فَخَص هوداً عليه السلام وحده لضعف نقده وعجزه عن الإتيان بقافية تليق وتحسن .

قال : ويقبح أيضاً الجفاء فى النَّسيب على الحبيب والتضجُّر ببُعده ، وغلاظة العتاب على صده ، كقول أبى نواس :

أجارة بيتينا أبوك غَيورُ ومَيْسورُ ما يُرجى لديك عسيرُ(٣)

---

(١) ورد عجز البيت فى كتاب الصناعتين هكذا : * غرة الداعى ووجه المهرجان * وقائل البيت أبو مقاتل ، أنشده الداعى ، فأوجعه الداعى ضرباً ثم قال : هلا قلت :

* إن تقل بشرى فعندى بشريان *

(١) قائل البيت أبو عدى القرشى ورواه قدامة (نقد الشعر ص ٨٩) :

ووقيت الحتوف من وارث وا ل وأبقاك صالحاً رب هود

(٣) هذه الأبيات من قصيدة فريدة مدح بها أبو نواس الخصيب بن عبد الحميد العجمى ثم المرادى أمير مصر . وقد يوجد بعض اختلافات فى روايتها منها البيت الثانى : « خلما » وهو الصديق أو الصاحب بدل « خلا » و « روحة » بدل « زوجة » و « دونى » عوض « منا » ، وفى البيت الثالث : « وصل » بدل « قرب » .

فإن كنتِ لا خلّا ولا أنت زوجةٌ فلا بَرِحت منّا عليك سُتور
وجاورتِ قوماً لا تَزاورَ بينهم ولا قُربَ إلا أن يكون نُشور

فلم أسمع بأوحش من هذا النسيب ، ولا أخشن من هذا التشبيب ، وذلك قوله : إن لم تكونى لى زوجة ولا صديقة فلا برحت منا سُتور للتراب عليك ، ولا كان جارك ما عشنا نحن إلا الموتى الذين لا يتزاورون ولا يتواصلون إلى يوم النشور . على أن كلامه يشهد عليه بأنه شاكٌّ ، وإنما المعروف فى أهل الرقة والظَّرف ، والمعهود من أهل الوفاء والعطف ؛ أن يَفدوا أحبابَهم بالنفوس ، من كل مكروه وبُوس ؛ فأين ذهبت ولادته البَصرية ، وآدابُه البغدادية ؛ حتى أختارَ الغدر على الوفاء ، وبلغت به طباعُه إلى أجفى الجفاء . فاعلم هذا وإياك أن تعمل به .

قال : ومن عيوب الشعر السرق . وهو كثير الأجناس ، فى شعر الناس . فمنها سرقة ألفاظ ، ومنها سرقة معان ؛ وسرقة المعانى أكثر لأنها أخفى من الألفاظ . ومنها سرقة المعنى كله ، ومنها سرقة البعض ، ومنها مسروق باختصار فى اللفظ وزيادة فى المعنى ، وهو أحسن المسروقات ؛ ومنها مسروق بزيادة ألفاظ وقصور عن المعنى ، وهو أقبحها ؛ ومنها سرقة محضة بلا زيادة ولا نقص . والفضل فى ذلك للمسروق منه ولا شىء للسارق ، كسرقة أبى نواس فى هذه القصيدة التى ذكرنا معنى أبى الشيص بكماله . قال أبو الشيص :

وقف الهوى بى حيثُ أنت فليس لى متأخَّر عنه ولا مُتقـدَّمُ (١)

فسرقه الحسن بكماله فقال :

فما جازه جودٌ ولا حلَّ دونه ولـكن يصير الجودُ حيث يصيرُ (٢)

فهذا هذا ، على أنَّ بيت أبى الشيص أحلى وأطبع ، ومع حلاوته جزالة . وقد ذُكر عن الحسن أنه قال : ما زلت أحسُد أبا الشيص على هذا البيت حتى أخذتُه منه . وسرقةُ

(١) قصيدة أبى الشيص التى مطلعها هذا البيت تعد من أبلغ ما قيل فى التشبيب .
(٢) ورد عجز البيت فى نسخة خطية من ديوان أبى نواس على هذه الصورة :
* ولـكن يسير المجد حيث يسير *

المعاصر سقوطُ همة . و بهذه القصيدة يُناضل أصحابُ الحسن عنه ويُخاصمون خُصماءه مقرِّين بأن ليس له أفضل منها ، ولا لهم إلى سوى هذه القصيدة مَعدِل عنها . فقِس بفهمك ، وأعمل فكرك ، على ما وَصفناه من أبواب السرق ما وجدته فى أشعار لم أذكرها ، يظهر لك جميع ما وصفناه ، و يبدو لك جميع ما رسمناه .

قال : ومما يقع فى عيوب الشعر ، و يغفُل الشاعر عنه ، و يجوزه الأمر فيه ، لصغر جرم العيب ، وسلامة اللفظ الذى احتبى فيه ، ثم يكون ذلك سبب غفلة النقاد أيضاً عنه ، مثل قول المتنبى :

* كفى بك داء أن ترى الموت شافيا *

فضع هذا الكلام على أنه إنما شكا داءه ووصفه بالعظم فعاد شاكياً نفسه ، وجعلها أعظم الداء ، لأنه أراد كفى بدائك داء فغلط ، وقال : كفى بك داء . فصار : كفى بالسلامة داء . فالسلامة هى الداء . يريد : طول البقاء سبب للفناء . وقال الله تعالى : (وَكَفَى بِنَا حَاسِبِين) فالله هو أعظم شهيد . فجعل المتنبى نفسَه أعظم الداء ، ولم يُرد إلا استعظام دائه . وإصلاح هذا الفساد ، و بلوغه إلى المراد ، أن يقول :

كَفى بالمنايا أن تكن أمانياً وحسبُك داء أن ترى الموتَ شافياً

فيعود الداء المُستعظم كما أراد ، وتزول خشونة ابتدائه ، وشدّة جفائه ، إذ خاطب الممدوح بالكاف فجعله داء عظيماً فى أول كلمة سمعها منه .

وقد تأدّب خواصُّ الناس وكثير من عوامهم فى مثل هذا المكان ، فهم يقولون عند مخاطبات بعضهم بعضاً بما يَخشن ذكره : قلت للأبعد ، و يا كذا أو كذا للأبعد .

ومن عيوب هذا القسم أيضاً أن قائله قصد إلى سلطان جديد ، و إلى مكان يحتاج فيه إلى التعظيم والتفخيم ، وقد صدر عن ملك نوّه به ، أعنى سيف الدولة ، وأغناه بعد فَقره ، وشرّفه ورفعه ، وأدنى موضعَه . فورد على كافور هذا فى مرتبة شريفة ، وخطة منيفة ؛ فجعل بجهله يَصفه فى أول بيت لقيه به أنه فى حالة لا يرى منها المنيّة ، أو يرى المنيَّة أعظمَ

أمنية . وعلم كافور بذكائه ووصول أخبار الناس إليه أنه فى حالة خلاف ما قال ، وأنه كفر النعمة من المُنعِم عليه ، وأراه أن جميع ما عامله به من الجاه الواسع ، والغنى القاطع ، حقير لديه، صغير فى عينيه . فعلم كافور فى هذا الوقت أنه ممن لا تَزكو لديه الصنيعة و إن عظمت ، ولا تكبر فى عينيه المواهب و إن جَسمت ؛ ولم يكن فى خُلق كافور من الصبر على اتساع البَذْل ، ولا من الرغبة فى أهل الآداب والفضل ، ما عند سيف الدولة من ذلك ، فزَهِد فيه بعد رَغبة ، وعلّله بالقليل ، وشاوقه بالجزيل . ورأى المتنبى أن الأسود ليس له فى قلبه من الحب والقرب ماله عند سيف الدولة ، فلم يُدل عليه ، ولا كثر من التعتّب والعتاب ما يعطفه عليه ؛ فأضاع وضاع ، وكان يتوقع الإيقاع ؛ ولكُفران النعم نقَم ، ثم نجّاه ركوب ظهر الهرب ، وأقبل يعترف لسيف الدولة بالذنوب . وكان لحنُه وشعره شريفين ، وعقلُه ودينُه ضعيفين . ومع ذلك فسقطاته كثيرة إلا أن محاسنه أكثر وأوفر ، والمرء يعجز لا محالة . وكان يميل إلى تعقيد الكلام ، ويعتمد على علمه بقُبحه ، فيقول من ذلك ما يصف به ناقته :

فتبيت تُسئد مُسئداً فى نيّها إسآدها فى المَهمه الأنضاء

ويقول فى المدح :

أنّى يكون أبا البريّة آدم وأبوك والثقّلان أنت محمد

ويقول فى بيت آخر من قصيدة أخرى يمدح بها ، والبيت لا يتعلّق بشيء مما قبله فيما يظهر ولا فيما بعده بشيء :

كأنك ما جاودتَ من بان جودُه عليك ولا قاومتَ من لم تُقاوم

ومثلُ هذا كثير ، وهذه الأجناس من أبيات و إن ظهرت معانيها بعد استقصاء ، وأطاعت غوامضها بعد استعصاء ؛ فهى مذمومةُ السلك ، و إن أطلعت منها على أجزل الإفادة ، فكيف إذا حصلت منها على السلامة بلا زيادة . وكان أيضاً يَغفل عن إصلاح أشياء من كلامه على قرب ذلك الإصلاح من الفهم ، مثل قوله يرثى أخت سيف الدولة :

يا أخت خير أخ يا بنتَ خير أب كناية بهما عن أشرف النسب

فجعل «يا أخت خير» و «بنت خير» كناية عن أشرف النسب ، والكناية لا تكون إلا لعلل تتسع فيها التهم ، لأن الكناية ستر وتعمية ، فما بال شرف النسب يورَّى عنه تورية المَعايب ، ويكنى عنه والتصريح به من المفاخر والمناقب . وقد غفل عن إصلاح هذا بلفظ فصيح ، ومعنى صحيح ؛ قد كاد يبرز من الجنان ، إلى طرف اللسان ، وهو لو فطن إليه :

يا أختَ خيرِ أخٍ يا بنتَ خيرِ أبٍ غنًى بهذا وذا عن أشرف النسب

قال أبو الريان : وهذه الجملة التى أثبت لك فيها ما دخل على الشعراء المُجيدين من من التقصير والغفلة والغلط وغير ذلك ، كافية ومُغنية عن إيراد سوى ذلك ؛ وإن لقيتها بجَودة بحث وصحة قياس ، ولم تحتج إلى كشف عيوب أشعار الناس . ولعل قائلا يقول : مالَ على هؤلاء وترك سواهم لمَيْله على من بكت ، ولتفضيله مَن عنه سكت . فقل لمن قال ذلك الأمر : على خلاف ما ظننتَ لم أذكر إلا الأفضل فالأفضل ، والأشهر فالأشهر ، إذ كانت أشعارهم هى المروية ، فالحُجة بهم وعليهم هى القوية ؛ فقد نقلتُه على من مَيلى عليهم ، إلى ميلى بالحق إليهم .

قال أبو الريان : فأما نقد المُستحسن فتمثيلُه لك يَعْظم ويتسع لكثرته ، فلا يسعنا إيراده ، ولكن ما سلم من جميع ما أوردناه فهو فى حيّز السالم ، ثم تتسع طبقاتُ الجودة فيه ، وأحسنُ منه ما اعتدل مبناه ، وأغرب معناه ، وزاد فى محمودات الشِّعر على سواه ، ثم يمدح الأدْون فالأدون ، بمقدار انحطاطه إلى حيز السلامة ، ثم لا مدح ولا كرامة .

قال محمد : فقلت : لله درّك يا أبا الريان ، فما ألين جانبك ، وما أقرب غائبك ، وما ألحح طالبك ، وما أسعد صاحبك . فقال : أنجح الله مطالبك ، وقضى مآربك ، وصفى من القذى مشاربك ، وبث فى الحواضر والبوادى مناقبك .

تمت المقامة المعروفة بمسائل الانتقاد

بلطف الفهم والاقتصاد

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلاته على نبيه سيدنا محمد وآله وسلامه

كتاب العرب

أو الرد على الشعوبية

لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة من أهل القرن الخامس (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله وسلّم تسليما . قال أبو محمد عبدُ الله بن مسلم بن قتيبة : جعلنا الله وإياك على النِّعم شاكرين ، وعند المِحن والبَلْوى صابرين ، وبالقسم من عطائه راضين ؛ وأعاذنا من فِتنة العصبيَّة ، وحميَّة الجاهلية ، وتحامل الشُّعوبيَّة ، فإنها بفَرط الحَسد ونَغَل الصدر تدفع العربَ عن كل فضيلة ، وتُلحق بها كُلَّ رذيلة ، وتَغلو فى القول ، وتُسرِف فى الذم ، وتَبهت بالكذب ، وتُكابِر العيان ، وتكاد تَكفر ثم يمنعها خوفُ السيف ؛ وتغص من النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا ذُكر بالشجا ، وتَطرِف منه على القذى ، وتبعد من الله بقدر بعدها ممن قَرّب واصطفى . وفى الإفراط الهَلَكة ، وفى الغُلو البَوار ، والحَسد هو الداء العَياء ، أول ذنب عُصى الله به فى الأرض والسماء . ومن تبيّن أمرَ الحسد بعَدْل النظر ، أوجب سخطه على واهب النِّعمة ، وعدواته لمؤتى الفضيلة ، لأن الله تعالى يقول : (نَحْنُ قَسَمْنا بينهم مَعِيشتهم فى الحَياة الدُّنيا ورَفَعْنا بعضَهم فوقَ بَعْض درجاتٍ ليتخذَ بعضُهم بعضاً سُخْرياً) . فهو تبارك وتعالى باسطُ الرِّزق ، وقاسم الحُظوظ ، والمُبتدئ بالعطاء والمحسود ؛ آخذ ما أعطى ، وجارٍ إلى غاية ما أجرى .

(١) وجده الأستاذ جمال الدين القاسمى فى خزانة السيد شاكر الحمزاوى فى مجموعة كانت موقوفة ونجز وقفها معنوناً عليه بكتاب ذم الحسد تأليف العلامة أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة رحمه الله تعالى بخط مسند الشام فى عصره الشيخ ابراهيم الجينينى الحنفى جامع الفتاوى الخيرية — من رجال القرن الثانى عشر — وقد نسخها رحمه الله على أصل مخروم الآخر حتى كتب فى آخر نسخته ما مثاله : هذا آخر ما وجدته الخ .

واسم هذا الكتاب فى بعض المصادر « فضل العرب على العجم » وحقيقة اسمه كما فى كتاب غريب الحديث لابن قتيبة « فضل العرب والتنبيه على علومها » . وبدار الكتب المصرية نسخة منه غير كاملة برقم ١٨٦٤ (أدب) .

وقال ابن مسعود : لا تُعادُوا نِعم الله . قيل : ومَن يُعادى نعم الله ؟ قال : حاسدُ الناس .
وفى بعض الكتب يقول الله : الحاسدُ عدوّ لنعمتى متسخط لقضائى غيرُ راضٍ بقسمى .

وقال ابنُ المقفّع : الحاسد لا يَبرح زارياً على نِعمة الله لا يجد لها مَزالا ، ويكدّر على نفسه ما به فلا يجد لها طعماً ، ولا يزال ساخطاً على مَن لا يتراضاه ، ومتسخّطاً لما لا يَنال فوقه ، فهو مكظوم هَلِع ، جزوع ظالم ، أشبه شىء بمظلوم محروم الطّلبة ، منغص المعيشة ، دائم السّخطة ، لا بما قسم له يَقنع ، ولا على ما لم يَقسم له يغلب . والمحسود يتقلب فى فضل الله مباشراً للسرور ، ممهلا فيه إلى مدة لا يقدر الناس لها على قطع وانتقاص . ولو صبر الحَسود على ما به وضمر لحزنه ، كان خيراً له ، لأنه كلما هَرَّ خسأه الله ، وكلما نَبح قُذف بحجره ، وكلما أراد أن يُطفئ نورَ الله أعلاه الله ، ويأبَى الله إلا أن يُتم نُوره ولو كره الكافرون . ولله دَرّ القائل :

وإذا أراد اللهُ نَشْر فَضيلةٍ   يوماً أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ
لولا اشتعالُ النار فيما جاورت   ما كان يُعرف طيب عرف العُود

ولم أر فى هذه الشعوبيّة أرسخَ عداوة ، ولا أشدَّ نصباً للعرب ، من السفلة والحشوة ، وأوباش النّبط وأبناء أكرة القُرى . فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم وأهلُ الديانة ، فيعرفون مالهم وما عليهم ، ويرون الشرف نسباً ثابتاً .

وقال رجل منهم لرجل من العرب : إن الشرف نسب ، والشريف من كُل قوم نسيب الشريف مِن كل قوم . وإنما لهجت السّفلة منهم بذمّ العرب ، لأن منهم قوماً تحلّوا بحلية الأدب ، فجالسوا الأشراف ، وقوماً اتسموا بميسم الكتابة ، فقُرِّبوا من السلطان ، فدخلتهم الأَنفة لآدابهم ، والغضاضة لأقدارهم ، من لؤْم مَغارسهم ، وخُبث عناصرهم . فمنهم من ألحق نفسه بأشراف العجم ، واعتزى إلى ملوكهم وأساورتهم ، ودَخل فى باب فسيح لا حجابَ عليه ، ونسبٍ واسع لا مدافع عنه . ومنهم مَن أقام على خساسة يُنافح عن لؤُمِه ، ويَدّعى الشرف للعجم كلها ، ليكونَ من ذوى الشرف ، ويُظهر بغض العرب

يتنقصها ، ويَستفرغ مجهوده فى مشاتمها ، وإظهار مثالبها ، وتحريف الكلم فى مَناقبها ، وبلسانها نطق ، وبهمها أنف ، وبآدابها تسلح عليها . فإن هو عرف خيراً ستره ، وإن ظهر حقّره ، وإن احتمل التأويلات صَرفه إلى أقبحها ، وإن سمع سوءا نشره ، وإن لم يسمعه نفر عنه ، وإن لم يجده تخرّصه ، فهو كما قال القائل :

إن يعلموا الخَير يُخفوه وإن عَلموا   شرًّا أُذيع وإن لم يعلموا بَهتوا

ومن ذا رحمك الله صفا فلم يكن له عَيب ، وخلص فلم يكن فيه شوب .

وقيل لبعض الحكماء : هل من أحدٍ ليس فيه عَيب ؟ فقال : لا ، لأن الذى ليس فيه عيب هو الذى لا يموت .

وعائبُ الناس يَعيبهم بفضل عَيبه ، وينتقصهم بحسب نقصه ، ويُذيع عوراتهم ليكونوا شُركاءه فى عورته . ولا شىء أحبُّ للفاسق من زَلّة العالم ، ولا إلى الخامل من عثرة الشريف . قال الشاعر :

ويأخذ عيبَ الناس مِن عَيب نفسه   مُرادٌ لعمرى إن أردتَ قريبُ

وقال آخر : وأجرأُ من رأيت بظَهر غيبٍ   على عَيب الرِّجال ذوو العُيوبِ

وقد كان زياد بن أبى سفيان حين كثر طَعْن الناس عليه وعلى مُعاوية فى استلحاقه عَمِل كتاباً فى المَثالب لولده وقال : مَن عيَّركم فقرعوه بمَنقصته ، ومَن ندّد عليكم فابدهوه بمثلبته ؛ فإن الشرّ بالشر يُتقى ، والحديد بالحديد يُفلح .

وكان أبو عُبيدة مَعمر بن المُثَنّى أغرى الناس بمشاتم الناس ، وألهجهم بِمثالب العرب ، وحالهُ فى نسبه وأبيه الأقرب إليه حالٌ نَكره أن نذكرها ، فنكون كمن أَمر ولم يأتمِر ، وزَجر عن القبيح ولم يَزدجر ، وهى مشهورة ، ولكن كَرهنا أن تدوّن فى الكتب وتخلد على الدهر ، ولا سيّما وهو رجل يُحمل عنه العلم ويُحتج بقوله فى القرآن . ومن أتعب قلباً وأنصب فكراً ممن أراد أن يَجعل الحسنة سيّئة ، والمَنقبة مثلبة ، ويَحتاج لإخراج الباطل فى صورة الحق فيقصِد من المناقب ، لمِثل قوس حاجب ، يضحك منها ويُزرى بها ،

ويذهب فى ذلك إلى خَساسة العُود ، وقلّة ثمنه . وهذا لو كان على مَذاهب التجّار والسوق فى الرُّهون والمعاملات ، لرجَع بالعيب على الآخذ لا على الدَّافع ، لأن الدافع لا يألو أن يدفع أحقَر ما يجد فى أكثر ما يأخذ ، والمغبونُ مَن غُر بالصغير عن الكبير . وإنما رهن عن العرب بما ضمنه عنها من كف الأذى عن مملكته ، حتى يحيوا وتنكشف عنهم السنة ، ولو كان مكانَ القوس مائة ألف رأس من الغنم عن هذا السبب ما كان القوس إلا أحسن بالدافع والقابل ، لأن سلاح الرجل هى عزّه وشرفه ، وإسلام المال أحسن من إسلام العزّ والشرف . وقد يدفع الرجل خاتمَه وبُرْده أو رداءه عن الأمر العظيم ، فلا يسلمه خوفاً من السُّبة وأنفةً من العار .

قال أبو عبيده : لما قتَل وكيع بن أبى سود التميمى قتيبة بن مُسلم الباهلى بخراسان ، وبلغ ذلك سليمانَ وهو بمكة وهو حاجّ ، خَطب الناس بمسجد عرفات ، وذكر غَدر بنى تميم ، وإسراعهم فى الفتن ، وتوثّبهم على السلطان ، وخلافَهم له ، فقام الفرزدُق ففتح رداءه وقال : يا أمير المؤمنين ، هذا ردائى رهناً بوفاء تَميم ومُقامها على طاعتك . فلما جاءت بيعةُ وكيع قال الفرزدق :

فدًى لسُيوف من تميم وفَى بها ... ردَاى وحلّت عن وُجوه الأهاتم

يريد الأهتم بن سُمى التميمى ورهطه .

وهذا سيّار بن عَمرو بن جابر الفَزارىّ ضَمِن لبعض المُلوك ألفَ بعير ديةَ أبيه ورَهَنه قوسه . فقبلها منه على ذلك وساقها إليه ، وفيه يقول القائل :

ونحن رَهنّا القَوس ثم تخلّصت ... بألف على ظَهر الفزارىّ أقرعاَ

وسيّار هذا هو جدّ هَرِم الذى تنافر إليه عامر وعلقمة . ومن هذا الباب قولُ جِرَان ، وذكر اجتماعه مع نساء كان يألفهن :

ذهبنَ بمسواكى وقد قلتُ إنه ... سيُوجد هذا عندكن ويُعرفُ

يظنّ مَن لا يعرف هذا الخبر أنهن سلبنه المسواك ، فاعتدّ عليهن وأخبرهنّ أنه سيوجد

عندهن ، ويعرف اقدر المسواك عندهن وعنده ، ولأن الأعراب أنظر قوم فى التافه الحقير الذى لا خَطَر له ، وكيف يظنّ به ويهنّ هذا ، وبلد نجد مُستحلس بضُروب من شجر المساويك لا تُحصى ، فكيف يَبخل على نساء يَهواهن بعُود ، وهو يَصطلى به ويَختبز ويَطبخ بشجره ، ومتى أُحتاج إلى مسواك منه لم يتكلفه بثمن ، ولم يُبعد فى طلبه . والمعنى أن نجداً تختلف منابتُه ، فمنه ما ينبت الأسحل ، ومنه ما ينبت الأراك ، ومنه ما ينبت البَشام . فأهل كُل ناحية منهم يستا كون بشَجر بلدهم ، وكان جران العود معروفاً بهؤلاء النساء يَزورهن على حَذر من مزار بعيد ، وهو يستنّ من الشجر ما ينبت فى بلده ، ولا ينبت فى بلدهن ، فلما أخذنَ سواكه ليتذكرنه ويسترحْن إليه كما يفعل المُتحابون ، قال : إن هذا سيوجد عندكنّ ، وإذا وجد علم أنه مما ينبته البلد الذى أسكنه ، فاستُدِل به على زيارتى إياكن .

ويَقصد لقول القائل :

أيابنة عبـــد الله وابنة مالك ويابنة ذى البردين والفرس الوردا

فيتضاحك بالشّعر ، ويَستهزئ بالبردين والفرس الورد ، ويُعارض ذلك بملوك فارس وأسرتها وتيجانها ، وبأن أبرويز ارتبط تسعمائة وخمسين فيلا على مرابطه . وبلغت مخدّته ، التى كان يُشرف بها على الداخل عليه ، ألف إناء من الذهب ، وخدمته ألف جارية . وقد جهل هذا معنى الشعر ، وأخطأ فى المعارضة ، وفخرَ بما ليس له فيه حظٌ ولا نَصيب .

أما معنى الشعر ، فإن أبا عُبيدة ذكر أن وفود العرب اُجتمعت عند النُّعمان بن المُنذر ، فأخرج بُردى مُحرِّق ، وهو عمرو بن هند ، وقال : ليقم أعزُّ العرب قبيلة فيأخذهما . فقام عامر بن أحيمر بن بهدلة ، فأخذهما ، فاُتزر بواحد واُرتدى بآخر ، فقال له : بم أنت أعز العرب ؟ فقال : العزّ والعددُ من العرب فى معدّ ثم فى نِزار ثم فى مُضر ثم فى خِندف ثم فى تَميم ثم فى سعد ثم فى كعب ثم فى عَوف ثم فى بَهدلة ، فمن أنكر هذا من العرب فَلينافرنى . فسكت الناس . فقال النعمان : هذه عشيرتُك كما تزعم فكيف أنت فى أهل بيتك وفى بدنك ؟ فقال : أنا أبو عَشرة وعم عشرة وخال عشرة ، يُغنينى الأكابر عن الأصاغر ،

والأصاغر عن الأكابر ، فأما أنا فى بدنى فهذا شاهدى ، ثم وضع قدمَه على الأرض وقال : مَن أزالها من مكانها فله مائة من الإبل . فلم يقم إليه أحد من الناس ، فذهب بالبُردين فسمِّى ذا البُردين . قال الفرزدق :

فما تَمٌ فى سَعد ولا آل مالكٍ غلامٌ إذا ما قيـل لم يَتَبهدلِ

لهم وَهب النُّعمان ثوبى مُحرِّق بمَجد معدٍّ والعديد المحصل

وأما الفرس الوَرد فإن الخيلَ حُصون العرب ، ومَنْبت العز ، وسُلَّم المَجد ، وَثِمال العيال ، وبها تُدركَ الثأر ، وعليها تَصيدالوحش ، وكانوا يُؤْثرونها على الأولاد باللابن ، ويَشدّونها بالأفنية للطلب والهرَب ، وقد كنى الله عنها فى كتابه بالخير لما فيها من الخير ، فقال حكاية عن نبيه سليمان صلى الله عليه وسلم : (إِنى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى حتى تَوارَتْ بالِحجاب) يعنى الخيل . وبها كان شُغل سليمان عن الصلاة حتى غربت الشمس . وقال طُفيل :

وللخيل أيامٌ فمن يَصطبر لها ويَعرف لها أيامَها الخير يعقب

وقال آخر :

ولقد علمتُ على توَقِّى الردى أنَّ الُحصون الخيلُ لا مَدر القُرى

إِنّى وجدتُ الخيلَ عزًّا ظاهراً تُنْجِى من الغُمَّى ويَكْشفن الدُّجى

ويَبِتْن بالثّغر المَخوف طلائعاً وتَبين للصُّعلوك جمة ذى الغنا

باتوا بَصائرُهم على أكتافهم وبَصيرتى يَعدو بها عَتِد وَأى

والبصيرة : الدم . يريد أنهم لم يُدْركوا الثأر فثقل الدماء على أكتافهم ، وأنه قد أدرك ثأره على فرسه .

وحدّثنى محمد بن عُبيد قال : حدّثنى سُفيان بن عُيينة عن شبيب بن غَرقدة عن عُروة البارقى قال : سمعتُ النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « الخيلُ مَعْقود فى نَواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

قال أبو محمد : وليس لأحد مثل عِتاق العرب ، ولا عند أحد من الناس من العِلم بها ما عندهم . وسأذكر من ذلك شيئاً فيما بعد إن شاء الله . وإذا كان للرجل منها جواد مبرّ كريم شُهر به وعرف ؛ فقيل: العَسْجدى ولاحق وداحس والورد . وليس أعجب من سرير كسرَى وفَخْر العجم به ، وتصويرهم إياه فى الصخور الصُّم ، وفى رعان الجبال ، وإذا رأيت العربَ تَنْسب إلى شىء خَسيس فى نفسه فليس ذلك إلا لمعنى شريف فيه ، كقولهم لهُنيدة بنت صَعصعة عمة الفرزدق : ذات الخِمار . فمن لم يعرف سبب الخمار هاهنا يظُن أنها كانت تختمر دون نساء قومها فنُسبت إلى الخمار لذلك .

قال أبو عُبيدة : كانت هُنيدة بنت صعصعة تقول : مَن جاءت من نساء العرب بأربعةٍ مثل أربعتى يَحل لها أن تَضع عندهم خمارَها فصرمتى لها : أبى صَعصعة ، وأخى غالب ، وخالى الأقرع بن حابس ، وزوجى الزبرقان بن بدر . فسُميت ذات الخمار لذلك .

وقال : كان هِند بن أبى هالة ربيب النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : أنا أكرم الناس أربعة : أبى رسولُ الله ، وأمى خديجة ، وأختى فاطمة ، وأخى القاسم . فهؤلاء الأربعة لا أربعتها . وأما خطؤه فى المُعارضة فإن صاحب البُردين لم يكن ملك العرب فيعارضنا عنه بملك العجم ، ولم يدّع أحدٌ أنه كان للعرب فى دولة العجم مثل ملكها وأموالها ، وعددها وسلاحها ، وحريرها وديباجها ، فيحتاج أن يذكر فِيلة أبرويز وجواريه وفُرشه ، وقد كان هذا لأولئك كما ذكر ثم جعله الله لهؤلاء ، فابتزّوه واستلبوه ، والتحوهم كما يلتحى القضيب ، والناسخ أفضل من المنسوخ .

وأما فخره بما ليس له فيه حظّ ولا نصيب ، فإنما يفخر بملك فارس أبناء ملوكها ، وأبناء عُمالهم وكتّابهم وحُجّابهم وأساورتهم . فأما رجل من عُرض العجم وعوامّهم لا يعرف له نَسب ولا يشهر له أب ، فما حظّه فى سرير كسرى وتاجه وحريره وديباجه ، وليس هو من ذلك فى مَراح ولا مَغدى ، ولا مَظلّ ولا مأوى . فإن قال : لأنى من العجم وكسرى من العجم . فمرحباً بالمثل المُبتذل: ابن جار النجار . ولو قال أيضا : لأنى من الناس

وكسرى من الناس . كان وهذا سواء ، وما هو بأولى بهذا السبب من العرب ، لأن العرب أيضاً من الناس .

قال أبو عُبيدة : أجريت الخيلَ فطلع منها فرس سابق ، فجعل رجل من النظّارة يكبر ويثب من الفرح . فقال له رجل إلى جانبه : يافتى ، أهذا السابق فرسك ؟ فقال : لا ، ولكن اللجام لى .

وقال المَسعوديّ : قدم علينا أعراب ، وكانوا يأتون ببضائعهم فأبيعها وأقوم بحوائجهم ، وكانوا يقولون : رَحم الله أباك ديناراً ، فكنتُ لا آلوهم عناية ، فقلت لهم : أخبرونى عن السبب بينكم وبين أبى ؟ قالوا : كان يساومنا مرّة بأتان . فقلت لهم : هل كان اشتراها منكم ؟ قالوا : لا . قلت : الله أكبر ! قالوا : وما ذاك ؟ قلت : لو اشتراها صارت رَحِماً ونسباً .

وقد كانت العَجم رحمك الله فى ذلك الزمان طبق الأرض شرقاً وغرباً وبرا وبحرا إلا محال معدّ واليمن ، أفكل هؤلاء أشراف ؟ فأين الوضعاء والأدنياء والكسّاحون والحَجّامون والدباغون والخمّارون والرّعاع والمُهان ؟ وهل كان ذوو الشّرف فى جملة الناس إلا كاللمعة فى جلد البعير . وأين ذَراريهم وأعقابهم ؟ أدرجوا جميعاً فلم يبق منهم أحد وبقى أبناء الملوك والأشراف ؟

وأعجب من هذا ادعاؤهم إلى إسحاق بن إبراهيم صلى الله عليهما وسلم وفخرهم على العرب بأنه لسارة الحرة ، وإن إسماعيل أبا العرب لهاجر ، وهى أمة . قال شاعرهم :

فى بَلدة لم تَصل عُكل بِها طُنباً ولا خباءٌ ولا عَكّ وهَمْدانُ
ولا لجَرم ولا بَهراءَ من وطن لكنها لبَنى الأحرار أوطان
أرض تبنّى بها كِسْرى مناسكه فما بها من بنى اللّخناء إنسان

فبنو الأحرار عندهم العجم من ولد إسحاق ، وإسحاق لسارة وهى حرة ، وبنو اللّخناء عندهم العرب لأنهم من ولد إسماعيل ، وإسماعيل لهاجر ، وهى أمة . قالوا :

واللخناء، عند العرب : الأمة . فالويل الطويل لهؤلاء ، والبعد والثبور من هـذه العَداوة لأولياء الله ، والأنباز القبيحة لصفوة الله . وقد غَلطوا فى التأويل على اللغة ، وليس كل أمة عند العرب لخناء ، أى اللخناء من الاماء المُمتهنة فى رَعى الإبل وسَقيها وجمع الحَطب وحمله واستقاء الماء والحلب وأشباه ذلك من الخدمة ، كما يقال الأمة الوَكعاء ، وليس كل أمة وكعاء ، و إنما قيل لَخناء ، لنَتن ريحها ، ويقال : لخن السقاء يلخن لخناً ، إذا تغير ريحهُ وأنتن .

وأما مثل هاجَر التى طهّرها الله من كل دنس ، وطَيّبها من كل دَفر ، وارتضاها للخليل فراشاً ، وللطيّبين إسماعيل ومحمد عليهما الصلاة والسلام أمًّا ، وجعلهما لها سلالة، فهل يجوز لملحد فضلا عن مسلم أن يطلق عليها اللّخن ، ولو لم يكن إلا أن ملك القبط متع بها سارة ، وكانت أنفس إمائه عندهم وأحظاهن لديه ، لقد كان فى ذلك دليل على أنها لم تـكن من الإماء اللّخن ، ولو جاز أن يُطلق على كل أمة لخناء لجاز أن يُقال لـكل شريف ولدته أمة: هذا ابنُ اللخناء ، كما يقال :هذا ابنُ الأمة . وقد ولدت الإماء الخلفاء والخيارَ والأبرار ، مثل علىّ بن الحُسين بن علىّ بن أبى طالب ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصدّيق ، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

حدّثنى سهل بن محمد قال : حدّثنا الأصمعىّ قال : كان أهلُ المدينة يكرهون اتخاذ أُمهات الأولاد حتى نشأ فيهم الثلاثة ، ففاتوا أهلَ المدينة فقهاً وورعاً ، فرغب الناس فى السرارى . والنُّساب لا يعرفون لأهل فارس ولا للنّبيط فى إسحاق بن إبراهيم حظاً ، لأن إسحاق تزوّج رفقا بنت ناحور بن تارح ، وتارح هو آزر ، ورفقا بنت عمه ، وولدت له عَيصو ويعقوب ، توأمين فى بطن واحد ، فيعقوب هو إسرائيل الذى ولد الأسباط كلهم ، وكانوا اثنى عشر رجلا ، وأولادهم جميعاً يُدعون بنى إسرائيل ، وهُم أهل الـكتاب ليس لهؤلاء فيهم سبب ولا نَسب ، وعَيصو هو أبو الروم ، وكان الروم رجلا أصفر شـديد الصفرة فى بياض ، ومن أجل ذلك سُميت الروم بنى الأصفر . قالوا : وكانت أُم الروم

بنت إسماعيل بن إبراهيم ، وولد من الروم خمسة نفر . فكل من بأرض الروم من نسل هؤلاء الرهط . قالوا : ولما سبقه يعقوب إلى دعوة إسحاق فصارت النبوة فى ولده دعا لعيصو بالنماء والكثرة ، فالروم كلها من ولده . وبعض الناس يزعم أيضاً أن الأشبان من ولده . وقالوا : النبط بن ساروح بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ، ويقال إنه ابن ماش بن سام بن نوح . قالوا : وأهل فارس من ولد لاوذ بن ارم بن سام بن نوح ، وكان كثير الولد فنزل أرض فارس ، فأجناس الفرس كلهم من ولده ، فليس بين هؤلاء وبين إسحاق بن إبراهيم ، على ما ذكر النسابون ، نسب يجمعهم إلا سام ابن نوح ، والناس يجتمعون فى ولادةِ شيث بن آدم ثم فى ولادة نوح ثم يتشعّبون . فولد نوح أربعة نفر : سام وحام ويافث ويام . فأما يام فهلك بالطوفان فلا عقب له ، وهو الذى قال له أبوه : (يا بُنيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) وأما حام فإن أباه لعنه ودعا عليه بأن يكون عبداً لأخويه ، فحملت ذريته وسقطت فيه ، فهم النوبة وفزان والزغاوة وأجناس السودان والسند والقبط . وأما يافث فإن أباه دعا له بالنماء والكثرة ، فولد الصقالب والترك ويأجوج ومأجوج وأمماً عدد الرمل والحصا فى مشارق الأرض . فأما سام فبارك عليه ، فأشراف الناس من ولده منهم العماليق ومنهم الجبابرة وفراعنة مصر وملوك فارس ، ومن ولد سام الأنبياء جميعاً بعد نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ، ومن بعده إلى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام . فالعرب وفارس يتساوون فى هذه الجملة وتفضلها العرب بعدَها بأنها من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، فهى أدنى من خليل الله دناوة وأمس به رحماً .

ثم تتساوى العرب وفارس فى أن الفريقين ملكوا ، وتَفضلها العرب بأن قواعد ملكها نبوة ، وقواعد ملك فارس استلاب وغلبة ، وتفضلها العرب بأن ملكها ناسخ وملك فارس منسوخ ، وتَفضلها بأن مُلكها مُتصل بالساعة وملك فارس محدود ، وتفضلها العرب بأن ملكها واغل فى أقاصى البلاد داخل فى آفاق الأرض ، وملك

فارس شظية منه ، ليس فيه الشام ولا الجزيرة ولا خراسان ، فى أكثر مددهم ، ولا اليمن إلا فى أيام وهرز وسيف بن ذى يزن .

ومن عجب أمرهم أيضاً فخرُهم على العرب بآدم ، يقول النبىُّ صلّى الله عليه وسلّم : لا تفضّلونى عليه فإنما أنا حَسنة من حَسناته ؛ ثم بالأنبياء ، وأنهم من العجم إلا أربعة نفر : هُود وصالح وشُعيب ومحمد صلّى الله عليه وعليهم وسلّم . وفى هذا القول وَضع الفخر على غير أساس ، ومن أسس بُنيانه على الباطل والغُرور أوشك أن يَتداعى وأن يخر ، وظُلم للعرب فاحش . ومنه ادعاؤهم آدم ، كأنّ العرب ليسوا من ولده . ومنه انتحالهُم موسى وعيسى وزكريّا ويحيى وأشباههم من بنى اسرائيل ، وليس بين فارس و بين بنى اسرائيل نسب على ما بيّنتُ لك . ومنه دفعهُم العرب عن قُربهم بهؤلاء الأنبياء ، وهم بنو عمومتهم وعصبتهم ؛ لأن العرب بنو إسماعيل بن إبراهيم بإجماع الناس ، فهم بنو أخى إسحاق بن إبراهيم ، وأولى به وأحقّ بشرفه ، وأولى بموسى وعيسى وداود وسليمان وجميع الأنبياء من ولده . وقال الله تعالى : (إنّ الله اصْطَفَى آدمَ ونُوحًا وآل إبراهيمَ وآل عِمْران على العالمين) . فآلُ ابراهيم هم ولد إسحاق وولد إسماعيل . ثم قال : (ذُرِّيّة بعضُها مِن بَعْض) فأعلمنا أنّ العرب وبنى إسرائيل شىء واحد فى النسب . وفيما أوحى الله إلى موسى : «إنى سأقيم لبنى اسرائيل من إخوتهم مثلَك أجعل كلامى على فيه» . يريد أنه يقيم لهم من العرب نبيًّا مثلَ موسى ، يعنى نبيَّنا محمداً صلّى الله عليه وسلّم ، وهذا عَلَم من أعلامه وحُجة من حُججنا على أهل الكتاب من كتبهم .

فإن قالوا فى ذلك : إنه يقيم لهم من بنى إسرائيل نبيًّا مثل موسى ، وقالوا : إن بنى إسرائيل بعضهم إخوة بعض . أكذبهم النظر ؛ لأنه لو أراد ذلك لقال لهم : من أنفسهم ومنهم . كما أنّ رجلا لو أراد أن يبعث رسولاً من خِندف لم يقل سأبعث رسولاً من إخوة خندف . فإن كان دفعهم ولد إسماعيل عن تشابك نسبهم بولد إسحاق لنزول إسماعيل الحرم ونكاحه فى جُرهم ؛ فإن الدّيار قد تتناءى ، والمحالّ قد تتباين ، والرجلَ قد ينكح

فى البعيد ، وقد يولد له من الإماء ، ولا تنقطع الأرحام والأنساب ، وإن كان إسماعيل نطق بالعربيّة فليس اختلاف الناس فى الألسنة يخرجهم عن نسب آبائهم وإخوانهم وعشائرهم . فهؤلاء أهل السّريانية قد خالفوا فى اللسان أهلَ العِبْرانية ، وهذه الروم كَفرت بالله ولا شىء أقطعُ للعصمة من الـكُفر ، وتـكلّمت بالرُّومية ورَغبت عن لسان آبائها ، وليس ذلك بمُخرجها عن ولادة إسحاق بن إبراهيم . على أن إسماعيل لم يكن أولَ مَن نطق بالعربيّة وإنما تعلّمها ، وإنما أصلُ العربية لليمن ، لأنهم من ولد يَعْرب بن قحطان . وكان يَعرب أولَ من تـكلّم بالعربيّة حين تَبَلبلت الألسن ببابل ، وسار حتى نزل اليمنَ فى ولده ومَن تَبعه من أهل بيته ، ثم نَطق بعده ثمود بلسانه وشَخص حتى نزل الحِجْر .

حدّثنى أبو حاتم قال : حدّثنى الأصمعىّ قال : أخبرنى أبو عمرو بن العـلاء قال : تِسْع قبائل قديمة : طَسْم وجَديس وعهينة وضَجْم (بالجيم وبالحاء) وجمم والعماليق وقحطان وجُرهم وثمود .

وحدثنى أبو حاتم قال : حدّثنا الأصمعىّ قال : حدّثنا ابنُ أبى الزِّناد عن رجل من جُرهم قال : نحن بدءٌ من الخلق لا يُشاركنا أحدٌ فى أنسابنا . يقول : من قدمنا فهؤلاء قُدماء العرب الذين فتق الله ألسنتهم بهـذا اللسان ، وكانت أنبياؤهم عَرباً : هود وصالح وشُعيب .

حدّثنى عبدُ الرحمن عن عبد المُنعم عن أبيه عن وَهب بن مُنبِّه أنه سُئل عن هُود : أكان أبا اليمن الذى ولدهم ؟ قال : لا ، ولـكنّه أخو اليمن فى التوراة ، فلما وقَعت العصبيةُ بين العرب ، وفَخَرت مُضر بأبيها إسماعيل ، أدعت اليمنُ هوداً ليكون لهم والدٌ من الأنبياء .

قال : وأما شُعيب مِن ولد رَهط من المؤمنين تَبعوا إبراهيم لما هاجر إلى الشام ، ولم يكن يَثبت لهم نسب فى بنى إسرائيل ، ولم تكن مَدين قبيلةً ولـكنها أمة بُعث إليها . فلما بَوّأ الله إسماعيل الحرمَ ، وهو طفل ، وأنبط له زَمزم ، مَرّت به من جُرهم رُفقة ، فرأوا ما لم يكونوا يَعهدونه ، وأخبرتْهم هاجر بنسب الصبى وحاله وما أمر الله أباه فيه وفيها ،

فتبرّكوا بالمكان ونزلوه وضمّوا إليهم إسماعيل ، فنشأ معهم ومع ولدانهم ، ثم أنكحوه ، فتكلّم بلسانهم ، فقيل : نطق بالعربية ، إلا أن الياء زيدت فى الأسم فحذفت فى النّسب ، كما تحذف أشياء من الزوائد وغيرها ، كما تغير أشياء عن أصولها ، والدليلُ على أنّ أصلَ اللّسان لليمن أنهم يقال لهم : العرب العاربة ؛ ويقال لغيرهم : العرب المتعربة . يراد الداخلة فى العرب المتعلّمة منهم . وكذلك معنى التفعل فى اللّغة ، يقال : تنزّر الرجلُ ؛ إذا دخل فى نزار ، وتمضّر ، إذا دخل فى مُضر ؛ وتقيّس ، إذا دخل فى قيس . وقال الشاعر :

* وقَيْس عَيلان ومَن تقيّسا *

ولو كان كُل من تعلّم لساناً غيرَ لسان قومه ونَطق به خارجاً مِن نسبهم لوجب أن يكون كُل من نطق بالعربيّة من العجم عربيًّا . وسأقول فى الشرف بأعدل القول وأُبيّن أسبابه ، ولا أبخس أحداً حقّه ، ولا أتجاوز به حدّه ، فلا يمنعنى نسبى فى العجم أن أدفعها عما تدّعيه لها جهلتُها ، وأثنى أعنّتها عما تقدّم إليها سِفْلتها ، وأختصر القولَ وأقتصر على العُيون والنُّكت ، ولا أعرض للأحاديث الطوال فى خُطب العرب وتعداد أيامها ، ووفدات أشرافها على ملوك العجم ومقاماتها ، فإن هذا وما أشبهه قد كَثُر فى كُتب الناس حتى أخلق ، ودرس حتى مُلّ ، لا سيما وأكثرُ هذه الأخبار لا طريق لها ولا نُقِلَتْ من الثقات والمعروفين أيضاً ، تُخبر عن التكلّف ، وتدلّ على الصّنعة ، وأرجو أن لا يطلع ذوو العقول وأهلُ النظر منى على إيثار هوى ، ولا تَعمُّدٍ لتمويه ، وما أتبرّأ بعده من العثرة والزّلة ، إلا أن يُوفقنى الله وما التوفيق إلا به .

وعدلُ القول فى الشرف أن الناس لأبٍ وأم ، خُلقوا من تراب وأُعيدوا إلى التراب ، وجروا فى مَجرى البول وطُووا على الأقذار . فهذا نسبهم الأعلى الذى يَردع أهلَ العقول عن التعظيم والكبرياء ، ثم إلى الله مرجعُهم فتنقطع الأنساب ، وتَبطل الأحساب ، إلا مَن كان حَسبه تقوى الله ، وكانت ماتّته طاعةَ الله .

وأما النسبُ الأدنى الذى يقع فيه التفاضلُ بين الناس فى حُكم الدنيا ، فإنّ الله

خلق آدم من قَبضة جميع الأرض ، وفى الأرض السهلُ والحَزن ، والأحمر والأسود ، والخبيث والطّيب . يقول الله عزّ وجلّ : (والبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخرُجُ نباتُه بإذْنِ رَبِّهِ ، والذى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاَّ نَكِدًا) . فجرت طبائعُ الأرض فى ولده ، فكان ذلك سبباً لاختلاف غرائزهم ، فمنهم الشجاعُ والجبان ، والبخيل والجواد ، والحىّ والوَقاح ، والحليم والعجول ، والدَّمِث والعَبوس ، والشَّكور والكَفور ؛ وسبباً لاختلاف ألوانهم وهيئاتهم ، فمنهم الأبيض والأسود ، والأسمر والأحمر ، والأقشر والوسيم ، والخفيف على القلوب والثقيل ، والمحبّب إلى الناس من غير إحسان ، والمُبغض إليهم من غير ذنوب ؛ وسبباً لاختلاف الشهوات والإرادات ، فمنهم مَن يميل به الطبعُ إلى العلم ، ومن يميل به إلى المال ، ومَن يميل به إلى اللهو ، ومَن يميل به إلى النساء ، ومَن يميل به إلى الفُروسية . ثم يختلفون أيضاً فى ذلك ، فمنهم مَن يُسرع إلى فهمه الفِقه ، ويُبطئُ عنه الحساب ، ومنهم مَن يَعلَق بفهمه الطّب ، ويَنْبو عنه النُّجوم ، ومنهم مَن يتيسَّر له الدقيق الخفىّ ، ويعتاص عليه الواضح الجلىّ ، ومنهم مَن يتعلّم فنًّا من العلم فيَرسخ فى قلبه رُسوخ النّقر فى الحجر ، ويتعلّم ما هو أخفّ منه فيدرس دُروس الرَّقم على الماء . ومِن طَلبة المال مَن يطلبه بالتجارة ، ومَن يطلبه بالجراية ، ومَن يطلبه بالسُّلطان ، ومَن يطلبه بالكيمياء ، فيُتلف بالطمع الكاذب وإلتماس المُحال أثلة المال . ومِن طلبة النساء مَن يريد المُهفهفة[1] ، ومَن يريد الضِّناك[2] ، ومَن يريد الغِرّة الصغيرة ، ومَن يريد النَّصف[3] الوَثيرة . وأعجبُ مِن هذا مَن ربما حُبِّب إليه العجوز . قال الشاعر :

عَجوزٌ عَلتْها كَبْرَةٌ ومَلاحة أقاتِلتى يا لَلرجال عَجوزُ
عَجوز لو أن الماءَ مِلْكُ يمينها لما تركَتْنا بالمياه نَجوز

ومن لؤم الغرائز أن من الناس مَن يحب الذمّ كما يُحب غيره المدح ، ويَرتاح للهجاء

(١) جارية مهففة ومهفهفة : ضامرة البطن دقيقة الخصر .
(٢) الضناك ، ككتاب : الثقيلة العجز .
(٣) النصف : المرأة بين الحدثة والمسنة ، التى بلغت خمسا وأربعين أو خمسين سنة ونحوها .

كما يرتاح غيرُه للثناء ، ومنهم مَن يغرى بذم قومه ، وسبّ نفسه وآبائه ، وشَتم عشيرته ؛ منهم عُميرة بن جُعيل التّغلبى ، وهو القائل :

كسا الله حيّى تغلب بنة وائل من اللُّؤم إصغاراً[١] بطيئاً نصولها

ومنهم الحِرْمازى[٢] ، وهو القائل :

إن بنى الحرماز قومٌ فيهمُ عجزٌ وتَسليط على أخيهم
فأَبعث عليهم شاعراً يُخزيهم يَعلم منهم مثل عِلْمى فيهم

ومنهم القُحيف ، وهو القائل فى أمه :

يا ليتما أُمّنا شالت نعامتُها إيما إلى جَنّة إيما إلى نارِ
ليست بشَبْعى ولو أسكنتها هَجراً ولا بريّا ولو حَلّت بذى قار
تَلهّم الوسقَ مشدوداً أشظته كأنما وجهُها قد طلى بالقار
خَرقاء فى الخير لا تُهدى لوُجهته وهى صَناع الأذى فى الأهل والجار

ومنهم الحُطيئة ، هَجا أباه وأمه ونفسه فقال فى أمه :

تَنحّى فاقعُدى منّى بعيداً أراحَ الله منك العَالمينا
ألم أُوضحْ لك البغضاء منّى ولكن لا إخالك تَعقِلينا
أغُربالاً إذا استُودعت سرّاً وكانوناً على المُتحدّثينا

وقال لأبيه :

لَحَاك الله ثم لَحَاك حقّا أباً ولَحَاك من عمٍّ وخالِ
فبئس الشيخُ أنت على المَخازى وبئس الشيخُ أنت لدى المعالى
جَمعت اللؤمَ لا حيّاك ربّى وأبوابَ السّفاهة والضّلال

وقال لنفسه :

---

(١) كذا فى الأصل « إصفاراً » ولعلها « أطهاراً » .

(٢) يقال له : الكذاب الحرمازى ، واسمه عبد الله بن الأعور . وقيل له الكذاب لكذبه (من طبقات الشعراء للمؤلف) .

أبت شَفتاى اليومَ ألاَّ تَـكلَّما بشرٍّ فما أدرى لمن أنا قائله
أرى لى وجهاً شوَّه اللهُ خلقَه فقُبِّح من وَجه وقُبِّح حامله

وأتى عُيينة بن النَّهاس العجلى مادحاً ، فقال عُيينةُ لوكيله : اذهب معه إلى السوق فلا يُشيرنَّ إلى شئ ولا يسومنَّ به إلا اشترَيتَه له . فلما انصرف عنه قال :

سُئلت فلم تَبخل ولم تُعط طائلاً فسيَّان لا ذمٌّ عليك ولا حَمْدُ

ومن لُؤم الغرائزِ أيضاً فى النـاس أن منهم من يُؤثر ريحَ الـكرابيس[1] على ريح اليَلنجوج[2] ، وريحَ الحشوش[3] على نَفحات الوَرد ، ويهتاج من النساء لذات القُبح والدفر[4] ، ويكسل عن الحسناء ذات العطر . ومنها أن الرجل يكون فى رخاء بعد بؤس ، وسَعة بعد ضيق ، فيسأم ما هو فيه ، ويرغب عنه إلى ما كان عليه ، وقال أعرابى قدم المصر فحسُنت حاله :

أقول بالمصر لما ساءنى شِبَعى ألا سبيلَ إلى أرض بها جُوعُ
ألا سبيل إلى أرض بها غرث جوعٌ يُصدِّع منه الرأس يرقوع[5]

وهذا وأشباهُه من لئيم الغرائز كثيرٌ فى الأمم ، وهـذه الطبائعُ هى أسباب الشرف وأسباب الخمول ، فذو الهمّة تَسمو به نفسُه إلى معالى الأمور ، وتَرغب به عن الشائنات ، فيُخاطر فى طلب العظيم بعظيمته ، ويَستخف فى ابتغاء المـكارم بكريمته ، ويركب الهولَ ، ويدَّرع الليل ، ويحُط إلى الحضيض ، وتأبى نفسُه إلا عُلوًّا حتى يَسْعد بهمته ، ويَظفر ببُغيته ، ويحوز الشرف لنفسه وذرِّيته ، ومَن لا همّة له جَثّامة لُبَد ، يغتنم الأكلة ويَرضى بالدون ، ويَستطيب الدَّعة ، وإن أعدم لم يأنف من ذُل السؤال ، والجبان يفرُّ عن أمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، والشجاع يَحمى من لا يُناسبه بسيفه ، ويَقى الجارَ والرفيقَ

(١) الـكرباس : ثوب من القطن الأبيض .
(٢) اليلنجوج : عود .
(٣) الحش ، مثلثة : المخرج . لأنهم كانوا يقضون حوائجهم فى البساتين ، والجمع : حشوش .
(٤) الدفر : النتن .
(٥) جوع يرقوع ، إذا كان شديدا .

بمحبّته ، والبخيل يَبخل على نفسه بالقليل ، والجوادُ يجود لمن لا يَعرفه بالجزيل . وقال الله عز وجل : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) ، يريد قد أفلح من أنمى نفسه بالمعروف وأعلاها ، وقد خاب من أسقطها بلئيم الأخلاق وأخفاها . وقد يكون الرجل مُخالفاً لأبيه فى الأخلاق ، وفى الشمائل ، أو فى الهمم أو فى جميع ذلك ، لعرق نزعه من قبل أجداده لأبيه وأمه . وقال الشاعر :

وأشبهت جدَّك شرَّ الجُدود والعرقُ يَسْرِى إلى النائم

ومن النـاس الشريف الحسيب ، وذلك الذى جمع إلى محاسن آبائه محاسنَ نفسه ، ومنهم الشريفُ ولا حسب له . وذلك إذا كان لئيمَ النفسْ ، ومنهم مَن لا شَرف له ولا حسب ، وذلك إذا كان لَئيم النفس لئيم السلف .

وقال قَيس بن ساعدة : لأقضين بين العرب قضيةً ما قَضى بها أحدٌ قَبلى ولا يَردُّها أحدٌ بعدى : أيما رجل رَمى رجلًا بملأمة دونها كرم فلا لؤم عليه ، وأيّما رجل أدّعى كرماً دوله لؤم فلا كرم له . يعنى أن أولى الأمور بالمرء خصاله فى نفسه . فإن كان شريفاً فى نفسه وآباؤه لئام لم يضرّه ذلك ، وكان الشرف أولى به ، وإن كان لئيما فى نفسه وآباؤه كرام لم يَنفعه ذلك .

ومثلُه قول عائشة : كُل شرف دونه لؤم فاللُّؤم أولى به ، وكُل لؤم دونه شرف فالشرفُ أولى به : وقال الشاعر فى مثله :

ومَن يك ذا لؤم ومجدٍ يَعُدّه فأولى به مِن ذاك ما كان أقربا
فلا لؤمَ عوداً بعـد مجد يَهُدّه ولا مجد مَعدوداً إذا اللؤم عَقّبا

والحسب مأخوذ من قولك : حسبت الشيء أحسبه حسباً ، إذا عددته . وكان الرجل الشريف يحسب مآثر آبائه ويعدّهم رجلاً رجلاً ، فيقال : لفلان حسب ، أى آباء يُعدون وفضائل تحسب ، فالمصدر مسكن والاسم مَفتوح ، كما تقول : هُدمت الحائط هَدْماً ، فتسكن المصدر . وتقول : لما سقط إلى الأرض: هَدَم ، فتفتح الدال من الاسم .

وكذلك الأُمم فيها أُمة كرم بلبانها ، كالعرب ؛ فإنها لم تزل فى الجاهليّة تتواصى بالحلم والحياء والتذمم ، وتتعاير بالبُخل والغَدر والسَّفه ، وتتنزه من الدناءة والمذَمة ، وتتدرّب بالنجدة والصبر والبَسالة ، وتُوجب للجار مِن حفظ الجوار ورعاية الحق فوق ما توجبه للحميم والشفيق ؛ فربما بذل أحدُهم نفسَه دون جاره ، ووقى مالَه بماله وقتل دون حميمه . ومنهم كعبُ بن مامة ، وكان إذا جاوره جارٌ فمات بعضُ لُحمته وَدَاه ، وإذا مات له بعير أو شاة أعطاه مكان ذلك مثلَه . ومنهم عُمير بن سلمى الحنفى أحد أوفياء العرب ، وكان له جار نخالفه أخوه قرين إلى أُمرأته ، فاشتد الرجلُ فى حفظ أُمرأته فقتله ، وكان عُمير غائباً ، فلما قدم وخُبِّر بذلك دفع قريناً إلى ولىّ المقتول فقتله وأعتذر إلى أمه وعظم جرمه ، فقالت :

تَعُدُّ معاذراً لا عُذْر فيها ... ومَن يَقتل أخاه فقد ألاما

ومن أعجب أمر فى الجوار قصةُ أبى حَنبل حارثة بن مُر ، وكان الجراد سَقط بقُرب بيته ، فقصد الحىّ لصيده ، فلما رآهم قال : أين تريدون ؟ قالوا : نُريد جارك هذا . فقال : أىّ جيرانى ؟ قالوا : الجراد . فقال : أمّا إذ جعلتموه لى جاراً فوالله لا تَصلون إليه ، ثم منع منه حتى أنصرفوا ، ففخر بعضُهم فقال :

لنا هَضبة ولنا مَعْقل ... صَعدنا إليه بصُمّ الصِّعادِ
مَلكناه فى أُوليات الزما ... ن مِن بعد نُوح ومِن بعد عاد
ومنا ابنُ مُرٍّ أبو حَنبل ... أجار مِن الناس رَجْل الجَراد
وزَيدٌ لنا ولنا حاتم ... غياثُ الوَرى فى السِّنين الشداد

وقال قيس بن عاصم يذكر قومَه :

لا يَفطنون لعيب جارهمُ ... وهمُ لحِفظ جواره فُطُنُ

وقال مسكين الدارمىّ :

نارى ونارُ الجار واحدة ... وإليه قبلى تُنزل القِدر

ما ضرَّ جاراً لى يُجاورنى أن لا يكون لبابه سِتْرُ

وقال الُحطيئة يَعد محاسن قومه :

أولئك قومٌ إن بنوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفَوْا وإن عَقدوا شدُّوا
وإن كانت النَّعماء فيهم جزوا بها وإن أنْعموا لا كدَّروها ولا كدُّوا
يَسوسون أحلاماً بعيــداً أناتُها وإن غَضبوا جاء الحفيظةُ والجِد
أقِلُّوا عليهــم لا أبا لأبيكُم مِن اللؤم أو سُدُّوا المكان الذى سَدُّوا

ولهم الضيافة عامة شاملة فى جميع البادين منهم ، والإيثار على النَّفس والُجُود بالموجود ، وأفضل العطاء جُهد المُقلّ .

وقال عثمانُ بن أبى العاص : لَدِرْهمٌ يُخرجه أحدُكم من جَهد فيضعه فى حق خيرٌ من عشرة آلاف درهم يُخرجها أحدنا غَيضاً من فَيض .

ولولا ما تواصَوْا به من الضِّيافة ، وتحاضُّوا عليه من الإيثار ، لمات الخيرُ ، وأبدع به دون غايته . وقال أرطاة بن سُهية :

وما دون ضَيْفى من تلادٍ تحوزُه إلى النفس إلا أن تُصان الحلائلُ

وقال ابن أبى الزِّناد : قال عبدُ الملك بن مروان : ما يسرُّنى أن أحداً من العرب وَلدنى إلا عُروة بن الورد لقوله :

وإنى أمرؤ عافِى إنائى شِرْكة وأنت أمرؤ عافى إنائك واحدُ
أتهزأُ منِّى أن سَمنت وأن تَرى بجِسْمىَ مَسَّ الحق والحقُّ جاهد
أُقسِّم جِسْمى فى جُسوم كثيرة وأَحْسو قراح الماء والماء بارد

يريد أنه يقسم قوتَه على أضيافه ، فكأَنه قَسم جسمه ، لأن اللحم الذى ينبت ذلك الطعام يصير لغيره . ويحسو قراح الماء فى الشتاء ووقت الجدب والضيق لأنه يؤثر باللبن . فتوقَّف على هذا الشعر وعلى ما فيه من شريف المعانى .

وقال آخر :

إذا ما عملت الزادَ فالتمسنْ له أكيلاً فإنى غيرُ آكله وحدى
بعيداً قصيًّا أو قريباً فإننى أخاف مَذَمّات الأحاديث من بعدى
فكيف يُسيغ المرء زاداً وجارُه خفيفُ المِعى بادى الخَصاصة والجهد

ولعلّ الطاعن أن يقول فى هذا المَوضوع : فأين هو من ذكر مُزَرّد وحُميد الأرقط وهجائهما للأضياف ، وأين هو من مَطاعمهما الخبيثة من الحيّات والضّباب واليرابيع والعَلهز، وشُربهم الفظ والمجدوح[1] ، وأكل مياسرهم لحوم الإبل حنيذاً[2] غير نضيج ونيًّا ، والعروق والعلابى[3] ، وسقط المائدة لا يعافون شيئاً ، ولا يتقذرون أكل السباع ونهش الكلاب ، ويفخر عليهم بأطعمة العجم وحلوائها ، وآدابها على الطعام ، وأكلها باليارحين[4] والسكين .

فأما هذان الشاعران اللذان يهجوان الأضياف ويصفانهم بكثرة الأكل وجودة اللقم ، فإن أحدهما كان فقيراً ضعيف الحال ، فإذا نزل به الضيف لم يجد بدًّا من إيثاره بقليل ما عنده ، أو مشاركته فيه ، فيبيت طاوياً ويُصبح جائعاً ، ويجيش صدرُه بما حلّ به . والشاعر بمنزلة المَصدور لا بد له من أن يَنفث فيستريح إلى ذكر لَقم الضيف ، ووصف أكله وحديثه . قال هو أو غيره يذكر الضيف :

تجهّز كفّاه ويحدر حلقه إلى الزّور ما ضُمت إليه الأنامل
يقول وقد ألقى المَراسىَ للقِرى أبن لى ما الحجّاج بالناس فاعلُ
فقلتُ له ما إن لهذا طرقتَنا فكُلْ ودَع الأخبار ما أنت آكل
أتانا ولم يَعدِله سحبانُ وائل بَياناً وعِلْماً بالذى هو قائلُ

وقال أيضاً يذكر الأضياف :

باتوا وجلتنا الشهرين بينهم كأن أظفارهم فيها السكاكينُ

---

(١) جدحه : لطخه . (٢) حنيذاً : مشويا .
(٣) العلابى : جمع علباء ، وهو من البعير عصبه الغليظ .
(٤) لم نجد اليارحين فى الكتب التى بيدى .

فأصبحوا والنوَى عالى معرَّسهم وليس كُل النوى يلقى المساكينُ

أراد من الأضياف من يأكل التمر بالنوى ، وهذا يدل على شدّة فقره .

وأما مزَرّد فـكان شَرِهاً منهوماً ، والشره رفيق البخل ، وهو القائل :

لبكت بصاعى حنطة صاع عَجوة إلى صاع سمن فوقه يَترَيَّع[1]

فقلت لبطنى : أبشر اليوم إنه حَوى امناً مما تحوز وتَرفع

فإن يك مصبورًا[2] فهذا دواؤه و إن يك غَرثاناً فذا يوم يشبع

وقال الحطيئة :

أعددت للضيفان كلباً ضارياً عندى وفضل هراوة من أرزن

ومعاذرًا كذباً ووجهاً باسرًا وتَشكياً عضّ الزمان الألزن[3]

وهذا شرُّ القوم . وليس من الناس صِنف إلاّ وفيه الخيرُ والشر ، على ذلك أُسِّست الدنيا ، وعليه دَرج الناس ، ولولا أحدُهما ما عُرف الآخر ، وإنما يُقضى بأغلب الأمور ، ويَحكمون بأشهر الأخلاق . وليس فى ثلاثة مِن الشعراء أو أربعة ما هَدر مكارمَ أخلاق آلاف من الناس وبدّد صنائعهم ؛ فهذا كعبُ بن مامة آثر بنَصيبه مِن الماء رفيقَه النّمرى حتى مات عَطشاً ؛ وهذا حاتم الطائىّ قسّم مالَه بضعَ عشرة مرّة ، ومرّ فى سفره على عَنزة وفيهم أسيرٌ ، فاستغاث به ولم يَحضره شىء ، فاشتراه من العَنزيّين نخلّاه وأقام مكانَه فى القدّ حتى أدّى فداءه ، وكُل فَخْر فى طيئْ فهو راجع إلى نزار ، ولهم الجَبلان وهما بنجد ، وأَخذهم بآدابهم وتخلقهم بأخلاقهم ؛ وهذا عدىّ شاطر ابن دارة الشاعرَ مالَه ؛ وهذا معنٌ فى الإسلام كان يُقال فيه : حدِّث عن البحر ولا حرج ، وعن مَعن ولا حرج . وأتاه رجلٌ يستحمله ، فقال : يا غلام ، أعطه فرساً و بِرْذوناً و بَغلاً وعَيرًا و بَعيرًا وجارية ، ولو عرفتُ مركوباً غيرَ هذا لأعطيتُـكه ؛ وهذا نَهيك بن مالك بن مُعاوية باع إبلَه

---

(١) يتريع : يزيد . (٢) المصبور : الذى صبره صاحبه .

(٣) الزمان الألزن : الشديد الـكلِب .

وأنطلق بأثمانها إلى مِنى فأنهبها ، والناسُ يقولون : مجنون . فقال :

لستُ بمجنون ولكنّى سَمِح أُنهبكم مالى إذا عزّ القمح

وهذا شىء يكثر جدًّا ويتّسع القول فيه ، ويخرج الكتابُ من فنّه باستقصائه . وكان غرضُنا فى هذا الكتاب أن ننبه بالقليل من كل شىء فى عُيون الأخبار .

وأما تعييرُهم إياهم بخبيث المَطعم كالعلهز والحيّات ، وخبيث المَشرب كالفظ والمَجدوح ، فإن هذا وأشباهَه طعام المجاوع والضرورات ، وطعام نازلة الفقر والفلوات . وقال الشاعر :

* إذا السنةُ الشَّهباء حَلّ حرامُها *

يريد أنهم يأكلون فيها المَيتة . وقال الراعى :

إلى ضَوء نار يَشتوى القد أهلُها وقد يكرم الأضياف والقدُّ يشتوى

وإنما كان يكون هذا عيباً لو كانت العربُ مختارةً له فى حالة اليسر ، كما تختار بعضُ العجم الذبابَ وبهم عنه غِنى ، والسراطين والدّجاج لهم معرضة . فأما حالَ الضرورة فالناسُ كُلهم يعُسرون ، فمن لم يجد اللحم أكل اليَربوع والضب . ومَن لم يجد الماء شرب المَجدوح والفظّ .

قال الأصمعى : أُغير على إبل حُرَيثة ، فذهب فركِبَ بحيرة[1] ، فقيل : أتركب الحرام ؟ فقال : يركب الحرامَ مَن لا حلال له . وقال الشاعر :

يا ليتَ لى نَعلين من جِلد الضَّبع كُل الحذاء يحتذى الحافى الوَقع

ومما يدلّك على أنّ أهل الثروة منهم على خِلاف ما عليه الصعاليك والغُثر[2] قول الشاعر :

فما لحمُ الغُراب لنا بزادٍ ولا سَرَطان أنهار البريص[3]

(١) البحيرة : الناقة نتجت كيثيراً فتركوها ترعى وحرموا لحمها إذا ماتت على نسائهم .

(٢) الغثر : سفلة الناس .

(٣) البريص (بالصاد المهملة) : اسم نهر دمشق . والبيت لوعلة الجرمى .

فأنتفى من أكل لحوم الغِربان وعيَّر بها قوماً . وقال آخر لامرأته :

أكلتُ دماً إن لم أرُعك بضرّة بعيدة مَهْوَى القُرط طيِّبة النشرِ

فلو كان شربُ المَجدوح عنده محموداً لم يجعل يمينَه شُربَ الدم ، كما يقول القائل : شركت بالله إن لم أفعل كذا وكذا .

وقال آخر :

نَعافُ وإن كانت خِماصاً بطونُنا لُباب النَّقى والعُجابَ المُجرَّدا

يريد أنه يرغب وإن كان جائعاً عن أكل الخُبز بالتمر إلى أكله بالشحم .

ونزل رجلٌ من العرب فقدِّم إليه جراداً ، فعافها وأنشأ يقول :

لَحَى الله بيتاً ضمَّنى بعد هَجْعة إليه دَجوجىٌّ من الليـل مُظلمُ

فأبصرتُ شيخاً قاعداً بفِنائه هو العَـيرُ إلا أنه يتـكلَّمُ

أتانى ببرقان الدَّبا[1] فى إنائه ولم يكُ فى بَرق الدَّبا لى مَطعم

فقلتُ له غَيِّب إناءك واعتزل فهل ذاق هذا لا أبا لك مُسلم

وأما أكلُهم العَلابىَّ[2] والعُروق واللَّحم النِّئ وتركهم طيب الأطعمة والأطبخة ، وحُسن الأدب عند الأكل ، فهذا لَعمرى هو الأغلب على مَن الأغلب عليه الفقر ، فأما ذوو النِّعمة واليَسار والأقدار ، فقد كانوا يعرفون أطايبَ الطَّعام ويأكلونها ، ويأخذون بأحسن الأدب عليها .

فالمَضـيرة لهم ، واسمها يدلّك على ذلك ، تُطبخ باللّبن الماضر ، وهو الحامض ، فاشتُق اسمُها منها .

والهَريسة لهم ، سُمّيت بذلك لأنها تُهرس ، أى تُدق . ويقال للمدق المِهراس .

والوشيقة لهم ، والعامة تُسميها العشيقة ، سُمِّيت بذلك لأنها تُوشق ، أى تُقطع صغارًا .

(١) الدبا : الجراد . والبرقان : جمع البرقانة ، الجرادة المتلونة .

(٢) العلابى : جمع علباء البعير .

والعَصيدة لهم ، سُمِّيت بذلك لأنها تعصد إذا عملت ، أى تلوى ، وكل شىء ألويته فقد عَصدته . ومنه قيل للمائل عنقه : عاصد . وقال مُزَرِّد :

لبكت بصاعى حِنْطة صاع عَجوة ... إلى صاع سَمن فوقَه يتريّع

وهذا هو العصيدة . وقال أُمية بن أبى الصلت فى عبد الله بن جُدعان :

له داعٍ بمكة مشمَعِلّ[1] ... وآخرُ فوق دارته ينادِى

إلى رُدُحٍ[2] من الشيزى[3] مِلاَء ... لُباب البر يُلبك بالشِهاد

وهذا هو الفالُوذ . وهم أوصفُ الناس للطعام وألطفُهم فى ذكره .

حدّثنى أبو حاتم قال : حدّثنى الأصمعىّ قال : حدّثنا أبو طُفيلة قال : حدّثنا شيخٌ من أهل البادية قال : ضِفْنا فلاناً بحنطة كأنها مَناقير النغران[4] ، وتمر كأنها أعناق الورلان[5] ، يوحل فيها الضرس .

وحدّثنا الأصمعىّ أيضاً عن أعرابىّ أنه قال : تَمرنا خُرْس فُطْس ، يغيب فيه الضِّرس ، كأنَّ نواهنّ ألسُن الطير ، تضَع التمرة فى فِيك فتجد حلاوتها فى كَعْبك .

وحدّثنى عبدُ الرحمن عن عمِّه قال : قال شيخ من أهل المدينة : فأتانى بمَرَقة كأنَّ فيها مشقاً ، فلم أر إلا كبداً طافية . فغمستُ يدى فوجدتُ مضغة ، فمددتُها فامتدّت حتى كأنى أزمرُ فى ناى .

ولهم أطبخة كثيرة . ومن أطبختهم الغسَّانية ، وهى لا تعرفها عامّتنا ، كالحيسة والرَّبيكة والخريزة واللفيتة . تركتُ ذكرَها واقتصرتُ على ما تعرف .

وكانوا يقولون : أطيب اللحم عوذة . يريدون أطيبه ما وَلى العظمَ كأنه عاذبه .

---

(١) اشمعل القوم فى الطلب اشمعلالا ، إذا بادروا فيه وتفرقوا .

(٢) ردح : جمع رداح كسحاب : الجفنة العظيمة .

(٣) الشيز والشيزى : خشب أسود تتخذ منه القصاع .

(٤) النغر (كصرد) : البلبل ، وفراخ العصافير ، وضرب من الحمر أو ذكورها ؛ والجمع نغران . وبتصغيرها جاء الحديث : يا أبا عمير ، ما فعل النغير ؟

(٥) الورلان : جمع الورل ، محركة : دابة كالضب أو العظيم من أشكال الوزغ ، لحمه حار جدا .

وكانوا يقولون : إذا أكلتم فسمّوا وأدنوا . يريدون « بأدنوا » كُلوا مما بين أيديكم . وكانوا يكرهون أكْلَ الدّماغ ويرون استخراجه رغباً وحرصاً . وقال قائلهم :

* ولا يتّقى المخ الذى فى الجماجم *

ومن قبائل العرب مَن يعاف ألية الشاة ويقولون : هى طبق الاست .

وقال قائلهم :

والموتُ خيرٌ من زيارة باخلٍ ... يُلاحظ أطرافَ الأكيل على عَمْدِ

وكانوا يُمدحون بقلّة الأكل . وقال أعشى باهلة :

تكفيه حزّة فلذان ألمّ بها ... مِن الشِّواء ويروى شَربة الغمر

ويعيبون بالشَّره والنَّهم والكسل . ويقولون للبخيل الأكول : أبرماً قروناً . يريدون أنه لا يُخرج مع أصحابه شيئاً ويأكُل تمرتين . وأصل البرم ، الذى لا يسير مع القوم . وقال بعض الرجاز :

لا تسألن عن بعلها أىّ فتى ... خبٌّ جبانٌ وإذا جاع بكى
لا حَطب القومَ ولا القومَ سَقى ... ولا ركاب القوم إن ضَلَّتْ بغى
ويأكُل التمرَ ولا يُلقى النوى ... ولا يُوارى فرجَه اذا اصطلى
كأنه غرارةٌ ملأى حشا

وقال الأحنف : جنّبوا مجلسنا ذكرَ النساء والطعام ، فإنى أُبغض أن يكون الرجلُ وصّافاً لبطنه وفرجه .

وإنّ من المروءة أن يترك الرجلُ الطعامَ وهو يَشتهيه . وقال قائلهم : أقلل طعاماً تحمد مناماً . وقال أيضاً : غلبتْ بِطْنتى فِطْنتى .

وقال عمرو بن العاص لمعاوية يوم الحكمان : أكثروا الطعام فوالله ما بَطن قوم إلا فقدوا بعضَ عقولهم ، وما مضت عزمةُ رجل باتَ بَطيناً .

ومثلُ هذا كثير لمن تتبعه ، فكيف تكون المعرفةُ بالطعام والأدب عليه إلا كما وصفنا.

وأما تركهم إنضاج اللحم فلا أعلمه إلا فى مَوضع واحد ، وهو إذا سافروا وغَزَوا فإنهم يتمدَّحون بترك الإنضاج لعَجلة الزَّماع . وقال الشماخ :

وأشعثَ قد قدَّ السفارُ قميصَه يجر الشِّواء بالعَصا غير مُنضجِ

وقال الكُميت :

ومُرْضوفةٍ لم تُؤن فى الطَّبخ طاهياً عَجلتُ إلى مُحْوَرِّها حين غرْغرَا[1]

ولم يزل الشرب إذا اجتمعوا ، الأحداث من أولاد الملوك وغيرهم ، يبادرون بالنشيل[2] قبل النضج . قال أعرابى نَحر بعيرَه وشرب :

علِّلانى إنما الدُّنيا علَلْ ودَعانى من مَلام وعَذَل

وانشُلا ما اغبرَّ من قِدْرَيْكما واسقِيانى أبعَد اللهُ الجَمَل

وأما أكلهم سَقط المائدة فإنه إكرامٌ للطَّعام ، وإعظام للنِّعمة ، وجنْس من الشُّكر لواهبها . ونَبذُه فى المَزابل استخفافٌ به ، وتَصغير له ، وبَخس بمُؤتيه حقَّ عطيّته . ومَن وَهب لك شيئاً صُنته وعَظَّمته ، سمحتْ لك نفسُه بالزيادة منه ؛ وإن احتقرتَه وازدريتَه كان حَريًّا أن يَقطعه . والطعامُ أعظمُ نِعم الله على خَلْقه بعد مَعْرفته ، لأنه مُثبت الروح ، ومُمسك الرمق ؛ فمَن صانَه فقد عظَّم نعمةَ الله ، واستوجب زيادة الله ، ومن امتهنه فى غير ما خُلق له فقد صَغَّرها واستوجب سخط الله .

حدَّثنا يزيد بن عمرو قال : حدَّثنا أيوبُ بن سُليمان عن محمد بن زياد عن مَيمون بن مِهران عن ابن عباس قال : ولا أعلمه إلا عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : أكرموا الخُبز فإنَّ الله سخَّر له السموات والأرض . وقد أمرنا صلى الله عليه وسلم بأكْل سَقط المائدة ورغَّبنا فيه .

---

(١) لم تؤن : لم تحبس ولم تبطىء . ومحورها : يريد بياض زبد القدر ، والاحورار : الابيضاض . وغرغر اللحم على النار : إذا صليته فسمعت له نشيشا .

(٢) نشل اللحم وانتشله : أخرجه من القدر بيده بلا مغرفة ، فهو نشيل ومنتشل .

والعجبُ عندى من قوم يخلّتهم الإسلام ، ونبيّهم محمد صلّى الله عليه وسلم ، ثم تتابعت الأخبار عنه بشيء أمر به أو نهى عنه ، فيعارضون ذلك بالعيب وبالطّعن ، من غير أن يعرفوا العِلّة ، ولا أن يكون لهم فى الإنكار له نفع ، أو عليهم فى الإقرار به ضرر .

وأما أكلهم باليارحين(١) والسكين فمفسد للطعام ، ناقص للذّته ، والناس يعلمون ، إلا مَن عاند منهم وقال بخلاف ما تعرفه نفسُه ، أن أطيَب المأكول ما باشرته كفٌّ آكله ، ولذلك خُلقت الكفّ للبطش والتناول . والتقذّر من اليد المُطهرة ضعف وعجب ، وأولى بالتقذّر من اليد الريق والبلغم والنّخاع الذى لا يسوغ الطعام إلا به ، وكف الطبّاخ والخبّاز تُباشره ، والإنسان ربما كان منه أقل تقذّراً أو أشد أنساً .

وأما الشجاعة ، فإن العرب فى الجاهليّة أعز الأُمم أنفساً ، وأعزّها حريماً ، وأحماها أُنوفاً ، وأخشنها جانباً ، وكانت تغير فى جَنبات فارس وتطرُقها حتى تحتاج الملوك إلى مُداراتها وأَخذ الرهن منها ، والعجم تَفخر بأساورةِ فارس ومَرازبتها ، وقد كان لَعمرى لهم البأسُ والنّجدة ، غير أن بين العرب وبينها فى ذلك فَرْقاً ، منه أنّ العجم كانت أكثر أموالا ، وأجودَ سلاحاً ، وأحصَن بيتاً ، وأشدّ اجتماعاً ؛ وكانت تحارب برياسة ملك ، وسياسة سُلطان ؛ وهذه أمور تقوّى المُنّة ، وتَشد الأركان ، وتؤيّد القلوب ، وتثبت الأقدام . والعربُ يومئذ منقطعة ليس لها نظام ، ومتفرّقة ليس لها التئام ، وأكثرها يحارب راجلاً بالسيف الكليل ، والرمح الذليل ، والفارس منها يُحارب على الفَرس العربىّ الذى لا سَرج له ، وعلى السرج الرثّ الذى لا ركاب له . والأغلب على قتال العجم الرمى ، والأغلب على قتال العرب السيفُ والرمح ، وهما أدخل فى الجد ، وأبعدُ من الفرار ، وأدلّ على الصبر .

وشجعاؤهم فى الجاهليّة مثلُ عُتيبة بن الحارث بن شهاب صيّاد الفوارس ، وبسْطام ابن قيس ، وبجير وعفاف ، ابنى أبى مليل ، وعامر بن الطّفيل ، وعمرو بن وُدّ ، وأشباههم .

---

(١) كذا .

وفى الإسلام مثل الزُّبير وعلىّ وطلحة ، ورجال من الأنصار ، وعبدُ الله بن حازم السُّلمى ، وعبّاد بن الُحصين .

وقال : ما ظننت أن أحداً يعدل بألف فارس حتى رأيتُ عبّاداً ليلة كابل . وقطرى ابن الفُجاءة ، وشَبيب الحرورى ، وأمثال هؤلاء عدد الرمل والحصى ، ليس منهم أحدٌ إذا أنت توقّفت على أخباره وحاله فى شجاعته ، إلا وجدته فوق كل أسوار ، والرجليون (١) للعرب خاصة .

قال أبو عبيدة : رجليّو العرب المشهورون ، المنتشر بن وهب الباهلى ، وسُليك بن عمير السعدى ، وأوفى بن مطر المازنى . وكان الرجل منهم يلحق بالظبى حتى يأخذ بقرنيه . وإذا كان زمانُ الربيع جعلوا الماء فى بَيض نعام مَثقوب ثم دفنوه ، فإذا كان الصيفُ وانقطع الغزو غزوا وهم أهدى من القطا ، فيأتون على ذلك البيض ويستثيرونه ويَشربونه .

وحدّثنى أبو حاتم قال : حدّثنى الأصمعى : ان السّليك كان يَعدو فتقع سهامُه من كنانته بالأرض فترتز (٢) . وكان يقول فى دُعائه : اللهم إنى أعوذ بك من الخيبة ، وأما الهيبة فلا هَيبة .

وقرأت فى كتب العجم أن بهرام جور كان فى حِجْر ملك العرب بالبادية ، فلما بلغه هلاكُ أبيه وأن الفرس عَزموا على أن يملّكوا غيره ، سار بالعرب حتى نزل السواد ، وطالبهم بالمُلك وجادلهَم عنه ، حتى اعترفوا له بالحق وملّكوه .

وقد كان كسرى أغزى بنى شَيبان جيشاً ، فاقتتلوا بذى قار ، فهزمت بنو شيبان أساورةَ كسرى ، فهو يوم ذى قار . ثم كان من أمر العرب وأمر فارس حين جمعهم الله لقتالهم بالإمام ، وساسهم بالتدبير ، ما لا حاجة بنا إلى الإطالة بذكره لشُهرته .

ومما يدلّك على تعزز القوم فى جاهليّتهم وأنفتهم وشدّة حميّتهم ، أن أبرويز ، ملك

(١) الرجليون (محركة) : قوم كانوا يعدون على أرجلهم .
(٢) ترتز : تغرز .

فارس وأشدّها سَطوة و إثخاناً فى البلاد ، خطب إلى النّعمان بن المنذر إحدى بناته ، فردّه رغبةً بها عنه ، ولم يزل هار باً منه حتى ظَفِر به فقتله .

وكان لقُريش بيتُ الله الحرام العتيق ، المنصور من الجبابرة بالطير الأبابيل ، لم يزالوا ولاتَه وسَدَنته ، والقائمين لأموره ، والمُعظّمين لشعاره . وكان يقال لهم : أهل الله ، وجيران الله ، لنزولهم الحرم وجوارهم البيت . وكان فيهم بقايا من الحنفية يتوارثونها عن إسماعيل صلى الله عليه وسلم ؛ منها : حج البيت الحرام وزيارته ، والخِتان والغُسل ، والطلاق والعِتْق ، وتحريمُ ذوات المحارم بالقرابة والرّضاع والصهر .

وقد كان حاجب بن زُرارة وَفد على كسرى فرأى العَجم يَنْكحون الأخوات والبناتِ ، فسوّلت له نفسه التأسى بهم ، والدخول فى مِلّتهم ، فنَكح ابنته ، ثم نَدِم على ذلك فقال :

لحا الله دينَك مِن أغلَف ... يُحِلّ الخوات لنا والبنات
أجشّت[1] على أسرتى سوءةٌ ... وطَوّقت جِيدىَ بالمُخزيات
وأبقيتُ فى عُنقى سُبّة ... مشاتم يَحْيين بعد الممات
فتاة تجلّلها شيخها ... فبئس الشيخُ ونعم الفتاة

ومما كان بَقى فيهم من الحنفية إيمانُهم بالمَلَكَيْن الكاتبين . حدّثنى بعضُ أصحابنا عن عبد الرحمن بن خالد الناقد قال : كان الحسنُ بن جَهور ، مولى المنصور ، خرّج إلى بعض ولد سُليمان بن على بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطلب كتاباً كان لعبد المطلب بن هاشم كتبه بخطه ، فإذا هو مثل خطّ النساء وإذا هو : باسمك اللهم . ذكر حقّ عبد المطلب ابن هاشم من أهل مكّة على فلان بن فلان الحِميرى من أهل زول صنعاء . عليه ألفُ درهم فضّة طيبة كيلا بالحديدة ومتى دعاه بها أجابه . شهد الله بذلك والملكان » . وقال الأعشى :

ولا تَحسبنّى كافراً لك نعمةً ... على شاهدى يا شاهد الله فاشهدِ

(١) أجشت الأرض : التف نبتها وحشيشها .

قوله : على شاهدى . أى على لسانى شاهد الله ، يعنى الملك .

ومن ذلك أحكام كانت فى الجاهلية أقرّها الله فى الإسلام ، لا يبعد أن تكون من بقايا دين إسماعيل صلى الله عليه وسلم ؛ منها : دية النفس مائة من الإبل ، ومنها أتباع حكم المبال فى الخُنثى ، ومنها البينونة بطلاق الثلاثة ، وللزوج على المرأة فى الواحدة والأثنتين .

فهذه حالها فى الجاهلية ، مع أحوال كثيرة فى العلم والمعرفة سنذكرها بتمامها بعد إن شاء الله .

ثم أتى الله بالإسلام فاُبتعث منها النبيّ صلى الله عليه وسلم ، سيّد الأنبياء ، وخاتَم الرسل ، وناسخَ كل شرعة ، وحائز كل فضيلة . ونَشر عددها ، وجَمع كلمتها ، وأمدّها بملائكته ، وأيّدها بقوته ، ومكّن لها فى البلاد ، وأوطأها رقابَ الأمم ، وجعل فيها خلافة النبوة ، ثم الإمامة خالدة تالدة ، حتى يأتى المسيح صلى الله عليه وسلم فيصلى خلف الإمام منها فاردة لا يَستطيع أحدٌ أن يأتى بمثلها . وخاطبها يومئذ لا عَجم فيها ، فقال : (كُنْتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاس) . فلها فضلُ هذا الخطاب ، والأمم طرًّا داخلةٌ عليها فيه . وأما قوله لبنى إسرائيل : (وَفضَّلْكُم عَلَى الْعَالَمِين) . فإنه من باب العام الذى أُريد به الخاص ، كقوله حكاية عن إبراهيم : (وأنَا أوّلُ المُسْلمين) . وحكايةً عن مُوسى : (وأنَا أوّلُ المؤمنين) . وقد كانت الأنبياء قبلهما مُؤمنين ومُسلِمين . فإنما أراد موسى زمانَه . وكذلك قولُه : (وفَضَّلْتُكم على العالَمِين) . يريد عالمى زمانهم . وقولُه لقريش : (أهم خَيْر أم قَوْم تُبَّع والذين مِن قَبلِهم) . ليس فيه دليلٌ على أن أهل اليمن خيرٌ من قريش فى الحَسب ، ولا أنهم مثلهم ، وهم من ولدِ إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم ، ومن الذّرية التى أصطفى الله على العالمين ، وليس لليمن والد من الأنبياء دون نوح . وإنما خاطب الله بها مُشركى قُريش ووَعظهم بمن قبلهم من الأمم الهالكة لمَعصيته ، وحذَّرهم أن ينزل بهم مثلُ ما أصابهم فقال : (أهم خَيْر) من أولئك الذين كانت فيهم التبابعة والملوك ذوو الجُنود والعدد ، فأهلكناهم بالذّنوب . والخيرُ قد يقع فى أسباب كثيرة ، يُقال هذا

خيرُ الفارسين ، يريد أجلدهما ؛ وهذا خيرُ العودَيْن ، يريد أصلبَهما . وكانت قُريش كما قال الله قليلاً فكثّرهم ، ومُستضعفين فأيّدهم بنَصره ، وخائفين أن تتخطّفهم الملوك فآمنهم بحَرَمه ، بما رهصه[1] لهم ، وأراد من تمكينهم ، و إعلاء كلمتهم ، و إظهار نُوره لهم ، وتَغيير ممالك الأمم لهم . ومَن ذا من المسلمين يصح إسلامه و يصح عقده يقدّم على قريش أو يعادل بها ، وقد قَضى الله لها بالفَضل على جميع الخَليقة ، إذ جعل الأئمة منها ، والإمامة فيها مقصورةً عليها أن لا تكون لغيرها ، والإمامة هى التقدّم . وهذا نصٌّ ليس فيه حِيلة لمتأوّل .

قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « الأئمة من قُريش » .

وروى وكيع عن الأعمش عن جابر قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « الناس تَبع لقريش فى الخَير والشر » .

ورَوى وكيعُ عن سفيان عن ابن خثيم عن إسماعيل عن عبد الله عن أبيه عن جدّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن قريشاً أهلُ صبر وأمانة ، فمن بغاهم الغوائل كبّه الله لوجهه يوم القيامة » .

وروى عن عبد الأعلى عن مَعمر عن الزُّهرى عن سهل بن أبى حثمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تَعلموا من قريش ولا تُعلموها ، وقدموا قريشاً ولا تُؤخروها » .

وروى يزيد بن هارون عن ابن أبى ذِئب عن الزهرى عن طلحة بن عبد الله بن عوف عن عبد الرحمن عن جبير بن مطعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن لقُرشى قوة رجلين من غير قريش » . قيل للزهرى : ما عَنى بذلك ؟ قال : فضل الرأى . قال : وكان يقال : قريش الكَتبة الحَسبة مِلْح هذه الأمة علم عالمها طباق الأرض .

وحدّثنى يزيد بن عمرو عن محمد بن يوسف عن أبيه عن إبراهيم عن مكحول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقومنّ أحد إلا لهاشمى » .

(١) رهص الله فلانا : جعله معدنا للخير .

وحدثنى يزيد بن عمرو قال : حدّثنا نصر بن خلف الضبّى قال : حدّثنا علىّ بن عبد الله بن وثاب المدنى عن مطرف بن خُويلد الهُذلى قال : سمع رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم رجلاً وهو يقول :

إنى أمرؤ حِميرىٌّ حين تَنسبنى لا مِن ربيعةَ آبائى ولا مُضَر

فقال : ذاك أَضْرَع لخدّك ، وأبعد لك من الله ورسوله .

وحدثنا محمد بن عُبيد قال : حدّثنا أبو زيد شُجاع بن الوليد قال : حدّثنا أبو قابوس ابن أبى ظَبيان عن أبيه عن سَلْمان قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم : « يا سلمان ، لا تُبغضنى فتُفارق دينَك » . قال : قلت : يا رسول الله ، كيف أُبغضك وبك هَدانى الله ؟ قال : « لا تُبغِض العربَ فتُبغضنى » .

وروى محمد بن بشر العبدىّ قال : حدّثنا أبو عبد الرحمن عن حِصْن بن عُمير عن مُخارق بن عبد الله بن جابر عن طارق بن شِهاب عن عثمان بن عفّان قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَن غشّ العربَ لم يدخل فى شَفاعتى ولم تَنله مودّتى » .

وروى حُميد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن المُؤمّل عن عطاء عن ابن عبّاس قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إذا اختلف الناسُ فالحق فى مُضر » .

وروى أبو نَعيم عن الثّورى عن يزيد بن أبى زِياد عن عبد الله بن الحارث عن المُطّلب بن أبى وَداعة والمُطلب بن ربيعة أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خَلقه ، وجَعلهم فِرقاً فجعلنى فى خَيرهم فِرْقة ، وخَلق قبائل فجعلنى فى خَيرهم قَبيلة ، وجعلهم بُيوتاً فجعلنى فى خيرهم بيتاً » .

ثم يتلو العرب فى شَرف الطّرفين أهلُ خراسان ، أهل الدّعوة وأنصار الدولة ؛ فإنهم لم يزالوا فى أكثر ملك العجم لقاحاً ، لا يؤدّون إلى أحد إتاوة ولا خراجاً ، وكانت ملوك العَجم قبل ملوك الطوائف تنزل بَلْخ ، ثم نزلوا بابل ، ثم نزل أزدشير بابك فارسَ ، فصارت دارَ مُلْكهم ، وصار بخُراسان ملوك الهياطلة ، وهم الذين قتلوا فيروز بن يَزْدجرد

ابن بهرام ملك فارس ، وكان غزاهم فكادوه فى طَريقه بمكيدة حتى سَلك سبيلًا مُعطشة مُهلكة ، ثم خرجوا إليه فأسروه وأكثرَ أصحابه ، فسألهم أن يمنّوا عليه وعلى مَن أُسر معه ، وأعطاهم مَوْثقاً من الله أنْ لا يغزوهم ولا يجوز حدودَهم ، ونَصب حجراً بينه و بين بلدهم جعله الحدَّ الذى حلف عليه ، وأَطلقوه . فلما عاد إلى مَملكته أخذتْه الأنفة والحَمِيّة بما أصابه ، فعاد لغزوهم ناكثاً لأيمانه ، غادراً بذمته ، وحمل الحجَر ، الذى كان نصب ، أمامَه فى مَسيره يتأوّل أنه ما تقدّم الحجر فإنه لم يجزه . فلما سار إليهم ناشدوه الله وأذكروه ما جعل على نَفسه من عهده وذِمّته ، فأبى إلا لَجاجاً ونكثاً ، فواقعوه فقَتلوه وقتلوا حُماته وكُماته ، واستباحوا عسكره وأسروا ضَعفته ، ولَبثوا فى أيديهم أسْرَى ثم أعتقوهم وأطلقوهم ، وغَبروا بعد ذلك زماناً طويلاً ، وقَتلوا كسرى بن فيروز . وهذا شيء يُخبر به عن فارس فيما دونوا فى سِيَر ملوكهم من أخبارهم . ومن أقر بهذا على نفسه لعدوّه ، وأباحه لخصمه . فما ظَنّك بما ستر وزَيّن من أمره .

وكان فيما حكوا من الكلام الدائر بين مَلِك الهيَاطلة و بين فَيروز ، كلامٌ أحببتُ أن أذكرَه فى هذا الموضع لأدلّ به على حِكْمة القوم وحَزْمهم فى الأمور ، وعِلْمهم بمكايد الحُروب ، قالوا : لما التقى الفريقان ثم تصافّوا للقتال أرسل إخشنوار ملكُ الهياطلة إلى فيروز يسأله أن يبرز فيما بين الصفّين ليكلّمه ، فخرج إليه . فقال إخشنوار : قد ظننت أنه لم يَدْعك إلى مقامك هذا إلا الأنف ممَّا أصابك ، ولعمرى لئن كُنا احتلنا لك بما رأيت ، لقد كنتَ التمستَ منّا أعظم منه ، وما ابتدأناك ببَغى ولا ظلم ، ولا أردنا إلا دَفْعك عن أنفسنا وحريمنا ، ولقد كُنت جديراً أن تكون من سُوء مكافأتنا عليك وعلى مَن معك ، ونَقض العهد والميثاق الذى أكّدت على نفسك أعظم أنفاً ، وأشدَّ امتعاضاً مما نالك منّا ، فإنا أطلقناكم وأنتم أُسارى ، ومَننا عليكم وأنتم مُشرفون على الهَلكة ، وحَقنا دماءكم و بنا على سَفكها قُدرة ، و إنا لم نجبرْك على ما شَرطت لنا ، بل كُنت الراغبَ إلينا فيه ، والمُريد لنا عليه ، ففكّر فى ذلك ومثّل بين هذين الأمرين فانظر أيهما أشد

عاراً ، وأقبح سماعاً ، أن طلب رجلٌ أمراً نلم يُتح له ، وسَلك سبيلاً فلم يَظفر فيها ببُغية ، وأستمكن منه عدوّه على حال جَهد منه ، وضيقة ممن معه ، فمنَّ عليهم وأطلقهم على شَرْط شرطوه ، وأمرٍ أصطلحوا عليه ، فأصطبرَ لمكروه القضاء ، وأستحيا من الغدر والنَّكث . أم أن يُقال نَقض العهد ، وختر(١) بالميثاق . مع أنى قد ظننتُ أنه يزيدك لجاجة ما تثق به من كَثرة جنودك ، وما تَراه من حُسن عدّتهم ، وما أجدنى أشكّ فى أنهم أو أكثرهم كارهون لما كان من شُخوصك بهم ، عارفون بأنك قد حملتَهم على غير الحق ، ودعوتَهم إلى ما يُسخط الله ، فهم فى حَربنا غيرُ مستبصرين ، ونيّاتهم اليوم فى مُناصحتك مَدخولة ، فانظرُ ما غَناء من يقاتل على هذه الحالة ، وما عسى أن تبلغ نكايتُه فى عدوّه إذا كان عارفاً أنه إن ظفِر فمع عار ، وإن قُتل فإلى النار .

فأنا أذكّرك الله الذى جعلتَه على نفسك كفيلا ، ونِعمَتى عليك وعلى مَن معك بعد يأسكم من الحياة ، وإشرافكم على الممات . وأدعو إلى ما فيه حظّك ورُشدك من الوفاء بالعَهد ، والأقتداء بآبائك الذين مَضوا على ذلك فى كُل ما أحبّوا أو كرِهوا ، فأحمدوا عواقبَه وحسن عليهم أثره . ومع ذلك إنك لستَ على ثِقـة من الظّفَر بنا ، والبلوغ لبُغيتك فينا ، وإنما تَلتمس منّا أمراً نلتمس منك مثلَه ، وتبادئُ عدوًّا لعلّه يُمنح النصرُ عليك . فدونك هذه النصيحةَ . فبالله ما كان أحدٌ من أصحابك ببالغ لك أكثر منها ، ولا زائدٍ لك عليهـا ، ولا يَحْرمنك منفعتَها مخرجُها منى ، فإنه لا يُزرى بالمنافع عند ذَوى الرأى أن تكون من الأعداء ، كما لا يُحبب المضارّ إليهم أن تكون على أيدى الأولياء . ونحن نستظهر بالله الذى أعتذرنا إليه ، ووثقنا بما جعلتَ لنا من عهده ، إذا استظهرتَ بكثرة جُنودك ، وازدهتْك عُدة أصحابك . واعلم أنه ليس يدعونى إلى ما تَسمع من مقالتى ضعفٌ أُحسه من نفسى ، ولا قـلّة من جنود ، ولـكنى أحببتُ أن أزداد بك حُجة واستظهاراً ، وأزداد به للنَّصر .

---

(١) ختر : غدر .

رسالة رشيد الدين الوطواط

فيما جرى بينه وبين الإمام الزمخشرى من المحاورات

عنى بنشرها العلامة أحمد تيمور باشا

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب العلّامة رشيدُ الدين محمدُ بن محمد بن عبد الجليل العُمرى ، المشهور بالوطواط ، إلى الإمام سديد الدين بن نَصر الحاتمى :

طلبتَ منّى — زيَّنك الله تعالى بأنوار المزايا ، وحَماك من كُل حادثة مُلِمة ، وكل طارقة مُهِمة ، ولا أخلاك من فَخْر تجتلبه ، وجَميل ذكر تكتسبه ، وجَزيل أجر تحتسبه ، وأثر جَهل تجتنبه — أن أُهدى إليك ، وأُملى عليك ، ما قال جارُ الله — سَقى الله ثَراه — فى كتاب الكشّاف فى وَجه انتصاب شهر رمضان ، وما قلتُه من الاعتراض على كلامه ، واستبعاد مَذْعاه عن مرامه ؛ مما جرى بينى و بين أعزّ أصحابه ، أفضل القضاة يعقوب الجندى من السؤال والجواب . وها أنا مُطبق فيما أقوله ، مفصّل السداد والصواب . وقد ذهب مَن عندى إلى جار الله وأخبره بما قلتُ فأنصف وأنصت ، وأبدى خُضوعاً لاستماع الصِّدق ، واتباع الحق ، وقال له :

ذكّرنى هذا الأمرَ بعضَ أيام فراغى حتى أُصلح من كتابى هذا الفصل ، وأغيِّر هذا القول ، فإنه غلط شنيع ، وخطأ فظيع . إلا أنه مرض فى تلك المُدة ، ونزلت به المنية ، وما حصلتْ تلك الأمنية .

وقد علم كُل مَن شاهد أحوالى مع جار الله أنى كنتُ عنده مُعظَّم القَدر ، مفخَّم الأمر ؛ مَقبول الكلمات ، مَتبوع الإشارات ؛ لم يَرَ منّى كلمةً فى أى عِلم إلا قيّدها ببَنانه ، وضَبطها فى جَنانه ؛ وأثبتَها فى دفاتره ، وأحكمها فى خواطره ؛ وعدَّها غنيمةً من غنائم عمره ،

وتميمةً من تمائم نحره ؛ وقد جَرى بيني وبينه في حَياته ، وأوقات راحاته ؛ مما يتعلق بفنون الأدب ، وأقسام علوم العرب ؛ مسائلُ أكثرُ من أن يُحصى عددُها ، أو يُستقصى أمدُها ؛ رَجع فيها إلى كلامى ، ونَزل على قضيَّتى وأحكامى . فالسعيدُ مَن إذا سَمع الحقّ سكتت شقاشقُ لجاجه ، وسكنتْ صواعق حجاجه .

فمنها مسألة الظبى التى هى جمع ظُبة . فإنه كتب بخطه : إنها من ذوات الياء ، وأصلُها ظبية . فقلت أنا : إنها من ذوات الواو وأصلُها ظبوة . فلما امتدَّت المُناظرة ، واشتدت المذاكرة ؛ بعثتُ إليه كتابَ الصحاح يصدِّق قولى ، فهجَّن الكتاب وقال : إنه محشوٌّ بالتَّحريفات ، مشحون بالتصحيفات . فبعثتُ إليه سرَّ الصناعة لابن جنى . فقال : هو رجل وأنا رجل . فبعثتُ إليه كتاب العين . فوضع للحق عُنقه ، وسَلك مناهجَ الإنصاف وطَرقه ؛ واستردَّ خطَّه ومزَّقه تمزيقاً ، وخرَّقه تخريقاً ؛ برأى ومَسمع من صَدْر الأئمة ضياء الدين أدام الله إجلاله ، وزاد إقباله .

ومنها مسألةُ « كلا الرجلين » . إذ كتب فى حالة الجرّ والإضافة المظهر بالألف . فقلت : الصواب أن يكتب بالياء ، وأيدت قولى بنص ابن دَستوريه فى كتابه الموسوم بكتاب الكتاب ، وجرى هذا بحَضرة الإمام الأجل زين المشايخ البقالى ، أدام الله سعادته ، وحرس سيادته .

ومنها مسألة « نسر وفرقد » . فى تثنيتهما بغير ألف ولام فى شعرى ، فأنكره وقال : لا يجوز هذا فى الشعر ولا فى غيره . فأريتهُ ذلك فى شعر المَعرّى وأبى تمام . فقال : أخطأ . حتى أراه سلمان بيته ، وصدى صوته ، الإمام فخر الإسلام المؤذنى ذلك فى شعر الأعشى ، فعند ذلك لانت خُشونته ، وسهلت حزونته .

ومنها مسألة الجمع بين الضرب المحذوف والضرب الصحيح فى شعر واحد من الطويل وقع له فى ديوانه فى قوله :

جِوار فريد العَصر خير جوار ودار فريد الدهر أكرم دار

ثم قال : فلله من جارٍ حَمدنا جوارَه ولله من فَرد ولله من دارِ

فضرب الأول محذوف ، وضرب الثانى صحيح ، ولا يجوز اجتماعهما فى هذا البحر باتفاق العروضيين . فلما نبّهته لهذا على لسان تلميذه المُحسن الطالقانى ، طلب ديوانه وغيَّره هكذا :

* ولله من نار وموقد نار *

فاستقام وزنه .

ومنها مسألة « الحادى عشرة والثانية عشرة » .

ومنها مسألة التحيّة . ومنها مسألة تجريد الإمالة . ومنها مسألة إدخال الوليد بن الوليد فى جُملة الكفرة من أولاد الوليد بن المُغيرة . وسيأتى ذكره فى رسالته إلى الحاتمى .

ولو نقلتُ ما فى كِنانتى من المكنونات ، ونثرتُ ما ادخرته فى خزائن المَخزونات ؛ طال الكلام ، وكلت الأقلام ؛ وإنما ذكرتُ هذا القدر اليسير ليعلم فِتيان هذه الخطة أنَّ هذا الإمام كان صَبوراً على مرارة الحق ، وحَرارةِ الصدق ؛ مع أنه ربّ هذه البضائع ، وصاحب هذه الوقائع .

فصل

قوله : قرأ أبىّ : شهر رمضان ، بالنصب على تقدير صوموا ، أو على الإبدال من « أياماً معدودات » ، أو على أنه مفعول أن تصوموا . وأقول : قولاه الأولان صحيحان لا مَطعن فيهما ؛ وأما الثالث فموضع بحث . إذ لا يجوز مثله البتة ، لأنه لو كان كما زَعم كان شهرُ رمضان تتمّة لأن تصوموا ، ولكان مجموعها فى حكم مُبتدأ واحد ، وصار تقديره : صوم رمضان خير لكم . وليس بجائز أن تجعل المُبتدأ نصفين وتَفصل بينهما ، وتُدخل الخبر فى وسطهما . إما أن يكون خبراً لمبتدإ متأخراً عن المبتدإ الأول ، وهو الأصل ، أو مقدماً عليه بشرط التعريف وغيره من الشروط ، وهذا هو الفرع ، وإما أن يكون واقعاً بين شرط من المُبتدإ فليس من كَلام العرب ، كقول القائل — لِمن ينفعه اللحم : أن تأكُل اللحم خيرٌ لك صحيح . وقوله : خيرٌ لك أن تأكل اللحم صحيح .

فأما قوله : أن تأكل خيرٌ لك اللحم ، فغير صحيح . وهذا قولى الذى أُستحسنه جار الله . والله أعلم بكتابه ، وأعرف بأسرار خَطابه .

وقد كتبتُ هذه الرسالة فعليك بحفظها عن هؤلاء الذين لا يَفهمون الدقائق ، ولا يعلمون الحقائق ؛ فإنى حررتها لأمثالك من ذوى الفهم والهداية ، وأشكالك من أولى العلم والدراية ؛ لا لهؤلاء الذين عميت أبصارهم وبصائرهم ، وصدئت أفكارهم وخواطرهم ؛ فإن رياض العلم لا تفتق للمجانين ، وحياض الرحمة لا تدفق للشياطين ، والسلام .

منتخب من عهد ازدشير بن بابك الملك

فى السياسة

عنى بنشره العلامة أحمد تيمور باشا منقولاً عن نسخة كتبت سنة ٧١٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

من ملك الملوك ازدشير بن بابك إلى مَن يخلف من الملوك .

السلامُ عليكم . إن من أخلاق الملوك الأَنفة والجَراءة والبطر والعَبث ، وكلما دامت سلامة الملك فى مُلـكه قويت هذه الأخلاق عليه ، حتى يغلب عليه سُـكر الملك ، الذى هو أشدّ من سكر الخمر ، فيظن أنه قد أمِن من النَّـكبات والعَثرات ، فيبسط يدَه ولسانه بالقبيح ، فيُفسد باُعتماده جميعَ ما أصلحه الملوك قبله ، فتعود المملـكة خراباً .

وأفضل الملوك الذى يَتذكَّر فى عزِّه الذّل ، وفى أمنه الخوف ، وفى قُدرته العجز ، فيجمع بين بَهجة الملوك وحذر الرعية . ولا خير إلا فى جَمعهما ؛ فإن رشاد الملك خيرٌ من خِصب الزمان .

الدينُ أساسُ الملك ، والملك حارسُ الدين ؛ فلا يقوم أحدهما إلا بالآخر .

إياكم أن تتهاونوا بمن يَطلب الرياسة بإظهار الزهد والغَضب الدين . فما اجتمع الناسُ على رئيس فى الدين إلا انتزع ما فى يدِ المَلك من مُلـكه ؛ فإن الناس إلى رئيس الدين أميل . فتعهدوا طبقات الناس وتفقّدوا جماعاتهم ، فإن فيهم من قد حَقرتم وجَفوتم .

وإذا أَذِن الملك للعقلاء من مُناصحى دولته ، فى إنهاء ما يتجدّد عندهم من النصائح التى لا يعلمها خواصّه ، أو يعلمونها ويكتمونها ، انفَتحت له أبوابٌ من الأخبار المَحجوبة عنه ، فيحذر وزراؤه وخواصه من الاُتفاق على ما يَسترونه عنه ، ولا يُقدمون على أمر يَكرهه خوفاً من أن يُطالع به فيأمن مكايدهم ، وتسلم الرعيّة من ظلمهم .

ومَن غلبت عليه خواصّه حتى مَنعوا عنه النـاس ، فلا يصل إليه إلا من يُحبون ، أطبقت ظُلَم الجهالة عليه .

ولا ينبغى للملك أن يَعتقد أنَّ تعظيم الناس له هو بترك كلامه ، ولا أنّ إجلالهم له هو بالتباعد عنه ، ولا أن محبّتهم هى بموافقته على جميع ما يُحبه ، وإنما تَعظيمهم له بتَعظيم عقله وصواب سياسته ، وإجلالهم له إجلال منزلته من الله بما يُجريه على يده ولسانه من العدل ، ومحبتهم له بما يتألّفهم بكريم خُلقه ، وصادقُ المحبة هو الذى يُعينه على العدل وحُسن التدبير بمَحض النَّصيحة .

إن فى الرعيّة وحَملة السلاح ، من الأهواء الغالبة والفُجور ، ما لا بدَّ للملك معه من أن يَقرن بباب الرأفة باب الغِلظة ، وباب الإنعـام بباب الأنتقام ، فإن القَصاص من المُفسدين حياة لبقيّة الأمة ، ومن لم يُقم حدود الله تعالى فيمن له فيه هوًى لم تَثبت هَيبته فى قلوب الخاصّة والعامة ، ولن يَستطيع الملكُ أن يُقوِّم العامة حتى يُقوِّم الخاصة .

وإنَّ مَن كان من الملوك قبلنا قد رتّبوا الناس أربعَ طبقات ، فالأمراء والجُند صِنْف ، والعِباد والفُقهاء صنف ، والكُتّاب والحكماء صِنف ، والتجار والفلاحون صِنف ، فلم يمكنوا صنفاً منها أن يدخل فى الصنف الآخر ، لتتفرّغ كُل طبقة للقيام بما يلزمها .

وليس أضرّ على الملك من رأس صار ذنباً ، أو يدٍ مَشغولة وجدت فراغاً من شُغلها .

وخيرُ الملوك مَن بعث العُيون على نفسه ليعلم عُيوبها ، فيكون أعلم بعُيوب نفسه من غيره ، ثم يَجتهد فى مُداواة عَيب بعد عَيب حتى لا يجد أحدٌ فيه مَطعناً . فهذا الذى تمّتْ سيادتُه .

وإن أبتهاج الملك المُسدّد الرأى ، القاهر لهواه ، بوُفورة عقله ، وشَرف نفسه بارتفاعها من النقائص أعظمُ من سُروره بملكه .

ومن الرعيّة مَن يُقارب الملك فى مَأكله ومَلبسه وشَهوته ، وليس فيهم من يَقدر كقدرته على أجتناء المحامد ، وإصلاح الرعية بالعَدل عليها ، وتأمين السُّبل ، وصيانة الحريم ، وكفّ أيدى الظالمين .

فاجتهدوا معشَر الملوك فى بَسط العدل الذى لا تقدر عليه الرعيّة ، وتنافسوا فى أقتناء الذكر الجميل .

وليس للملك أن يبخل ، فإنه لا يخاف الفقر ، وإذا عُرف بالبخل انقطع الرجاء من خيره ، فانسلّت الأيدى من طاعته ، ولا يجتهد أحدٌ فى خدمته ، وانحلت النيات عن مُناصحته.

ولا ينبغى له أن يغضب ، لأن الغضب مع القُدرة يوجب السّرف فى العُقوبة ، ثم يُعقب الندامة ، مع ما فيه من الطَّيش والخفَّة وقُبح السمعة .

ولا ينبغى له أن يلعب ، لأنَّ اللعب والعبث من أعمال الفراغ ، والفراغَ من عمل السُّوقة ؛ وفى ذلك من ذهاب الوقار ، وإسقاط الهيبة ، ما ينافى جلالَ السيادة .

وليس له أن يحسُد إلا مُلوكَ الأمم على حسن التدبير ، وإصابة السياسة ، ومكارم الأخلاق.

ولا ينبغى له أن يجبن عند وجوب الإقدام ، فإن الشجاعة عزٌ ، وهى من أهمّ شروط الملك.

زَيْنُ المَلِك أن يحفظ نظام أوقاته المُقدَّرة لأشغاله ورُكوبه وراحة بدنه ، فتكون مُعيَّنة لا تختلف ، فإن فى اختلافها خفَّةً ، وليس للملك أن يخف .

وينبغى أن يكون حذرُه لمن بعُد عنه أكثرَ من حذره لمن قَرُب منه ، وأن يتقى بطانةَ السّوء أشدَّ من اتقائه لعامة السوء .

ومن الناس صِنْف أظهرُوا الزهدَ فى الجاه ، ولم يتقرّبوا بالخِدْمة ، وادّعوا التواضع ، وهم قد أسرُّوا التكبر ، واستدعَوا إلى أنفسهم الجاه بوَعظ المُلوك ، وقد ينفعهم ذلك عند المُغفَّلين ، فيُقرِّبون منهم مَن حَسُن ظاهره ، وتلطَّف حتى اعتقد خواصُّهم تعظيمه ، وإن كان ناقصاً فى عقله ، عبداً لشهواته ، متهافتاً على الرياسة . فإن أسكته الملك قيل قد استقلّ الموعظة ، وإن أطلق لسانَه ، قال بوَعظه بين الملأ ما أفسد حالَ الدولة . فالرأىُ أن لا يُهمل الملك أمرَ هذه الطائفة ، فإنهم أعداء الدُّول ، وآفاتٌ قويّة على الملوك .

أعلموا أنه لا بد لكم من سَخطة على بعض أنصاركم ونُصّاحكم وأعوانكم ، ولا بدّ من رضًى يحدث لكم على بعض أعدائكم المَعروفين بالغِشّ لكم ، فإذا فعلتم ذلك فلا تنقبضوا عن المعروف بالنَّصيحة ، ولا تسترسلوا إلى المعروف بالغِشّ . وقد خلّفت عليكم رأيى إذ لم أقدر على تخليف بدنى . فاقضُوا حقى بالتمسك بعهدى . والسلامُ على أهل الموافقة ممن يأتى عليه هذا العَهد من الأمم .

وما ذاك من عُجْب به غيرَ أننى　　أرى أنَّ ترك الشرّ للشرّ أقطع

***

وقال فى ذى الوجهين : مَن أظهر ما تُحب أو تَـكره ، فإنما يُقاس ما أضمر بما أظهر ، لأنك لا تقدر أن تعرف ما أسرّ . وقال :

ليس المُسىء إذا تغيّب سوءه　　عنـدى بمنزلة المُسىء المُعلنِ
مَن كان يُظهر ما أحبّ فإنه　　عنـدى بمنزلة الأمير المُحْسن
والله أعلم بالقُـلوب وإنما　　لك ما بدا لك منهمُ بالألسن
ولقد يقال خلافَ ذلك إنما　　لك ما بدا لك منهمُ بالأعينِ

***

وقال فى الصدود : أما بعد . فقد أحضرتَنى من صدِّك ، ما آيسنى من وُدك ؛ ولم يزل يجرى فى لَحظك ، ما يُدخلنى فى رَفضك ، ويدلّنى على غلّ صدرك . وفى ذلك أقول شعرا :

تَظل فى قَلبه البغضاء كامنةً　　فالقلبُ يكتُمها والعينُ تُبديها
والعينُ تَعرف فى عينَىْ مُحَدِّثها　　مَن كان من حِزْبها أو مَن يُعاديها
عيناك قد دَلّتا عينىّ منك على　　أشياء لولاهما ما كُنت أَدْرِيها
إنَّ الأمور التى تُخشى عواقبُها　　إنَّ السلامة منها تَركُ ما فيها

***

وقال فى كثرة المال وقلّته : لا تَستكثر مالَ أحد ولا تستقلّه ، حتى تعلم ما عياله ؛ فإن مَن كثُر مالُه وعياله فهو مُقلّ ، ومَن قلّ مالُه وعياله فهو مُكثر .

***

وقال فى ذكر الأحمق ودخوله فيما لا يعنيه : وأكثرُهم دخولاً فيما لا يَدخل فيه ، وأرضاهم بما لا يكفيه ؛ عدوّه أعلم بسرّه من صديقه ، وصديقُه قد غُص منه بريقه ؛ ولا يثق بمَن نَصحه ، ولا يتهم مَن خدعه ؛ ولا يأمن إلا مَن يخونه ، ولا يتحفّظ إلا ممن

يحفظه ، ولا يُكرم إلا من يهينه ؛ أشبهُ شيء خلقاً باللئيم ، إن أحسنتَ إليه لم يشكر ، وإن أسأت إليه لم يَشعر ، لا ينفعك مِن وجهٍ إلاّ ضرّك من وُجوه ؛ إن أقبل عليك لم يَسُرك ، وإن أدبر عنك لم يَضُرك ؛ وإن أفسد شيئاً لم يُحسن أن يُصلحه ، وإن أصلح شيئاً أفسده ؛ إن أحببته فرأى منك حَسناً لم يُحسن أن ينشره ، وهو مع ذلك بخطئه أشدّ إعجاباً من العاقل بصوابه ؛ إن جلس إلى العُلماء لم يَزدد إلا جهلا ، وإن جلس إلى الحُكماء لم يزدَد إلا طيشاً ؛ وإنما جعل نفسَه المُحَدِّث لهم ، يُكلفهم أن يكونوا المُنصتين له . أعيا الناس إذا تكلّم ، وأبلدهم إذا تعلّم ؛ وأصحبهم لمن يَشينه ، وأرفضهم لمن يَزينه ؛ وأشدّهم فى موضع اللين ، وألينهم فى موضع الشدة ، وأجبنهم فى موضع الشجاعة ؛ إن افتقر عجب من الناس كيف يَستغنون ، وإن استغنى عجب من الناس كيف يَفتقرون ؛ لا يفهم إن حدّثته ، ولا يَفقه إن أفهمته ، ولا يقبل إن وَعظته ، ولا يذكر إن ذكّرته . وفى ذلك أقولُ شعراً :

المرء يُصرع ثم يُشفى داؤه ... والحُمق داء ليس منه شِفاء
والحمقُ طبعٌ لا يحول مُركّبٌ ... ما إنْ لأحمقَ فاعلمنّ دواء

* * *

وقال فى ذكر الهوى : إن من الناس من إذا هوى عمى ، ومنهم من إذا هوى أبصر مرّة وعمى أخرى ، ومنهم من إذا هوى لم يكد يَخفى عليه شىء ، وهو اللبيب العاقل ، الحليم الكامل ، الذى إن أعْجبه أمرٌ نظر إلى هواه وعقله ، فإن اتفقا أتبعهما ، وإن اختلفا اتبع عقلَه وترك هواه ، وكان أمرُه معتدلاً يُشبه بعضه بعضاً ، وقليل ما هم . وفى ذلك أقول شعراً :

أملكْ هواك إذا دعاك فربما ... قادَ الحليمَ إلى الهلاكِ هواهُ
الله يُسعد مَن يشاء بفضله ... وإذا أراد شَقاءه أشقاه

* * *

كتاب الأدب والمروءة

لصالح بن جناح(١)

نشره العلامة الشيخ طاهر الجزائري

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

قال صالح بن جَناح : اعلم أنّ العرب قد تجعل للشيء الواحد أسماء ، وتسمى بالشيء الواحد أشياء ؛ فإذا سَنَح لك ذكر شيء فاذكُره بأحسن أسمائه ، فإن ذلك من المروءة ، وإنما المرء بمروءته . فالمروءة اجتنابُ الرجل ما يَشينه ، واجتنابُه ما يزينه ؛ وإنه لا مُروءة لمن لا أدب له ، ولا أدب لمن لا عقل له ، ولا عقل لمن ظَن أن فى عقله ما يغْنيه ويكفيه عن غيره . وشتّان بين عقل وافر معه خمسون عقلا كُلها وافر مثله وأوفرُ منه ، وبين عقل وافر لا قادةَ معه . وفى ذلك أقول شعرا :

(١) صالح بن جناح اللخمى الشاعر أحد الحكماء حكى عنه أبو عثمان الجاحظ . ممن أدرك الاتباع بلا شك وكلامه مستفاد فى الحكمة وقد أخذ عنه بنيسابور . قال الجاحظ : قال صالح بن جناح الدمشقى لابنه : يا بنى ، إذا مرّ بك يوم وليلة قد سلم فيها دينك وجسمك ومالك فأكثر الشكر لله تعالى ، فكم من مسلوب دينه ، ومنزوع ملكه ، ومهتوك ستره ، ومقصوم ظهره فى ذلك اليوم وأنت فى عافية ؟ وفيه أقول :

لو اننى أعطيت سؤلى لما سألت إلا العفو والعافيه
فكم فتى قد بات فى نعمة فسلّ منها الليلة الثانيه

وقال : أصل المروءة الحزم ، وثمارها الظفر . إذا طلب رجلان أمراً ظفر به أعظمهما مروءة . وقال : اعلم أن من الناس من يجهل إذا حلمت عنه ، ويحلم إذا جهلت عليه ، ويحسن إذا أسأت به ، ويسيء إذا أحسنت إليه ، وينصفك إذا ظلمته ، ويظلمك إذا أنصفته ؛ فمن كان هذا خلقه فلا بد من خلق ينصفك من خلقه ، ثم قحة تنتصف من قحته ، وجهالة تقدع من جهالته ، وإلا أذلك ، لأن بعض الحلم إذعان ، وقد ذل من ليس له سفيه يعضده ، وضل من ليس له حكيم يرشده . ومن شعره :

يأيها الملك الذى بيمينه باب الزمان وصولة الحدثان
أنعم صباحا بالسيوف وبالقنا إن السلاح مجنة الفرسان
=

وما أدّب الإنسانَ شيءٌ كعقله ولا زينــةٌ إلا بحُسن التأدّب

وقال : إنّ الأفئدةَ مزارع الألسن . فمنها ما يُنبت ما زُرع فيه مِن حَسن ، ولا يُنبت ما سَمُج ؛ ومنها ما يُنبت ما سَمُج ، ولا يُنبت ما حَسن ؛ ومنها ما يُنبت جميعَ ذلك ؛ ومنها ما لا يُنبت شيئاً . وإنّ من المنطق لما هو أشدّ من الحجر ، وأنفذ من الإبر ، وأمرّ من الصَّبر ، وأحرّ من الأسنّة ، وأنكد من زُحل . ولربما أحتقرت كثيراً منه على حرارته ومرارته ونَــكده ، مخافةَ ما هو أحرُّ منه وأمرّ وأفظع وأنــكد . وفى ذلك أقول شعراً :

لقد أسمعُ القولَ الذى كاد كُلما يذكّرنيه الدهرُ قلبى يُصدّعُ

فأُبدى لمن أبداه منى بشاشةً كأنىَ مَسرور بما منه أسمع

= وقال : اعتبر بما لم تره من الأشياء بما قد رأيته ، وما لم تسمعه بما قد سمعته ، وما لم يصبك بما أصابك ، وما بقى من عمرك بما قد مضى ، وما لم يبل منك بما قد بلى ، واعلم :

إنما الدنيـــا نهار ضوءه ضوء معار

بينما غصـنك غض ناعم فيه اخضرار

إذ رماه زمنـــاه فإذا فيـه اصفرار

وكذاك الليل يأتى ثم يمحوه النهار

فهذه صفتها وما لم أصف أدهى وأمر . فما أصنع بأمر إذا أقبل غر ، وإذا أدبر ضر ، وأنشد :

نموت وننسى غير أن ذنوبنا إذا نحن متنا لا تموت ولا تنسى

ألا رب ذى عينين لا تنفعـانه وهل تنفع العينان من قلبه أعمى

ومن شعره :

وأفضل قسم الله للمرء عقله فليس من الخيرات شىء يقاربه

إذا أكمل الرحمن للمرء عقله فقد كرمت أعراقه ومناسبه

وكان عديم نظير القول فى المواعظ والأدب ، وهو القائل :

ألا إنما الإنسان غمــد لقلبه ولا خير فى غمد إذا لم يكن نصل

وإن تجمع الآفات فالبخـل شرها وشر من البخل المواعيد والمطل

ولا خير فى وعد إذا كان كاذبا ولا خير فى قول إذا لم يكن فعل

وله : تعلم إذا ما كنت ليس بعـالم فما العلم إلا عنـد أهل التعلم

تعلم فإن العـلم أزين بالفتى من الحلة الحسناء عنـد التكلم

ولا خير فيمن راح ليس بعالم بصير بمـا يأتى ولا متعـلم

وأنشد الجاحظ من شعر صالح بن جناح :

تعلم إذا ما كنت لست بعالم فما العلم إلا عنـد أهل التعلم

تعلم فإن العــلم زين لأهله ولا تستطيع العـلم إن لم تعلم

ثم ذكر البيتين الأخيرين . (انتهى ملخصاً من ابن عساكر) .

تُجيب مَن لا يسألك ، ولا أن تَسأل من لا يُجيبك . وفى ذلك أقول شعراً[1] :

ولا خيرَ فى حِلمٍ إذا لم يكن له بوادرُ تَحْمى صفوَه أن يُكدَّرا

ولا خيرَ فى جَهل إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أورد الأمر أصدرا

***

وقال فى الرفق بالدواب : إنَّ رفق الرجل بدوابِّه ، وحُسن تعاهده لها ، وقيامه عليها ، عمل من أعمال البرّ ، وسببٌ من أسباب الغنى ، ووجه من وُجوه المُروءة .

***

وقال : التدبير مع المال القليل ، خيرٌ من المال الكثير مع سُوء التدبير ، وإنما المُنفقون ثلاثة : جواد مُبذر ، وكريم مقدّر ، ولئيم مقتّر . وفى ذلك أقول شعراً :

رُب مالٍ سيَنعم الناسُ فيه وهو عَن ربِّه قليلُ الغناء

كان يَشقى به ويَنصَب حيناً ثم أمسى لمَعشر غُرباء

ما له عندهم جزاءٌ إذا ما أنعموا فيه غيرُ سوء الثّناء

رُب مالٍ يكون غمًّا وذمًّا وغنيٍّ يُعَدّ فى الفُقراء

***

وقال فى تصنيف الطعام : إذا كنتَ ممن يُؤكل طعامه ، وتُحضر مائدته ، ويُؤكل معه ، فَلْيكن الذى يتولَّى صنعة طعامك مِن ألبِّ الناس فى عمله ، وأنظفهم فى يديه . ولا تَدع إعلامه إن أحسن ، ولا إنذاره إن أساء ؛ فإنَّ تعتّبك عليه ، خيرٌ من تعتّب الناس عليك .

***

واُعلم أنّ لكل شىء غاية ، وأنّ غاية الاُستنقاء التّنظيف فى الاُستنجاء ، والإكثار من الماء ، حتى يستوى اليدان والريح والمَنظر ، فإنه لا طيب أطيبُ من الماء ، ولو أنه المِسك ، وما أشبهه من الأشياء . وإنما يستدل على نظافة الرجل بنَقاء أثوابه ، وإنما يكون القَذر فى الحَمْقى مِن الرجال والنساء ، وبه يُستدل على بلادتهم . وفى ذلك أقول شعراً :

---

(١) نسبة هذين البيتين إلى نفسه من قبيل الوهم ، فإنهما من قصيدة للنابغة الجعدى .

ولا خيرَ قبلَ الماء فى الطيب كُله   وما الطيبُ إلا الماء قبل التَّطيبِ
وما أَنظفَ الأحرارَ فى كل مَطعم   وما أَنظفَ الأحرار فى كل مَشرب

* * *

وقال فى صفة العدو والصديق : اُحرص أن لا يراك صديقُك إلا أنظفَ ما تكون ، ولا يراك عدُوك إلا أحصنَ ما تكون . فأما الصديق فإن كان الذى أَعْجبه منك خُلقك أو خَلْقك ، ولهما كان يُحبك ، فكلّما ازددْتَ حُسناً كان حُبه لك أكثر ، ورغبتهُ فيك أوفر ، [وأكثرك عنده وأكبر لك فى صدره][1] ، وأدوم له على عَهدك . وأما العدوّ فليس شىء أَعْجب إليه من دمامتك وخساستك ؛ فاُحترِسْ منه ، وأظهر الجميل ، فليس شىء أعْجبَ إليه من التمكّن منك ، فانظر أن لا يكون شىء أَعْجب إليك من التحصّن منه .

* * *

وقال فى العقل والأدب : اعلم أن العقل أمير ، وأن الأدب وزير . فإن لم يكن وزير ضَعف الأمير ، وإن لم يكن أمير بَطل الوزير . وإنما مثل العقل والأدب كمثل الصّيقل والسَّيف ، فإن الصَّيقل إذا أُعطى السيف أخذه فصقله ، فعاد جمالاً ومالاً وعَضداً يُعتمد عليه ويُلتجأ إليه . فالصيقلُ الأدب ، والسيفُ العقل . فإذا وجد الأدب عقلاً نَفقه ووفقه ، وقوّاه وسدّده ، كما يصنع الصيقل بالسيف . وإذا لم يجد عقلاً لم يعمل شيئاً ، لأنه لا يُصلح إلا ما وجد . وإنَّ من السيوف لما يُصقل ويُسقى ويُخدم ثم يباع بأدنى الثمن . ومنها ما يُباع بزنته دُرًّا وزَبرجدًا ، وذلك على نحو الحديد وجَودته أو رداءته . وكذلك الرجلان يتأدّبان بأدب واحد ، ثم يكون أحدُهما أنفذ من الآخر أضعافاً مُضاعفة . وإنما ذلك على قَدر العقل وقُوته فى الأصل . وفى ذلك قلت شعرًا :

(٣) وجدت هذه الجملة بالأصل من غير نقط فليعلم . وهى فى مخطوطة دار الكتب : « وأكثرك عمدة وأكثرها فى صورة » .

وقال أيضاً فى أناس ، تَحسن وجوههم عند حاجاتهم ، وتغيرّ وجوههم عند غِناهم ، شعراً :

أرى قوماً وجوهُهم حِسانٌ   إذا كانت حوائجهم إلينا
و إن كانت حوائجنا إليهم   تغيّر حُسنُ أوجههم علينا
ومنهم مَن سيمنعُ ما لديه   ويَغضب حين يُمنع ما لدينا
فإنْ يك فعلهم شُحًّا وفِعْلى   قبيحاً مثلَه فقد استوينا

* * *

وقال فيمن فَعل أمراً لا يُحسن أن يحتال له : اعلم أن مَن قاتل بغير عُدة ، أو خاصم بغير حُجة ، أو صارع بغير قُوة ؛ فهو الذى صَرع نفسه ، وخصم نفسه ، وقَتل نفسه . فإن ابتُليت بقتال أحد أو مُخاصَمته أو مُصارعته ، فأحسن الإعداد له ، وأعرف مع ذلك عُدته ، وأبصر حُجته ، وأُخبُر قوته ، كما يخبر قوّتك وحُجتك وعُدتك ؛ فإن رأيتَ تقدُّماً ، وإلا كان التأخر قبل التّقدم خيراً من التندّم بعد التقدم . وفى ذلك أقول شعراً :

إذا ما أردتَ الأمر فاعْرِفه كُلّه   وقِسْه قياسَ الثوب قبلَ التقدّمِ
لعلّك تنجو سالماً من نَدامة   فلا خيرَ فى أَمر أتى بالتندّم

وإن من الناس من يُرزق حُجة أو عُدة أو قُوة ، فتكون عُدته هى التى تَقتله ، وقوته التى تَصرعه ، وحُجته التى تَخصمه ؛ وذلك أنه ربما أدلّ فقاتل قبل أن يعلم أهو أعدّ أم الذى يُقاتله ، وكذلك فى الذى يُخاصِمه ويصارعه . فإذا هو قد قتل أو صرع أو خُصم فلم تنفعه جودة عدته ، ولا قُوة حجته ، حين أتى الأمر من غير جهته . وفى ذلك أقول [شعراً]:

إذا ما أتيتَ الأمر من غير وَجهه   تَصعَّبَ حتى لا تَرى منه مُرتقى
فإن الذى يَصطاد بالفخ إن عتا   على الفَخّ كان الفخُّ أعتَى وأضيقا

* * *

وقال فى الذى يعاتب الناس بغير مودّتهم ، ويوجب حقّ نفسه عليهم : لا تَدْع الناسَ إلى برّك ، وإجلال أمرك ، وتعظيم قدرك ، بالمُعاتبة ، ولكن ادعهم إلى ذلك

بما تَستوجبه منهم . وانظر الأمر الذى أُكرم به مَن هو أبعد منك ، وقُرِّب به من أنت أقرب منه ، فالزمه ، فإنك إن تلزمه لم تحتج معه إلى مُعاتبة ، ولا أُستبطاء حق ، لأنك إن دعوتَهم إلى تكرمتك بغير ما تستوجب التَّكرمة به ، فإنما دعوتهم إلى إهانتك ، إما بكلام يَجرحك ، وإما بفعال تَفدحك . وإن دعاهم إلى ذلك فضلُك ، أجابوا إما بثناء يَرفعك ، أو بجزاء ينفعك .

* * *

وقال فى معرفة الإخوان : إنك لن تعرف أخاك حقّ المعرفة ، ولن تَخبره حق الخبرة ، ولن تُجرّبه حق التجربة ، وإن كُنتما فى دارٍ واحدة ، حتى تُسافر معه ، أو تُعامله بالدينار والدِّرهم ، أو تقع فى شدة ، أو تحتاج إليه فى مُهمة . فإذا بلَوته فى هذه الأشياء فرضيتَه ، فانظرْ فإن كان أكبرَ منك فاتّخذه أباً ، وإن كان أصغرَ منك فاتّخذه ابناً ، وإن كان مثلك فاتخذه أخاً ؛ وكن به أوثق منك بنفسك فى بعض المواطن .

وقال : كُن من الكريم على حَذر إن أهنتَه ، ومن اللئيم إن أكرمتَه ، ومن العاقل إن أحرجتَه ، ومن الأحمق إن مازحتَه ، ومن الفاجر إن عاشرتَه . ولا تُدل على مَن لا يحتمل إدلالك ، ولا تُقبل على مَن لا يُحب إقبالك . وكن حَذرا كأنك غِرّ ، وكن ذاكراً كأنك ناسٍ . والزم الصمت إلى أن يَلزمك التكلم ؛ فما أكثر مَن يندم إذا نطق ، وأقلَّ مَن يندم إذا لم يَنطق . وإذا ابتُليت فعند ذلك تُعرف جودة منطقك وقلّة زَللك ، وسعةُ عفوك ، وقلة حِيلتك ، ومنفعة قُوتك ، وحسن تخلّصك . واعلم أن بعض القول أغمضُ من بعض ، وبعضَه أبين من بعض ، وبعضَه أخشنُ من بعض وبعضَه ألين من بعض ، وإن كان واحداً . فإنّ الكلمة اللينة لتُلين من القلوب ما هو أخشنُ من الحديد ، وإن الكلمة الخشنة لتُخشّن من القلوب ما هو ألينُ من الحرير . وإن أعظم الناس بلاءً ، وأدومهم عناء ، وأطولهم شقاء ، مَن ابتلى بلسان مُطلق ، وفؤاد مُطبق ؛ فهو لا يُحسن أن يَنطق ، ولا يقدر أن يسكت . واعلم أن ليس يَحسن أن

وقال فيه أيضاً :

إذا ما رأيتَ المرء حُلواً لسانُه كذوباً فأيقن أنه لا حَيَا له
ولا خير فى الإنسان إنْ لم يكن له حياء ولا فى كل مَن لا وفا له

***

وقال فى الإخوان :

ليس مَن كان فى الرّخاء صديقاً وعدوّ الصديق بعد الرخاء
عُدة فى إخائه لصديق إنما ذاك عُدة الأعداء
لو ظَفِرنا بذى إخاء أمين لأشترينا إخاءه بالغَلاء
لو وجدنا أخاً متيناً أميناً لأتخذنا إخاءه للشِّفاء

***

أما الرُّفقاء فى السفر، والجلساء فى الحَضر، والخُلطاء فى النِّعم، والشُّركاء فى العدم، فاحفظ مُصاحبتهم، وواظب على إخائهم، وفى ذلك أقول شعراً :

وكنت إذا صحبتُ رجال قوم صحبتهمُ وشيمتىَ الوفاء
فأحسن حِينَ يُحسن مُحسنوهم وأجتنبُ الإساءة إن أساءوا
وأبصر ما يَعيبهمُ بعين عليها من عُيوبهم غِطاء
أريد رضاهمُ أبداً وآتِى مَشيئتهم وأترك ما أشاء

***

لا تبتدئن أحدا بصَغير مما يكره ولا بكبيره، ولا بقليل مما يَسخط ولا بكَثيره، فإن ابتدأك أحدٌ بشىء من ذلك، فَقَدَرت على الانتصار منه، فعفوت أو انتصرت، فما أحسنَ جميع ذلك، إلا أن العفوَ أكرم، والانتصار أعز، وكلاهما حظ. وفى ذلك أقول شعراً :

فما(١) ذات باب بحمده فيما علمت عليه من طرق الصوابِ

(١) كذا بالأصلين .

وأى الناس ألأم من سَفيه	يقول ولا يخاف من الجواب

***

وقال فى الجهل : إياك والجهل ، فإنما تجهل على ثلاثة : رجل أنت أعزّ منه ، ورجل هو أعزّ منك ، ورجل أنت وهو فى العز سواء . فأما جهلك على من أنت أعزّ منه فلُؤم، وأما جهلك على من هو أعزّ منك فخيف ، وأما جهلك على مَن هو مثلك فهراش مثل هراش الكَلبين ، ولن يفترقا إلا مفْضوحين أو مَجْروحين ؛ وليس هذا من فِعال الحكماء والعُلماء . الحليم أرزن ، والجهول أنقص . وفى ذلك أقول شعرا :

ماتَم علمٌ ولا حِلْم بلا أدبٍ	ولا تجاهلَ فى قوم حَليمانِ
ولا التجاهُل إلا ثوب ذى دَنس	وليس يَلبَسه إلا سفيهان

***

وقال فى رؤية الرجل وخبره : إن من الناس من يُعجبك حين تراه ، وتزداد عند الخِبرة إعجابا [به] ، ومنهم من تُبغِضه حين تراه ، وعند الُخبر تكون له أكثر بُغضاً . ومنهم من يُعجبك مخبره ، ولا يعجبك منظره . ومنهم من يُعجبك منظره ، ولا يُعجبك مخبره . وفى ذلك أقول شعرا :

تَرى بين الرِّجال العينُ فضلاً	وفيما أضمروا الغبنُ الغبينُ
ولونُ الماء مشتبه وليستْ	تُخبّر عن مذاقته العيونُ
فلا تَعجل بنُطق[1] قبل خُبر	فعند الخُبر تنصرم الظُّنون

وقال أيضا فى ذلك :

وما صُور الرجال بها امتحانُ	وما فيها لمُعتبر بيانُ
ولكن فعلُهم يُنبيك عنهم	به تجبُ الكرامةُ والهَوان
وما الإنسان لولا أصغراه	سوى صُور يصورها البنَان

(١) فى مخطوطة دار الكتب : « يظن » .

وقد يُصلح التأديبُ مَن كان عاقلاً و إن لم يكن عقل فلن يَنفع الأدب

***

وقال فى المراء : إذا اجتمع أهلُ نوع فتذاكروا على نوعهم ذلك ، فلم يكن أصلُ كل واحد منهم أن يَنفع بما أَسمع ، و ينتفع بما سمع . فاعلم أنّ تذاكرهم ذلك من أول المراء ، يصدع العلم ، و يُوهن الود ، و يُورث الجُمود ، و ينشئ الشّحناء ، و يَنغل القلب . وفى ذلك أقول شعراً :

تَجنّبْ صديقَ السّوء واصرم حبالَه فإن لم تجـد عنـه مَحيصاً فدارِه
وأَحْبِب صديقَ الخير واحذَرْ مراءه تَنَل منـه صَفْوَ الوُد مالم تُماره

***

وقال فى الحـكمة : أما ما يُسمع من كثير من الحِـكمة ، فإن أوله شىء يَخْطـر على الأفئدة إذا خطر ، وهو أصغر من الخَردلة ، وأدقّ من الشعرة ، وأوهن من البعوضة ؛ ثم تُحَركه الألسنة ، وتَنْبذه الأفئدة ، كما يحاك البرد ، وكما يُمـد النهر ، فيعود أكثرَ من الـكثير ، وأوثق من الحديد ، وأثمنَ من الجوهر ، وأحسنَ من الذهب ، وأنفع من كليهما ؛ لأنه يزيد فى المَنطق ، ويُذكِى الذهن ، ويعين على الإبلاغ ، و يتجمّل به القائل ، و يتقلّب فيه كيف يشاء ، ويَختار منه ما يشاه ، فينتفع به اللطيف ، ويَنْبل به السخيف ، ويتزيد به الـكثيف ، ويتأيّد به الضعيف ، و يزداد به الأيد قُوةً فى مَنطقه ، و بلاغةً فى كتبه ، فيكون فى حِفظه مَنفعة للخطباء فى خُطبهم ، وللبلغاء فى بلاغتهم وكُتبهم ، ولـلكرماء فى بَشاشتهم ، وللشعراء فى قصائدهم . فإذا كنت ممن يُؤلف حكمة ، أو يضع رسالة ، أو يذكر فى مهمة ، فلا تَـكْرِه قلبك ، ولا تُـكره ذهنك ؛ فإنه إذا أُكرهَ كلّ ووقف . ولـكن إن كنت فى شىء من ذلك ، فاْستعن بالتفرّغ منه على التفرّغ له ، والتأخر عنه على التقدّم فيه ، فإن الذهنَ يجُم كما يَجُم البئر ، ويصفو كما يصفو المـاء .

***

وقال فى الكلام وإخراجه : اعلم أن مثل الكلام كمثل الحجارة ، فمنها ما هو أعزّ من الذهب والفضة ، ومنها مالا يُعطَى فى الصّخرة العظيمة منه دِرْهم . وفى ذلك أقول شعراً :

وما الحجرُ الكبيرُ أعزّ فيما ظفرت به من الحجر الصغيرِ
وكم أبصرتُ من حجر خفيف صغير بيع بالثمن الكثير

* * *

وقال فى طلاقة الوجه وحُسن الخلق : كُنْ أسهل ما تكون وجهاً ، وأظهَرَ ما تكون بِشْراً ، وأقصرَ ما تكون أمداً ، وأحسنَ ما تكون خُلقاً ، وألين ما تكون كنفاً ، وأوسع ما تكون أخلاقاً ؛ فإن الأيام والأشياء عقب ودُول ؛ فإن أنكرت منها شيئاً يوماً ما كان [ما] أنكرت منها شيئاً خفيفاً على أهل الشّماتة ؛ وعلى أهل الصفاء . واحذر أن تُحزن من يُحبك ، وتُفرح من يَحسدك ، فلم أر فى مُصاب الدهر مصيبةً أوحشَ من تَغيير النِّعمة ، وإنْ أنت لم تُنكر منها شيئاً ، ودامت لك بما تُريد ، فما من الدنيا شىء ، تناله بدَعةٍ ورِفق ، إلا وهو أهنأ مما نِيل بتَعب ونَصب . فأما من كُفِى وعُوفى فما يَصنع بالغضب والتضايق ، وإنهما همُّ العمر ، ونَكد الدهر ، وفى ذلك أقول شعراً :

ما تَمّ شىء من الدنيا علمتُ به إلا أُستحق عليه النقصُ والغِيَرُ
ولا تغير من قوم نعيمُهمُ إلا تكدّر منه الوردُ والصدر
فعاد غمًّا ولن تلقى أمرأ أبداً [أُغمّ] من ملكٍ أيامَ يفتقر

* * *

وقال فى الكذب :

كذبتَ ومن يَكذب فإنّ جزاءه إذا ما أتى بالصّدْق أن لا يُصدَّقا

وقال فى الإعسار والإيسار :

كم من صــديق لنا أيام دَولتنا وكان يمدحنا قد صار يهجونا
إني لأعجب ممن كان يَصحبنا ما كان أكثرُهم إلاّ يُراؤونا
لم ندر حتى أنقضتْ عنّا إمارتُنا مَن كان يَنْصحنا أو كان يُغوينا
مَن كان يُنصفنا ما كان يَصحبنا إلا ليخــدَعنا عما بأيدينا

***

وقال فى الصلة والتفضل : لا يكن مَن وصلك أحقّ بصلتك منك بصلته ، ولا مَن تفضّل عليك أولى بالتفضّل منك عليه ، فإنما أنت وهو كرجلين ابتدرا أُكرومة فقصّر أحـدهما وبلغ الآخر ؛ فأما القاصر فقصّر عن حظ نفسه ، وأما البالغ فبَلغ بجَميل أمره وعظيم قدره .

***

وقال فى القدر : إذا كان الرجل لبيباً فاعلم أنه كامل ، ولـكن لن يُقدّمه ذلك إلى ما كان يُطالب ، ولن يؤخّره عما كان يُحاذر ، إلا بقدر يلحق به ما طلب ، ويَسبق به ما يَحذر . وإنّ من الناس من يُؤتى منطقا وعقلا ، ولا يُؤتى مالا ، ومنهم مَن يؤتى مالا ، ولا يؤتى غيره ، فيحتاج مع ماله إلى عقل ذى العقل ومَنطقه ، ويحتاج ذو العقل إلى مال ذى المال ورفده ، وينهض هذا بهذا وهذا بهذا ؛ فليس لأحدهما إذًا غنى عن الآخر (١) . فأحوج الملك إلى السوقة ، وأحوجت السوقة إلى الملك .

***

وقال فى التفاضل : لا تقُل فلان أغـنى منى ، وأنا أحزم منه ، فإنه لو جُمِـع العقل والشدة والشجاعة والمـال وأشباه ذلك لقومٍ وبقى قومٌ لا شىء لهم لهلـكوا ، ولـكنّ الله عز وجل قال : (أهم يَقسِمون رحمة ربك . نحن قَسمنا بينهم مَعِيشتهم فى الحياة الدّنيا ،

(١) فى الأصلين «فليس لأيهما إذا» .

ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) فأوتى بعضهم عقلا ، و بعضهم قوة ، و بعضهم مالاً ، مع أشياء مما يكون فيه صلاحهم و به معايشهم ، ثم أحوج بعضهم إلى بعض ، فعاشوا . و إنما مثلُ الرجل ورزقه ، ومثل عقله وأُدبه ومُروءته وحكمه ، كمثل الرامى ورَميته ، فلا بد للرامى من سَهم ، ولا بد لسَهمه من قوس ، ولا بد لقوسه من وتر ، ولا بد لجميع ذلك من قَدر يبلغ به ما رَشق ، ويُصيب به مايبلغ ، ويحوز به ما أصاب ، و إلا فلا شيء . فالرامى الرجل والرميّة الرزق ، ولا يجمع بينهما عقل ولا عز ، ولا شيء من ذلك إلا بقدرٍ . وفى ذلك أقول شعراً :

ما القوس إلا عصاً فى كفِّ صاحبها يَرعى بها الضأنَ أو يرعى بها البقرُ
أو عود بانٍ وإن كانت مُعقّفة حتى يُضَم إليها السهم والوترُ
و إن جمعتَ لها هذين فهى عَصا حتى يُساعد من يَرمى بها القدرُ

***

وقال : إن حُسن السمت وطول الصمت ومشى القصد ، من أخلاق الأتقياء ، و إن سوء السمت وترك الصمت ومشى الخيلاء ، من أخلاق الأشقياء . فإذا مشيت فوق الأرض فاذكُر من تحتها ، وكيف كانوا فوقها ، وكيف حلّوا بطنها ، وكيف كانوا أُمما . واعلم أنّ ابن آدم أعزّ من الأسد ، وأشد من العمد ، مالم تُصبه أدنى شوكة ، وأدنى مرض ، وأدنى مُصيبة . فإذا أصابه شيء من ذلك وجدته أهون من الذرّة ، وأمهن من البعوضة . فلا يَغررّك تَجبّره وتكبره ، وتفرعُنه واستطالته . وفى ذلك أقول شعرا :

ولا تمش فوقَ الأرض إلا تواضعاً فكم تحتَها قومٌ هُمُ منك أرفعُ
فإن كنتَ فى عزّ وحِرْز وَمَنْعة فكم طاح مِن قوم هُمُ منك أمنعُ

***

وقال فى الغِنى والقُنوع : إن الغِنى فى القلب ، فمن غَنيت نفسُه وقلبه غَنيت يداه ، ومَن افتقر قلبُه لم ينفعه غِناه . وفى ذلك أقول شعراً :

وقال أيضا :

لم أزل أُبغض كل أمرئٍ وجهُه أحسنُ من خبره
فهو كالغُصن يُرى ناضِراً ناعماً يُعجب من زَهره
ثم يبدو بعده ثمر فيكون السمّ فى ثمرِه

***

وقال فى النّهيِ عن القبيح : وإذا رأيت مِن أحد أمراً فنهيتَه عنه فلم يَحْمدك ولم يَذْم نفسه على مكانه ، أو يُحدث حدثاً تعلم أنه قد أُنتفع بمقالتك ، فإن ذلك عيب آخر قد بدا لك منه ، لعلّه أقبح من الذى نهيتَه عنه . وفى ذلك أقول شعرا :

ولا نهيتُ غوياً من غوايته إلا استزاد كأنى كنتُ أُغريه
ولا نصحتُ له إلا تبين لى منه الجفاء كأنى كنت أُغويه

***

وَقال فى المُؤخاة : لاتُؤاخ أحداً إلا على اختيار منك له ، وإرتضاء منك به ، واتفاق منه لك . فإذا اتفق أمرٌ كما كذلك ، فاُعلم أن كلا كما يُحسن ويُسيء ، ويُصيب ويُخطئ ، ويَحفظ ويُضيع . فوطّن نفسك على الشكر إذا حفظ ، وعلى الصبر إذا أضاع ، وعلى المُكافأةِ إذا أحسن ، وعلى الأحتمال والمعاتبة إذا أساء ؛ فإن مُعاتبة الصديق إذا أساء ، أحبّ إلى الحليم من القَطيعة فى مُعاشرة من يُؤاخيه . وفى ذلك أقول شعرا :

وإذا عتبت على أمرئٍ أحببتَه فتوقّ ضائرَ عَتبه وسبابه
وألِن جَناحك ما استلان لودّه وأجِب أخاك إذا دعا لجوابه

واحرص أن تعرف موقِعك من كل أحدٍ حتى من أبيك وأُمك ، فإن من السّخافة أن تكون لأخيك فيما يحب ، ويكون لك فيما تكره . وما أقبح أن تكون له فيما يكره ، ويكون لك فيما تُحب . واعلم أن من تنفعك صداقتُه ، ولا تَضرك عداوته ، الكريمُ الذى إنْ أحسنت إليه كافاك ، وإن أسأت إليه عاتبك . وأما من تضُرك عداوته ، ولا تَنفعك

صُحبته ، فهو الجاهل السفيه اللئيم . وفى ذلك أقول شعرا :

من الناس مَن إن يرض لا تنتفع به   ولـكن متى يَسخط فما شئت من ضَرَرْ
ضعيفٌ على الأعـداء لـكنّ قلبه   أشدُّ إذا لاقى الصـديقَ من الحجر

* * *

وقال ، فى تقلّب الدنيا ، شعرا :

إنما الدنيـا سراجٌ   ضـوءه ضوء مُعار
بينما غُصنك غَضٌّ   ناعمٌ فيـه اُخضرار
إذ رماه الدهرُ يوماً   فإذا فيه اُصـفرار
وكذاك الليـلُ يأتِى   ثم يمحوه النهـار

* * *

وقال فى المدارة : إذا هبطتَ بلداً أهلُها على غير ماتعرف ، وأنت على غير ما يعرفون ، فالزم كثيراً من المدارة ؛ فما أكثر من دارى ولم يَسلم ، فـكيف مَن لم يكن منه مُدارة . وفى ذلك أقول شعرا :

ياذا الذى أصبح لا والدًا   له على الأرض ولا والدهْ
قد مات من قبلهما آدم   فأى نفسٍ بعـده خالدَه
إن جئت أرضاً أهلُها كُلُّهم   عُور فغمّض عينك الواحدَة

* * *

وقال : لا تُقاتلن أحداً تجد من قتاله بدا ، فإنما الحقّ لمن غَلب ، ولا غالبَ إلا الله . وإن آخر الدواء الـكى ، فلا تجعله أولا . وفى ذلك أقول شعرا :

وكم رأينـا من أخى غِبطةٍ   أصبح مَسروراًوأمسى حزيناً
وكم فتًى يركب طاحونة   للحَرب قدأصبح فيها طَحِينا

* * *

إذا المـــرء لم يَقنع بشىء فإنه | و إن كان ذا مال من الفقر مُوقَرُ
إذا كان فضلُ الله يُغنيك عنهمُ | فأنت بفضـل الله أغنى وأيسرُ

***

وقال فى الرأى والمشاورة : إذا استُشير نفر أنت أحدُهم فـكن آخر من يُشير ، فإنه أسلم لك من الصلف[1] ، وأبعد لك من الخطأ ، وأمكن لك من الفكر ، وأقربُ لك من الحَزم . وفى ذلك أقول شعراً :

ومن الرجال إذا زكت أحلامُهم | من يُستشار إذا استُشير فيُطرقُ
حتى يجول بكل وادٍ قلبُـــه | فيرى ويَعرف ما يقول فينطقُ
فبذاك يُطلق كل أمر مُوثَق | وبذاك يُوثَق كل أمر مُطلقُ
إن الحليم إذا تفكر لم يكد | يَخفى عليه من الأمور الأوفق

***

وقال فى النَّهى عن مجالسة أهل الأهواء والبدع ومُحادثتهم : أما هذه الأهواء ، فإنى لم أر أحداً ازداد فيها بصيرة ، إلا ازداد فيها عَمًى ، لأن أمر الله أعزُّ من أن تلحقه العقول . ولم أر اثنين تكلَّما فيها إلا رأيت لـكل واحـد منهما حُجة لا يقدر صاحبُه على دفعها إلا بالشُّبهة والمُغالطة ، وأما بالنصيحة فلا . ومن غالط فى هذا أو مثله فإنما يُغالط نفسه ، وعليها يخلط ، وإياها يَخـدع ؛ أو أراد أن يخادع ربه ، والله أعز من أن يخدع .

لقد نُبئت أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبيه موسى صلى الله عليه وسلم : لاتجادل أهل الأهواء فيُوقعوا فى قلبك شيئاً يُوردك به إلى النار . فهذا أمر نُهى عنه موسى عليه السلام ، وقد أُعطى التوراة فيها هُدى الله ، وقَد كلّم الله موسى تـكليما ، فـكيف بغيره من أهل الأهواء .

(١) فى الأصلين : « الصدق » .

ولم يزل الصالحون يتناهون عن الهَوى والمراء فيه والجدل به ، ولم أر قياساً قطُّ تمّ ، ولا كلاماً صح ، إلا وفيه كلام بعد كثير . فالسّنة أن لا يتكلم فى شىء من الأهواء بالهوى ، و بغير الاتباع للكتب المنزلة ، والسنن للرسل الصادقة . وفى ذلك أقول شعراً :

إذا أُعطى الإنسان شيئاً من الجدلْ فلم يُعطَه إلا لكَى يمنع العَمَلْ
وما هــذه الأهواء إلا مصائب يُخص بها أهل التعمّق والْعِلَل

***

وقال فى النميمة : إياك والنميمة ، فإنها لا تترك مودةً إلا أفسدتها ، ولا عداوةً إلا جدّدتها ، ولا جماعة إلا بدّدتها ، ولا ضغينة إلا أوقدتها . ثم لابُد من عُرف بها ، أونُسب إليها ، أن يتحفّظ من مُجالسته ، ولا يُؤتى بناحيته ، وأن يُزهد فى مناقشته ، وأن يُرغب عن مُواصلته . وفى ذلك أقول شعراً :

تمشّيتَ فينا بالنّميم وإنما يُفرِّق بين الأصفياء النمائمُ
فلا زلتَ منسوباً إلى كل آفةٍ ولا زال منسوباً إليك اللوائمُ

وفى مثله أقول :

كالسّيل فى الليل لايدرى به أحدٌ من أين جاء ولا مِن أين يأتيهِ
فالويلُ للعبد منه كيف يَنْقصه والويل للودّ منه كيف يُبليه

***

وقال : إذا قيل لك : أى شىء أطول ؟ فقل : الكلام . و إذا قيل لك : أى شىء أقصر ؟ فقل : الكلام ؛ لأن الكلمة الواحدة قد تكون جواباً لألف كلمة ، وقد يكون جوابُها ألف كلمة وأكثر ، ولَن تدرك الكلام حتى تَذره ، ولن تذره حتى تحذره . وفى القول خطأ كثير و بعضه صواب ، و إن الصمت منه لأصوب . فاترك منه مالا تَنتفع بأخذه ، وخُذ منه ما لا تَقدر على تركه ، واسجُن لسانك كما تَسْجن عدوك ، واحذره كما تحذر غائلته .

وقال فى تأديب النفس : إذا أبصرت بعض ما تكره من غيرك ، فأسرع الرجعة منه قبل أن يُبصره مِنك من يستريبه ، واحمِد الله الذى أحسن إليك ، و بصّرك عيوب نفسك ، ونبهك للرجوع من غيّك . و إذا أخبرك بعَيبك صديقٌ ، قبل أن يُخبرك به عدوٌ ، فأحسن شُكره ، واعرف حقّه ؛ فإن خبر العدوّ تعْييب ، وخَبر الصديق تأديب . وفى ذلك أقول شعراً :

ولن يَهلك الإنسانُ إلا إذا أتَى ... من الأمر مالم يَرْضه نصحاؤُه

* * *

وقال فى الحاسدين : اعلم أنك لن تلقى من الخير درجة ، ولن تَبلغ منه مَرتبة ، ولن تنزل منه منزلا ، إلا وجدت فيه مَن يَحسدك . و إنما الحاسد خصم فلا تجعله حكما ، فإنه إن حكم لم يَحْكم إلا عليك ، و إن قَصد لم يَقصد إلا إليك ، و إن دفع لم يَدفع إلا حقك . وفى ذلك أقول شعراً :

ولو كنت مثل القِدْح أُلفيت قائلا ... ألا ما هـذا القـدح ليس بقائم

ولو كنت مثل النَّصل أُلفيت قائلاَ ... ألاَ ما هـذا النّصل ليس بصارم[1]

---

(١) عرضت هذه الرسالة على مخطوطة دار الكتب المصرية المحفوظة برقم ١٤٢٧ (أدب) .

قانون البلاغة[1]

لأبى طاهر محمد بن حيدر البغدادى

المتوفى سنة ٥١٧ هجرية

بسم الله الرحمن الرحيم

« رب أنعمت فزد »

سألتَ — أطال الله مُدتك، وأدام نِعمتك، وحَرس دولتك — عن البلاغة. والبلاغة ليست ألفاظاً فقط، ولا معانى فحسبُ، بل هى ألفاظ يُعبَّر بها عن معانٍ؛ ولكن ليس كما اتفق، ولا كيفما وقع؛ لأنّ ذلك لو جَرى هذا المجرى، لكان أكثرُ الناس بليغاً، إذ كان أكثرهم يؤدّى عن المعانى التى يُولّدها بألفاظ تدلّ عليها. لكنهم يَخرجون عن طريق البلاغة، ومِنهاج الكتابة من وجهين: أحدهما أن تكون الألفاظ مستكرهة مُستوخَمة، غير مرصوفة ولا منتظمة؛ والثانى أن تكون كثيرة يُغنى عنها بعضُها، ويمكن أن يعبَّر عن المعنى الدالة عليه بأقلّ منها.

على أنه ذهب قوم إلى أن لتكثّر الألفاظ المَرصوفة فى بعض المواضع دخلاً فى البلاغة، وذلك إذا كان موضع يحتاج فيه إلى الخطابة فى العامة، ومَن لا يسبق خاطره إلى تصوّر المعنى فى أول وهلة، إما لبُعده عن الذكاء والفِطْنة، أو لأنّ الموقف خاذل، يَكثر فيه اللغطُ والضجة، فيحتاج إلى إشباع المعنى وتوكيده وتكريره، لمن لم يمكنه السبقُ إلى تحصيله، إلا بالألفاظ المترادفة، وهى التى يدل الكثيرُ منها على معنى واحد بعينه؛ مثل أن يقال فى وصف السيف: الُحسام الباتر، الُجراز القاطع؛ وفى وصف الشجاع: البطل

(١) نشرها المجمع العلمى العربى فى المجلد السابع من مجلته.

الفاتك ، النجد الباسل ؛ وفى وصف الجواد : الخِرْق[1] الباذل ، الجم النائل ، الكثير الفواضل ، الغزير النوافل ؛ وفى سائر الأوصاف على ذلك .

وهذا يقع فى باب المكاتبات بالفتوح والعهود ، والصكوك والعقود ، وما جرى هذا المجرى . ولهذا السبب قال بعضُهم فى وصف كاتب بليغ : إنْ أخذ شبراً كفاه ، وإن تناول طُوماراً[2] أملاه .

يذهب بهذا القول إلى أنّ البليغ يحتاج فى موضعٍ إلى الإطالة والإسهاب ، كما يحتاج فى آخر إلى الأختصار والإيجاز ؛ إلا أنّ أكثر ما عليه الناس فى البلاغة أنها الاختصار ، وتقريب المعنى بالألفاظ القصار . حتى إنه سُئل بعضُ الناس عن البلاغة فقال : هى لمحة دالة . وهذا مذهب العرب وعادتهم فى العبارة ، فإنهم يشيرون إلى المعانى بأوحى إشارة[3] ، ويستحبّون أن تكون الألفاظ أقل من المعانى فى المقدار والكثرة .

فأما ما يَصلح للكُتّاب ، ويليق بذوى الألباب ، أن تكون ألفاظهم غيرَ ناقصة عن المعانى ، ولا زائدة عليها . كما وصف بعضَ الكتاب واصفٌ فقال : كأنّ ألفاظَه قوالب لمعانيه . يريد أنها مطابقة لها ، غيرُ زائدة عليها ، ولا ناقصة عنها . وهذا المذهب هو الذى يجب أن يستعمله الكتّاب ، إذا لم يكن موضع يحتاج فيه إلى الإسهاب .

فإنه يُحكى عن جعفر بن يحيى البرمكى : وكان قريعَ دهره ، ووحيدَ عصره ؛ بلاغة فى المكاتبة ، وجودة لسان فى المخاطبة ؛ أنه قال : إذا كان الإيجاز كافياً كان التطويلُ عيًّا ، وإذا كان التطويل واجباً ، كان التقصير عجزاً . وقال ابنُ الأعرابىّ : قال لى المُفضل : قلتُ لأعرابىّ : ما البلاغة ؟ فقال : الإيجاز من غير عجز ، والإطناب من غير خطل .

---

(١) الخرق (بكسر الخاء) كالخريق : بمعنى السخى ، أو الفتى الحسن الكريم الخليقة .
(٢) الطومار : الصحيفة المستطيلة تكتب وتطوى طيا اسطوانيا .
(٣) أوحى : أعجل وأسرع .

وينبغى أنْ تعلم أنّ البلاغة لما كانت إحدى الصناعات ، كان لها ما لكل صناعة من المبادىء والموضوعات والأدوات ، وأنه ليس واجباً على كل مُتعلم لصناعة أن ينظر فى مبادئها وموضوعاتها ، ولا أن يعلم أدواتها . وهذا عام لجميع الصناعات المهينة التى يُباشرها الصانع بأعضائه العقلية التى يستعمل فيها فكره . فإن فى الصناعات المهينة الصياغة ، وموضوعها الذهب والفضة . وليس يجب أن يعلم مع تعلمها كيف يُستخرج هذان الجوهران من معدنهما ، ولا أن ينظر فى شىء من أمرهما ، غير إقامة الصور فيهما . وكذلك لا يعلم أيضاً كيف يعمل بشىء من آلاتهما ، مثل المبرد والمطرقة والسندان وغيرها ، بل تؤخذ أخذاً مسلماً ، على أن عملها مفوض إلى الحداد . وكذلك صناعة الطب ، فإنها تنقسم جزئين : علمى وعملى ، وكلا هذين الجزئين هذه حاله ، فإنه ليس يتعلم «صُنْعُ[1]» المكوى ، ولا كيف يصنع المبضع ، ولا غيرهما من الآلات ، بل يتولى ذلك أهل صناعة أخرى . ولا فى الجزء العلمى أيضاً يؤخذ فى مبادئه ، بل يؤخذ أخذاً مسلماً فيه ، مثل انه ليس يُبحث عن الحرارة والبرودة لِمَ كانتا فاعلتين ، والرطوبة واليبوسة لِمَ صارتا منفعلتين .

كذلك من أراد أن يتعلم البلاغة لم يلزمه مع تعلمه أن يتعلم أدواتها التى لا تتم إلا بها ، ولا أن يبحث عن معانيها وموضوعاتها التى يحتاج إلى ضرورة فيها ، كما لا يلزم غيرها من الصناعات التى ذكرنا . فإنه لو لزمنا البحث عن موضوعات البلاغة وتعلّم أدواتها لأحتجنا إلى النظر[2] فى اللغة والنحو ، وتعلّم القياس والجدل مع تعلّمها ، فطال ذلك وأدخلنا فى الصناعة ما ليس منها ، فنقول الآن :

إنا لما قلنا فيما مضى من المقدّمة عند تعريفنا ما البلاغة : إنها ليست ألفاظاً مجردة ،

---

(١) الكلمات الموضوعة بين هلالين صغيرين هى من زياداتنا لفهم المعنى .

(٢) وجد فى هامش الأصل ما يأتى : «أقول هذا موضع النظر لأن النظر فى اللغة واجب حتى يستعمل ما كان أدور « على اللسان » فيقع فصيحا ، وكذلك النحو لأنه لو أهمل أمر النحو فلا يكون التركيب مستقيما ، وكيف لا والبلاغة شرطها معرفة هذه الأحوال مع أشياء أخرى» . وهامشة أخرى فى المعنى ذاته . « انظر إلى قوله لاحتجنا إلى النظر . فان فيه نظراً لأنه يصرح بعد فى بحث الاستعارة بقوله : ومن عيوبها أن تكون ملحونة خارجة على غير أسلوب الإعراب فكيف يكون عيبا وهو شرط عدم معرفته . اللهم إلا أن يريد بالاحتياج الاحتياج التام فتأمل » . اه .

ولا معانى قائمة فى النفس مفردة ، بل أقوالاً يعبر بها عن المعانى — وجب أن يكون الاضطرار دائماً إلى التوسع فى اللغة التى مجراها مجرى الموضوع لصناعة البلاغة (لتعذر للبليغ عند اللفظ ، ويحدث عند الحاجة [١]) ما يستعمله فى البيان عن المعانى ، على سبيل الناظم للجواهر المرصّع بها ما يقصد إلى ترصيعه أن يكون معه جميع أصنافها ، وكذلك سبيل البليغ فى حاجته إلى الألفاظ .

فأما المعانى فالاضطرار إليها فى البلاغة أشدّ منه إلى الألفاظ ، وذلك أنّ المعانى هى الأغراض المقصودة للعبارة بالألفاظ ، والألفاظ مرتّبة فى مراتبها [٢] ، لأن المعانى أربع مراتب : إحداها أعيان الأمور ، وذوات الأشياء التى توجد تلك المعانى فيها ، ثم بعد هذه المرتبة المعقولة التى تقوّم معانى الموجودات فى تصورها ، ثم الألفاظ التى تعبر عن تلك المعانى المتصورة فى العقل بها ، ثم الحروف الموصوفة للخط الذى تُكتب تلك الألفاظ بتأليفها .

فالبليغ الكامل هو الذى تكون الألفاظ عنده عتيدة غزيرة ، والمعانى فى نفسه جمة كثيرة ، فإنه مع ذلك يجيش بحرُه ، ويسهل الكلام والكتاب عليه .

والذى يجب على البليغ فى استعمال الألفاظ أن تكون سمحة سهلة ، لها حلاوة وطلاوة ، وعليها رونق الفصاحة ، مع الخلوّ من البشاعة ، فلا يكون متوعراً وحشياً ، ولا ساقطاً عاميا . ومن نعوتها أن تصير الأجزاء متناسبة الوضع ، متقاسمة [٣] النظم ، متعادلة الوزن ، متوخًّى فى كل جزئين منها أن تكون مقاطعهما [٤] على حرف واحد فى التسجيع ، أو حرفين متقاربى المخرجين من الفم ، فإن أُنضاف إلى ذلك ألفاظ الجزئين المتزاوجة مسجوعة كان أحسن ، مثل ما قال أبو على البصير فى بعض كلامه : حتى عاد تعريضك تصريحاً ، وتمريضك تصحيحاً . فأتى بجزئين متقاربين ، متوازيين ومسجوعين بالحرف نفسه ، وهو الحاء ، من غير استكراه ولا تعسف ؛ ومتزاوجى الألفاظ مسجوعيهما حيث جعل

(١) جعلنا العبارة التى « تعذر » إيرادها على وجه مفهوم صحيح بين هلالين كبيرين .
(٢) فى الأصل : « المركب » بدل « المرتبة » و « المراكب » بدل « المراتب » ولعل الصواب ما صححناه .
(٣) لعله : « متناسقة » (٤) خ : « مقطعاتها » .

بإزاء التعريض من الجزء الأول التمريض من الجزء الثانى ، وذلك سجع بحرف الضاد ؛ و بإزاء التصريح التصحيح بحرف الحاء . فإن لم تتوجه هذه المنزلة ، وهى أحسن المنازل فما دونها ، وهو السجع بالحرف نفسه فيما ضارعه وخرج قريباً من مخرجه كما كتب بعض الكتاب :

إذا كنتَ لا تؤتى من نقص كرم ، وكنتُ لا أوتى من ضعف سبب ، فكيف أخاف منك خَيبة أمل ، أو عدولاً عن اُغتفار زلل ، أو فتوراً عن لمّ شعث و إصلاح خلل .

فَوضْع « نقص » بإزاء « ضعف » ، و « كرم » بإزاء « سبب » ، و « عدول » بإزاء « فتور » ، مناسبة فى وضع الألفاظ ، وموازنة بينها ، و إلا فقد كان يمكن أن يقال مثلاً : مكان نقص قلة ، ومكان سبب شكر ، ومكان فتور تقصير . فلم تكن الألفاظ حينئذ تتوازن ، و إن لم يتسهل أيضاً أن يكون الجزآن متوازيين فى القدر ، فليكن الجزء الأخير أطولَ ، فإن تعدى حتى تكون الألفاظ مضرّسة[1] والأجزاء مجتمعة ، وأواخرها غير مسجوعة لا بحرف واحد بعينه ، ولا بحروف متضارعة ، فذلك خروج عن حد البلاغة .

ورأيت قوماً يذهبون إلى كراهة[2] السجع والازدواج فى الكلام ، من غير أن عرفت لهم فى ذلك حجة ، فعلمت أنهم ذموا ما راموه فلم يصلوا إليه ، وتعاطوه فلم يقدروا عليه ، و إلا فهذا القرآن و كلام الرسول وهما مسجوعان . فأما الذى فى القرآن فأكثر من أن يحاط ، إذ كان مبناه عليه ، وأما كلام الرسول فكقوله فى عوذة سبطته : أعيذكما من الهامة والسامة ، وكل عين لامة . ألا ترى أنه فى أصل اللغة ملمة ، فرام المقاربة فقال : لامة .

(١) هل يريد ياترى بقوله « المضرسة » ماورد فى اللغة من أن المضرس نوع من الوشى فيه أشكال أضراس .

(٢) فى هامش الأصل : « لعل قول من قال بكراهتهما محمول على أنه إذا كانا لا يحصلان إلا بتكلف لا مطلقا فان علماء البيان قالوا : إنما يقبل إذا كان سجية . وحجة هذا أنه بالتكلف يخرج عن السلامة والفصاحة كما لا يخفى » .

وقال : خير المال مُهْرة مأمورة(١)، وسكة مأبورة . وهو فى أصل اللغة مُؤْمرة . فعـدل عنها إلى مأمورة . وقال : ارجعن مأزورات ، من الواو إلى الهمزة(٢) ، لأنه من الوزر ، كما كان مأجورات بالهمزة .

ومن نعوت الألفاظ الاشتقاق والمضارعة ، فالمشـتق مثل ما قال خالد بن صَفوان العبدىّ : هشمتك هاشم ، وأمتك أمية ، وخزمتك مخزوم ؛ فأنت ابن عبد دارها ، ومنتهى عارها ؛ تفتح لها الأبواب إذا أقبلت ، وتغلقها إذا أدبرت .

فمثل هذا الـكلام الموزون بإزاء هـذا المنثور كثير ، ويسمى المتجانس(٣)، وقد شرحت حاله فى كتاب الشعر .

فأما المضارعة : فـكالذى جاء فى الأثر : إياكم والمشاورة فإنها تميت الغرة ، وتحيى العُرّه . وكقول محب لمن قال : خصصتك ماخصصتنى ، بل إنما خسستنى . وكقول الآخر : عوّات لدى على مالى وآمالى .

ومن نعوت الألفاظ التبديل(٤)، وهو أن يُقـدم فى الـكلام جزء ألفاظه منظومة نظاماً تاماً ، فيجعل ما كان مقدماً فى الأول ، متأخراً فى الثانى ، مثل قول من قال : اشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك . وكقول(٥) الآخر : اسودّ منى ما كنت أُحب أن يبيضّ ، وأبيضّ منى ما كنت أُحب أن يسـودّ ، وأشتدّ منى ما كنت أُحب أن يلين ، ولانَ منى ما كنت أُحب أن يشتدّ . وكقول الآخر : اللهم أغننى بالفقر إليك ، ولاتُفقرنى بالاُستغناء عنك .

ومن نعوت الألفاظ الاستعارة ، وهى كقول القائل : ما زال يَفتِل فى الذروة

(١) أمر الرجل : كثرت ماشيته ، والأصل : « مؤمرة على مفعلة » ومعناها كثيرة النتاج والنسل .
(٢) فى الـكلام نقص ، وهو ارجعن مأزورات غير مأجورات ، فعدل عن الواو إلى الهمزة .
(٣) يعنى ، المجانسة ، كذا فى هامش الأصل .
(٤) ويسمى : طرداً وعكساً . كذا فى هامش الأصل .
(٥) وهو قول معن فى مسائل معاوية . كذا فى هامش الأصل .

والغارب[١] حتى لفته عن رأيه . وكقول الآخر : النبيذ قيد الحديث[٢] . وكقول الآخر : فلان أملس ، ليس فيه مستقر لخير ولا شر . وكقول الآخر : لا تخدش وجه رضاك بالتوبيخ[٣] . وفى نعت القلم لعبد الله بن المعتز : يخدم الإرادة ، ولا يمل الاستزادة ، يسكت واقفاً ، ويَنطق سائراً ، على أرض بياضها[٤] مظلم ، وسوادها مُضىء[١] .

ومن عيوب الألفاظ أن تكون ملحونة جارية على غير الإعراب والسبيل المبنىّ عليه الكلام ، ثم أن تكون بَشِعة مستوخَمة ، مضادة لما تقدم من نعوتها ، ثم أن تكون ذات تعقيد . وفى وصية بشر بن المُعتمر : إياك والتوعُّر ، فإنه يستهلك معانيك ، ويمنعك من مراميك .

ومن عيوب الألفاظ التجميع ، وهو أن يكون مقطع الجزء الأول من الجزأين المتتاليين على وزن ما ، فيؤتى بالتالى له على وزنه ، ومُنافراً فى النظم له . مثل قول حُميد بن سعيد فى أول كتاب من كتبه : فوصل به ما يستعبد الحر ، وإن كان قديم العبودية ؛ ويستغرق الشكر ، وإن كان سابق فضلك لم يُبق شيئاً منه . فالمقطع على « العبودية » منافر المقطع على « منه » .

ومن عيوبه أن يؤتى بالجزء الأول طويلا ، فيحتاج إلى إطالة التالى له ضرورة ، فيصيره إما مثله فى القدر ، أو زائداً عليه ، فيضطرب حينئذ ويظهر عليه سيما التكلف .

ومن عيوبه التكرير ، وهو أن تعاد الكلمات أنفسها ، أوحروف الصلات والرباطات وما جرى مجراها فى المدة القريبة . فأما إعادة حروف الصلات والرباطات فمثل : له ، وعليه

---

(١) ومن المجاز قولهم : ما زال من فلان فى الذروة والغارب ، أى يدور من وراء خديعته . قال الصغانى : الفتل فيه ، أى فى المثل يفعله خاطم الصعب من الإبل يختله بذلك . فجعله مثلا للمخادعة والإزالة عن الرأى . والذروة : أعلى الشىء . والغارب : ما بين سنام البعير وعنقه .

(٢) لعل المعنى أن الحديث فى مجلس النبيذ سرّ فكأن النبيذ قيد له عن الإفشاء .

(٣) فى هامش الأصل : « والأحسن أن تقول : لا تخدش وجه رضاك بأظفار التوبيخ » .

(٤) فى هامش الأصل : « أى بسواد المداد » .

(٥) فى الهامش : « أى ببياض المعانى » .

أو منه عليه ، أو به له . فإن فصل بين الحرفين بكلمة زال قبحه مثل أن يقال : أقمت عليه شهداء به .

ومن عيوبه أن يركب من الوحشى المتروك استعماله ، الثقيل فى المسمع .

أما حصر المعانى بقوانين كلية تستوعب أقسامها ، وتستوفى أحكامها ، فعسير ؛ لأنه يحتاج فيه إلى تقديم صناعات كثيرة ، وعلوم شاقة . إلا أن فى فطر الناس السليمة اتباع الصواب وقصده ، والنفار من الخطأ والحياد عنه ، فقد يكتفى من سلم فكره ، ولم يضطرب ذهنه ، بما معه من المعرفة التى يوقع العبارة عليها . إلا أن لهذه الصناعة خاصة أغراضاً من المعانى ، يلزم الكلام فيها ، ومقاصد لا يسع الإخلال بها .

فأما نعوتها فمنها : صحة التقسيم ، وهى أن يؤتى بالأقسام مستوفاة ، لم يخلّ بشىء منها ، ومتخلّصة ، لم يدخل بعضها فى بعض ، كقول من قال : لم تخلُ فيما بدأتنى به من مجد أثلته ، أو شكر تعجّلته ، أو أجر أدخرته ، أو متجر اتجرته .

ومنها صحة المقابلات[1] : وهو أن يؤتى بمعانٍ يراد التوفيق بينها و بين معانٍ أخرى ومضادة ، فيؤتى فى الموافق بموافقه ، وفى المضاد بمضاده ، كقول القائل : أهل الرأى والنصح لا يساويهم ذوو الأفن والغش ؛ وليس من جمع إلى الكفاية الأمانة ، كمن أضاف إلى العجز الخيانة .

فمن تأمل هذه المعانى وجدها فى غاية المعادلة ، لأنه جعل بإزاء الرأى الأفن ، و بإزاء النُّصح الغش ، ومقابل الكفاية العجز ، ومقابل الأمانة الخيانة . فهذا التقابل تعديل فى الموافقة والمضادة .

ومن هذا الجنس قول هند بنت النُّعمان بن المُنذر بن ماء السماء الملك للمُغيرة بن شُعبة

(١) وجد فى هامش الأصل ما يأتى : « والعلم فيها قوله تعالى : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) . لما جعل التيسير مشتركا بين الاعطاء والاتقاء والتصديق ، جعل فى مقابلتها التعسير مشتركا بين المنع والاستغناء والتكذيب . فافهم » اه .

بعقب إحسان منه إليها : شكرتك يدٌ نالتْها خصاصة بعد نعمة ، وغنيتْ عن يد نالت ثروةً بعد فاقة .

ومنها صحة التفسير ، وهى أن توضع معانٍ تحتاج إلى شرح أحوالها ، فإذا شُرحت أتى بتلك المعانى من غير عدول عنها ولا زيادة عليها ولا نقصان منها . كقول من قال : وأنا أثق من مُساءلتك فى حال ، بمثل ما أعلمه من مشاركتك فى أخرى ، لأنك إن عطفت وجدت لَدناً ، وإن غمزت ألفيت شيئاً .

وكقول آخر : وأين يُذهب بك ، مع غزير إنعامك ، وشديد إحكامك ، وأليم انتقامك ، أن تكون مِشباعاً للضيف ، ومِدفاعاً للحيف ، ومِمناعاً من الخوف .

ومن نعوت المعانى التتميم ، وهو أن توجد فى المعنى كتابة أو خطابة فيوفى بجميع المعانى المُتممة لصحته ، المُكملة لجودته ، من غير أن يخلَّ ببعضها ، ولا أن يُغادر شىء منها . كقول القائل : تخلقت به أسباب الجلالة ، غير مستشعر فيها لنَخوة ، وترامت به أحوالُ الصرامة ، غير مستعمل فيها لسَطوة ؛ هذا مع زماتة[1] فى غير حَصَر ، ولينِ جانب من غير خَوَر .

فقد أتى هذا المتكلم بتتميمات المعانى التى جاء بها من غير أن يخل بشىء منها .

ومن نعوت المعانى المبالغة ، وذلك أن يذكر معنى بما لو اقتصر عليه لكان كافياً فيما قُصد له ، فلا يقتصر على ذلك حتى يؤكّد معانيه ، ويعتمد المبالغة فيه ، مثل قول الأعرابىّ : اللهم إن كان رزقى نائياً فقرِّبه ، أو قريباً فيسِّره ، أو مُيسراً فعجِّله ، أو قليلاً فكثِّره ، أو كثيراً فثمِّره .

فهذه مبالغات تؤكد المعنى وتزيد فيه .

ومن نعوت المعانى التكافؤ ، وهو أن يتكلم فى أمر من الأمور ، فيؤتى فيه بمعانٍ متكافئة ، وأعنى بمُتكافئة فى هذا الموضع ، متقاومة ، أى أن كل اثنين منها متعاند ،

(١) زمت الرجل زماتة : وقر .

حتى إذا قيل فى معنى : إن شيئاً أسود ، أتى بآخر يقال فيه : إن شيئاً أبيض . إلى غير ذلك من وجوه العناد . مثل قول من قال : كدرُ الجماعة ، خيرٌ من صَفو الفرقة . ومثل قول القائل : وكان اعتدادى بك اعتداد من لا تَنضب عنه نعمةٌ تغمرك ، ولا يمر عليه عيشٌ يحلو لك . فقوله بإزاء « تنضب » « تَغمر » و « يمر » « يحلو » ، من التكافؤ .

فأما عيوب المعانى فإن من كان حافظا لما قدمناه فى باب نعوت المعانى فسيهون عليه تعرف عيوبها . وجماع ذلك أن تكون المعانى معدولا بها عن الأغراض المُنتحاة ، والمَقاصد المُتوخاة ، إلا أن من تفصيل ذلك الاستحالة والامتناع والتناقض .

فأما المُستحيل فهو الشىء الذى لا يوجد ، ولا يمكن مع ذلك أن يتصوّر فى الفكر ، مثل الصاعد والنازل فى حال واحدة ، فإن هذه الحال لا يمكن أن تكون ولا تتصور فى الذهن .

وأما الامتناع ، فهو الذى وإن كان لا يوجد فيمكن أن يُتخيّل ، ومنزلته دون منزلة المُستحيل فى الشناعة ، مثل أن تركّب أعضاء حيوان ما على جُثة حيوان آخر ، فإن ذلك جائز فى التوهم ، ولكنه معدوم فى الوجود .

وأما التناقض فبأن تجمع بين المُقابلة من جهة واحدة .

والمعانى تقابل على أربعة أوجه : إما على طريق الإضافة ، مثل الأب للابن ، والضِّعف للنصف ، والمَولى للعَبد . وإما على طريق التضاد ، مثل الأسود للأبيض ، والحار للقارّ ، والخيّر للشرير . وإما على طريق الملكة[1] والعدم ، مثل البصير للأعمى ، والمُوسر للفقير ، وذى الوَفرة للأصلع . وإما على النفى والإثبات . مثل أن يقال : زيد جالس ، زيد ليس بجالس .

فالثلاث المقابلات الأول تكون فى المعانى ، والرابعة تكون فى اللفظ وحده . ولكن هذا التقابل الأخير لما كان قد يعتقد أيضاً ، حتى لعلّ من يعدِم اللفظ يشير إلى ما فى نفسه منه إشارة بغير اللفظ ، كما يشير الأخرس مثلا بأن يحطّ يده إلى أسفل فى الإيجاب ،

---

(١) خ : « القنية » .

أو يرفعها إلى فوق فى النفى ، وماجرى هذا المجرى ، أضفنا الكلام فيه إلى الكلام فى المعانى .

وقولى فى جميع هذه المقابلات من جهة واحدة ، إنما أردت به هذا ، هو الشنيع الجارى مجرى العيب . فأما أن يكون مثلا فى باب المضاف إنسان ما أباً لزيد ، وابناً لبكر ، ومولًى لفلان ، وعبداً لآخر ؛ ويكون عدد ما نصفاً لعشرين وضعفاً لخمسة ؛ وكذلك فى التضاد مثل أن يكون الفاتر حاراً عند البارد ، وبارداً عند المحرق ؛ وفى الملكة والعدم ، مثل أن يكون إنسان بصير القلب ، أعمى العين ، أو معسراً من عرض ، موسراً من آخر ؛ وفى الإثبات والنفى ، مثل أن يكون زيد جالسا الظُهر ، ليس بجالس العصر . فجميع ذلك جائز .

فأما المنكر المستبشع الذى أومأنا إلى أنه إذا وجد فى معنًى كان معيباً ، فمثل أن يُجعل رجلٌ ما أباً لزيد وابناً له ، وعددٌ ما ضعفاً لخمسة ونصفاً لها ، وشىءٌ ما حارًّا عند رجل ، وبارداً عنده بعينه ، وإنسانٌ ما ، أعمى القلب بصيرَه ، ويجعل زيدٌ قائماً فى هذا الوقت ، غيرَ قائم فيه بنفسه . فهذا كله فاسد لا يجوز ، لأنّ التقابل جُعل فيه من جهة واحدة ، فيصير حينئذ تناقضاً ، وهو من أفحش عيوب المعانى المعبر عنها بالكلام المنثور ، والكلام المنظوم أيضا .

ومن عيوب المعانى فساد التقسيم ، وذلك يكون على ثلاثة أوجه : إما بتكرير المعنى ، أو بأن يُؤتى منها ما يكون بعضه داخلاً تحت بعض ، أو بأن يخل بما يقتضى المتكلّم فيه استيفاؤه .

فأما التكرير ، فمثل ما كتب بعضُهم إلى عامل : ففكرت مرة فى عَزلك ، وأخرى فى صَرفك ، وتقليد غيرك .

ومثل قول هذا الرجل لهذا العامل : فتارة تسترق الأموال وتَختزلها ، وتارة تقتطعها وتحتجنها .

وأما دخول بعض الأقسام فى الآخر ، فمثل ما سأل بعض النوكى ، فقال : أخبرونى عن علقمة بن عَبدة : جاهلىٌ هو أم من بنى تميم ؟ ومثل قول بعض المترسلين فى فتح :

فمن بين جريح مضرّج بدمائه ، وهارب ما يلتفت إلى ورائه . فكلا هذين القسمين يدخل فى الآخر ، لأنّ الجريح قد يكون هارباً ، والهارب قد يكون جريحاً .

وأما الإخلال ببعض الأقسام ، فمثل قول القائل : إنك لا تخلو فى هربك من صارفك ، أن تكون قدمت إليه إساءة خفت منه معها ، أو خنت فى عملك خيانة رهبت بكشفه إياك عنها ، فإن كنت أسأت فأولُ راضٍ سنةً مَن يَسيرها ، وإن كنت خنت خيانة ، فلابد من مُطالبتك بها . فكتب العامل تحت هذا : هذا التوقيع : قد بقى من الأقسام مالم تذكر ، وهو أنى خفت ظلمه إياى بالبعد منك ، وتكثيره علىّ بالباطل عندك ، ووجدتُ الهرب إلى حيث يمكننى فيه دفع ما يتخرصه أنفى للظنّة عنّى ، والظلم عمن لا يُؤمن ظلمه أولى بالاحتياط لنفسى .

ومن عيوب المعانى ، فساد المقابلات . ومن كان حافظاً لما ذكرنا من صحة المقابلات فى باب نعوت المعانى ، وقف بسهولةٍ على الوجه فى فسادها ، وذلك أن يُذكر معنًى يقتضى الحال ذكر ما يوافقه و يعانده ، فيؤتى بما لا يوافق ولا يُشاكل ، أو بما لا يقاوم ولا يعادل . فليس المقول فيه من الناس أنه خير على الإطلاق معانداً للمقول منهم إنه مارق ولا موافق .

ولهذا لا يحسن فى البلاغة ، وكلام أهل الحجَى : لم يأتنى من الناس أسود ولا أسمر . بل الأجمل أن تقول : ولا أبيض ؛ لأن الأسمر ليس يعاند الأسود غاية المعاندة ، ولا يوجد منه فى غاية المباعدة ، وكذلك لو قال قائل : « ما صاحبتُ فى هذا البلد خيّراً ولا شريراً » كان ذلك أذهب فى سبيل السداد ، من قوله « خيّراً ولا سارقاً » .

ومن عيوب المعانى فساد التفسير . ومن كان ذاكراً لما قدمناه من نعت هذا الباب ، عرف الوجه فى عيبه . ومن المثالات فى ذلك قول بعض المترسلين إلى عامل من عمال الأطراف : ومن كان لأمير المؤمنين كما أنت له من الذب عن ثغوره ، والمُسارعة إلى ما يهيب به إليه ، من صغير خَطب وكبيره ، كان جديراً بنُصح أمير المؤمنين فى أعماله ،

والاجتهاد فى تثمير أمواله . فليس التى قدّم من الحال التى عليها هـذا العامل فى الذب عن الثغور ، والمُسارعة فى الخطوب ، مما سبيله أن يُفسر بالنصح فى الأعمال ، وتثمير الأموال ، إذا كان الذى قدّمه لا يلزم عنه ما فسّر به .

ومن نعوت البلاغة : أن البلاغة ثلاثة مذاهب ، يقصد فى استعمالها : المساواة والإشارة والتَّذييل . فالمُساواة : أن يكون اللفظ كالقالب للمعنى لا يفضل عليه ، ولا ينقص عنه . والإشارة : أن يكون مشاراً به إلى المعنى كاللمحة الدالة . والتذييل : إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد بعينه . حتى يظهر لمن لم يفهمه ، و يتوكد عند من فهمه . ولـكل مذهب من هذه المذاهب موطن يليق به ، ووقت لا يصلح فيه غيره .

فأما المساواة ، فأولى المواطن بها إذا كانت المخاطبة للنظراء ، ومن ليست له مآرب تشغله ، ولا شؤون تصرفه عن استيفاء المعنى إلى آخره .

وأما الإشارة ، فأولى الأوقات بها الوقت الذى يخاطب أو يكاتب فيـه ذو المراتب العالية ، والشؤون الـكثيرة ، والهمم المنقسمة ، لأن من كان فى هذه الطبقة احتاج أن لا يشغل خاطره بمعنًى واحدٍ بعينه ، ولا ينفد زمانه اهتمام بغيره ، وكان الوحى[1] عنده أنفق من الإطالة ، والإشارة إليه أولى من تطويل المقالة .

وأما التذييل ، فإنما سبيله أن يستعمل فى المواطن الجامعة ، والمواقف الحافلة ، وقد قال بشر بن المُعتمر : ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ، فيوازن بينها و بين أقدار المستمعين ، و يجعل لـكل طبقة كلاماً ، ولـكل حال مقاماً ، حتى يقسم أقدار المعانى ، على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين ، على تلك الحالات .

و إذ قد ذكرنا من أحوال هذه المذاهب الثلاثة ما أنبأ عن صورة الأمر ، فإنما نأتى فى كل مذهب منها بمثال مما تقدم استعمال البلغاء إياه فى جنسه ، ليزيد ذلك من عمله

(١) الوحى : المـكتوب ، والرسـالة وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه كيف كان ، ثم غلب على وحى الأنبياء . وقيل : الوحى : إعلام فى خفاء . فالمراد هنا إعلام فى إيجاز كلام سريع التلقين .

شرحاً لما وعاه من معانيه ، وينبىء من لم يفهمه عن حقيقة الحال فيه ، وأُبدأ من ذلك بمذهب الإشارة .

قال أحمد بن يوسف الكاتب : دخلتُ يوماً على المأمون و بيده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى ، ويصعّد فيه طرفه ويُصوّب ، فلما مرّت على ذلك مدة من زمانه ، التفت إليّ وقال : يا أحمد ، أراك مفكراً فيما تراه منى . قلت : نعم . فقال : إنّ فى هذا الكتاب كلاماً نظير ما سمعت الرشيد يقوله فى البلاغة : زعم أن البلاغة إنما هى التباعد عن الإطالة ، والتقرب من معنى البعيد ، والدلالة بالقليل من اللفظ على كثير المعنى . وما كنت أتوهّم أن أحداً يقدر على ذلك حتى قرأت هذا الكتاب ، ورمى به إليّ وقال : هذا كتاب عمرو بن مسعدة إلينا . ففككته فإذا فيه :

« كتابى إلى أمير المؤمنين ومن قِبلى من قواده ، ورؤساء أجناده ، فى الانقياد والطاعة ، على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاةٍ تراخت أعطياتهم ، فاختلت لذلك أحوالهم ، والتاثت معه أمورهم » . فلما قرأته قال : إن استحسانى إياه ، بعثنى أن أمرت للجند قِبَله بأعطياتهم لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه مَن حَلّ محله فى صناعته .

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب لرجل به عناية إلى بعض العمال فى قضاء حقه وأن يختصر كتابه ما أمكنه ، حتى يكون مايكتب به فى سطر واحد لا زيادة عليه . فكتب عمرو : كتابى كتاب واثق بمن كتبت إليه ، معتن بمن كتبت له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله .

وكان جعفر بن يحيى[1] يقول لكتابه : إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثلَ التوقيع فافعلوا .

وكتب إبراهيم بن أبى يحيى إلى بعض الخلفاء يعزّيه ، ويجرى فى المذهب الذى

(١) وفى الهامش « وهو قريع دهره ونسيج وحده فى معرفة البلاغة » .

نحن بسبيله وهى : أما بعد . فإن أحق من عرف حق الله عليه فيما أخذ منه ، من عظّم حقّ الله فيما بقّاه له . واعلم أن الماضى قِبلك ، هو الباقى لك ، وأن الباقى بعدك ، هو المأجور فيك ، وأن أجر الصابرين فيما يصابون به ، أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه .

ودخل بعض البلغاء على بعض الأمراء فقال : السلام عليك أيها الأمير ، سلاماً يتصل أمثاله بسمعك أبداً ما بقيت ، إما من وليك بطوع قلبه ، وصادق ودّه ، وإما من عدوك برغم أنفه ، وذل خده .

ومن نعوت إشراك اللفظ والمعنى الإرداف ، وهو أن يراد الدلالة على معنًى ، فلا يؤتى باللفظ الخاص بالدلالة على المعنى نفسه ، بل بلفظ هو ردفه ، وتابع له ضرورة ، ليكون فى ذكر التابع دلالة على المتبوع . وهذا المذهب يوجد كثيراً فى الأشعار ، وبلاغة الأعراب ، مثل ما قالت أعرابية تصف رجلاً : ولقد كان منهم عمّار ، وما عمّار ، لم تخمد له قط نار ، طَلّاب بأوتار . وإنما أرادت بقولها «لم تخمد له قط نار» كثرة إطعامه الطعام . فلم تأت باللفظ الدال على هذا المعنى نفسه ، بل ذكرت إيقاده النيران ، لأن ذلك تابع لاتخاذ الطعام . ومثل قول أُخرى وصفت زوجها فقالت : أخذنى من أهل غُنيمة بشق ، فجعلنى فى أهل صهيل وأطيط ، ودائس ومنق . فأرادت أنه أخذها من أهلها وهم فقراء لهم غنم قليلة ، فجعلها فى قومه ، وهم أغنياء لهم خيل تصهل وإبل تئط (أى ترغو) ومزدرع يُغل .

فأكثر هذه المعانى التى أتت بها ، إنما هى أرداف معان أشارت إلى الدلالة عليها . وكذلك قول سائر الأعرابيات اللائى هن فى حديث أم زرع ، وقد ذكرنا صدراً فى كتاب تقدير الشعر .

ومما جاء فى ذلك من بلاغات المحدثين ما كتب به بعض الكتاب إلى صديق له فقال : وكيف لا أتمسك بعهدك ، وأتشبث بعلائق ودك ، وأنت ممن لا تقلى صحبته ، ولا تخشى غَيبته ، ولا يكد الصديق عَتبه ومُعاتبته .

فهذه الألفاظ مجراة مجرى الإرداف . فأراد بقوله « لا تقلى صحبته » أى لا يسىء إلى مصاحبه ، و إذا لم يسىء لم يُقْلَ . و « لا تخشى غيبته » أنه ليس بشرير ، ولا وقّاعة فى الناس . و « لا يكد » ذلك أنه لا يتجنّى على صديقه فيعاتبه فيما لا أصل له ، ولا يسىء عشرته فيحوجه إلى معاتبته .

ومما جاء من ذلك قول من قال : حتى إذا ثار النقع ، والتف الجمع بالجمع ، واحمرّت الأحداق ، وقامت الحرب على ساق . وكل هذه الأشياء تدل على معركة الحرب .

ومن نعوت إشراك اللفظ والمعنى التمثيل ، وهو أن يراد الإشارة إلى معنى فتوضع ألفاظ تدل على معنى آخر ، وذلك المعنى وتلك الألفاظ ، مثال المعنى الذى قصدت الإشارة إليه ، والعبارة عنه . وأكثر الاستعمال لهذا المذهب إنما هو فى البلاغة الشعرية . وقد أستعملها الكتاب فى رسائلهم ، والخطباء فى خطبهم ، فيكون ذلك مما يحسن موقعه ، ويبين فى البلاغة موضعه .

ومن الأمثلة فى ذلك كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد ، وقد بلغه أنه يتلكأ فى بَيعته : أما بعد . فإنى أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فاعتمد على أيتهما شئت . والسلام . فلو كتب : إذا أتاك كتابى هذا فبايع ، لم يكن للفظه من العمل فى المعنى ما للتمثيل الذى أتى به .

ومن هذا الجنس كتابُ الحجاج إلى المُهلب يستزيده فى قتال الأزارقة : فإن أنت فعلت ذلك ، و إلا شرعت إليك الرمح . فقال المُهلب فى الجواب : إن شرعتَ إلىَّ الرمح ، قلبتُ عليك ظهرَ المِجن . فهذا المذهبُ الذى هو التمثيل معاكس لمذهب الإرداف ، إذ كان فى ذلك قوة الإسهاب والبَسط . وفى هذا قُوة الإيجاز والجمع ، وهو أيضاً مُستعمل فى العبارة الشعرية . وقد ذكرنا وجهَ استعماله فى الشعر فى الكتاب الذى أفردناه فى البلاغة الشعرية .

ومن عُيوب أشتراك اللفظ والمعنى الإخلال ، وهو ان يخلّ من اللفظ بما فيه أستيفاء

المعنى وتمام المقصد به ، مثل ما كتب كاتب فقال : فإن المعروف إذا زجا(١) كان أفضلَ منه إذا توفر وأبطأ . فأرى أن هذا الكاتب إنما أراد أن يقول له : فإن المعروف إذا قلّ وزجا(١) ، كان أفضلَ منه إذا كثر وأبطأ ، فترك ما به يتم المعنى ، وهو ذكر القلة .

ومن عيوب هذا الجنس الإخلال بالإفادة ، وهو أن يؤتى فى الكلام بزيادة لفظ يفسد المعنى ، كما لو قال قائل مثلاً : فإن الأمر والنهى ، لو ذُقتهما ، طيّبان . فقوله « لو ذقتهما » زيادة تفسد المعنى ، وذلك أنه لو لم يَذُقهما لم يكونا طيبين ، وليس الطيب والكريه إنما يكونان كذلك بذواق الذائق لهما بل هما على هذه الحال بأنفسهما .

ومن عيوب اشتراك اللفظ أن تقدّم ألفاظا تَقتضى جواباً يأْتى بعدها بإعادة ما تقدّم منها ، فلا يُؤتى بالألفاظ بأعيانها ، بل يُنقل المعنى الذى تَدُل عليه الألفاظ إلى ألفاظ أُخَر غيرها ، مثل ما كتب بعضُهم : فإن من اقترف ذنباً عامداً ، واكتسب جُرماً قاصداً ؛ لزمه ماجناه ، وحاق به ماتوخّاه . فنقل لفظى الاقتراف والاكتساب ، إلى لفظى الجناية والتوخى . وكان الأحسن أن يأتى بهما بأعيانهما فيقول : لزمه ما اقترفه ، وحاق به ما اكتسبه ، إذ كان ذلك هو الذى يختاره البلغاء .

ومن عيوب هذا الجنس ، الهذر والتّبعيد ، عند الحاجة إلى الإيجاز والتقريب ، وهذا هو زيادة الألفاظ على المعانى من غير سبب يدعو إليها ، أو حاجة تبعث عليها ، والمثالات فى ذلك موجودة كثيرة من كلام العامّة والدخلاء فى الصناعة .

إن من آلة الكاتب وأداته أن يُضيف إلى الإحسان فى المُكاتبة ، مثل ذلك فى المحاورة والمخاطبة ، حتى تكون ألفاظُه مهذبة ، وإشاراته مُستعذبة ، والنفوس نحوه إذا نطق مُنصتة . فمن المحاورة المُستحسنة قولُ الفضل بن الربيع ، فقد قال له الرشيد : كذبت . قال : يا أمير المؤمنين ، وجه الكذوب لا يُقابلك ، ولسانُه لا يُخاطبك(٢) . فوصله

(١) زجا الأمر : تيسر واستقام . ولعله « وحى » بمعنى أسرع ، ليقع فى مقابلة « أبطأ » .
(٢) تروى هذه العبارة لسهل بن هارون بأسلوب آخر .

وقال : كذبنى ، فوصلته لحُسن جوابه . ودخل سعيدُ بن مُرة على معاوية فقال له : أنت سعيد بن مُرة ؟ فقال : أنا ابنُ مُرة وأنت السعيد . فوصله لحسن جوابه . وقال السفاح أو المنصور للسيد الباقر : أأنت السيد ؟ فقال : أنا ابن أبى وأنت السيد . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لعمه العبّاس : أنت أكبر منى . فقال : أنا أسن ، وأنت أكبرمنى . وقال سعيدُ بن عمرو بن عثمان لطُويس المخنث : أينا أسن ؟ فقال : بأبى أنت وأمى ، لقد شهدتُ زفافَ أمك المباركة إلى أبيك الطيب . فلو جعل الطيبَ وصفاً للأم قد هجّن بالأبن . وعلى حسب ما يُستحسن هذا الجنس من الجواب يُستقبح ما كان خلافه من الخطاب . كما يروى أن رجلاً مرّ بأبى بكر أو بعُمر ومعه ثوب وقال : تبيعه ؟ قال : لا ، عافاك الله . فقال : قد علمتم لو تعلمون . هلا قلت : لا ، وعافاك الله .

ومما جاء من الدلالة على تفضيل البلاغة ما أنا ذاكره فى هذا الكتاب . قال العباس : يارسول الله ، فيم الجمال ؟ قال : فى اللسان . وزعمت الحكماء أن أعلى الخلق مرتبة الملائكة ثم الإنس . وإنما صار لهؤلاء الفضل على سائر أصناف الخلق بالعقل والنطق . وقال مسلمة بن عبد الملك : مروءتان ظاهرتان : الرياش والفصاحة . ودخل ضَمرة بن ضمرة على النُّعمان بنِ المُنذر فاحتقره لدمامة كانت فيه ، فقال : تَسمع بالمُعيدىّ خيرٌ من أن تراه — ويقال : لا أن تراه — فقال : أبيت اللّعن ، إن الرجال لا تُكال بالقفزان ، وليست بمُسوك[1] يُستقى فيها . وإنما المرء بأصغريه قلبُه ولسانُه ، ان صال صال بجَنان ، وان قال قال بلسان . قال الشاعر :

وكائن تَرى من صامتٍ لك مُعجب زيادتُه أو نقصُه فى التكلّم

ومما جاء فى وصف البليغ وتَرتيب البلاغة ما أنا ذاكره : حكى الجاحظُ عن بعض حكماء الهند أنه قال : أول البلاغة جماع آلة البلاغة . وذلك أن يكون الخطيب رابطَ الجأش ، ساكنَ الجوارح ، قليلَ اللحظ ، متخيّر اللفظ ، لا يُكلم سيد الأمة بكلام

(١) المسك : الجلد ، أو خاص بالسخلة ، جمعه مسوك ، والمراد بها القرب والروايا .

الأمة ، ولا الملوكَ بكلام السوقة ، ويكون معه من القُوة ما يُصَرِّف به لفظَه في كل طبقة ، حتى لا يُدقق المعنى إذا خاطب أوساط الناس ، ولا يَدع ذلك إذا خاطب حكيماً أو كاتب فيلسوفاً .

وقال الجاحظ : من شُروط البليغ أن يكون ذاكراً لما عَقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفّحه لمَصادره في وَزن تصفحه لموارده . قال : وكان خالدُ بن صفوان يُوصف بأنه أذكرُ الناس لأول كلامه ، وأحفظُهم لكل ما سَلف من منطقه ، فقال فيه الشاعر :

عليمٌ بتأويل الكلام مُلقّن ذَكور لما سدّاه أوّل أولا
يَبذ قريعَ القَوم في كل مَجمع وإن كان سَحبانَ الخطيبَ ودِغفلا
ترى خُطباء الناس عند ارتجاله كأنهمُ الكِرْوان عاينَ أجدلا

وقال بعضُ نُقّاد الكلام : جماعُ البلاغةِ حسنُ الموقع ، والمعرفةُ بساعات القول ، وقلّة الخرق بما التبس من المعاني أو غمض ، [والبصر] بما بعُد من القول أو شَرد . وقال بعضهم في تقدير الكلام وتَرتيبه : ليكن صدر كلامك دليلاً على حاجتك ، كما أن خَيْر أبيات الشعر ما إذا سمعت صدرَه عرفتَ قافيته . مثال ذلك أن تفرِّق بين صدر خطبة النكاح ، وبين صَدر خطبة الصلح ، حتى يكون لكُل فن من الفنون صدرٌ يدل على عجزه ، وأولٌ يشير إلى آخره .

وقال أعرابيٌ في دُعائه : اللهم إني أعوذُ بك من فَقرٍ مُكبّ ، وضَرَع إلى غير مُحب . وقال بليغ : بقدر السموّ في الرفعة ، تكون الوَقْعة . وقال بعضُ الخطاب : لا يكن حُبك كلفاً ، ولا بُغضك تلفاً . وذمّ أعرابي رجلاً فقال : كان صغيرَ القدر ، قصير الشّبر [1] لئيم النَّجر ، كثيرَ الفخر .

وسمع الحسنُ بن علي أن نافع بن جُبير قال : كان معاوية يُسكته الحلم ، ويُنطقه العلم . فقال : بل يُسكته الحصر ، ويُنطقه البَطر . وقال بليغ : مَن عرف الناسَ داراهم ، ومن

(١) في الأساس : فلان قصير الشبر : مقارب الخلق .

جَهلهم ماراهم . وقال عليّ بن أبى طالب : هل من خلاص ، أو مناص ؛ أو فرار ، أو مَفار[١] ؛ أو منجا ، أو ملجا ؛ أو معاذ ، أو ملاذ . وقال رجل لآخر : أتعرفنى ؟ فقال : أُعرفك كثيرَ السِّعاية ، قليل الذِّكاية . وقال المهلَّب لمالك بن دينار : أتعرفنى ؟ فقال : نعم . أنت الذى أوله نُطفة مَذِرة ، وآخره جِيفة قذِرة ، وهو فيما بينهما يحمل العَذِرة . فقال : لقد عرفتَنى حقّ المعرفة . ووصف أعرابى ناقةً ، فقال : هى كالعَقرب إذا هوت ، والحية إذا تلوّت ، تَطوى الفلاة وما انطوت .

وقيل للأحنف : كيف تسود الناس ؟ فقال : بالخُلق السَّجيح ، والكَفّ عن القَبيح . وقيل لبنت الخُس[٢] : أى الرجال أحبُّ إليك ؟ فقالت : القريب الآمالِ ، الواسع البال ، الذي يوفد عليه ولا يفد . وقال كاتب : الشكر[٣] وإن قلّ ، ثمن لكل نوال وإن جلّ . وقيل لبعضهم : أى إخوانك أوجب عليك حقا ؟ فقال : الذى يسدّ خَلَلى ، ويغفر زَللى ، ويَقبل عِلَلى . وأوصى حكيم رجلاً فقال : سائِلْ العلماء ، وجالس الحكماء ، وخالط الحلماء ؛ فإن مجالستهم غنيمة ، وصُحبتهم سليمة ، ومُؤاخاتهم كريمة .

وخرج شَبيب بن شيبة من دار الخلافة فقيل له : كيف رأيتَ الناس ؟ فقال : رأيت الداخل راجياً ، والخارج راضياً . وقيل لصَعصعة بن معاوية : هل كان من مطر ؟ قال : نعم . حتى عفّى الأثر ، وأنضر الشجر ، ودَهده الحجر . وسأل الحجاجُ رسولَه الراجع من السِّند إليه عنها ، فقال : ماؤها وَشل ، ولصّها بَطل ، وتَمرها دقل[٤] ؛ إن كَثُر الجيش بها جاعوا ، وإن قلّوا ضاعوا . ووصف بليغ منطقاً فقال : هذا كلام يكتفى بأولاه ، ويُشتفى بأُخراه . وقال الجارود بن أبى سَبرة : سوء الخلق يُفسد العمل ، كما يُفسد الخلّ العسل . وقال بليغ : ليس بكريم مَن لم تُذهب القدرة حفيظَته . والبَلوى ضَغينته .

---

(١) كذا فى الأصل فليحرر . (٢) ابنة الخس : مشهورة فى الفصاحة عند العرب ، وهى من بنى إياد ، جاءت عنها الأمثال تقول : أبين بنت الخس ، من فصاحة قس .

(٣) فى الهامش : « الشكر عند الكريم » .

(٤) الدقل : أردأ التمر .

ووصف أعرابيّ حرباً فقال : أولها شَكوى ، وأوسطها نَجوى ، وآخرها بلوى .
ووصف أعرابيّ رجلاً فقال : ما رأيتُ أضربَ لمَثل ، ولا أركبَ لجمل ، ولا أصعد فى قلل منه . وقال عمرُ بن عبد العزيز : إنما هلكَ مَن كان قبلكم بمنعهم الحقّ حتى يُشترى ، وبَسطهم الظُّلم حتى يُفْتَرى . وقال الُخسّ لبنته : أُريد شراء فحل للإبل . فقالت : ليكن أسجحَ(١) الخدّين ، غائرَ العَينين ؛ أرقب(٢) أخزم(٣) أعكر(٤) أكوم(٥) ؛ إن عُصىَ غشم(٦) ، وإن أُطيع تجرْثم(٧) . ولما سُئلت عن إلفها الظلام قالت : طُول السواد(٨) ، وقُرب الوساد .

وجميع أصناف الدلالات على المعانى من لفظ وغير لفظ خمسةُ أشياء لا تنقص ولا تزيد ، اللفظُ والإشارة والعُقدة والخطّ والنِّصبة ، وهى الحال الدالة التى تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تقصر عن تلك الدلالات . ولكل واحدة من هذه الخمسة صورة بائنة عن صورة صاحبها ، وحلْية مُخالفة لحلية أُختها ، وهى التى تَكشف لك عن أعيان المعانى فى الجملة ، وعن حقائقها فى التّفسير ، وعن أجناسها وأقدارها ، وعن خاصّها وعامّها ، وعن طبقاتها فى السار والضار ، وعمّا يكون لغواً بَهرجاً ، وساقطاً مُطرحاً .

وأنا ذاكر لك بعضَ الرواية فى مدح الكتابة ونعت آلاتها ، وما يحتاج الكاتب أن يأخذ نفسه به فيها ، ويستعمله فى أحكامه وبُحوثه ، من العلوم التى بها قوامها ونظامها ، ومنها موادّها وعليها اُعتمادها . قال أحد الحكماء المَنطقيين ، وزعماء الخطابة ، وفرسان الكلام : إن الله جعل للكتابة حظا بارزاً ، ومكاناً ظاهراً ، ومَحلّا بادياً ، تُدركه الأبصار

---

(١) الأسجح : البعير الرقيق المشفر . (٢) الأرقب : الغليظ الرقبة .
(٣) الأخزم : المذلل . وفى رواية ، الأحزم : وهو الغليظ موصع الحزام مع شدة .
(٤) أعكر : كثير شحم السنام . (٥) الأكوم : المرتفع السنام .
(٦) غشم الراعى البعير غشما : هنأه بالهناء ، أى القطران ، لا يترك من الهناء شيئا إلا يتهناه ، يصبه على صحيحه وسقيمه .
(٧) تجرثم : اجتمع ، ولعله يعنى بذلك استناخ .
(٨) السواد (بكسر السين) : مصدر ساوده ، إذا ساره .

بالروية ، وتَراه العيون بالابصار ، وتناله المشاعر بالأشتمال . يكون عند النسيان مَرجعاً ، ولمن عَدم ثقافة الذكاء مكراً ، وعند عوارض العِلَل مآباً . ثم سماه بأحسن تسمية ، وحلاه بأجل رتبة ، فسماه بالعربية عقلاً ، وجعل ذلك له شرفاً وفضلاً . فذلك تأويل الكتاب عند العلماء ، وتفسيره لدى الحكماء ؛ الذين يتأملون مَخارج التدبير ، ويتفقدون إصابة التقدير ؛ فتجمل فى صدورهم حكمة الخلاق العليم ، ويعلو فى أعينهم آثارُ صنع المُقتدر الحكيم ؛ فتأخذ فى أفئدتهم محبة أمره ، ويستولى عليهم رفقُ معادن حكمته ، والشغفُ بظاهر نُوره . وسَمّى من أهّله له عاقلاً ، وبالفارسية دونير ، أى ذو كتابة[1] . ثم جعله نوراً يستضاء به ، ودليلاً يعتمد على هدايته ، وشاهداً يَسكن إلى عدالته ، وصوتاً يبلغ الآفاق فى غير اشتراك من الكل فى استماعه ؛ يسمع به النائى البعيد محله ، ويستتر عن الدانى القريب قُربه ، وسهماً صائباً لغرضه فى غير تجرم للمتوسطات دونه ؛ ومُصاحباً يدرك به الكاتبون ما أستتر على الأميين ، وهم فى الحضور مشتركون ، ولأحضر منه مشرفون ؛ وحارساً لحقوق المُستحقين ، وديون الغارمين ؛ من مُقرض أمهل ، ومُبايع أجّل ، ومُتاجر أخر . هى مخاطبة غَيبية ، ومناجاة خفيّة ، ومُراسلة عقلية ، وأدعية حسّية ؛ مع دلالتها على الصانع الحكيم ، الذى جعل بين حُظوظ العالمين ، على أبد الآبدين . فُروقاً مميزة ، وفصولاً مبيّنة . كاختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وافتراق صورهم وأبدانهم . فسبحان من ليس لقُدرته شبه ، ولا يُدرَك لحكمته كنه ، وهو بكل شىء عليم .

ووجدنا هذا العلم الذى هو إناء الحق ووعاؤه ، وخَلَف الأشياء والبدل منها ، وصُور الأمور ومثالها ، محصّلاً بالحفظ ، محفوظاً محروساً بالعقل ، محدّداً بالذكر ، مسترجعاً بالتذكر ، مُستنبطاً بالتفكر . مقبولاً بالفهم ، مُتَلَقّناً بالذكاء ، مستحضراً بالذهن ، رابياً بالتعهّد ، مُدركاً بالطلب الذى يدعو إليه الانتياب ، ويحدو عليه الحِرْص ، وتنتجه العناية . وتأمر به الألباب ، وتُثمره السعادة ، ويَجمع أمره التوفيق . ووجدناه كثيرَ الآفات عند الأعداء ،

(١) وفى هامش الأصل : « أى ذو خاطرين » ولعل صوابه . دودبير ، أى كاتبان .

مُستجمع الأَضداد ، حاضرَ الأنداد . فالنِّسيان يذهب به ، والشّغل يحول دونه . والوَنْية تُقعده ، والفُتور يُفنيه ، والرّين يعمّى على رويّته ، والفـدامة[1] تثبط عن دركه ، والاضراب يعفّى سبيله ، والأمراض تنهك آلته ، والعِلَل تخرّب محلّه ، والبطالة تَخلّ به ، والشيطانُ يصدُّ عنه ، والأمّارة بالشر تُعمى الطريقَ إليه . وملاكَ الأمر فيما تأخذ به نفسك فى إراغة المَعانى ومُساواة الألفاظ ، ورياضة الطبع فى تخيّر الـكلام ، واُستعمال القَريحة فى اُختلاف غُرر الألفاظ ، ليتـكامل حظّك من الدّربة ، ويَقوى مضاؤُك فى مذاهب البلاغة . فقـد قيل : إن رأس الخطابة الطّبع ، وعمودها الدُّربة ، وجناحها رواية الـكلام ، وحَلْيها الإعراب ، وبهاؤها تخيّرالألفاظ، والمِحْنة مقرونة بقلّة الاستكراه .

وقد حَكى عمرو بن بحر عن الأشعث أنه قال : قلت لبهـلة الهندى أيام اجتلب يحيى بنُ خالد أطباء الهند إلى خدمة دار السلطان : ما البلاغة عند الهند ؟ قال بهلة : عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة ولـكن لا أُحسن ترجمتها ولم أُعالج هـذه الصناعة فأثق من نفسى بخصائصها ، وتلخيص لطائف معانيهـا . قال أبو الأشعث : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها : أول البلاغة ، اجتماعُ آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابطَ الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللّحظ ، متخيّر اللفظ ؛ لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السُّوقة . ويكون فى قوله[2] فضل للتصرف فى كل طبقة ، ولا يُدقق المعانى كل التدقيق ، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ؛ ويُصفيها كل التصفية ، ويهذبها غايةَ التهذيب . ولا يَفعل ذلك حتى يُصادف حكيماً وفيلسوفاً عليماً . ومن قد تعوّد حذف الـكلام ، وإسـقاط مشتركات الألفاظ . ومن قد نظر فى صناعة المنطق ، على جهة الصناعة ، لا على جهة الأعتراض والتصفّح ، ولا على جهة الاستطراف والنّظر . وأعلم أنّ حق المعنى أن يكون الأسم له طبقاً ، وتلك الحالة له وفقاً . ويكون الاسم لا فاضلاً ولا

(١) الفدامة : مصدرفدم الرجل ، كان فدما : أى عييا عن الـكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم وفطنة

(٢) فى كتاب الصناعتين : « ويكون فى قواه التصرف فى كل طبقة » .

مُقصراً ، ولا مُشتركاً ولا مُضمناً . ويكون مع ذلك ذاكراً لما عَقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفّحه لَمصادره ، فى وزن تصفّحه لموارد ، ويكون لفظُه مُونقاً ، وللقول فى تلك المقامات مُعاوداً .

ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم ، وأن تؤاتيه آلته ، وتتصرّف معه أداته . ويكون فى التُّهمة لنفسه مُعتدلاً ، وفى حسن الظنّ بها مقتصداً . فإنه إن تجاوز الحق فى فقدان حُسن الظن ، أودعها تهاون الآمنين . ولكل ذلك مقدار من الشغل ، ولكل شُغل مقدار من الوهن ، ولكل وَهن مقدار من الجهل .

وقال بعض بلغاء الهند : جماع البلاغة البصر بالُحجة ، والمعرفة بمواضع الفُرصة . ثم قال : ومن البصر بالُحجة أن يدفع الإفصاح بها إلى الكناية عنها ، إذا كان الإفصاح بها أوعَر طريقة . وربما كان الاضراب عنها صفحاً ، أبلغَ من الدرك ، وأحقّ بالظفر . وقال مرّة : جماع البلاغة التماس حُسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة الخرق بما التبس من المعانى أو غمض ، [والبصر] بما شرد عنك من اللفظ وتعذر .

وقال الأصمعى : البليغ من طَبّق المفصل ، وأغناك عن المُفسر . وقيل للعتّابى : ما البلاغة ؟ فقال : كُل من أفهمك حاجَته من غير إعادة ولا حُبسة ولا أستعانة فهو بليغ . فإن أردتَ اللسان الذى يَروق الألسنة ، ويفوت كل خطيب ، فإظهارُ ما غمض من الأمر ، وتَصْوير الباطل فى صُورة الحق . وأعلم : أسعدك الله ، أنه لا يَتسع جَرْيك فى مضمار البلاغة ، وإن كانت القريحة فى نهاية الذكاء والثّقافة ، إلا بالاتساع فى دراسة العلوم ، والافتنان فى الآداب ، وحفظ مجامع اللغة ، والنظر فى أحكام الكتاب والسنة ، لتتفقه فى لَحن المَنطق وتتفسّح فى معرفة الألفاظ ، فلا تبدع فى بداهة بل تتجول فى خطاب أو كتاب ابتداء وجواباً عزوب لفظ من اللغة أو أُستعجام غريب من القول عليك ، فيكتنفك من الحصر ما اكتنف عمرو بن مَسعدة عند مجادلة الحائك إياه : فإنه

حكى يوسف بن حمّاد قال : سمعت عمرو بن مسعدة [١] يقول : كنتُ مع المعتصم مقدمه من الثغر ، فلما بلغنا الرقّة قال لى : يا عمرو ، ألا تعجب من داود بن سليمان الرحجى [٢] بالأهواز وفى بيت المال ونَيله الدنيا : عنده أموال مُجتمعة ، وقد كتب إلىّ بأشياء لا يُعذر مثله فى مثلها ، فاخرُج إليه حتى تحمله فى الحديد وتَنقل ما قِبله من المال . فخرجت ، فبينما أنا أسيرُ بين دَير هِرقل ودير العاقول فى وقت الهاجرة فى زُلال [٣] فيه خَيش وثَلج ، سمعت صائحاً ينادى : ياملاح ، صوتاً بعد صوت ، فلما كثُر ذلك علىّ رفعت سِجْف الزّلال ، فإذا أنا بشيخ حاسر الرأس حافى الرّجل على الشطّ ، فحملتُه ، فلما دعوتُ بالطعام دعوتُه فأكل أكلَ متأدّب . فلما رُفع الطعامُ قدّرت أنه يقوم كما يقوم العامّة من موائد الخاصة ، فلم يَفعل . فاستحملتُه فقلت : ما صناعتُك ؟ فقال : حائك ، أعزّك الله . ثم قال : وأنت أى شىء تعمل جُعلت فداك ؟ قلت : كاتب . فقال : أصلحك الله ، من أى الكتاب أنت فإنهم خمسة أصناف ؟ قال عمرو : فوردتْ علىّ منه ظُلمة ، ثم قلت له : سَمّهم . فقال : كاتب خِراج ، وكاتب رسائل ، وكاتب حاكم ، وكاتب جُند ، وكاتب مَعونة .

أما كاتب الخراج فيحتاج إلى أن يكون عالماً بالطّسوق [٤] والمساحة والمُقايسات ، خبيراً بالحساب . أما كاتب الرسائل فأن يكون عارفاً بالأصول والفروع ، والفُصول

(١) فى الامامة والسياسة المنسوبة لابن قتيبة أن هذه القصة وقعت للرشيد مع وزيره عمرو بن مسعدة ، وفى العقد لابن عبد ربه انها وقعت للمعتصم مع عمرو بن مسعدة ، وهو غير صحيح لأن عمراً هذا توفى سنة ٢١٧ . وفى هامش النسخة الأصلية هكذا . طبقات الكتاب المشاهير : عبد الحميد وابن العميد وأحمد بن يوسف وإسماعيل بن صبيح وعمرو بن مسعدة .

(٢) قوله : لاتعجب ، إلى آخره . مكان هذه العبارة من كتاب الإمامة والسياسة ما نصه : « ما زلت تكلمنى وتستلطفنى فى الرحجى حتى وليته الأهواز فقعد فى سرة الدنيا يأكلها خضما وقضما ولم يوجه الينا درهما ، فاخرج اليه . . . » .

(٣) الزلال ، كغراب : ضرب من السفن التى تسير فى دجلة ، كالحراقة والطيار .

(٤) الطسق : ما يوضع من الوظيفة على الجريان من الخراج المقرر على الأرض . وكتب عمر الى عثمان : ارفع الجزية عن رءوسهما وخذ الطسق من أرضيهما . وقيل : شبه الخراج له مقدار معلوم .

والوصول ، حاذقاً بالأعجاز والصدور ، والفُتوح والعهود . وأما كاتب الحاكم فأن يكون عالماً بالأحكام ، حافظاً للشروط ، حاذقاً باختلاف الناس فى الأموال والفروج . وأما كاتب الجُند فأن يكون عالماً بشيات الخيل وَحلى الرجال . وأما كاتب المعونة ، أى الشرطة ، فأن يكون عالماً بالقصاص والجراحات والحدود .

فقلت له : فإنى كاتب رسائل . فقال لى : أخٌ من إخوانك واجبُ الحق عليك ، تزوّجت أمّه كيف تُهنئه ؟ ففكرتُ ساعة ولم يتجه لى شئ . فقلت : لا أُكاتبه لأنه بالمصاب أشبه . فقال : فعزّه إذن . ففكرت ساعة فلم يجئنى فيه شئ . فقلت له : أقلنى من هـذا الفن فإنى كاتب خِراج . قال : فإن سُلطانك بعثك على ناحية ، وتقدّم إليك بالعَدل والإنصاف ، وأمرك أن لا تَدع شيئاً من حق السلطان يَضيع ، وحَذّرك أن تُشكى ، فأخرجت عُمالك ، وتقدّمت إليهم بالعدل ، وحَذرتهم أن يُشكوا . فقدم عليك أهلُ الناحية يشكون عُمالك ، فأشخصتَهم وسألتهم عن ذلك ، فحلفوا بالله لقد أنصفوهم ولقد خَشُوا أن يكونوا جافوا[1] على السلطان . فخرجت إلى العمل بنفسك ناظراً ، فوقفوا بك على قراحٍ[2] لأن تمسحه كيف تمسحه ؟ ففكرت ساعة وتجاسرتُ فى الجواب . ثم قلت : آخذ وسطه ثم آخذ طولَه فأضرب به فيه . فقال : تختلف عليك العُطوف . قلت : آخذ طوله وعرضه من ثلاثة مواضع . فقال : إن طرفيه محددان ، وفى تحـديدهما تقويس . ففكرت ساعة فأعيانى الجواب فيه ، ولم يتجه لى فيه شىء . فقلت له : أقلنى من هذا الفن فإنى كاتبُ قاضٍ . فقال : إن رجلاً أحبل حُرةً له وسرية ، فولدتا فى ليـلة واحدة ، فولدت الحرة جارية ، والسرية غلاماً ، فحملت الحرة الغيرة إلى أن حولت الابن إلى مهدها والبنت إلى مهد السرية ، فتحا كمتا إليك ، ما كنتَ تقضى بينهما . فقلت : لا علم لى بذلك ، أنا كاتب جند . قال : فإن رجلين تقدّما إليك من أهل عسكر واحد ، سهمهما واحد ، ذا

(١) لعل صوابه : جنفوا على السلطان ، أى جاروا .
(٢) القراح : الأرض لا ماء فيها ولا شجر . وقيل : المخلصة للزرع والغرس . جمعه أقرحة .

اسمه أحمد وذا أحمد ، هذا مشقوق الشّفة العُليا وهذا مَشقوق الشفة السفلى . كيف تحليهما؟ قلت : أكتب لهما أحمد الأعلم . قال : إذاً يأخذ ذا رزق ذا ، وذا رزق ذا ، فتقع بينهما فى حَيرة . فتفكرت ساعة فلم يتجه لى فيه شىء . فقلت : لا علم لى بذلك ، أنا كاتب شرطة[1] قال : فإن رجلين تقدّما إليك أحدهما قد شُج موضحة ، فوثب عليه المشجوج فشجه مأمومةً ، كم تجعل بينهما من الإبل ؟ قلت : لا أدرى . فقال : فلستَ كاتب شرطة : فقلت : ففسّر لى ما قلت . قال : حُبا وكرامة . أما الرجل الذى تزوجت أمه ، فالوجه أن تكتب إليه : إن الأقدار تجرى بغير محابّ المخلوقين ، ولموتٌ فى عافية خيرٌ من شائبة فى الملك ، والله يَختار للعبد ، نخار الله لك فى قبضها إليه ، فإن القبور أكرم بالأكفاء . وأما القراح فتمسح اعوجاجه كم يكون قَصبة ، ثم تضرب بعضه فى بعض ، فإذا استوى فى يدك عَقد تعرفه ، رجعتَ إلى المستوى فيه فضرَبته فيه . وأما الحرة والسرية فإنه يوزن لبنهما فمن كانت أخفّ لبناً فالابن لها . وأما الُجند فيكتب أحمد الأعلم مشقوق الشفة العليا ، وأحمد الأفلح مشقوق الشفة السفلى . وأما الشجة : فنى المأمومة ثلاث وثلاثون من الإبل وثلثٌ ، وفى الموضحة خمس من الإبل ، فيرد عليه ثمانية وعشرين وثلثاً ، قلت : ألست زعمت أنك حائك ؟ قال : نعم ، ولكن أحوك الكلام . وإذا رجل قد أدبه الزمان ، وأحكمه العلم .

والمعانى أسعدك الله لُمع ، والألفاظُ مشتركة ، فمن سبق إلى معنًى ثم جاء بعده من يتعاطاه ، فإن أخذه بلفظه كما هو كان سارقاً ، وإن أخذه ببعض لفظه كان سالخا ، وإن أخذه وكساه من عنده كان هو أولى به من الأول .

ويقال : إن أبا عُذرة الكلام مَن سَبك لفظاً على معنى ، لأن أخذ معنًى بلفظ . وقلما تجد شعرَ شاعر ، أو رسالة كاتب ، أو خُطبة خاطب ، إلا وجدت فيه معنًى مسبوقاً إليه ، ولفظاً مشهورا قبله . وقد قال أبو تمام يصف ذلك :

---

(١) قوله كاتب شرطة ، فى هامش الأصل أى ديوان المظالم والشحن ، وسمى ديوان المعونة أيضاً كما تقدم ذكره .

يقول مَن يقرع أسماعه كم تَرَكَ الأولُ للآخر

فمن ذلك أن إسماعيل بن صُبيح كتب إلى بعض الأمراء : فى شكر ما تقدّم من إحسانك شاغلٌ عن استنباط ما تأخر منه . فأخذ هذا المعنى أحمدُ بن يوسف فقال فى بعض كتبه : أحقّ مَن أثبت لك العُذر فى حال شُغلك مَن لم يخل ساعة من برك فى وقت فراغك . ثم أخذه سعيد بن حُميد فقال : لست مستقبلاً لشكر ما مضى من أياديك ، فأستبطىء درك ما أؤمّل من مَزيدك . ثم أخذه حمد بن مهران فقال : لئن تعذرت حاجتى قبلك ، لطالما تيسّر لى أمثالها عندك ، ولست أجمع إلى العجز عن شكر ما أمكن ، التسرّع إلى الأستبطاء فيما تعذر . وسلك هذه الطريقة أبو نواس فقال :

لا تحدثنّ إلىّ عارفة حتى أقوم بشُكر ما سلفا

وقول أبى نواس أربى على جميع ما تقدم فى أخذ هذا المعنى . وسَلك هذا الطويق من جهة أُخرى الضريرُ فقال : وفد إلىّ أنك أصبت بشىء من مالك ، لو لم تُصب به لأسرعت النوائب إليه ، وأتى كرمُك عليه .

وكما أنه مُطلق لمن لطف فى أخذ المعنى ، فكذلك هو محظور على من لم يكن فيه آلة الأخذ أن يَطور به[1] ، لأن الحاذق والبارع يُخفى دبيبه إلى الشىء حتى يستخرجه ، والمتخلّف البليد يظهر تسوره على الأمر إذا أراده .

اللسان هو ترجمان القلب ، وأداة يُدرك بها التأليف ، ويُلتمس بها التقطيع ، وبه يَظهر ما يُجنّه الفكر . وقيل فى المثل : المرء مخبوء تحت لسانه . ويقال : إن روح الحياة إذا كان ظاهراً كان جمالاً ، وإذا كان باطناً كان لِساناً . وقال على بن عُبيدة : الألسنة[2] القلوب يُؤدى عن ضمائرها المَنطق بألفاظ شرايع[3] ما تَستنبطه من الحكمة ، واللسان كاشف لما يخفيه الإغماض .

(١) يقال : أنا لا أطور بفلان ، أى لا أحوم ولا أدنو منه .

(٢) لعله سقط هنا لفظ « بريد » أو « ترجمان » أو ما ماثلهما .

(٣) لعنها شرائف أو شريفه .

وفى كتاب المُوسيقى : إن الإنسان حاس ، والعقل لطيف ، وليس لفكرة العاقل غاية يُدركها اللسان . ومع هذا فإن اللسان ترجمان ، وليس للترجمان أن يبلغ منزلة المترجم .

وقيل : اللسانُ عضو فإن مَرّنته مَرَن . وإن تركته حَرَن . وللسان فضائل معدومة فى الجوارح ، ودرجة عالية على درجاتها ، لما خَصّه الله به من استعماله فى المنطق والبيان .

قال عمرو بن بحر : فى اللسان خصالٌ ، هو أداةٌ يظهر بها البيان ، وشاهد يعبر عن الضمير ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تعرف به الأشياء ، وناطق[1] يفصل الخطاب ، وناطق يرد به الجواب ، وواعظ ينهى عن القبيح ، ومُعزٍّ تبرد به الأحزان ، ومعتذر يُذهب بالضغينة ، ومُلْهٍ يونق الاسماع ، وزارع يحرز المودّة ، وحاصد يستأصل العداوة ، وشاكر يستوجب المزيد ، ومازح تستحق به الزلفة ، ومؤنس يذهب بالوحشة ، ومُزين يدعو إلى الحسنى .

الصوت هو آلة اللفظ ، والذى به يبلغ السامع ما يدركه الفكر .

الفكر هو مستنبط الحكمة ، ومستثار الصوت ، ومستوضح غوامض الأدلة ، وكاشف ضباب الغفلة عن الأفئدة .

البيان هو اسم لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهَتك حُجب الضمير ، وأبدى مكنونه .

المعانى هى الحادثة بالذّكر ، المُتصورة للعقل ، الجائلة فى الفكر . وهى بعيدة وحشية ، معدومة فى حال ، موجودة فى أُخرى ، ممتدة إلى غير غاية ، ومبسوطة إلى غير نهاية .

البلاغة هى أن يبلغ السامع أقصى نهاية المعنى الخاطر بقلبك ، فتصوّره لك كتصوره عندك ، بالإبانة عنه والإفصاح به .

وقيل : الفصاحة لمحة دالة . وقال بعضهم : البلاغة التقرب من المعنى البعيد ،

(١) لعل صوابه : «قاض» .

والتباعد من حشو الكلام ، ودنوّ المأخذ ، و إيجاز فى صواب ، وقَصد إلى الحجة ، وحسن الاستعارة .

وقال آخر : البلاغة أن يعرف الفصل من الوصل(١) . وقال ثُمامة بن الأشرس : قلتُ لجعفر بن يحيى : ما البلاغة ؟ فقال : أن تكون تحيط بمعناك ، وتحكى عن مَغزاك ، وتُخرجه من الشركة ، ولا يستعين السامع عليه بطُول الفكرة . ويكون سليماً من التكلّف ، بريئاً من الصنعة ، بعيداً من التقّعير ، غنيًّا عن التأويل .

وقال الحجّاج لابن القرّية : ما الحرفُ وما الكلمة وما الكلام ؟ فقال : الحرف فرد والكلمة جماعة . والكلام على عشرة أبواب : سبعة فواتح وثلاثة جوامع . فالفواتح: جرأة الصدَر ، وفقدان الحصَرَ ، واتساق القول ، و بيان الكلام ، وقلة التنحنح ، والقول متى شاء ، والوقوف إذا شاء . والجوامع : أن يشبه أول قوله آخره ، و يختار حسن اللفظ ، ويعرف قصّة الكمية . وقال معاوية : البلاغة كلام يتحدر على الطبع كما يتحدر الماء على الكبد الحرّى ، لا يحمل الطبع فيه على غير مذهبه ، فيظهر فيه نقيصة التكلف وعيب التخلق . وقال قائل : عيوب المنطق صنفان ، صنف مذموم وصنف خلقية(٢) لا سبيل إلى الانتقال عنها . والمذمومات توجب الذم إذا كان الإقلاع عنها إلى غيرها ممكناً . والخلقية كاللثغة واللفلفة والرتّة والحبسة والحكلة والفأفأة(٣) واللجلجة والتمتمة .

ومن فساد المَنطق فسادُ مخارج الصوت ، مثل البحة وعدم أعتدال المخارج من الحلق والخياشيم والصدر . فاللثغة ، تكون فى الراء تنقلب إلى الغين أو الياء أو الدال . واللفلفة : أن

---

(١) وفى هامش الأصل : « وقال أبو تمام : حد البلاغة معرفة مواقع الفصل والوصل » .

(٢) أى من قبيل العيوب الخلقية .

(٣) اللفلفة : العي . و الرتة بالضم (والتشديد) : ردة قبيحة فى اللسان . وقيل هى العجمة فى الكلام كالحكلة . والفأفأة، هى صفة الفأفاء ، وهو الذى لايقدر على إخراج الكلمة من لسانه إلا بجهد يبتدىء فى أول إخراجه بشبه الفاء ثم يؤدى، بعد الجهد ، حروف الكلمة على الصحة ، هكذا فسرها المطرزى .

لا يخرج الكلام إلا بشقّ الأنفس . والرتّة والحُبسة ، واحد ، والحكلة ، كالبحة حتى كأنه يسرّ كلامه . والفأفأة : التردد فى الفاء ، والتمتمة : التردد فى التاء .

وقال عمرو بن بحر : من عُيوب المنطق التّصحيف وسوء التأويل والخطأ فى الترجمة . فالتصحيفُ يكون من وجوه : أحدها من التّخفيف والتّثقيل ، ومن قبل الإعراب ، ومن تشابه صور الحروف . وسوء التأويل يكون من الأسماء المتواطئة ، وهو أنك تجد اسماً بمعانٍ فتأوّل على غير المراد ؛ وكذلك سوء الترجمة ، غير أن الكلام المحتمل على المعانى يكون بالفارسية المنقولة إلى غيرها . وقال العتابى : الأُستعانة من فساد الكلام . فسئل عن التأويل ، فقال : إذا قال عند مقطع قوله : ياهناة ، واسمع منى ، وافهم عنى ، وما أشبه ذلك كله عىّ[1] .

ومن لمع صناعة الشعر للأردستانى[2] وهو محمد بن أحمد قال : وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعر لشرف المعنى ، وجزالة اللفظ ، وصحة المبنى ، فتسلم النسق فيه لمن وصف فأصاب وألطف ، وشبّه فسدّد ، ولمن كثرت له سوائر الأمثال ، وشوارد الأبيات ، ولم يكن يهتم بتتبع البديع إذا حصل له عمود الشعر ، ونظام القريض ، على أنه قد كان منهم من يتعمد لتَنقيح شعره ، ويتعمّل لتَحسين ألفاظه وتشذيبها ، وتَرْصين مبانيه ومعانيه وتهذيبها ، مثل زُهير والأعشى والحُطيئة وأبى صخر الهذلىّ وعَدىّ بن الرقاع وأبى المثلم والخنساء وغيرهم . فإن أثر الصنعة ظاهر فى أشعار هذه الطبقة ، ودالٌّ على مقاصدهم فيها ، وشاهدٌ بمعرفتهم بها ، ويدل على ذلك افتخارهم فى أشعارهم بالتجويد . ووصفهُم لمُصابرة القول ومكابدة السهر فيه والتخيّر منه . والصبر على عرضه وعمله حولاً . حتى قالوا :

(١) فى الهامش هذه العبارة : «وقيل فتل الأصابع والنكت على الأرض هو أيضا من العى» .

(٢) هو غير كتاب معانى الشعر للأشناندانى . وفى دار الكتب العربية بدمشق نسخة مخطوطة من هذا الكتاب . وقد أورد صاحب كشف الظنون اسم كتابين باسم « صناعة الشعرا » أحدهما للحسين بن محمد الرافعى المعروف بالخالع المتوفى بعد ثمانين وثلاثمائة ، والآخر لأبى سعيد حسن بن عبد الله السيرافى النحوى المتوفى سنة ٣٦٨ ، وقد طبع كتاب الاشناندانى مؤخراً فى دمشق (١٣٤٠) والأردستانى نسبة لأردستان ، مدينة بين قاشان وأصبهان فى فارس .

خيرُ الشعر الحَوْلىّ المنقح . يروى ذلك عن الحُطيئة ، فقالوا : حوليّات زهير . وقد ذكرت الشعراء ذلك فى مفاخرهم ، فقال سُويد بن كراع يذكر تقويمه شعره وطول مصابرته له :

أبيت بأبواب القوافى كأنما أصادى[1] بها سربًا من الوحش نزعا
أكالبها[2] حتى أعرّس بعدما يكون سحيرًا أو بعيدًا فأهجعا
إذا خفت أن تروى علىّ رددتها وراء التراقى خشيةً أن تطلعا

فأخبر أن القوافى تعتاص عليه وأنه يكالبها ويكابدها ويسهر لها إلى أن تنقاد له .

وقال حارثة بن بدر :

قبح الإله الإلف إلا ما مضى والشعرَ بعد مُرقشٍ ومهلهلِ
وأبى دواد أو عبيد كلما نطقوا أصابوا فيه فصّ المفصل

فمدحهم بالإصابة والتجويد . وقال عَدىّ بن الرّقاع :

وقصيدة قد بتُّ أجمع بينها حتى أُقوّم ميلَها وسنادَها
نظر المُثقف فى كُعوب قناته حتى يُقيم ثقافُه مُنآدَها

فأخبر أنه يعاود النظَر ويكرره حتى يثقفه . وقال عمرو[3] بن هند :

فإن أهلك فقد أبقيتُ بعدى قوافى تُعجب المتمثّلينا
لذيذات المَقاطع مُحكمات لو أن الشعر يُلبس لارتدينا

فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ؛ ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحُسن ، وتميّزها عن أخواتها فى الرشاقة واللُّطف ، تكلفوا الاحتذاء عليها ، وسموها البديع . فمن محسن ومُسىء ، ومفرّطٍ ومُقتصدٍ ، وهو ينقسم أقسامًا ويتشعّب شُعبًا .

---

(١) صاداه : عارضه ، يقال : من صاداك فقد صادك .

(٢) كالبه : ضايقه مضايقة الكلاب بعضها بعضا عند المهارشة .

(٣) فى الأصل : «عمرو بن» فجاء بعض النساخ وزاد كلمة « هند » .

فمنها : الطباق ، التجنيس ، الأستعارة ، المقابلة ، الإرداف ، الموازنة ، المساواة ، الوحى والإشارة ، التذييل ، المبالغة ، الغلوّ ، الإيغال ، التّسهيم ، ردّ الكلام على صدره ، صحة التقسيم ، المماثلة ، الترصيع ، التكميل ، التكافؤ ، السّلب والإيجاب ، العكس والتبديل ، الكناية والتعريض ، الالتفات ، الأستدراك والرجوع ، التّذييل ، الاستطراد ، التّكرار ، الأستثناء ، التّصحيف ، براعة الاستهلال ، براعة التخلّص ، الترديد والتتميم ، جمع المؤتلف والمختلف فى بيت أو بيتين ، المذهب الكلامى ، التفويف ، التّفريع ، التّسميط ، التّصريع ، التّضمين ، القسم ، الإعنات ، تجاهل العارف[1] ، هَزل يُراد به الجد .

وأما الطباق فهو أن يأتى الشاعر بالمعنى وضدّه ، أو ما يقوم مقام الضد فيحسن جدا ، وله شُعبٌ خفيّة ، وشعاب غامضة ، ربما اُلتبست به أشياء لا تَبين إلا للنظر الصائب ، والذهن الثاقب . ومن أشهر أقسامه ما جرى مجرى قول زُهير :

ليث بِعَثّرَ[٢] يصطاد الرجالَ إذا ... ما الليثُ كذّب عن أقرانه صَدَقا

وقول جرير :

وباسطِ خيرٍ فيكمُ بيمينه ... وقابض شرٍّ عنكمُ بشماليا

وقول طُفيل :

يُصان وهو ليوم الروع مَبذول

وقول دِعْبل :

لا تَعْجبى يا سَلْمُ مِن رجلٍ ... ضَحِكَ المَشيبُ برأسه فبَكَى

وقول الآخر :

خميصٌ من التّقوى بطينٌ من الخمَر

(١) فى الحاشية : وسماه صاحب المفتاح ، « سوق المعلوم إلى غير المعلوم » .

(٢) عثر ، كبقم : مأسدة باليمن . وقيل : جبل بتبالة به مأسدة .

وقد يجيء منه جنس آخر تكون المُطابقة فيه بالنّفي كقول البُحتري :

يُقيّض لى من حيثُ لا أعلم النوى ويَسْرى إلىَّ الشوق من حيثُ أعلمُ

لما كان قوله « لا أعلم » كقوله «أجهل» ، وكان أجهل مطابقة ، كان الآخر بمثابته .

ومن أغرب ألفاظه وألطف ما وجد فيه قول أبى تمام الطائى :

مها الوَحش إلا أن هاتا أوانسٌ قنا الخطّ إلا أن تلك ذوابلُ

فطابق بهاتا وتلك ، وأحدهما للحاضر والآخر للغائب ، فكانا نقيضين فى المعنى ، وبمنزلة الضدين . وسبيل الشاعر أن يتتبع فيه التقابل ، وأن لا يجيء بأُسم مع فعل ، ولا بفِعل مع أسم ، فإن ذلك أذهبُ فى الصنعة ، وأسلم فى البنية .

وأما التّجنيس(١) فهو أن يأتى الشاعر بلفظتين فى البيت إحداهما مُشتقة من الأخرى ، يسمونه المطابق ، وهو أشهر أوصافه ، وأكبر أصنافه ، نحو قول أمرىء القيس :

لقد طمح الطماحُ من بعد أرضه ليُلبِسَنى من دائه ما تَلَبّسا

وقول الأعشى : * وليل أبى ليلى أمرُّ وأعلقُ *

وقول زهير : * كأن عَينى وقد سال السليلُ بهم *

وقول القَطامى : * مُستحقبين فؤاداً ما له فاد *

وقول الشّنفرى : * برَيحانة ريحت عِشاراً وطلّتِ *

وقول رؤبة : * أحضرتَ أهل حضرموتَ مَوتا *

فجانس فى موضعين فى بيت رجز . وقول جرير :

فما زال مَعْقولاً عِقال عن النَدى وما زال محبوساً عن المجد حابسُ

وقد يكون منه التجنيس المُستوفى . كقول أبى تمام :

ما مات مِن كرم الزّمان فإنه يَحيا لدى يحيى بن عبد الله

---

(١) وجد فى هامش الأصل ما يلى : « سمى هذا وأخواته من الأمثلة اشتقاقا لا تجنيسا ، والتجنيس أنواعه ثلاثة عشرة . وهى مرتبة فى كتابى الموسوم بدرة التبيان فى علمى المعانى والبيان .

فجانس يحيى ويحيى لاختلاف المعنيين ، لأن أحدهما فعلٌ والآخر اسمٌ ، ولو اتفق المعنيان لم يعدّ تجنيساً . وكقول بشار :

وإنىَ للثغر المخوف لكالىء ... وللثغر يجرى ظَلْمه لرَشُوفُ

ومنه التجنيس الناقص ، كقول الأخنس بن شهاب :

وحامِى لواء قد قتلنا وحاملٍ ... لواء مَنعنا والسيوفُ شوارعُ[(١)]

وقول ابن مُقبل :

يَمشين مشىَ النقا مالت جوانبهُ ... يَنهال حِيناً ويَنهاه الثَّرى حِينا[(٢)]

وقول أبى تمام :

يمـدون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ ... تصول بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ[(٣)]

وقول البحترى .

هل لمـا فات من تلاقٍ تلافى ... أم لشاكٍ من الصبابة شافِى

ومنه التجنيس المضاف ، كقول البحترى :

أيا قمر التَّمام أَعنتَ ظُلما ... علىّ تطاول الليل التَّمام

فجانس بقمر التمام وليل التمام ، وكل واحد منهما موافق للآخر فى المعنى ، ولـكن أحدهما صار مقترناً بالقمر والآخر بالليل ، وكانا كالمختلفين .

والتجنيس يزيد فى رَونق الشعر ، ويحلى عاطل معانيه . وهو عنوان الفصاحة ، وشاهدِ الأتساع فى اللغة ، ودليل على توقد الذكاء ، وجودة الذهن ، ومُسابقة الخاطر .

وأما الأستعار، فهى نقل الـكلمة عن شىء قد وضعت له إلى شىء لم توضع له . ولا تكون الاستعارة واقعةً حتى تكون اللفظة المُستعارة فى الموضع الذى أُستعيرت له أبلغ من الحقيقة .

---

(١) فى الأصل : « ليس هذا التجنيس الناقص بل هو التجنيس المطرف » .
(٢) فى الأصل : « هذا تجنيس ناقص فانه كالتام إلا فى الاعراب » .
(٣) فى الأصل : « ما هو التجنيس الناقص بل هو التجنيس الزائد » .

واستعاراتُ الشعراء جمة ، ومحاسنُهم فيها كثيرة ، ومذاهب المُحدثين فيها خاصة طريفة ، فمنها قولُ زهير : * وعُرّى أفراس الصّبا ورواحله *

وقول لبيد : * إذ أصبحت بيـد الشّمال زِمامُها *

وقول ابن الطّثرية :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا   وسالت بأعناق المَطىّ الأباطحُ

وقول جرير :

تُحيي الروامس ربعها فتُجدّه   بعـد البِلَى وتُميته الأمطار

وهـذا البيت يجمع لُطف الاستعارة ، وشَرف الطباق ، لأنه جاء فيه بالإحياء والإماتة ، والجدة والبلى . ويستحسن من الاستعارة مثلُ قول أبى حيّة :

وليـلة مَرِضَت من كُل ناحية   فمـا يُضىء بها نجم ولا قمرُ

وأما المقابلة ، فهى أن يضع الشاعر معانى يُريد التوفيق بينها ، فيأتى فى الموافق بما يوافق ، وفى المُخالف بما يخالف على الصحة ، أو يشترط شروطاً فى أحد المعنيين ، فيأتى فيما يوافقه بمثل الذى شرطه ، وفيما يخالفه بأضداد ذلك ، كقول الجعدى :

فتىً كان فيـه ما يسرّ صديقَه   على أنّ فيه مايسوء الأعاديا

وقول تأبط شرّا :

أهزّ به فى نَدوة الحىّ عِطفَه   كما هزّ عِطْفى بالهِجان الأواركِ

وكقول آخر :

أبا عجباً كيف اتفقنا فناصحُ   وَفىٌّ ومَطْوىٌّ على الغل غادرُ

فجعل بإزاء ناصح مطوياً على الغلّ ، وبإزاء وفىّ غادراً . وقد ذهب بعضُ الناس إلى أن هذا طباق ، وليس هذا كما ذهب إليه ، وإن كان مُناسباً له .

وأما الإرداف(١) ، فهو أن يريد الشاعر دلالةً على معنى فلا يأتى باللفظ الدال عليه بل بلفظ هو تابع له وردف كقوله :

(١) وفى الهامش : وسمى تتبيعاً .

بعيدة مَهْوى القُرطِ إمّا لنَوْفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

وإنما أراد أن يصف طول جيدها فأتى بِردْفه ، وهو بعد مَهوى القرط . وكقول امرئِ القيس :

ويُضحى فتيتُ المِسك فوق فِراشها نَؤوم الضَّحى لم تَنْتطق عن تَفضُّلِ

إنما أراد أن يذكرُ تُرفة[١] هذه المرأة ، وأن لها مَن يكفيها ، فلم يذكر ذلك وعدل إلى ذكر فتيت المسك الذى يدُل على أنها مُنعمّة ، وأنهـا فى خفض من العيش وتُرفة ، وقد يسمى : التَّتبيع أيضاً .

وأما المُوازنة ، فهى أن تـكون الألفاظ مُتعادلة الأوزان ، متوالية الأجزاء ، كقول أُمرئ القيس :

* سليم الشَّظى[٢] عَبْل الشَّوا[٣] شَنج النَّسا[٤] *

وقول أبى دُوَاد :

بعيدُ مطى[٥] الطَّرف خاظِى البَضيع[٦] مُمر المَطا سَمْهرى العَصَـــــب[٧]

وأما المساواة فهى أن يكون اللفظ مُساوياً للمعنى لا يَزيد عليه ولا يَنْقص عنه ، كقول زُهير :

ومهما يكن عند أُمرئٍ من خَليقةٍ ولو خالهـا تَخفى على الناس تُعْـلم

وكقوله :

فـلو شاء قومى كان حِلْمىَ فيهـمُ وكان على جُهال أعدائهم جَهْـلِى

(١) الترفة ، بضم التاء كغرفة : النعمة .
(٢) الشظى : عظم مستدق لازق بالوظيف ، أى عظم الساق .
(٣) الشوى : ما كان غير مقتل من الأعضاء . والعبل : الغليظ .
(٤) يقال : فرس شنج النسا : متقلصه ، وهومدح له لأنه إذا تقبض نساه وشنج لم تسترخ رجلاه .
(٥) فى هامش الأصل : هذا البيت لا مدخل له بمثل صنعة الموازنة إلا فى قوله « بعيد مطى وممر المطا » والباقى لا يعد من التوازن . (٦) خاظى البضيع : ممتلىء اللحم . والمطى : المدى .
(٧) المطى: حبل الظهر، وأمرَّ الحبل: فتله فتلا شديداً، فهو ممر . وعصب سمهرى : شديد الفتل.

وكقول الآخر :

إذا أنت لم تُقْصِر عن الجَهل والخَنا أصبتَ حليما أو أصابك جاهـلُ

ومساواة اللفظ بالمعنى هو الأمر المتوسط بين الإيجاز والإسهاب .

وأما الإشارة فهى اشتمال اللفظ القليل على المعانى الكثيرة ، كاللمحة الدالة على المُراد ، كقول امرئِ القيس :

فظل لنا يوم لذيذ بنعمـة فقل فى مقيل نحسه متغيّب

وكقوله :

على هَيكل يُعطيك قبل سُـؤاله أفانين جَرْيٍ غير كزّ ولا وانى

فقـد جمع بين قوله « أفانين جرى » ما لو عدّ لتطاول اللفظ به ، وجمع بقوله « قبل سؤاله » أوصاف العتق والجودة فى هذا الفرس . ويريد أنه يذهب فى الأفانين طوعاً من غير حثّ . فى قوله « غير كز ولا وانى » ، نفى عنه أن يكون معه الكزازة من قِبـل الجِماع والمُنازعة ، والونى من قبل الاسترخاء والفترة . وكقول الآخر :

هاج ذا القلبَ من تذكّر جُمـلٍ ما يهيج المُتيَّم المَحزونا

فقـد أشار بقوله « ما يهيج المتيم المحزونا » إلى ضروب من أوصاف المتيم يتسع فيها نِطاق الكلام ، وتفسح معها مسارب النظام .

وأما المبالغة ، فهى أن تذكر معنًى ما لو اقتُصر عليه لكان كافياً فيما قُصد له ، فلا يقتصر على ذلك حتى يؤكّد معانيه ، ويعتمد المبالغة فيه ، كقوله :

ونُكرم جارَنا ما دام فيـنا ونُتبعه الكرامَةَ حيث مالا

فإكرامُهم الجار ما كان فيهم من الأخلاق الجميلة الموصوفة ، وإتباعهم إياه بالكرامة حيث كان من المبالغة فى الجميل . وكقول الخضرىّ :

وأقبح من قِرْد وأبخـل بالقِرى من الكلب أمسى وهو غرْثان أعجفُ

فقد كان يُجزئُ فى الذم أن يكون هذا المهجوّ أبخلَ من الكلاب ، فلم يرضَ حتى يكون غَرثان أعجف . وكقول الآخر :

وإنا لنُعْطِى النصف منا وإننا لنأخذه من كل أبلخ[1] ظالم

فالتوكيد فى قوله « وإننا لنأخذه » ثم قال : « من كل أبلخ » ثم قال : « ظالم » فهَذه مبالغات مضاعفة مكررة .

وأما الغلوّ فكقول قيس بن الخطيم :

طعنتُ بنَ عبد القيس طعنةَ ثائر لها نفذٌ لولا الشعاعُ أضاءها

ملكتُ بها كفِّى فأنهرت فَتْقها يُرَى قائمٌ من دونها ما وراءها

وبلغنى أن شُعبة بن الحجاج قال لما أُنشد البيتين : هذا لم يَطعنه إنما فتح دربان[2] .

وكقول النمر بن تولب العُكلىّ :

أبقى الحوادثُ والأيامُ من نَمِر أسبادَ سيفٍ قديم اثرُه بادى

فظلّ يَحفر[3] عنه ان ضربتُ به بعد الذّراعين والساقين والهادى

وكقول أبى نواس :

توهمتُهــــا فى كأسها فكأنما توهمتُ شيئاً ليس يُدركه العقلُ

فما يَرتقى التكييفُ منها إلى مدى يحـــدُّ به إلا ومن قبله قَبلُ

ومن الشعراء من يستثنى عند الغلوّ أو يظهر[4] (بكاد) و (لولا) فيدرك مُراده ويسلم من قبح الغلوّ وهُجنة الإفراط . مثل العَرجىّ :

ولهنَّ بالبيت العتيقِ لُبانةٌ والبيتُ يعرفهنّ لو يتكلّمُ

وأما الإيغال، فهو أن يُوغل بالقافية فى الوصف ويؤكد التشبيه بها ، والمعنى قد يستقل دونها ، وإنما يأتى بها لحاجة الشعر فى أن يكون شعراً إليها ، فيزيد معناها فى تجويد

(١) أبلخ : متكبر . (٢) دربان أىَ دربند : وهو الباب (فارسية) .

(٣) لعل صوابه « يحفز » بالزاى المعجمة . (٤) لعله: « يستظهر » .

ماذكره ، فيبلغ فى المعنى إلى الغاية القصوى فى الإحسان والجودة ، كقول أمرئ القيس :

كأَنَّ عيونَ الوحش حول خِبائنا   وأَرحلنا الجزع الذى لم يثقّب

فقد أتى على التشبيه قبل القافية ، وذلك أن عيون الوحش إذا ماتت أشبهت الجزع . ثم لما جاء بالقافية بلغ بالمعنى الأمد البعيد فى التأكيد ، لأن تشبيه عيون الوحش بالجزع الذى لم يُثقب أدْخلُ فى التشبيه ، وإذا لم يُثقب كان أحسنَ فى صفائه ، وأشد فى ترقرق مائه . وكقوله :

إذا ما جرى شأوين وابتلّ عِطْفُه   تقول هزيزُ الرِّيح مرت بأثآب[1]

فقد تم الوصفُ والتشبيه قبل القافية ، فلما أتى بالقافية زاد المعنى نصاعة وبراعة ، وذلك أن الأثآب شجر يكون للريح فى أضعاف أغصانه حفيفٌ شديد . وقال زهير :

كأَنَّ فتات العِهْن فى كل منزلٍ   نَزَلْن به حَبُّ القنَا لم يُحطَّم

فقد أتى بالتشبيه قبل القافية ثم قال : « لم يُحطم » لأنه إذا حُطم كان داخله أبيض فلم يُشبه العهن ، وهو الصوف الأحمر . وقال الآخر :

حملت رُدَينيًّا كأَنَّ سِنانَه   سنَا لهبٍ لم يتصل بدُخانٍ

فأكد بقوله « لم يتصل بدخان » .

وأما التسهيم فهو أن يصوغ الشاعر ألفاظه مستوية الأقسام ، مُعتدلة النظام ؛ لايزيد جزء على جزء ؛ تقتضى كل كلمة أختها ، وكل لفظة شكلها . فإذا كان الشعر على هذه الصيغة سبق السامع إلى قوافيه ، قبل أن ينتهى إليها راويه ؛ حتى لوسمع سامع الشطر الأول استخرج الشطر الآخر ، من غير أن يكون قد سمعه . كقول البحترى :

* فإذا حاربوا أذلّوا عزيزاً *

(١) الأثآب : شجر ينبت فى بطون الأودية فى البادية ؛ الواحدة أثآبة .

يقتضى أن يكون تمامه :

* وإذا سالموا أعزوا ذليـلا *

وكقوله :

أحلّت دمى من غير جُرمٍ وحَرَّمت   بلا سبب يومَ اللقـــاء كَلامى

* فليس الذى حلّته بمُحلل *

يجب أن يكون تمامه :

* وليس الذى حَرَّمته بحرام *

وقالت جَنوب[1] أخت عمرو :

وأقسمتُ يا عمرو لو نَبَّهـاك   إذن نَبّها مِنك داءً عُضالاَ

إذن نَبّها لَيْثَ عِرّيسة   مُفيتاً مُفيداً نُفوساً ومالا

وخِرقاً تجـاوزْت مجهولة   بوَجناء حَرْف تَشَكّى الـكَلالا

فـكنتَ النّهار بها شمسه   وكنتَ دُجى اللّيل فيها هلالا

فانظر إلى ديباجة هذا الكلام ما أصفاها ، وإلى تقسيماته ما أصحّها ، وانظر إلى قوله « مُفيتاً مفيداً » ووصفه بالشمس فى النهار ، والهلال فى الليل . وأشتقاق التسهيم من البرد المُسهَّم الذى لا يتفاوت ولا يختلف ، وقد يسمى التّوشيح أيضاً .

وأما رد الكلام على صدره ، ويسمى أيضاً رد العجز على الصدر ، فهو أن يبتدىء الشاعر كلمة فى بيت ، ثم يُعيدها فى عجزه ، أو فى النصف الأول ، ثم يردّها فى النصف الآخر . وإذا نُظم الشعر على هذه البِنْية تيسّر أُستخراج قوافيه قبل أن تطرُق السمع ، أو ينتهى إليها المُنشد ، كقوله :

وإن لم يكن إلا تعلُّل ساعة   قليلاً فإنى نافعٌ لى قليلُها

(١) جنوب أخت عمرو ذى الـكلب الشاعر ، (التاج) .

وقول الآخر :

سقى الرملَ جَوْنٌ مُستهلٌّ غمامةٍ وما ذاك إلا حبُّ مَن حلّ بالرَّمل

وقول الآخر :

وكنتَ سَناماً فى فَزارة تامكاً(١) وفى كُلِّ حيٍّ ذِرْوة وسَنامُ

وأما صحّة التَّقسيم ، فهو أن يَستقصى الشاعر تفصيلَ ما أُبتدأ فيه ويَستوفيه ، فلا يغادر قسماً يَقتضيه ذلك المعنى إلا أورده ، كقول زهير :

يَطعنهم ما ارتموا حتى إذا اطَّعنوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا

فقسم البيت على أقسام الحرب ، ومراتب اللقاء ، ثم ألحق بكل قسم مايليه فى المعنى الذى قَصده من تفضيل الممدوح . وكقول نُصيب :

فقال فريقُ القوم لا وفريقهم بلى وفريقٌ قال ويحك ما ندرى

وليس فى الأقسام فى الإجابة عن المطلوب إذا سُئل عنه غير ما ذكره ، وقال طُريح ابن اسماعيل :

إن حاربوا وضعوا ، أو سالموا رَفعوا أوعاقدوا ضَمِنوا ، أو حدّثوا صدَقوا

فهـذا وأمثاله التقسيم الذى إذا اعتمده الشاعر ، وأحسن صَنعته ، شرُف كلامه ، وتهذّبت عبارته .

وأما المماثلة ، فهى ضَرب من الأستعارة ، وذلك أن يقصد الشاعر الإشارة إلى معنًى فيضع ألفاظا تدلّ عليـه ، وذلك المعنى بألفاظه مثالٌ للمعنى الذى قَصد الإشارة إليـه ، كقول زُهير :

ومَن يَعص أطرافَ الزِّجاج فإنه يُطيع العوالى رُكِّبت كلَّ لَهْذَم

فعدل أن يقول : من لم يرض بأحكام الصلح رضى بأحكام الرماح . وكقول عمرو :

فـلو أنّ قومى أنطقتـنى رماحُهم نطقتُ ولـكنّ الرّماح أجرّتِ

---

(١) للتامك من الأسنمة : ماطال وارتفع واكتنز .

وأما التكميل، فهو أن يذكر الشاعر المعنى فلا يدع من الأحوال ، التى تتم بها صحته ، ويكمل معها ، شيئاً إلا أتى به ، كقول نافع بن خليفة :

أُناسٌ إذا لم يُقبلِ الحقُّ منهم ويُعطوه عاذوا بالسُّيوف الصوارم

إنما تمّت جودة المعنى بقوله « ويعطوه » ، وإلا كان منقوصاً . وكقول كعب بن سعد الغنوىّ :

حليم إذا ما زيَّنَ الحلمُ أهلَه مع الحِلم فى عَين العدوّ مَهِيبُ

وكقول كثير :

لو أنّ عزة خاصمت شمسَ الضُّحى فى الُحسن عند مُوَفَّق لقضى لها

فقوله « عند موفق » من التكميل .

وأما الترصيع، فهو توخى تسجيع مقاطع الأجزاء وتَصييرها مُتقاسمة النظم متعادلة الوزن، حتى أشبه ذلك الحلى فى ترصيع جوهره ، كقول أمرئ القيس :

الماء منهمرٌ ، والشدّ مُنحدر والقصب مُضطمر، والمَتن مَلحوب [١]

وقول الخنساء :

حامِي الحقيقة محمودُ الخليقة مَهْ دىّ الطّريقة نفّاع وضرّار [٢]

جوّاب قاصيةٍ جَزّاز ناصية عقّاد ألوية للخيل جرّار

فواصلت بين هذه التسجيعات كما ترى مُواصلة رشقت العبارة عنها ، وحلا السجعُ بها . وليس يحسن الأُستكثار من هذا ، لأنه إذا كثر فى القصيدة دلّ على التكلف ، وإنما يحسن أن يأتى أوضاحاً [٣] ، وأن يرد فى بيتين أو ثلاثة من القصيدة .

---

(١) ويروى فى التاج هكذا :

فالعين قادحة والرجل ضارحة والقصب مضطمر والمتن ملحوب

وقد حت العين : غارت . وضرحت الدابة برجلها : رمحت . والقصب ، بالضم : الظهر ، ويراد به هنا الخصر . كما فى التاج . ومتن ملحوب ، أى مملاس فى حدور . (٢) فى رواية :

حامى الحقيقة محمود الطريقة مه دى الخليقة نفاع وضرر

(٣) أوضاح : جمع وضح ، الغرة .

وأما التكافؤ ، فهو قريب من الطباق ، وهو أن تتكلم فى أمر من الأمور فتأتى فيه بمعانٍ مُتكافئة ، فى هذا الموضع متقاومة ، حتى إذا قال فى معنى: إن شيئاً أبيض، وغير ذلك من وجوه الغيار ، كقول بشار :

إذا أيقظتك حرُوبُ العِـدا فنبِّه لها عُمـراً ثم نَمْ

وله أثر فى تجويد الشعر قوىّ ، فإنه لو قال مثلا « فجرد لها » لم يكن لهذه اللفظة من الموقع مع « ثم » مال « نبّه » .

وأما السلب والإيجاب ، فهو أن يوقع الكلام على نفى شىء وإثباته فى بيت واحد ، كقول الشاعر :

ونُنكر إنْ شئْنا على الناس قولَهم ولا يُنكرون القولَ حين نقولُ

وكقول الشمّاخ :

هَضِيم الحَشا لا يملأ الكفّ خَصْرها ويملأ منها كل حِجْـل ودُمْلج

وأما الكناية والتعريض فكقول القائل :

وأحمر كالدّيباج أما سماؤه فرىّ وأما أرضه فمُحول

حسن جمعه بين سَراته(١) وقوائمه على تفاوتهما فى خلقة الفرس ، لأنه ألف بينهما بنسبين ، وهما الأرض والسماء ، والنسب الثانى أنه ضاد بينهما بضدين محمودين : اندماج السَّراة وريُّها ، ومحض(٢) القوائم وظمؤها .

وأما العكس والتبديل ، فهو أنْ يتقدم الكلام جزء ألفاظه منظوم نظاماً ما ، فيلى هذا الجزء بجزء آخر يجعل فيه ما كان مقدّماً فى الأول مؤخراً فى الثانى ؛ كقول الشاعر :

وإذا الدّر زانَ حُسنَ وجوه كانَ للدُّرّ حسنَ وجْهك زيناً

وأما الالتفات ، فهو أن يكون الشاعر فى كلامٍ ، فيعدل عنه إلى غيره ، قبل أن

---

(١) سراته : أعلاه . (٢) لعل صوابه : «محل أو نحض» .

يتم الأول ، ثم يعود إليه فيتممه ، فيكون فيما عَدل إليه مبالغة فى الأول وزيادة فى حسنه ؛ كقول جرير :

متى كان الخيامُ بذى طُلوحٍ (١) سُقيتِ الغيثَ أيتها الطُّلوحُ

ومعنى الالتفات فيه أنه اعترض فى الكلام « قوله سُقيت الغيث » ولو لم يعترض لم يكن ذلك التفاتاً . وكقول الجعدىّ :

ألا زعمتْ بنو سَعدٍ بأنّى ألا كذَبوا كبيرُ السنّ فانى

فقوله « ألا كذبوا » اعتراض بين الكلامين وفيه مبالغةٌ لما أراده . كقول كثير :

لو أنّ الباخلين وأنتِ منهم رأوك تعلموا منكِ المِطالاَ

وكقول حسّان :

إنّ التى ناولتَنى فرددتُها قُتِلَتْ قُتِلْتَ فهاتِها لم تُقتَلِ

وكقول عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى يُعاتب أخاه وهو فى حَبْس الرشيد :

فلو بِكَ ما بى ، لا يَكُن بك ، لاغتدى إليك وراح البرّ بى والتقرُّب

فقوله « لا يكن بك » اعتراض مليح . وكذلك قوله :

فإنى إنْ أُفِيكَ يَفِيكَ منّى فلا تُسبق به ، عِلق نَفِيسُ

فقوله « فلا تسبق به » اعتراض فى هذا الموضع قوّى المعنى الذى أراده وزاده نصاعةً .

وأما الاستدراك والرجوع ، فهو أن يبتدئ الشاعر بمعنى فينفى شيئاً ثم يستدركه بما يؤكّد هذا المعنى ، أو يثبت ما نفاه أولا ، كقول زهير :

قِفْ بالدّيار التى لم يَعْفُها القِدم بلى وغيّرها الأرواحُ والدِّيَم

وكقول الأعرابى :

أليس قليلا نظرة إنْ نظرتُها إليك وكُلاًّ ليس منكَ قليل

---

(١) الطلوح : جمع طلح ، وهو شجر من أشجار البادية ذو أشوك . انتهى من هامش الأصل .

وكقول أبى البيداء .

وما بى أنتصارٌ إن غدا الدهرُ جائراً　　علىَّ بلى إن كان مِن عندك النَّصر

وكقول بشار :

نُبِّئتُ فاضح أمه يَغتابنى　　عند الأمير وهلْ علىَّ أميرُ

وأما التذييل ، فهو ضِدُّ الإشارة ، وهو إعادة الألفاظ المُترادفة على المعنى الواحد بعينه حتى يظهر لمن لم يَفهمه ، ويتوكّد عنده فهمه . وسبيلُه أن يُستعمل فى المواقف الحافلة ، والمواطن الجامعة ؛ كقول الشاعر :

إذا ما عَقَدنا له ذِمَّةً　　شدَدْنا العِناج وعقد الكَرَب[1] .

وقول الآخر :

فدعوا نزالِ فكنت أول نازل　　وعلامَ أركبه إذا لم أنزل

وأما الاستطراد ، فهو أن يأخذ الشاعر فى صِفة يجعلها طريقه إلى ما يريده من مَدح، أو هجاء وغير ذلك ، ولا يزال فيما رَكبه لا يزول عنه ، ولا ينتقل منه ، حتى يثنى عنانه إلى غرضه ، ويعطف قوله إلى مقصده ، بعد أن يكون فى الكلام الأول دلالة على أن المقصد غير ما عطف عليه ، فحينئذ يكون استطراداً ؛ فمنه قول حسان :

إنْ كنتِ كاذبةَ الذى حَدّثتنى　　فنجوتِ مَنجَى الحارثِ بن هِشام

ترك الأَحبّة أن يُقاتل دونهم　　ونَجا برأسِ طِمرّة[2] ولِجام

وكقول البحترى :

ما إن يَعاف قَذًى وإن أوردتَه　　يوماً خلائقَ حَمْدويه الأَحْوَلِ

وكقول أبى الشَّمقمق :

---

(١) العناج ، ككتاب : حبل أو سير يشد فى أسفل الدلو العظيمة ثم يشد إلى العراقى . والكرب : الحبل يشد فى وسط العراقى ليلى الماء فلا يعفن الحبل الكبير . قال الحطيئة يمدح قوماً عقدوا لجارهم عهداً فوفوا به :

قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم　　شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا

(٢) الطمرة : مؤنث الطمر ، وهو الفرس الجواد ، أو هو المستعد للوثب والعدو .

وأحببت مِن حُبها الباخلينَ حتى ومِقتُ أبنَ سلم سعيدا
إذا سِـيل عُرفاً كسا وجهه ثياباً من اللُّؤم صُفراً وسُودا(١)

وكقول حاتم:

إن كنتِ كارهةً لعيشتنا هاتا فحِلى فى بنى بَذرِ

وأما التكرار، فكقول عَبيد:

هلاّ سألتِ جُموع كِنْدة يومَ ولّوا أين أينا

وكقول الآخر:

وكانت فَزارة تَصْلَى بنا فأولى فَزارة أولى فزاره

وأما الاستثناء، فإنه يوحب بلاغة بيان. وأول من اخترعه النابغة بقوله:

ولا عيب فيه غير أن سيوفَه بهنّ فلولٌ من قِراع الكتائبِ

فهذا تأكيد المدح بما يُشبه الذم. وقال الجعدى:

فتًى كَمُلت خيراته غير أنه جواد فما يُبقى من المال باقيا

وأما التصحيف، فكقول البُحترى:

ولم يكن المُغتر بالله إذ سَرى لِيعجِز والمُعتز بالله طالبه

وقوله:

وكأنّ الشليل والنَّثرة الحَصْداء منه على سَليل غريف

وأما براعة الأستهلال، فهى من ضروب الصَّنعة التى يقدمها أمراء الكلام، ونقاد الشعر، وجَهابذة الألفاظ. فينبغى للشاعر إذا ابتدأ قصيدة مَدحاً أو ذماً أو فخراً أو وصفاً، أو غير ذلك من أفانين الشعر، أبتدأها بما يدلّ على غرضه فيها؛ كذلك الخطيب إذا ارتجل خُطبة، والبليغ إذا افتتح رسالة، فمن سُبله أن يكون أبتداء كلامه دالاًّ على أنتهائه، وأوله ملخصاً بآخره. وينبغى له أن لا يبتدئ المدح بشىء من التّشبيب يتطيّر

(١) فى رواية: «بيضا وسودا».

منه ، ويستجفى من كلامه ، وينبو عنه السمع ، ويَنْبذه الطبع ويُجتنب . مثل قول ذى الرمة .

* ما بال عينك منها الماء ينسكبُ *

فقد بلغنى أن بعض خلفاء بنى أُمية استنشده شيئاً من شعره . فأنشده هذه القصيدة . فردَّ فى فيه وأسكته .

ودخل الأخطل على مُعاوية فقال : إنى مدحتك فاسمع . فقال : إن أنت شبّهتنى بالحية والصقر فلا حاجة لى فيه ، وإن كنت قلتَ كما قالت الخنساء فى أخيها :

ولا بلغت كفُّ امرىء مُتناولاً من المجد إلا والذى نلتَ أطولُ
وما بلغ المُهدون للناس مِدحةً وإن أطنبوا إلا الذى فيك أفضلُ

فهات . فأنشد الأخطل :

إذا متّ مات الجودُ وانقطع الندَى ولم يَبق إلا من قليل مُصرَّد

فقال له معاوية : ما زدت على أن نعيت إلىّ نفسى .

وأنشد الجعدىّ بعضَ الملوك قصيدته التى يقول فيها :

لقيتُ أناساً فأفنيتُهـم وأفنيتُ بعد أُناسٍ أُناسا

فقال له : ذاك من فرط شؤمك .

وأنشد البحترى يوسف بن محمد الثغرىّ قصيدة أولها :

* لك الويل من ليل تقاصر آخره *

فقال له : الويل والحرب لك .

فمن سبيل الشاعر المتوقّد الهاجسِ الوارى الزنّاد ، أن يكون هجاؤه إذا هجا ، واستبطاؤه إذا استبطا ، وتهنئته إذا هنـا ، وتعزيتـه إذا عزّى أو رثى أو وصف على حسب ما يقتضيه ذلك الموصوف ، وتوخيه تلك الحال ، وأن لا يَضع كلامه فى غير مواضعه ، وأن يفتتح كل قصيدة بما يناسبها ، ويبتدئها بما يشير إلى المعنى المقصود فيها ؛

فإن البحترى لو كان هاجياً لـكان قوله «لك الويل» فى غاية الجودة ، لأن كل صنف من صنوف القول يقتضى نوعاً من الابتداء ، وضرباً من الافتتاح لا يصلح لغـيره ، وإنما جعل الأبتداء بالنّسيب سبباً إلى المدح وسلّماً إليه ليحسن الممدوح الإصغاء إلى ما فى التّشبيب من وَصف النزاع والصبابة ، وذكْر الوجـد والغرام ، إذ كانت النفوس مجبولة على استحسان الغزل والنسيب ، فلا يكاد يخـلو أحد من أن يكون ضارباً فيـه بسهم ، وآخذاً منه بنصيب ؛ فإذا انتهى الشاعر إلى المدح ، وَرد على نفس مُجتمعة ، وجأش ساكن ، وقريحة صيّبة ، وَسمع غير مُقَسّم ، فحَسُن موقعـه ، ولطُف موضعه ، وشرُف مسمعه ، واستوفاه الممدوح ولم يَلْه عنه . فالشاعرُ الجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدّل الأقسام فلم يجعل واحداً منهـا أغلبَ على الشـعر ، ولم يُطل فيُملّ السامعين ، ولم يَقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد .

ومن سبل الشاعر أيضاً أن يجتنب تسميةَ من يُشبب به ، فربمـا وافق ذلك الاسم اسم مَن يكره الممدوحُ ذكرَه ، وإن اُضطر إلى تسمية مَن شَبب به اختار أعذب الأسماء وأحلاها موقعاً فى السمع ، وأُجتنب التشبيب بالأسم المستكره ، كقول جرير :

وتقول بَوْزع قد دَببَت على العصا ... هلا هزئت بغيرنا يا بَوْزع

وأما براعة التخلص ، فإن مَن حُـكْم التشبيب أن يكون مُمتزجاً بما بعده من مَدح أو هجاء وغيرهما ، وغير مُنفصل منـه ، فإن القصيدة مَثلها كمثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر بَطل الجسم . وحُذاق الشعراء لا يَفصلون بينهما ، بل يصلون الأول بالآخر حتى تراه كالرسالة والخطبة لا يَنقطع جزء من جزء . كقول مُسلم :

أجدّكِ هل تَدرِين أن رُب ليلةٍ ... كأنّ دُجاها من قُرونك تُنْشَرُ
نصبت لهـا حـتى تجلّت بغُرّةٍ ... كغُرة يحيي حين يُذكر جَعْفر

وكقول محمد بن وَهب :

مازال تلثمنى مراشـفُه ... ويعلّنى الإبريق والقَدحُ

حتى أسترد الليلُ خِلْعته وبدا خلال سواده وَضح
وبدا الصباحُ كأن غُرته وجهُ الخليفة حين يُمتدح

وكقول البحترى :

أقِلّ وأكثرْ لستَ تَبلغ غايةً من الجُود إلا أن تُضارع هيثما

وكقوله :

ولو أننى أُعطيت فيهن المُنى لسُقيتهن بكف إبراهيما

وأما الترديد ، فهو أن يعلّق الشاعر لفظةً فى البيت بمعنى ثم يردّها فيه بعينها و يعلقها بمعنى آخر ؛ كما قال زهير :

مَن يلق يوماً على علاّته هَرِماً يلق السماحةَ منه والندى خُلقا

وكما قال :

وأحفظ مالى فى الحُقوق وإنه لجمٌّ وإن الدهر جمٌّ نوائبه

وهذا من أحسن كلام وأجزله . وقال أبو نواس :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسّها حجرٌ مَسّته سرّاء

وقال ابن جبلة :

مُضطرب يرتج من أقطاره كالماء جالت فيه ريحٌ فاضطربْ
إذا تظنينا به صدّقنا وإن تظنى فوته العير كذب
لا يبلغ الجهد به راكبُه ويبلغ الرمح به حيث طلب

وقد يسمى التعطف أيضاً .

وأما التتميم ، فهو أن يأخذ الشاعر فى معنىً ، فيورده غيرَ مشروح ، فيقع له أن السامع لا يتصوّره بحقيقته ، فيعود راجعاً إلى ما قدّمه ، فإما أن يؤكده و إما أن يجلى الشبهة فيه ؛ كما قال :

أقمنا أكْلُنا أكل استلابٍ هناك وشُرْبُنا شرْب يدار

ثم علم أنه لم يتمم المعنى وأنه لبّسه فقال :

ولم يك ذاك سُخفاً غيرَ أنى رأيت الثوبَ [١] سخفهم الوقار

وقال ابن الرومىّ :

آراؤكم ووجوهكم وسيوفُكم في الحادثات إذا دَجَوْن نجومُ

منها معالمُ للهُدى ومصابحٌ تجلو الدُّجى والأُخريات رُجوم

وأما جمع المُؤتلفة والمختلفة فى بيت فكقول امرىء القيس :

سماحة ذا وبرُّ ذا ووفاء ذا ونائلُ ذا إذا صحا وإذا سكر

ويقال إنه لم يَجمع واحدٌ فى بيت واحد جماعة أشياء قبله .

وأما التبيين ، فكقول الفرزدق :

لقد خنتَ قوماً لو تُساق إليهمُ طريدَ دمٍ أو حاملاً ثقل مُغرم

فلو اقتصر على هذا البيت لكان جيّداً ، ودخل فى باب ما حذف جوابه ، فلما أحتاج إلى تبيينه بيّنه فقال :

لألفيتَ فيهم مُعطياً ومُطاعناً وراءك شُزْراً بالوَشيج المُقوّم

فبيّن قوله « حاملاً ثقل مغرم » بقوله « لألفيت فيهم معطياً » وقوله « طريد دمٍ » بقوله « ومطاعناً بالوشيج المقوّم » .

وأما المذهب الكلامى ، فكقول النابغة :

ولكنّنى كنتُ امرأً لىَ جانبٌ من الأرض فيه مُستراد ومَذهبُ

ملوك وإخوانٌ إذا ما أتيتهُم أحكم فى أموالهم وأقرّب

كفِعلك فى قوم أراك اصطنعتهم فلم ترهم فى مِثل ذلك أذنبوا

يقول : لا تلمنى فى مدحى آل جفنة فقد أحسنوا إلىّ ، كما لو أحسنت إلى قوم فشكروا لك لم تَر ذلك ذنباً ، وهذه طريقة الجدل . وإنما اتفق له لجودة القريحة وفضل التمييز .

---

(١) لعل صوابه : الشرب ، وهو جماعة الشاربين .

وأما التفويف : فإنما سمى التفويف تشبيها بالبرد المفوّف ، وهو الذى يخالط وشيه شىء من بياض . والفوف : بياض يكون على الأظفار ، سمى البرد مفوّفاً به . وهذا النوع من الشعر هو أن يسهل له مخارج الحروف ، ويرفّ منه رونق الفصاحة مع الخلوّ من البشاعة ، وأن يكون ظاهر المعنى لا يحتاج إلى إعمال الفكر فى استنباط معانيه ، وإن كان خالياً من جميع الأوصاف التى تقدمت وتأخرت عنها ؛ كما قال جرير :

هم الأحبار منسكة وهدياً وفى الهيجا كأنهم صقورُ
بهم حدب الكرام على المعالى وفيهم عن مساءتهم فتورُ
خلائقُ بعضهم فيها كبعض يؤمّ كبيرَهم فيها الصغير
عن النكراء كلهم غبىٌّ وبالمعروف كلهم بصير

وكما قال مروان بن أبى حفصة :

بنو مطرٍ يومَ اللقاء كأنهم أسودٌ لها فى غيل خفّان أشبُل
همُ يمنعون الجارَ حتى كأنما لجارهمُ بين السماكين منزل
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا أجابوا وإن أعطَوْا أطابوا فأجزلوا

وكما قال إبراهيم بن العباس :

تطلّعُ من نفسى إليك نوازع عوارف أن اليأس منك نصيبها
حلالٌ لليلى أن تروع فؤادنا بهجرٍ ومغفورٌ لليلى ذنوبُها
وزالت زوال الشمس عن مستقرها فمن مخبرى فى أى أرض غرُوبها

وأما التفريع ، فهو أن يأخذ الشاعر فى وصف من الأوصاف فيقول : ما كذا ، فينعت شيئاً من الأشياء نعتاً حسناً ، ثم يقول : بأفعل من كذا ؛ كما قال الأعشى :

ما روضةٌ من رياض الحزنِ مُعْشبة خضراء جاد عليها مُسْبِلٌ هَطِل
يُضاحك الشمسَ منها كوكبٌ[1] شرقٌ مؤزَّر بعميم النبْت مكتهل

(١) الكوكب : نور الروضة .

يوماً بأطيب منها نشرَ رائحــة   ولا بأحسن منها إذ دَنا الأُصُل

وقال عبد بنى الحسحاس :

وما بيضةٌ بات الظليمُ يحفّها   ويَرفع منها جُؤجؤًا مُتجافيا
ويَرفع عنها وهى بَيضاء طله   و . . . قرناً من الشمس ضاحيا
ويَجعلها بين الجناح ودفّها   ويُلحفها وَحْفاً من الرِّيش وافيا
بأحسن منها يوم قالت : أرائح   مع الركب أو ثاوٍ لدينا لياليا ؟

وهذا الباب كثير فى أشعارهم :

وأما التسميط ، فهو اعتماد الشاعر تَصيير مقاطع الأجزاء فى البيت على سجع أو شبه به ، أو من جنس واحد فى التصريف والتمثيل ، و إنما سمى تسميطاً تشبيهاً بالسمط فى نظمه وحسن رصفه . وهو كقول امرىء القيس :

مِكرٍّ مِفرٍّ مقبل مدبرٍ معاً   كجُلمود صَخر حطّة السيلُ من عل

فأتى باللفظتين الأوليين مسجوعتين فى تصريف واحد ، وجاء بالتاليتين شبيهتين بهما فى التعديل والتمثيل . والمراد من هذا أن تكون الأجزاء متوالية وأن تكون مسجوعة .

واما التصريع ، فهو أن يقصد الشاعر لتصيير مقطع المِصراع الأول فى البيت الأول من القصيدة كمقطع المصراع الثانى ، وقد فعل ذلك المتقدّمون والمُحدثون ، حتى إن بعضهم ربما صرّع من القصيدة الأبيات ، يدل بذلك على اقتداره وسَعة بحره ، ودقة فكره ، ورحب باعه ، وتوقد زكائه ، ويدلك على ذلك قول أبى تمام :

. . . . وإنما   يروقك بيتُ الشعر حين يُصرّع

قال أمرؤ القيس ، وهو أوسعهم مذهباً فى هذا الباب :

قفا نَبكِ من ذِكرى حبيبٍ وَمنزل   بسِقْط اللّوى بين الدّخول فحوْمَلِ

ثم قال :

أفاطم مهلا بعض هـذا التدلّل   وإن كنت قد أزمعتِ صَرمى فأجملى

ثم قال :

ألا أيها الليلُ الطويل ألا انجلى بصُبح وما الإصباح منك بأمثل

وأحسن ما يكون التصريع فى أثناء القصيدة إذا كان الشاعرُ متنقلاً من وصف إلى غيره .

وأما التضمين ، فقد لهج جماعة من المتأخرين به واستكثروا ، فمنهم من يورد البيت بأسره والبيتين ، ومنهم من يقتصر على الأنصاف ، ومنهم من يأتى بالأرباع وبما دون ذلك ؛ ومنه قول الحماسى :

وقائلةٍ والدمع سَكْبٌ مبادرٌ وقد شرّقت بالماء منها المحاجرُ
وقد أُبصرت حِمّان[1] من بعد أنسها بنا وهى مِنا مُوحشاتٌ دواثر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصَّفا أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكة سامر
فقلتُ لها والقلبُ منّى كأنما يُقَلَّبه بين الجَوانح طائر
بلى نحن كُنا أهلَها فأبادنا صروفُ الليالى والجدودُ العواثر

وقال أبو تمام :

قتلتْه سرًّا ثم قالت جَهرةً قولَ الفَرزدق لا بظَبى أعفر

وقال الأخطل الأهوازى :

ولقد سَما للخُرّمىّ فلم يَقلْ عند الوغاء لها تَضايق مَقدَمى

وقال أبو هفان :

بل لو رأيت العاشقين ببابه مِن بينِ مَدعوٍّ به ومُطفّل[2]
لذكرتِ بيتًا قاله حسّان فى أولادِ جَفنة فى الزَمان الأوّل

---

(١) حمان (بكسر الحاء وتشديد الميم والف ونون) : محلة بالبصرة .

(٢) طفل الرجل : صار طفيليا . وطفل عليه ، كتطفل .

يُغشون حتى لا تهرّ كلابُهم لا يسألون عن السّواد المقبل

وأما القسم ، فهو أن يُقسم الشاعر ، أو يحلف غيره بأقسام تتعلق بغرضه المقصود . معتمداً بذلك الإبداع فيما ينظم ، كما قال الأشتر النخعى :

بقّيت وفرى وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافى بوجه عَبوس
إن لم أشُنّ على ابن حربٍ غارةً لم تخلُ يوماً من ذهاب نفوس

وقال أبو على البصير :

أكْذبتُ أحسن ما يظن مؤملى وهدمتُ ما شادته لى أسلافى
وعدمتُ عاداتى التى عُوّدتها قِدماً من الإتلاف والإخلاف
وصحبتُ أصحابى بعرض معرض متحكم فيه بمـالٍ وافى
وغضضتُ من نارى ليخفى ضوؤها وقَريت عُذراً كاذباً أضيافى
إن لم أسُنّ (١) على علىٍّ حُلةً تُضحى قذىً فى أعين الأشراف

وأما الإعنات (٢) ، فهو أن يلتزم الشاعر فى القوافى ما لا يلزمه ، إبانةً عن اقتداره وتوسعه وفسحة مجال فكره ، وهذا المذهب على ضروب كثيرة ؛ قال الحطيئة :

ألا مَن لقلبٍ عارم النَّظرات يُقطع طولَ الليل بالزّفرات
إذا ما الثُّريا آخرَ الليل أعنقت (٣) كواكبه كالجزع (٤) مُنحدرات

فجاء بالراء فى جميعها قبل حروف الرّدف ، وهى غير لازمة ، فقال حسّان (٥) بن ثابت فلزم الحرف الذى بين ألف التأسيس والروىّ وأعاده بعينه فى قصيدته التى يقول فيها :

بكل كميت صوره نِصْف خلقه وقُبّ طوالٍ مُشرفات الحوارك

وقد التزم ابنُ الرّومى فى هذا ما لم يلزمه ، فالتزم فى قصائد فى حرف الرّدف الياء

---

(١) سن عليه الدرع : صبها عليه وألبسه إياها .
(٢) وهذا النوع يسمى لزوم ما لا يلزم . (٣) أعنقت : غابت .
(٤) الجزع : أى كالخرز اليمانى إذا تساقط من سلكه .
(٥) لا معنى هنا لحسان بن ثابت .

دون الواو ، والواو دون الياء ، وكسر فى قصائد ما قبل حرف الروىّ ، ولم يفتح ولم يضم ، وضمّ فى بعضها ولم يكسر ولم يفتح ، وفتح فى بعضها ولم يُضم ولم يكسر .

وأما تجاهل العارف ، كقول زهير :

وما أدرى وسوف إخالُ أدرى أقومٌ آل حِصْن أم نساء

وقول الآخر :

بالله يا ظَبيات القاع قُلن لنا ليلاى مِنكنّ أم ليلى من البَشر

وأما الهزل الذى يُراد به الجد ، فكقول الشاعر :

إذا ما تَميمىٌّ أتاك مُفاخراً فقُل عدّ عن ذا كيف أكلكُ للضبّ

وأعلم أن أكثر ما يرد اللطيف من المعانى فى خمسة أجناس من الشعر ، وهى : مثل سائر ، وتشبيه نادر ، وأستعارة واقعة ، ومبالغة ، وأن يقصد الشاعر إلى معنى مألوف فيزيد فيه زيادة تؤكّده أو تتممه ، فيصير إلى اللطافة والحسن . وهذا الجنس الخامس تكثر أنواعه جدًّا ، ويحتاج إلى أدنى تأمل حتى يعرف إذا ورد ، ويرد جميعه إلى هذا الأصل . فمن الأمثال قول أمرىء القيس :

من ذِكر سَلْمى وأين سَلمى وخير ما رُمت ما يُنالَ

وقول النابغة :

حلفتُ فلم أتركْ لِنفسك ريبةً وليس وراءَ الله للمرء مذهبُ

وأشرفُ من هذا لفظاً ، وأبرع معنى ، ما أشتمل البيت على معنيين ومثلين ، كقول النابغة :

ولستَ بمُستبقٍ أخاً لا تلمّه على شَعثٍ أى الرجال المهذّب

فجاء بمثلين . وكقول عَبيد بن الأبرص :

* الخير أبقى وإن طال الزمان به *

فهذا مثل قائم بنفسه ، ثم قال :

* والشر أخبث ما أوعبت من زادِ *

فأتى بمثل ثان ، وكقول طرفة :

ستُبدى لك الأيام ما كنتَ جاهلاً ويأتيك بالأخبارِ من لم تُزوِّدِ

فجاء بمثلين . وقال الحُطيئة :

* مَن يفعل الخيرَ لا يَعدم جوازيَه *

فهذا مثل بارع . وقوله :

* لا يذهب العرف بين الله والناس *

مثل سائر . ونحوه قول القطامى :

والناس مَن يلقَى خيراً قائلون له ما يشتهى

فهذا كلام كامل ثم قال : ولأُمّ المخطىء الهبل .

فأتى بمثل آخر فى بعض مصراع . ومما فيه ثلاثة أمثال قول بشار : اليوم خمر ، فهذا مثل « ويبدو فى غد خبر » مثل ثان « والدهر ما بين إنعام وإبئاس » مثل ثالث .

وأما التشبيه ، فنحو قول امرىء القيس :

كأنَّ قلوب الطـير رَطباً ويابساً لدى وَكْرِها العُنّاب والحَشَف[1] البالِى

وقول عنترة :

هَزِجاً يحُـكّ ذِراعه بذِراعه قَدحَ المُـكبّ على الزِّناد الأجذمِ

وقول طرفة :

يشق حَباب الماء حيزومُها به كما قَسم التربَ المُفايلُ باليدِ

وقول كعب بن زهير :

وليلة مُشتاق كأنّ نجومَها تعرّضن منها فى طيالسة خُضْرِ

(١) الحشف : الردىء من التمر .

وقول حُميد بن ثور يصف فرخ الحمامة :

كأنَّ على أشداقه نَوْر حَنْوة(١) إذا هو مدّ الجيد منها(٢) ليطعما

وقول عديّ بن الرِّقاع :

يتعاوران من الغُبار مُلاءةً سوداء مُحدثةً هما نَسجاها

تطوى إذا عَلوا مكاناً ناشزاً وإذا السنابكُ أسهلت نشرها

وقول آخر يصف عناقيد العنب :

يَحْملن أوعية المُدام كأنما يَحملنها بأكارع النِّغران(٣)

وقول أوس بن حجر يصف الهلال :

كأنّ ابن ليلتها جانحاً فَسيط(٤) لدى الأفق من خِنْصر

وقول ذى الرّمة يصف الثريا :

وردتُ اعْتساناً والثريا كأنها على قِمة الرأس ابنُ ماء مُحلق

وقول عبد الله بن الزَّبير الأسدى :

وقد خَزَم الغورُ الثريا كأنها به راية بيضاء تَخفِقُ للطَّعن

وأجِد الناس يقدّمون قولَ الفرزدق :

والشيبُ يَنهض فى الشَّباب كأنه ليلٌ يَصيح بجانبيه نَهارُ

وهذا من الكلام الذى سَبق معناه لفظه ، ولهذا لا يُعرّج أحد على تأمل ألفاظه ونظمه ، فيستبين عَواره ، وترتيبه عندى غير مُستقيم ، وتَشبيهه مستحيل ، لأنه وصف الشيب فذكر أنه يبدو فى الشباب ، ثم ترك ما ابتدأ به ، ووصف الشباب وشبّهه

(١) الحنوة : نبت طيب الريح . (٢) لعل الصواب : « منه » .

(٣) النغران ، بكسر النون : جمع النغر ، وهو طائر كالعصفور أحمر المنقار ، وقيل هو البلبل .

(٤) الفسيط : قلامة الظفر .

بالليل ، ولم يجىء بالـكلام على التقسيم المستوى ، ولم يَضع التشبيه فى ظاهر اللفظ موضعه . وكان الذى تَقتضيه المقابلة الصحيحة ، وتُوجبه على ما بنى عليه بيته لو ساعده الوَزْن ، أن يقول : والشيبُ ينهض فى الشباب كما ينهض نهار فى جانبى ليل ، لأن النهار هو الذى يُشبه السواد ، ولـكنه لما لم يطرد له الوزن ترَك ذكر ما ابتدأ به ، وعلق الـكلام بالشباب ، وأخرج التشبيه منكوساً .

وأما الاستعارة والمبالغة فقد تقدّم الـكلام فيهما وفى إيراد مَثَليهما .

وأما المعنى الذى تلحقه زيادة تؤكده ، فنحو قول أمرئ القيس :

إذا ركبوا الخيل وأستلأمُوا تحرّقت الأرض واليوم قرّ

فقوله : « واليوم قرّ » زيادة تمّ بها المعنى وكمل . ونحو قوله :

* وجيدٍ كجيد الرِّيم ليس بفاحشٍ *

فقوله « كجيد الريم » أراد طوله ، كما جرت عادات العرب فى أن يُشبهوا جيد المرأة إذا كان طويلاً بجيد الظبى ، فلما قال « ليس بفاحش » نفى عن جيدها أن يكون دقيقاً فيه انحناء . لأن فحش جيد الظبى إنما هو لذلك . ومثله قول طرفة :

* فسقى ديارِكِ غير مفسدها *

لما[1] كمل المعنى ، ولعيب عليه كما عيب على ذى الرمة قوله :

ألا فاَسلمى يادار مىّ على البِلَى ولا زال مُنهلاً بجَرعائك القَطْر

فقيل له : إذا لم يزل القطر منهلاً عليها عفىّ آثارها ، ودرس معالمها . وهذا العيب عندى غير لاحق به ، لأنه تكلم على عادة الشعراء فى سقيا ديار أحبابهم ، وقد ابتدأ بأن دعا لها بالسلامة على البلى ، و إذا سلمت على البلى سلمت على انهلال القطر .

ومن سبيل الشاعر أن يجتنب فى شعره استعمال مذهب واحد من مذاهب الصناعة ،

(١) الأرجح أن هذه الجملة جواب لجملة محذوفة سهو . ولعل التقدير : « فلو لم يقل غير مفسدها ، لما كمل المعنى ... الخ » .

وأن يتحرى إن كان يذهب إليها الأخذ من أطراف أبوابها والإسهام (١) لقصيدته فى كل نوع من أنواعها ، حتى لا يتخلّص للتجنيس وحده ، ولا ألتطبيق وحده ، ولا لضرب من ضروب الصنعة ، متفرداً من دون غيره ؛ فإنه إذا تحرى ذلك عذُبت ألفاظه ، وأسمحت (٢) أبياته ، وتسهلت حزون الشعر عليه ، وسالت أحرار المعانى إليه ؛ ومتى أفردها بنوع من أنواعها ندّت عن الأسماع فمجتها ، وثقلت على ألسن الرواة فلم تروها .

قد ذكرت من وجوه الصنعة وضروبها ما ذكرت ، وأقول الآن : إن المختار من الشعر هو القريب البعيد ، الوحشى المستأنس ، الدّمث الوعث ، البدوىّ الحضرى ، المجيب المتأبى ، الممتنع المتأتى ؛ على أن مذاهب العلماء فى أختيار الشعر متباينة ، وآراءهم فيه متفاوتة ، وأهواءهم مختلفة ، فمنهم من لا يميل إلا إلى ما سهل وأنقاد ، وذلّ على اللسان ، ودلّ عند استماعه على المُراد ؛ ومنهم مَن يميل إلى ما أنغلق معناه ، وخَفِى غرض قائله فيه ومغزاه ، وصعب استخراجه وتعذر ، فلم ينقد إلى بعد طول فكر ونظر ، وهم أصحاب المعانى . ويذهب قوم إلى أن أحسن الشعر ما كان مطابقاً للصدق ، وموافقاً للوصف ، وما كان بالحق أشبه ، وإلى الصواب أقرب ، ويروون :

إن أحسَن بيتٍ أنت قائلُه بيتٌ يقال إذا أنشدتَه صَدَقا

ويختار قوم ضد هذا المذهب ويذهبون إلى أن الغلوّ فى قول الشعر أصوب ، وأن الإبلاغ فيه أوجب ، والإفراط فيه أحسن . حتى قال بعضهم : إن أحسن الشعر أكذبه . وهذا مذهب أكثر المُحْدَثين من عهد بشارٍ ومن بعده .

وفصل القول إن الإغراق فى وصف ما يوجد شىء منه مستحسن ، فلهذا قيل : أحسن الشعر أكذبه ، أما إذا لم يوجد منه شىء أصلاً ، كوصف الزنجى بنقاء اللون وزهرته ، ومدح الرجل الأمى بجودة الخط وسرعته فيه ، فلا يكون إلا ذماً فكيف بحمد .

---

(١) الإسهام : مصدر أسهم لفلان كذا ، جعل له سهما فيه .

(٢) أسمحت ، أى لانت بعد استصعاب .

وذهب أكثر شعراء المُحدثين إلى أن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعة ، وأن يتوخى من البلوغ فى تجويده النهاية المطلوبة ، وقالوا : لما كانت حدود الشعر أربعة : وهى اللفظ والمعنى والوزن والتقفية ، وجب أن يكسى أحسن الألفاظ ، ويبرز فى أحسن المعارض ، وأن يتخير لها أحسن المعانى ، وأن يكون سهل العروض رشيق الوزن ، متخيّر القافية ، رائع الابتداء بديع الخروج ، وما تعدّى هذا النعت وخلا منه سمى : الشعر المرسل والوسط والسليم .

ويميل قوم من أهل اللغة والغريب إلى الرّصين من الشعر ، والذى يجمع الغريب من المعانى . وهذا مذهب خلف الأحمر وأبى عمرو والأصمعى . ومنهم من يذهب إلى الوحشىّ من الشعر ، وإلى ما لم يتداول . ويقال إن المنصور أمر بتتبع هذا الفن منه ، فجمع له المفضّلُ اختياره . ومنهم من يفضل الشعر بقائله ، فيختار أشعار الفرسان والسادات والأشراف ، ورؤساء الحروب ، ومن ذلك قول الصّلتان العبدىّ :

وَيَرفع مِن شعر الفَرزدق أنه ... له باذخٌ لذوى الحَسيبة رافعُ
جريرٌ أشد الشاعرين شكيمة ... ولكن عليه الباذخات الفوارع

وحدث على بن العباس النوبختى قال : رآنى البحترى يوماً ومعى دفتر فقال : ما هذا ؟ قلت : شعر الشَّنفرى . قال : وإلى أين تمضى ؟ فقلت : إلى أبى العباس ثعلب أقرأه عليه . فقال : قد رأيت أبا عبّاسكم هذا منذ أيام عند ابن ثوابة ، فما رأيته ناقداً للشعر ولا مميزاً للألفاظ ، ورأيته يستجيد وينشد شيئاً وما هو بأفضل الشعر . فقلت له : أما نقده وتمييزه فهذه صناعة أُخرى ، ولكنه أعرف الناس بإعراب الشعر وغريبه . فما كان ينشد ؟ قال قول الحارث بن وعلة :

قومى هم قتلوا أُميم أخى ... فإذا رميتُ يُصيبنى سهمى
فلئن عفوت لأعفونْ جَللاً ... ولئن سطوتُ لأُوهننْ عَظمى

فقلت : والله ما أنشد إلا أحسن شعر فى أحسن معنًى ولفظ . فقال : فأين الشعر الذى فيه

عروق الذهب ؟ قلت : مثل ماذا ؟ قال : مثل قول أبى ذؤاب بن ربيعة الأسدى :

إن يقتلوك فقد هتكت بيوتهم بعُتيبة بنِ الحارث بن شِهابِ
بأشدّهم كَلَباً على أعدائه وأعزّهم فقداً على الأصحاب

قال . فإذا هو لا يُعجبه من الشعر إلا ماوافق طبعه معناه ولفظه .

والشعر أيدكم الله علم من عِلوم العرب ، يَشترك فيه الطبعُ والروّية ، والذكاء والفطنة، ثم تكون الدّربة عادة وقوة لكل واحد من أسبابه . فمتى أجتمعت للشاعر هذه الخصال فهو المُحسن المبرّز ، و بقدر نَصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان . ولست أُفضّل فى هذه القضيّة بين القديم والُمحدث ، والجاهليّ والُمخضرم ، والأعرابى والمولد ، إلا أنى أرى حاجة المحدث إلى الرواية أشد ، وأجده إلى كثرةِ الحفظ أفقر ، لأن المطبوع الذكّى لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلا رواية ، ولا طريق إلى الرواية إلا السمع ، وملاك السمع الحِفظ .

ويجب للشاعر إذا أراد نظم قصيدة أن يمخض المعنى الذى يريد بناء الشعر عليه فى فكره نثراً ، ويُعدّله ما يكسوه من الألفاظ التى تجانسه ، والقوافى التى توافقه ، والوزن الذى يسلس القول عليه . فإذا اتفق له بيت يشاكل الغرض الذى رماه أثبته ، وشغل القوافى بما تقتضيه من المعانى على غير ترتيب الشعر ، بل يعلق ما يتفق له نظمه ، وإن لم يكن مناسباً لما قبله . وإذا تكاملت له المعانى وكثرت الأبيات ، تكون سلكاً لها ، ورباطاً لما تشتت منها . ثم يتأمل ما قد سمح به طبعه ، ونتجته فكرته ، فيبالغ فى انتقاده، ويبدل اللفظ المستكره باللفظ السهل . وإن شغل قافية فى معنىً ما ، ثم اتفق له معنى يضاد الأول ، وكانت فى المعنى الثانى أوقع منها فى الأول ، عدل إلى ما هو أحسن ، وأبطل البيت أو نقض بعضه وطلب لمعناه قافية تشاكله . وإذا أسّس شعره على الكلام البدوىّ الفصيح لم يخلط فيه الألفاظ الوحشية النافرة .

ولست آمر بإجراء الشعر كله مجرًى واحداً ، بل أرى أن يقسم الألفاظ على رتب المعانى ، فلا يكون غزله كافتخاره ، ولا مديحه كوعيده ، ولا هجاؤه كاستبطائه ، ولا تعريضه

كتصريحه ، بل يوفّى كلاًّ حقه ، ويعطيه حظه ، فيتلطف إذا تغزّل ، ويفخم إذا افتخر . نعم ، ويجب أن يخاطب الملوك بما يَستحقونه من جليل المُخاطبات ، ويتوفى حطّها عن مراتبها ، لا يخلطها بالعامة . ويَصل كلامه على تصرّفه فى فُنونه صلةً لطيفة ، فيتخلّص من الغزل إلى المديح ، ومن المديح إلى الشكوى ، ومِن الشكوى إلى الاستماحة ، ومن وصف الديار والآثار إلى وصف الفيافى والنوق ، ومن الرُّعود والبروق إلى وصف الرياض والروّاد ، ومِن وصف الظِلمان والأعيار [١] إلى وصف الخيل والأسلحة ، ومن وصف المَفاوز والفيافى إلى وصف الطَّرَد [٢] والصيد ، ومن وصف الليل والنجوم إلى وصف المياه والموارد ، والآل والهواجر ، والحرابى والجنادب [٣] .

وللمعانى ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح فى غيرها ، فهى لها كالمعرض للجارية الحسناء التى يزداد الحسن [٤] فى بعض المعارض دون بعض . فكم من معنىً حسن قد شِين بمعرضه الذى أُبرز فيه ، وكم من معرض حسن قد ابتذل فى معنىً قبيح أُلبسه . والمحنة على شعراء زماننا أشدّ منها على من كان قبلهم ، لأنهم قد سبقوا إلى كل معنىً بديع ، ولفظ فصيح ، وحيلة لطيفة ، وخلابة ساحرة ، فإن أتوا بما يقصر عن معانى مَن تقدم لم يُتلق بالقبول ، وكان كالمُطَّرح المملول .

وينبغى للشاعر فى عصرنا أن لا يظهر شعره إلا بعد ثقته بجودته ، ورشاقته وسلامته من العيوب التى نبه عليها ، ونهى عن استعمال نظائرها ؛ فليس يقتدى بالمسىء ، وإنما الاقتداء بالمحسن .

وللشعر دواع تحثّ البطىء وتبعث المتكاف ، منها الطمع ، ومنها الشوق ، ومنها الطرب ، ومنها الغضب .

---

(١) الظلمان : جمع ظليم ، وهو ذكر النعام . والأعيار : جمع عير . وهو حمار الوحش .

(٢) الطرد ، بفتح الراء ، مصدر طرد الصياد ، أى زاول الصيد ، يقال . خرج يطرد حمر الوحش ، أى يصيدها . (٣) الحرابى : جمع حرباء . والجنادب . جمع . جندب ، وهو ذكر الجراد . (٤) لعل الصواب : «حسنها» . والمعارض : جمع معرض : بالكسر ، وهو ثوب تجلى فيه الجارية ليلة العرس . أو هو القميص الذى يعرض فيه العبد والجارية للبيع . ومنه قولهم : الألفاظ معاريض المعانى .

وقال أحمد بن يوسف لأبى يعقوب الخريمى : مدائحك لمحمد بن منصور أشعر من مراثيك وأجود . فقال : كُنا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء ، و بينهما بون بعيد .

ويقال : إنه لم يُستدع شارد الشعر بمثل الماء الجارى ، والشرف العالى ، والمكان الحالى أو الخالى .

وقال عبدُ الملك لأرطاة بن سُهية : هل تقول الآن شعراً ؟ فقال : ما أشربُ ولا أطرب ، ولا أغضب ولا أرغب ، وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه .

وقيل للشّنفرى حين أسَنّ : أنشد . فقال : الإنشاد على حين المسرّة .

هذا والشعراء فى الطبع مختلفون ، فمنهم مَن يسهل عليه المديح ويَعسر عليه الهجاء ، ومنهم من يتيسر عليه المرائى ويتعذّر عليه الغزل . وكان الفرزدق زيرَ نساء ، وكان مع ذلك لا يُجيد النسيب ، وكان جرير عفيفاً ، وكان مع ذلك أحسنَ الناس نسيباً . وكان الفرزدق يقول : ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعرى ، وما أحوجنى إلى رقة شعره كما ترون .

والشعر كالبحر قد يُغاص فيه على الدّرر الثمينة النفيسة ، ويُغاص فيه على الخرزات الخسيسة ، ولذلك قال بعضُ من قدمنا ذكره فى شعر ذى الرمة ، إنه نقط عروس ، وبَعر ظباء ، إيذاناً بأنه لا يستمر بديعه ، ولا تطّرد نكته . ولو كان الشعر كله مستمرّ النظام ، متساوى الأقسام ، لظهر الفضل ، وعرف العجز ، وسكت أهل النقص . ولكن الفاضل ينظم الكلام الشريف ، ثم يَقرن به ما يُستحيى من مثله ، فيقدّر الناقص أنه يجوز له أن يقول ، لأنه يساويه فى رديئه إن قصّر عنه فى جيّده . ثم تجىء نقاد السوء فيدسّون المتوسط مع المبرّز ، والسكيّت مع المتوسط ، فتشتبه الحال على من لم يكن مثرياً فى بضاعته .

واُعلم أن ملاك الأمر ترك التكلف ، واطّراح التعمّل ، والاسترسال للطبع ،

وتجنب الحمل عليه والعنف به . ولست أعنى بهذا كل طبع ، بل المهذَّب الذى قد صقله الأدب ، وشحَذته الرواية ، وجَلته الفطنة ، وأُلهم الفصل بين الردئ والجيِّد ، وتصور أمثلة الحسن والقبيح . والنقد والعيار غامضان ، وهما صناعة برأسها ، وهى غير العلم بغريب الشعر ولغاته ، ومعانيه وإعرابه ، وقوافيه وأوزانه ، وهى ممتنعة إلا على أهلها الذين صَحّت طباعهم ، وصَفت قرائحهم ، واتقدت أذهانهم ، وأفنوا أعمارَهم فى خدمتها ، وفرّغوا أنفسهم لتحصيلها ، فحصلت لهم الرواية والدِّراية ، وراضوا الكلام ، ومارسوا قول الشعر ، وخدموا علمه ، ولَزموا أهله ، ودُفعوا إلى مضايقه ، وكشفوا عن حقائقه ، ولاقُوا فيه فرسانه وأمراءه ، وميّلوا حروف الألفاظ ، وقابلوا صنوف المعانى .

وهذه الرسالة تقتضى الإقناع ، ولا تحتمل الإشباع ، وإنما نبذت إليك نبذاً ، وعرضت عليك لُمعاً ، حتى لا تحكم من غير تَثبّت ، ولا تقضى من غير تبيّن ، ولست أقول النبذ واللمع تصغيراً لها ، بل تَنبيهاً على قلّة لفظها . فأما المعنى المراد ، فإنى أظن أنها بلغته فى صنعة الشعر ، إذا استكشفها رائد هذا العلم وطالبُه ، فوصل بمطالعها نظره ، وأستخدم فيها فكره . وردتْ به على قَليب سهل المَشرع ، عَذْب المكرع ، وكانت له مادة يستمدها . وأما ما يحتذى سبيله ، فإن أيده الطبع ، ونَصره الخاطر ، وأسعدته الهمة ، تقدّم أضرابه بحول الله وقوته ، وفضله ورأفته . وهو حسبنا ونعم الوكيل . وصلواته على سيدنا محمد وآله أجمعين (١) .

« انتهى قانون البلاغة »

---

(١) وقد جاء فى آخر الأصل ما نصه :

«تم على أنامل أضعف عباد الله تعالى وأحوجهم إلى النعيم عبدالله بن فضل الله بن أبى النعيم . أصلح الله شأنه . فى الأوائل من شوال سنة أربع وستمائة بمقام يوازاغج .

كتاب جاويذان خرد(١)

خلفـــه

اوشهنج الملك وصيةً على من خلفه

« ونقله من اللسان القـديم إلى اللسان الفارسى كنجور بن إسفنديار وزير »
« ملك ايران شهر . ونقله إلى العربية الحسن بن سهل أخو ذى الرياستين . »
« وتممه الأستاذ أبو على أحمد بن محمد مسكويه رحمه الله تعالى ، بأن ألحق به حكم »
« الفرس والهند والعرب والروم »

نشره العلامة عبد العزيز الميمنى الراجكوتى الهندى

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الأستاذ أبو على أحمد بن محمد مسكويه أطال الله بقاءه : بعد حَمد الله والثناء عليه بما هو أهله والصلاة على محمد النبى وآله الطيبين الأخيار .

إنى كنتُ قرأت فى الحداثة كتاباً لأبى عثمان الجاحظ يعرف بكتاب « اسـتطالة الفهم » يذكر فيه كتاباً يُعرف بأسم « جاويذان خرد » ويحكى كلمات يسيرة فيه ثم يُعظمه تعظيماً يخرج عن العادة فى تَعظيم مثله ، فحرصت على طلبه فى البُلدان التى جُلتُ فيها حتى وجدته بفارس عند موبذان موبذ . فلما نظرت فيه وجدت له أشكالاً ونظائر كثيرة من حِكم الفرس والهند والعرب والروم ، و إن كان هذا الـكتاب أقدمها وأسبقها بالزمان ، فإنه وصية أوشهنج لولده والملوك من خَلفه ، وهكذا الـكتاب كان بُعيد الطوفان وليس يوجد لمن كان قبله سيرة ولا أدب يستفاد .

فرأيت أن أنسخ هـذه الوصيّة على جهتها ثم ألحق بها جميع ما التقطته من وصايا وآداب الأُمم الأربع ، أعنى الفرس والهند والعرب والروم ، ليرتاض بهـا الأحداث ، وتذكر بها العلماء ما تقدّم لهم من الحِـكم والعلوم ، والتمست بذلك تقويمَ نفسى ومَن

(١) انظر « يتيمة السلطان » (ص ١٤٥ — ١٧٢) المنسوبة لابن المقفع . فالـكتابان شىء واحد .

يتقوَّم به بعدى . وغرضى الأقصى فيه الأجز والمَثوبة من الله عزَّ وتعالى ، وهو ولىّ الخيرات ، والمُثيب على الحسنات ، ولا قوة إلا به .

قال أوشهنج :

من الله المبتدأ ، و إليه المُنتهى ، و به التوفيق ، وهو المحمود . من عرف الأبتداء شكر ، ومن عرف الأنتهاء أخلص ، ومن عَرف التوفيق خضع ، ومن عَرف الإفضال أناب بالأستسلام والموافقة .

أما بعد ، فإنّ أفضل ما أُعطى العبدُ فى الدنيا الحِكمة ، وأفضلَ ما أُعطى فى الآخرة المغفرة ، وأفضل ما أُعطى فى نفسه المَوعظة ، وأفضلَ ما سأل العبدُ العافية ، وأفضل ما قال كلمة التوحيد .

رأس اليقين المعرفة بالله ، وملاك العلم العمل ، وملاك العمل السنَّة ، و إصابة السنة لزوم القصد .

الدين بُشعبه كالحصن بأركانه ، فمتى تداعى واحدٌ منها تتابع بعده سائرها .

وأعمال البر على أربع شعب : العلم والعمل وسلامة الصدر والزهد . فالعلم بالسُّنن ، والعمل بإصابة السنة ، وسلامة الصدر بإماتة الحسد ، والزهد بالصبر .

وجماع أمر العباد فى أربع خصال : العلْم والحِلْم والعَفاف والعَدالة . فالعلْم بالخير للأكتساب ، و بالشرّ للأجتناب ؛ والحلْم فى الدين للإصلاح ، وفى الدنيا للكرم ؛ والعفاف فى الشهوة للرزانة ، وفى الحاجة للصيانة ؛ والعدالة فى الرضى ، والغضب للقسط .

العلم على أربعة أوجه : أن تعلم أصل الحق الذى لا يقوم إلا به ، وفروعه التى لا بد منها ، وقصده الذى لا يقع إلا فيه ، وضده الذى لا يُفسده إلا هو .

العلم والعمل قرينان كمقارنة الروح للجسد ، لا ينفع أحدهما إلا بالآخر .

الحق يُعرف من وجهين: ظاهر يُعرف بنفسه ، وغامض يُعرف بالأستنباط من الدليل ، وكذلك الباطل .

أربعة أشياء تتقوّى بها على العمل : الصحة والغنى والعزم والتوفيق .

وطرق النجاة ثلاث . سبيل الهدى وكمال التقوى وطِيب الغذاء .

العلم روح والعمل بدن ، والعلم أَصل والعمل فرع ، والعلم والد والعمل مولود . وكان العمل لمكان العلم ، ولم يكن العلم لمكان العمل .

الغنى فى القناعة ، والسلامة فى العُزلة ، والحرية فى رفض الشهوة ، والمحبة فى ترك الطمع والرغبة . واعلم أَن التمتع فى أيام طويلة يُوجد بالصبر على أيام قليلة .

الغنى الأكبر فى ثلاثة أشياء : نفس عاملة تستعين بها على دينك ، وبدن صابر تستعين به فى طاعة ربك ، وتتزود به لمعادك وليوم فقرك ، وقناعة بما رزق الله باليأس عما عند الناس .

أخرج الطمع عن قلبك تُحلّ القيدَ عن رجلك وتُرح بدنك .

الظالم نادم وإن مدحه قوم ، والمَظلوم سالم وإن ذمه قوم ، والمقتنع غنى وإن جاع وعرى ، والحريص فقير وإن ملك الدنيا .

الشجاعة سَعة الصدر بالإقدام على الأمور المُختلفة . والصبر احتمال الأمور المُؤلمة والمكاره الحادثة ، والسخاء سماحة النفس لمُستحق البَذلِ ، وبذل الرغائب الجليلة فى مواضعها . والحلم ترك الانتقام مع إمكان القدرة . والحزم انتهاز الفرصة .

الدنيا دار عمل والآخرة دار ثوب ، وزمام العافية بيد البلاء . ورأس السلامة تحت جَناح العطب ، وباب الأمن مستور بالخوف . فلا تكونَنّ فى حال من هذه الثلاثة غير متوقَع لأضدادها . ولا تجعل نفسك غرضاً للسهام المُهلكة . فإن الزمان عدو لابن آدم . فاحترز من عدوّك بغاية الاستعداد . وإذا فكرت فى نفسك وعدوّها استغنيت عن الوعظ .

أَجل قريب فى يد غيرك ، وسَوق حثيث من الليل والنهار . وإذا انتهت المدة كان قدِ حيل بينك وبين العُدَّة . فاحتلْ قبل المنع ، وأكرم أجلك بصحبة السابقين .

إذا آنستك السلامة فاستوحش من العَطب . وإذا فرحت للعافية فاحزن للبلاء

فإليه تكون الرجعة . وإذا بسطك الأمل فاقبض نفسك بقُرب الأجل فهو الموعد .

الحيلةُ خير من الشدة ، والتأنى أفضل من العجلة ، والجهلُ فى الحرب خير من العقل ، والتفكر هناك فى العاقبة مادة الجزع .

أيها المقاتل اُحتل تغنم ، ولا تفكر فى العاقبة فتنهزم .

التأنى فيما لا تخاف عليه الفوت أفضل من العجلة إلى إدراك الأمل .

أضعف الحيلة أنفعُ من أقوى الشدة ، وأقل التأنى أجدى من أكثر العجلة . والدولة رسول القضاء المبرم ، وإذا استبدَّ الملك برأيه عميت عليه المراشد .

ويحرم على السامع تكذيبُ القائل إلا فى ثلاث هن غير الحق : صبر الجاهل على مَضض المصيبة ، وعاقل أبغضَ من أحسن إليه ، وحماة أحبَّت كَنَّةً .

ثلاث لا يستصلح فسادهن بشىء من الحِيل : العداوة بين الأقارب ، وتحاسد الأكفاء ، والركاكة فى الملوك . وثلاث لا يُستفسد صلاحهن بنوع من المكر : العبادة فى العلماء ، والقناعة فى المستبصرين ، والسخاء فى ذوى الأخطار . وثلاث لا يشبع منهن : العافية والحياة والمال .

إذا كان الداء من السماء بطل الدواء . وإذا قدّر الرب بطل حذر المربوب ، ونعم الدواء الأجل ، وبئس الداء الأمل والمال .

ثلاث هن سرور الدنيا وثلاث غمها . فأما السرور : فالرضى بالقسم ، والعمل بالطاعة فى النعم ، ونفى الاهتمام لرزق غد . وأما الغم . فحرص مسرف ، وسؤال ملحف ، وتمنى ما يلهف .

الدنيا أربعة أشياء . البناء والنساء والطلاء والغناء .

أربعة من جهد البلاء : كثرة العيال ، وقلة المال ، والجار السوء ، وزوجة خائنة .

شدائد الدنيا فى أربعة : الشيخوخة مع الوحدة ، والمرض فى الغربة ، وكثرة الدين مع القلة ، وبُعد الشُقّة مع الرجلة .

المرأة الصالحة عماد الدين ، وعمارة البيت ، وعون على الطاعة .

ليس بكامل الأمر من غزا ، ولم يَبْنِ على امرأة تزوجها ، أو بنى بناء ولم يكمله ، أو زرع زرعاً ولم يحصده .

ثلاث ليس للعاقل أن يتناساهن : فناء الدار ، وتصرف أحوالها ، والآفات التى لا أمان منها .

ثلاث لا تدرك بثلاث : الغنى بالمنى ، والشباب بالخضاب ، والصحة بالأدوية .

وأربع خلال إذا أعطيتهن فليس يضرك ما فاتك من الدنيا . عفاف طعمة ، وحسن خليقة ، وصدق حديث ، وحفظ أمانة .

ستّة أشياء تعدل الدنيا : الطعام المرىء ، والسيد الرءوف ، والولد البر ، والزوجة الموافقة ، والكلام المحكم ، وكمال العقل .

وصقلك السيف وليس له من سنخه جوهر خطأ ، ونثرك الحب قبل أوانه فى الأرض السبخة جهل ، وحملك الصعب المُسن على الرياضة عناء .

الدليل الناصح غريزة الطبع . القائد المشفق حسن المنطق . العناء المعنّى تطبع من لا طبع له . الداء العياء رعونة مولودة . الجرح الدّوى المرأة السوء . الحمل الثقيل الغضب .

ثلاثة أشياء حسنها عند ثلاثة مواضع : المواساة عند الجوع ، والصدق عند السخط ، والعفو عند القدرة .

العاقل لا يرجو ما يعنّف برجائه ، ولا يسأل ما يخاف منعه ، ولا يضمن ما لا يثق بالقدرة عليه .

ثلاث ليس معهن غربة : حسن الأدب ، وكف الأذى ، واجتناب الرِّيَب .

وثمانى خصال من طباع الجهال : الغضب فى غير معنى ، والإعطاء فى غير حق ، وإتعاب البدن فى الباطل ، وقلّة معرفة الرجل صديقه من عدوه ، ووضعه السر فى

غير أهله ، وثقته بمن لا يجربه ، وحسن ظنه بمن لا عقل له ولا وفاء ، وكثرة الكلام بغير نفع .

ومن ظلم من الملوك فقد خرج من كرم الملك والحرية ، وصار إلى دناءة الشره والنقيصة ، والتشبه بالعبيد والرعية .

إذا ذهب الوفاء نزل البلاء ، وإذا مات الاعتصام عاش الانتقام .

إذا ظهرت الخيانات تمحّقت البركات .

الهزل آفة الجد ، والكذب عدو الصدق ، والجور مفسد العدل . فإذا استعمل الملك الهزل ذهبت هيبته ، وإذا استصحب الكذب استُخفّ به ، وإذا أظهر الجور فسد سلطانه .

والحزم انتهاز الفرصة عند القدرة ، وترك الونى فيما يخاف عليه الفوت .

الرياسة لا تتم إلا بحسن السياسة ، ومن طلبها صبر على مَضضها .

باحتمال المُؤن يجب السؤدد ، وبالإفضال تعظم الأخطار ، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال .

إذا كان الرأى عند من لا يُقبل منه ، والسلاحُ عند من لا يَستعمله ، والمالُ عند من لا يُنفقه ، ضاعت الأمور .

وعلى الملك أن يعمل بثلاث خصال : تأخير العُقوبة فى سلطان الغضب ، وتعجيل مكافأة المُحسن ، والأناة فيما يحدث ، فإن له فى تأخير العقوبة إمكان العفو ، وفى تعجيل المكافأة بالإحسان المسارعة بالطاعة من الرعية والجند ، وفى الأناة انفساح الرأى واتضاح الصواب .

والحازم فيما أشكل عليه من الرأى بمنزلة من أضلّ لؤلؤة فجمع ما حول مسقطها من التراب فنخله حتى وجدها ، كذلك الحازم جامع جميع الرأى فى الأمر المشكل ثم يُخلّصه ويسقط بعضه حتى يخلص منه الرأى الخالص .

لا ضعة مع حزم ، ولا شرف مع عجز ، والحزم مطية النجح ، والعجزُ يورث الحرمان .

أربع خصال ضَعة فى الملوك والأشراف : التعظم ، ومجالسة الأحداث والصبيان والنساء ، ومشاورتهن ، وترك ما يحتاج إليه من الأمور فيما يعمله بيده ويحضره بنفسه .

ولا يكون الملك ملكاً حتى يأكل من غرسه ، ويلبس من طرازه وينكح من بلاده ، ويركب من نتاجه .

إحكام هذه الأمور بالتدبير ، والتدبير بالمشورة ، والمشورة بالوزراء الناصحين المستحقين لرتبهم .

استطل على من دونك بالفضل ، وعلى نُظرائك بالإنصاف ، وعلى مَن فوقك بالإجلال ، تأخذ بوثائق أزمة التدبير .

يجب على العاقل من حق الله عزّ وجل التعظيم والشكر ، ومن حق السلطان الطاعة والنصيحة ، ومن حقه على نفسه الاُجتهاد فى الخيرات ، واجتناب السيئات ، ومن حق الخلطاء الوفاء بالودّ والبذل للمعونة ، ومِن حق العامة كَفّ الأذى ، وبَذل الندى ، وحسن المعاشرة .

ولا يكمل المرء إلا بأربع : قديم فى شرف ، وحديث فى نفس ، واخطار فى مال ، وصدق عند بأس .

من لم يُبطره الغنى ، ولم يستكن فى الفاقة ، ولم تَهُدّه المصائب ، ولم يأمن الدوائر ، ولم ينس العواقب ، فذاك الكامل .

الكمال فى ثلاثة : الفقه فى الدين ، والصبر على النوائب ، وحسن التقدير فى المعيشة .

يستدل على تقوى المرء بثلاث : التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضى فيما قد نال ، وحسن الصبر عما فات .

ذروة الإيمان أربع خلال : الصبر للحكم ، والرضى بالقدر ، والإخلاص بالتوكل ، والاستسلام للرب .

ليس للدين عوض ، ولا للأيام بدل ، ولا للنفس خلف .

من كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يَسر .

من جمع السخاء والحياء فقد أستجاد الإزار والرداء .

من لم يُبال بالشكاية فقد اعترف بالدناءة .

مَن استرجع هبته فقد أستحق اللوم .

أربعة أشياء القليل منها كثير : الوجع والفقر والعار والعداوة .

من جهل قدر نفسه فهو لقدر غيره أجهل ، من أنف من عمل نفسه اضطُرَّ إلى عمل غيره ، من استنكف من أبويه فقد أنتفى من الرشدة . ومَن لم يتصنَّع عند نفسه لم يرتفع عند غيره .

اذكُرْ مع كل نعمة زوالها ، ومع كل بليّة كَشفها ؛ فإن ذلك أبقى للنعمة ، وأسلم من البطر ، وأقرب إلى الفرج .

إذا لم يكن العدل غالباً على الجَور لم يزل يحدُث ألوان البلاء والآفات .

ليس شيء لتغيير نِعمة وتَعجيل نقمة أقرب من الإقامة على الظلم .

الأمل قاطع من كل خير ، وترك الطمع مانع من كل خوف ، والصبر صائر إلى كل ظفر ، والنفس داعية إلى كل شرّ .

باستصلاح المعاش يصلح أمر العباد ، و بِصدْق التوكل يستحق الرزق و بالاستخلاص يستحق الجزاء ، و بسلامة الصدر توضع المحبة فى القلب ، وبالكف عن المحارم ينال رضى الربّ ، وبالحكمة يكشف غطاء العلم ، ومع الرضى يَطيب العيش ، وبالعقول تنال ذِروة الأمور ، وعند نزول البلاء تَظهر فضائل الإنسان ، وعند طول الغيبة تظهر مواساة الإخوان ، وعند الخبرة تستكشف عقول الرجال ، وبالأسفار تختبر الأخلاق ، ومع

الضيق يبدو السخاء ، وفى الغضب يعرف صدق الرجال ، و بالإيثار على النفوس تملك الرقاب ، و بالأدب الصالح يلهم العلم ، و بترك الخطإ يُسلم من العيوب ، و بالزهد تقام الحكمة ، و بالتوفيق تحرز الأعمال ، وعند الغايات تظهر العزائم ، و بصاحب الصدق يُتقوّى على الأمور ، و بالمُلاقاة يكون أزدياد المودّات ، ومع الزُّهد فى الدنيا تثبت المواخاة ، ومن الوفاء دوام المواصلة ، ومن قبول رشد العالم ركوب مطية العلم ، ومن أستقامة النيّة أختيار صُحبة الأبرار ، ومن مصاحبة الغرور ركوب البحر ، ومن عز النفس لزوم القناعة ، ومن سلطان اليقين التجلد على من يطمع فى دينك ، ومن الدخول فى كامن الصدق الوقوعُ على ما لا تعرفه العوامّ ، ومن حُب الصحة الأنقطاع عن الشهوات ، ومن خَوف المعاد الأنصرافُ عن السيئات ، ومن طلب الفضول الوقوع فى البلايا ، ومَن لم تجد للإساءة إليه مضضاً لم تجد للإحسان عنده موقعاً .

قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل .

الحسود لا يسود .

مُنازع الحق مخصوم .

أولى الناس بالفضل أعودهم بفضله .

أعون الأشياء على تزكية العقل التعلم ، وأدل الأشياء على عقل العاقل حسن التدبير .

المستشير متحصّن عن السقط . المستبد متهور فى الغلط .

من ألبسه الحياء ثو به غطّى عن الناس عيبه .

أحسن الآداب أن لا يفخر المرء بأدبه ، ولا يظهر القدرة على من لا قُدرة له عليه ، ولا يتوانى فى العلم إذا طلبه .

ثلاثة ضروب من الناس لا يَستوحشون فى غُربة ولا يقصّر بهم عن مكرمة : الشجاع حيثما توجه ، فإن بالناس حاجة إلى شجاعته و بأسه ؛ والعالم ، فإن بالناس حاجة إلى علمه ؛ والحلو اللسان الظاهر البيان ، فإن الكلامة تجوز له بحلاوة لسانه ولين كلامه . فإن لم تعطَوْا

فى أنفسكم رباطة الجأش وجراءة الصدر فلا يفوتنكم العلم وقراءة الكتب ، فإنه علم وأدب قد قيَّده لكم من مضى من قبلكم تزدادون به عقلا .

اجعل الحلم عُدّه للسفيه .

ثم قال أبو عثمان الجاحظ : قال الحسن بن سهل أخو ذى الرياستين الفضل بن سهل: فهذا ما تهيأ لنا ترجمته من الأوراق التى أخذناها من كتاب (جاويذان خرد) على أنا أسقطنا الكثير منها لأنقطاع آخر الكلام عن أوله . لأن ذوبان لم تسمح نفسه بدفع الأوراق إلينا على الولاء والنظم والتأليف . وتركنا سائرها إذ لم يكن لنا مطمع فيها ، ومن لم يتعظ بالقليل لم ينفعه الكثير . وفيما أوردناه غنى وكفاية و بلاغ لمن أراد الانتفاع به . والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وسلم .

***

حكى أبو عثمان الجاحظ خبر هذا الكتاب فى كتابه المسمى (استطالة الفهم) فقال : حدثنى الواقدى قال: قال لى الفضل بن سهل : لما دُعى المأمون بكُوَر خراسان بالخلافة وجاءتنا هدايا الملوك ووجّه ملك كابلستان بشيخ يقال له : ذوبان ، وكتب يذكر أنه وجّه بهدية ليس فى الأرض أسنى ولا أرفع ولا أنبل ولا أفخر منها . فعجب المأمون وقال : سل الشيخ ما معه من الهدايا . فسألته فقال : ما معى شىء أكثر من علمى . فقلت : فأى شىء علمك ، فقال : تدبير ورأى ودلالة . فأمر المأمون بإنزاله وإكرامه وكتمان أمره ، فلما أجمع على التوجه إلى العراق لقتال أخيه محمد، فقال : رأى مصيب وملك قريب . ثم حكى الجاحظ عن ذوبان بإسناده أنه كان يسجع سجاعة الكُهان . ويصيب فى كل ما يسأله المأمون .

فلما ورد كتاب فتح العراق عليه دعا بذوبان وأكرمه وأمر له بمائة ألف درهم ، فلم يقبلها ، وقال : أيها الملك ، إن مَلكى لم يوجهنى إليك لأنتقصك ، فلا تجعل ردّى نعمتك تسخطاً ، فإنى لست أردها عن استصغار لقدرها ، وسوف أقبل منك ما بى بهذا

المال ويزيد ، وهو كتاب يوجد فى الخزائن تحت الإيوان بالمدائن . فلما قدم المأمون بغداد واستقرّت به دار ملكه اقتضاه ذوبان حاجته . فأمر بأن يكتب الصفة ويذكر الموضع ، فكتبه ذوبان وعيّن على الموضع وقال : إذا بلغت الحجر ووصلتَ إلى الساحة فأقلعها تجد الحاجة فخذها ، ولا تعرض لغيرها ، فيلزمك غِبُّ ضَيْرها . فوجه المأمون فى ذلك رسولاً حصيفاً . فوجد هناك صندوقاً صغيراً من زجاج أسود وعليه قفل منه ، وأدخل يده فأخرج خرقة ديباج ونثرها ، فسقط منها أوراق فعدّها ، فإذا هى مائة ورقة . ثم نفض الصندوق فلم يكن فيه سوى الأوراق . فردّ الأوراق إلى الخرقة وحملها ونهض ثم قال : أيها الملك ، هذا الصندوق يصلح لخبيئات خزائنك . فأمر به فرُفع . قال الحسن بن سهل : فقلت : يرى أمير المؤمنين أن أسأله ما فى الكتاب ؟ فقال : ياحسن ، أفرّ من اللؤم ثم أرجع إليه ! فلما خرج صرتُ إليه فى منزله فسألته عنه ، فقال : هذا كتاب (جاويذان خرد) أخرجه (كنجور وزير ملك ايران شهر من الحكمة القديمة . فقلت : أعطنى ورقة منه أنظر فيها . فأعطانى ، فأجلت فيها نظرى وأحضرت لها ذهنى ، فلم أزدد مما فيها إلا بُعدا ، فدعوت بالخضر بن على ، وذلك فى صدر النهار ، فلم ينتصف حتى فرغ من قراءتها بينه وبين نفسه ، ثم أخذ يفسرها وأنا أكتب ، ثم رددتُ الورقة وأخذتُ منه أُخرى ، والخضر عندى ، فجعل يفسر وأنا أكتب ، حتى أخذتُ منه نحواً من ثلاثين ورقة ، وانصرفتُ فى ذلك اليوم ، ثم دخلت يوماً عليه فقلت : ياذوبان ، هل يكون فى الدنيا أحسن من هذا العلم ؟ فقال : لولا أن العلم مضنونٌ به وهو سبيل الدنيا والآخرة لرأيتُ أن أدفعه إليك بتمامه . ولكن لا سبيل إلى أكثر مما أخذت . ولم تكن الأوراق التى أخذتها على التأليف لأنها تتضمن أموراً لا يمكن إخراجها . فحدثنى الحسنُ بن سهل قال : قال لى المأمون يوماً : أى كتب العرب أنبل وأفضل ؟ فجعلت أعدّد كتب المغازى والتواريخ حتى ذكرتُ تفسير القرآن . فقال : كلام الله لايشبهه شىء . ثم قال : أى كتب العجم أشرف ، فذكرت كثيراً منها ثم قلت :

كتاب (جاويذان خرد) يا أمير المؤمنين ، فدعا بفهرست كتبه وجعل يقلبه فلم ير لهذا الكتاب ذكراً ، فقال : كيف يسقط ذكر هذا الكتاب عن الفهرست . فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا هو كتاب ذوبان وقد كتبت بعضه . قال : فأتنى به الساعة ، فوجهت فى حمله ، فوافاه الرسول وقد نهض للصلاة ، فلما رآنى مقبلاً والكتاب معى انحرف عن القبلة وأخذ يقرأ الكتاب . فلما فرغ من فصل قال : لا إله إلا الله ، فلما طال ذلك ، قلت : يا أمير المؤمنين ، الصلاة تفوت ، وهذا لا يفوت . فقال : صدقت ، ولكن أخاف السهو فى صلاتى لاشتغال قلبى به . ثم صلى وعاود قراءته . ثم قال : أين تمامه ؟ قلت : لم يدفعه إلى . فقال : لولا أن العهد حَبل طرفه بيد الله وطرفه الآخر بيدى لأخذته منه . فهذا والله الحكمة لا ما نحن فيه من لىّ ألسنتنا فى فجوات أشداقنا .

قال الأستاذ أبو على أحمد بن مسكويه ، أدام الله علوّه : فهذا آخر كتاب أوشهنج وخبره مع ذوبان . وقد سمعت شغف المأمون به وبخل الناس بما تضمنه ، وستسمع مما أضفناه إليه ما لا يخفى زيادة حُسنه عليه من قرائح الحكماء ، ونتائج أفكارهم ، واتفاقهم مع تباعد أقطارهم .

وأبدأ بكلام أفتتح بذلك دفائن الحكماء وأسرارهم وأغراضهم لتؤمه بقريحتك ، وتسلك طريقه ، حتى يؤديك إلى مقصدك ، ولا تعدل عنه فتضل وتقع فى التيه الذى لا آخر له ، فإن الطريق إذا كان قصداً قرب الوصول منه إلى الغرض الأقصى ، وإذا كان غير قصد فكلما زاد إمعاناً فيه ازداد غرضه بُعداً ، وأسأل الله الذى بيده مفاتح الخيرات العصمة والتوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل .

فأقول : كل إنسان يحب نفسه ، وكل من أحب شيئاً أحب أن يحسن إليه ، فليت شعرى عمن لا يعرف نفسه كيف يُحسن إليها ، ومن لا يعرف طريق الإحسان كيف يسلكه . ولقد سمعت وزيراً من وزراء عصرنا وقد أقام لنفسه وظيفةً استقرّه فيها طباخه وصاحب شرابه ، وزيّن مجلسه كل يوم بريحان الوقت وفاكهته ، وأحضر اليوم الذى

دعانى فيه من أغانيه ما كان يعجبه و يطرَب له ، فقال فى عرض كلامه : إن عشت فسأحسن إلى نفسى . فتدبّرت كلامه وفعاله ، و إذا هو لا يدرى كيف يُحسن إلى نفسه ولا يفرّق بين الإحسان إلى بدنه بركوب الشهوات ، و بين الإحسان إلى نفسه بمعرفة الحقائق والتقرب إلى الله عزّ وجل بأنواع القرُبات ، فكان من عاقبة أمره أن حسده نظراؤه فأزالوه عن موضعه ، ونكبوه فى نعمته ، وأشمتوا به أعداءه . ثم وقع فى أمراض لم يجنها عليه إلا انهماكه فى مَطعمه ومَشْربه ، وتمكنه من نيل لذّاته .

ثم أقول أيضاً : لو كانت معرفة النفس أمراً سهلاً ما تعبت بها الحكماء ، ولا تبرّمت بها الجهال ، ولما أنزل فى الوحى القديم : يا إنسان ، اعرف ذاتك . وقد قال الله عزّ من قائل فى محكم كتابه : (يا أيتها النفسُ المُطمئنة ارجِعِى إلى ربك) إلى آخر الآية . وروينا فى الخبر الصحيح أن مَن عرف نفسه عَرف ربه . وفى حديث آخر : مَن عرف ربه لم يشقَ . وقال المسيح عليه السلام : بماذا نفع امرؤ نفسه ؟ باعها بجميع ما فى الدنيا ثم ترك ما باعها به ميراثاً لغيره وأهلك نفسه . ولكن طوبى لأمرئٍ خلّص نفسه واختارها على جميع الدنيا . وفى الوحى القديم : مَن لم يعرف نفسه ما دامت فى جسده ، فلا سبيلَ له إلى معرفتها بعد مفارقتها جسده . مَن لم يتفكر فى كل شىء ، خفى عليه كل شىء . مَن لم يعرف معدن الشر ، لم يقدر على النجاة منه .

اعلم أن الأفلاك المختلفة دائرة بالحركات المختلفة للعلل المعروفة عند الراسخين فى العلم ، فلذلك يقع التضادّ بين الخلق فى عالمنا هذا ولا يقع هناك تضادٌّ البتة . والكون والفساد لاحق بعالم النشء والبلى ، وليس هناك كون ولا فساد . فرياح الآفات تهبُّ عندنا بالهلكات وتتبعها الزلازل والرجفات ، ولا سبيل إلى الاحتراس منها إلا بالهرب منها إلى حيث لا يلحقها شىء من مكروهها .

تمييز الباقى من الفانى أشرف النظر . اطّراح المُؤَن أشرف قِنية . نظر النفس للنفس هو العناية بالنفس . ردع النفس للنفس هو العلاج للنفس . عشق النفس للنفس

هو المرض للنفس . النفس العزيزة هى التى لا تؤثر فيها النكبات . النفس الكريمة هى التى لا تثقل عليها المؤونات . ولا تصديق بما لا برهان عليه . الكذب فضاح . والكاذب يستشهد أبداً بالحلف . لسان العلم الصدق . من عَدِم الفهم عن الله عزّ وجل لم يجز أن يستمع موعظة حكيم .

فهذه جمل نحكمها قبل تفصيلها بالجزئيات . ولولا أنّا قد أحكَمنا لك الأصول كلها فى كتابنا الموسوم بـ (تهذيب الأخلاق) لأوجبنا لك إيرادها ها هنا ، ولكن هذا كتاب غرضنا فيه إيراد جزئيات الآداب بمواعظ الحكماء من كُل أُمة ، وكُل نِحلة ، وتبعنا فيه صاحب كتاب (جاويذان خرد) كما وعدناك به فى أوله . ولأن الموضوع الأول كتاب فارسى . فوجب أن نبدأ أولاً بآداب الفرس ومواعظهم ، ثم نتبعها بآداب الأمم الآخرين .

كتاب تهذيب الأخلاق (١)

ليحيي بن عدىّ العالم اليعقوبى المشهور

المتوفى سـنة ٣٦٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العـالمين

اعلم أن الإنسان ، من بين سائر الحيوان ، ذو فِـكر وتمييز ؛ وهو أبداً يحب من الأمور أفضلَها ، ومن المراتب أشرفها ، ومن المُقتَنيات أنفسَها ؛ إذا لم يعدِل عن التمييز فى اختياره ، ولم يغلبه هواه فى اتباع أغراضه .

وأولى ما اختاره الإنسان لنفسه ، ولم يقف دون بلوغ غايته ، ولم يرضَ بالتقصير عن نهاية تمامه وكماله . ومن تمام الإنسان وكماله ، أن يكون مُرتاضاً بمكارم الأخلاق ومحاسنها ، ومتنزّهاً عن مساويها ومقابحها ، آخذاً فى جميع أحواله بآيين (٢) الفضائل ، عادلاً فى كل أفعاله عن طرق الرذائل .

وإذا كان ذلك كذلك كان واجباً على الإنسان أن يجعل قصـده اكتساب كل شيمة سليمة من المعايب ، ويصرف همته إلى اقتناء كل خِيم (٣) كريم خالص من الشوائب ، وأن يبذل جهده فى اجتناب كل خَصلةٍ مكروهة رديئة ، ويستفرغ وُسعه فى اطّراح كل خَلة مذمومة دنيئة ، حتى يحوز الكمال بتهذيب خلائقه ، ويكتسى حللَ

(١) اعتمدنا هنـا على مخطوطة كتبت سنة ١٠٤٧ هـ من خزانة المجمع العلمى العربى وعزيت للجاحظ وقد انتحلها ابن عربى فى بعض نسخه . والأرجح أن الرسالة ليحي بن عدى إن لم يشر ثبت تآليفه لشىء من ذلك .

(٢) بآيين : أى قوانين ، وهى كلمة فارسية .

(٣) الخِيم (بالـكسر) : السجية والطبيعة .

الجمال بدماثة شمائله ، ويباهى بحقٍّ أهل السؤْدد والفخر ، ويلحق بالذُّرى من درجات النباهة والمجد .

إلا أن المبتدئَ بطلب هذه المرتبة ، والراغب فى بلوغ هذه المنزلة ، ربما خَفيت عليه الخلالُ المستحسنة التى يَعنيه تحرّيها ، ولم تتميّز له من المُستقبحة التى غرضُه توقّيها .

فمن أجل ذلك وجب أن نقول فى الأخلاق قولاً نبين فيه ما الخُلُق وما علّته ، وكم أنواعه وأقسامه ، وما المرضىّ منها ، المَغبوط صاحبه والمتخلّق به ، وما المستثنى منها ، الممقوت فاعله والمتوسّم به ؛ ليسترشد بذلك مَن كانت له همة سنيّة ، تسمو إلى مباراة أهل الفضل ، ونفس أبية تنبو عن مساواة أهل الدناءة والنقص .

وندل أيضاً على طريق الارتياض بالمحمود من أنواعه والتدرّب به ، وتنكّب المذموم منها وتجنّبه ، حتى يصير للمُرتاض به دَيدناً وعادة ، وسجية وطبعاً ؛ ليهتدىَ به من نشأ على الأخلاق السيئة وألفها ، وجرى على العادة الرديئة وأنس بها .

ونصف أيضاً الإنسان التامّ المُهذب الأخلاق ، المُحيط بجميع المناقب الخُلقية ، وطريقته التى يصل بها إلى التمام ، ويحفظ عليه الكمال ، ليشتاق إلى صورته مَن تشوّف إلى الرتبة العُليا ، ويحنّ إلى احتذاء سيرته من استشرف للغاية القُصوى .

وقدَ ينتبه أيضاً بما نذكره مَن كانت له عيوب قد اشتبهت عليه ، وهو مع ذلك يظن أنه فى غاية الكمال ؛ فإن مَن هذه حاله ، إذا تكرر عليه ذكْر الأخلاق المكروهة ، تيقّظ لما فيه من ذلك ، وأَنِف منه ، واجتهد فى تركه والتنزه عنه .

وكذلك إذا تصفح الأخلاق المحمودة من كان جامعاً لأكثرها ، عادماً لبعضها ، قَرِم(١) إلى التخلّق بذلك البعض الذى هو عادم له ، وتاقت نفسه إلى الإحاطة بجميعها . وقد ينتفع بما نذكره أيضاً مَن كان فى غاية الكمال والتمام ؛ فإن المهذّب الأخلاق ، الكامل الآلات ، الجامع المحاسن ، إذا مرّ بسمعه ذكر الخلائق الجميلة ، والمناقب النفيسة ، ورأى أن تلك هى عادته وسجاياه ، كانت له بذلك لذّة عجيبة ، وفَرحة مُبهجة ؛ كما أن الممدوح

(١) قرم : اشتاق .

يُسر إذا ذَكر المادحُ محاسنَه ، ونشر فضائله .

وأيضاً فإنه إذا وجد أخلاقه مدّونة فى الـكتب ، موصوفة بالحُسن ، كان ذلك داعياً إلى الأستمرار على سيرته ، والإصرار على طريقته .

وهذا حين بدأنا بذكر الأخلاق فنقول :

إن الخُلق ؛ هو حال النفس ، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا رويّة ولا أختيار ، والخلق قد يكون فى بعض الناس غريزةً وطبعاً ، وفى بعضهم لا يكون إلاّ بالرياضة والاجتهاد ؛ كالسخاء قد يوجد فى كثير من الناس من غير رياضة ولا تعمّل ، وكالشجاعة والحلم والعفّة والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة .

وكثير من الناس يوجد فيهم ذلك ، فمنهم مَن يصير إليه بالرياضة ، ومنهم مَن يبقى على عادته ، وَيجرى على سيرته ،

فأما الأخلاق المذمومة ، فإنها موجودة فى كثير من الناس ، كالبخل والجبن والظلم والتشرّر ؛ فإن هـذه العادات غالبة على أكثر الناس ، مالـكة لهم . بل قلّما يوجد فى الناس مَن يخلو من خُلق مكروه ، ويسلم من جميع العيوب ، ولـكنّهم يتفاضلون فى ذلك .

وكذلك فى الأخلاق المحمودة : قد يَختلف الناسُ ويتفاضلون ، إلا أن المجبولين على الأخلاق الجميلة قليلون جدا ، والمُبغضون لها [كثيرون] (١) .

فأما المجبولون على الأخلاق السيئة فأكثر الناس ، لأنّ الغالب على طبيعة الإنسان الشر ، وذلك أن الإنسان إذا أسترسل مع طبعه ، ولم يستعمل الفكر ولا التمييز ، ولا الحياء ولا التحفّظ ، كان الغالب عليه أخلاق البهائم ؛ لأن الإنسان إنما يتميز عن البهائم بالفكر والتمييز ، فإذا لم يستعملهما كانَ مشاركاً للبهائم فى عاداتها ، والشهواتُ مستوليةً عليه ، والحياء غائبا عنه ، والغضبُ يَستفزّه ، والسكينةُ غير حاضرة له ، والحِرص والاحتشاد ديدنه ، والشّره لا يفارقه .

(١) بمثل هذه الـكلمة يستقيم الـكلام .

فالناسُ مَطبوعون على الأخلاق الرديئة ، مُنقادون للشهوات الدنيئة . وكذلك وقع الافتقار إلى الشرائع والسُّنَن ، والسياسات المحمودة ، وعَظُم الانتفاع بالملوك الحَسَنِي السيرة ليردعوا الظالم عن ظُلمه ، ويمنعوا الغاصب عن غصْبه ، ويُعاقبوا الفاجر على فجُوره ، ويَقمعوا الجائر حتى يعود إلى الاعتدال فى جميع أموره .

فالأخلاق المكروهة فى طباع الناس ، إلا أنّ فيهم مَن يتظاهرُ بها ، وينقاد لها ، وهم شِرار الناس . وفيهم من يَتَنبهُ بجودة الفكر ، وقُوة التميز ، على قُبحها فيأنف منها ، ويتصنع لأجتنابها ، وذلك يكون عن طبع كريم ، ونفس شريفة .

وفيهم مَن لا ينتبه لذلك ، إلا أنه إذا نُبِّه عليه أحسَّ بقُبحه ، فربما حمد نفسه على تركه .

وفيهم مَن إذا تنبه لما فيه من النقائص ، أو نُبِّه عليها ، ورام العدول عنها . تعذّر عليه ذلك . ولم يُطاوعه طبعه ، وإن كان موُثراً للعدول عنها ، مجتهداً فى ذلك .

وهذه الطائفة تحتاج أن تُرشد إلى طريق التدرّب والتعمل للعادات المحمودة ، حتى تصير إليها على التدريج .

ومن الناس من ينتبه إلى الأخلاق الرديئة ، أو يُنبه عليها ، فلا يحنُّ إلى تجنبها ، ولا تسمح نفسه لمفارقتها ؛ بل يؤثر الإصرار عليها ، مع علمه برداءتها وقُبحها .

وهذه الطائفة ليس إلى تهذيبها طريق إلا بالقهر والتخويف والعقوبة إنْ لم يردعها الترهيب .

فأمَّا الأخلاق المحمودة ، فإنها وإن كانت فى بعض الناس غريزة ، فليست فى جميعهم . وإنّ الباقين قد يمكن أن يصيروا إليها بالتدرّب والرياضة ، ويترقّوا إليها بالأُعتياد والإلف ، ومع هذه الحال فقد يكون فى الناس من لا يقبل طبعه العاداتِ الحسنة ، ولا الُخلق الجميل ، وذلك يكون لرداءة جوهره ، وخُبث عُنصره .

وهذه الطائفة من جُملة الأشرار الذين لا يُرجى صلاحهم . وكثيرٌ من الناس مَن يقبل

كثيراً من الأخلاق المحمودة ويَنبو طبعُه عن بعضها ، وليس يُعدّ هذا شرّيراً ، ولكن رُتبته فى الخير بحسب محاسنه .

فأمّا العلّةُ المُوجبة لاختلاف الأخلاق ، فهى النفس ، وللنفس ثلاث قوى ، وهى تسمّى أيضاً نفوساً : النفس الشهوانية ، والنفس الغضبية ، والنفس الناطقة .

وجميع الأخلاق تصدر عن هذه القوى .

فمنها ما يختص بإحداهن ، ومنها ما تَشترك فيه قُوتان ، ومنها ما تشترك فيه القوى الثلاث ، ومن هذه القوى ما يكون للإنسان وغيره من الحيوان ، ومنها ما يختص به الإنسان فقط .

أمّا النفس الشهوانيّة : فهى للإنسان ولسائر الحيوان ، وهى التى يكون بها جميع اللذات ، والشهوات الجُسمانية ، كالقَرَم إلى المآكل والمشارب والمُباضعة ، وهذه النفس قوية جداً متى لم يَقهرها الإنسان ويؤدبها ملكته واستولت عليه . فإذا استولت عليه عَسر تهذيبها ، وصَعُب قمعها وتذليلها .

فإذا تمكّنت هذه النفس من الإنسان ومَلكته وانقاد لها ، كان بالبهائم أشبه منه بالناس ؛ لأن أغراضه ومطلوباته وهمّته تصير أبداً مصروفةً إلى الشهوات واللذات فقط ، وهذه هى عادة البهائم .

ومَن يكون بهذه الصفة يقلُّ حياؤه ، ويكثر خُرقه ، ويستوحش من أهل الفضل ، ويميل إلى الخلوات ، ويَنقبض عن المجالس الحَفْلة ، ويُبغض أهل العلم ، ويَشنأ أهل الورع والنُّسك ، ويودّ أصحاب الفجور ، ويستحب الفواحش ، ويُكثر ذكرها ، ويلذّه استماعها ، ويُسر بمعاشرة السخفاء ، ويَغلب عليه الهزلُ وكثرة اللهو ، وقد يصير مَن هذه حالُه إلى الفجور ، وارتكاب الفواحش ، والتعرّض للمحظورات . وبما دعته محبةُ اللذات إلى اكتساب الأموال من أقبح وجوهها ، وربما حملته نفسه على الغصب والتلصّص والخيانة ، وأخذ ما ليس له بحق ، فإن اللذات لا تتم إلاّ بالأموال والأعراض ؛

فمُحب اللذة إذا تعذرت عليه الأموال من وجوهها ، جسّرته شهوتُه على اكتسابها من غير وجوهها .

ومن تنتهى به شهواته إلى هذا الحدّ ، فهو أسوأُ الناس حالاً ، وهو من الأشرار الذين يُخاف خبثهم ، ويُستوحش منهم ، ويُستروح إلى البعد عنهم ، ويصير واجباً على متولّى السياسات تقويمُهم وتأديبهم ، وإبعادُهم ونفيهم ، حتى لا يختلطوا بالناس . فإنّ فى اختلاط مَن هذهِ صفته بالناس ، مَضرّةً لهم ، وخاصّةً لأحداثهم ؛ فإن الحدث سريع الانطباع ، ونفسَه مجبولة على الميل إلى الشهوات . فإذا شاهد غيرَه مرتكباً لها ، مُستحسناً للانهماك فيها ، مال هو أيضاً إلى الاقتداء به وإلى مُساعدة لذته .

وأما من ملك نفسه الشّهوانيّة وقهرها ، كان ضابطاً لنفسه ، عفيفاً فى شهواته ، مُحتشماً من الفواحش ، متوقياً من المحظورات ، محمودَ الطريقة فى جميع ما يتعلق باللذات .

فالعلّة المُوجبة لاختلاف عادات الناس فى شهواتهم ولذّاتهم ، وعفّة بعضهم ، وفُجور بعضهم ، هو اختلاف أحوال النفس الشهوانية ، فإنها إذا كانت مهذبة مؤدبةً ، كان صاحبها عفيفاً ، ضابطاً لنفسه ، وإذا كانت مهملة مرسلةً ، مالكة لصاحبها ، كان صاحبُها فاجراً شريراً ؛ وإذا كانت متوسطة الحال ، كانت رتبةُ صاحبها فى العفة كرتبتها فى التأدب .

فمن أجل ذلك وجب أن يؤدبَ الإنسانُ نفسه الشهوانية ويُهذبها حتى تصير مُنقادة له ، ويكون هو مالكها فيستعملها فى حاجاته التى لا غنًى عنها ، ويكفّها عما لا حاجة به إليه من الشهوات الرديئة واللذات الفاحشة .

فأمّا النفْس الغضبيّة ، فيشترك فيها أيضاً الإنسان وسائر الحيوان ، وهى التى بها يكون الغضب والجرأة ومحبة الغَلبة

وهذه النفس أقوى من النفس الشهوانية وأضرُّ لصاحبها إذا ملكته وانقاد لها ، فإن الإنسان إذا انقاد للنفس الغضبية كَثُر غضبُه ، وظهر خُرقه ، واشتد حقده ، وعدم حلمه

ووقاره ، وقويت جُرأتُه ، وتسرّع عند الغضب إلى الانتقام والإيقاع بمُغضبه ، والوُثوب بخصومه ، فأسرف فى العقوبة وزاد فى التشفّى ، فأكثر السبّ وأفحش فيه .

فإذا أستمرت هذه العادات بالإنسان كان بالسباع أشبهَ منهُ بالناس ، وربما حمل قوماً على حمل السلاح ، وربما أقدموا على القتل والجراح ، وربما وثبوا بالسلاح على إخوانهم وأوليائهم وعبيدهم وخَدَمِهم عند الغضب ، من اليسير من الأمور ، وربما غَضب مَن هذه حاله ولم يقدر على الأنتقام من خصمهِ فيعود بالضرر والسبّ والألم على نفسه ، فمنهم من يلطم وجهه وينتف لحيته ، ويَعض يده ، ويسبُّ نفسه ، ويذكر عرضه .

وأيضاً فإنّ من تملكه النفس الغضبية يكون مُحبًّا للغلبة ، متواثباً على مَن آذاه ، مقدماً على كل من ناوأه ، طالباً للترَؤّس من غير وجهه ، فإذا لم يتمكن من الرياسة من وجهها توصّل إليها بالحيل الخبيثة ، فاستعمل كُل ما يمكنه من الشر .

وهذه الأفعال تورِّط صاحبها وتُوقعهُ فى المهاوى والمهالك ، فإن من وثب على الناس وثبوا عليه ، ومن خاصَمهم خاصموه ، ومن أَقدم عليهم أقدموا عليه ، ومن تشرّر عليهم قصدوه بالشر . وربما سفه الإنسان على خَصمهِ وكان الخصمِ أسفهَ منه ، فإن ناله بسوء قابله ذاك بأكثر منه .

وقد يغلب على مَن هذه حاله الحسد والخفة والقِحة واللَّجاج والجور ، وقد تحمل هؤلاء محبة الغلبة وطلب الرياسة على اكتساب الأموال من غير وجهها ، وأخذها بالغصب والغلبة والظلم ، وربما قَتلوا على محبة الغلبة من يناوئهم ، وربما فعلوا ذلك من غير رويّة ، فيؤول الأمر بهم إلى البوار والاستئصال .

فأمّا مَنْ ساس نفسه الغضبيّة وأدّبها وقمعها ، كان حليماً وقوراً ، عادلاً محمود الطريقة . فالعلة المُوجبة لاختلاف عادات الناس فى غَضبهم وخُرقهم وحِلْمهم وسفاهة بعضٍ ، هو أختلاف أحوال النفس الغضبية : إذا كانت مذلة مقهورة كان صاحبها حليماً وقوراً ، وإذا كانت مهملة مستولية على صاحبها كان صاحبها غضوباً سفيهاً ظلوماً غشوماً ، وإذا كانت

متوسطة الحال كان صاحبها متوسط الحال ، رتبته فى الحلم كرتبة نفسه الغضبية فى التأدب .

فمن أجل ذلك وجب أن يروض الإنسان نفسه الغضبية حتى تنقاد له فيملكها ويستعملها فى المواضع التى يجب أستعمالها فيها ، فإن لهذه النفس أيضاً فضائلَ محمودة ، وذلك أن الأَنَفَة من الأمور الدنيئة ، ومحبة الرياسة الحقيقية وطلب المراتب العالية من الأخلاق المحمودة ، وهى من أفعال النفس الغضبية . فإذا ملك الإنسان هذه النفس بالتأديب والتهذيب وأستعملها فى الأمور الجميلة وكفّها عن الأفعال المكروهة ، كان حسنَ الحال محمودَ الطريقة .

وأما النفسُ الناطقة ، وهى التى بها يتميّز الإنسان من جميع الحيوان ، وهى التى بها يكون الفكر والذكر والتمييز والفهم ، وهى التى بها شَرُف الإنسان وعظمت همّتهُ فأُعجب بنفسه ، وهى التى بها تُستحسن المحاسن وتستقبح القبائح ، وبها يمكن الإنسان أن يهذبُ قوتيه الأُخريين ، وهما الشهوانية والغضبية ، ويضبطهما ويكفّهما ، وبها يفكر فى عواقب الأمور فيبادر بأستدراكها من أولها .

ولهذه النفسُ أيضاً فضائل ورذائل :

أمّا فضائلها : فاكتسابُ العلوم والآداب ، وكفُّ صاحبها عن الرذائل والفواحش ، وقهر النفسين الأُخريين وتأديبهما ، وسياسة صاحبها فى معاشه ومكسبه ومروءتِه وتجمله ، وحث صاحبها على فعل الخير والتودّد والرقة ، وسلامة النية والحلم والحياء والنسك والعفة ، وطلب الرياسة من الوجوه الجميلة .

وأما رذائلها : فالخُبث والحيلة والخديعة والملق والمكر والحسد والتشرد والرياء . وهذه النفس هى لجميع الناس إلا أن منهم من تَغلب عليه فضائلها فيستحسنها ويستعملها ، ومنهم من تَغلب عليه رذائلها فيألفها ويستمر عليها ، ومنهم من تجتمع فيه بعضُ الفضائل وبعض الرذائل . وهذه العادات قد تكون فى كثير من الناس سجيّة وطبعاً لا بتكلف . فأما المطبوع على العادات الجميلة منها ، فتكون لقُوّة نفسهِ الناطقة وشرف عنصره .

وأما المطبوع على العادات المكروهة فلضعف نفسه الناطقة وسوء جوهره .

وأما الذى تجتمع فيه فضائل ورذائل ؛ فهو الذى تكون نفسه الناطقة متوسطة الحال .

وقد يكتسب أكثر الناس هذه العادات وجميع الأخلاق جميلها وقبيحها اكتساباً ، وذلك يكون بحسب منشإ الإنسان ، وأخلاق مَن يحيط به ويشاهده ، ويقرب منه ، وبحسب رُؤساء وقته ومَن يشار إليه بالنباهة ويغبط على رتبته . فإن الحدث والناشىء يكتسب الأخلاق ممن يكثر ملابسته ومخالطته ، ومن أبويه وأهله وعشيرته ، فإذا كان هؤلاء سيئى الأخلاق مذمومى الطريقة ، كان الحدث والناشئ بينهم أيضاً سىء الأخلاق مكروه العادات . وإذا لحظ الحدث أيضاً أهل الرياسة ومَن فوقه وغبطهم على مَراتبهم آثر التشبه بهم والتخلّق بأخلاقهم . فإن كانوا مهذبى الأخلاق حسنى السيرة ، كان المُتشبه بهم حسنَ الأخلاق مرضىّ الطريقة ، وإن كانوا أشراراً جُهالاً كان الضابط لهم والسالك طريقهم شرّيراً جاهلا .

وهذه الحال هى أخلاق أكثر الناس ، فإنّ الجهل والشرّ والخبث والشرَه والحسد غالبٌ عليهم ، والناس بالطبع يقتدى بعضُهم ببعض ، ويَحتذى التابع أبداً سيرة المَتبوع ، وإذا كان الغالب عليهم الشرّ والجهل ، كان واجباً أن يقتدى أحداثُهم وأولادهم وأتباعهم بهم .

فالعلّة المُوجبة لاختلاف أخلاق الناس فى سياساتهم وفضائلهم وغلبة الخير والشر عليهم هى اختلاف قوة النفس الناطقة فيهم ؛ إذا كانت خيرةً فاضلةً قاهرة للنفسين الباقيتين ، كان صاحبُها خيراً عادلاً حسن السيرة ؛ وإذا كانت شرّيرة خبيثةً مهملة للنفسين الأُخريين ، كان صاحبها شريراً خبيثاً جاهلا .

فمن أجل ذلكَ وجب أن يُعمِل الإنسان فكره ، ويميز أخلاقه ، ويختار منها ما كان مستحسناً جميلا ، وينفى منها ما كان مُستنكراً قبيحاً ، ويحمل نفسه على التشبه

بالأخيار ، و يتجنب كل التجنب عادات الأشرار ، فإنه إذا فعل ذلك صار بالإنسانية متحققاً ، وللرياسة الذاتية مستحقا .

فأما أنواع الأخلاق وأقسامها وما المُستحسن منها وما المستحب اعتياده و يعد فضائل ، وما المستقبح منها المكروه ويُعد نقائص ومعايب ، فهى الأنواع التى نحن واصفوها .

أما التى تعدّ فضائل فإن منها العفة ، وهى ضبط النفس عن الشهوات ، وقَسرها على الاكتفاء بما يُقيم أَود الجسد و يحفظ صحته فقط ، واُجتناب السرف والتقصير فى جميع اللذات ، وَقصد الاُعتدال ، وأن يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الوجه المُستحب المتفق على ارتضائه ، وفى أوقات الحاجة التى لا غنَى عنها ، وعلى القدر الذى لا يحتاج إلى أكثر منه ، ولا يحرس النفس والقوة أقل منه ، وهذه الحال هى غاية العفة .

ومنها القناعة ، وهى الاختصار على ما سَنح من العيش والرضا بما تسهّل من المعاش ، وترك الحرص على اكتساب الأموال ، وطلب المراتب العالية مع الرغبة فى جميع ذلك ، و إيثاره والميل إليه ، وقهر النفس على ذلك ، والتقنع باليسير منه .

وهذا الخُلق مستحسن من أوساط الناس وأصاغرهم ، فأما الملوك والعظماء فليس ذلك مستحسناً منهم ، ولا تُعد القناعة من فضائلهم .

ومنها التصوّن ، وهو التحفظ من التبذل . فمن التصون التحفظ من الهزل القبيح ومخالطة أهله وحضور مجالسه ، وضبط اللسان من الفحش وذكر الخنا والمزح والسخف ، وخاصة فى المحافل ومجالس المحتشمين ، ولا أُبهة لمن يسرف فى المزح و يفحش فيه .

ومن التصوّن أيضاً الاُنقباض من أدنياء الناس وأصاغرهم ، ومصادقتهم ومجالستهم ، والتحرز من المعايش الزرية ، واكتساب الأموال من الوجوه الخسيسة ، والترفع عن مسألة الحاجات لئامَ الناس وسِفلتهم ، والتواضع لمن لا قَدْر له ، والإقلال من البروز من غير حاجةٍ ، والتبذل بالجلوس فى الأسواق وقوارع الطرق من غير اُضطرار ؛ فإن الإكثار من ذلك مَخلق . وأعظم الناس قدراً من ظهر اُسمه وخفى شخصه .

ومنها الحلمُ ، وهو ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة على ذلك . وهذه الحال محمودة ما لم تؤد إلى ثلم جاهٍ أو فساد سياسة ، وهى بالرؤساء والملوك أحسن ، لأنهم أقدر على الأنتقام من مغضبيهم . ولا يعد فضيلة حلم الصغير عن الكبير ، وإن كان قادراً على مُقابلته فى الحال ، فإنه وإن أمسك فإنما يعدّ ذلك خوفاً لا حلماً .

ومنها الوقار ، وهو الإمساك عن فضول الكلام والعَبَث ، وكثرة الإشارة والحركة فيما يستغنى عن التحرّك فيه ، وقلّة الغضب والإصغاء عند الأستفهام ، والتوقّف عن الجواب ، والتحفّظ من التسرّع ، والمُباكرة فى جميع الأمور .

ومن قبيل الوقار أيضاً الحياء ، وهو غض الطرف والأنقباض عن الكلام حشمة المستحيا منه . وهذه العادة محمودة ما لم تكن عن عيٍّ ولا عجز .

ومنها الوُدّ ، وهو المحبة المعتدلة من غير أتباع الشهوة . والود مستحسن من الإنسان إذا كان وده لأهل الفضل والنبل ، وذوى الوقار والأُبهة ، والمتميزين من الناس ؛ فأما التودد إلى أراذل الناس وأصاغرهم والأحداث والنسوان وأهل الخلاعة فمكروه جدًّا . وأحسن الود ما نسجْته بين منوالين متناسبة الفضائل ، وهو أوثق الود وأثبته ، فأما ما كان أبتداؤه أجتماعاً على هزل أو لطلب لذة فليس محموداً ، وليس بباقٍ ولا ثابت .

ومنها الرحمة ، وهو خلق مركب من الود والجزع ؛ والرحمة لا تكون إلاّ لمن تظهر منه لراحمه خلة مكروهة ، إما نقيصة فى نفسه ، وإما محبة عارضة . فالرحمة هى محبة المرحوم ، مع جزعٍ من الحال التى من أجلها رُحم . وهذه الحال مستحسنة ، ما لم تخرج بصاحبها عن العدل ، ولم تنته به إلى الجور ، وإلى فساد السياسة ؛ فليس بمحمود رحمة القاتل عند القود ، والجانى عند القصاص .

ومنها الوفاء ، وهو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه ويُرهن به لسانه ، والخروج مما يضمنه وإن كان مجحفاً به ، فليس يُعدُّ وفيًّا من لم تلحقه بوفائه أذية وإن قلّت ، وكلما أضرّ به الدخول تحت ما حكم به على نفسه كان أبلغ فى الوفاء .

وهذا الخُلق محمود ينتفع به جميع الناس ؛ فإن من عُرف بالوفاء كان مقبول القول فى جميع ما يَعِد به ، ومن كان مقبولَ القول كان عظيم الجاه ؛ إلا أن انتفاع الملوك بهذا الخُلق أكثر ، وحاجتهم إليه أشد ، وإنه متى عُرف منهم قلّة الوفاء لم يُوثق بمواعيدهم ، ولم تتم أغراضهم ، ولم تسكن إليهم جندُهم وأعوانهم .

ومنها أداء الأمانة ، وهو التعفّف عما يتصرف الإنسان فيه من مال وغيره ، وما يوثق به عليه من الأعراض والحرم مع القدرة عليه ، وردّ ما يستودع إلى مودعه .

ومنها كتمان السر ، وهذا الخُلق مركب من الوقار وأداء الأمانة ، فإن إخراج السر من فضول الكلام ، وليس بوَقور من تكلّم بالفضول .

وأيضاً فكما أنه من أُستودع مالاً فأخرجه إلى غير مُودعه فقد خفر الأمانة ، كذلك من أُستودع سرًّا فأخرجه إلى غير صاحبه فقد خفر الأمانة . وكتمان السر محمود من جميع الناس ، وخاصةً ممن يصحب السلطان ، فإنَّ إخراجه أسراره ، مع أنه قبيح فى نفسه ، يؤدى إلى ضرر عظيم يدخل عليه من سلطانه .

ومنها التواضع ، وهو ترك الترَؤّس ، وإظهار الخمول ، وكراهية التعظيم ، والزيادة فى الإكرام ، وأن يتجنب الإنسان المباهاة بما فيه من الفضائل ، والمفاخرة بالجاه والمال ، وأن يتحرّز من الإعجاب والكبر ، وليس يكون التواضع إلا فى أكابر الناس ورؤسائهم وأهل الفضل والعلم ، وأما سوى هؤلاء فليس يكونون متواضعين ، لأن الضّعة هى محلهم ومرتبتهم ، فهم غير متصنعين لها .

ومنها البِشْر ، وهو إظهار السرور بما يلقاه الإنسان من إخوانه وأودّائه وأصحابه وأوليائه ومعارفه ، والتّبسّم عند اللقاء . وهذا الخُلق مستحسن من جميع الناس ، وهو من الملوك والعظماء أحسن . وإن البِشْر فى الملوك تتألف به قلوب الرعية والأعوان والحاشية ، ويزداد به تحبباً إليهم . وليس سعيداً من الملوك من كان مُبغّضاً إلى رعيته ، وربما أدى ذلك إلى فساد أمره وزوال ملكه .

ومنها صدق اللهجة ، وهو الإخبار عن الشىء على ما هو به ، وهذا الخُلق مستحسن ما لم يؤدِّ إلى ضرر مُجحف ؛ فإنه ليس بمستحسن صدق الإنسان إن سئل عن فاحشة كان ارتكبها ، فإنه لا يفى صدقه بما يلحقه فى ذلك من العار والمنقصة الباقية اللازمة .

وكذلك ليس يَحسن صدقُه متى سُئل عن مستجير استجاره فأخفاه ، ولا إن سُئل عن جنايته متى صدق عنها عُوقب عليها عقوبة موئلمة .

والصدق مستحسن من جميع الناس ، وهو من الملوك والعظماء أحسن ، بل لا يسعهم الكذب ما لم يَعُدْ الصدقُ عليهم بضرر .

ومنها سلامة النية ، وهو اعتقاد الخير لجميع الناس ، وتنكّب الخبث والغيلة والمكر والخديعة .

وهذا الخلق محمود من جميع الناس ، إلا أنه ليس يصلح للملوك التخلّق به دائماً ، ولا يتم الملك إلا باستعمال المكر والحيل ، والاغتيال مع الأعداء ، ولكن يحسن لهم استعماله مع أوليائهم وأصفيائهم وأهل طاعتهم .

ومنها السخاء ، وهو بذل المال من غير مسألة ولا استحقاق ، وهذا الفعل مستحسن ما لم ينتهِ إلى السرف والتبذير ، فإن مَن بذل جميع ما يملكه لمن لا يستحقه لم يُسَمَّ سخيا بل يُسمى مبذراً مضيعاً .

والسخاء فى سائر الناس فضيلة متسحسنة ، فأما فى الملوك فأمر واجب ؛ لأن البخل يوءدى إلى الضرر العظيم فى ملكهم ، والسخاء والبذل يرتهن به قلوب الرعية والجند والأعوان ، فيعظم الانتفاع به .

ومنها الشجاعة ، وهو الإقدام على المكاره والمهالك عند الحاجة إلى ذلك ، وثبات الجأش عند المخاوف ، والاستهانة بالموت .

وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس ، وهو بالملوك وأعوانهم أليق وأحسن . بل ليس بمستحق للملك مَن عَدِم هذه الخلة ، فأكثر الناس أخطاراً ، وأحوجهم إلى اقتحام

الغمرات ، هم الملوك . فالشجاعة من أخلاقهم الخاصة بهم .

ومنها المنافسة ، وهى منازعة النفس إلى التشبّه بالغير فيما يراه له وهو يرغب فيه لنفسه ، والأجتهاد فى الترقى إلى درجة أعلى من درجته .

وهـذا الخلق محمود إذا كانت المنافسة فى الفضائل والمراتب العالية وما يكسب مجداً وسوؤدداً ، فأما فى غير ذلك من اتباع الشهوات ، والمباهاة باللذات ، والزينة والنزه ، فمـكروه جدا .

ومنها الصبرُ عند الشدائد ، وهـذا الخلق مركب من الوقار والشجاعة ، ومستحسن جدا ما لم يكن الجزع نافعاً ، ولا الحزن والقلقُ مجدياً ، ولا الحيلة والاجتهاد دافعة سَوْرة تلك الشدائد . فما أحسن الصبر إذا عدمت الحيلة ، وما أقبح الجزع إذا لم يكن مفيداً .

ومنها عِظمُ الهمّة ، وهو أستصغار ما دون النهاية من معالى الأمور ، وطلب المراتب السامية ، وأستحقار ما يجود به الإنسان عنـد العطية ، والأستخفاف بأوساط الأمور ، وطلب الغايات ، والتهاون بما يملـكه ، وَبذْل ما يمكنه لمن يسأله من غير أمتنان ولا اعتداد به .

وهذا الخلق من أخلاق الملوك خاصة . وقد يحسن بالرؤساء والعظماء ومن تسمو نفسه إلى مراتبهم .

ومن عظم الهمّة : الأَنفة ، والحمية ، والغيرة . والأَنفة هو نبوُّ النفس عن الأمور الدنيئة ، والحمية والغيرة جميعاً هما الغضب عند الإحساس بالنقص . وإنما تلحق الأنسانَ الغيرةُ على الحرم لأن فى التعرض لهنّ عاراً ومنقصة . فإن المتعرض للحرم مهتضم لصاحبهنّ فى غير حق له ، والأهتضام نقيصة .

ومن عظم الهمة : الأنفه من الأهتضام ودخول النقص . وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس .

ومنها العدلُ ، وهو القسط اللازم للأستواء ، وهو أستعمال الأمور فى مواضعها وأوقاتها

ووجوهها ومقاديرها من غير سرفٍ ولا تقصير ولا تقديم ولا تأخير .

فأمّا الأخلاق الرديّة التى تعد نقائص ومعايب ، فإنَّ منها الفجور ، وهو الانهماك فى الشهوات والاستكثار منها ، والتوفر على اللذات والادمان عليها ، وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها ؛ وبالجملة السرف فى جميع الشهوات . وهذا الخلق مكروه جدا ، يهدم الجاه ، ويذهب بماء الوجه ، ويخرق حجاب الحشمة .

ومنها الشَّرهُ ، وهو الحرص على أكتساب الأموال وجمعها ، وطلبها من كل وجه ، وقبح التعسف فى أكتسابها ، والمكالبة عليها ، والاستكثار من القنية وادخار الأعراض .

وهذا الخلق مكروه من جميع الناس ، إلا من الملوك ، فإن كثرة الأموال والذخائر والأعراض تعين على الملك ، وتزين الملوك ، وتزيدهم هيبة فى نفوس رعيتهم وأعوانهم وأعدائهم وأضدادهم .

ومنها التبذل ، وهو اطراح الحشمة ، وترك التحفظ ، والإكثار من الهزل واللهو ، ومخالطة السفهاء ، وحضور مجالس السخف والهزل والفواحش ، والتفوه بالخنا ، وذكر الأعراض ، والمزح ، والجلوس فى الأسواق ، وعلى قوارع الطرق ، والتكسب بالمعايش الزرية ، والتواضع للسفلة . وهذا الخلق قبيح بجميع الناس .

ومنها السفهُ ، وهو ضد الحلم ، وهو سرعة الغضب والطيش من يسير الأمور ، والمبادرة فى البطش والإيقاع بالمؤذى ، والسرف فى العقوبة ، وإظهار الجزع من أدنى ضرر ، والسبُّ الفاحش . وهـذا الخلق مستقبح من كل أحد ، إلا أنه من الملوك والرؤساء أقبح .

ومنها الخرق ، وهو كثرة الكلام ، والتحرّك من غير حاجـة ، وشدة الضحك ، والمبادرة إلى الأمور من غير توقف ، وسرعة الجواب . وهذا الخلق مستقبح من كل أحد ، وهو بأهل العلم وذوى النباهة أقبح .

ومن قبيل الخرق القِحَة ، وهو قلة الاحتشام لمن يجب احتشامه ، والمجاهرة بالجوابات

الفظة المستشنعة. وهذا الخلق مكروه وخاصة بذوى الوقار.

ومنها العشق، وهو إفراط الحب والسرف فيه. وهـذا الخلق مكروه على جميع الأحوال، إلا أن أقبحه وأشرهه ما كان مصروفاً إلى طلب اللذة، واتباع الشهوة الرديئة. وقد يحمل هـذا الخلق صاحبه على الفجور، وارتكاب الفواحش، وكثرة التبذل، وقلة الحياء، ويكسبه عادات رديئة. وهو بكل أحد قبيح؛ إلا أنه بالأحداث والمترفهين والمتنعمين أقل قبحاً.

ومنها القساوة؛ وهى خلق مركب من البغض والشجاعة. والقساوة هى التهاون بما يلحق الغير من الألم والأذى. وهذا الخلق مكروهٌ من كل أحد إلا من الجند وأصحاب السلاح والمتولين للحروب، فإن ذلك غير مكروه منهم إذا كان فى موضعه.

ومنها الغدر، وهو الرجوع عما يبذله الإنسان من نفسه ويضمن الوفاء به. وهـذا الخلق مستقبح وإن كان لصاحبه فيه مصلحة ومنفعة، وهو بالملوك والرؤساء أقبح ولهم أضرّ؛ فإن من عرف من الملوك بالغدر لم يسكن إليه أحد ولم يثق به، وإذا لم يسكن إليه فسد نظام ملكه.

ومنها الخيانة، وهو الاستبداد بما يؤتمن الإنسان عليه من الأموال والأعراض والحرم، وتمالك ما يستودع، ومجاحدة مودعة. ومن الخيانة أيضاً طىُّ الأخبار إذا ندب لتأديتها، وتحريف الرسائل إذا تحملها، وصرفها عن وجوهها. وهذا الخلق، أعنى الخيانة، مكروه من جميع الناس، يثلم الجاه ويقطع وجوه المعايش.

ومنها إفشاء السر، وهذا الخلق مركب من الخرق والخيانة، فإنه ليس بوقور من لم يضبط لسانه، ولم يتسع صدره لحفظ ما يستسر به.

ومن قبيل السر أخذ الودائع، وإفشاؤه نقيصته على صاحبه، فالمفشى للسر خائن. وهذا الخلق قبيح جدا وخاصة بمن يصحب السلاطين ويداخلهم.

ومن قبيل إفشاء السر النميمة، وهو أن يبلغ إنساناً عن آخر قولاً مكروهاً. وهذا

الخلق قبيح جدا ؛ وإن لم يستتر أيضاً بما يسمعه أو يبلغه ، فنقله إلى من يكرهه قبيح ؛ لأن فى ذلك إيقاع وحشة بين المبلِّغ والمبلَّغ ، وذلك غاية التشرر .

ومنها الكِبر ، وهو استعظام الإنسان نفسه ، واستحسان ما فيه من الفضائل ، والاستهانة بالناس واستصغارهم ، والترفع على من يجب التواضع له . وهذا الخلق مكروهٌ ضارٌّ لصاحبه ، لأن من أعجبته نفسه لم يستزد من اكتساب الأدب ، ومن لم يستزد بقى على نقصه ، فإن الإنسان ليس يخلو من النقص ، وقلما ينتهى إلى غاية الكمال . وأيضاً فإن هذا الفعل يبغضه إلى الناس ، ومن أبغضه الناس ساءت حاله .

ومنها العبوس ، وهو التقطيب عند اللقاء وقلّة التبسم وإظهار الكراهية . وهذا الخلق مركب من الكبر وغلظ الطبع ، فإن قلة البشاشة هى استهانة بالناس ، والاستهانة بالناس تكون من الإعجاب والكبر ، وقلة التبسم ، وخاصة عند لقاء الاخوان ، تكون من غلظ الطبع . وهذا الخلق مُستقبح وخاصة بالرؤساء والأفاضل .

ومنها الكذب ، وهو الإخبار عن الشىء بخلاف ما هو به ، وهذا الخلق مكروه مالم يكن لدفع مضرّة لا يمكن أن تُدفع إلا به ، أو اجترار نفع لا غنى عنه ، ولا يوصل إليه إلا به ؛ فإن الكذب عند ذلك ليس بمستقبح ، وإنما يستقبح الكذب إذا كان عبثاً ، ولنفع يسير لاخطر له ، لا يفى بقباحة الكذب . والكذب يقبح بالملوك والرؤساء أكثر ، لأن اليسير من النقص يَشينهم .

ومنها الخبث ، وهو إضمار الشر للغير وإظهار الخير له ، واستعمال الغيلة والمكر والخديعة فى المعاملات . وهذا الخلق مكروه من جميع الناس إلا من الملوك والرؤساء ، فإنهم إليه مضطرون ، واستعمالهم إياه مع أضدادهم وأعدائهم غير مستقبح ، فأما مع أوليائهم وأصحابهم فإنه غير مستحسن .

ومن قبيل الخبث الحقد ، وهو إضمار الشر للجانى إذا لم يتمكن من الانتقام منه ،

فأخفى ذلك الاعتقاد إلى وقت امكان الفرصة . وهذا الخلق من أخلاق الأشرار ، وهو مذموم جدا .

ومنها البخل ، وهو منع المسترفد مع القدرة على رِفده . وهـذا الخلق مكروه من جميع الناس ، إلا أنه من النساء أقل كراهية ، بل قد يُستحب من النساء البخل . فأما سائر الناس فإن البخل يَشينهم ، وخاصة الملوك والعظماء ، فإن البخل أُبغض منهم أكثر مما أُبغض من الرعية والعوام ، ويَقدح فى ملـكهم ؛ لأنه يقطع الأطماع منهم و يبغضهم إلى رعيتهم .

ومنها الجبن ، وهو الجزع عند المخاوف والإحجام عما تُحذر عاقبته أو لا تؤمن مغبته . وهذا الخلق مكروه بجميع الناس ، إلا أنه للملوك والجند وأصحاب الحروب أضر .

ومنها الحسد ، وهو التألم بما يراه الإنسان لغيره من الخير ، وما يجده فيه من الفضائل ، والاجتهاد فى إعدام ذلك لغير ما هو له . وهذا الخلق مكروه وقبيح بكل أحد .

ومنها الجزع عند الشدة ، وهذا الخلق مركب من الخرق والجبن ، وهو مستقبح إذا لم يكن مُجدياً ولا مفيداً . فأما إظهار الجزع لتمحّل حيلة بذلك عند الوقوع فى الشدة ، واستغاثة مغيث ، أو اجتلاب مُعين فيما تغنى فيه المعاونة ، فغير مكروه ولا يعدّ نقيصة .

ومنها صغر الهمة ، وهو ضعف النفس عن طلب المراتب العالية ، وقصور الأمل عن بلوغ الغايات ، وأستكثار اليسير من الفضائل ، وأُستعظام القليل من العطايا ، والاعتداد به ، والرضى بأوساط الأمور وأصاغرها . وهذا الخلق قبيح بكل أحد ، وهو بالملوك أقبح ، بل ليس يستحق الملك من صغرت همته .

ومنها الجور ، وهو الخروج عن الاعتدال فى جميع الأمور ، والسرف والتقصير ، وأخذ الأموال من غير وجهها ، والمطالبة بما لا يجب من الحقوق الواجبة ، وفعل الأشياء فى غير مواضعها ولا أوقاتها ، ولا على القدر الذى يجب لا على الوجه الذى يجب .

***

ومن الأخلاق ما هو فى بعض الناس فضيلة وفى بعضهم رذيلة .

فمنها حب الكرامة ، وهو أن يُسَرَّ الإنسان بالتعظيم والتبجيل ، والمقابلة بالمدح والثناء الجميل . وهذا الخُلق محمود فى الأحداث والصبيان ، لأن محبته تحثهم على اكتساب الفضائل ، وذاك أن الحدث والصبى إذا مُدح على فضيلة ترى فيه كان ذلك داعياً له إلى الازدياد من الفضائل .

فأما الأفاضل من الناس ، فإن ذلك يعدُّ منهم نقيصة ، لأن الإنسان إنما يمدح على الفضيلة إذا كانت مستغربةً منه ، وإذا كان من أهل الفضل فليس ينبغى أن يُسر ، ولا يستغرب ما يظهر منه من الفضائل .

وكذلك الإكرام والتبجيل إن كان زائداً عن استحقاقه ، فإنه يجرى مجرى المَلَق ، والسرور بالملق غيرُ محمود ، لأنه من جنس الخَديعة .

ومنها حب الزينة ، وهو التصنع بحسن البزّة والمركوب والآلات وكثرة الخدم والحشم . وهذا مستحسن من الملوك والعظماء ، والأحداث الظرفاء ، والمتنعمين والنساء ؛ فأما الرهبان ، والزهاد والشيوخ وأهل العلم ، وخاصة الخطباء والواعظين ورؤساء المدن ، فإن الزينة والتصنّع مستقبح منهم ، والمُستحسن منهم لبس الشعر والخشن والمشى والحفا ولزوم المساجد وكراهية التنعم .

ومنها المجازاة على المدح ، وهومجازاة من يمدح الإنسان ويشكره فى المجالس والمحافل . وهذا الخُلق مستحسن من الملوك والرؤساء ، لأن ذلك يدعو الذى يمدح الإنسان إلى مدحه ، ويكسب الممدوح ذكراً جميلاً يبقى على الدهر .

ومن فضائل الملوك والرؤساء بقاء ذكرهم الجميل ، فأما محبتهم سماع المدح من المادح مواجهةً فذلك غير مُستحب ، لأنه من جنس الملَق ، وحب الملَق مكروه لأنه من قبيل الخديعة . فأما إيثارهم انتشار الذكر والمدح وتداول الناس له وبقاؤه بعدهم فإن ذلك محمود منهم . فمجازاة المادح مستحسنة من الملوك ، ومَنعهم مستقبح وضار ، لأن ذلك يدعو إلى

ذمهم، وذمهم يبقى أيضاً على الدهر، فينشر لهم ذكر قبيح، وذلك مكروه للملوك والرؤساء . فأما أصاغر الناس فمحبتهم جزاء المادح لهم غير مستحسن، لأن المادح إذا مدح الدنىء من الناس فإنما يخدعه، فإذا أجازه أعتقد أنه أستنقذ منه تلك الجائزة .

وكثير من الناس إذا مُدحوا بما ليس فيهم يبادرون إلى مجازاة المادح، فيكونون قد وضعوا الشيء فى غير موضعه، وهم إذا صرفوا ذلك الشيء إلى الضعفاء وأهل المسكنة كان أجمل بهم وأليق .

ومنها الزهد، وهو قلة الرغبة فى الأموال والأعراض، والأدخار والقِنْية، وإيثار القناعة بما يقيم الرَّمق، والأستخفاف بالدنيا ومحاسنها ولذاتها، وقلة الأكتراث بالمراكب العالية، وأستصغار الملوك وممالكهم، وأرباب الأموال وأموالهم .

وهذا الخلق مستحسن جدا، ولكن من العلماء ورؤساء الدين والخطباء والواعظين ومن يرغّب الناس فى المعاد والبقاء بعد الموت؛ فأما الملوك والعظماء فإن ذلك غير مستحسن منهم ولا لائق بهم؛ لأن الملك إذا أظهر الزهد فقد صار ناقصاً، لأن ملكه لا يتم إلاّ باحتشاد الأموال والأعراض وادخارها، ليذبّ بها عن ملكه، ويصون بها حوزته، ويفتقد بها رعيته، وذلك مضاد للزهد. فإنْ ترك الادخار بكل ملكه صار معدوداً فى جملة النقص من الملوك، الحائدين عن طريق السياسة .

***

فهذه الأقسام التى ذكرناها هى أخلاق جميع الناس :

أما المحمودة منها المعدودة فضائل فقلما يجتمع كلها فى إنسان واحد .

وأما المذموم منها المعدود نقائص ومعايب . فقلما يوجد إنسان يخلو من جميعها حتى لا يكون فيه خلق مكروه، وخاصة من لم يَرُضْ نفسه ويؤدبها؛ فإن من لم يتعمل لضبط نفسه ويعتقد عيوبه لم يَخْلُ من عيوب كثيرة، وإن لم يُحس بها ولم يفطن لها . وإذا كان الأمر على ما ذكرنا كان أولى الأمور بالإنسان أن يفتقد أخلاقه، ويتأمل عيوبه .

ويجتهد في إصلاحها ونفيها عن نفسه ، ويتبع الأخلاق الحسنة ويحمل نفسه على اعتيادها والتخلق بها ، فإن الناس إنما يتفاضلون على الحقيقة بفضائلهم ، لا كما يعتقد الجهال والعامة أنهم يتفاضلون بأحوالهم وأموالهم وكثرة الذخائر والأعراض ، فإن أكثر الناس إنما يتفاخرون بالذخائر والأموال والآلات ، ويعظمون أبداً الأغنياء وذوي الأموال ، ولا يترتب بعضهم على بعض إلا بكثرة الأموال أو الجاه المكتسب بالمال .

وليس كثرة الأموال مما يتفاضل به الناس ، بل كثرة الأموال إنما تتفاضل بها أحوال الناس .

فأما نفوسهم فليست تكون أفضل من نفوس غيرهم بكثرة الأموال ، وذلك أن الفاجر السفيه الجاهل الشرير ، وإن حوى أموالاً عظيمة ، فليس يكون أفضل من العفيف الحكيم العالم الخيّر ، وإن كان فقيراً ، بل إنما يكون بكثرة الأموال أغنى منه .

فأما الفضل ، فليس يكون أحد أفضل من أحد إلا بكثرة الفضائل فقط ، فإن اجتمع للإنسان مع الأخلاق الجميلة والعادات المُستحسنة الغنى والثروة فلعمري إنه يكون أحسن حالاً من الفاضل المعتز ، لأن من سعادات الإنسان أيضاً ، وخاصةً إذا كان فاضلاً عادلاً عفيفاً ، أن يصرف ماله في وجوهه ، وينفقه في حقه ، ويتفقد به من يجب تفقده ، ويسعف به أهل المسكنة ، ولا يقعد عن حق يجب عليه ، ولا مكرمة تزيد في محاسنه .

فأما الناقص الجاهل السيئ العادات ، فإن الغنى ربما زاده نقصاً وأضاف إلى معايبه ، فإنه لا يعد بخيلاً من لا مال له ، وإن كان البخل في طبيعته ، فليس يظهر ذلك منه ، وما لم يظهر منه فليس يُعاب به ، لأن الإنسان إنما يُعاب بما يظهر منه ، فإذا كان غنيًّا ذا مال ويسار ولم يَجُدْ به ظهر بخله ، فيصير المال جالباً عليه هذا العيب .

وأيضاً فإن أكثر الفجور والمحظورات والشهوات الرديئة ليست تنال إلا بالأموال .

فالفقير ، وإن كان في شيمته الفجور ، فليس يكاد يظهر ذلك منه ، فإذا كان ذا مال تمكّن من شهواته فتظهر عيوبُه . فقد يكون الغنى مكسباً لصاحبه عيوباً ونقائص .

وقد يكون الفقر مفيداً صاحبه فضائل ومحاسن . فليس يتفاضل الناس على الحقيقة بالأموال والأعراض ، وإنما يتفاضلون بالآداب والمحاسن الذاتية .

فحقيق بالإنسانُ أن يسوس نفسه السياسة المستحسنة ، ويسلك بها الطريقة المحبوبة ، فإنه بذلك يكونُ محبباً إلى الناس ، مقبولا عندهم ، معظما فى نفوسهم ، مفضلا (على) غيره ، موقراً عند الرؤساء والملوك ، مقبول القول ، عريض الجاه .

وهذه خير من[1] الرياسة المكتسبة بالأموال ، لأن المال قد تلحقه الجوائح ، فإذا فارق صاحبه سقطت منزلته من نفوس الناس ، وساوى العامة والسوقة ، لأنه إذا رأس بالمال ، فالمعظَّم له هو ماله لا نفسه ، فإذا زال ذلك المال ، لم يبق له شىء يعظم من أجله .

وليس كذلك الفاضل النفس ، المُهذب الأخلاق ، فإن هذا رياسته بفضائله ، وفضائله غير مفارقة له ، فهو رئيس ما دامت ، ومعظَّم لِذَاتِه لا لشىء من الخارج .

ولأن الراغب فى سياسة نفسه ، المؤثر تهذيبَ أخلاقه ، إذا نُبه على خلق مذموم يجده فى نفسه وأحب اجتنابه ، ربما صعب عليه الانتقال عنه من أول وهلة ، وربما لم ينل التخلص منه ، ولم يطاوعه طبعه .

وربما استحسن أيضاً خلقاً محموداً لا يجده لنفسه وآثر التخلق به ، ولم تستجب له عادته ، ولم يصل إلى مراده . فوجب أن نرسم للراغبين فى السياسة المحمودة طرقاً يتدربون بها ، ويتدرجون فيها ، حتى ينتهوا إلى مرادهم ، من اعتياد الأخلاق الجميلة والانطباع بها ، وتجنب الأخلاق القبيحة ، والتفرغ منها . فنذكر من أجل ذلك طريق الارتياض بالأخلاق ، والتعمل لاعتيادها .

وقد ذكرنا فيما تقدم أن سبب اختلاف الأخلاق فى الناس ، هو اختلاف قوى النفس الثلاث فيهم ، وهى الشهوانية والغضبية والناطقة . وأن صلاح الأخلاق هو

(١) فى الأصل : « وهذه هى الرئاسة » .

تذليل الشهوانية منها والغضبية ، وتمييز عادات النفس الناطقة ، واستعمال المحمود من أفعالها . وطريق التدرج لاستعمال العادات الجميلة ، والعدول عن العادات المستقبحة هو التدرج فى تذليل هاتين القوتين .

أما النفس الشهوانية فالطريق إلى قمعها أن يتذكر الإنسان فى أوقات شهواته ، وعند شدة القَرَم إلى لذاته ، أنه يريد تذليل نفسه الشهوانيه ، فيعدل عما تاقت نفسه إليه من الشهوة الرديئة إلى ما هو مستحسن من جنس تلك الشهوة ، ومتفق على ارتضائه ، فيقتصر عليه ، فإن بذلك الفعل تنكسر شهواته . ثم يعللها ويعدها ، فإن سكنت وإلا عاود الفعل من الوجه المستحسن ، فإنه إذا فعل ذلك وكرّر فعله كفّت النفس ، وإذا استمرت على هذه الحال ألفت النفس هذه العادة ، وأنست بها ، واستوحشت مما سواها .

وينبغى لمن أراد قمع نفسه الشهوانية أن يكثر من مجالسة الزهاد والرهبان والنساك ، وأهل الورع والواعظين ، ويلازم مجالس الرؤساء وأهل العلم ، فإنّ الرؤساء (وأهل العلم) ، وخاصة رؤساء الدين ، يعظمون من كان معروفاً بالعفة ، ويستزرون من كان فاجراً متهتكاً .

وملازمته لهذه المجالس تضطره إلى التصون والتعفف والتجمل لأولئك ، لئلا يستزروه ويغضوا منه ، ويلحق برتبة من يعظم فى المحافل .

وينبغى له أيضاً أن يديم النظر فى كتب الأخلاق والسياسة ، وأخبار الزهاد(١) والنساك وأهل الورع ، ويجب عليه أن يتجنب مجالس الخلعاء والسفهاء والمتهتكين ، ومن يكثر الهزلَ واللعب .

وأكثر ما يجب عليه تجنبه السكر ! فإن السكر من الشراب يثير نفسه الشهوانية ويقويها ، ويحملها على التهتك ، وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها .

وذلك أن الإنسان إنما يرتدع عن القبائح بالعقل والتمييز ، فإذا سَكِرعدم ذلك الذى كان يردعه عن الفعل القبيح ، فلا يبالى أن يرتكب كل ما كان يتجنب فى صحوه .

(١) فى أكثر النسخ : « الزهاد والرهبان والنساك » .

فأولى الأشياء بمن طلب العفة ، هجر الشراب بالجملة[١] . ويتجنب مجالس المجاهرين بالشراب والسكر والخلاعة . ولا يظنن أنه إن حضر تلك المجالس واقتصر على اليسير من الشراب لم يستضر به ؛ فإن هذا غلط ، وذلك أن من يحضر مجالس الشراب ليس تنقاد له نفسه إلى القناعة بيسير الشراب ، بل إن حضر مجالس الشراب ، وكان فى غاية العفة تاركاً للشرب متمسكا بالورع ، حملته شهوته على التشبه بأهل المجلس ، وتاقت نفسه إلى التهتك[٢] ، وما أكثر من فعل ذلك ، وتهتك بعد الستر والصيانة .

فشر[٣] الأحوال لمن طلب العفة حضورُ مجالس الشراب ومخالطة أهلها ، والاستكثار من معاشرتهم .

وينبغى لمن أراد قمع نفسه الشهوانية أن يُقل من استماع السماع ، وخاصة النسوان والشابات منهن المتصنعات ، فإن للسماع قوة عظيمة فى إثارة الشهوة ، فإذا انضاف إلى ذلك أن تكون المسمعة مشتهاةً متعملة لاستمالة العيون إليها ، اجتمع على السامع حوادث كثيرة ، فربما لم يستطع دفع جميعها عن نفسه . والأولى لمن همَّ بقهر الشهوة أن يتجنب السماع ، وإن لم يكن منه بدٌّ ولم تستجب نفسه إلى هجره بالكلية ، فليقتصر على استماعه من الرجال ومن لا مطمع للشهوة فيه . والإقلالُ منه خير وأصون للمتعفّف .

فأما الطعام فينبغى أن يعلم أن غايته هو الشبع لدفع ألم الجوع ، وفاخر الطعام ودنيئه جميعاً مشبعان . فليس للمبالغة فى تجويد الطعام كبير حظ . والأولى هو التوسط فى أنواع المآكل ، وأن يكون من الجنس الذى نشأ عليه الإنسان واعتاده وألفه .

---

(١) وفى نسخة ابن عربى بعد الجملة : « وإن لم يمكنه أن يقتصر فليقتصر على اليسير منه ويكون فى الخلوات أو مع من لا يحتشمه » .

(٢) فى الأصل : « الفتك » ، وفى نسخة ابن عربى . « تاقت نفسه إلى الفعل وما هو أكثر من ذلك وتهتك بعد الستر والصيانة » .

(٣) فى نسخة ابن عربى : « فشيمة أحوال من طلب العفة عدم حضور مجالس الشراب ومخالطة أهلها . . . الخ » .

على أن شهوةَ الطعام والنَّهم فيه ، وإن كان من الأخلاقِ الرديئة ، فهو أسهلها وأهونها ، وليس يكسب صاحبها من العار ما تكسبه محبة الشراب والمباضعة ، ومعاشرة النسوان ، ومصاحبة الأحداث المتهيئين للفواحش ، فإن ذلك في غاية القبح . وشهوة المآكل أقل قبحاً منه ، وأخف على فاعله ، وهو مع ذلك قبيح ، والاستهتار به وكثرة النهم والشره إليه مكروه . وطريق التدرج إلى الاقتصاد فى الطعام هو أن يبادر ذو الشهوة إلى أي شيء وَجده من المآكل ، فإن كان المشتهى الذي تاقت نفسه إليه حلواً ، فإلى أيّ حلاوة وجدها ؛ وإن كان غير ذلك ، فإلى ما شابهه في الطعم ؛ فانه إذا تناول من الطعام ما يشبه ذلك المشتهى فى الطعم ، فإن شهوته تسكن ونفسه تكفُّ .

وينبغى لمن أحب العفة أن يكون أبداً متيقظاً ذاكراً لما يلحق الفاجر والنّهم والشَّره والمتهتّك من القباحة والعار[1] ، ويجعل ذلك ديدنه وشعاره ؛ فإن نفسه تبغض الشهوات (الرديئة) ، وتشتاق إلى التعفف والقناعة ، وتطرب عند العدول عن الفواحش مع القدرة عليها ، وترتاح لما ينشر عنها ، ويبلغها عن الناس من الثناء الجميل على صاحبها . فهذ الذى ذكرنا هو طريق إلى رياضة النفس الشهوانية وتذليلها وقمعها ، وهو طريق الارتياض بالعادات المحمودة المرضية ، فيما يتعلق بالشهوات واللذات .

فأما النفس الغضبية ، فإن طريق قمعها وتذليلها هو أن يصرف الإنسان همته إلى تفقد السفهاء الذين يسرع إليهم الغضب فى أوقات طيشهم وحدتهم ، وتسفههم على خصومهم ، وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم ، فإنه يشاهد منهم منظراً شنيعاً يأنف منه الخاصىّ والعامىّ ، وأن يتذكر ما شاهد منهم فى أوقات غضبه ، وعند جنايات خدمه وعبيده ، وعند ذنوب إخوانه وأودّائه ، في جميع محاوراته ومعاملاته ، فإنه إذا تذكر ما كان استقبحه من السفهاء ، انكسرتْ بذلك سَورة غضبه ، وأحجم عما يهم بالإقدام عليه من

(١) فى النسخة البطر يركية : « والعار فى الدنيا وشدة العذاب فى دار الآخرة ويجعل ذلك ديدنه وشعاره ويداوم على فكر ذلك فأن نفسه ... الخ » .

السبّ والوثوب ؛ وإن لم يكف بالكلية قصر ، ولم ينتهِ إلى غاية الفحش .

وينبغى لمن أراد أن يقهر نفسه الغضبية أن يذكر فى أوقات غضبه على من يؤذيه أو يجنى عليه ، أنه لو كان هو الجانى ، ما الذى كان يستحق أن يقابل على جنايته ؟ فإنه بهذا الفعل يعتقد أن دركَ تلك الجناية ، أو أرش ذلك الأذى يسيرٌ جدا ، فإذا اعتقد ذلك كانت مقابلته للجانى والمؤذى بحسب اعتقاده ، فلا يسرف فى الانتقام ، ولا يفحش فى الغضب . فإذا فعل ذلك دائماً وجعله ديدناً ، وتفقّد معايب السفهاء ، ومَن يسرع إليه الغضب ، لم يَبعُد أن تنكسر نفسه الغضبية وتنقاد له ، فإذا استمر على ذلك مدةً صار خلقاً وعادة .

وينبغى لمن رغب فى تذليل نفسه الغضبية أن يتجنب حمل السلاح (فى مجالس الشراب) ، وحضور مواضع الحروب ومقامات الفتن ، و (يتجنب) مجالسة الأشرار ومعاشرة السفهاء ، ومخالطة الشرط ، فإن هذه المواضع تكسب القلب قساوة وغلظة ، وتعدمه الرأفة والرحمة ، فتقسو لذلك نفسه الغضبية ، فإذا كان يريد تذليلها وتسكينها وجب أن يجعل مجالسته لأهل العلم وذوى الوقار والشيوخ والرؤساء والأفاضل ، ومن يقل غضبه ويكثر حلمه ووقاره .

وينبغى له أيضاً أن يتجنب المسكر من الشراب ، فإن السكر يهيج النفس الغضبية ، أكثر مما السكر يهيج الشهوانية ، ولذلك ربما يسرع إلى العربدة ، والوثوب على جلسائه ، والاستخفاف بهم وسبهم ، وذكر أعراضهم بالقبيح ، بعد أن كان يتحنن عليهم ويتردّد إليهم ، ولا يكون بين الوقتين إلا بمقدار ما يستحكم به السكر .

فالسكر مثير القوة الغضبية ومقوٍّ لها ، فمن أراد أن يسكن نفسه الغضبية فلا بدّ من أن يتجنب السكر ، وإن تمكن من هجر الشراب البتة فهو أصلح لقهر النفس الغضبية والشهوانية جميعاً .

وينبغى لمن أراد تذليل قوته الغضبية والشهوانية أن يستعمل فى جميع ما يفعله

الفكر ، ولا يقدم على شيء إلا بعد أن يروّى فيه ، ويجعل الفكرة واتباع الرأى ديدناً وعادة ، فإن الرأى وجودة الفكر يقبحان له السفه وسرعة الغضب والانهماك فى الشهوات واتباع اللذات ؛ فإذا استقبح ذلك انحجم عنه وعدل إلى ما يقتضيه الرأى والفكر ، فإن لم يرتدع بالكلية فلا بد أن يؤثر ذلك فيه فيقتصر عما يريد التسرع إليه .

وملاك الأمر فى تهذيب الأخلاق وضبط النفس الشهوانية والنفس الغضبية هى النفس الناطقة ، فإن بهذه النفس تكون جميع السياسات . وهذه النفس إذا كانت قوية متمكنة من صاحبها أمكنه أن يسوس بها قوتيه الباقيتين ، ويكف نفسه عن جميع القبائح ، ويتبع أبداً محاسن الأخلاق . وإذا لم تكن هذه النفس قوية فى صاحبها ، فكانت مغمورة خافية ، فأول ما ينبغى أن يعتمده فى سياسة أخلاقه أن يروض هذه النفس ويقويها .

وتقوية هذه النفس إنما تكون بالعلوم العقلية ، فإنه إذا نظر فى العلوم العقلية ودقق النظر فيها ، ودرس كتب الأخلاق والسياسة وداوم عليها ، تيقظت نفسه وتنبهت من شهوتها ، وانتعشت من خمولها ، وأحست بفضائلها ، وأنفت من رذائلها . وذلك أن هذه إنما تضعف وتخفت إذا عدمت الفضائل والمناقب ، واستولت عليها الرذائل . فإذا اقتنت الفضائل ، واكتسبت الآداب ، تيقظت من غشيتها ، وثارت من سكرها ، وقويت بعد ضعفها .

وفضائل هذه النفس هى العلوم العقلية ، وخاصةً ما دق منها . فإذا ارتاض الإنسان بالعلوم العقلية شرفت نفسه ، وعظمت همته ، وقوى فكره ، وتمكن من نفسه ، وملك أخلاقه ، وقدر على إصلاحها ، وانقاد له طبعه ، وسهل عليه تهذيبه ، وأذعنت له القوى الغضبية والشهوانية ، وهان عليه قمعها وتذليلها .

فأول ما ينبغى أن يبدأ به من يحب سياسة أخلاقه النظر فى كتب الأخلاق والسياسات ، ثم الارتياض بعلوم الحقائق ، فإنّ أشرف ما تكون النفس إذا أدركت

حقائق الأمور ، وأشرفت على هيآت الموجودات . وإذا شرفت نفس الإنسان وعلت همته ترقى إلى مراتب أهل الفضل .

ومما يُصلح النفس الناطقة ويقويها أيضاً مجالسةُ أهل العلم ومخالطتهم ، والاقتداء بأخلاقهم وعاداتهم ، وخاصة أصحاب علوم الحقائق ، والمتيقظين منهم ، المستعملين فى جميع أمورهم ما تقتضيه علومهم وتوجيه عقولهم .

فأما تمييز عادات النفس الناطقة واستعمال ما حسن فيها واطراح ما قبُح ، فذلك إنما يمكن ويسهل أيضاً إذا راض نفسه الناطقة . فإن النفس الناطقة إذا ارتاضت بالعلوم الحقيقية وتيقّظت وتشرّفت أنفت من العادات المستقبحة وتنزهت عن التدنس بها ، فيهون حينئذ على صاحبها تجنب ما يكره من عاداتها ، ويغلب عليه استحسان الأخلاق الجميلة والتخلق بها .

وقد تبين من جميع ما ذكرنا أن طريق الارتياض بالأخلاق المحمودة ، والتصنع لاعتيادها ، واتباع المحمود المرضى منها ، واجتناب المذموم والمستقبح ، وتذليل قوة الشهوة الغضبية وضبطها وقهرها ، هو إصلاح النفس الناطقة وتقويتها وتحليتها بالفضائل والآداب والمحاسن . فإن ذلك هو آلة السياسة ومركب الرياضة .

ومن لم يتمكن من اكتساب العلوم العقلية والإمعان فيها ، أو تعذر عليه ذلك ، فليبذل جهده فى تدقيق الفكر ، ومجاهدة النفس ، وتمثيل ما بين عادته القبيحة والجميلة ، وينظر أيهما أجدى عليه وأيهما أنفع له ، وأيهما أحمد عاقبة وأبقى على الأيام . فإنه إذا صدق نفسه وجد شهواته ولذاته إنما هى ملذة وقت استعمالها فقط . فأما بعد مفارقتها فليست باقيةً عليه ولا نافعة له . ويجد عارها وشَيْنها باقياً على الدهر ، متداولاً بين الناس ، يعاب به ويُزرى عليه بقبحه . وكذلك شدة الغضب والتسرّع إلى الانتقام والسبّ والفحش ، فإنه إذا انجلت غَمْرته ، وسكنت سَوْرته ، تأمل أمره ورأى ما فعله وجده قبيحاً ولم يجده مُجْدِياً ولا مفيداً . وقد صار ما فعله عند الغضب نقيصةً يوصم بها ، ومعرّة يسبّ بها . وربما

ارتكب فى الغضب جنايات يعاقب عليها ويؤدب من أجلها .

وكذلك العادات المكروهة من عادات النفس الناطقة أيضاً ، تجدها غير نافعة ولا مجدية ، وذلك أن الحسد والحقد والخبث وأمثال هذه لا ينتفع بها صاحبها ، وإن انتفع بالخبث والشر فشر منفعة ، ومع ذلك هو ضار له . فإن من تشرر قصده الناسُ بالشر ، واستعدوا لأذيته ، وتعملوا للإضرار به ، وتوقوه واحترزوا منه ، وكرهوا نفعه ، وقصروا عنه وجوه الخير ، واجتهدوا فى ذلك . وما أسوأ حال من هذه صفته .

فمستعمل الشر والخبث سيئ الحال يضره من شره أكثر مما ينفعه . فإذا حاسب الإنسان نفسه وأجال فكره وتمييزه ، علم أن الضرر فى مساوئ الأخلاق أكثر من النفع ، وأن الذى يعده منها نفعاً فليس هو بنفع على الحقيقة ؛ هو يسير جدا غير باقٍ ولا مستمر ، فإن هذا اليسير الذى يعده نفعاً لا يفى بالضرر الكثير والعار الدائم المتصل .

ويعلم أيضاً أن الشر والخبث يجلبان عليه الشر ويوحشان منه الناس . فإذا دام ذلك وأكثر منه ، قوى فى نفسه اتباع محاسن الأخلاق ، وسهل عليه اطراح مساوئها ومقابحها ، وغلب عليه الخير والسداد ، ونزع من العيب والعار . فإذا فعل ذلك دائماً لم يلبث أن يصلح أخلاقه ، ويحسن طريقته ، ويهذب شمائله ، ويلحق برتبة أهل الفضل ، ويتميز عن أهل الدنس والنقص .

وينبغى لمن أراد سياسة أخلاقه أن يجعل غرضه من كل فضيلة غايتها ونهايتها ، ولا يقنع منها بما دون الغاية ، ولا يرضى إلا بأعلى درجة ؛ فإنه إذا جعل ذلك غرضه كان خريًّا أن يتوسط فى الفضائل ، ويبلغ منها رتبة مرضية ، وإن فاتته الدرجة العالية . فأما إن قنع بالتوسط لم يأمن أن يقصر عن بلوغه فيبقى فى أدون المراتب ، ويفوته المطلوب ، ولا يطمع أبداً فى التمام .

فهذا الذى ذكرنا هو طريق الارتياض بمكارم الأخلاق ، ومنهج التدرج فى محمود

العادات . فإذا أخذ الإنسان نفسه بهِ وأكثر بمراعاتهِ (١) وتعهده ، صار له من الفضائل ديدناً ، والمحاسن له خلقاً وطبعاً .

***

وقد بقى علينا أن نذكر أوصاف الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق ، وطريقته التى يصل بها إلى التمام ، فنقول :

الإنسان التام هو الذى لم تفته فضيلة ، ولم تشِنه رذيلة . وهذا الحد قلما ينتهى إليه إنسان ، فإذا انتهى الإنسان إلى هذا الحد كان بالملائكة أشبه منه بالناس ؛ فإن الإنسان مضروب بأنواع النقص ، مستولىً عليهِ وعلى طبعهِ ضروب الشر ، فقلّما يخلص من جميعها ، أو تسلم نفسه من كل عيب ومنقصة ، وتحيط بكل فضيلة ومنقبة .

إلا أن التمام ، وإن كان عزيزاً بعيدَ التناول ، فإنه ممكن ، وهو غاية ما ينتهى إليهِ الإنسان ، ونهاية ما هو منتهٍ له . وإذا صدقت عزيمة الإنسان وأعطى الاجتهاد حقه كان قميناً بأن ينتهى إلى غايته التى هو متهيئٌ لها ، ويصل إلى بغيته التى تسمو نفسه إليها .

فأما تفصيل أوصاف الإنسان التام ، فهو أن يكون متفقداً لجميع أخلاقه ، متيقظاً لجميع معايبه ، متحرزاً من دخول نقص عليه ، مستعملاً لكل فضيلة ، ومجتهداً فى بلوغ الغاية ، عاشقاً لصورة الكمال ، مستلذا لمحاسن الأخلاق ، متيقظاً فى الأصل ، متبغضاً لمذموم العادات ، معنيا بتهذيب نفسه ، غير مستكثر لما يقتنيه من الفضائل . مستعظماً اليسير من الرذائل ، مستصغراً للرتبة العليا ، مستحقراً للغاية القصوى ، يرى التمام دون محله ، والكمال أقل أو صافه .

فأما الطريقة التى توصله إلى التمام وتحفظ عليه الكمال ، فهى أن يصرف غايته إلى النظر فى العلوم الحقيقية ، ويجعل غرضه الإحاطة بماهيات الأمُور الموجودة ، وكشف عللها وأسبابها ، وتفقد غاياتها ونهاياتها ، ولا يقف عند غاية من علمه إلا ورنا بطرفه إلى مافوق

(١) كذا فى الأصل . ولعله : « أكثر مراعاته أو أكثر الأرتياض بمراعاته » .

تلك الغاية ، ويجعل شعاره ليله ونهاره قراءة كتب الأخلاق ، وتصفح كتب السير والسياسات ، وأخذ نفسه باستعمال ما أمر أهل الفضل باستعماله ، وأشار المتقدمون من الحكماء باعتياده ، ويشد أيضاً طرفاً من أدب اللسان والبلاغة ، ويتحلى بشيء من الفصاحة والخطابة ، ويغشى أبداً مجالس أهل العلم والحكمة ، ويعاشر دائماً أهل الوقار والعفة .

هذا إن كان رعية وسوقة . فإن كان ملكاً أو رئيساً ، فينبغي أن يجعل جلساءه ومنادميه وغاشيته والمطيفين به كل من كان معروفاً بالسرو(١) والسداد ، موصوفاً بالأدب والوقار ، مخصصاً بالعلم والحكمة ، متحققاً بالفهم والفطنة ، ويقرّب مجالس أهل العلم ويبسطهم ، ويكثر مجالستهم والأنس بهم ، ويجعل تفرجه وتفكهه مذاكرتهم فى العلم وفنونه ، وسياسة الملك ووسومه ، وأخبار الحكماء وأخلاقهم ، وسير الملوك الأخيار وعاداتهم .

وينبغى للإنسان التام ولمن طلب التمام أيضاً أن يجعل لشهواته ولذاته قانوناً راتباً يقصد فيه الاعتدال ، ويجتنب السرف والإفراط ، ويعتمد من الشهوات واللذات المعتدلة ما كان من الوجوه المرتضاة المستحسنة ، ويأخذ نفسه بذلك ، ويحظر عليها الطمع فى لذة مكروهة أو شهوة مسرفة ، ويهجر أصحاب اللذات ومعاشرتهم ، وينقبض عن الخُلعاء ومخالطتهم ، ويُشعر نفسه أن الشهوة عدو مكاشح ، وخصم مكافح ؛ يريد أبداً ضرره وأذيته ، ويعتمد شينه وفضيحته ؛ فيناصب شهوته العداوة ، ويكاشفها بالمعاندة ؛ ويقمع أبداً سورتها ، ويكسر أبداً حدّتها ، ويقهر دائماً سورتها ؛ ويذلّل على التدريج عزها ، ويسكّن على الترتيب فورها ؛ فإنه إذا فعل ذلك كان خليقاً أن يملك نفسه ، وتنقاد له شهوته ، وينطبع بالعفة ، ويألف حسن السيرة .

ومتى أرخى لشهوته عنانها ، وسمح لها فى مرادها ، وأهمل سياستها ومراعاتها ، استطالت وشمخت ، ولم تلبث أن توهن صاحبها وتقوده وتحمله على ما يسوؤه ويغره ، فيصير بذلك بعيداً من التمام ، غير طامع فى الكمال .

---

(٢) السرو : المروءة والشرف .

وينبغى لمن يطلب التمام أن يعلم أنه لا سبيل له إلى بلوغ غرضه ما دامت اللذة عنده مستحسنة، والشهوة مستحبة. وهذه الحال صعبة جدا متعسرة على طالبها، بعيدة المأخذ. وهى على الملوك والرؤساء أصعب وأبعد، لأن الملوك والرؤساء أقدر على اللذات، وأشد على تمكن الشهوات.

واللذات لديهم معرضة، ولهم سجية وعادة. فمفارقتها عليهم متعذرة، وإعراضهم عنها كالشىء الممتنع، خاصة لمن قد نشأ على الانهماك فيها والتوفر عليها. إلا أن الملوك وإن كانوا أقدر على اللذات وأكثر اعتياداً لها فهم أعظم همماً وأعز نفوساً، والمحصل منهم إذا سمت نفسه إلى التمام الإنسانى، واشتاقت إلى الرياسة الحقيقية، علم أن الملك أحق أن يكون أتمّ أهل زمانه وأفضل من أعوانه ورعيته، فيهون عليه مفارقة الشهوات الرديئة، وهجر اللذات الدنيئة.

وينبغى لمن رغب فى سياسة أخلاقه، وسلك طريق الاعتدال فى شهواته، أن يجعل له قانوناً يقتصر عليه فى المآكل والمشارب، معروفاً بالكرم، وهو أن لا يستبد بالمأكل والمشرب وحده، بل يقصد أن يشرك فى مأكله من ذلك إخوانه وأودّاءه، إن رعية أو سوقة، وإن كان ملكاً أو رئيساً، فيجمع عليه غاشيته وندماءه، ويعم به أصحابه وأعوانه، ويتفقد بفضلاته أهل الفقر والمسكنة، وخاصة من سبقت له معرفة أو تقدمت له حرمة، ويصرف إلى ذلك حظا من عنايته؛ فإن أعتداد هؤلاء بما يصل إليهم من برّه أكثر من اعتداد حاشيته وأصحابه. وليظهر لمن يجتمع على مائدته، وعلى طعامه وشرابه، من إخوانه وأصدقائه ورعيته وندمائه، إن كان ملكاً أو رئيساً، أن جمعه لهم للأنس بهم والسرور بمعاشرتهم، لا ليكرمهم بطعامه وشرابه، ولا أنّ لذلك قدراً يعتدّ به. وليحترز كل الاحتراز من أن يبدو منه أمتنان بالطعام والشراب أو تبجُّح به، فإن ذلك يزرى بفاعله ويغض منه، ويوحش من يغشاه ويقطعهم عنه.

وقد يستحسن من الإنسان أيضاً، إذا كان مقلا، أن يواسى بطعامه إخوانه وإن

كان محتاجاً إليه ، ويستحسن منه أيضاً أن يواسى به الفقراء والضعفاء . وقد يستحسن أيضاً أكثر من ذلك أن يؤثر الإنسان بطعامه وشرابه غيره ، وإن كان شديد الاضطرار إليه وكان لا يقدر على غيره .

وينبغى لمن طلب السياسة التامة أن يستهين بالمال ويحتقره ، وينظر إليه بالعين التى يستحقها ، فإن المال إنما يراد لغيره وليس هو مطلوباً لذاته ، فإنه فى نفسه غير نافع ، وإنما الانتفاع بالأغراض التى تنال به ، فالمال آلة تنال بها الأغراض ، فلا يجب أن يعتقد أن اقتناءه وادخاره مفيد ، فإنه إذا ادخر وحرص عليه لم ينل صاحبه شيئاً من الأغراض التى هو بالحقيقة محتاج إليها ، فالمال مطلوب لغيره .

فينبغى للسديد الرأى العالى الهمة أن يزنه بوزنه ، فيكسبه من وجهه ، ويفرقه فى وجوهه ، ويكون مع ذلك غير متوانٍ فى اكتسابه ، ولا مقصر فى طلبه ؛ لأن عدم المال يضطر إلى التواضع لمن هو دونه إذا وجد عنده حاجته ، ووجود المال يغنيه عمن هو فوقه وإن دنت منزلته . ويكون أيضاً غير مدَّخر ولا متمسك به ، ويقصد الاعتدال فى تفريقه ، ويحذر من السرف والتبذير فى تخريجه ، ولا يمنع حقا يجب عليه ، ولا يصرفه فى شىء لا يجب ولا يشكر عليه . وإذا فرغ من حاجاته ، واستكفى من نفقاته ، وسد جميع خلله ، عاد إلى النظر فى أمره . فإن كان بقى من ماله بقية فاضلة عن مهمّ أغراضه أخرج منها قسطاً فجعله عُدة ليستظهر بها لشدة ، ويعدها لنائبة ، ثم عمد إلى الباقى ففرقه فى ذوى الحاجة من أهله وأقاربه وإخوانه وأهل مودته ، وجعل فيه قسطاً للضعفاء والمساكين وأهل الفاقة المستورين ، ويجعل اهتمامه بأفضاله وبره أكثر من اهتمامه بضروريانه ، فإن الضروريات تقوده كرهاً إليها ، والبر والنوافل متى لم يهتم بها ويشعر نفسه التزامها لم يسهل عليه فعلها ، لأن ضعف النفس وسوء الظن يصرفانه عنها . وإن لم يكن له جاذب من نفسه وداعٍ قوى من همته لم يقدم عليها ، وغلب عليه التوانى ؛ فإذا توانى عن البر والتفضل كان شحيحاً ضنيناً بخيلاً دنيًّا . وليس بتام بل ليس بالحقيقة

إنساناً من لم يكن له برّ يُعرف ، ولم تُنشر عنه أفعال توصف . هذا إن كان من أوساط الناس .

فأما الملوك والرؤساء فإنهم أحق بهذه السياسة ، ويجب أن يكونوا بذلك أشد عناية ، فيجبوا الأموال من حقها وواجبها ، ويصرفوا منها فى نفقاتهم ومؤوناتهم ، وأرزاق جندهم وأصحابهم ، قدرَ الكفاية من غير سرف ولا تقتير ، ويمدّوا منه شطراً لخوف عاقبة ، ويصرفوا الباقى فى طرق الكرم والجود ، ووجوه الخير والبر ، فيعطوا أهل العلم على طبقاتهم ، ويجعلوا لهم رواتب من خواص أموالهم ، ويدفعوا لمن هو مثابر على العلم والأدب ، ويبروا الضعفاء والمساكين ، ويتفقدوا الغرباء (والمنقطعين) ، ويهتموا بالزهاد وأهل النسك ، ويخصوهم بقسط من إفضالهم وإنعامهم ، ويعنوا بالصغير والكبير من رعيتهم ، وينفقوا فى مصالحهم شطراً من أموالهم ، فإن الملوك أولى بالكرم من الرعية ، وأحق بالجود من العامة .

وقد يستحسن أيضاً من المقلين والمقترين المواساة بالمال والإيثار به ، وإن كانوا محتاجين إليه . وكلما كانت حاجاتهم أشد كان ذلك الفعل أحسن .

وهذه الحال تستحسن إذا رأى الرجل أخاً من إخوانه ، أو صديقاً من أصدقائه (يختص به) قد دعته الحاجة إلى ما لا يقدر عليه لإصلاح شىء من شأنه ، أو لدفع محنة نزلت به ، وكان هو قادراً على ذلك القدر من المال ، فيبتدئ (حينئذ) بإسعافه عفواً من غير مسألة . وإن فعل هذا الفعل مع الغريب الذى لا يعرفه ، ولم تسبق له حرمة ولا مودة ، كان جميلاً مستحسناً .

وينبغى لمحب الكمال أن يشعر نفسه أن الغضبان بمنزلة البهائم والسباع ، يفعل مايفعله من غير علم ولا رويّة . فإذا جرى بينه وبين غيره محاورة أدت إلى أن يغضب خصمه ويسفهه عليه ، اعتقد فيه أنه فى تلك الحال بمنزلة البهائم والسباع ، فيمسك عن مقابلته ، ويحجم عن الاقتصاص منه . ألا يعلم أن الكلب لو نبح عليه لم يكن يستجيز مقابلته على نبحه ،

وكذلك البهيمة لو رمحته لم تستحسن عقوبتها ، لأنها غير عالمة بما تصنعه . إلا أن يكون جاهلاً سفيهاً ، فإن من السفهاء من يغضب على البهيمة إذا رمحته ، ويوجعها ضرباً إذا آذته . وربما عثر السفيه فشتم موضع عثرته ورفسها برجله .

فأما الحليم الوقور فلا يستحسن شيئاً من ذلك ، إذا استشعر من خصمه أنه بمنزلة البهائم حال الغضب ، صار هذا الاستشعار منه طريقاً إلى ضبط النفس الغضبية وزَمها ، فإن آذاه مؤْذٍ بغير سفه ، فيؤَدى ذلك الأذى إلى حال تغضبه ، أنف أيضاً من الغضب مع استشعاره أن الغضبان والبهيمة سواء ، فيعدل حينئذٍ إلى مقابلة مؤْذيه بما يقتضيه الرأى (السليم) من حيث لا يظهر فيه غضب ولا سفه .

وينبغى لمحب الكمال أيضاً أن يعود نفسه محبة الناس أجمع ، والتودد إليهم ، والتحنن عليهم ، والرأفة والرحمة لهم ، فإن الناس قبيل واحد متناسبون ، تجمعهم الإنسانية ، وحلية القوة الإلهية هى فى جميعهم وفى كل واحد منهم ، وهى النفس العاقلة . وبهذه النفس صار الإنسان إنساناً ، وهى أشرف جزأى الإنسان اللذين هما النفس والجسد ، فالإنسان بالحقيقة هو النفس العاقلة ، وهى جوهر واحد فى جميع الناس ، والناس كلهم بالحقيقة شىء واحد وبالأشخاص كثيرون .

وإذا كانت نفوسهم واحدة ، والمودة إنما تكون بالنفس ، فواجب أن يكونوا كلهم متحابين متوادين ، وذلك فى الناس طبيعة ، لو لم تقدهم النفس الغضبية ، فإن هذه النفس تحبب لصاحبها الترؤس فتقوده إلى الكبر والإعجاب ، والتسلط على المستضعف ، واستصغار الفقير ، وحسد الغنى ، وبغض ذوى الفضل ، فتتسبَّب من أجل هذه الأسباب العداوات ، وتتأكد البغضاء بينهم .

فإذا ضبط الإنسان نفسه الغضبية ، وأُنقاد لنفسه العاقلة ، صار الناس كلهم له إخواناً وأحباباً ، وإذا أعمل الإنسان فكره رأى أن ذلك واجب ، لأن الناس إما أن يكونوا فضلاء أو نقصاء ، فالفُضلاء يجب عليه محبتهم لموضع فضلهم ، والنقصاء يجب عليه رحمتهم لأجل نقصهم .

فيحق لمحب الكمال أن يكون محبًّا لجميع الناس، متحنناً عليهم، رءوفاً بهم، وخاصة الملك والرئيس، فإن الملك ليس يكون ملكاً ما لم يكن محبا لرعيته رءوفاً بهم، وذلك أن الملك ورعيته بمنزلة رب الدار وأهل داره، وما أقبح رب الدار أن يبغض أهل داره، ولا يتحنن عليهم، ولا يحب مصالحهم.

وينبغى لمحب الكمال أن يجعل همته فعل الخير مع جميع الناس، وإنفاق ما يفضل من ماله فيما يبقى له الذكر الجميل بعد موته، ويتحرز من فعل الشر، فإنه إذا حاسب نفسه علم أن من يفعل الشر إنما يفعله لخير يعتقد أنه يصل إليه بذلك الشر. وربما كان غالطاً وربما كان مصيباً. وإذا علم أن الأمر على هذه الصفة، كان واجباً أن يطلب الخير الذى يرومه من طريق غير طريق التشرر[1]، إذا كان هو الغرض المطلوب لا فعل الشر.

فأما إن كان تشرره لشفاء غيظ يلحقه، فليعلم أنه إذا سكن غيظه وجد ذلك المقصود بالشر غير مستحق لذلك الفعل. ففعل الشر قبيح، وخاصة بمن قد جمع الفضائل، إلا أن يكون ذلك الشر تأديباً على جرم، أو اقتصاصاً من جان، فإن هذه الحال مستحبة محمودة، بل لا تعد شرًّا، لأن ذلك الشر إنما يصل إلى الجانى فقط، ويكون منه نفع عام لجميع الناس، بأن يرتدع به أمثاله من الجناة، فتكون المنفعة فيه أكثر، فمن أجل ذلك لا يعدّ شريراً.

وإذا اعتمد الإنسان فعل الخير وألفه، وتجنب الشر واستوحش منه، أنف من الأخلاق المكروهة التى تعد شرًّا، كالحسد والحقد والخُبث والخديعة والنميمة والغيبة والوقيعة، وأمثال هذه العادات. وإذ فكر العاقل المحصل فيها، علم أنها غير مجدية عليه نفعاً، وهى مع ذلك تَشينه وتقبح سيرته، وإذا كان محبًّا للتمام مستشرفاً للكمال، كان واجباً عليه تجنب هذه الأخلاق (المذمومة).

وينبغى لمحب الكمال أن يعتقد أنه ليس شىء من العيوب والقبائح خافيا عن

(١) التشرر: تكلف الشر.

الناس ، وإن اجتهد صاحبها فى سترها ، فلا تطمع نفسه فى ارتكاب فعل قبيح يظن أنه ينكتم عن الناس حتى لا يقف عليه أحد .

ويجب أن يعلم أن الناس بالطبع موكلون بتتبع عيوب الناس وتعييرهم بها ، وذلك فى الناس غريزة ، والسبب فيه أن الإنسان ما لم يبلغ التمام ، فليس يخلو من تقصير يعاب به ، ويسوءه أن يكون غيره أفضل منه ؛ فهو يسر أن يكون الناس كلهم نقصاء ليساووه فى النقص ، فهو أبداً يتتبع معايب الناس ويعيرهم بها ليرى الناس أنه أفضل ممن فيه ذلك العيب ، ويشعر نفسه أيضاً ذلك لتطيب بما فيها من العيب ، فليس شىء من العيوب يخاف عن الناس وإن اعتمد ستره .

وقد يظن كثير من الملوك والرؤساء أن عيوبهم مستورة عن الناس غير بادية ، وذلك لموضع هيبتهم وعظم سطوتهم ، ويستشعرون أن حاشيتهم وخواصهم لا يجسرون على إظهار أسرارهم ، إن وقفوا على شىء منها . وهذا نهاية الغلط ، لأن خواص الملك وحاشيته ، كما أنهم عنده ثقات أمناء ، كذلك لكل واحد منهم خاص وثقة يخرج إليه أسراره . والذى لا يستر أسرار نفسه فمحال أن يستر عنه أسراره غيره .

وهذه الحال طريقة إلى انتشار معايب الملوك الذين يظنون أنها مستورة ، والعلة فى ظنهم أن عيوبهم مستورة ، هو أنهم لا يسمعون أحداً يذكرها ، ولا أحداً يتنصح إليهم بها ، فيظنون أنها خفية . فإذا أحب الإنسان أن يعلم أن عيوبه غير خافية ، فَلْيعُد إلى نفسه فينظر هل يعرف لأحد عيباً كان يستره ويخفيه ، فإنه يجد للناس عنده عيوباً كثيرة قد اجتهدوا فى سترها وحرصوا على صونها ، ومنهم من يظن أنها خفية ، ومنهم من يعلم أنها قد انتشرت بعد الستر . فإذا علم أنه عارف بأسرار كثيرة من الناس كانت مستورة ، فالواجب أن يعتقد أن عيبه غير خاف ولا منكتم ، وأن الناس يعرفون من عيوبه أكثر مما يعرف هو من عيوبهم .

فينبغى لمن أحب الكمال أن يعتقد أن عيوبه ظاهرة وإن اجتهد فى إخفائها ،

وليس بتام من عُرف له عيب. ولا طريق إلى التمام إلا باجتناب العيوب بالكلية، والتمسك بالفضائل فى سائر الأمور. وهذه الرتبة غاية تمام الإنسانية، ونهاية الفضيلة البشرية، وواجب على كل إنسان الاجتهاد فى بلوغها، واستفراغ الوسع فى الوصول إليها، لأن التمام مطلوب لذاته، والنقص مكروه لعينه.

وأحق الناس بطلب هذه المرتبة، وأولاهم بالتحمل لبلوغ هذه المنزلة، الملوك والرؤساء، لأن الملوك والرؤساء أشرف الناس وأعظمهم قدراً. وما أقبح بالشريف العظيم القدر أن يكون ناقصاً؛ فالملوك إذاً ينبغى أن يكونوا أشد الناس حرصاً على بلوغ الكمال، لأن الكامل من الناس الجامع للفضائل متوثب بالطبع على الناقص من الناس. فالإنسان التام رئيس بالطبع. (و) إذا كان الملك تاما جامعاً لمحاسن الأخلاق، محيطًا بجميع المناقب، كان ملكا بالطبع، وإذا كان ناقصاً كان ملكا بالقهر، وما أولى بالملك أن يرغب فى الرياسة الحقيقية لا بالتى تكون بالقهر، وبالشرف الذاتى لا ما هو بالوضع. فالواجب أن يصرف الملك همّته إلى اكتساب الفضائل، واقتناء المحاسن، ويطلب الغاية من المكارم، ويستصغر الكبير منها، حتى يحوز جميعها، ولا يرضى بالنهاية حتى يزيد عليها، فإنه إن رضى برتبة فوقها رتبة لم يصر أبداً إلى التمام. وإن أبعد الناس من التمام مَن رضى لنفسه بالنقصان. فإذا طلب الملك الكمال فأول ما يجب أن يعتاده عِظم الهمة، فإن عظم الهمة تصغر فى عينه كُل رذيلة، وتُحسن له كل فضيلة.

وإذا عظمت همة الملك سلم من الإعجاب بملكه، ورأى نفسه وهمته أعظم قدراً من أن يستكثر ذلك المُلك، وإذا احتقر الملكُ مُلكه الذى به عِزّه وعظمته، طلب لنفسه ما يعظمها بالحقيقة، وليس تعظم النفس إلا بالفضائل.

ثم ينبغى له أن يكره المَلَق ويُبغض المتملقين وينهاهم عن تلقيه به.

وملاك أمره أن يتعرف عيوبه حتى يمكنه توقّيها والتحرز منها، وهو أبدا فى الملوك

صعب ، لأن الإنسان بالطبع يخفى عليه كثيره من عيوبه . فالذى يخفى على الملوك أكثر ، لإعجابهم بمحاسنهم وعظم مرتبتهم .

وأيضاً فإن الرعية والسوقة يبكتون بعيوبهم ويعيرون بها فهم يعرفونها ، والملوك لا يجسر أحد على تبكيتهم ، ولا يقدم أحد على نصحهم وتبكيتهم على عيوبهم ، لأن الناس أجمع يقصدون التقرب إلى الملوك وتملقهم ، فلا يقولون لهم إلا ما يحبون ، لينالوا الحظوة عندهم . فعيوب الملوك أبداً خفية عنهم .

وينبغى للملك إذا أحب أن يتنزّه من العيوب ويتطهر من دنسها أن يتقدّم إلى خواصه وثقاته ، ومن كان يسكن إلى عقله وفطنته من خدمه وحاشيته ، فيأمرهم أن يتفقّدوا عيوبه ونقائصه ويُطلعوه عليها ويُعلموه بها .

وينبغى له أن يتلقى مَن يهدى إليه شيئاً من عيوبه بالبِشْر والقُبول ، ويظهر له الفرح والسرور بما أطلعه عليه ، بل المستحسن منه أن يُجيز الذى يوقفه على عُيوبه أكثر مما يُجيز المادح على المدح والثناء الجميل ، ويشكر من يُنبهه على نقصه ، ويتحمل لومته بفعله . فإنه إذا لزم هذه الطريقة وعُرف بها يسرع أصحابه وخواصُّه إلى تنبيهه على عيوبه ، وإذا نُبه على ما فيه من النقص أنِف منه واستشعر أن أولئك سيعيرونه به ويُصغرونه من أجله . فيلزمه حينئذ أن يأخذ نفسه بالتنزّه عن العيوب ، ويَقهرها على التخلص من دنسها .

فإذا فعل ذلك ، وتوَفر على اقتناء الفضائل ، وألزم نفسه التخلق بالمحاسن ، ولم يرضَ من منقبة إلا بغايتها ، ولم يقف عند فضيلة إلا وطلب الزيادة عليها ، واجتهد فيما يُحسن سياسة نفسه عاجلاً ، ويبقى له الذكر الجميل آجلا ، لم يلبث أن يبلغ الغاية من التمام ، ويرتقى إلى النهاية من الكمال ، فيحوز السعادة الإنسانية والرياسة الحقيقية ؛ ويبقى له حسن الثناء مؤبداً ، وجميل الذكر مخلداً .

فقد أتينا على صفة الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق ، والطريقة التى تؤديه إلى هذه الرتبة ، وتحفظ عليه هذه المنزلة .

وقدّمنا ما ينبغى تقديمه من سياسة الأخلاق وتهذيب النفوس . فما أولى من نظر فى هذا القول وتصفّحه ، وفهم مضمونه وتدبّره ، أن يأخذ نفسه باستعمال ما بُيّن من فصوله ، ويسوس أخلاقه بالتطرق إلى الذى قُنن فى تضاعيفه ، ويجتهد كل الاجتهاد فى تكميل نفسه ، ويستفرغ غاية الوسع فى طلب تمامه . فما أقبح النقص بالقادر على التمام ، والعجز من المُستعد لنيل الكمال .

وهذا حين نختم القول فى تهذيب الأخلاق . والحمد لله حمدَ الشاكرين ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً[١] .

---

(١) فى النسخة المخطوطة البطريركية « والمجد لواهب العقل دائماً أبداً آمين » .

فهرست الموضوعات

صفحة

صفحة

أصحاب الرسائل

تصحيح أخطاء

ص	س	خطأ	صواب
٢	٩	١٢٢٣	١٣٢٣
١٩	١٥	مُرَّه	مُرَّه
٢٠	٢٠	أهلِ	أهلُ
٢٨	١٢	تبيغ	نبيع
٢٩	١٠	والفرصةَ	والفرصةُ
٢٩	١٣	الفرصةُ	الفرصةِ
٣١	١٣	المعجبَة	المعجِبة
٣١	١٩	والسكت والسكوت	والسكت والسكون
٣٣	١٣	لم ومواضع	ومواضع
٣٤	١٤،١٣	مَقت	مُقِت
٣٨	١٢	« الأمير	الأمير
٤٠	١٧	أوفى	أوفر
٤٤	١٦	استمالها	استعملها
٥٧	١٥	جمع	جمع
٥٨	١٩	جزأ	أجزأ
٧٩	١٣	وأشياء	أشياء
٩٤	٢٦	مزرة	مزراة
٩٥	١٩	العرف	العفو
٩٩	١٩	بفظ	بلفظ
١٠٣	٣	وتفتحه	وتقطعه
١١٤	١٨	بغداد	دمشق

ص	س	خطأ	صـــواب
١٢٩	٨	فَنائه	فِنائه
١٤١	١٣	زباد	ز ياد
١٤٨	١٤	الرحلة	الرجلة
١٧٤	٢٤	من ابن	وابن
١٨٨	٩	ورُدَّ	ورَدٍّ
٢١٦	١٠	وأملتَ	وأملتُ
٢٢٥	١٥	يضيفها	يضفها
٢٢٧	١٩	فيها	فيهما
٢٣٥	٢١	العَصم	العُصم

وثمة أخطاء أخرى يسيرة ، لا لبس معها والصواب فيها بين ، آثرنا إغفالها .

استدراك

فى ص ٢٣ ، ٤١ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ اضطربت الأرقام التى إلى أعلى الـكلمات وفى الحواشى وردها إلى الصواب غير عسير .

